معاوية بن أبى سفيان

شخصيته وعصره

تأليف الدكتور

على محمد محمد الصَّلَّابى

الطبعة الأولى للناشر
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٦١٦٧
الترقيم الدولى: I.S.B.N
977-6142-65-6

دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع
١٨ شارع مطر - أحمد حلمى - شبرا مصر - ت: ٠١٠١٠٦٨١٢٥
newandalus@hotmail.com

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾

[النساء: ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وقد صدر منها السيرة النبوية.. عرض وقائع وتحليل أحداث، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، والحسن بن على، رضى الله عنهم جميعًا، وقد سميت هذا الكتاب معاوية بن أبى سفيان، شخصيته وعصره، وهو جزء من كتابنا الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، فيتحدث الكتاب عن اسمه ونسبه وكنيته وأسرته، وعن إسلام أبى سفيان والد معاوية رضى الله عنه، وعن هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضى الله عنهما، وعن إخوان وأخوات معاوية، ويتحدث عن زوجات معاوية وأولاده وعن إسلام معاوية رضى الله عنه، وشىء من فضائله، وعن رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ، وعن الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى شأن معاوية مدحًا وذمًا، ويتكلم الكتاب عن دور بنى أمية فى عهد رسول الله ﷺ، وعهد الخلافة الراشدة، ويشير إلى متى

بدأ نجم معاوية فى الظهور وعن ولايته على دمشق وبعلبك والبلقان فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلاقته بعمر رضى الله عنهما، ويبين الكتاب جهود معاوية رضى الله عنه على جبهة الشام، وعن سنّ نظام الصوائف والشواتى فى عهد عمر، وعن تكوين أسطول إسلامى فى البحر، وعن أعمال معاوية فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنهما، فيوضح فتوحاته فى عهده، وإصراره فى الطلب من عثمان السماح له بالغزو البحرى، وعن غزوه لقبرص واستسلام أهلها وطلب الصلح ثم نقض القبارصة للصلح ثم فتحها، ويتعرض الكتاب لحقيقة الخلاف بين أبى ذر ومعاوية وموقف عثمان رضى الله عنهم منه، ويرد الكتاب عن الشبهات التى ألصقت بعثمان رضى الله عنه كاتهامه بإعطاء أقاربه من بيت المال، وتعيينه لأقاربه فى مناصب الدولة على حساب المسلمين، ويتطرق الكتاب لأسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه كالرخاء وأثره فى المجتمع وطبيعة التحول الاجتماعى فى عهده وظهور جيل جديد، واستعداد المجتمع لقبول الشائعات، ومجىء عثمان بعد عمر رضى الله عنهما، وخروج كبار الصحابة من المدينة، والعصبية الجاهلية، وتوقف الفتوحات بسبب موانع طبيعية أو بشرية، والمفهوم الخاطىء للورع، وظهور جيل جديد من الطامحين، ووجود طائفة موتورة من الحاقدين، والتدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضى الله عنه، واستخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للنَّاس، ودور عبد الله بن سبأ فى تحريك الفتنة، وموقف معاوية بن أبى سفيان فى الفتنة، ويتحدث عن مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأى معاوية فى ذلك، وعن مقتل عثمان وموقف الصحابة منه، وعن معاوية فى عهد على بن أبى طالب رضى الله عنهما، ويتطرق الكتاب إلى اختلاف الصحابة فى الطريقة التى يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان، وإلى معركة صفين وإلى تسلسل الأحداث، ابتداءً من إرسال أم حبيبة أم المؤمنين بنت أبى سفيان لنعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام، ودوافع معاوية رضى الله عنه فى عدم بيعة على رضى الله عنه ورده على أمير المؤمنين علىّ، وعن تجهيز أمير المؤمنين على لغزو الشام، وإرساله جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل لدعوته للبيعة، ومسيرة أمير المؤمنين على إلى الشام، وخروج معاوية إلى صفين، وبداية المناوشات بين

الطرفين، والموادعة بينهما ومحاولات الصلح ثم نشوب القتال ثم الدعوة إلى التحكيم. ويتكلم الكتاب عن مقتل عمّار بن ياسر رضى الله عنه وأثره على المسلمين، وعن المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة، ومعاملة الأسرى عند أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وعن عدد القتلى، وعن تفقد أمير المؤمنين على للقتلى وترحمه عليهم، وعن موقف لمعاوية مع ملك الروم فى تلك الأحداث، وعن قصة باطلة فى حق عمرو بن العاص بصفين، وعن إصرار قتلة عثمان رضى الله عنه أن تستمر المعركة، وعن نهى أمير المؤمنين على شتم معاوية ولعن أهل الشام، وعن التحكيم، وعن نص وثيقة التحكيم وعن قصة التحكيم المشهورة وبيان بطلانها، وعن حقيقة قرار التحكيم، ومكان انعقاد المؤتمر، وأشار الكتاب إلى إمكانية الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض المنازعات بين الدول الإسلامية، هذا وقد بينت موقف أهل السنة والجماعة من تلك الحروب، وتكلمت عن تغيير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين، وعن المهادنة بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما، وعن استشهاد أمير المؤمنين على واستقبال معاوية خبر مقتله، ثم تحدثت عن المشروع الإصلاحى الكبير فى عهد الحسن بن على والذى توّج بوحدة الأمة وذلك بتنازل الحسن بالخلافة لمعاوية رضى الله عنهما، وأشرت إلى مراحل الصلح وشروطه وأسبابه ومعوقاته، ونتائجه، كما وضحت الفقه الكبير فى مقاصد الشريعة وفقه المصالح والمفاسد وفقه الخلاف الذى تميز به الحسن بن على والذى بنى عليه مشروعه الإصلاحى العظيم، والذى ترتب عليه دخول الأمة الإسلامية فى مراحل جديدة تمّ فيها بيعة معاوية رضى الله عنه من جميع الصحابة الأحياء وأبناء الأمة. ووضحت صفات معاوية رضى عنه والتى من أهمها، العلم والفقه، والحلم والعفو، والدهاء والحيلة، وعقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب، وتواضعه وورعه، وبكاؤه من خشية الله، ونقلت ثناء العلماء على معاوية، وأشرت إلى دخول دولة بنى أمية فى خير القرون والتى قال فيها رسول الله ﷺ **«خيركم قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»**(1)، وتحدثت عن عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول ﷺ فى فضائل أهل الشام، وعن أهل الحل والعقد فى

(1) البخارى، رقم (٦٦٩٥).

عهد معاوية رضى الله عنه، وعن الشورى، وحرية التعبير وعن سياسته الداخلية، من الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة، وأبنائهم، وحسن علاقته مع الحسن والحسين وابن الزبير وابن عباس وغيرهم رضى الله عنهم، وبينت بيان بطلان تعميم معاوية سب أمير المؤمنين علىٍّ على منابر الدولة الأموية، وزعم بعض المؤرخين بأن معاوية سمّ الحسن بن على، فأثبتت بالحجج العلمية والبراهين الساطعة بطلان ذلك أيضًا، وتعرضت لموقف معاوية من قتلة عثمان بعد ما أصبح أمير المؤمنين، وكذلك مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه، وموقف عائشة أم المؤمنين من مقتله. كما أوضحت حرص معاوية على مباشرة الأمور بنفسه وتوطين الأمن فى خلافته، فتحدثت عن مجلسه فى يومه، وعن الدواوين المركزية التابعة له، كديوان الرسائل، وديوان الخاتم، وديوان البريد، وعن نظام الحجابة، والحرس، والشرطة، وعن حسن اختياره للرجال والأعوان وعن استخدامه للمال فى تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب واتباعه سياسة الشدة واللين، وسياسة المنفعة المتبادلة بين بنى أمية ورعيتهم، واتخاذه سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته وجعل الناس يميلون إليهم، وعن اهتمامه بجهاز الاستخبارات، وبناء الجيش الإسلامى وتطويره، وعن فقهه الكبير فى سياسة الموازنات بين القبائل، والعشائر، وأعيان المجتمع وعن سياسته مع الأسرة الأموية، وتكلمت عن حياته فى المجتمع، وعن اهتماماته العلمية والتاريخية والشعرية واللغوية والعلوم التجريبية، وأفردت مبحثًا فى علاقته بالخوارج، ووسائله فى تحجيم دورهم وإضعافهم، وبينت النظام المالى فى عهده، ومصادر دخل الدولة، كالزكاة، والجزية، والخراج، والعشور، والصوافى، والغنائم، وعن النفقات العامة، كالنفقات العسكرية، والإدارية، والاجتماعية، واهتمامه بالزراعة والتجارة الداخلية والخارجية، والحرف والصناعات، وأثرت قضية الشبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية وناقشتها بعلم وإنصاف، كالتفرقة فى العطاء وكذبة إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص، وكالتوسع فى إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار، ومظاهر الترف عند الأمويين، وأفردت مبحثًا عن القضاء فى عهد معاوية، والدولة الأموية، وصلته بالعهد الراشدى وتخلى الخلفاء عن ممارسة القضاء وفصل

السلطات، ومرتبات القضاة وتسجيل الأحكام والإشهاد عليها، وأعوان القضاة، كالمنادى والحاجب، والترجمان أو المترجم، والمراقبة والمتابعة، وعن مصادر الأحكام القضائية فى العهد الأموى وعن اختصاص القضاة وذكرت أسماء أشهر القضاة فى عهد معاوية. كما أشرت إلى ميزات القضاء فى عهد معاوية والأموى عمومًا، وإلى خطاب عمر بن الخطاب إلى معاوية رضى الله عنهما فى القضاء، وتكلمت عن مؤسسة الشرطة فى عهد معاوية وواجباتها، كحماية الخليفة وولاة الأمصار ضد مناوئيهم فى الداخل، ومعاقبة المذنبين والخارجين عن القانون، وتنفيذ العقوبات الشرعية، وعن قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة كالحرس والعرفاء، وصاحب الاستخراج أو العذاب، وجهاز الحسبة، ونظام المراقبة، ومؤسسة الدرك، وتحدثت عن مؤسسة الولاة والإدارة فى عهد معاوية رضى الله عنه، وأهم الأقاليم التابعة لدولته وأسماء أشهر ولاته وأهم أعمالهم فى تلك الأقاليم، وعندما تحدثت عن المدينة النبوية ترجمت لشخصية أبى هريرة رضى الله عنه حيث توفى بها عام ٥٨ هـ أو ٥٩ هـ، وقد عاش فى عهد معاوية ما يقرب من ثمانى عشرة سنة، وقد تعرض هذا الصحابى الجليل لهجمة ظالمة من قبل أعداء الصحابة فى القديم والحديث، وتلقف تلك الاتهامات الباطلة مجموعة من المستشرقين فرأيت لزامًا علىّ أن أدافع عن هذا الصحابى الجليل الذى يعتبر من أكبر رواة السنة النبوية الشريفة، فعرفت به وبشىء من حياته، كعبادته وعفافه وحلمه وعفوه، واهتمامه بالعلم ورددت على الشبهات التى أثيرت حوله، والتى هدفها التشكيك فيما وصل إلينا من سنة رسول الله ﷺ وذلك بالطعن فى هذا الصحابى الجليل رضى الله عنه، وكان لسان حالى فى مجادلة أولئك الكذابين قول الشاعر:

وإذا اضطررت على الجدال ولم تجد ... لك مهربًا وتلاقت الصَّفان

فاجعل كتاب الله درعًا سابغًا ... والشرع سيفك وابد فى الميدان

والسنة البيضاء دونك جُنَّة ... واركب جواد العزم فى الجولان

واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ... فالصبر أوثق عدة الإنسان

واطعن برمح الحق كل معاند | لله درُّ الفارس الطعان
واحمل بسيف الصِّدق حملة | مخلص متجردًا لله غير جبان

هذا؛ وقد وصفت حركة الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه، وقدمت بين يدى حركة الفتوحات مقدمة تناقش الشبهات التى ألصقت كذبًا وزورًا وبهتانًا بحركة الفتوحات أن معاوية رضى الله عنه حمى وعزّز منجزات الموجة الأولى فى حركة الفتح التى قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فالموجة الثانية لحركة الفتوح هى التى بدأت فى عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعد لكى تبلغ أقصى اتساعها فى عهد الوليد بن عبد الملك، لقد وصفت ما قام به معاوية من حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية واهتمامه بفتح القسطنطينية، وتخطيطه الاستراتيجى للاستيلاء عليها، كاهتمامه بدور صناعة السفن فى مصر والشام وتقوية الثغور البحرية بهما، واستيلاؤه على الجزر الواقعة شرقى البحر المتوسط، وتحصينه أطراف الشام الشمالية، وقد قام بحصار القسطنطينية، وقد توفى أبو أيوب الأنصارى فى حصار القسطنطينية، وقد ترك أبو أيوب رضى الله عنه فى وصيته بأن يدفن فى أقصى ما يمكن من أرض العدو ، وهذه صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو فى نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل فى أرض العدو حيًا وميتًا، وكأنما لم يكفه ما حقق فى حياته فتمنى مزيدًا عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده فى مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

هذا؛ وقد استطاع معاوية رضى الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة برًا وبحرًا، وقد أرهق البيزنطيين وأذاقهم ألوان الضنك والخوف، وأنزل بهم خسائر فادحة بالرغم من كل ذلك لم يستطع اقتحام القسطنطينية بسبب عوامل عديدة سيراها القارىء فى الكتاب بإذن الله تعالى، وقد دخل معاوية فى علاقات سلمية مع الدولة البيزنطية وتم تبادل المراسلات، والخبرات، والسفراء فيما بين الدولتين الأموية والبيزنطية، وواصل معاوية فتوحاته فى الشمال الإفريقى، وانطلقت حملة معاوية بن حديج رضى الله عنه فى عهده، وبرز اسم عقبة بن نافع فى تلك الفتوحات وقام ببناء مدينة القيروان بتونس اليوم

وكان ذلك فى عـهد مـعاوية، وقد أصـبحت القيـروان مركـز الإشعاع الحـضارى الإسلامى بالمغرب وعاصمتها العلمية. وسيمضى القارىء مع الفتوحات فى الشمال الإفريقى حتى استشـهاد عقبة رحمه الله تعالى، وتحدثت فى فـتوحات معاوية فى الجناح الشـرقى للدولة الأموية فـى خراسـان وسجـستـان وما وراء النهـر، وعن فتـوحات السند فى عهـده ولخصت أهم الدروس والعبـر والفوائد من الفتـوحات والتى من أهمها، أثر الآيات والأحاديث النـبوية فى نفوس المجاهدين، وسنن الله فى الفتـوحات، كسنة الله فى الاتحاد والاجـتماع، وسنة الأخذ بالأسـباب، وسنة التـدافع، وسنة الله فى الظلم والظـالمين، وسنة الله فى المتـرفـين، وسنة الله فى الطغيـان والطغاة، وسنة التدرج، وسنة تغـيير النفـوس، والتخطيط الاستـراتيجى للفتوحات عنـد معاوية، وسياسته تجـاه الروم، وجبهة الشمال الإفـريقى، وجبهة سجـستـان وخراسـان وما وراء النهـر، وإدارته للشـورى فى حركـة الفتـوحات، ومركـزية القيـادة والإمداد فى إدارته، ونظام الألـوية والرايات واهتمـامه بالعـيون والبريد، والحدود البـرية للدولة، واهتمامه بالأسطول والحـدود البحرية، وبديوان الجند والعطاء، والأثر العلمى والاقتـصادى والاجتماعى فى عـهده، وتحدثت عن بعض كرامات المجاهدين فى عهده.

إن من فضائل الدولة الأموية فى عهد معاوية وعبد الملك وابنيه الوليد وسليمان الفتوحات الـواسعة التى تمت على أيديهم، والتى امتدت ديار الإسلام نـتيجة ذلك بين الصـين فى الشرق وبلاد الأندلس وجنوبى فـرنسا فى الـغرب. وكان الخلـفاء يرسلون أبناءهم إلى الجهـاد ويشهدون القتال، وكـان الصحابة وكبـار التابعين من ضمن تلك الجيوش، فحركة الفتوحات أشرفت عليها الدولة وتفاعل معها المجتمع الإسلامى بكل ألوانه من العلماء والفقهـاء والتجار والزهاد والعباد، وتحركت تلك الجيوش فى المشارق والمغـارب، كان الفاتحون لتلك الشعوب المتـرامية الأطراف قد جاءوهـا بالعدل والإحـسان ومطالب الروح ومطالب البـدن، وجاءوا إليـهم بدين الإسلام الذى يقرّر الإنسانية بمعناها الصحيح فى هذه الأرض؛ لذلك كان الإسلام سريع المدخل إلى نفوسهم، لطيف التخـلل فى الأفكار، قوى التأثير على الألباب

والعقول، وجاء الفاتحون لتلك الشعوب بالحقائق التى سعد بها أصحاب محمد وأسعدوا بها تلك الأمم، قال الشاعر:

الله أكبر إن دين محمد | وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعت به شمس الهداية للورى | وأبى لها وصف الكمال أفولا
والحق أبلج فى شريعته التى | جمعت فروعًا للهدى وأصولا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده | طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

لقد كانت الفتوحات الكبرى فى عهد معاوية والدولة الأموية دليلاً ملموسًا على حيوية الأمة وتفاعلها مع دين الله وحرصها على هداية الشعوب.

هذا؛ وقد تكلمت عن فكرة ولاية العهد والخطوات التى اتبعها معاوية لبيعة يزيد، من مشاورات، وحملات إعلامية، وقبول أهل الشام لبيعة يزيد، وبيعة الوفود، وطلب البيعة من أهل المدينة واعتراض عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير والحسين بن على رضى الله عنهم عن تلك البيعة، وعن أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد، كالحفاظ على وحدة الأمة، وقوة العصبية القبلية، ومحبة معاوية لابنه وقناعته به، وعن الانتقادات التى وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد، وعن المآخذ على فكرة ولاية العهد فى عهد معاوية، وعن الأيام الأخيرة من حياته وعن دعائه وهو فى سكرات الموت وقوله: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل ما لم يَرْجُ غيرك فإنك واسع المغفرة، ليس لذى خطيئة مهرب إلا إليك ثم مات.

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملى لوجهه خالصًا ولعباده نافعًا، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته، ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين ساهموا فى إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي

عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

الأخوة القرّاء الكرام، يسر المؤلف أن تصله ملاحظاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبه من خلال دور النشر، ويطلب من إخوانه الدعاء بظهر الغيب بالإخلاص والصواب ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

عنوان المؤلف

E_mail : abumohamed2@maktoob.com

الفصل الأول

معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه

من مولده حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وأسرته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

هو معاوية بن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصىّ بن كلاب أمير المؤمنين ملك الإسلام، أبو عبد الرحمن، القرشى الأموىُ المكى[1]، ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر[2]، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيبًا، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يحبو فيقول لوالدته: إن ابنى هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط، ثكلتُه إن لم يسد العرب قاطبة[3]، وعن أبان بن عثمان قال: كان معاوية يمشى مع أمه هند، فعثر، فقالت: قم لا رفعك الله، وأعرابى ينظر، فقال: لمَ تقولين له؟ فوالله إنى لأظنه سيسود قومه، قالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه[4].

ثانيًا: إسلام أبى سفيان والد معاوية رضى الله عنهما:

كان أبو سفيان من عتاة الجاهلية الذين حاربوا الإسلام . . وكتب السيرة النبوية وصفت أعماله ضد الدعوة الإسلامية إلا أن الله تعالى أراد الهداية له، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه رسول الله ﷺ فى فتح مكة وأعلن: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[5]، وفى هذا الإكرام النبوى الشريف لأبى سفيان لفتة تربوية، ففى تخصيصه ﷺ بيت أبى سفيان شىء يشبع ما تتطلع إليه نفس أبى سفيان، وفى هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه[6]، وكان هذا الأسلوب النبوى

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠).
(٢) الإصابة (٦/ ١٥١) .
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٨).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢١) .
(٥) البخارى رقم (٤٢٨٠).
(٦) المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣) .

الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب أبى سفيان، وبرهن له بأنَّ المكانة التى كانت له عند قريش لن تنتقص شيئًا فى الإسلام، إن هو أخلص له، وبذل فى سبيله[١]، وهذا منهج نبوى كريم، على العلماء والدّعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به فى تعاملهم مع الناس[٢]. وقد حسن إسلام أبى سفيان وشاهد المواقع وقدم خدمات جليلة للإسلام، فقد كان مع رسول الله ﷺ فى حنين، وشارك فى حصار الطائف وفقد إحدى عينيه فيها، وفى اليرموك فقد الثانية[٣]، وبعد ثقيف أرسله رسول الله ﷺ مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات[٤]ـ صنم ثقيف- وقد كانت اللات معظمة عند قريش كذلك، وكانوا يحلفون بها، وهذا دليل على تغلغل الإيمان فى قلب أبى سفيان رضى الله عنه، لقد أسلم أبو سفيان إذن بعد أن ظل حبه للرياسة وممارسته لها حائلاً بينه وبين الإسلام. وقد راعى رسول الله ﷺ هذه العوامل النفسية المؤثرة على نفس أبى سفيان ونفوس علية القوم من قريش بعد الفتح، فقد جعل من دخل دار أبى سفيان آمنًا، كما أعطاه من غنائم حنين مع غيره ممن سموا آنذاك بالمؤلفة قلوبهم[٥].

ولم ينس أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية، وحرص على مضاعفة جهده فى خدمة الإسلام، وقال عنه ابن كثير: من سادات قريش فى الجاهلية، وتفرَّد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه، وكانت له مواقف شريفة، وآثار محمودة فى اليرموك وما قبله وما بعده[٦].

وروى عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل واحد يقول: يا نصر الله اقترب، والمسلمون يقتتلون هم والروم، فذهبت أنظر فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد[٧]، وروى أنه كان يوم اليرموك يقف على الكراديس: فيقول الناس: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهمَّ هذا يوم من أيامك، اللهمَّ أنزل نصرك على عبادك[٨]، وقيل: مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع وثلاثين[٩]،

(١) قراءة سياسة للسيرة النبوية لمحمد رواس، ص (٢٤٥).
(٢) السيرة النبوية للصلاَّبى (٢/ ٤٩٧).
(٣) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٣).
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٩٥).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٢).
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٧).
(٧) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٣).
(٨)، (٩) المصدر نفسه، ص (٢٠٣).

وصلى عليه ابنه معاوية، وقيل: بل صلى عليه عثمان، وله ثلاث وثمانون، وقيل: كان له بضع وتسعون سنة[(١)].

ثالثًا: هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية رضى الله عنهما:

هى أم معاوية، أسلمت يوم الفتح، بعد إسلام زوجها أبى سفيان، فأقاما على نكاحهما، ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرِّجال، بايع النساء -وفيهنَّ هند بنت عتبة وكانت متنكرة، خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها، لما صنعت بحمزة- على ألا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن، وأرجلهن، ولا يعصين فى معروف، ولما قال النبىُّ ﷺ: ولا يسرقن، قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى ما يكفينى، ويكفى بنىَّ، فهل علىَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: خذى من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف، ولما قال: ولا يزنين، قالت هند: وهل تزنى الحرّة؟ ولما عرفها رسول الله ﷺ قال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت: نعم، فاعف عمّا سلف عفا الله عنك. وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلّها الله له، أو ذات محرم منه، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها: أنها قالت: لاِ والله! ما مست يد رسول الله يد امرأة قط[(٢)]. وروى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن الزبير إنه لما بايعت هند تكلمت فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، لتنفعنى رحمك يا محمد، إننى امرأة مؤمنة بالله، مصدقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله ﷺ: مرحبًا بك، فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض من أهل خباءٍ أحب إلىَّ أن يُعزوا من أهل خِبائك، قال: -وأيضًا والذى نفسى بيده-. قالت: ياً رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل ممسك، فهل علىَّ حرج أن أُطعم من الذى له عِيالنا، قال: لا أراه إلا بالمعروف[(٣)]. ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى

---

(١) االتبيين فى أتساب القرشيين، ص (٢٠٤). (٢) البخارى رقم (٥٢٨٨) مسلم رقم (١٨٦٦).
(٣) الطبقات الكبرى (٨/ ١٧٢)، البخارى رقم (٣٨٢٥).

بيتـها فجـعلت تكسر صنمًـا كان عندها حتى فلذته فلذة وهى تـقول: كنت منك فى غرور[1]، ولما رأت المسلمـين ببيت الله الحـرام قالت: والله مـا رأيت الله عُبـد حق عبادته فى هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قيامًا وركوعًا وسجودًا[2].

وكان لهند فى جاهليـتها موقف مع زينب بنت المصطفى ﷺ، فـقد كانت بمكة مع زوجها أبى العاص بن الربيع وأرسل النـبى ﷺ من يأتيه بها إلى المدينة، وكان ذلك بعد «بدر» ولم تجف دماء قريش بعد، وكانت «هند» قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها، وكانت تطوف على مجـالس قريش وأنديتها تُذكى نار الثأر، وتؤجج أوار الحرب، وفى الـطريق لقيت زينب بنت رسـول الله ﷺ، وكان قـد تسرَّب خـبر استـعدادها للخـروج لأبيهـا، فقالت هند: أى بنـت محمـد، بلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك!!.. أى ابنة عمى، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يعينك فى سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك، فعندى حاجـتك فلا تستحى منى، فإنه لا يدخل بين النساء ما يكون بين الرجال، تروى زينب رضى الله عنها ذلك، وتقول: ووالله ما أراها قالت إلا لتـفعل[3]. ثم يوم خـروج زينب يتعـرض لها رجال مـن قريش، يريدون إرجاعهـا، فتسقط من على ناقتـها وكانت حاملاً، فـتنزف، وتسمع هند، فتخرج مسـرعة وترفع عقيرتها فى وجه قومها: مـعركة مع أنثى عزلاء؟ أين كانت شجاعتكم يوم بدر؟ وتحـول بينهم وبين زينب وتضمها إليها وتمـسح عنها ما بها، وتصلح شأنها، حـتى استأنفت الخروج إلى أبيـها فى أمن وأمان[4]. وكانت هند امرأة حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة. ويروى أنها كانت قبل أبى سفيان عند الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش، له مجلس يأتيه ندماؤه فيدخلون بغير استئذان، فدخلتـه هند يومًا وليس فيـه أحد، فنامت فيه، وجـاء بعض ندماء الفاكـه فدخل البيت، ورأى هند نائمـة فخرج، فلقـيه الفاكـه خارجًا، ثم دخل فـوجد هند فى المجلس نائمة فقذفها بالرجل، فشرى[5] الأمر إلى أن اتفقوا على أن يتحاكموا إلى كاهن فى بعض النواحى، فحملها أبوها عتبة وخرج معهم الفاكه حتى إذا دنوا من الكاهن رآها أبوها متـغيرة مصـفرًا لونها، فخـلا بها وقال: يا بُنية مـالى أراك قد

---

(١) الطبقات (٨/ ١٧٢).

(٢) نحو رؤية جديدة للتاريخ، ص (٢٠٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٠٨)، فرسان من عصر النبوة، ص (٨٥٣).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٨).

(٥) فشرى: بمعنى عظم وتفاقم.

اصفرّ لونك وتغيّر جسـمك، فإن كنت قد ألممت بذنب بأخبرينى حتى أفلّ[1] هذا الأمر قبل أن نفتضح على رؤوس الناس. فقالت: يا أبتى إنى لبريئة، ولكنى أعلم أنا نأتى بشرًا يخطئ ويصـيب، فأخشى أن يخطئ فىّ بقـول يكون عارًا علينا إلى آخر الدهر. قال عتبة: فإنى سأختبره، فخبأ له حبة بُرّ فى إحليل مهر[2]، ثم ربط عليها، فلما أتى الكاهن قال: قد خبأت لك خبـيئًا فما هو؟ قال: ثمرة فى كَمَرة، قـال: بيِّن، قال: حـبة بُر فى إحليل مـهر. فـأجلسـوا هندًا بين نساء ثم سـألوا الكاهن، فقام فـضرب بيده بين كتفى هـند وقال: قومى حصانًا غـير زانية ولَتَلدَنَّ ملكًا يقال له معاوية، فوثب الفاكـه، فأخذ بيدها وقال: امرأتى، فنزعت يدها من يده وقالت: والله لأحرصنَّ أن يكون من غيرك، فتـزوجها أبو سفيان، وولدت له معاوية[3]. هذا وقد توفيت فى ولاية عمر بن الخطاب رضى الله عنه[4].

رابعًا: من إخوان وأخوات معاوية رضى الله عنه:

١ - **يزيد بن أبى سفيان:** وكان يقال له يزيد الخير، وهـو أفضل بنى أبى سفيان، أسلم يوم الفتـح وشهد حنينًا، وأعطاه النـبى ﷺ من غنائمها مـائة بعيـر وأربعين أوقيّة[5] واستعمله أبو بكر على أول الجيوش التى أرسلهـا إلى الشام وكانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتـحها ومساعدة الجيوش الإسلامـية الأخرى عند الضرورة، وكان جـيش يزيد أول الأمـر ثلاثة آلاف رجل، وقبل رحـيل جيش يزيـد أوصاه الخليفة أبو بكر وصـية بليغة عاليـة المستوى، تشتمل علـى حكم باهرة فى مجالى الحرب والسلم، وشـيعه ماشـيًا وأوصاه بما يأتى: إنى قد وليـتك لأبلوك وأجرِّبك وأخَرِّجك، فإن أحسنت رددتك إلى عـملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتـقـوى الله فـإنه يرى من باطنك مـثل الذى من ظاهرك، وإن أولـى الناس بالله أشدهم توليًـا له، وأقرب الناس من الله أشـدُّهم تقربًا بعـمله، وقد وليـتك عمل خالد[6]، فإياك وعبِّية الجاهلية[7] فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على

---

(١) أى : حتى أفك .

(٢) من اختبار الكاهن ، فإن عرف سألوه وإلا تركوه.

(٣) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢١٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢١٩).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٤).

(٦) يعنى خالد بن سعيد بن العاص وكان قد استعفى أبا بكر فأعفاه.

(٧) يعنى التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية.

جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشع فيها، وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم وأقْلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينّهم فيروا خَلَلَكَ[١]، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك[٢]، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم، ولا تجعل سرك علانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تخزُ عن المشير خبرك فتُؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الأستار، وأكثر حرسك، وبدِّدهم فى عسكرك، وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه فى غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النَّوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تَخَفْ من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعًا، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسّس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العبّاثين، وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له. قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعًا لولاة الأمر[٣]. ومن فوائد هذه الوصية:

- أن الولايات والمناصب ليست حقًا ثابتًا لأصحابها وإنما بقاؤهم فيها مرهون بالإحسان والنجاح فى العمل، ومن واجب المسئول الأعلى أن يَعْزلهم إذا أساؤوا، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد فى بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح فى العمل، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا، فيخل بمسئولته ويعرّض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع .

(١) يعنى لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك . (٢) ليروا قوة المسلمين .
(٣) الكامل لابن الأثير (٢/ ٦٤، ٦٥) .

- إن تقوى الله عـز وجل هى أهم عوامل النجاح فى العـمل، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم، فإذا اتقوه فى باطنهم فَحَرِىٌّ بهم أن يتقوه فى ظاهرهم، وبذلك يتجنب الوالى كل مظاهر الفسـاد والإفساد، التى تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التى لا تلتزم بتقوى الله تعالى.

- التحـذير من التـعصب للآباء والأجـداد والأقوام، فإن الـتعصب لـذلك قد يحـمل الإنسـان على الانحراف عن الـطريق المستـقـيم، إذا كان مـا عليـه الآباء والأجداد مخالفًا للاستقامة، إضـافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة وهى الأخوة فى الله .

- الإيجاز فى الموعظة فـإن كثير الكلام يـنسى بعضه بعضًـا، فيضيع المقـصود، ويغلب على السامع الإعجاب ببـلاغة المتكلم إن كان بليغًا عن استيـعاب ما يقول والاستـفادة من مواعظه، وإن لم يكن بلـيغًا فإن المـلل يأخذ بالسامع فـلا يعى ما يقول المتكلم.

- إذا أصلح المسئول نفســه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجًـا صالحًا للقدوة الحسنة فإن ذلك يكون سببًا فى صلاح من هم تحت رعايته .

- الإهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهراً ومخـبراً؛ مَظْهَرًا من ناحية إكمال أقوالها وأفعالها، ومَخْبَرًا من ناحية الخـشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى، فإن هذه الصلاة الكاملة يقـام بها ذكر الله فى الأرض، وتهـذّب السلوك، وتقوِّى القلوب، وتبعث على ارتياح النفوس، وتعتبر ملاذًا للمسلم عند الشدائد.

- إكرام رسل العدو إذا قـدموا مع الاحتراس منهم، وعدم تمكينهم من مـعرفة واقع الجيش الإسلامى، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتـحلى به المسلمون من مـكارم الأخلاق، ولكن لا يصل هذا الإكـرام إلى حد إطلاعهم على بطانة أمـور المسلمين، بل ينبغى إطلاعهم على قـوة جيش المسلمين ليُرهبوا بذلك أقوامهم[1].

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٩٤).

- الاحتفاظ بالأسرار، وعدم التهاون بإفشائها، خاصة فيما يتعلق بأمور المسلمين العامة، فـإن الحكيم يستطيع التعرف على الأمـور وإن تغيرت وجوهها ما دام سره حبيسًا فى ضميره، فإذا أفشاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها.

- إتقان المشـورة أهم من النظر فى نتائجـها، فإن المستـشار وإن كان حـصيف الرأى ثاقب الفكر، فإنه لا يستطيع أن يفيد من استشاره حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح، فـإذا أخفى المستشـير بعض تفاصيـل القضية فـإنه يكون قد جنى على نفسه، حيث قد يتضرر بهذه المشورة.

- إن على القائد وكل مسـئول أن يكون مخالطًا لمن ولى أمـرهم على مختلف طبـقاتهم ليـكون دقيق الخـبرة بأمـورهم، وفى هذا أكـبر الـعون له على تصـور مشـكلاتهم والمبادرة بإيجـاد الحلول لها، أمـا المسئـول الذى يعيش فى عـزلة ولا يختلط إلا بأفراد من كـبار رعيته، فإنه لا يصل إليه من المـعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء، وقد لا يكشفون له الأمور بكل تفصـيلاتها، فقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح.

- الاهتمام بأمـر حراسة المسلمين خـاصة من مكامن الخطر، واختـيار الحرّاس الأمناء من ذوى النباهة وعدم وضع الثقـة الكاملة بهم، بل لا بدَّ من الرقابة عليهم حتى لا يؤتى المسلمون من قبلهم.

- أن يسلك المسئول فى عقاب المخالف مسلكًا وسطًا، فـلا يتهاون فيترك عقوبة المستـحق، فإن ذلك يجـرِّئه على مزيد من المخالفـة، ويجرىْ غـيره على ارتكاب المخالفـات، فتسود الفـوضى وينفلت الأمر، ولا يشتد فى العـقوبة فينفِّر الـرعية، ويدفـعهم إلى التـسخط والتـحزب، بل تكون عـقوبتـه بحكمة واتزان بعـد النظر والتـروى بحيث تؤدى غـرضـها التـربوى بدون إثارة ضـجة، ولا دفع إلى النقـد والتسخط[1].

- أن يكون لدى المسئول يقظة وانتباه لكل مـا يجرى فى حدود المسئولية المناطة به حتى يشعر أفراد الرعية بأن هناك اهتمامًا بأمورهم فيزيد المحسن إحسانًا ويقتصر

---

(١) التاريخ الإسلامى (٩/ ١٩٥).

المسيء عن الإساءة، ولكن بدون تجسس عليهم، فإن ذلك يعتبر فضيحة لهم، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقـة الذى يربط المسئول بأفراد رعيتـه، من المودة والإعجاب والشكر على الجـميل، وهذا الخيط مـا دام قائمًـا فإنه يمنع أصـحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التى تفسد المجـتمع وتحدث الفوضى، فإذا انقطع ولم يكن هناك عـاصم من تقـوى الله تعـالى فإن أهـم الحواجـز التى تحـول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطمت، ويصعب بعد ذلك عـلاج الأمور لأنها تحتاج إلى قوة رادعة وهذه لها سلبياتها المعروفة.

- أن يحرص المسئول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة، وإن سمع منـهم ما يكره أحيـانًا من النقد والتـوجيـه، فإن ذلك يعود عليـه وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع، وأن لا يجـالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية فإن هؤلاء وإن أنس بكلامـهم وثنائهم فـإنهم يحـولون بينه وبين التـفكير فى الأمـور الجادة، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به وبمن ولى أمورهم.

- أن يصدق القائد فى لقاء الأعداء وأن لا يجبن، فإن جُبنه يسرى على جنده، فيقع بذلك الفشل والهزيمة، وفى غير الحرب أن يكون المسئول شجاعًا فى مواجهة المواقف، وأن لا يضعف فـيسرى ضـعفه على من هم تحت إدارتـه من العاملين، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج.

- أن يتجنب القـائد الغلول، وهو الأخذ من الغنيـمة قبل قـسمتـها، هذا فى مجال الحرب، وفى مجالات السلم أن يتجنب المسئول أية استفادة دنيوية من علمه لا تحل له شرعًا، مثل أخذ الهدايا التى يقصد لهـا دفعها الاستفادة من المسئول فى مجانبة الحق، فإن ذلك من الغلول، والغلول كـما جاء فى هذه الوصية يقرب إلى الفقر، ويدفع النصر.

ومن هذه الفوائد تتبين لنا عظمة الوصية التى أوصى بها أبو بكر رضى الله عنه أحد قـواده، وهى تبيـن لنا أنه كان يعـيش بفكره مع قضـايا المسلمين، وأنـه كان يتصـور ما قد يواجـهه قواده فـيحـاول تزويدهم بما ينفعهم فـى تلافى الوقوع فى المشكلات، وحلها إذا وقعت، وهذه الوصية وأمثـالها تسجِّل إضافة جديدة لمواقف

أبي بكر المتعددة[١]، وجاء في رواية أن أبا بكر رضي الله عنه لم ينس اللمسات الإنسانية في وصيته لجيش يزيد حيث وصاه بدستور المسلمين للحرب المكون من عشر نقاط تجسد إنسانية الحضارة الإسلامية وروحها المفعمة بالرحمة، والشفقة، وقد جاءت هذه الوصية على شكل مقتبس من رسول الله ﷺ، فقد قال: أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تفسدوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بعيرًا إلا لأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. اندفعوا باسم الله[٢].

وقد استفاد منها يزيد بن أبي سفيان غاية الاستفادة، ولما فتح الشام، في عهد عمر ولّى الفاروق يزيد فلسطين وناحيتها، ثم لما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، فلما مات معاذ بن جبل استخلف يزيد بن أبي سفيان، ثم مات يزيد فاستخلف أخاه معاوية، وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، وقيل: مات يزيد سنة تسع عشرة بعد فتح قيسارية، وقيل: بل مات قبل فتح قيسارية وإنما افتتحها معاوية[٣]. وقال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله البصري: جزع عمر على يزيد جزعًا شديدًا، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام[٤].

٢ ـ عتبة بن أبي سفيان: يكنى أبا الوليد، ولد على عهد رسول الله ﷺ ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، وحكى عنه أنه اعترضه إعرابي وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قال: لست به ولم تبعد. قال: فيا أخاه. قال: أَسْمَعْتَ فقل، قال: شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة، ويختص بالخؤولة[٥]، ويشكو إليك كثرة العيال، ووطأة الزمان، وشدة فقر، وترادف ضُرّ، وعندك ما يسعه ويصرف عنه بؤسه، أستغفر

(١) التاريخ الإسلامي (٩/ ١٩٦).

(٢) صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين، سلامة الهرفي، ص (٦٢)، نقلاً عن تاريخ الطبري (٣/ ٢٢٧).

(٣) التبيين في أنساب القرشيين، ص (٢٠٥). (٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٧)، قادة فتح الشام ومصر، ص (٩٩).

الله منك، وأستعينه عليك. قال: قد أمرنا لك بغناك، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك[1]، وكان خطيبًا فصيحًا، يقال: إنه لم يكن فى بنى أمية أخطب منه[2]، وأقام بمصر واليًا سنة ثم توفى بها، ودفن فى مقبرتها سنة أربع وأربعين وقيل سنة ثلاث وأربعين[3].

٣ ـ عنبسة بن أبى سفيان: يكنّى أبا عثمان، روى عن أبى أمامة قال: لما حضر عنبسة بن أبى سفيان الموت اشتد جزعه وجاءه الناس يعودونه، فجعل عنبسة يبكى ويجزع، فقال له القوم: يا أبا عثمان ما يبكيك وما يحزنك وقد كنت على سمت من الإسلام حسن وطريقة إن شاء الله حسنة؟! فازداد حزنًا وشدة بكاء وقال: ما يمنعنى ألا أبكى وأن لا يشتد حزنى من هول المطلع، وما يدرينى ما أُشرفُ عليه غدًا، وما قدمت من كبير عمل تثق به نفسى[4].

٤ ـ أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنها: هى رملة بنت أبى سفيان زوج النبى ﷺ، تكنى أم حبيبة وهى بها أشهر من اسمها، وأمها صفية بنت أبى العاص بن أمية، ولدت رضى الله عنها قبل البعثة بسبعة عشر عامًا وكانت قبل النبى ﷺ عند عبيد الله بن جحش بن رِئاب بن يعمر الأسدى من بنى أسد بن خزيمة، فأسلما ثم هاجرا إلى الحبشة فولدت حبيبة وبها كانت تكنى، وقد ارتد زوجها عبيد الله بن جحش عن الإسلام ودخل فى النصرانية فهلك وهو على تلك الحالة، وتمسكت بدينها وذلك من فضل الله عليها ليتم لها الإسلام والهجرة فأبدلها الله عز وجل به خير البشر وأفضلهم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وهى أقرب أزواجه نسبًا إليه وأكثرهن صداقًا رضى الله عنها وأرضاها[5]. قال الذهبى عنها: وهى من بنات عم الرسول ﷺ، وليس فى أزواجه من هى أكرم نسبًا إليه منها ولا فى نسائه من هى أكثر صداقًا منها، ولا من تزوج بها وهى نائية الدار أبعد منها، عُقد له ﷺ عليها بالحبشة وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مائة دينار، وجهزها بأشياء[6].

---

(١) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٨).

(٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٢٠٨).

(٥) الطبقات لابن سعد (٨/ ٩٦ ـ ١٠٠)، مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٩).

وقد ورد لهـا بعض المناقب التى تدل على علو مكانتـها وعظيم شأنـها رضى الله عنها وأرضاها، ومن تلك المناقب:

أ- أنها كانت ممن هاجر فى الله الهجرة الثانية إلى الحبشة فارة بدينها رضى الله عنها، فقد روى الحاكم بإسناده إلى إسـماعيل بن عمرو بن سعيـد بن العاص قال: قالت أم حبيـبة: رأيت فى النوم عبيـد الله بن جحش زوجى بأسوأ صورة وأشـوهه، ففزعت فقلت: تغـيرت والله حاله، فإذا هو يقـول حيث أصبح: يا أم حبيـبة إنى نظرت فى الدين فلم أر دينًا خيراً من النصرانية وكنت قـد دنت بها، ثم دخلت فى دين محمد، ثم قد رجعت إلى النصرانية، فقلت: واللـه ما خير لك وأخبرته بالرؤيا التى رأيت له فلم يحفل بها وأكب على الخـمر حتى مات فأرى فى النوم كـأن آتيًا يقول لى: يا أم المؤمنين ففزعت، وأولتها أن رسول اللـه ﷺ يتزوجنى قالت: فما هو إلا أن انقضت عدتى فمـا شعرت إلا برسول النجـاشى على بابى يستأذن، فإذا جاريـة له يقال لها: أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه فدخلت علىَّ فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلىَّ أن أزوجكه فقالت: بشرك الله بخير، قالت: يقول لك الملك وكِّلى من يزوجك فأرسلت إلى خـالد بن سعيد بن العـاص فوكلته[1].. ففى هذا الحديث فضيلة ظاهرة ومنقبة عالية لأم المؤمنين أم حـبيبة رضى الله عنها، وهى أنها كانت ممن شرف بالهجرة إلى أرض الحبشة وثبتت على إسلامها وهجرتها[2].

ب ـ ومن مناقبهـا أنها أكرمت فراش رسـول الله من أن يجلس عليه أبوها، لما قدم المدينة لعقد الهدنة بين الرسول ﷺ وبين قريش ومنعته من الجلوس عليه؛ لأنه كان يومئذ على الشـرك ولم يكن قد أسلم[3]، فقد روى ابن سعـد بإسناده إلى محمد ابن مسلم الزهرى قال: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد فى هدنة الحديـبية فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام فـدخل على ابنته أم حبـيبة، فلما ذهب ليـجلس على فراش النبى ﷺ طوته دونه، فقال: يا بنيـة أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه، فـقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية أصابك بعدى شر[4].

---

(١) المستدرك، ك معرفة الصحابة (٤/ ٢٠ ـ ٢١).

(٢) العقيدة فى أهل البيت، ص (١١٣). (٣) المصدر نفسه، ص (١١٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣)، الطبقات الكبرى (٨/ ٩٩، ١٠٠).

ج ـ ومن مناقبها ما رواه ابن سعد والحاكم عن عوف بن الحارث قال: سمعت عائشة تقول: دعتنى أم حبيبة زوج النبى ﷺ عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك، فقالت: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز وحللك من ذلك، فقالت: سررتنى سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك، وتوفيت سنة أربع وأربعين فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما(١).

٥ ـ أم الحكم بنت أبى سفيان رضى الله عنهما: هى أم عبد الرحمن بن أم الحكم، كانت من مسلمة الفتح، كانت حين نزول قوله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠] تحت عياض بن غنم الفهرى، ففارقها حينئذ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفى(٢).

٦ ـ عزة بنت أبى سفيان رضى الله عنهما: ذكرها ابن شهاب فى حديث أم حبيبة فى الرضاع، أخرج مسلم حديثها وهو ما يروى عن أم حبيبة أنها قالت: يا رسول الله هل لك فى أختى؟ قال: ما أصنع بها؟ قالت: تنكحها، قال: أتحبين ذلك؟ قالت: نعم لست بمخلية لك وأحبّ من شركنى فى خير أختى(٣)، فبيّن لها رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له(٤)، إذ لا يجوز فى الإسلام الجمع بين الأختين(٥). هذا؛ وقد عقد رسول الله ﷺ على أم حبيبة بنت أبى سفيان سنة ست للهجرة(٦)، وكان عمرها ٣٣ سنة يوم عقد عليها رسول الله، وقال الذهبى: فكان لها يوم قدم بها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية إلى المدينة بضع وثلاثون سنة(٧)، وقد توفيت سنة ٤٤هـ(٨).

٧ ـ أميمة بنت أبى سفيان: ولدت أبا سفيان بن حويطب بن عبد العُزّى وجويرية، وذكرها ابن قدامة فى التبيين فى أنساب القرشيين باقتضاب(٩).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٣).
(٢) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٩).
(٣)، (٤) مسلم رقم (١٤٤٩).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٢).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٢٠).
(٧)، (٨) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٢).
(٩) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٩).

خامسًا: زوجات معاوية رضى الله عنه وأولاده:

١ ـ من نساء معاوية رضى الله عنه ميسون بنت بحدل الكلبى، ولدت له يزيد ابن معاوية، وأمة رب المشارق فماتت صغيرة[١]، وكان معاوية رضى الله عنه يجل ميسون بنت بحدل ويحترمها إلا أنها كانت تحن إلى مرتع طفولتها فى البادية، وتكثر ذكر أهلها وحياتهم البسيطة، وبعدهم عما يكدرهم، وتزهد فى حياة القصور، بما فيها من الخدم والوصيفات، وذات يوم تذكرت باديتها وحنت إلى أترابها وأناسها، وتذكرت مسقط رأسها فبكت وتنهّدت فقالت لها بعض حظاياها: ما يبكيك وأنت فى مُلْكٍ يضاهى ملك بلقيس؟ فتنفست الصعداء ثم أنشدت:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحبّ إلىَّ من قصر منيف
وبكر[٢] يتبع الأظعان شقبًا ... أحبّ إلىَّ من بَغْلٍ زفوف[٣]
وكلب ينبح الطّراق عنى ... أحبّ إلىَّ من قطٍ أليف
ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عينى ... أحبّ إلىَّ من لبس الشفوف[٤]
وأكل كُسيرة فى كِسْر بيتى ... أحبّ إلىَّ من أكل الرّغيف[٥]
وأصوات الرّياح بكلِّ فجٍّ ... أحبّ إلىَّ من نقر الدفوف
وخِرْق من بنى عمى نحيف ... أحبّ إلىَّ من عِلْج كليف[٦]
خشونة عيشى فى البدو أشهى ... إلى نفسى من العيش الطّريفِ
فما أبغى سوى وطنى بديلاً ... فحسبى ذاك من وطن شريف

(١) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٦، ٢٤٧) .

(٢) البكر: الفتى من الأبل والشقب: الذكر من ولد الناقة .

(٣) زفوف: مسرع .

(٤) الشفوف: جمع شف : وهو الثوب الرقيق الذى يشفُّ ما وراءه .

(٥) الكسيرة : القطعة من الخبز، الكِسْر: طرف الخباء من الأرض.

(٦) الخِرق : الفتى السّمح الكريم، العلج: الشديد .

فلما دخل معاوية عـرَّفَته الحظيّة بما قالت، وقيل: إنه سمـعها وهى تنشد ذلك فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جـعلتنى علِجًا علوفًا، هى طالق، مُرُوها فلتأخذ جميع ما فى القصر فهو لها، ثمَّ سيـرها إلى أهلها بالبادية فأخذت معها ابنها يزيد فنشأ فى البريّة فصيحًا(١).

ونقل البغدادى ـ رحـمه الله ـ فى خزنة الأدب، إن معاوية لما طلقهـا قال لها: كنت فبنْتِ، فأجابتـه: ما سُررنا إذْ كُنَّا، ولا أسفنا إذْ بِنَّا(٢). ولله درَّ القائل حيث أشار إلى هذا فى قوله:

وحـــبّبَ أوطان الرّجــال إليـــهم مـآرب قـضـاها الشـبـاب هنالك
إذا ذكــــروا الأوطان ذكّـــرتـهم عهود الصِّبا فـيها فحنّوا لذلكا(٣)

٢- ومن زوجاتة، فاختـة ابنة قرَظة بن عبد عمـرو بن نوفل بن عبد مناف، ولدت له عبد الرحمن وعبـد الله ابنى معاوية، وكان عبد الله محمّقًا ضـعيفًا وكان يكنى أبا الخير، وأما عبد الرحمن(٤) فمات صغيراً.

٣- ومن زوجاته، كنود بنت قَرَظة وهى أخت فاختة تزوجها منفردة عنها بعدها، وهى التى كانت معه حين افتتح قبرص(٥).

٤- وتزوج نائلة بنت عمـارة الكلبية ثم طلقـها(٦)، ومن بناته رملة تزوجهـا عمرو ابن عثمـان بن عفان(٧)، وهند بنت معـاوية تزوجها عبد الـله بن عامر(٨) وعائشة وعاتكة وصفية(٩).

سادسًا: إسلام معاوية رضى الله عنه وشيء من فضائله:

أسلم مـعاوية مع أبيـه وأخيـه يزيد رضى الله عنهم يوم الفـتح(١٠)، هذا على المشهور، ولكن يروى عنه أنه قال: أسلمت يوم القضـية ـ أى عمرة القضاء سنة ٧

---

(١) شاعرات العرب، ص (٣٩٦، ٣٩٧)، نساء من عصر التابعين، أحمد خليل، ص (٤٣).
(٢) خزانة الأدب (٣/ ٥٩٣)، نساء من عصر التابعين، ص (٤٣).
(٣) نساء عصر التابعين، ص (٤٤). (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٧).
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٢). (٦)، (٧)، (٨) المصدر نفسه (١١/ ٤٦٣).
(٩) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٢٩).
(١٠) الإصابة (٣/ ٤٣٣)، التبيين فى أنساب القرشيين، ص (١٠٥).

هـ ـ ولكن كـتمت إسلامى من أبى، ثم عـلم بذلك، فقال لى: هـذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قـومه فقلت له: لم آل نفسى جهـدًا، ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمـرة القضاء وإنى لمـصدق به، ثم لما دخل عام الفـتح أظهرت إسلامى، فجئتـه فرحب بى وكتبت بين يديه(١)، وشهد معاوية ـ رضى الله عنه ـ مع رسول الله ﷺ حنينًا وأعطاه مائة من الأبل وأربعين أوقية من الذهب(٢)، وقد ذكر العلماء لمعاوية رضى الله عنه فضائل كثيرة من هذه الفضائل:

١ ـ من القرآن الكريم:

فقد اشـترك معاوية رضى الله عنه فى غـزوة حنين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبـة:٢٦]. ومعاوية رضى اللـه عنه من الذين شهـدوا غزوة حنين وكانَ من المؤمنين الذين أنزل الله سكينتـه عليهم مع النبى ﷺ(٣)، كما أنه ممن وعدهم الله الحسنى، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]. ومعاويـة رضى الله عنه ممن وعدهم الله الحسنى، فإنه أنفق فى حنين والطائف وقاتل فيهما(٤).

٢ ـ من السنة:

أ ـ دعاء الرسول ﷺ لمعاوية رضى الله عنه، ومن ذلك قوله ﷺ: **«اللهم اجعله هاديًا(٥)، مهديًا(٦)، واهد به»**(٧).

وقال ﷺ: **«اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»**(٨).

ب ـ ما أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: كنت ألعب مع الصـبيان فـجاء رسول اللـه ﷺ، فتواريت خلف البـاب، قال: فـجاء

(١) البداية والنهاية (١١/٣٩٦).
(٢) المصدر نفسه (١١/٣٩٦).
(٣) الفتاوى (٤/٤٥٨).
(٤) المصدر نفسه (٤/٤٩٥).
(٥) هادياً: أى للناس أو دالاً على الخير.
(٦) مهدياً: مهتدياً فى نفسه.
(٧) الشريعة (٥/٢٤٣٧) إسناده صحيح.
(٨) موارد الظمآن للهيثمى، تحقيق حسين الدارانى (٧/٢٤٩) إسناده حسن.

فحطأني حطأةً وقال: **اذهب وادع لى معاوية**، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لى: **اذهب فادع لى معاوية**، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، فقال: **لا أشبع الله بطنه**[1].

قال النووى معلقًا على هذا الحديث: وقد فهم مسلم رحمه الله من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقًا للدعاء عليه، فلهذا أدخله فى هذا الباب[2]، وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه فى الحقيقة دعاء له[3]، ولذلك قال ابن عساكر عن حديث لا أشبع الله بطنه: أصح ما روى فى فضل معاوية.. وبعده حديث: «**اللهم علمه الكتاب**»، وبعده حديث: «**اللهم اجلعه هاديًا مهديًا**»[4]. وعن الحديث نفسه قال الذهبى: قلت: لعل أن يقال هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ: «**اللهم من لعنته أو سببته، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة**»[5]. وقال الألبانى: قد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعنًا فى معاوية رضى الله عنه، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك، كيف وفيه أنه كان كاتب النبى ﷺ[6]، وقيل فى «**لا أشبع الله بطنه**»: أنها كلمة جرت على عادة العرب نحو: قاتله الله ما أكرمه، ويل أمه وأبيه ما أجوده، مما لا يراد معناه[7].

جـ- **ما أخرجه البخارى من طريق أنس بن مالك**، عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت: نام النبى ﷺ يومًا قريبًا منى، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما أضحكك؟ قال: **أناس من أمتى عرضوا علىَّ يركبون هذا البحر الأخضر كالملوك على الأسرة** قالت: فادع الله أن يجعلنى منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها، فقالت قولها، فأجابها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلنى منهم، فقال: «**أنت من الأولين**»، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازيًا أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية[8]، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين، فقُربت إليها دابة لتركبها

(١) مسلم رقم (٢٦٠٤).

(٢) اسم الباب: من لعنه النبى صلى الله عليه وسلم أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووى (١٦/ ١٦٥).

(٤) تاريخ دمشق (٦٢/ ٢٤).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٣٠).

(٦) السلسلة الصحيحة (١/ ١٦٥).

(٧) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٦٩).

(٨) وذلك فى إمارة معاوية على الشام فى خلافة عثمان سنة ٢٧هـ.

فصرعتها فماتت[١]. قال ابن حجر معلقًا على رؤيا رسول الله ﷺ قوله: «ناس من أمتى عرضوا علىّ غُزاة» يشعر بأنه ضحكه كان إعجابًا بهم، وفرحًا لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة[٢].

د ـ ما أخرجه البخارى من طريق أم حرام بنت ملحان رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا[٣]، قالت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبى ﷺ: «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر[٤] مغفور لهم، فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا»[٥].

قال المهلب[٦] معلقًا على هذا الحديث: فى هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر[٧]. وكان معاوية رضى الله عنه يكتب الوحى لرسول الله ﷺ[٨]، وكذلك رسائل النبى ﷺ إلى زعماء القبائل[٩]، وكتابة معاوية للوحى لرسول الله ﷺ أتاح له لونًا من القرب الطبيعى من رسول الله ﷺ فى تلك الفترة التى أعقبت فتح مكة حتى وفاة رسول الله ﷺ، مما يستتبع بالضرورة التأثر بشخص الرسول الكريم ﷺ، والأخذ المباشر منه[١٠].

سابعًا: رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ:

يعد معاوية رضى الله عنه من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول الله ﷺ، ومرد ذلك إلى ملازمته لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وكان عمره فى فتح مكة حوالى ثمانى عشرة سنة[١١]، ولكونه صهر رسول الله ﷺ وكاتبه فقد أتيحت له فرصة عظيمة مكنته من الاستفادة من رسول الله ﷺ، هذا وقد روى معاوية رضى

---

(١) فتح البارى على صحيح البخارى (٦/٢٢). (٢) المصدر نفسه (١١/٧٦).
(٣) أوجبوا: أى فعلوا فعلاً وجبت لهم الجنة.
(٤) مدينة قيصر: يعنى القسطنطينية، فتح البارى (٦/ ١٢٠).
(٥) فتح البارى على صحيح البخارى (٦/٢٢).
(٦) المهلب بن أحمد بن أبى صفرة الأسدى الأندلسى، مصنف شرح صحيح البخارى، توفى سنة ٤٣٥هـ انظر: سير أعلام النبلاء (١٧/٥٨٩)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٧).
(٧) فتح البارى (٦/ ١٢٠). (٨) البداية والنهاية (١١/٣٩٦).
(٩) الإصابة فى تمييز الصحابة (٣/ ٤٣٤). (١٠) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٥).
(١١) الطبقات الكبرى (٧/٤٠٦)، خلافة معاوية د.عمر العقيلى، ص (١٤).

الله عنه مائة وثلاثة وستين حديثًا[1] عن رسول الله ﷺ، واتفق له البخارى ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخارى بأربعة ومسلم بخمسة[2]، ومن هذه الأحاديث التى رواها معاوية رضى الله عنه:

١ ـ دخل معاوية على عبد الله بن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر، ولم يقم ابن الزبير فقال معاوية: مَهْ، قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يمثل له عباد الله قيامًا، فليتبوَّأ مقعده من النار»[3].

٢ ـ عن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين»[4].

٣ ـ عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: خرج معاوية على حلقة فى المسجد، فقال: ما أجلسكم[5]، قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنِّى لم استحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثًا منى، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل، ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ علينا بك، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أما إنىِّ لم أستحلفكم تهمة لكم، وإنَّه أتانى جبريل عليه السلام فأخبرنى أنّ الله عز وجل يباهى بكم الملائكة»[6].

٤ ـ عن معبد الجهنى قال: كان معاوية قلّما يُحدِّثُ عن رسول الله ﷺ شيئًا، ويقول هؤلاء الكلمات قلَّما يدعهنَّ أو يحدِّثُ بهنَّ فى الجمع، عن النبى ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وإن هذا المال حُلوٌ خضرٌ فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح، فإنَّهُ الذبح»[7].

---

(١) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم، ص (٥٥)، مرويات خلافة معاوية، ص (٢٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٦٢).

(٣) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (٢٨/ ٤٠) إسناده صحيح.

(٤) المصدر نفسه (٢٨/ ٤٨) إسناده صحيح.

(٥) أى: فى المسجد.

(٦) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٢٨/ ٥٠) إسناده صحيح.

(٧) المصدر نفسه (٢٨/ ٥٢) إسناده صحيح.

٥ ـ عن عبد الرحمن بن عبد عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شَرب الخمر، فاجلدوه، فإن عاد، فاجلدوه، فإن عاد فاجلدوه فإن عاد الرّابعة، فاقتلوه»[(١)].

٦- عن عيسى بن طلحة قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤذِّنين أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»[(٢)].

٧- عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس أن معاوية أخبره: أنه رأى رسول الله ﷺ قصَّر من شعره بمشقص فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية، فقال: ما كان معاوية على رسول الله متهمًا.

٨- عن الزهرى قال حدثنى حميد بن عبد الرحمن بن عوف أنَّه سمع معاوية يخطب بالمدينة يقول: : يا أهل المدينة، أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا يوم عاشوراء ولم يفرض علينا صيامه، فمن شاء منكم أن يصوم فليصم فإني صائم» فصام النَّاس[(٣)] بداية.

٩- عن الحكَم بنِ ميناء أن يزيد بن جارية الأنصارى أخبره أنه كان جالسًا فى نفر من الأنصار، فخرج عليهم معاوية، فسألهم عن حديثهم، فقالوا: كُنَّا فى حديث من حديث الأنصار، فقال معاوية: ألا أَزيدكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحبَّ الأنصار أحبَّهُ الله عز وجل، ومن أبغض الأنصار، أبغضه الله عز وجل»[(٤)].

١٠- عن أبى صالح عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»[(٥)].

١١- قال محمد بن كعب القُرَظى، سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصَّلاة: «اللَّهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطى لما منعت ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ»[(٦)].

---

(١) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٢٨/ ٦١) إسناده صحيح.
(٢) المصدر نفسه (٢٨/ ٧٥) إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٣) المصدر نفسه (٢٨/ ٨١) إسناده صحيح .
(٤) المصدر نفسه (٢٨/ ٨٥) إسناده صحيح .
(٥) المصدر نفسه (٢٨/ ٨٩) صحيح لغيره .
(٦) المصدر نفسه (٢٨/ ١٠٠) إسناده صحيح .

١٢- عن أبى بردة عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفَّر الله عنه به من سيِّئاته»[(١)].

١٣- وعن معاوية رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحقِّ لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس»[(٢)].

١٤- وعن معاوية بن أبى سفيان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من نسى شيئًا من صلاته فليسجد سجدتين وهو جالس»[(٣)].

١٥- وعن معاوية بن أبى سفيان، عن النبى ﷺ قال: «من كذب علىَّ متعمِّدًا فليتبوأ مقعده من النار»[(٤)].

١٦- وعن عمير بن هانىء قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاتزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله عز وجل وهم ظاهرون على الناس». فقام مالك بن يخامر السكسكى فقال: يا أمير المؤمنين سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام، فقال معاوية ورفع صوته: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: وهم أهل الشام[(٥)].

١٧- حدّثنا روح، قال: حدّثنا أبو أميّة عمرو بن يحيى بن سعيد قال: سمعت جدِّى يُحَدِّث أن معاوية أخذ الإِداوة بعد أبى هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها واشتكى أبو هريرة فبينما هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ، فقال: يا معاوية إن وليت أمرًا فاتق الله عز وجل واعدل، قال: فما زلت أنى مُبتلًى بعملٍ لقول النبىّ ﷺ حتى ابتُليت[(٦)].

---

(١) الموسوعة الحديثية منسد أحمد (٢٨/١٠٧) إسناده صحيح.

(٢) المصدر نفسه (٢٨/١١٦) إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) المصدر نفسه (٢٨/١١٨) صحيح لغيره.

(٤) المصدر نفسه (٢٨/١١٨) صحيح لغيره.

(٥) المصدر نفسه (٢٨/١٢٩) إسناده صحيح.

(٦) المصدر نفسه (٢٨/ ١٣٠) رجاله ثقات رجال الصحيح غير أن جد عمرو بن يحيى - وهو سعيد بن عمرو ابن سعيد بن العاص لم يتبين لنا سماعه من معاوية، فقد ذكر البخارى فى تاريخه الكبير(٣/ ٣٣١) فقال: ويُروى فى فضائل معاوية أشياء ضعيفة تحتمل وذكر منها هذا الحديث.

١٨- وعن أبى عامر عبد الله بن لُحَىٍّ، قال: حججنا مع معاوية بن أبى سفيان، فلمَّا قدمنا مكة قام حين صَلَّى صلاة الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأُمَّة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، - يعنى الأهواء - كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة، وإنه سيخرج فى أمتى أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به»(١).

ثامنًا: من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى شأن معاوية مدحًا وذمًا:

١ - من الأحاديث الباطلة التى لا تصح فى مدح معاوية: وقد ساق ابن عساكر فى ترجمته لمعاوية أحاديث واهية وباطلة طوّل بها جدًا، فمن الأباطيل المختلقة:(٢)

أ - عن واثلة مرفوعًا: كاد معاوية أن يبعث نبيًا من حلمه وائتمانه على كلام ربى(٣).

ب - وعن أبى موسى: نزل عليه الوحى، فلما سُرِّى عنه طلب معاوية، فلما كتبها -يعنى آية الكرسى- قال: غفر الله لك يا معاوية ما تقدم إلى يوم القيامة(٤).

جـ - وعن أنس: هبط جبريل بقلم من ذهب، فقال: يا محمد، إن العلىَّ الأعلى يقول: قد أهديت هذا القلم من فوق عرشى إلى معاوية، فمره أن يكتب آية الكرسى به ويشكله ويعجمه، فذكر خبرًا طويلاً(٥).

د - وعن ابن عباس، قال: لما أنزلت آية الكرسى، دعا معاوية فلم يجد قلمًا، وذلك أن الله أمر جبريل أن يأخذ الأقلام من دواته، فقام ليجىء بقلم، فقال النبى ﷺ خذ القلم من أذنك، فإذا قلم ذهب مكتوب عليه لا إله إلا الله، هدية من الله إلى أمينه معاوية.

هـ - وعن حذيفة مرفوعًا: يبعث معاوية وعليه رداء من نور الإيمان(٦).

---

(١) الموسوعة الحديثية مسند أحمد (٢٨/ ١٣٥) إسناده حسن.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٧، ١٢٨).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٢٨) موضوع.

(٤)، (٥) المصدر نفسه (٣/ ١٢٩) موضوع.

(٦) المصدر نفسه (٣/ ١٣٠) موضوع.

و ـ وعن أنس مرفوعًا: لا أفتقد أحدًا غير معاوية، لا أراه سبعين عامًا، فإذا كان بعد أقبل على ناقة من المسك، فأقول: أين كنت؟ فيقول في روضة تحت العرش.

ز ـ وعن ابن عمر مرفوعًا: يا معاوية، أنت منى وأنا منك، لتزاحمنِّى على باب الجنة[1].

قال الذهبى بعد ذكر هذه الأحاديث وغيرها: فهذه الأحاديث ظاهرة الوضع والله أعلم[2]. وقد ذكر أكثر هذه الأحاديث الشوكانى فى الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة[3]، وقال ابن كثير بعد أن ذكر حديثًا منها وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة[4]، والعجب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبِّهُ عليها وعلى نكارتها وضعف حالها[5].

٢ ـ من الأحاديث الباطلة فى ذم معاوية: قال ابن الجوزى: قد تعصب قوم ممن يدعى السنة فوضعوا فى فضله أحاديث ليغضبوا الرافضة، وتعصب قوم من الرافضة فوضعوا فى ذمه أحاديث وكلا الفريقين على الخطأ القبيح[6]، ومن الأحاديث الواهية فى ذمه:

أ- الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتى فطلع معاوية». وقام النبى ﷺ خطيبًا، فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة، فقال النبى ﷺ: «لعن الله القائد والمقود»، أى يوم يكون للأمة مع معاوية ذى الإساءة. وهذا الحديث لا يصح وهو كذب على رسول الله، وهو من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولا يوجد فى شىء من دواوين الحديث التى يرجع إليها فى معرفة الحديث، ولا له إسناد معروف[7]. ثم من المعلوم من سيرة معاوية أنه كان من أحلم الناس، وأصبرهم على من يؤذيه، وأعظم الناس تأليفًا لمن يعاديه، فكيف ينفر عن رسول الله ﷺ، مع أنه أعظم الناس مرتبة فى الدين والدنيا، وهو محتاج إليه فى كل أموره؟ فكيف لا يصبر

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣١) موضوع.
(٣) الفوائد المجموعة، ص (٤٠٣ ـ ٤٠٧).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ٤٠٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣١).
(٦) الموضوعات (٢/ ١٥).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٨).

على سماع كلامه وهو بعد الملك يسمع كلام من يسبّه فى وجهه، فلماذا لا يسمع كلام النبى ﷺ؟ وكيف يتخذ النبى ﷺ كاتبًا من هذه حاله[1].

٣ ـ دور بنى أمية فى عهد رسول الله ﷺ: رغم إسلام الكثير من رجال بنى أمية منذ بداية الدعوة، وتضحياتهم وهجرتهم إلى الحبشة، ورغم إسلام جميع بنى أمية عند فتح مكة، وترحيب الرسول بهم وفرحه بإسلامهم، والاعتماد عليهم فى جلائل الأعمال وقد أفسح لهم مكانًا فى دولته لتستفيد بجهودهم ومقدرتهم، فقد أعطى الرسول ﷺ لأبى سفيان ميزة لم يعطها أحدًا من أهل مكة، حين قال: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[2]، وهذا شرف كبير حازه أبو سفيان يدل على تقدير الرسول للزعماء وأصحاب الكلمة فى قومهم، واستعمل الرسول ﷺ أبا سفيان على نجران، واتخذ ابنه معاوية كاتبًا له[3]. روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس، أن أبا سفيان طلب من النبى ﷺ أن يؤمره حتى يقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين، وأن يجعل معاوية كاتبًا بين يديه، فاستجاب له النبى ﷺ[4]، وكان أول والٍ على مكة ـ وهى أشرف بلاد الله ـ بعد فتحها رجلاً من بنى أمية، هو عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس، يروى ابن إسحاق عن زيد بن أسلم أنه قال: لما استعمل النبى ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهمًا، فقال: أيها الناس: أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقنى رسول الله ﷺ كل يوم درهمًا فليست بى حاجة إلى أحد[5]، كما استعمل رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على قرى خيبر ووادى القرى وتيماء وتبوك، وقبض رسول الله ﷺ وعمرو عليها[6]، كما استعمل الحكم بن سعيد بن العاص على سوق مكة[7]، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء[8]، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وقبض رسول الله ﷺ وهو

(١) أمير المؤمنين معاوية لابن تيمية، جمع وتقديم محمد مال الله، ص (٨٨).

(٢) البخارى رقم (٤٢٨٠).

(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى (١٦/ ٦٢).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٩ ـ ١٤٩)، تاريخ خليفة بن خياط، ص (٩٧).

(٦)، (٧) منهاج السنة (٣/ ١٧٥، ١٧٦).

(٨) خليفة بن خياط، ص (٩٧).

عليها[1]، كما كان أبان وخالد ابنا سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان إضافة إلى عثمان بن عفان رضى الله عنهم - من كتاب الرسول ﷺ[2].

وخلاصة القول: فقد قبض رسول الله ﷺ ومُعظم رجالات بنى أمية على مختلف الأعمال، من الولاية والكتابة، وجباية الأموال، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال الرسول ﷺ أكثر منهم[3]، واستعمال النبى ﷺ لأكثر رجال بنى أمية، أكبر دليل على كفاءتهم وأمانتهم[4]. وأما قوله ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[5]، فهذه الكلمات، جعل بعض الناس منها سبة فى جبين بنى أمية وحدهم، وجعلوا يعيرونهم بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء، ولم يفهموا أن هؤلاء الطلقاء وأبناءهم قد أسلموا وحسن إسلامهم، وكانت لهم مواقف مشهودة فى نصرة الإسلام فى حياة الرسول ﷺ وبعده فى الفتوحات فى عهد خلفائه الراشدين[6]، ونحب أن نشير إلى عدة نقاط متعلقة بوصف الطلقاء منها:

١ - إن هذا الاتهام وليد عصر الخصومة الحزبية الحادة، لما تفجرت الأحقاد ضد بنى أمية فى أواخر عهد عثمان رضى الله عنه، وبعد بروز نجم معاوية بن أبى سفيان وخلافه مع على بن أبى طالب رضى الله عنه، حيث أصبح ذلك الوصف يعنى عندهم أنهم قوم ضعاف الإيمان، دخلوا الإسلام رغبة فى غنائمه، أو رهبة من القتل، ليكيدوا لأهله ويفيدوا أنفسهم.

٢- أن أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ليسا من الطلقاء بالمعنى الدقيق السابق لهذه الكلمة، فقد أسلم أبو سفيان قبيل فتح مكة والرسول وجيشه بمر الظهران خارجها، وقد جاء فور إسلامه يدعو قومه إلى المسالمة والفتح، أما معاوية ابنه فقد أكدت بعض الروايات أنه أسلم قبل الفتح أيضًا، غير أنه كان يخفى إسلامه - شأن بعض الناس آنذاك - لمكانته من أبيه الذى كان يقود القتال ضد المسلمين، فقد روى أنه أسلم سرًا يوم عمرة القضاء، أو عام الحديبية[7]، وإنما وضعهم المؤرخون فى زمرة هؤلاء الطلقاء لقرب وقت إسلام أبى سفيان من الفتح، ولأنه كان زعيم مكة

(١) منهاج السنة (٣/ ١٧٥، ١٧٦). (٢) تخريج الدلالات السمعية، ص (١٥٩-١٦٢).
(٣) منهاج السنة (٣/ ١٧٥)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص(١٢).
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٢). (٥) الطبقات (٢/ ١٤١، ١٤٢).
(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٨). (٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦).

الذى ارتبط إسلامه بإسلامها، كما أن معاوية كان إسلامه سرًا لم يشع، ولم يعرف إسلامه إلا مع الطلقاء بعد فتح مكة.

٣- إن وصف الطلقاء لا يقتضى الذم، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبى ﷺ، وكانوا نحو من ألفى رجل، ومنهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل، ويزيد بن أبى سفيان وحكيم بن حزام، وأبى سفيان بن الحارث، ابن عم النبى ﷺ الذى كان يهجوه ثم حسن إسلامه، وعتاب بن أسيد الذى ولاه النبى مكة لما فتحها، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم.

٤- إن النظرة الإسلامية فى هذا الشأن أن الإسلام يجب ما قبله، ويفسح المجال للإفادة من جميع الطاقات والقدرات ويدفع بها نحو تحقيق غاياته الكبرى، وينزل الناس منازلهم، وأن خيار الناس فى الإسلام خيارهم فى الجاهلية إذا فقهوا، ولم يمنع تأخر إسلام خالد وعمرو بن العاص من تبوئهما المكانة العالية عند النبى ﷺ، فأرسل عمرًا أميرًا على ذات السلاسل، وسمّى خالدًا سيف الله.. هذا مع حفظ المكانة الأسمى والمنزلة العظمى للسابقين الصادقين فى الإسلام، ومن هؤلاء السابقين كان جماعة من بنى أمية وغيرهم، كما كان من الطلقاء بنى أمية وغيرهم[(١)].

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٤).

المبحث الثانى

الأمويون ومعاوية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم

أولاً: فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه:

واجه المسلمون بعد موت نبيهم ﷺ ظروفًا عصيبة وأجمع المسلمون على بيعة أبى بكر خليفة لرسول الله ﷺ، وقام بجهود عظيمة فى مواجهة الأخطار، فحارب المرتدين حتى ردهم إلى الإسلام والجماعة، وبدأ حركة الفتوح فى بلاد الفرس والروم، وكان أول كتاب كتبه أبو بكر بشأن حروب الردة إلى عامله الأموى على مكة عتاب بن أسيد حيث كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام، فواجههم عتاب فى تهامة حتى ظفر بهم[(١)]، ثم جهز من أهل مكة وأعمالها خمسمائة رجل وأمر عليهم أخاه خالد بن أسيد، فاشتركوا فى قتال المرتدين باليمن[(٢)]، وإعادة أهل حضرموت وكندة إلى حظيرة الإسلام[(٣)]، وفى حروب المسلمين ضد مسيلمة الكذاب كان قائد الجيش خالد بن الوليد الذى جعل على قيادة المهاجرين فى جيشه أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومعه زيد بن الخطاب[(٤)]، فقاتل أبو حذيفة قتالاً مجيدًا، ولما انكشف المسلمون فى أول القتال كان أبو حذيفة يهتف فيهم: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال، وقاتل حتى قُتل رضى الله عنه[(٥)]، وحمل راية المهاجرين يومذاك مولاه سالم وقاتل بها حتى قُتل أيضًا[(٦)]، وشهد حروب اليمامة ضد مسيلمة معاوية رضى الله عنه[(٧)]، كما استشهد من حلفاء بنى أمية عكاشة بن محصن الأسدى فى قتال طليحة الأسدى[(٨)]، وساهم العلاء الحضرمى حليفهم أيضًا فى إخماد الردة فى البحرين،

(١) تاريخ الطبرى (٣/٣١٩)، الدولةالأموية المفترى عليها، ص (١٤٨).

(٢) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٢٢، ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٣٠ ـ ٣٤٢).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٣٨١).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ٢٩١).

(٦) المصدر نفسه (٣/ ٢٩١، ٢٩٢)، الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٨).

(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٩٦).

(٨) ديوان الردة للعتوم، ص (٨٦).

ففعل وظفر بهم بعد بلاء حسن وآيات عجيبة[1]، وكان من الطبيعي بعد انتهاء حروب الردة وعودة المرتدين إلى حظيرة الدين وانصياعهم للحكومة الراشدة، أن تطمح الأبصار إلى تخليص الشعوب المستعبدة من حكوماتها الظالمة ودعوتها إلى الإسلام، ويبدأ ما عُرف في التاريخ بحركة الفتوح الكبرى على جبهتي فارس والروم.. وقد كان لبني أمية دور بارز في هذه الحروب مما يؤكد عمق التزامهم الإسلامي وحيوية دورهم التاريخي في هذه الفترة، غير أننا نشير في البداية إلى وضوح سمتين ظاهرتين صاحبتا حركة الفتوح[2]:

الأولى: هي تعاظم دور مسلمة الفتح وطلقاء مكة في الفتوح - ومنهم بعض بني أمية - وقد كان ذلك متوقعًا لسببين، الأول: هو ما قرره أبو بكر من ضرورة عدم الاستعانة بمن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه في الفتح[3]. وقد كان هذا يعود إلى حرص أبي بكر الصديق رضي الله عنه على نقاء هذه الفتوحات من آثار رقة الدين أو شهوات هذه النفوس التي لم تخلص بعد للإسلام، أو لم تبرهن على إخلاصها له.

والثاني: يعود إلى حرص هؤلاء السادة والأشراف على تعويض ما فاتهم من خدمة قضية الإسلام، وأن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام فسادوا بذلك وعلت أقدارهم[4].

والسمة الظاهرة الثانية: هي تركز نشاط الأمويين في الفتوح على جبهة الشام، يشاركهم في ذلك كثير من الفاتحين من أهل مكة عمومًا، ويبدو أن ذلك كان أمرًا مقصودًا من الخليفة الصديق الذي أدرك وجود صلات عميقة الجذور بين بني أمية والمكيين والقبائل العربية المقيمة ببلاد الشام تحت الحكم البيزنطي، تلك الصلات التي تعمقت من خلال النشاط التجاري المتواصل بين مكة والشام في الجاهلية، والذي كان بنو أمية أبرز قواده ورواده[5].

وأما عن مشاركة الأمويين في حروب الفتح، فقد جاءت مبكرة، حيث شارك الوليد بن عقبة بن أبي معيط مع خالد بن الوليد في فتوح العراق الأولى، وشهد

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٠١ - ٣١٣)، سيرة أبي بكر الصديق الصَّلابي، ص (٢٢٥).
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٤٨).
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٣١٩، ٣٤٧).
(٤) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص (١٤٩).
(٥) المصدر نفسه، ص (١٤٩).

معه قتل هرمز، وأرسله خالد إلى أبى بكر بالغنائم وبشارة الفتح وإخباره عن جمع جديد من الفرس[1]، ثم وجهه الخليفة مددًا إلى عياض بن غُنم الذى كان قد أمره بفتح العراق من جهة الشمال، وكان يحاصر دومة الجدل فيجد العنت والمشقة فى فتحها، فأشار عليه الوليد باستمداد خالد بن الوليد، فاستمده، فأنجده، وفتحوا معًا دومة الجندل[2]، ثم ولاه أبو بكر على النصف من صدقات قضاعة مما يلى دومة الجندل[3]، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعرض عليه الجهاد فى سبيل الله، ويخيره بينه وبين أن يظل على عمله الذى ولاه إياه فأجابه بإيثار الجهاد، فوجه به إلى الشام[4]، وكان أول لواء عقده أبو بكر فى حروب الشام لخالد بن سعيد بن العاص الأموى ثم عزله وولى بدله يزيد بن أبى سفيان بن حرب الأموى أيضًا[5]، وأما جيش يزيد بن أبى سفيان، فكان أول جيش كبير يوجهه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماشيًا[6]، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى يقودها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح[7]، يقول الذهبى عن يزيد بن أبى سفيان: وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، عقد له أبو بكر، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه، وما ذلك إلا لشرفه، وكمال دينه[8].

ثم أتبع الصديق بأناس آخرين يرغبون فى الجهاد وألحقهم بجيش يزيد وجعل عليهم أميرًا معاوية بن أبى سفيان[9]. . وخرج أبو سفيان بن حرب - وهو يومئذ شيخ كبير[10]. كما اشترك فى الجهاد فى الشام أيضًا خالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، وعمرو بن سعيد، وقاتلوا جميعًا هناك وقتلوا، حتى قيل: ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجل من بنى سعيد بن العاص شهيدًا[11]، وقبل

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٥٤).

(٢) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٠)، الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٤٩).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٩٠).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ٣٨٧).

(٦) فتوح الشام للواقدى (١/ ٣ - ٤).

(٧) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٤).

(٨) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٢٨).

(٩) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩١).

(١٠) لما توفى كان عمره ثمانية وثمانين عامًا، ولما حضر اليرموك كان عمره أكثر من سبعين عامًا.

(١١) النزاع والتخاصم، ص (٤٦)، الدولة الأموية حمدى شاهين، ص (١٥٠).

معركة اليرموك عقد قادة الجيوش مؤتمرًا للحرب فى الجولان. . ومر بهم أبو سفيان بن حرب فقال: ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم، ويتذاكرون ما يكيدون به عدوهم ـ فى منزلى ـ ولا يحضرونى، فاشترك معهم فى مشورتهم، فأفسحوا له، فأسهم معهم فى رسم خطة القتال[1]. ولما أزفت ساعة الحرب فى اليرموك عمد قادة الفريقين إلى إذكاء حماس الجنود، فبينما كان الروم يحضضهم القسيسون والرهبان، وينعون لهم النصرانية، حتى تشجعوا وخرجوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال مثله[2]، كان المسلمون يتبادرون إلى لقاء الخطب البليغة والأرجاز المثيرة[3]، بل أنهم عينوا أحد كبار شيوخهم والمخضرمين من رجالهم فى مهمة «القاص» وكان ذلك الرجل هو أبو سفيان بن حرب نفسه[4]، ولا شك أن توليه ذلك العمل المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه فى دينه وإسلامه، إذ إن قادة الجيش لو علموا فيه آنذاك غير هذا الإخلاص ما جعلوه أمينًا على تعبئة حماس الجند وإثارة حميتهم الإسلامية، ولو علم الجنود منه غير ذلك الصدق ما كان لعمله فيه ذلك الأثر العظيم، وقد كان اختيارًا موفقًا فعلاً يتسق مع طبيعة تكوين ذلك الجيش الذى يضم الكثير من أهل مكة وقبائل العرب الذين تأخر إسلامهم، والذين احتفظوا بثقتهم القديمة فى أبى سفيان، زعيمهم الذى خبروه[5]، وكان أبو سفيان رضى الله عنه يقف على الكراديس[6]، فيقول: الله الله، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل النصر على عبادك[7].

ثانيًا: فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

عندما توفى الصديق عام ١٣هـ بويع الفاروق بالخلافة وسار على نهج صاحبيه فى استعمال بنى أمية والثقة بهم، فلم يعزل أحدًا منهم من عمل، ولم يجد على أحد منهم مأخذًا، والكل يعرف صرامة عمر، وتحريه أمر ولاته وعماله وتقصيه

---

(١) فتوح الشام للواقدى (١/ ٩٩) .

(٢) تاريخ الطبرى (٣/ ٣٩٥).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١).

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٣٩٧).

(٥) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٥١).

(٦) الكراديس: جمع كردوس: القطعة العظيمة من الخيل أو الكتيبة من الجند.

(٧) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (٢٠٣).

أعمالهم وأخبارهم، ومحاسبتهم بكل دقة وحزم، فاستمرارهم فى عهده يدل على أمانتهم وكفايتهم، فقد بقى يزيد بن أبى سفيان واليًا على دمشق، كما زاد عمر فى عمل معاوية بالشام[1].

١ ـ بدأ نجم معاوية فى الظهور:

بدأ نجم معاوية رضى الله عنه فى الظهور فى ميدان العمل السياسى والإدارى فى عهد الخليفة عمر رضى الله عنه، فقد ولاه فتح قيسارية[2] سنة خمس عشرة للهجرة[3]، وجاء فى كتاب توليته له: أما بعد، فقد وليتك قيسارية فسرْ إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، الله ربنا وثقتنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير[4]. كانت هذه المهمة الجسيمة اختباراً كبيرًا من عمر لمعاوية فى ميدان الواقع، فقد استطاع تجاوز هذا الاختبار بكل نجاح، فقد سار إلى قيسارية بجنوده الذين أعدهم له أخوه يزيد بن أبى سفيان ـ أحد ولاة الشام لعمر رضى الله عنه- وكانت تلك المدينة محصنة وبأس أهلها شديد، فحاصرها معاوية طويلاً وزاحف أهلها مرات عديدة، فلم ييأس معاوية، فصمم على فتحها، واجتهد فى القتال حتى فتح الله على يديه، وكان فتحه كبيراً فقد قتل من أهلها ما يقرب من مائة ألف[5]، وبعث بالفتح والأخماس إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه[6]، وقد أثبت معاوية ـ بعد توفيق الله ـ بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع، فأسند له أخوه يزيد ـ أمير دمشق ـ مهمة فتح سواحل الشام، وقد أبلى فى ذلك بلاءً حسنًا[7]، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قوتل قتالاً شديدًا، وربما رمى ففتحها، وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما يحتاج لها إليه من المسلمين فإن حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد[8]،

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٥).

(٢) قيسارية : على ساحل الشام، تعد فى أعمال فلسطين، ياقوت (٤/ ٤٢١).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٩).

(٤) تاريخ الطبرى (٤/ ٤٣١).

(٥) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص (٦٣، ٦٤).

(٦) البداية والنهاية (٧/ ٥٤).

(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٩).

(٨) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (١٣٤).

ويرى الدكتور عبد الرحمن الشجاع أن مدن الشام تساقطت تحت ضربات المجاهدين الواحدة تلو الأخرى، لأن الروم كانوا من الهزيمة بمكان لا يجعلهم يفكرون فى المقاومة؛ فتساقطت مدن بيروت، وصيدا، ونابلس، واللد، وحلب، وأنطاكية، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحًا على يد معاوية بن أبى سفيان، وكان ذلك بعد القدس[1].

وكان عبادة بن الصامت على ميمنة جيش المسلمين فى حصار قيسارية، فقام رضى الله عنه بوعظ جنده ودعاهم إلى تفقد أنفسهم والحيطة من المعاصى، ثم قاد هجومًا قتل فيه كثيرًا من الروم، لكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه، فعاد إلى موقعه الذى انطلق منه، فحرّض أصحابه على القتال، وأبدى لهم استغرابه الشديد لعدم تحقيق أهداف ذلك الهجوم فقال: يا أهل الإسلام، إنى كنت من أحدث النقباء سنًا وأبعدهم أجلاً، وقد قضى الله أن أبقانى حتى قاتلت هذا العدو معكم.. والذى نفسى بيده ما حملت قط فى جماعة من المؤمنين على جماعة من المشركين، إلا خلوا لنا الساحة وأعطانا الله عليهم الظفر، فما بالكم حملتم على هؤلاء فلم تزيلوهم؟[2] ثم بين لهم ما يخشاه منهم، فقال: إنى والله لخائف عليكم خصلتين، أن تكونوا قد غللتم، أو لم تناصحوا الله فى حملتكم[3]، وحض أصحابه على طلب الشهادة بصدق، وأعلمهم أنه سيكون فى مقدمتهم وأنه لن يعود إلى مكانه، إلا أن يفتح الله عليه أو يرزقه الشهادة[4]، فلما التحم المسلمون والروم، ترجل عبادة عن جواده وأخذ راجلاً، فلما رآه عمير بن سعد الأنصارى نادى المسلمون يعلمهم بما فعل أميرهم ويدعوهم إلى الاقتداء به، فقاتلوا الروم حتى هزموهم وأحجروهم فى حصنهم[5]. وبعد فتح قيسارية ونجاح معاوية فى فتح سواحل دمشق ولاه عمر ابن الخطاب ولاية الأردن وكان ذلك عام ١٧هـ[6].

---

(١) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٣٥٥).

(٢) الأنصار فى العصر الراشدى، ص (٢٠٧). (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).

(٦) تاريخ الطبرى (٤/ ٦٧)، خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٧، ١٨).

٢ ـ ولايته على دمشق وبعلبك والبلقاء:

فى سنة ثمان عشرة للهجرة توفى يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما فى طاعون عمواس، فولى عمر معاوية عمل أخيه ـ دمشق وبعلبك والبلقاء ـ[١]، وقد كان لعمل عمر هذا أكبر الأثر على نفسية والد معاوية ووالدته، فحين عزَّا عمر أبا سفيان فى وفاة ابنه يزيد قال: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية. قال: وصلت رحمًا يا أمير المؤمنين. وكتب أبو سفيان لمعاوية ينصحه فى بداية عمله هذا، فمما قال: يا بنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة، وصرنا أتباعًا، وقد ولوك جسيمًا من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجرى إلى أمد فنافس، فإن بلغته أورثته عقبك[٢]، وكذلك كتبت له والدته هند بنت عتبة تقول: والله يا بنى إنه قل أن تلد أمٌ مثلك وإن هذا الرجل قد استنهضك فى هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت[٣].

وكان بعض الناس ـ لا سيما شيوخهم ـ استغربوا تولية عمر رضى الله عنه لمعاوية رضى الله عنه مع حداثة سنه ووجود من هو أكبر منه وأفضل، لذا سوغ عمر رضى الله عنه عمله هذا ـ حيث قالوا: ولَّى حدث السن ـ بقوله: تلوموننى فى ولايته، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهد به»**[٤].

٣ ـ معاوية فى موكب عظيم وإنكار عمر عليه:

كان عمر رضى الله عنه ـ وهو الخبير بمعادن الرجال ـ يدرك أكثر من غيره ما يتمتع به معاوية من صفات تؤهله للقيادة، فحين قدم عمر الشام وافاه معاوية بموكب عظيم أنكره عليه عمر فقال: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. قال: مع ما بلغنى عنك من طول وقوف ذوى الحاجات ببابك. قال: هو ما بلغك

---

(١) الطبقات الكبرى (٧/٤٠٦)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٦١).

(٢) البداية والنهاية (١١/٣٩٩) المقصود أورثته عقبك أى: الحمد.

(٣) المصدر نفسه (١١/٣٩٩).

(٤) السلسلة الصحيحة (٤/ ٦١٥) رقم (١٩٦٩) وقال الألبانى: حديث صحيح.

من ذلك. قال: ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن آمرك بالمشى حافيًا إلى بلاد الحجاز. قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن تظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم، فإن أمرتنى فعلت، وإن نهيتنى انتهيت، فقال له عمر: ما سألتك عن شيء إلا تركتنى فى مثل رواجب[1] الضرس، لئن كان ما قلت حقًا، إنه لرأى أريب[2]، ولئن كان باطلاً إنه لخديعة أديب[3]. قال: فمرنى يا أمير المؤمنين قال: لا آمرك ولا أنهاك. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جَشَّمناه ما جَشَّمناه[4]. وفى رواية أن الرجل الذى قال لعمر: ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه هو عبد الرحمن بن عوف، وكان مع عمر حين استقبلهما معاوية بهذا الموكب العظيم[5].

وهذا الجواب من معاوية - رضى الله عنه - يدل على خبرة سياسية عالية، ومعرفة واعية بأحوال الأمم، ودراية كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمنى للدولة التى يحكمها، ومن أجل هذا رضى عمر سياسته على الرغم من أنها تخالف سياسة عمر فى اهتمامه بأحوال رعيته وبحث شكاواهم، ولعل كلمة عمر - رضى الله عنه - من أجل ذلك جشمناه ما جشمناه تدل على رضاه عن سياسة معاوية[6].

وكان عمر رضى الله عنه يتعهد معاوية بالتربية والوعظ والنصح، وأحيانًا يشتد ويغلظ عليه، فعن أسلم مولى عمر رضى الله عنه قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض أو أبضُّ الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه، فيعجب له، ثم يضع أُصبُعَه على متنه ثم يرفعها عن مثل الشِّراك، فيقول: بخ بخ، نحن إذًا خير الناس، أن جُمع لنا خير الدنيا والآخرة، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأحدثك، إنّا بأرض الحـمّامات والريف؛ فقال عمر: سأحدثك ما بك إلطافك نفسك بأطيب الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب. قال: فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حُلة فلبسها، فوجد

---

(1) الرواجب: جمع راجبة: وهى ما بين عقد الأصابع من داخل أى: أضيق ما يكون.

(2)، (3)، (4)، (5) المصدر نفسه (١١/٤١٦).

(6) الأمويون بين الشرق والغرب، لمحمد الوكيل (١/ ٣٠).

عمر منها ريحًا كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجاً تَفِلاً، حتى إذا جاء أعظم بُلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدْخل فيهما على عشيرتى أو قومى، والله لقد بلغنى أذاك ههنا وبالشام، والله يعلم إنى لقد عرفتُ الحياء فيه ثم نزع معاوية ثوبيه، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[1]، وقال عمرو بن يحيى بن سعيد الأموى، عن جَدِّه قال: دخل معاوية على عمر وعليه حُلَّةٌ خضراء فنظر إليها الصّحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدِّرَّة، فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين، الله الله فىَّ، فرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين وما فى قومك مثله؟، فقال: والله ما رأيت إلا خيراً وما بلغنى إلا خير، ولكنِّى رأيته ـ وأشار بيده[2]ـ فأحببت أن أضع منه[3]، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب[4].

وكان معاوية رضى الله عنه فى إمارته بالشام فى أبهة الملك وزيه من العديد والعدة، وكان يرى أنه فى ثغر تجاه العدو ويحتاج إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد[5]، وإظهار الملك والسلطان، وكان يرى أن الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فيه التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات، فلو كان الملك مخلصًا فى غلبه للناس أنه لله ولحمله على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذمومًا[6]، وقد قال الله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٣] لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك، وكانت أبهة معاوية فى الملك لها أغراض ومقاصد شرعية، ولذلك سكت عمر رضى الله عنه، وذات يوم ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك فى الغضب ولا يُنال منه إلا على الرِّضا، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه[7]، ومهما يكن فى هذه الرواية وغيرها من مبالغة، فإن ثقة عمر فى معاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك[8]،

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤١٧).
(٢) يعنى: أشار بيده إلى أعلى.
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤١٨).
(٤) المصدر نفسه(١١/ ٤١٧)، الاستيعاب، ص(٦٦٨).
(٥) ابن خلدون إسلاميًا، عماد الله خليل، ص(٧٨).
(٦) المصدر نفسه، ص (٧٨).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٤١٥) .
(٨) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (١٥٤).

فقد برهن معاوية لعمر عمق فهمه لضـرورات السياسة وتغير البيئة والمجتمع، وأثر ذلك كله على التطوير السيـاسى لأدوات الحكم، ومهما يكن من أمـر فقد عظمت مكانة معاوية عند عمر رضى اللـه عنه، فولاه أهم أقاليم دولته، وزاد فى ولايته، ولم يعزله، على كثرة من كان يعزل من عماله وأمرائه، وكان معجبًا بذكائه وإدارته ولا يكتم ذلك الإعـجاب[1] حـتى قال يومًـا لجلسائـه تذكرون كـسرى وقـيصـر ودهاءهما وعندكم معاوية[2].

٤- جهود معاوية رضى الله عنه على جبهة الشام:

لما تولى معـاوية أمر الشام، وانطلق عـمرو بن العاص لفـتح مصر، أصـبحت مهمة حـماية الحدود الشامية للدولة الإسلاميـة والتوسع منها منوطة به، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية فى أمرين هـما: سن نظام الصوائف والشواتى[3]، وتكوين أسطول بحرى إسلامى لأول مرة فى تاريخ الإسلام[4].

أ- سن نظام الصـوائف والشـواتى فى عـهـد عـمـر: أصـيب الروم على يد جنود الإسلام بهزائم مريرة مـتتالية، فقدوا على أثرها الشام ومـصر، بكل ما تمثلانه من أهميـة اقتـصادية وسـياسيـة وعسكرية، غـير أنهم لم يسـلموا بهذه الهـزائم، بل استـمرت هجماتهم على الشـام من خلال الدروب الجبليـة التى تفصلهم عن باقى أجزاء إمـبراطورية الروم، مما جعل عمـر بن الخطاب يقول فى جولتـه بالشام سنة ١٦هـ: والله لـوددت أن الدرب جـمـرة بـيننا وبينهـم لنا مـا دونه، وللـروم مـا وراءه[5]، وفى رحلته هذه إلى الشام سمى عمـر الصوائف والشواتى، وسد فروج الشام ومسـالكها[6]، ومن المحتمل أن يكون هدف الروم مـن هجماتهم على المدن الإسلاميـة الحدودية منذ البداية، هو اعتمـاد ذلك كتدبير وقـائى لحماية بلاد الروم وردع المسلمين، لكن اسـتجابة معاوية كـانت فوق التحدى، فقـد نقل المعركة إلى بلاد العـدو، وابتعـد بالحرب عن بلاد المسلمـين، وكان لا بد لمعـاوية ـ من أجل

(١) الدولة الأموية، حمدى، ص (١٥٧).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠).
(٣) الصوائف: غزو بلاد الروم فى الصيف والشواتى فى الشتاء .
(٤) الدولة الأموية، حمدى، ص (١٥٤).
(٥) تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٣٣).
(٦) تاريخ الطبرى (٤/ ٦٢)

تحقيق ذلك الهدف ـ من تطوير وسائل الدفاع، واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقى الصدمة والإنذار، مع استخدام هذه القواعد مركز انطلاق للهجمات المضادة، وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف منها صائفة سنة ٢٢هـ، حيث دخل بها بلاد الروم فى عشرة آلاف، وصائفة ٢٣هـ[١]، حيث أوغل حتى بلغ عمورية، ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ، عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصارى، وأبو ذر الغفارى، وشداد بن أوس[٢].

ب ـ تكوين أسطول إسلامى فى البحر: ويعود الفضل إلى الله ثم إلى معاوية فى هذه المرحلة المبكرة إلى فتح باب الجهاد فى البحر الذى أصبح ضروريًا لحماية الشام ومصر، ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطى، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين، وإمداداته للثائرين بهما. وقد استطاعت عمليات الصوائف والشواتى أن تضع حدًا للتهديدات البرية، لكن المدن الساحلية، بداية من إنطاكية ونهاية بالأسكندرية، بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية، وأدرك معاوية أيضًا أنه من المحال تطوير عمليات الفتوح فى أفريقيا ما لم يتم انتزاع السيطرة البحرية من البيزنطيين[٣]، ولم يبدأ معاوية فى غزو البحر فعليًا إلا فى عهد عثمان وسيأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى.

ثالثًا: معاوية رضى الله عنه فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه:

حينما جاء عثمان إلى الخلافة كان معاوية رضى الله عنه واليًا على معظم الشَّام، فأقرَّه عثمان عليها[٤]، كما أقرَّ بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم، كاليمن، والبحرين، ومصر وغيرها من الولايات، وقد تطورت الأحداث، وضُمَّت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح معاوية هو الوالى المطلق لبلاد الشام، بل أصبح أقوى ولاة عثمان، وأشدّهم نفوذًا، وقد كان فى بداية خلافة عثمان ولاة آخرون، منهم: عمير بن سعد الأنصارى، وكان على حمص، وينافس معاوية بن أبى سفيان فى المكانة لدى عثمان رضى الله عنه إلا أن عميرًا

(١) تاريخ الأمم والملوك (٤/ ١٤٤، ١٦٠).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٤١)، الدولة الأموية حمدى، ص (١٥٥).

(٣) معاوية بن أبى سفيان، بسام العسلى، ص (٤٠).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ص (١٥٥).

مرض مرضًا أعياه عن القيام بأعباء الولاية، فطلب من الخليفة عثمان أن يعفيه، فأعفاه، وضم ولايته إلى معاوية بن أبى سفيان، وبذلك زاد نفوذ معاوية، فامتد إلى حمص التى ولى عليها من قبله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد(١)، كما تُوفى علقمة بن محرز، وكان على فلسطين، فضمّ عثمان ولايته إلى ولاية معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، فاجتمعت الشَّام لمعاوية بعد سنتين من خلافة عثمان رضى الله عنه، وأصبح الوالى المطلق فيها طيلة السنوات الباقية من خلافة عثمان رضى الله عنه حتَّى توفى عثمان وهو عليها كما هو معروف(٢)، وقد كانت فترة معاوية على الشَّام مليئة بالأحداث، وكانت الشَّام من أهم مناطق الجهاد، ومع أن الشَّام فى داخلها قد استقرت أوضاعها، وسادها الإسلام، وقلَّت محاولات الروم إثارة القلاقل فيها، إلا أن الشام كانت متاخمة لأرض الروم، وبالتالى كان المجال مفتوحًا أمام معاوية للجهاد فى تلك النواحى وسيأتى الحديث عنها بإذن الله، وقد كان لمعاوية ثقله السياسى فى الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان رضى الله عنه، إذ كان ضمن الولاة الذين جمعهم عثمان ليستشيرهم، حين بدأت ملامح الفتنة تلوح فى الأفق، كما ظهرت له آراء خاصة فى هذا الاجتماع، وجَّهها إلى عثمان(٣) رضى الله عنه، وسيأتى الحديث عنها بإذن الله تعالى.

١ ـ فتوحات حبيب بن سلمة الفهرى رضى الله عنه:

كان حبيب بن سلمة الفهرى من أبرز أمراء الجهاد فى زمن ولاية معاوية على بلاد الشَّام، فعند أجلبت الروم على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أوّل خلافة عثمان، كتب معاوية إلى عثمان يستمده، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة والى الكوفة -عندما انتهى من مهمته فى أذربيجان وعاد إلى الموصل-، جاء فى خطاب الخليفة إلى الوليد بن عقبة: أمَّا بعد، فإن معاوية بن أبى سفيان كتب إلىَّ يخبرنى: أن الرُّوم قد أجلبت(٤) على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابى هذا، فابعث رجلاً ممَّن ترضى نجدته، وبأسه، وشجاعته، وإسلامه فى ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٤٢).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٤٤٣).

(٣) الولاية على البلدان (١/ ١٧٦).

(٤) أجلبت: تجمّعت للحرب.

إليهم مـن المكان الذى يأتيك فيـه رسولى[١] والسَّلام. فقـام الوليد فى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد، أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين فى هذا الوجه بلاءً حسنًا، وردَّ عليهم بـلادهم التى كفرت، وفتح بلادًا لم تكن افتتحت، وردَّهم سـالمين غانمين مأجورين، فالحمد لـله رب العالمين، وقد كتب إلىَّ أميـر المؤمنين يأمرنى أن أندب منكم مـا بين عشرة آلاف إلى ثمـانية آلاف، تمدُّون إخوانكم من أهل الشام، فإنَّهم قد جاشت عليهم الروم، وفى ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا -رحمكم الله- مع سليمان بن ربيعة، فانتدب النّاس، فلم يمض ثلاثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا، حتى دخلوا الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حـبيب بن مسلمة بن خالد الفهرىُّ، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلىُّ، فشنُّوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاءوا من سبى، وملأوا أيديهم من المغنم، وافتتـحوا بها حصونًا كـثيرة[٢]، وكان على المسلمين حبـيب بن مسلمة، وكان صاحـب كيد لعـدوه، فاجـمع أن يبيت قـائدهم الموريان ـ أى: يبـاغته لـيلاً ـ فسمعته امرأته أمُّ عبد الله بنت يزيد الـكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة. . ثم بيتهم، فغلبهم. وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته، قد سبقته إليه[٣]، وواصل حبيب جهاده، وإنتصاراته المتوالية فى أراضى أرمينية، وأذربيجان، ففتحها إمّا صلحًا، أو عنوة[٤].

وقد كـان حبيب بن سلمـة الفهرى من أبرز الـقادة الذين حاربوا فى أرمـينية البيزنطية، فقـد أباد جيوشًا بأكملها للعدوِّ، وفتح حصـونًا، ومدنًا كثيرة[٥]، كما غزا ما يلى ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط، وملطية، وغيرها[٦].

(١) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٧)، عثمان بن عفان للصَّلاَّبى، ص (١٨١).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/٢٤٨).

(٤) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، لحمدى شاهين، ص (٢٥٢).

(٥) حروب الإسلام فى الشّام فى عهود الخلفاء الراشدين، ص (٥٧٧).

(٦) عثمان بن عفان للصَّلابى، ص (٢٠٥).

٢ ـ غزوات معاوية فى عهد عثمان فى البر:

أدرك معاوية رضى الله عنه بأن إزالة خطر الروم وتهديدهم للمسلمين لا يتم إلا بمواصلة غزو الروم وتنشيط حركة الجهاد بشكل مستمر فى الثغور الشامية والجزرية[١]، وشحنها بالمرابطين وتعهدها على الدوام، وقد أخذ منه ذلك وقتًا طويلاً وبذل فيه جهدًا كبيرًا خلال ولايته تلك فى عهد عثمان، ففى سنة خمس وعشرين للهجرة قام معاوية بجولة عسكرية على الثغور الشامية، فوجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك، وكانت الولاة تفعله[٢]، وفى سنة إحدى وثلاثين غزا من ناحية المصيصة فبلغ درولية[٣]، فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه[٤]، وكذلك الشأن فى الثغور الجزرية فقد أولاها عنايته فقد وجه فى الأيام الأولى لولايته تلك، كلاً من حبيب بن مسلمة الفهرى وصفوان بن المعطل السلمى إلى شمشاط ففتحها. كما وجه حبيب بن مسلمة إلى إعادة فتح ملطية بعد أن انتقضت، ففتحها عنوة، ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها، كما قام معاوية بنفسه بعد ذلك بحملة أخرى يريد التوغل فى أرض الروم فقد مرَّ على ملطية فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما وذلك لكى تكون طريقًا آمنًا لحملات الصوائف. كما غزا حصن المرأة من الثغور الجزرية فى السنة نفسها[٥]، وكان يتعهد حصن الحدث، وبنى مدينة مرعش وأسكنها الجند،

(١) الثغور الشامية والجزرية هى شريط طويل من القلاع والحصون يمتد على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية مع الدولة البيزنطية، ويبدأ هذا الشريط من ملطية إلى الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط. وينقسم خط هذه القلاع إلى مجموعتين: إحداهما تسمى بـ(الثغور الجزرية) وهى تمثل الجزء الشمالى الشرقى من هذا الخط ومن أهم ثغور هذا القسم: ملطية، وزبطرة، وحصن منصور، والحدث ومرعش وشمشاط. والمجموعة الثانية تسمى بالثغور الشامية وهى تمثل الجزء الجنوبى الغربى من ذلك الخط وأهم ثغور ذلك القسم: عين زربة، وأذنة، وطرطوس، وهرقلة، ويفصل بين المجموعتين فاصل طبيعى وهو جبل اللكام. انظر: أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٦٧).

(٢) فتوح البلدان، ص (٦٩).

(٣) المصيصة ودرولية من الثغور الشامية.

(٤) فتوح البلدان، ص (١٦٩).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ص (١٦٧)، فتوح البلدان، ص (١٨٩).

وكل هذه المدن والحصون من الثغور الجزرية[1]، ولما اطمأن معاوية إلى قوة جانبه بعد تلك الإجراءات أخذ يغزو فى عمق الأراضى الرومية، فقد قاد بنفسه غزوة سنة اثنين وثلاثين للهجرة توغل فيها بجيشه حتى وصل مضيق القسطنطينية[2].

٣ ـ معاوية يلتمس من عثمان رضى الله عنهما السماح له بالغزو البحرى:

كان معاوية رضى الله عنه يلح على عمر فى غزو البحر، ويصف له قرب الرُّوم من حمص، ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم، حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لى البحر وراكبه، فإن نفسى تنازعنى إليه، فكتب إليه عمرو: إنى رأيت خلقًا كبيرًا يركبه خلق صغير، إن ركن خرَّق القلب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية: أن لا، والذى بعث محمدًا بالحق لا أحمل فيه مسلمًا أبدًا، وتالله لمسلم أحبُّ إلىَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لى، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقى العلاء منِّى، ولم أتقدم إليه فى ذلك[3]. ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى فى الرُّوم ما رأى، فطمع فى بلادهم وفتحها، فلمَّا تولَّى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث، وألحَّ به على عثمان، فردّ عليه عثمان رضى الله عنه قائلاً: أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر ـ رحمه الله ـ حين استأذنته فى غزو البحر. ثم كتب إليه معاوية مرَّة أخرى يهوِّن عليه ركوب البحر إلى قبرص فكتب إليه: فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذونًا وإلا فلا[4]. كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضى الله عنه أيضًا بقوله: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعًا، فاحمله وأعنه[5]، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى

---

(١) فتوح البلدان، ص (١٨٧ ـ ١٩٦).

(٢) تاريخ خليفة، ص (١٦٧)، تاريخ الطبرى (٤/ ٣٠٤)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٦٩).

(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٥٨).

(٤) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٥٣٨).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠)

قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب، وتقريبها إلى ساحل عكًّا، فقد رمَّه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص[1].

٤ ـ غزو قبرص:

أعدَّ معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازى، واتَّخذ ميناء عكًّا مكانًا للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة، وحمل معه زوجه فاختة بنت قرظة، كذلك حمل عبادة بن الصَّامت امرأته أمَّ حرام بنت ملحان معه فى تلك الغزوة[2]، وأمُّ حرام هذه صاحبة القصَّة المشهورة: عن أنس بن مالك رضى الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان يدخل على أمِّ حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أمُّ حرام تحت عبادة بن الصَّامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يومًا، فأطعمته، ثم جلست تفلى من رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك. فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتى عُرضوا علىَّ غزاة فى سبيل الله، يركبون ثبيج هذا البحر ملوكًا على الأسرَّة، أو مثل الملوك على الأسرَّة. وقالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم! فدعا لها ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ، وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟! قال: ناس من أمتى عرضوا علىَّ فى سبيل الله... ـ كما قال فى الرواية الأولى ـ. قال: أنت من الأوّلين. فركبت أمّ حرام بنت ملحان فى البحر فى زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت[3]. ورغم أن معاوية رضى الله عنه لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين[4]، مما يدل أن المسلمين قد هانت فى أعينهم الدُنيا بما فيها، فأصبحوا لا يعبأون بها بالرَّغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون فى نعيمها. إن المسلمين قد تربّوا على أنّ ما عند الله خير، وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه، وإقامة العدل، ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كلِّ ما عداه، وهم يعتقدون: أنّ هذه المهمَّة هى

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/٥٣٨).

(٢) البداية والنهاية (٧/١٥٩).

(٣) البخارى رقم (٢٨٧٧).

(٤) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٦).

رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد فى سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصَّروا فى مهمَّتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم، فسيمسك الله عنهم نصره فى الدُّنيا، ويحرمهم مرضاته فى الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، من أجل هذا هُرعوا مع معاوية، وتسابقوا إلى السفن يركبونها، ولعلَّ حديث أمِّ حرام قد ألمَّ بخواطرهم، فدفعهم إلى الخروج للغزو فى سبيل الله تصديقًا لحديث رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء فى سنة ثمان وعشرين من الهجرة-٦٤٩م[١]، وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء أم حرام لتركب دابَّتها، فنفرت الدّابة، وألقت أمَّ حرام على الأرض، فاندقت عنقها، فماتت[٢]، وترك المسلمون أمَّ حرام بعد دفنها فى أرض الجزيرة عنوانًا على مدى التضحيات التى قدَّمها المسلمون فى سبيل نشر دينهم، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة[٣].

واجتمع معاوية بأصحابه، وكان فيهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارىُّ، وأبو الدَّرداء، وأبو ذر الغفارىُّ، وعبادة بن الصَّامت، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازنىُّ، وشدّاد بن أوس بن ثابت، والمقداد بن الأسود، وكعب الحبر بن ماتع، وجبير بن نضير الضرمى. وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم: أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم[٤]، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله، ثمَّ تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأنَّ البيزنطيين كانوا يتخذون من قبرص محطَّة يستريحون فيها؛ إذا غزوا، ويتموَّنون منها، إذا قلَّ زادهم، وهى بهذه المثابة تهدِّد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها، فإذا لم يطمئن المسلمون على مسالمة هذه الجزيرة لهم، وخضوعها لإرادتهم، فإن وجودها كذلك سيظلُّ شوكة فى ظهورهم، وسهمًا مسدَّدًا فى صدورهم، ولكنّ سكان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة، ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصّنوا فى العاصمة، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدّم الروم للدّفاع عنهم، وصدّ هجوم المسلمين عليها[٥].

---

(١) حوله تاريخية فى عصر الخلفاء، ص (٣٥٦).
(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩).
(٣) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٧).
(٤) المصدر نفسه، ص (٣٥٧).
(٥) المصدر نفسه، ص (٣٥٧).

٥ ـ الاستسلام وطلب الصلح:

تقدّم المسلمون إلى عاصمة قبرص «قسطنطينا» وحاصروها وما هى إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وقدّموا للمسلمين شروطًا، واشترط عليهم المسلمون شروطًا، وأما شرط أهل قبرص، فكان طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطًا تورّطهم مع الروم، لأنهم لا قبل لهم بهم، ولا قدرة لهم على قتالهم، وأمّا شروط المسلمين، فهى:

أ ـ ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة، إذا هاجم سكانها محاربون.

ب ـ أن يدلّ سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوّهم من الروم.

ج ـ أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومائتى دينار فى كل عام.

د ـ أن يكون طريق المسلمين إلى عدوّهم عليهم.

هـ ـ ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، ولا يُطلعوهم على أسرارهم[(١)].

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدخول فى معارك من هذا النوع مع العدوّ المتربص بهم، سواء بالهجوم على بلاد الشام، أو على الإسكندرية[(٢)].

٦ ـ عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامى فى الشام:

استعمل معاوية بن أبى سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسىّ حليف بنى فزارة، فغزا خمسين غزاة ما بين شاتية، وصائفة فى البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه الله العافية فى جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتّى إذا أراد أن يصيبه وحده، خرج فى قاربه طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم، وعليه سُؤّال يعترّون[(٣)] بذلك المكان، فتصدق عليهم،

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦١) .

(٢) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٨، ٣٥٩).

(٣) يعترّون : يتعرضون للناس دون أن يسألهم.

فرجعت امرأة من السُّوَّال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم فى عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: فى المرفأ، قالوا: أى عدوّة الله، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبّختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد فساروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه، وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاءوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدى، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه، ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا وأصيب فى المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسى[1]، وقيل لتلك المرأة التى استثارت الروم على عبد الله ابن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتَّاجر، فلمّا سألته، أعطانى كالملك، فعرفت أنه عبد الله بن قيس[2]. وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنَّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو فى وضع لا يضرُّ بسمعة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء، فكانت تلك الكائنة الغريبة التى أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرَّجل يظهر من مظاهره الخارجيَّة بمظهر التُّجار العاديين، ولكنَّه يعطى عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السِّيادة مع بساطة مظهره، فعرفت أنه قائد المسلمين، الذى دوّخ المحاربين فى تلك البلاد، وهكذا كانت سمات ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سببًا فى كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً، فيتم بذلك الهجوم عليه، وظفر بالشهادة، وهكذا يضرب قادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم، لتتمَّ الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه، ولم يكل الأمر إلى جنوده، وفى انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء، والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه، فيتولى هذه المهمة، ثمّ نجده يتخلق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء، وضعفتهم فيمد لهم يد الحنان، والعطف، ويسخو لهم بالمال الذى هو من أعزِّ ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقًا صبوراً، ليس معنِّفًا،

---

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٦٠).

ولا مستكبرًا، وإذا ادلهمت الخطوب، تفانى لكشف الغمّة، ولم يلجأ إلى لوم أصحابه، وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذى يفسد العمل، ويعجِّل بالخلل، والفوضى.

وأمَّا خليفته سفيان الأزدىُّ، فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك، والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة، ولكن مما يُحفظ له: أنَّه لما نبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذى كان أميره ينتهجه فى القيادة سارع فى التأسى به فى ذلك، ولم يحمله التكبُّر على عدم سماع كلمة الحقِّ، وإن صدرت من جارية مغمورة. وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخلق العظيم الذى كان غالبًا فى الجيل الأوَّل، وبه تمّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة، والقادة فى إدارة أمور الأمة، فلله درُّ أبناء ذلك الجيل ما أبلغ ذكرهم وما أبعد نحورهم! وما أعظم وطأتهم فى الأرض على الجبارين، أو ما أعذب لمساتهم فى الأرض على المستضعفين والمساكين[1].

٧ـ القبارصة ينقضون الصلح:

فى سنة اثنتين وثلاثين هجرية، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومى عنيف أجبرهم على إمداد جيش الرُّوم بالسُّفن، ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلوُّا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة، ووضعها تحت سلطان المسلمين، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجومًا عنيفًا، فقتلوا، وأسروا، وسلبوا، وهجم عليها جيش معاوية من جانب، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقًا كثيرًا، وسبوا سبيًا كثيرًا، وغنموا مالا جزيلا[2]، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول[3]، وخشى معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يرابط فى الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء، ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين، فبعث إليهم اثنى عشر ألفًا من الجنود، ونقل إليهم جماعة من بعلبك، وبنى هناك مدينة، وأقام فيها مسجدًا، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم، وظلّ الحال على

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٤٠٢).

(٢) جولة تاريخية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣٥٩، ٣٦٠). (٣) البلاذرى، ص (١٥٨).

ذلك، الجـزيرة هادئة والمسلمـون آمنون من هـجمـات الروم المفـاجئـة، ولاحظ المسلمون أنّ أهل قبـرص ليس فيهم قدرات عـسكرية، وهم مستضعـفون أمام من يغـزوهم، وأحس المـسلمـون أن الروم يغلبـــونهم على أمـرهم، ويســـخّـرونهم لمصالحهم، فـرأوا أن من حقهم عليهم أن يحمـوهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلطّ البـيزنطييـن وقال إسمـاعيل بن عـيّاش: أهل قبـرص أذلاء مقـهورون ويغلبهم الروم على أنفسهم، ونسائهم، فيحق علينا أن نمنعهم، ونحميهم[1].

٨ ـ ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه:

وقد جاء في سـياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبـي الدرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعـداء فبكى، ثمّ قـال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عـصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله ـ عز وجلّ ـ وعصوه، صاروا إلى ما ترى[2].

وجاء في روايةٍ: فقال له جـبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعـزّ الله فيه الإسلام وأهله، فقال: ويحك، إن هذه كانت أمّة قاهرة لـهم ملك، فلما ضيّعوا أمر الله، صيرّهم إلى ما ترى، سلط الله عليـهم السبي، وإذا سلط على قوم السّبي، فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى، إذا تركوا أمره[3].

إن ما تفوّه به أبو الدرداء يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة، والفقه في أمر الله تعالى، فهـذا الصحابي الجليل يبكي حـسرة على هؤلاء الذين أعمى الـله بصائرهم، فلم ينقادوا لدعوة الحق، فباءوا بهذا المصير المؤلم، حيث تحولوا من الملك، والعزة إلى الاستـسلام والذّلة، لإصـرارهم على لزوم الباطل، والتكبـر على الخضـوع لدعوة الحق، ولو أنهم عـقلوا، وتدبّـروا لكان في دخـولهم في الإسـلام بقـاء ملكهم، وعمران ديارهم، والظفـر بحماية دولة الإسلام، وإن هذا التفكيـر العميق من أبي الدرداء مظهرٌ من مظاهر الرّحـمة، والعطف، تفتحت عنـه نفسه الزكية، فـتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دمـوع تتحدّر من عيني هذا الرجل العظيم، ليعـبّر عمّا يجول في نفسه من نظرات الحنان، والرّحمـة، والأسى على مصير تلك الأمة التي

---

(١) جولة تاريخية، ص (٣٦١).
(٢) التاريخ الإسلامي (١٢/ ٣٩٦).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٥٩).

اجتمع البقاء على الضلال، والمآل السيئ بزوال الملك، والوقوع فى الذل والهوان، وإنّه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس فى الإسلام، فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعـيـشـون فى ضلال مـع إدراكه مـا ينتظـرهم من العـذاب الأليم المؤبد فى الآخرة، فكيـف إذا أضيف إلى ذلك وقوعـهم فى الأسر، والتـشرّد، وتعـرضهم للقتل فى الحياة الدنيا؟(١)

٩ ـ معار[illegible]لى عبادة بن الصامت رضى الله عنهما على قسمة غنائم قبرص:

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضى الله عنهـما: شهدت رسول الله ﷺ فى غزوة حنين والناس يكلمـونه فى الغنائم، فأخـذ وبرة من بعيـر، وقال: مالى ممـا أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخـمس، والخمس مـردود فيكم(٢). فاتق الله يا مـعاوية! واقسم الغنائم على وجههـا، ولا تعط منها أحداً أكثر من حقه! فقـال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، ليس أحد بالشّام أفـضل منك، ولا أعلم، فاقسمها بين أهلها، واتق الله فيها، فقسمها عبادة بين أهلها، وأعانه أبو الدرداء، وأبو أمامة(٣).

وعبادة بن الصامت رضى الله عنه من مؤسسى المدرسة الشامية، فقد وجهه عمر إلى الشام قـاضيًا ومـعلمًا، فـأقام بحمص ثم انتـقل إلى فلسطين فولى قـضاءها، واستقـر به المقام فيهـا، فكان أول من تولى قضاء فلسطين، وكان أيضـا يعلم أهلها القرآن، وظل على هذا النحو إلى أن مات بها(٤)، وقد أسهم عبادة رضى الله بنصيب كبير فى تنفيـذ سياسة الخلافة الراشدة العلمية والتـربوية والجهادية، وكان رضى الله عنه من أهل الزهد والخشـونة، فعندما وصل إلى حمص قال لأهـلها: ألا أن الدنيا عـرض حاضـر، وإن الآخرة وعـد صادق، ألا أن للدنيـا بنين وإن للآخـرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها بنوها(٥).

١٠ ـ حقيقة الخلاف بين أبى ذر ومعاوية وموقف عثمان -رضى الله عنه- منه:

إن مبغـضى عثمان بن عـفان رضى الله عنه كانوا يشنّعـون عليه أنه نفى أبا ذر رضى الله عنه إلى الربذة، وزعم بعض المؤرخين: أن ابن السوداء عبد الله بن سبأ

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٢/ ٣٩٧).
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٥٣).
(٣) الرياض النضرة، ص (٥٦١).
(٤) عبادة بن الصامت، صحابى كبير وفاتح مجاهد، ص (٨٤).
(٥) الاكتفاء، الكلاعى (٣/ ٣١٠).

لقى أبا ذر فى الشام، وأوحى إليه بمذهب القناعة، والزهد، ومواساة الفقراء، ووجوب إنفاق المال الزائد عن الحاجة، وجعله يعيب معاوية، فأخذه عبادة بن الصامت إلى معاوية، وقال له: هذا والله الذى بعث إليك أبا ذر. فأخرج معاوية أبا ذر من الشام(١)، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهًا بين رأى أبى ذر، ورأى مزدك الفارسى، وقال إن وجه الشبه جاء من أن ابن سبأ كان فى اليمن وطوّف فى العراق، وكان الفرس فى اليمن، والعراق قبل الإسلام، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقَّى هذه الفكرة من مزدكية العراق، واعتنقها أبو ذر على حسن النية فى اعتقادها(٢). وكل ما قيل فى قصَّة أبى ذر، مما يُشَنَّع به على عثمان باطل لا يُبنى على رواية صحيحة، وكلُّ ما قيل حول اتصال أبى ذر رضى الله عنه بابن السَّوداء باطل لا محالة(٣). والصحيح: أن أبا ذرّ رضى الله عنه نزل فى الربذة باختياره، وأنَّ ذلك كان بسبب اجتهاد أبى ذرّ فى فهم آية خالف فيه الصَّحابة، وأصرَّ على رأيه، فلم يوافقه أحد عليه، فطلب أن ينزل بالربذة(٤)، التى كان يغدو إليها زمن النبى ﷺ، ولم يكن نزوله بها نفيًا قصريًا، أو إقامة جبرية، ولم يأمره الخليفة بالرجوع عن رأيه، لأن له وجهًا مقبولاً، لكنَّه لا يجب على المسلمين الأخذ به(٥).

وأصحُّ ما روى فى قصة أبى ذرّ رضى الله عنه ما رواه البخارى فى صحيحه عن زيد بن وهب، قال: مررت بالرَّبذة، فإذا أنا بأبى ذرٍّ رضى الله عنه، فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشَّام، فاختلفت أنا ومعاوية فى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] قال معاوية: نزلت فى أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا، وفيهم، فكان بينى وبينه فى ذاك، وكتب إلى عثمان يشكونى، فكتب إلىَّ عثمان أن اقدم المدينة، فقدمتها، فكثر علىَّ الناس حتَّى كأنهم لم يرونى قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لى: إن شئت تنحيت فكنت قريبًا، فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل، ولو أمّروا علىَّ حبشيّاً، لسمعت وأطعت(٦). وقد أشار هذا الأثر إلى أمور مهمة منها:

---

(١) المدينة المنوّرة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦ ، ٢١٧) .
(٢) فجر الإسلام، ص (١١٠).
(٣) المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/٢١٧).
(٤) كانت منزلاً فى الطريق بين العراق ومكة.
(٥) المدينة المنورة، فجر الإسلام (٢/٢١٧).
(٦) البخارى، ك الزكاة رقم (١٤٠٦).

أ ـ سأله زيد بن وهب، ليتحقَّق ممَّا أشاعه مبغضو عثمان: هل نفاه عثمان أو اختار أبو ذرّ المكان؟ فجاء سياق الكلام: أنه خرج بعد أن كثر النّاس عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشَّام، وليس فى نص الحديث: أنَّ عثمان أمره بالذهاب إلى الربذة، بل اختارها بنفسه، ويؤيد هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله بن الصَّامت قال: دخلت على أبى ذرٍّ عند عثمان، فحسر رأسه، فقال: والله ما أنا منهم ـ يعنى الخوارج ـ فقال: إنَّما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة، فقال: لا حاجة لى فى ذلك، ائذن لى بالرَّبذة. قال: نعم(1).

ب ـ قوله: كنت بالشَّام: بيَّن السَّبب فى سكناه الشَّام ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد بن وهب، حدَّثنى أبو ذرٍّ، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إذا بلغ البناء ـ أى المدينة ـ سَلْعًا، فارتحل إلى الشَّام» . فلمَّا بلغ البناء سلعًا، قدمت الشام فسكنت فيها(2).

جـ ـ إنَّ قصة أبى ذر فى المال جاء من اجتهاده فى فهم الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: 34، 35]. وروى البخارى عن أبى ذر ما يدل على أنَّه فسَّر الوعيد «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا» الآية، وكان يخوِّف النَّاس به، فعن الأحنف بن قيس، قال: جلستُ إلى ملأ من قريش فى مسجد المدينة، فجاء رجل خَشِن الشَّعر، والثّياب، والهيئة، حتى قام عليهم، فسلَّم، ثم قال: بشِّر الكانزين بَرضف(3) يُحمى عليه فى نار جهنَّم ثم يوضع على حلمة ثَدْى أحدهم، يخرج من نُغْضِ كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل(4). ثمَّ ولّى فجلس فى سارية، وتبعته، وجلست إليه، وأنا لا أدرى من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت، قال: إنَّهم لا يعقلون شيئًا. واستدلَّ أبو ذرّ

(1) فتح البارى (3/ 274).
(2) المدينة المنورة فجر الإسلام (2/ 219).
(3) الرّضف: الحجارة المحماة، واحدها: رضفة.
(4) نغض: العظم الدقيق الذى على طرف الكتف، يتزلزل: يضطرب.

رضى الله عنه بقول رسول الله ﷺ: «ما أحبُّ أنَّ لى مثل أحد ذهبًا، أنفقه كُلَّه إلا ثلاثة دنانير»[٥].

د - وقد خالف جمهور الصحابة أبا ذرّ، وحملوا الوعيد على مانعى الزّكاة واستدلوا على ذلك بالحديث، الذى رواه أبو سعيد الخدرىُّ، قال: قال النَّبى ﷺ: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة[١]، وليس دون خمس ذَوْد صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة». وقالَ الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث: أنَّ ما زاد على الخمس ففيه صدقة، ومقتضاه: أنَّ كلَّ ما أخرجت منه الصَّدقة، فلا وعيد على صاحبه، فلا يسمى ما يفضل بعد إخراج الصدقة كنزًا[٢]، هذا وقد فصلت فى موضوع أبى ذرّ وخلافه مع معاوية رضى الله عنهما فى كتابى عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأثبت بالحجج والأدلة والبراهين أن عثمان رضى الله عنه لم ينف أبا ذرٍّ، رضى الله عنه، إنما استأذنه، فأذن له، ولكنَّ أعداء عثمان رضى الله عنه كانوا يشيعون عليه بأنَّه نفاه، ولذلك لما سأل غالب القطان، الحسن البصرى: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال الحسن: لا، معاذ الله[٣]، وكل ما روى فى أنَّ عثمان نفاه إلى الربذة فإنه ضعيف الإسناد، لا يخلو من علة قادحة، مع ما فى متنه من نكارة لمخالفته للمرويَّات الصحيحة والحسنة، التى تبيِّن أن أبا ذر استأذن للخروج إلى الرّبذة، وأنَّ عثمان أذن له[٤]، بل إن عثمان أرسل يطلبه من الشام، ليجاوره بالمدينة، فقد قال له عندما قدم من الشام: إنا أرسلنا إليك لخير، لتجاورنا بالمدينة[٥]. وقال له أيضا: كن عندى، تغدو عليك وتروح اللقاح[٦]. أفمن يقول ذلك ينفيه؟![٧]. ولم تنصّ على نفيه إلا رواية رواها ابن سعد، وفيها بريدة بن سفيان الأسلمى الذى قال عنه الحافظ ابن حجر: ليس بالقوى، وفيه رفض. فهل تقبل رواية رافضى تتعارض مع الروايات الصحيحة، والحسنة[٨]؟

واستغل الرّافضة هذه الحادثة أبشع استغلال، فأشاعوا أن عثمان رضى الله عنه نفى أبا ذر إلى الربذة، وأن ذلك مما عيب عليه من قبل الخارجين عليه، أو أنّهم

(١) البخارى: ك الزكاة رقم (١٤٠٧). (٢) البخارى رقم (١٤٠٥).
(٣) فتح البارى (٣/ ٢٧٢). (٤) تاريخ المدينة، ابن شبَّة، ص (١٠٣٧)، إسناده صحيح.
(٤) فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه (١/ ١١٠).
(٥) تاريخ المدينة، ص (١٠٣٦، ١٠٣٧) إسناده حسن.
(٦) الطبقات، لابن سعد (٤/ ٢٢٦، ٢٢٧).
(٧) فتنة مقتل عثمان (١ / ١١١). (٨) المصدر السابق نفسه.

سوّغوا الخروج عليه[1]، وعاب على عثـمان رضى الله عنه ذلك ابن المطهر الحلّى الشيعى المتوفى سنة ٧٢٦هـ، بل زاد: أن عـثمان رضى الله عنه ضرب أبا ذرٍّ ضربًا وجيعًا، ورد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية ردًا جامعًا قويًا[2]، وكان سلف هذه الأمَّة يعلمون هذه الحقيقة، فإنَّه لما قيل للحسن البصرىِّ: عثمان أخرج أبا ذرٍّ؟ قال: لا، معاذ الله[3]. وكان ابن سـيرين إذا ذُكر له أنَّ عـثمان رضى الله عنه سـيَّر أبا ذر، أخذه أمرٌ عظيم، ويقول: هو خرج من نفسه، ولم يسيِّره عثمان[4]، وكما تقدم فى الرِّواية الصحيحة الإسناد: أنَّ أبا ذرّ رضى اللـه عنه لما رأى كثرة النَّاس عليه خشى الفتنة، فذكر ذلك لعثمان كأنه يستأذنه فى الخروج، فقال له عثمان رضى الله عنه: إن شئت تنحيت فكنت قريبًا[5]. كما أن أبا ذرٍّ رضى الله عنه لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيـد بآراء عبد الله بن سـبأ اليهـودىِّ، وقد أقام بالـرَّبذة حتى توفى، ولم يحـضر شـيئًـا مما وقع فى الفتن[6]، ثمَّ إنه قد روى حـديثًا من أحـاديث النَّهى عن الدخول فى الفتنة[7]، وبعد وفاة أبى ذر رضى الله عنه ضمّ أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه عياله إلى عياله[8]، فرضى الله عن جميع الصحابة الأبرار، الطيبين الأطهار.

١١- اتهام عثمان رضى الله عنه بإعطاء أقاربه من بيت المال:

اتُّهم عثمان رضى الله عنه من قبل الغـوغاء، والخوارج بإسرافه فى بيت المال، وإعطائه أكـثره لأقاربه، وقـد ساند هذا الاتِّهـام حملة دعـائية باطلة قـادها أعداء الإسـلام ضدَّه، وتسـربَّت فى كـتب التـاريخ، وتعـامل معـهـا بعض المفكِّرين، والمؤرخين على أنها حقائق، وهى باطلة لم تثبت، لأنها مختلقة، والذى ثبت من إعطائه أقاربه أمور تعد من مناقبه، لا من المثالب[9] فيه. إن عثمان رضى الله عنه كان ذا ثروة عظيمة، وكان وصولاً للرحم[10] يصلهم بصلات كثيرة وفيرة، فنقم

(١) فتنة مقتل عثمان (١/ ١١١).
(٢) منهاج السنة لابن تيمية (٦/ ١٨٣).
(٣) تاريخ المدينة (١٠٣٧) إسناده صحيح.
(٤) المصدر السابق.
(٥) البخارى، ك: الزَّكاة رقم (١٤٠٦).
(٦) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة فى ضوء قواعد الجرح والتعديل، ص (١٧٤).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٧٤).
(٨) تاريخ الطبرى (٥/ ٣١٤).
(٩) عثمان بن عفان للصلاَّبى، ص (١٤٨).
(١٠) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص (٨٢).

عليه أولئك الأشرار، وقالوا إنه إنما كان يصلهم من بيت المال، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقالوا: إنى أحبُّ أهل بيتى، وأعطيهم.. فأمّا حبّى لهم؛ فإنّه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم.. وأما إعطاؤهم، فإنى إنّما أعطيهم من مالى، ولا استحلُّ أموال المسلمين لنفسى، ولا لأحد من الناس، وقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرَّعية من صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ، وأبى بكر، وعمر، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى[1]، وفنى عمرى، وودَّعت الذى لى فى أهلى، قال الملحدون ما قالوا ؟[2]. وكان عثمان قد قسَّم ماله، وأرضه فى بنى أمية، وجعل ولده كبعض مَنْ يعطى، فبدأ ببنى أبى العاص، فأعطى آل الحكم؛ رجالهم عشرة آلاف، فأخذوا مائة ألف، وأعطى بنى عثمان مثل ذلك، وقسم فى بنى العاص، وفى بنى العيص، وفى بنى حرب[3]. فهذه النصوص وغيرها ومَّما اشتهر عنه، وما صحَّ من الأحاديث فى فضائله الجمّة تدل على أن ما قيل فيه من إسرافه فى بيت المال، وإنفاق أكثره على أقاربه، وقصوره، حكايات بدون زمام، ولا خطام[4].

إن سيرة عثمان -رضى الله عنه- فى أقاربه تمثِّل جانبًا من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة، لقوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. كما أنَّها تمثِّل جانبًا عمليًا من سيرة المصطفى ﷺ، فقد رأى عثمان رضى الله عنه من رسول الله ﷺ وعلم من حاله ما لم ير، أو يعلم غيره من منتقديه وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة النَّاس، وكان ممَّا رأى شدَّة حبِّ رسول الله ﷺ لأقاربه وبرِّه لهم، وإحسانه إليهم، وقد أعطى عمَّه العباس ما لم يعط أحدًا عندما ورد عليه مال البحرين[5]، ولعثمان وسائر المؤمنين فى رسول الله أعظم القدوة[6]، وقد ردَّ ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على من اتَّهم عثمان بتفضيله أهله

(١) جاوزت أعمارهم.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٦).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٥٦).
(٤) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص (٨٣).
(٥) البخارى، ك: الجزية.
(٦) البداية والنهاية (٧/ ٢٠١).

بالأموال الكثيرة من بيت المال فقال: وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتَّى إنَّه دفع إلى أربعة نفر من قـريش زوَّجهم بناته أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف ألف دينار ـ مليون دينار ـ فالجواب يقال: أين النقل الثابت بهذا؟. نعم كان يعطى أقـاربه، ويعطى غير أقاربه أيضًـا، وكان يحسن إلى جمـيع المسلمين، وأمَّا هذا الـقدر الكثيـر فيـحتـاج إلى نقل ثابت، ثم يقال ثانيًـا: هذا من الكذب البيِّن، فـإنه لا عثمـان ولا غيره من الخلفـاء الراشدين أعطوا أحدًا مـا يقارب هذا المبلغ[1].

١٢ـ هل عيَّن عثمان رضى الله عنه أحدًا من أقربائه على حساب المسلمين؟

لم يعين عثمـان رضى الله عنه أحدًا من أقاربه على حسـاب المسلمين ولو أراد أن يجامل أحدًا من أقاربه على حساب المسلمين لكان ربيـبه محمد بن أبى حذيفة أولى النَّاس بهذه المجاملة، ولكنَّ الخليـفة أبى أن يوليه شيئًا ليس كـفئًا له بقوله: يابنىَّ لو كنت رضًـا ثم سألتنى العـمل، لاستعـملتك، ولكن لست[2] هناك ولم يكن ذلك كراهيـة له، ولا نفورًا منه، وإلا لما جهَّـزه من عنده، وحمله، وأعطاه حين استأذن فى الخروج إلى مصر[3]، وأمّا استعمال الأحداث فكان لعثمان رضى الله عنه فى رسول الله أسـوة حسنة فقد جهَّـز جيشًا لغزو الرُّوم فى آخـر حياته، واستعـمل عليه أسامة بن زيد، رضى اللـه عنهما[4]، وعندما توفى الرَّسول ﷺ تمسَّك الصديق رضى الله عنه بإنفـاذ هذا الجيش، لكنَّ بعض الصحـابة رغبوا فى تغييـر أسامة بقائد أحـسن منه، فكلَّموا عمر فى ذلك ليكلم أبا بـكر، فغضب أبو بكر لمَّا سمع هذه المقالة، وقال لعمر: يا عمر استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرنى أن أعزله[5]. ويجيب عثمان بنفسه على هذه المآخذ أمام الملأ من الصحابة بقوله: ولم

(١) منهاج السنة (٣/ ١٩٠).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٢٤٧).

(٣) المصدر السابق (١/ ٢٤٧)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦).

(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٢٤٧)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦).

(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٦).

أستعمل إلا مجتمعًا، محتلمًا، مرضيًا، وهؤلاء أهل عملهم، فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم، وقد ولى من قبلى أحدث منهم، وقيل لرسول الله ﷺ ممَّا قيل لى فى استعماله لأسامة، أكذلك؟ قالوا: نعم يعيبون للنَّاس مالا يفسرون[1].

ويقول علىّ رضى الله عنه: ولا يولِّ -أى عثمان - إلا رجلاً سويًا، عدلاً، وقد ولىَّ رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد على مكّة وهو ابن عشرين سنة[2]، ولم يكن ولاة الأمصار فى عهد عثمان رضى الله عنه جاهلين بأمور الشَّرع، ولم يكونوا من المفرِّطين فى الدِّين، وإذا كانت لهم ذنوب، فلهم حسنات كثيرة، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء تعود عليهم ولم يكن لها تأثير فى المجتمع المسلم، وقد تتبعنا آثار هؤلاء الولاة أيَّام ولايتهم، ووجدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمين، وقد اهتدى على يدى ولاة عثمان مئات الألوف إلى الإسلام، وبسبب فتوحاتهم انضم إلى ديار الإسلام أقاليم واسعة، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة والدّين ما يحثهم على الجهاد، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد، وفيه مظنة الهلاك، وفيه ترك الراحة، ومتاع الدنيا. وقد تتبعت سيرة هؤلاء الولاة، فوجدت لكل واحد منهم فتحًا، أو فتوحًا فى الجهات التى تجاور ولايته، مع مناقب وصفات حسنة تؤهله للقيادة، وقد فصلت فى كتابى عن عثمان رضى الله عنه فى مبحث مستقل حقيقة ولاة عثمان[3] رضى الله عنه.

إن الذى يرجع إلى الصحيح الممحّص من وقائع التاريخ، ويتتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين ذو النورين - رضوان الله عليهم - وما كان لجهادهم من جميل الأثر فى تاريخ الدعوة الإسلامية، بل مما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج فى هناء الأمّة، وسعادتها، فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الجهر بالإعجاب، والفخر كلمّا أمعن فى دراسة ذلك من أدوار التاريخ الإسلامى[4].

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٥). (٢) البداية والنهاية (٧/ ١٧٨).
(٣) عثمان بن عفان للصلّابى، ص (٢٩٤).
(٤) حاشة المنتقى من منهاج الاعتدال، ص (٣٩٠).

إن عثمان رضى الله عنه وولاته انشغلوا بمدافعة الأعداء، وجهادهم، وردّهم، ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ومدّ نفوذها فى مناطق جديدة، وقد كان للولاة تأثير مباشر فى أحداث الفتنة؛ حيث كانت التهمة موجهة إليهم، وأنّهم اعتدوا على الناس، ولكنّنا لم نلمس حوادث معينة يتّضح فيها هذا الاعتداء المزعوم، والمشاع، كما اتُّهم عثمان بتولية أقاربه، وقد دحضنا تلك الفرية. وهكذا نرى أنّ عثمان لم يألُ جهدًا فى نصح الأمة، وفى تولية من يراه أهلاً للولاية، ومع هذا لم يسلم عثمان، وولاته من اتهامات وجهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة فى حينها، كما أن عثمان رضى الله عنه لم يسلم من كثير من الباحثين فى كتاباتهم غير المحقّقة عن عهد عثمان وخصوصًا الباحثين المحدثين الذين يطلقون أحكامًا لا تعتمد على التحقيق، أو على وقائع محددة، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة، فقد تورّط الكثير منهم فى الرّوايات الضّعيفة، والرافضيّة، وبنو أحكامًا باطلة وجائرة فى حق الخليفة الرّاشد عثمان بن عفان، مثل طه حسين فى كتابه «الفتنة الكبرى»، وراضى عبد الرحيم فى كتابه «النظام الإدارى والحربى»، وصبحىّ الصالح فى كتابه «النُّظم الإسلامية»، ومولوى حسين فى كتابه «الإدارة العربية»، وصبحى محمصانى فى كتابه «تراث الخلفاء الراشدين فى الفقه»، والقضاء، وتوفيق اليوزبكى فى كتابه «دراسات فى النظم العربية والإسلامية»، ومحمد الملحم فى كتابه «تاريخ البحرين فى القرن الأول الهجرى»، وبدوى عبد اللطيف فى كتابه «الاحزاب السياسية فى فجر الإسلام»، وأنور الرِّفاعى فى كتابه «النظم الإسلامية»، ومحمد الرّيِّس فى كتابه «النظريات السياسية»، وعلى حسنى الخربوطلى فى كتابه «الإسلام والخلافة»، وأبى الأعلى المودودى فى كتابه «الملك والخلافة» وسيد قطب فى كتابه «العدالة الاجتماعية»، وغيرهم[1].

ولقد أكثر المؤرخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه، وسيطرتهم على أزمة الحكم فى عهده، حتى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوى قرباه فى شئون الدولة[2]، وأقارب عثمان الذين ولاهم رضى الله عنه

---

(١) الولاية على البلدان (١/ ٢٢٢ - ٢٣٢).

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٥٩).

أوّلهم معاوية بن أبى سفيان، والثانى عبد الله بن أبى السرح، والثالث الوليد بن عقبة، والرابع سعيد بن العاص، والخامس عبد الله بن عامر، هؤلاء خمسة ولاهم عثمان، وهم من أقاربه، وهذا فى زعمهم مطعن عليه، فلو أخذنا إحصائية لوجدنا أن عدد الولاة فى عهد عثمان ستة وعشرون واليًا، ألا يصح أن يكون خمسة من بنى أمية يستحقون الولاية، وبخاصة إذا علمنا أن النبى ﷺ كان يولىّ بنى أمية أكثر من غيرهم؟ علمًا بأن هؤلاء الولاة لم يكونوا كلّهم فى وقت واحد، بل كان عثمان رضى الله عنه ولىّ الوليد بن عقبة، ثمّ عزله، فولى مكانه سعيد ابن العاص، فلم يكونوا خمسة فى وقت واحد، ولم يتوفّ عثمان إلا وقد عزل أيضا سعيد بن العاص، فعندما توفى عثمان لم يكن من بنى أمية من الولاة إلا ثلاثة وهم معاوية، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح، وعبد الله بن عامر بن كريز فقط، عزل عثمان الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، ولكنّه عزلهما من أين؟ من الكوفة التى عزل منها عمر سعد بن أبى وقاص، الكوفة التى لم ترض بوالٍ أبدًا، إذ عزلُ عثمان رضى الله عنه لأولئك الولاة لا يعتبر مطعنًا فيهم، بل مطعنٌ فى أهل الشغب فى المدينة التى وُلُّوا عليها[1].

إن بنى أمية كان رسول الله ﷺ يستعملهم فى حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة منهم أبو بكر، وعمر، رضى الله عنهما، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمّال لرسول الله ﷺ أكثر من بنى عبد شمس! لأنهم كانوا كثيرين وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبى ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبى العاص على مكة، وأبا سفيان بن حرب على نجران، وخالد بن سعيد على صدقات بنى مدحج، وأبان بن سعيد على بعض السّرايا ثمّ على البحرين. فعثمان رضى الله عنه، لم يستعمل إلا من استعمله النبى ﷺ، ومن جنسهم، وقبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر بعده، فقد ولى أبو بكر يزيد بن أبى سفيان فى فتوح الشام، وأقرّه عمر، ثمّ ولى عمر بعده أخاه معاوية[2].

والسؤال الذى يطرح نفسه أأثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا؟ والحقيقة العلمية التى أثبتها فى كتابى عن عثمان رضى الله عنه بأن ولاة عثمان أثبتوا كفاءتهم، فالولاة

(١) حقبة من التاريخ، ص (٧٥).

(٢) منهاج السنة (٣/ ١٧٥، ١٧٦).

الذين ولاهم عثمان رضى الله عنه من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة فى إدارة شئون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان، وساروا فى الرعية سيرة العدل والإحسان[1]، فمثلاً معاوية رضى الله عنه كانت سيرته مع الرعية فى ولايته من خير سير الولاة مما جعل النّاس يحبونه، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ قال: «خيار أئمتكم ـ حكامكم ـ الذين تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم ـ تدعون لهم ـ ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»[2]، وقد بين القاضى ابن العربى وأثبت أن رسول الله استكتب معاوية، وأن سند ولايته الأعمال فى الدولة الإسلامية لم يكن لأحد قبله، ولم يكن لأحد بعده، حيث اجتمع على توليته: رسول الله ﷺ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة، ثم صالحه وأقرّ له بالخلافة الحسن بن على بن أبى طالب[3].

١٣ ـ أسباب فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه:

قال الزهرى: ولى عثمان اثنتى عشرة سنة أميراً للمؤمنين، أوّل ستّ سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئًا، وإنّه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأنّ عمر كان شديداً عليهم، أمّا عثمان، فقد لان لهم، ووَصَلَهم، ثمّ حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سمّى المؤرِّخون المسلمون الأحداث فى النِّصف الثانى من ولاية عثمان ٣٠ ـ ٣٥هـ (الفتنة)، التى أدَّت إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه[4]، وكان المسلمون فى خلافة أبى بكر، وعمر، وصدراً من خلافة عثمان، متَّفقين، لا تنازع بينهم، ثم حدثت فى أواخر خلافة عثمان أمور، أوجبت نوعًا من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة، والظلم فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان[5]، وكان المجتمع الإسلامى فى خلافة الصديق، والفاروق، والنِّصف الأوّل من خلافة عثمان يتَّصف بالسِّمات الآتية:

أنه ـ فى عمومه ـ مجتمع مسلم بكل معانى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبق الإسلام بجدية واضحة، والتزام ظاهر، وبأقلّ قدر من المعاصى وقع فى أىّ مجتمع فى التّاريخ.

(١) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (١/ ٤١٧).

(٢) مسلم، ك الإمارة رقم (٦٥).

(٣) العواصم من القواصم، ص (٨٢).

(٤) طبقات ابن سعد (١/ ٣٩ ـ ٤٧)، الخلفاء الراشدون للخالدى، ص (١١٢).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٠).

- أنه المجتمع الذى تحقَّق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقىِّ للأمَّة بمعناها الرَّبانى، فهى الأمة التى تربط بينها رابطة العقيدة، بصرف النظر عن اللغة، والجنس، واللَّون، ومصالح الأرض القريبة، وهذه لم تتحقَّق فى التاريخ كما تحقّقت فى الأمة الإسلامية.

- أنه مجتمع أخلاقى يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين، وتوجيهاته.

- أنه مجتمع جادٌ، مشغول بمعالى الأمور لا بسفاسفها، وليس الجدُّ بالضرورة عبوسًا، وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمّة فى الناس، وتحثُّ على النشاط، والعمل، والحركة.

- أنه مجتمع مجنَّد للعمل، فى كلِّ اتجاه، تلمس فيه روح الجنديَّة واضحة لا فى القتال فى سبيل الله فحسب، ولكن فى جميع الاتجاهات، فهو معبَّأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة، وبتأثير شحنتها الدّافعة لبذل النشاط فى كلِّ اتجاه[1].

- أنه مجتمع متعبِّدٌ نلمس فيه روح العبادة واضحة فى تصرفاته، ليس فقط فى أداء الفرائض، والتطوّع بالنَّوافل ابتغاء مرضاة الله، ولكن فى أداء الأعمال جميعًا، والعمل فى حسِّه عبادةٌ، يؤديه بروح العبادة[2].

هذه من أهم صفات عهد الخلفاء الراشدين ـ بصفة عامة ـ إلا أن تلك السِّمات كانت أقوى كلمَّا اقتربنا من عهد النبوة، وتضعف كلَّما ابتعدنا عن عصر النُّبوة، وقد بدأ التغير على عهد الخلافة الراشدة مع ظهور فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه، وكان لظهور هذه المحنة العظيمة التى مرت بها الأمة أسباب منها:

أ - الرخاء وأثره فى المجتمع: وغنىٌّ عن الإشارة أنَّ النِّعم، والخيرات، وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع، إذ تجلب الرَّخاء وما يترتَّب عليه من انشغال النَّاس بالدُّنيا، والافتتان بها، كما أنَّها مادة للتنافس، والبغضاء، خاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان نفوسهم، ولم تهذبهم التَّقوى من أعراب البادية، وجفاتها، ومن مسلمة الفتوحات، وأبناء الأمم المترفة، وقد أدرك

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٠٢).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٠٢).

عثمان رضى الله عنه هذه الظاهرة وأنذر بما سيئول إليه أمر الأمّة من التَّبذُّل والتغيُّر فى كتابه الموجه إلى الرّعية: فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثةٍ فيكم: تكامل النِّعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن[1]. وحدث ما توقعه عثمان رضى الله عنه، وبدأ التغير يظهر أثره أولاً على أطراف الدّولة الإسلامية ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، ممّا دفع عثمان رضى الله عنه إلى تذكير المسلمين فى خُطَبه بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا، وحطامها، فكان مما قاله فى إحدى خطبه: إنَّ الله إنَّما أعطاكم الدُّنيا، لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها، لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، . . . واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزابًا[2]، ثم قرأ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣، ١٠٤].

وفى مثل هذه الظروف، والخيرات، فاضت الدُّنيا على المسلمين وتفرّغ الناس بعد أن فتحوا الأقاليم، واطمأنُّوا فأخذوا ينقمون على خليفتهم[3]. ومن هنا يُعلم أثر الرخاء فى تحريك الفتنة، ومن هنا أيضًا يمكن فهم مقالة عثمان رضى الله عنه لعبد الرَّحمن بن ربيعة ـ له صحبة ـ وهو على الباب[4]: إن الرَّعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة، فقصِّر بهم، ولا تقتحم بالمسلمين، فإنِّى خاشٍ أن يبتلوا[5].

ب – طبيعة التحول الاجتماعىِّ فى عهد عثمان رضى الله عنه: حدثت تغيرات اجتماعية عميقة، ظلَّت تعمل فى صمت، وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجِّر بدءًا من النِّصف الثانى من خلافة عثمان

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٥). (٢) أحداث وأحاديث الهرج، ص (٥٦٧).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٢).

(٤) المقصود بالباب : منطقة فى جهة أذربيجان، معجم البلدان (١/ ٣٠٣).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٦٢).

بلغت قمّة فورانها فى التمرُّد الذى أدَّى إلى استشهاد عثمان رضى الله عنه[1]، ولما توسَّعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح، حصل تغيُّر فى تركيبة المجتمع واختلالات فى نسيجه، لأنَّ هذه الدَّولة بتوسُّعها المكانى، والبشرىِّ، ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس، وألوان، ولغات، وثقافات، وعادات، ونظم، وأفكار، ومعتقدات، وفنون أدبية، وعمرانية، ومظاهر، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة، وخروقات غير منتظمة، صيَّرت المجتمع غير متجانس فى نسيجه التَّركيبىِّ، وبالذات فى الأمصار الكبرى المؤثِّرة: البصرة، الكوفة، والشّام، ومصر، والمدينة، ومكة، فقد كانت الأمصار الكبيرة بموقعها وأهميتها تدفع لجيوش الفتوح، وتستقبلها وهى عائدة، وقد نقص عددها بالموت والقتل، وتستقبل بدلا منهم أو أكثر منهم أعداداً وفيرة من أبناء المناطق المفتوحة؛ فرس، وترك، وروم، وقبط، وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الفرس، أو النَّصارى العرب، أو غيرهم، أو من اليهود[2]، وأكثر سكان هذه الأمصار، هؤلاء من القبائل العربيَّة من جنوبها، وشمالها، وشرقها، والذين لم يكونوا ـ عادة ـ من الصَّحابة، وبمعنى أدق ليسوا ممَّن تلقَّوا التَّربية الكافية على يد رسول الله ﷺ، أو على أيدى الجيل الأوَّل من الصحابة، إمَّا لانشغالهم بالفتوح، أو لقلة الصحابة، وقد حصلت تغيراتٌ فى نسيج المجتمع البشرىِّ المكوَّن من الجيل السَّابق وسكّان البلاد المفتوحة، والأعراب، ومن سبقت لهم ردَّة، واليهود، والنَّصارى، وفى تكوين نسيج المجتمع الثَّقافى، وفى بسطة عيش المجتمع، وفى ظهور لون جديد من الانحرافات، وفى قبول الشائعات[3].

ج- ظهور جيل جديد: فقد حدث فى المجتمع تغيُّر أكبر، ذلك أن جيلاً جديداً من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانه فى المجتمع وهو غير جيل الصحابة، جيل يعيش فى العصر غير الذى كانوا يعيشون فيه، ويتَّصف بما لا يتَّصفون به، فهو جيل[4] يعتبر فى مجموعه أقلَّ من الجيل الأوَّل الذى حمل على كتفه عبء بناء الدّولة، وإقامتها، فقد تميز الجيل الأوَّل من المسلمين بقوَّة الإيمان، والفهم السَّليم

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٦٦).
(٢) دراسات فى عهد النبوة، ص (٣٧٩).
(٣) المصدر السابق نفسه، ص (٣٨٠).
(٤) الدولة الأموية، يوسف العش، ص (١٣٢).

لجوهر العقيدة الإسلاميَّة، والاستعداد التّام لإخضاع النَّفس لنظام الإسلام المتمثل في القرآن والسُّنَّة، وكانت هذه المميزات أقل ظهوراً في الجيل الجديد الذى وُجد نتيجة للفتوحات الواسعة، وظهرت فيه المطامع الفرديَّة، وبُعثت فيه العصبية للأجناس، والأقوام، وبعضهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهليَّة التى كانوا عليها، ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السَّليمة مثل ما نال الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة رضى الله عنهم على يد رسول الله ﷺ، وذلك لكثرتهم، وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوحات الجديدة[1]، فالصَّحابة كانوا أقلَّ فتنًا من سائر من بعدهم، فإنَّه كلما تأخَّر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف[2]، ووجد دعاة الفتنة فى المنحرفين من الجيل الجديد بغيتهم.

د- استعداد المجتمع لقبول الشائعات: ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس فى نسيج المجتمع أنه صار مهيَّأً للهزَّات، مستعداً للاضطراب، قابلاً لتلقِّى الإذاعات، والأقاويل والشائعات[3]، ولهذا لما كان الناس فى خلافة أبى بكر وعمر أقرب عهدًا بالرِّسالة، وأعظم إيمانًا، وصلاحًا، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت فى الطمأنينة لم تقع فتنة، إذ كانوا فى حكم القسط، أى النفوس المطمئنة[4]، ولما كان فى آخر خلافة عثمان، وخلافة علىٍّ، كثر أهل النفس اللَّوَّامة التى تخلط عملاً صالحًا، وآخر سيئًا؛ فصار فيهم شهوة، وشبهة مع الإيمان، والدِّين، وصار ذلك فى بعض الولاة، وبعض الرِّعايا، ثمَّ كثر هذا القسم، الذى خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فنشأت الفتنة التى سببها ما تقدَّم من عدم تمحيص التَّقوى، والطَّاعة فى الطَّرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى، والمعصية فى الطَّرفين، وكل منهم متأوِّلٌ وأنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأنَّه مع الحقِّ، والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه من الظنِّ، وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحقِّ من الأخرى[5]، ويوضِّح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذى دار بين أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وأحد أتباعه، قال الرَّجل: ما بال

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٥٦).

(٢) ذو النورين عثمان بن عفان، مال الله، ص (٩٩).

(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٣٨٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٨).

(٥) المصدر نفسه (٢٨/ ١٤٩).

المسلمين اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبى بكر، وعمر؟ قال على: لأنَّ أبا بكر، وعمر كانا واليين على مثلى، وأنا اليوم والٍ على مثلك[1]، وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان مدركًا لما يدور فى وسط المجتمع حيث قال فى رسالته إلى الأمراء: أمّا بعد، فإن الرَّعية قد طعنت فى الانتشار، ونزعت إلى الشَّره، وأعْداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء مسرعة، وضغائن محمولة، يوشك أن تنفر، فَتُغَيِّر[2].

هـ- مجيء عثمان بعد عمر، رضى الله عنهما: كان مجيء عثمان رضى الله عنه مباشرة بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، واختلاف الطبع بينهما مؤدّيًا إلى تغيُّر أسلوبهما فى معاملة الرَّعية، فبينما كان عمر قوى الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعًا، وأرقّ فى المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه، أو يأخذ النّاس بما يأخذ به عمر ،حتّى يقول عثمان لنفسه: يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر يطيق؟![3] لكن النَّاس، وإن رغبوا فى الشَّوط الأوَّل من خلافته، لأنَّه لان معهم، حتَّى أصبحت محبَّته مضرب المثل، فقد أنكروا عليه بعد ذلك، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان فى لطفه، ولين عريكته، ورقة طبعه ودماثة خلقه، ممّا كان له بعض الأثر فى مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده، وعهد سلفه عمر بن الخطَّاب، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: أتدرون ما جرّأكم علىَّ؟ ما جرَّأكم علىَّ إلا حلمى[4]، وحين بدأت نوايا الخارجين -وقد ألزمهم عثمان الحجَّة فى ردّه على المآخذ التى أخذوها عليه أمام الملأ من الصَّحابة والنّاس- أبى المسلمون إلا قتلهم وأبى عثمان إلا تركهم، لحلمه، ووداعته قائلاً: بل نعفو، ونقبل، ولنصبرهم بجهدها، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حداً، أو يبدى كفراً[5].

و- خروج كبار الصَّحابة من المدينة: كان عمر رضى الله عنه قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن، وأجلٍ، فشكوه، فبلغه فقام،

(١) مقدمة ابن خلدون، ص (١٨٩).
(٢) التمهيد والبيان، ص (٦٤).
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٨).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٢٥٠).
(٥) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (١/ ٣٦٤).

فقال: ألا أنِّى قد سننت الإسلام سَنَّ البعير، يبدأ فيكون جذعًا، ثم ثَنِيّاً، ثم رباعيّاً، ثم سديسًا، ثمّ بازلا[1]، فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإنَّ الإسلام قد نَزَل، ألا وإنَّ قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأمّا وابن الخطاب حىٌّ فلا، إنى قائم دون شِعب الحرَّة، آخذ بحلاقيم[2] قريش، وَحُجَزِها أن يتهافتوا فى النَّار[3]. لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصَّحابة من انتشارهم فى البلاد المفتوحة، وتوسُّعهم فى القطاع والضِّياع؛ فكان يأتيه الرَّجل من المهاجرين، وهو ممَّن حبس فى المدينة، فيستأذنه فى الخروج، فيجيبه عمر: لقد كان لك فى غزوك مع رسول الله ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدُّنيا، ولا تراك[4]، وأمَّا عثمان فقد سمح لهم بالخروج، ولان معهم.

ز ـ العصبية الجاهلية: يقول ابن خلدون: لما استكمل الفتح، واستكمل للملَّة الملك، ونزل العرب بالأمصار فى حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة، والكوفة، والشّام ومصر، وكان المختصُّون بصحبة الرَّسول ﷺ والاقتداء بهديه، وآدابه: المهاجرين والأنصار، وقريش، وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم، وأمَّا سائر العرب من بنى بكر بن وائل، وعبد القيس، وسائر ربيعة، والأزد، وكندة، وتميم، وقضاعة، وغيرهم فلم يكونوا فى تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانت لهم فى الفتوحات قدم، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السَّابقة، ومعرفة حقِّهم، وما كانوا فيه من الذهول، والدَّهش لأمر النُّبوّة، وتردُّد الوحى، وتنزل الملائكة، فلمَّا انحصر ذلك العباب، وتنوسى الحال بعض الشَّىء، وذل العدوُّ، واستفحل الملك، كانت عروق الجاهليَّة تنبض، ووجدوا الرِّياسة عليهم من المهاجرين، والأنصار، وقريش، وسواهم، فأنفت نفوسهم منه، ووافق ذلك فى أيَّام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن فى ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللَّحظات، والخطوات، والاستبطاء عليهم بالطاعات، والتَّجنِّى بسؤال الاستبداد منهم، والعزل، ويفيضون فى النّكير على عثمان، وفشت المقالة فى ذلك فى أتباعهم، وتناولوا بالظُّلم فى جهاتهم، وانتهت

(١) البازل : الذى انشق نابه بدخوله فى التّاسعة.
(٢) الحلاقيم : جمع حلقوم .
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٤١٣) .
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٤١٤).

الأخبار بذلك إلى الصَّحابة بالمدينة، فارتابوا، وأفاضوا فى عزل عثمان، وحمله على عزل أمرائه، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر.. فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئًا، ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامُّهم(١).

ح- توقُّف الفتوحات بسبب حواجز طبيعية أو بشرية:حيث توقَّفت الفتوح فى أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها، سواء فى جهات فارس، وشمالى بلاد الشَّام، أو فى جهة إفريقية، توقفت الغنائم على أثرها، فتساءل الأعراب: أين ذهبت الغنائم القديمة؟ أين ذهبت الأراضى المفتوحة التى يعدونها حقًا من حقوقهم(٢)، وانتشرت الشائعات الباطلة التى اتهمت عثمان رضى الله عنه بأنه تصرف فى الأراضى الموقوفة على المسلمين وفق هواه، وأنه أقطع منها لمن شاء من النَّاس، وقد كان لها أثر، وواقع على الأعراب، خاصة وأنَّ معظمهم بقى بدون عمل يقضون شطرًا من وقتهم فى الطعام،والنَّوم، والشطر الآخر بالخوض فى سياسة الدّولة، والحديث عن تصرُّفات عثمان التى كانت تهوِّلها السيئَّة، وقد أدرك أحد عمّال عثمان هذا الأمر، وهو عبد الله بن عامر، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله ـ وهم وزراؤه، ونصحاؤه ـ أن يجتهدوا فى آرائهم، ويشيروا عليه، فأشار عليه أن يأمر النَّاس بالجهاد ويجمرهم فى المغازى حتَّى لا يتعدَّى همُّ أحدهم قمل فروة رأسه، ودبر دابته(٣)، وفى ذلك الجو من الحديث، والفكر عند أفراد تعوَّدوا الغزو، ولم يفقهوا من الدِّين شيئًا كثيرًا يمكن أن يتوقع كلُّ سوء، ويكفى أن يحرّك هؤلاء الأعراب، وأن يُوجَّهوا توجيهًا، فإذا هم يثورون، ويحدثون القلاقل والفتن، وهذا ما حدث بالفعل، فإنَّ الأعراب ـ بسبب توقف الفتوحات ـ ساهموا فى بوادر الفتنة الأولى، وكانوا سببًا من أسباب اندلاعها(٤).

ط- المفهوم الخاطىء للورع بتحريم الحلال:الورع فى الشريعة طيِّبٌ، وهو أن يُترك ما لا بأس به، مخافة ممَّا فيه بأس، وهو فى الأصل ترفع عن المباحات فى الله، ولله، والورع شيء شخصى يصحُّ للإنسان أن يطالب به نفسه، ولكن لا

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٧٧).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٤٤).

(٣) تاريخ الطبرى (٢/ ٣٤٠).

(٤) تحقيق موقف الصّحابة فى الفتنة (١/ ٣٥٣).

يصح أن يطالب به الآخرين، ومن أخطر أنواع الورع: الورع الجاهل الذى يجعل المباح حرامًا، أو مفروضًا، وهذا الذى وقع فيه أصحاب الفتنة[١]، فقد استغلَّ أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه، ونفخوا فيها، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحات، أو المصالح خروجًا على الإسلام، وتغييرًا لسنَّة من سبقه، وعظمت هذه المسائل فى أعين الجهلة، فاستباحوا -أو أعانوا من استباح ـ دم الخليفة الراشد عثمان بن عفّان رضى الله عنه، وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم[٢].

ى- ظهور جيل جديد من الطامحين: وجد فى الجيل الثانى من أبناء الصحابة رضى الله عنهم من يعتبر نفسه جديرًا بالحكم والإدارة، ووجد أمثال هؤلاء أنَّ الطريق أمامهم مغلق، وفى العادة أنه متى وجد الطَّامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفسًا، فإنَّهم يدخلون فى كل عملية تغيير، ومعالجة أمر هؤلاء فى غاية الأهمية[٣].

ك- وجود طائفة موتورة من الحاقدين: لقد دخل فى الإسلام منافقون موتورون اجتمع لهم من الحقد، والذكاء والدَّهاء، ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضَّعف التى يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة، ووجدوا من يستمع إليهم بآذان صاغية، فكان من آثار ذلك ما كان[٤]، فقد عرفنا سابقًا وجود يهود، ونصارى، وفرس، وهؤلاء جميعًا معروف باعث غيظهم، وحقدهم على الإسلام، والدولة الإسلامّية، ولكنَّنا هنا نضيف من وقع عليه حدٌّ أو تعزير لأمر ارتكبه فى وسط الدولة، وعاقبه الخليفة، أو ولاته فى بعض الأمصار، وبالذّات البصرة، والكوفة، ومصر، والمدينة، فاستغلَّ أولئك الحاقدون من يهود، ونصارى، وفرس، ومجموعات من أصحاب الجرائم كان معظمهم من الأعراب، ممن لا يفقهون هذا الدِّين على حقيقته، فتكوَّنت لهؤلاء جميعًا طائفة، وصفت من جميع من قابلهم بأنَّهم أصحاب شر، فقد وُصفُوا: بالغوغاء من أهل الأمصار، ونزَّاع القبائل، وأهل المياه، وعبيد المدينة[٥]، وبأنهم ذؤبان العرب[٦]، وأنَّهم حثالة النَّاس

(١) الأساس فى السنة (٤/١٦٧٦).
(٢) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٥١٧).
(٣) الأساس فى السنة (٤/١٦٧٦).
(٤) المصدر نفسه (٤/١٦٧٦).
(٥) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص(٣٩٢).
(٦) المصدر السابق، ص (٣٩٢).

ومتَّفـقون على الشرِّ[1]، وسفهاء عـديمو الفقه[2]، وأرذال من أوباش القبائل[3]، فهم أهل جفاء، وهمج، ورعاع من غـوغاء القبائل، وسفلة الأطراف الأراذل[4]، وأنَّهم آلة الشيطان[5]، وقـد تردَّد في المصادر اسم عـبـد الله بن سـبأ الصَّنعـانى اليهـودىِّ ضمن هؤلاء الموتورين الحاقـدين، وأنه كان من اليـهود، ثمّ أسلم، ولم يُنقَّب أحد عن نواياه، فتنقَّل بين البلدان الإسلاميَّة باعتباره أحد أفراد المسلمين[6]، وسيأتى الحديث عنه بإذن الله.

ل ـ التّدبير المحكم لإثارة المآخذ ضدّ عثمان رضى الله عنه: كان المجتمع مهيَّأً لقبول الأقاويل، والشـائعات نتيجـة عوامل وأسباب مـتداخلة، وكانت الأرض مهـيَّأةً، ونسيج المجتـمع قابلاً لتلقى الخروقات، وأصـحاب الفتنة أجمـعوا على الطّعن فى الأمـراء بحجَّـة الأمر بالمعـروف، والنّهى عن المنكر، حـتى استمـالوا النَّاس إلى صفوفـهم، ووصل الطَّعن إلى عثمان بن عفـان رضى الله عنه نفسه باعتـباره قائد الدَّولة، وإذا ما حصـرنا الدّعاوى التى رُوِّجت ضد الخليفة، وطعنوه بهـا، فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات:

- مواقف شخصيَّة له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات، والمواقع).
- سياسته الإدارية النَّافذة: توليه أقربائه، طريقته فى التَّولية.
- اجتهادات خاصة به، أو بمصلحة الأمَّة (إتمام الصَّلاة بمنى، جمع القرآن، الزِّيادة فى المسجد.
- معاملته لبعض الصحابة: عمَّار، أبى ذرّ، ابن مسعود.

وقد بينت موقف عثـمان رضى الله عنه فى كلِّ ما وجه إليه فى كتـابى «تيسير الكريم المنان فى سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره». وقد حدث تزيُّد فى إبراز المطاعن على عـثمان رضى الله عنه سـواء فى عهده، وما واجـهوه بها، وردُّه عليها فى حينه، أو ما تُقوِّل عليـه فيما بعد عند الرُّواة، والكتَّاب، فإنها لم تصح، ولم تصل إلى حدٍّ أن تكون سببًا فى قتله[7].

---

(1) الطبقات (٣/ ٧١) هذا وصف ابن سعد.
(2) دراسات فى عهد النبوة، ص (٣٩٢).
(3) شذرات الذهب (١/ ٤٠) هذا وصف ابن العماد.
(4) شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٤٨، ١٤٩).
(5) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٧).
(6) دراسة فى عهد النبوة، ص (٣٩٤).
(7) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٤٠٠).

إن المآخذ السَّابق ذكرها والمدوَّنة فى تاريخ الطَّبرى، وغيره من كتب التاريخ والمرويّة عن طريق المجاهيل، والإخباريين الضُعفاء ـ خاصَّة الشيعة ـ كانت وما تزال بليَّة عظمى على الحقائق فى سير الخلفاء والأئمَّة، خاصة فى مراحل الاضطرابات والفتن، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين رضى الله عنه من ذلك الحظِّ الوافر، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على النَّهج الملتوى بعض ما نال تلك السيرة النيرة، من تحريف المنحرفين، وتشويه الغالين، بغية التأليب عليه، أو التشهير به. وقد أدرك عثمان رضى الله عنه بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه: أمّا بعد، فإن الرَّعية طعنت فى الانتشار ونزعت إلى الشرِّ، أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء متسرّعة، وضغائن محمولة[١]، وقال ابن العربى على تلك المآخذ: قالوا متعدِّين متعلِّقين برواية كذَّابين: جاء عثمان فى ولايته بمظالم، ومناكير، . . . هذا كله باطل سندًا ومتنًا[٢].

م- استخدام الأساليب والوسائل المهيِّجة للنَّاس: وأهم هذه الأساليب: إشاعة الأراجيف، حيث تردّدت كلمة الإشاعة، والإذاعة كثيرًا، والتَّحريض، والمناظرة، والمجادلة للخليفة أمام النَّاس، والطَّعن على الولاة، واستخدام تزوير الكتب، واختلاقها على لسان الصَّحابة رضى الله عنهم، كعائشة، وعلىٍّ، وطلحة، والزبير، والإشاعة بأن على بن أبى طالب رضى الله عنه الأحق بالخلافة، وأنَّه الوصى بعد رسول الله ﷺ، وتنظيم فرق فى كل من البصرة، والكوفة، ومصر، أربع فرق من كلِّ مصر ممّا يدل على التَّدبير المسبق، وأوهموا أهل المدينة أنهم ما جاءوا إلا بدعوة الصَّحابة، وصعَّدوا الأحداث، حتى وصل الأمر إلى القتل[٣]، وإلى جوار هذه الوسائل استخدموا مجموعة من الشعارات منها: التّكبير ومنها: أنَّ جهادهم هذا ضدَّ المظالم، ومنها: أنَّهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف، والنَّهى عن المنكر، ومنها: المطالبة باستبدال الولاة، وعزلهم، ثمَّ تطورت المطالبة إلى خلع عثمان، إلى أن تمادوا فى جرأتهم، وطالبوا، بل سارعوا إلى قتل الخليفة، وخاصَّة حينما وصلهم الخبر بأنَّ أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والشوق إلى قتله بأىِّ وسيلة[٤].

(١) التمهيد والبيان، ص (٦٤).
(٢) العواصم من القواصم، ص (٦١ ـ ٦٣).
(٣) دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٠١).
(٤) المصدر نفسه، ص (٤٠٢).

ن- دور عبد الله بن سبأ فى تحريك الفتنة: فى السَّنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضى الله عنه بدت فى الأفق سمات الاضطراب فى المجتمع الإسلامِّى نتيجة عوامل التَّغيير التى ذكرتها، وأخذ بعض اليهود يتحيَّنون فرصة الظهور مستغلِّين عوامل الفتنة، ومتظاهرين بالإسلام، واستعمال التَّقيَّة، ومن هؤلاء: **عبد الله بن سبأ** الملقَّب بابن السَّوداء. وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التَّهويل فى شأنه كما فعل بعض المغالين فى تضخيم دوره فى الفتنة(١)، فإنه كذلك لا يجوز التَّشكيك فيه، أو الاستهانة بالدَّور الذى لعبه فى أحداث الفتنة، كعامل من عواملها، على أنَّه أبرزها، وأخطرها، إذ أنَّ هناك أجواء للفتنة مهَّدت له، وعوامل أخرى ساعدته، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء، ومعتقدات ادّعاها، واخترعها من قبل نفسه، وافتعلها من يهوديَّته الحاقدة، وجعل يروِّجها لغاية ينشدها، وغرض يستهدفه، وهو الدس فى المجتمع الإسلامى بغية النَّيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشِّقاق بين أفراده، فكان ذلك من جملة العوامل التى أدَّت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وتفرُّق الأمة شيعًا وأحزابًا(٢).

وخلاصة ما جاء به أنه أتى بمقدِّمات صادقة، وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السُّذَّج، والغلاة، وأصحاب الأهواء من النَّاس، وقد سلك فى ذلك مسالك ملتوية لبَّس فيها على من حوله، حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوّله على زعمه الفاسد، حيث قال: لَعَجبٌ ممن يزعم أنَّ عيسى يرجع، ويكذِّب بأن محمَّدًا يرجع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى(٣). كما سلك طريق القياس الفاسد من ادِّعاء إثبات الوصيَّة لعليٍّ رضى الله عنه بقوله: إنَّه كان ألف نبيٍّ، ولكل نبيٍّ وصيٌّ، وكان عليٌّ وصىَّ محمد، ثمّ قال: محمد خاتم الأنبياء، وعلى خاتم الأوصياء، وحينما استقر الأمر فى نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج النَّاس على الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، فصادف ذلك هوى فى نفوس بعض القوم، حيث قال لهم: من أظلم ممَّن لم يُجزْ وصيّة رسول الله ﷺ، ووثب على وصىِّ رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمّة، ثم قال لهم بعد

(١) مثال سعيد الأفغانى فى كتابه «عائشة والسياسة». (٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٢٧).
(٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٤٧).

ذلك: إن عثمان أخذها بغير حقٍّ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر، فحرِّكوه، وابدأوا بالطَّعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، تستميلوا النَّاس، وادعوهم إلى هذا الأمر[1]، وبثَّ دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السِّر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كلِّ مصر منهم إلى مصر آخر بما يضعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم، حتَّى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرُّون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنَّا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنَّهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنَّا لفي عافية مما فيه النَّاس[2].

ويظهر من هذا النَّصِّ الأسلوب الذى تبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع في أعين الناس بين اثنين من الصَّحابة، حيث جعل أحدهما مهضوم الحقِّ وهو عليٌّ، وجعل الثاني مغتصبًا وهو عثمان، ثم حاول بعد ذلك أن يحرِّك النَّاس -خاصَّة في الكوفة- على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم، علمًا بأنَّه ركَّز في حملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادّة ملائمة لتنفيذ خطّته، فالقرَّاء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيّج أنفسهم، بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان، مثل تحيزه لأقاربه، وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وأنّه حمى الحمى لنفسه، إلى غير ذلك من التُّهم، والمطاعن التى حرك بها نفوس الغوغاء ضدّ عثمان رضى الله عنه، ثمّ إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة مضخمة عن مصرهم إلى بقية الأمصار، وهكذا يتخيل النّاس في جميع الأمصار أنّ الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه، والمستفيد من هذه الحال هم السبئية، لأن تصديق ذلك من الناس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامي[3].

هذا وقد شعر عثمان رضى الله عنه بأن شيئًا ما يحاك في الأمصار، وأنّ الأمّة تمخض بشرٍّ، فقال: والله أن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات، ولم

(1) تاريخ الطبري (٥/٣٤٨) . (2) المصدر السَّابق (٥/٣٤٨) .
(3) الدولة الأموية يوسف العش، ص (٦٨)، تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠).

يحرّكـها[١]، على أن المكان الذى رتع فـيه ابن سبـأ هو مصر، وهنـاك أخذ ينظّم حملتـه ضدّ عـثمان رضى الله عنه، ويحـثّ على التوجّه إلى المدينة لإثـارة الفتنة بدعوى أنّ عثـمان أخذ الخلافـة بغير حقٍّ، ووثب على وصىٍّ رسول اللـه، يقصد عليّاً[٢]، وقد غشهم بكتب ادعّى أنها وردت من كبار الصحابة حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنّورة واجـتمعوا بالصحـابة لم يجدوا منهم تشجيـعًا، وتبرّأوا ممّا نسب إليـهم من رسائل تؤلّب النّاس علـى عثـمان[٣]، ووجدوا عـثمـان مقـدّرًا للحقـوق، بل وناظرهم فيما نسـبوا إليه، وردّ عليـهم افتراءهم وفسـر لهم صدق أعماله؛ حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك بن الأشتر النّخعى: لعله مُكر به وبكم[٤]، ويعتبـر الذهبى: أنّ عبد الله بن سـبأ المهيِّج للفـتنة بمصر، وباذر بذور الشِّقاق والنَّقمة على الولاية ثمَّ الإمام ـ عثمان ـ فيها[٥]، ولم يكن ابن سبأ وحده وإنَّما كـان عمله ضمن شبكة من المتـآمرين، وكان أخطبوطًا من أسـاليب الخداع، والاحتـيال، والمكر، وتجنيد الأعراب، والقـرّاء وغيرهم، ويروى ابن كثـير أنَّ من أسباب تألُّب الأحزاب على عثمان ظهـور ابن سبأ، وذهابه إلى مصر، وإذاعته بين النَّاس كلامًا اخترعه من عند نفسه، ففافتتن به بشر كثير من أهل مصر[٦].

إنَّ المشاهير من المؤرِّخين والعلماء من سلف الأمَّـة وخلفها يتَّفقون على أنَّ ابن سبـأ ظهر بين المـسلمين بعـقائد، وأفكار، وخطط سـبئـيَّة، ليلفت المسلمـين عن دينهم، وطاعة إمـامهم، ويوقع بينهم الفرقة، والخـلاف، فاجتمع إليـه من غوغاء الناس ما تكونَّت به الطائفة السَّـبيئيَّة المعروفة، التى كانت عـاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عـثمان بن عفّان رضى الله عنه. والذى يظهر من خطط السَّبئيَّة أنّها كانت أكثر تنظيمًـا، إذ كانت بارعة فى توجيه دعايتها، ونشر أفكارها، لامتلاكـها ناصية الـدِّعاية، والتَّأثير بين الغـوغاء والرُّعاع من النَّاس، كمـا كانت نشيـطة فى تكوين فروع لهـا سواء فى البـصرة، أم الكوفـة، أم مصـر، مستـغلة العصبية القبليَّة ومتـمكنة من إثارة مكامن التَّذمُر عند الأعراب، والعبيد، والموالى، عارفة بالمواضع الحسَّاسة فى حياتهم، وبما يريدون[٧].

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٠). (٢) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠)، تاريخ الطبرى (٥/ ٣٤٨).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٠)، تاريخ الطبرى (٥/ ٣٦٥).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٣١). (٥) المصدر نفسه (١/ ٣٣٨).

(٦) البداية والنهاية (٧/ ١٦٧، ١٦٨). (٧) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٣٣٩).

س- موقف معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه فى الفتنة:

فى يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس والى الكوفة سعيد بن العاص فى مجلسه العام، وحوله عامَّة النَّاس، وكانوا يتحدَّثون، ويتناقشون فيما بينهم، فتسلَّلَ الخوارج من السَّبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة، وجرى كلام وحوار فى المجلس بين سعيد بن العاص، وبين أحد الحضور، وهو خنيس بن حُبيش الأسدى، واختلفا على أمر، وكان سبعة من الخوارج أصحاب الفتنة جالسين، منهم: جندب الأزدىُّ، الذى قتل ابنه السَّارق بسبب تورطه فى قضية قتل، ومنهم الأشتر النَّخعى، وابن الكوَّاء، وصعصعة بن صحوان، فاستغل أصحاب الفتنة المناسبة، وقاموا بضرب خُنيس الأسدى فى المجلس، ولَّما قام أبوه يساعده، وينقذه، ضربوه، وحاول سعيد منعهم من الضَّرب، فلم يمتنعوا، وأُغمى على الرَّجل وابنه من شدَّة الضَّرب، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ولكنَّ سعيدًا تمكَّن من إصلاح الأمر[1]، ولما علم عثمان بالحادثة، طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع، وذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم، وصاروا ينشرون الإشاعات، ويُذيعون الافتراءات والأكاذيب ضدّ سعيد والى الكوفة، وضدَّ عثمان، وضدَّ أهل الكوفة، ووجوهها، فاستاء أهل الكوفة منهم، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم، فقال له سعيد: إنَّ عثمان قد نهانى عن ذلك، فإذا أردتم ذلك، فأخبروه، وكتب أشراف أهل الكوفة، وصلحاؤهم إلى عثمان بشأن هؤلاء النَّفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة، ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخرِّبون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة، وكانوا بضعة عشر رجلاً، وأرسلهم سعيد إلى معاوية فى الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء، فقال له: إنَّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفرًا خلقوا للفتنة. فَرُعْهُم، وأخِفْهم، وأدِّبهم، وأقم عليهم، فإن آنست منهم رشدًا، فأقبل منهم[2].

ومن الذين تمَّ نفيهم إلى الشام، الأشتر النَّخعىُّ، وجندب الأزدىُّ، وصعصعة ابن صوحان، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابئ، وابن الكوَّاء[3]، ولما قدموا على

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٣) .

(٢) المصدر السابق (٥/ ٣٢٤).

(٣) الخلفاء الراشدون، ص (١٣١).

معاوية رحب بهم، وأحسن ضيافتهم، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يُجرى عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدَّى، ويتعشَّى معهم، فقال لهم يومًا: إنكم قوم من العرب لكم أسنان، وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفًا، وغلبتم الأمم، وحويتم مراتبهم، ومواريثهم، وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشًا، وإنّ قريشًا لو لم تكن، لعدتم أذلة كما كنتم[1]. كان عثمان رضى الله عنه يدرك أنَّ معاوية للمعضلة، فله من فصاحته وبلاغته، وله من حلمه، وصبره، وله من ذكائه، ودهائه ما يواجه به الفتن، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتَّى يرسلها لابن أبى سفيان كى يحلَّها، وفعلاً بذل معاوية رضى الله عنه ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النَّفر؛ أكرمهم أوّلاً، وخالطهم، وجالسهم، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نُقل عنهم، وبعد أن أزال الوحشة عنهم، وأزال الكلفة بينه وبينهم، لاحظ أنَّ النَّعرة القبلية هى التى تحرِّكهم، وأنَّ شهوة الحكم والسُّلطة هى التى تثيرهم، فكان لا بدَّ أن يلج عليهم من زاويتين اثنتين:

الأولى: أثر الإسلام فى عزَّة العرب.

الثانية: دور قريش فى نشر الإسلام وتحمُّل أعبائه، فإن كان للإسلام أثرٌ فى تكوينهم، فلا بدَّ أن يرعَوا لهذا الحديث، بعد هذا وضع أمامهم صورة لوضع العرب، وقد انقلبوا بالإسلام أمَّة واحدة تخضع لإمام واحد، وودعوا حياة الفوضى، وسفك الدِّماء، والقبليَّة المنتنة[2]، ويتابع معاوية حديثه معهم، فيقول: إن أئمَّتكم لكم إلى اليوم جُنَّة[3]، فلا تشذوا عن جُنَّتكم، وإنَّ أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة، والله لتنتهنَّ أو ليبتلينَّكم الله بمن يسومكم، ثمَّ لا يحمدكم على الصَّبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرَّعيَّة فى حياتكم، وبعد موتكم، فقال رجل من القوم: أمَّا ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها فى الجاهلية، فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجُنَّة، فإن الجُنَّة إذا اخترقت خلص إلينا. فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمت أن الذى أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً.

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٤).
(٢) معاوية بن أبى سفيان، لمنير الغضبان، ص (١٠١).
(٣) جنة: وقاية.

أُعْظم عليك أمر الإسلام، وأذكِّرك به، وتذكِّرنى الجاهليَّة؟ وقد وعظتك وتزعم لما يُجنُّك أنه يخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنَّة، أخزى الله أقوامًا أعظموا أمركم، ورفعوا إلى خليفتكم(١).

وعرف معاوية أنَّ الإشارة العابرة لن تقنعهم، ولا بد من شرح مسهب لواقع قريش أوَّلاً، فقال: افقهوا ـ ولا أظنكم تفقهون ـ أنَّ قريش لم تعزَّ فى جاهلية ولا فى إسلام إلا بالله -عزَّ وجلَّ ـ لم تكن أكثر العرب، ولا أشدَّهم، ولكنَّهم كانوا أكرمهم أحسابًا، وأمحضهم أنسابًا، وأعظمهم أخطارًا، وأكملهم مروءةً، ولم يمتنعوا فى الجاهلية، والناس يأكل بعضهم بعضًا، إلا بالله الذى لا يُستَذَل من أعزَّ، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عربًا، أو عجمًا، أو سودًا، أو حمرًا إلا قد اصابه الدّهر فى بلده، وحرمته بدولة، إلا ما كان من قريش، فإنَّه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خدَّه الأسفل، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرم، واتَّبع دينه من هوان الدُّنيا، وسوء مردِّ الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثمَّ ارتضى له أصحابًا، فكان خيارهم قريشًا، ثمَّ بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم الله فى الجاهليَّة من الملوك الذين كانوا يدينونكم. أفٍّ لك، ولأصحابك ولو أن متكلمًا غيرك تكلَّم، ولكنَّك ابتدأت، فأمَّا أنت يا صعصعة فإنَّ قريتك شرُّ قرى عربية، أنتنها نبتًا، وأعمقها واديًا، وأعرفها بالشَّرِّ، وألأمها جيرانًا، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سُبَّ بها، وكانت عليه هُجنة. ثمَّ كانوا أقبح العرب ألقابًا، وألأمها أصهارًا، نزّاع(٢) الأمم، وأنتم جيران الخطِّ وفعلة فارس، حتَّى أصابتكم دعوة النَّبىّ ﷺ، ونكبتك دعوته، وأنت نزيع شطير(٣) فى عمان، لم تسكن البحرين، فتشركهم فى دعوة النَّبى ﷺ، فأنت شرُّ قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالنَّاس، وحملك على الأمم التى كانت عليك، أقبلت تبغى دين الله عوجًا، وتنزع إلى اللآمة، والذِّلة، ولا يصنع ذلك قريش، ولن يضرَّهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إنَّ الشَّيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشَّر من بين أمَّتكم، فأغرى النَّاس، وهو صارعكم، لقد علم أنَّه لا

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٤).
(٢) النزاع : جمع نزيع وهو الغريب
(٣) الشطير : الغريب .

يستطيع أن يردَّ بكم قضاء الله، ولا أمرًا أراد الله، ولا تدركون بالشَّر أمرًا إلا فتح الله عليكم شرًا منه، وأخزى، ثم قام وتركهم، فتذامروا، فتقاصرت إليهم أنفسهم[1] وبذلك بذل معاوية كلَّ طاقاته الفكريُّة، والثقافية، والسياسية، لإقناعهم:

- عرض لهم أولاً أمر قريش فى الجاهلية والإسلام.
- تناول قبائل هؤلاء النّفر، ووضعها فى الجاهلية، حيث كانت تعانى سوء المناخ، ونتن المنبت من الناحية الطبيعية، ثمّ الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية، إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذلٍّ، وارتقت بعد هوانٍ.
- تناول معاوية رضى الله عنه صعصعة بن صوحان خطيب القوم، وكيف تلكأ عن تلبية نداء الرسالة، وقد دخل قومه بها، ثمّ عاد وانضم إلى الإسلام، ورفعه الإسلام ثانية بعد انحدار.
- كشف معاوية رضى الله عنه مخطّطات صعصعة، وأصحابه، وكيف يبغون الفتنة، ويبغون دين الله عوجًا.
- وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة، ومحرّك هذا الشّر، وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله، ثمّ الإسلام، والعقيدة، ثمّ كشف عن زيف هؤلاء النّفر، وفضحهم عن آخرهم، وأبان عن مخطّطاتهم، وصلتها بدعوى الجاهلية[2].

جلسة أخرى:

ثمّ أتاهم القابلة فتحدَّث معهم طويلاً، ثم قال: أيُّها القوم، ردُّوا علىَّ خيرًا، أو اسكتوا، وتفكَّروا، وانظروا فيما ينفعكم، وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين، فاطلبوه تعيشوا، ونعش بكم. قال صعصعة: لست بأهل لذلك، ولا كرامة لك أن تطاع فى معصية الله. فقال معاوية: أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله، وطاعته، وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعًا، ولا تفرقوا؟ قالوا: بل أمرت بالفرقة، وخلاف ما جاء به النَّبى ﷺ! قال: إنِّى آمركم الآن، إن كنت فعلت، فأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه، وطاعته، وطاعة نبيِّه ﷺ، ولزوم الجماعة، وكراهة الفرقة، وأن توقروا أئمتكم، وتدلوهم على كلِّ

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٦).

(٢) معاوية بن أبى سفيان، للغضبان، ص (١١١).

حسن ما قدرتم، وتعظوهم فى لينٍ، ولطف فى شىءٍ إن كان معهم. قال صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإنَّ من المسلمين من هو أحقُّ به منك. قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قدْمًا من أبيك، وهو بنفسه أحسن قدْمًا منك فى الإسلام، قال معاوية: والله إن لى فى الإسلام قدْمًا، ولغيرى كان أَحسن قدمًا منِّى، ولكنَّه ليس فى زمانى أحدُ أقوى على ما أنا فيه منّى، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطَّاب، فلو كان غيرى أقوى منِّى، لم يكن لى عند عمر هوادة، ولا لغيرى، ولم أحدث من الحدث ما ينبغى لى أن أعتزل عملى، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين، لكتب بخطِّ يده، فاعتزلت عمله، ولو قضى الله أن يفعل ذلك، لرجوت أن يعزم له على ذلك إلى ما هو خير. فمهلاً فإنَّ فى ذلك وأشباهه ما يتمنَّى الشيطان، ويأمر، ولعمرى لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم، وأمانيِّكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يومًا ولا ليلة، ولكنَّ الله يقضيها، ويدبِّرها وهو بالغ أمره، فعاوِدوا الخير، وقولوه. قالوا: لست لذلك أهلاً. قال معاوية: أما والله إنَّ لله سطوات، ونقمات، وإنِّى لخائف عليكم أن تتابعوا فى مطاوعة الشَّيطان حتَّى تُحلَّكم مطاوعة الشَّيطان، ومعصية الرّحمن دار الهوان من نقم الله فى عاجل الأمر، والخزى الدّائم فى الآجل، فوثبوا عليه، فأخذوا بلحيته، ورأسه، فقال: مه! إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشّام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمرى إنَّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضًا، ثم قام من عندهم. فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت(١).

هذه المحاولة الأخيرة التى بذل فيها معاوية أمير الشَّام كلَّ جهده واستعمل حلمه، وثقافته، وأعصابه كى يثنيهم عن الفتنة، إنَّه يدعوهم إلى تقوى الله، وطاعته، والاستمساك بالجماعة، والابتعاد عن الفرقة، وإذا بهم يرفعون عقيرتهم قائلين: ليس لك أن تطاع فى معصية الله(٢). وبحلمه الكبير، وصدره الواسع عاد فذكَّرهم بأنَّه لا يأمرهم إلا بطاعة الله، وعلى حدَّ زعمهم، فهو يتوب من المعصية، إن وقعت، ثمَّ يعود لدعوتهم إلى الطَّاعة، والجماعة، والابتعاد عن

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٢) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٣٠).

تفريق كلمة الأمَّة، ولو كان الوعظ يجدى معهم، لأمكن أن تتأثَّر قلوبهم لهذه المعاملة، وهذا اللُّطف، وهو يوجِّههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادىء عن العظة، واللين فى النُّصح، فوجدوا المجال رحبًا أن يكشفوا عن مكنون قلوبهم. فقالوا: فإنَّا نأمرك أن تعتزل عملك، فإنَّ فى المسلمين من هو أحقُّ به منك، وانتبه معاوية انتباهًا مفاجئًا إلى ما يكنُّون، فأحبَّ أنَّ يتعرف جانبًا غامضًا عليه، لعلَّ فى هذا التعرُّف ما يوصله إلى من يحرِّكهم، ويبث فى ذهنهم الأراجيف المغرضة، ولكنَّهم أخفوا ما يكنُّون، واكتفوا بالإشارة إلى أنَّهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه، ولمن أبوه أفضل من أبيه، ثم تحلَّم عليهم أكثر فأكثر رغم الأسلوب الفجِّ الذى سلكوه معه، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل. وهنا نجد لمعاوية جوابًا مستفيضًا عن وجهة نظره فى الحكم، والإمارة، والقيادة، وقد لخَّص معاوية إجابته فى ستِّ نقاط أساسيَّة ومهمَّة:

- هى أنَّ له قدْمًا، وسابقة فى الإسلام، فهو حامى ثغر الشَّام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنهما.

- أنَّ هناك فى المسلمين من هو أفضل منه، وأكرم، وأحسن سابقة، وأكثر بلاءً، وهو يرى أنَّه أقوى من يحمى هذا الثَّغر الإسلامىَّ العظيم ـ الشّام ـ فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه، وسياسته، وفهم نفسيَّات أهله حتَّى أحبُّوه.

- إنَّ الميزان الحساس، والمعيار الدَّقيق الذى يقيِّم الولاة هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه، الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم، فلو وجد من معاوية شططًا، أو انحرافًا عمل له طيلة خلافته، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله، واستخدمه كاتبًا بين يديه، وولاه أبو بكر الصديق من بعده، ولم يطعن فى كفاءته أحد.

- إنَّ اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال، فما هى الحجَّة التى يقدِّمها دعاة الفتنة، ليتمَّ الاعتزال على أساسها؟

- إنَّ الذى يقرِّر العزل عن العمل، أو البقاء فى الإمارة ليس هؤلاء الأدعياء، إنَّ ذلك من حق أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه، وهو الذى له الحقُّ فى تعيين الولاة، وعزلهم.

- إنَّ أمير المؤمنين عثـمان يوم يقرِّر عزل معاوية، فهـو واثق أنَّ أمره خير كله، ولا غضاضة فى ذلك فهو أمير مأمور، وهو أمر خليفة المسلمين[1].

كان ختام الجلسة مؤسفًا أشدَّ الأسف، مؤلمًا أشدَّ الألم، لقد حذَّرهم نقمة الله، وغضبه، وحـذَّرهم الانقياد إلى أهوائهم وغرورهم، فماذا كـان منهم مقابل ذلك؟ وثبوا عليه وأخـذوا برأسه ولحيته، وعنـدئذ زجرهم، وقمعهم، ووجَّـه لهم كلامًا قاسيًـا مبطَّنًا بالتهديد، وعـرف أنَّ هؤلاء يستحيل أن ينصاعـوا للحقِّ، فلا بدَّ من إبلاغ أمرهم لأميـر المؤمنين عثمان رضـى الله عنه، وكشف هويَّاتهم، وخطرهم، ليرى فيهم أمير المؤمنين رأيًا آخر[2].

ف- كتابة معاوية إلى عثمان رضى الله عنهما بشأن أهل الفتنة من الكوفة:

كتب مـعاوية إلى عثـمان رضى الله عنهمـا قائلاً: بسم الله الرحـمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان، أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إلىَّ أقوامًا يتكلمـون بألسنة الشياطين وما يُملون عليهم، ويأتون النَّاس - زعموا - من قِبَل القرآن فيشبهون على الناس، وليس كل النَّاس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فـرقة ويقربون فـتنة، قد أثقلهـم الإسلام وأضجـرهم، وتمكنت رُقَى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيرًا من النَّاس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقـاموا وسط أهل الشام أن يغـروهم بسحرهم وفـجورهم فارددهم إلى مصـرهم، فلتكن دارهم فى مصرهم الذى نما فيـه نفاقهم[3]، فكتب عثـمان إلى سعـيد بن العاص بـالكوفة، فردّهم إليـه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا، وكتب سعيد إلى عثـمان يضجّ منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيِّرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وكان أميرًا على حمص[4]، فلما وصلوا إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، اسـتدعاهم، وكلَّمهم كلامًا شديدًا، وكان ممَّا قاله لهم: يـا آلة الشيطان، لا مرحبًا بكم، ولا أهلاً، لـقد رجع الشيطان محسورًا خـائبًا، وأنتم مازلتم نشيطون فى الباطل، خَسَّـرَ الله عبد الرحمن إن لم

(١) معاوية بن أبى سفيان، صحابى كبير، وملك مجاهد، ص (١١٤ - ١١٧).

(٢) معاوية بن أبى سفيان للغضبان، ص (١١٧، ١١٨).

(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣١).

يؤدِّ بكم ويخزِكم! يا معشر من لا أدرى من أنتم أعرب، أم عجمٌ، لن تقولوا لى كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عَجمته العاجمات، أنا ابن فاقىء الرِّدَّة، والله لأذلنَّكم! وأقامهم عبد الرحمن بن خالد عنده شهرًا كاملاً، وعاملهم بمنتهى الحزم، والشدَّة، ولم يَلِن معهم كما لان سعيد، ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم صعصعة بن صوحان يقول له: ى بن الخطيئة! هل تعلم أنَّ من لم يصلحه الخير أصلحه الشَّرُّ، وأن من لم يصلحه اللِّين أصلحته الشدَّة؟ وكان يقول لهم: لماذا لا تردُّون علىَّ، كما كنتم تردُّون على سعيد فى الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبوننى، كما كنتم تخاطبونهما؟ ونفع معهم أسلوب عبد الرَّحمن بن خالد، وأخرسهم حزمه، وشدَّته، وقسوته، وأظهروا له التَّوبة والنَّدم، وقالوا له: نتوب إلى الله، ونستغفره، أقِلْنَا أقالك الله، وسامحنا سامحك الله.

بقى القوم فى الجزيرة عند عبد الرَّحمن بن خالد، وأرسل عبد الرّحمن أحد زعمائهم وهو الأشتر النَّخعى إلى عثمان ليخبره بتوبتهم، وصلاحهم، وتراجعهم عمَّا كانوا عليه من الفتنة، فقال عثمان للأشتر: احلُلْ أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم. قال الأشتر: نريد أن نبقى عند عبد الرَّحمن فى الجزيرة مدّةً، أظهروا فيها التّوبة، والاستقامة والصَّلاح(١)، وسكت أصحاب الفتنة فى الكوفة إلى حين، وكان هذا فى سنة ثلاثة وثلاثين، بعدما تمَّ نفى رؤوس الفتنة إلى معاوية فى الشَّام، ثمَّ إلى عبد الرّحمن بن خالد. فرأى أصحاب الفتنة فى الكوفة أنَّ المصلحة تقتضى أن يسكتوا إلى حين(٢).

إلا أنَّ بقية دعاة الفتنة كانوا يشتغلون فى البصرة، ومصر، وغيرها وفى سنة أربع وثلاثين ـ السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان ـ أحكم عبد الله بن سبأ خطته، ورسم مؤامرته، ورتب مع جماعته السَّبَئيِّين الخروج على الخليفة، وولاته، فقد اتَّصل ابن سبأ اليهودى من وكر مؤامراته فى مصر بالشَّياطين من حزبه فى البصرة، والكوفة، والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكاتبهم، وكاتبوه، وراسلهم، وراسلوه،

(١) تاريخ الطبرى (٥/٣٢٧).

(٢) الخلفاء الراشدون للخالدى، ص (١٣٤).

وكان ممَّن كاتبهم، وراسلهم السَّبئيُّون فى الكوفة، بضعة عشر رجلاً منهم منفيون فى الشَّام، ثمَّ فى الجزيرة عند عبد الرَّحمن بن خالد بن الوليد، وبعد نفى أولئك الخارجين، كان زعيم السَّبئيِّين الحاقدين فى الكوفة يزيد بن قيس[1]. وقد خلت الكوفة فى سنة أربع وثلاثين من وجوهها، وأشرافها، لأنَّهم توجَّهوا للجهاد فى سبيل الله، ولم يبق إلا الرُّعاع، والغوغاء الذين أثر فيهم السَّبئيون والمنحرفون، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة، وهيَّجوهم ضدَّ والى عثمان إلى الكوفة سعيد بن العاص رضى الله عنه[2]. واستطاع القعقاع بن عمرو التميمىُّ أمير الحرب بالكوفة أن يقضى على التحرك الأوّل بقيادة يزيد بن قيس، ولما رأى يزيد شدة القعقاع ويقظته، وبصيرته، لم يجاهره بهدفهم وخطتهم فى الخروج على الخليفة عثمان، وخلعه، وأظهر له أن كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالى سعيد بن العاص، والمطالبة بوالٍ آخر مكانه، فاستُجيب لطلبهم، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة، لما سمع كلام يزيد، ثمّ قال يزيد: لا تجلس لهذا الهدف فى المسجد، ولا يجتمع عليك أحد، واجلس فى بيتك واطلب ما تريد من الخليفة، وسيحقِّق لك ذلك بإذن[3] الله، واستمر يزيد بن قيس فى إشعال الفتنة، واضطر إلى تعديل خطّته فى الخروج، وبعد كيد ومكر وتدبير من أتباع السبئيِّن، قرّر الغوغاء والرُّعاع بقيادة يزيد بن قيس منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة وكان سعيد بالمدينة[4].

ولما خرج السبيُّون، والغوغاء طلبًا للفتنة، والتمرد، وإحداث القلاقل بقى فى المسجد وجوه المسلمين، وأشرافهم، وحلماؤهم، فصعد المنبر نائب الوالى عمرو ابن حُريث وطالب المسلمين بالأخوَّة، والوحدة، ونهاهم عن التفرق، والاختلاف، والفتنة، والخروج، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين والمتمرِّدين[5]، قال القعقاع بن عمرو التميمى: أتردُّ السَّيل عن عبابه، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات، لا والله لا تُسكِّن الغوغاء إلا المشرفيَّة[6]، ويوشك أن تُنْتضى، ثمَّ

(١)، (٢) الخلفاء الراشدون للخالدى، ص (١٣٥). (٣) تاريخ الطَّبرى (٥/ ٣٣٧).
(٤) المصدر نفسه (٥/ ٣٣٨). (٥) الخلفاء الرَّاشدون، للخالدى، ص (١٣٩).
(٦) نوع من السيوف.

يعجُّون عجـيج العتدان[1]، ويتمنون ما هم فيه، فـلا يردهم عليهم أبدًا، فاصبر، فقال: أصبر، وتحوَّل إلى منزله[2].

واستـطاع أهل الفتنة أن يمنعـوا سعـيد بن العـاص من دخول الكوفـة ورجع إلى المدينة، وكان من رأيه أن من الحكمـة عدم مواجهـتهم، وعدم تأجـيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقلِّ، وبعد رجوعه إلى المدينة أخبر سعيد عثـمان بما حصل. فـقال له عثـمان: ماذا يريدون؟ هل خلعـوا يدًا من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة؟ وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا، لقد أظهروا أنَّهم لا يريدونني واليًا عليهـم، ويريدون واليًا آخر مكانى. قال له عثـمان: من يريدون واليًا؟ قال سعـيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعـرىَّ، قال عثمان: قـد عيَّنا وأثبتنا أبا موسى واليًا عـليهم، ووالله لن نجعل لأحد عُـذرًا ولن نترك لأحدٍ حجـة، ولنصبرنَّ عليهم كمـا هو مطلوب منَّا، حتى نعرف حقـيقة ما يريدون، وكتب عـثمان إلى أبى موسى بتـعيينه واليًـا على الكوفة[3]، وكان أبو مـوسى رضى الله عنه يقوم بتـهدئة الأمـور، وبنهى النَّاس عن العصـيان. وقـال لهم: أيهـا الناس لا تخرجـوا فى هذه المخـالفة، ولا تعـودوا لمثل هذا العـصيـان، والزموا جـمـاعتكم، والطاعـة، وإياكم والعجلة، اصبـروا، فكأنَّكم بأمير[4]. فقالوا: فـصلِّ بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان[5] بن عفان، قالوا: على السَّمع، والطاعة لعثمان. وما كانوا صادقين فى ذلك، لكنَّهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقيَّة عن الآخرين. وكان أبو موسى يصلى بالنَّاس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه واليًا على الكوفة، وكتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكـوفة: أما بعد، فقـد أمَّرت عليكم من اخترتم، وأعـفيتكم من سعيد، والله لأفرشنَّ لكم عرضى، ولأبذُلنَّ لكم صـبرى، ولأستصلحنَّكم بجهدى، واسألونى كلَّ ما أحببتم، ممَّا لا يعصى الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئًا كرهتموه لا يُعصى الله فيـه إلا استعفيتـم منه، أنزل فيه عندما أحببـتم، حتَّى لا يكون لكم علىَّ حجَّة. وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار[6]، رضى الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما كان أصلحه وأوسع صدره، وكم ظلمه السَّبَئيُّون والخارجون الحاقدون، واختلفوا عليه.

---

(١) تنتضى : أخرج السيف من غمده، العتدان : قيل الحولى من أولاد الماعز.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٨).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٣٩).
(٤) أى : يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان.
(٥) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٣٩).
(٦) المصدر نفسه (٥/ ٣٤٣).

ع ـ مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأى معاوية فى ذلك:

واجه عثمان بن عفان الفتنة بوسائل وأساليب متنوعة منه: إرسال لجان تفتيش وتحقيق إلى الولايات، ومحاولة معرفة أغراض أهل الفتنة، واستطاع أن يخترق صفوفهم، وأقام الحجة على الغوغاء والمتمردين بالحوار والنقاش، والاستجابة لبعض مطالبهم. وقد فصلت الحديث عن سياسة عثمان فى التعامل مع الفتنة فى كتابى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه.

ومن الأساليب التى اتخذها عثمان رضى الله عنه مشورته لولاة الأمصار رضى الله عنه. حيث بعث إلى ولاة الأمصار واستدعاهم على عجلٍ، وكانوا: عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبى سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم فى المشورة سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص وهم من الولاة السابقين وكانت جلسة مغلقة وخطيرة، وقال فيه كل المشاركين برأيه، وكان رأى معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، وأكفيك أنا أهل الشام[1]، وبعد أن سمع عثمان من المشاركين اقتراحاتهم قام، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: كل ما أشرتم به علىَّ قد سمعت، ولكلٍ أمر باب يؤتى منه، إنَّ هذا الأمر الذى يخاف على هذه الأمَّة كائن، وإن بابه الذى يغلق عليه، فيُكفكف به اللِّين، والمؤاتاة والمتابعة، إلا فى حدود الله تعالى ذكره، التى لا يستطيع أحد أن يبادى بعيب أحدها، فإن سدَّه شىء فرفق، فذاك والله ليُفتحنَّ، وليست لأحد علىَّ حجة حقٍّ، وقد علم الله إنِّى لم آل الناس خيرًا، ولا نفسى. والله إنَّ رحا الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها، كفكفوا النَّاس، وهبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله، فلا تُدهنوا فيها[2]. فمنع عثمان رضى الله عنه الوِلاة من التَّنكيل بمثيرى الشَّغب، وحبسهم، أو قتلهم، وقرَّر أن يعاملهم بالحسنى واللِّين[3]، وطلب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التى كان كلٌّ بصير يرى أنَّها قادمة[4]، وقبل أن يتوجه معاوية بن أبى سفيان إلى الشَّام أتى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين، انطلق معى

(١) الكامل (٢/ ٢٧٨) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥١).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥١).
(٣) خلافة عثمان، د. السلمى، ص (٧٧).
(٤) الخلفاء الراشدون، للخالدى، ص (١٥٦).

إلى الشَّام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث مالا قِبَل لك بها. قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشىء، ولو كان فيه قطع خيط عنقى. قال له معاوية: إذًا أبعث لك جيشًا من الشَّام، يقيم فى المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقعة، ليدافع عنك، وعن أهل المدينة، قال عثمان: لا، حتى لا أقترّ على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق، بجند تساكنهم، ولا أضيِّق على أهل الهجرة والنُّصرة. قال له معاوية: يا أمير المؤمنين، والله لتُغتالنَّ، أو لتُغزينَّ. قال عثمان: حسبى الله ونعم الوكيل[1].

ولقد حدث كل ما توقعه معاوية، فجاءت جموع أهل الفتنة لتحاصر عثمان رضى الله عنه وتغتاله فى النهاية. وحين جاء هؤلاء الثوار من مختلف الأقاليم لا نجد من بينهم جماعة من أهل الشام[2]، من كل ما سبق نجد أننا أمام وال كبير يشق طريقه بجدارة من بين الولاة إلى ما هو أبعد من الولاية، فقد استطاع أن يجعل من إقليم الشام الإقليم المهيأ لقيادة بقية الأقاليم فى الدولة الإسلامية بما عمق فيه من حسن الطاعة للقيادة، وبما ثبت فيه من دعائم الاستقرار، وقطعه لأسباب الفتنة وعوامل الفرقة فيه. وهذا ما لا نجده فى غيره من الأقاليم[3].

غ - مقتل عثمان رضى الله عنه وموقف الصحابة من ذلك:

اشتد الحصار على عثمان رضى الله عنه، حتى مُنع من أن يحضر للصَّلاة فى المسجد، وكان صابراً على هذه البلوى التى أصابته كما أمره رسول الله ﷺ بذلك، وكان مع إيمانه القوى بالقضاء والقدر، يحاول أن يجد حلاً لهذه المصيبة، فنراه تارة يخطب الناس عن حرمة دم المسلم، وإنه لا يحل سفكه إلا بحقه، وتارة يتحدث فى الناس ويظهر فضائله وخدماته الجليلة فى الإسلام، ويستشهد على ذلك ببقية العشرة رضوان الله عليهم[4]، وكأنه يقول: مَنْ هذا عمله وفضله هل من الممكن أن يطمع بالدنيا ويقدمها على الآخرة، وهل يعقل أن يخون الأمانة ويعبث بأموال الأمة ودمائها، وهو يعرف عاقبة ذلك عند الله. وهو الذى تربى على عين النبى ﷺ والذى شهد له وزكاه وكذلك أفاضل الصحابة. ومتى؟ بعد ما

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٥٣).

(٢) عبد الله بن سبأ، للعودة، ص (١٥٢)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٧٦).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٧٦).

(٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد على، ص (٨٥).

تجاوز السبعين وقارب الثمانين من عمره، أهكذا تكون معاملته؟ واشتدت سيطرة المتمردين على المدينة حتى أنهم ليصلون بالناس فى أغلب الأوقات[1]، وحينها أدرك الصحابة أن الأمر ليس كما حسبوا، وخشوا من حدوث ما لا يحمد عقباه، وقد بلغهم أن القوم يريدون قتله، فعرضوا عليه أن يدافعوا عنه، ويخرجوا الغوغاء عن المدينة إلا أنه رفض أن يراق دم بسببه[2]، وأرسل كبار الصحابة أبناءهم دون استشارة عثمان رضى الله عنه، ومن هؤلاء الحسن بن على رضى الله عنهما، وعبد الله بن الزبير، فقد كان عثمان يحب الحسن ويكرمه، فعندما وقعت الفتنة وحوصر عثمان رضى الله عنه أقسم على الحسن رضى الله عنه بالرجوع إلى منزله، وذلك خشية عليه أن يصاب بمكروه[3]، وقد قال عثمان للحسن رضى الله عنهما: أرجع ابن أخى حتى يأتى الله بأمره[4]، وقد صحت روايات أن الحسن حمل جريحًا من الدار يوم الدار[5]، كما جرح غير الحسن، عبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم، كما كان معهم الحسين بن على، وابن عمر رضى الله عنهما[6].

وقد كان على رضى الله عنه من أدفع الناس عن عثمان رضى الله عنه، وشهد له بذلك مروان ابن الحكم[7]، كما أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، إن عليًا أرسل إلى عثمان فقال: إن معى خمسمائة دارع، فأذن لى فأمنعك من القوم، فإنك لم تحدث شيئًا يستحل به دمك، فقال: جزيت خيرًا، ما أحب أن يهراق دم فى سببى[8]، وقد وردت روايات عديدة تفيد وقوفه بجانب عثمان رضى الله عنهما، أثناء الحصار فمن ذلك: أن الثائرين منعوا عن عثمان الماء حتى كاد أهله يموتون عطشًا، فأرسل على رضى الله عنه إليه بثلاث قرب مملوءة ماء فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالى بنى هاشم وبنى أمية حتى وصلت.

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥١٥).
(٢) فتنة مقتل عثمان (١/ ١٦٧) صحيح الإسناد.
(٣) تاريخ المدينة لابن شبة (٤/ ١٢٠٨).
(٤) الرياض النضرة نقلاً عن الحسن بن على ودوره السياسى، ص (٤٦).
(٥) الطبقات لابن سعد (٨/ ١٢٨) بسند صحيح.
(٦) تاريخ خليفة، ص (١٧٤).
(٧) تاريخ الإسلام، ص (٤٦٠ ـ ٤٦١)، إسناده قوى.
(٨) تاريخ دمشق، ص (٤٠٣).

ولقد تسارعت الأحداث فوثب الغوغاء على عثمان فقتلوه رضى الله عنه، وأرضاه، ووصل الخبر إلى الصحابة وأكثرهم فى المسجد، فذهبت عقولهم، وقال على لأبنائه وأبناء أخيه: كيف قتل عثمان وأنتم على الباب؟ ولطم الحسن، وكان قد جرح[1]، وضرب صدر الحسين وشتم ابن الزبير وابن طلحة، وخرج غضبان إلى منزله وهو يقول: تبًا لكم سائر الدهر، اللهم أنى أبرأ إليكم من دمه أن يكون قتلت أو مالأت على قتله[2]، وهكذا كان موقف على رضى الله عنه، نصحًا وشورى، سمعًا وطاعة، ووقفة قوية بجانبه أثناء الفتنة، ومن أدفع الناس عنه، ولم يذكره بسوء قط، يحاول الإصلاح وسد الخرق بين الخليفة والخارجين عليه لكن الأمر فوق طاقته، وخارج إرادته، إنها إرادة الله عز وجل أن يفوز أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه بالشهادة[3].. ويبوء المفسدين بالإثم.

إن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنكر قتل عثمان، وتبرأ من دمه، وكان يقسم على ذلك فى خطبه، وغيرها؛ إنه لم يقتله ولا أمر بقتله، ولا مالأ عليه، ولا رضى، وقد ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع[4]، خلافًا لما تزعمه الشيعة الرافضة من أنه كان راضيًا بقتل عثمان رضى الله عنهما[5]، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة فى مقتله رضى الله عنه: فأما الذى ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فإنه كذب وزور، فقد تواترت الأخبار بخلافه[6]. وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على علىٍّ رضى الله عنه، وافتراء عليه، فعلى رضى الله عنه لم يشارك فى دم عثمان رضى الله عنه، ولا أمر ولا رضى، وقد روى عنه ذلك وهو الصادق البار[7]، وقد قال على رضى الله عنه: اللهم أنى أبرأ إليك من دم عثمان[8].

وقد شوهت بعض كتب التاريخ مواقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وذلك بسبب الروايات الضعيفة والموضوعة التى ذكرها كثير من المؤرخين، والمتتبع لأحداث الفتنة فى تاريخ الإمام الطبرى، وكتب التاريخ الأخرى من خلال روايات

---

(١) ابن أبى عاصم، الآحاد والثمانى (١/ ١٢٥) نقلاً عن خلافة على، ص (٨٧).

(٢)، (٣) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٢٠٩) إسناده صحيح.

(٤) البداية والنهاية (٧/ ٢٠٢). (٥) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص (١٢٩).

(٦) المستدرك (٣/ ١٠٣). (٧) منهاج السنة (٤/ ٤٠٦).

(٨) العقيدة فى أهل البيت بين الإفراط والتفريط، ص (٢٢٩)، الطبقات (٣/ ٣) إسناده حسن.

أبى مخنف، والواقدى، وابن أعثم، وغيرها من الأخبار التى حبكت بطريقة ذات ميول عدائية للتاريخ الصحيح يشعر أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة، ويثيرون الفتنة، فأبو مخنف ذو الميول الشيعية لا يتورع فى اتهام عثمان بأنه الخليفة الذى كثرت سقطاته، فاستحق ما استحق، ويظهر طلحة فى مروياته كواحد من الثائرين على عثمان، والمؤلبين ضده، ولا تختلف روايات الواقدى عن روايات أبى مخنف، وقد كثرت الروايات الشيعية التى تتهم الصحابة بالتآمر ضد عثمان رضى الله عنه، وأنهم هم الذين حركوا الفتنة، وأثاروا الناس، وهذا كله كذب وزور[1]، وخلافًا للروايات الموضوعة والضعيفة فقد حفظت لنا كتب المحدثين، بحمد الله، الروايات الصحيحة التى يظهر فيها الصحابة من المؤازرين لعثمان والمنافحين عنه والمتبرئين من قتله[2]، والمطالبين بدمه بعد مقتله، وبذلك يستبعد أى اشتراك لهم فى تحريك الفتنة، أو إثارتها[3].

إن الصحابة جميعًا رضى الله عنهم أبرياء من دم عثمان رضى الله عنه، ومن قال خلاف ذلك، فكلامه باطل، ولا يستطيع أن يقيم عليه أى دليل ينهض إلى مرتبة الصحة، ولذلك أخرج خليفة فى تاريخه عن عبد الأعلى بن الهيثم، عن أبيه، قال: قلت للحسن: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين، والأنصار؟ قال: لا، كانوا أعلاجًا[4] من أهل مصر. وقال الإمام النَّووى: ولم يشارك فى قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج، ورعاع من غوغاء القبائل، سفلة الأطراف والأراذل، تحزَّبوا، وقصدوه من مصر، فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم، فحضروه حتَّى قتل، رضى الله عنه[5]، وقد وصفهم الزبير رضى الله عنه بأنهم غوغاء من الأمصار، ووصفتهم السيدة عائشة بأنَّهم نزّاع القبائل[6]، ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفسدون ضالون، باغون معتدون[7]، ووصفهم الذهبى بأنهم رؤوس شرٍّ، وجفاء[8]، ووصفهم ابن العماد الحنبلى فى الشذرات بأنَّهم أراذل من

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١٤/٢٠ - ١٨) .
(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على للصَّلاَّبىِّ، ص (١٢٢).
(٣) تحقيق مواقف الصحابة (١٤/٢٠ - ١٨).
(٤) العلج : كل جاف شديد من الرِّجال ، عثمان بن عفان للصَّلاَّبىِّ، ص (٤٥٠).
(٥) شهيد الدار عثمان بن عفان، ص (١٤٨).
(٦) شرح النووى على صحيح مسلم (١٤٨/١٥).
(٧) منهاج السنة (١٨٩/٢ ـ ٢٠٦).
(٨) دول الإسلام للذهبى (١٢/١) .

أوباش القبائل[1]، ويشهد على هذا الوصف تصرُّف هؤلاء الرُّعاع منذ الحصار إلى قتل الخليفة رضى الله عنه ظلمًا. وعدوانًا، فكيف يمنع الماء عنه، والطعام وهو الذى طالما دفع من ماله الخاص ما يروى ظمأ المسلمين بالمجّان[2]، والذى يساهم بأموال كثيرة عندما يلمُّ النَّاس مجاعة، أو مكروه، وهو الدائم العطاء عندما يصيب النَّاس ضائقة، أو شدَّة من الشدائد[3]، حتى أن عليًا رضى الله عنه يصف هذا الحال، وهو يؤنب المحاصرين بقوله: يا أيها الناس، إن الذى تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافرين، فلا تمنعوا عن هذا الرّجل الماء، ولا المادة - الطعام - فإنّ الروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقى[4]. لقد صحَّت الأخبار وأكّدت حوادث التاريخ على براءة الصَّحابة من التَّحريض على عثمان أو المشاركة فى الفتنة ضدّه[5]، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابى تيسير الكريم المنان فى سيرة عثمان ابن عفان[6].

(١) تحقيق مواقف الصحابة (١/ ٤٨٢)، شذرات الذهب (١/ ٤٠)

(٢) تيسير الكريم المنان فى سيرة عثمان بن عفان، ص (٤٥٠).

(٣) التمهيد والبيان، ص (٤٢٤).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٠٠).

(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢/٨).

(٦) عثمان بن عفان للصَّلاَّبىّ، ص (٤٥١ - ٤٦٦).

المبحث الثالث

معاويــة بــن أبــى سفيان

فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنهما

كان معاوية رضى الله واليًا على الشام فى عهدى عمر وعثمان رضى الله عنهما، ولما تولى على رضى الله عنه الخلافة أراد عزله - ويبدو أنه كانت هناك ضغوط على علىٍّ رضى الله عنه من قبل الغوغاء لكى يعزل معاوية، وخصوصًا أن الغوغاء يعرفون معاوية جيدًا، والذى جعلنى أقول ذلك أن العلاقة بين على ومعاوية قبل خلافة على، لا يوجد ما يشوبها، بل كانت جيدة، كما أن الغوغاء فيما بعد ضغطوا على أمير المؤمنين على فى عزل قيس بن سعد من مصر، ونجحوا فى ذلك، وترتب على ذلك ضياع مصر، وقد فصلت ذلك فى كتابى أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب، هذا وقد اختار أمير المؤمنين على بدلاً من معاوية عبد الله بن عمر، فأبى عليه عبد الله قبول ولاية الشام واعتذر عن ذلك، وذكر له القرابة والمصاهرة التى بينهما[1]، ولم يلزمه أمير المؤمنين على وقبل منه طلبه بعدم الذهاب إلى الشام، وأما الروايات التى تزعم أن عليًا قام بالتهجم على عبد الله بن عمر -رضى الله عنه- لاعتزاله وعدم وقوفه إلى جانبه، ففى ذلك الخبر تحريف وكذب[2].

وأقصى ما وصل إليه الأمر فى قضية عبد الله بن عمر وولاية الشام ما رواه الذهبى من طريق سفيان بن عيينة: عن ابن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: بعث إلىَّ على قال: يا أبا عبد الرحمن، إنك رجل مطاع فى أهل الشام، فسرْ فقد أمرتك عليهم، فقلت: أذكرك الله وقرابتى من رسول الله ﷺ، وصحبتى إياه، إلا ما أعفيتنى، فأبى علىَّ، فاستعنت بحفصة فأبى، فخرجت ليلاً إلى مكة[3]، وهذا دليل قاطع على مبايعة ابن عمر، ودخوله فى الطاعة، إذ كيف يوليه علىٌّ وهو لم يبايع. وفى الاستيعاب، لابن عبد البر من طريق أبى بكر بن أبى الجهم عن ابن عمر أنه قال

(١) المصنف لابن أبى شيبة (٧/ ٤٧٢) إسناده صحيح. (٢) استشهاد عثمان ووقعة الجمل، ص (١٦٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٤) رجاله ثقات.

حين احتضر: ما آسى على شيء إلا تركي قتال الفئة الباغية مع علي رضي الله عنه[١]، وهذا مما يدل أيضًا على مبايعته لعليٍّ، وإنه إنما ندم على عدم خروجه مع علي للقتال، فإنه كان ممن اعتزل الفتنة، فلم يقاتل مع أحد، ولو كان قد ترك البيعة، لكان ندمه على ذلك أكبر وأعظم، ولصرح به، فإن لزوم البيعة والدخول فيما دخل الناس فيه واجب، والتخلف عنه متوعد عليه برواية ابن عمر نفسه أن النبي ﷺ قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية»[٢]. وهذا بخلاف الخروج للقتال مع علي، فإنه مختلف فيه بين الصحابة، وقد اعتزله بعض الصحابة، فكيف يتصور أن يندم ابن عمر على ترك هذا القتال، ولا يندم على ترك البيعة لو كان تاركًا لها، مع ما فيه من الوعيد الشديد، وبهذا يظهر بطلان قول بعض المؤرخين في زعمهم من ترك ابن عمر البيعة لعلي رضي الله عنه، حيث ثبت أنه كان من المبايعين له بل من المقربين منه، الذين كان يحرص على توليتهم، والاستعانة بهم، لما رأى فيه من صدق الولاء والنصح له[٣]، وبعد اعتذار ابن عمر عن قبول ولاية الشام، أرسل أمير المؤمنين عليّ سهيل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية وقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع[٤]، وكانت بلاد الشام تغلي غضبًا على مقتل عثمان ظلمًا وعدوانًا.

أولاً: اختلاف الصحابة في الطريقة التي يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان:

إن الخلاف الذي نشأ بين أمير المؤمنين علي من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم من جهة أخرى، ثم بعد ذلك بين علي ومعاوية رضي الله عنهما.. لم يكن سببه ومنشؤه أن هؤلاء كانوا يقدحون في خلافة أمير المؤمنين علي وإمامته، وأحقيته بالخلافة والولاية على المسلمين، فقد كان هذا محل إجماع بينهم، قال ابن حزم: ولم ينكر معاوية قط فضل عليّ، واستحقاقه الخلافة، ولكنّ اجتهاده أدّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان[٥].

(١) الاستيعاب (٦/ ٣٢٦) بحاشية كتاب الإصابة.

(٢) مسلم، ك الإمارة رقم (١٨٥١).

(٣) الانتصار للصحب والآل، ص (٥٠٧).

(٤) تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ٣٩)، خلافة علي، لعبد الحميد، ص (١١٠).

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٦٠)

وقال ابن تيمية: ومعاوية لم يدّع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل عليًا، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقرُ بذلك لمن سأله عنه، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدئوا عليًا وأصحابه بالقتال، ولا فعلوا[1]، وقال أيضًا: وكل فرقة من المتشيعين مقرّة مع ذلك بأن معاوية ليس كفؤًا لعلى بالخلافة، ولا يكون خليفة مع إمكان استخلاف على، فإن فضل على وسابقته وعلمه ودينه وشجاعته، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معلومة، كفضل إخوانه أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم[2].

إن منشأ الخلاف لم يكن قدحًا فى خلافة أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وإنما اختلافهم فى قضية الاقتصاص من قتلة عثمان، ولم يكن خلافهم فى أصل المسألة، وإنما فى الطريقة التى تعالج بها هذه القضية، إذ كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه موافقًا من حيث المبدأ على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وإنما كان رأيه أن يرجىء الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع، وهدوء الأمور، واجتماع الكلمة، وهذا هو الصواب[3]، قال النووى: وأعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق فى هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته، وقتال الباغى عليه فيما اعتقدوه **ففعلوا ذلك**، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل فى قتال البغاة فى اعتقاده، وقسم عكس هؤلاء: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق فى الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدتهم وقتال الباغى عليه، وقسم ثالث: اشتبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب فى حقهم، لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين، وأن الحق معه، لما جاز لهم التأخر عن نصرته فى قتال البغاة عليه[4].

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٧٢).
(٢) المصدر نفسه (٣٥/ ٧٢).
(٣) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (١٥٨).
(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١٥/ ١٤٩).

ثانيًا: معركة صفين (٣٧هـ):

- تسلسل الأحداث التى قبل المعركة:

١ ـ أم حبيبة بنت أبى سفيان، ترسل النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام:

لما قُتل عثمان رضى الله عنه أرسلت أم المؤمنين، أم حبيبة بنت أبى سفيان إلى أهل عثمان: أرسلوا إلىّ بثياب عثمان التى قُتل فيها، فبعثوا إليها بقميصه مضرّجًا بالدم، وبخصلة الشعر التى نتفت من لحيته، ثم دعت النعمان بن بشير، فبعثته إلى معاوية، فمضى بذلك وبكتابها[١].

وجاء فى رواية: خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بالدماء، ومعه أصابع نائلة التى أصيبت حين دافعت عنه بيدها[٢]، وكانت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوج عثمان كلبية شامية[٣]، فورد النعمان على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس، وعلق الأصابع فى كم القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله، وحث بعضهم بعضًا على الأخذ بثأره[٤]، وجاء شرحبيل بن السمط الكندى وقال لمعاوية: كان عثمان خليفتنا، فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا[٥]. وآلى رجال الشام ألاَّ يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش، حتى يقتلوا قتلة عثمان، ومن عرض دونهم بشىء أو تفنى أرواحهم[٦]، وكان ذلك ما يريده معاوية، فقد كانت الصورة التى نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام كانت بشعة: مقتل الخليفة، سيوفًا مصلتة من الغوغاء على رقاب الناس بالمدينة، بيت المال منتهك مسلوب، وأصابع نائلة مقطوعة، فهاجت النفوس والعواطف، واهتزت المشاعر، وتأثرت بها القلوب، وذرفت منها العيون. ولذلك كان إصرار معاوية ومن معه من أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، وتسليم القتلة للقصاص قبل البيعة. وهل تتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد

---

(١) تاريخ الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، ص (٥٣٩). (٢) البداية والنهاية (٧/ ٥٣٩).
(٣) تاريخ الدعوة الإسلامية لمحمد جميل، ص (٣٩٨). (٤) البداية والنهاية (٧/ ٥٣٩) سندها ضعيف.
(٥) الأنساب (٤/ ٤١٨)، تاريخ الدعوة الإسلامية ص (٣٩٨).
(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٠٠).

المسلمين من حاقدين محتالين متآمرين، ولا يتماوج العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه للقصاص من أصحاب هذه الجريمة البشعة[1]؟

٢ ـ دوافع معاوية رضى الله عنه فى عدم البيعة:

كان معاوية رضى الله عنه واليًا على الشام فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما، ولما تولى الخلافة علىّ رضى الله عنه أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، فاعتذر ابن عمر، فأرسل علىّ سهل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كان يصل مشارف الشام ـ وادى القرى ـ حتى عاد من حيث جاء، إذ لقيته خيل لمعاوية عليها حبيب بن مسلمة الفهرى، فقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع[2]، لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ورأوا أن يقتصّ على رضى الله عنه من قتلة عثمان رضى الله عنه ثم يدخلون البيعة[3]، وقالوا: لا نبايع من يأوى القتلة[4]. وتخوّفوا على أنفسهم من قتلة عثمان رضى الله عنه الذين كانوا فى جيش على، فرأوا أن البيعة لعلى لا تجب عليهم قبل القصاص، وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأن عثمان قتل مظلومًا باتفاق المسلمين، وقتلته فى عسكر على، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثمان، وكان معاوية رضى الله عنه يرى أن عليه مسئولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه، فهو ولى دمه، والله يقول: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣]. لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان، وأنه قتل مظلومًا على يد سفهاء منافقين لم يقدروا الدم الحرام، ، إذ سفكوه فى الشهر الحرام فى البلد الحرام، فثار الناس، واستنكروا وعلت الأصوات، وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقام أحدهم واسمه مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت: «. . وذكر الفتن وقربها، فمر رجل متقنع فى ثوب، فقال: هذا يومئذ على الهدى، فقمت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: نعم»[5].

(١) معاوية بن أبى سفيان، للغضبان، ص (١٧٨- ١٨٣).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٤٦٦).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٢٩).
(٤) العواصم من القواصم، ص (١٦٢).
(٥) صحيح سنن ابن ماجة (١/ ٢٤٠).

وهناك حديث آخر له تأثيره في طلب معاوية القود من قتلة عثمان، وكان منشطًا ودافعًا قويًا للتصميم على تحقيق الهدف، وهو: عن النعمان بن بشير عن عائشة رضى اللـه عنهما قالت: أرسل رسول الله ﷺ . . فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه، فقال: يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى ثلاثًا ، فقلت لها: يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله ما ذكرته، قال: فأخبرته معاوية بن أبى سفيان فلم يرض بالذى أخبرته، حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبى إلىَّ به، فكتبت إليه كتابًا[1].

لقد كان الحرص الشديد فى تنفيذ حكم الله فى القتلة السبب الرئيسى فى رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبى سفيان بيعة على بن أبى طالب رضى الله عنهما، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مقدم على البيعة، وليست لأطماع معاوية فى ولاية الشام فضلاً عن طلبه للخلافة، إذ كان يدرك إدراكًا تامًا أن هذا الأمر فى بقية الستة من أهل الشورى، وأن عليًا أفضل منه وأولى بالأمر منه[2]، فعن أبى مسلم الخولانى أنه قال لمعاوية: أنت تنازع عليًا أم أنت مثله؟ فقال: لا والله إنى لأعلم أنه أفضل منى وأحق بالأمر منى، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا، وأنا ابن عمه، والطالب بدمه، فأتُوه، فقولوا له، فليدفع إلىَّ قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا عليًا فكلموه، فلم يدفعهم إليه[3].

وأما ما شاع بين الناس قديمًا وحديثًا أن الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما كان سببه طمع معاوية فى الخلافة، وأن خروج هذا الأخير على علىّ وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام، فهذه روايات لا تصح ولا تثبت، فقد جاء فى كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينورى، وهو لا يثبت له، وإنما صاحبه ذو أنفاس شيعية رافضية، فقد ذكر أنَّ معاوية ادّعى الخلافة، وذلك من خلال الرواية التى ورد فيها ما قاله ابن الكواء لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه: اعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأنا أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة فإن صدقك فقد حلّ خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه[4]، وهذا

(١) مسند أحمد رقم (٢٤٠٤٥) حديث صحيح.
(٢) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص (١١٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٠)، رجاله ثقات وإسناده جيد.
(٤) الإمامة والسياسة (١/ ١١٣).

كلام لا يثبت عن أمير المؤمنين على وإنما من كلام الشيعة الروافض، وسيأتى الحديث عن كتاب الإمامة والسياسة وبيان كذبه وزوره ودوره فى تشويه حقائق التاريخ فى موضعه بإذن الله، وقد امتلأت كتب التاريخ والأدب بالروايات الموضوعة والضعيفة التى تزعم أن معاوية اختلف مع على من أجل الملك والزعامة والإمارة[1]. والصحيح أن الخلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما كان حوله مدى وجوب بيعة معاوية وأصحابه لعلى قبل توقيع القصاص على قتلة عثمان أو بعده، وليس هذا فى أمر الخلافة فى شىء، فقد كان رأى معاوية رضى الله عنه، ومن حوله من أهل الشام أن يقتص علىّ رضى الله عنه من قتلة عثمان، ثم يدخلون بعد ذلك فى البيعة[2]، يقول القاضى ابن العربى أن سبب القتال بين أهل الشام وأهل العراق يرجع إلى تباين المواقف بينهما: فهؤلاء ـ أى أهل العراق ـ يدعون إلى علىّ بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام، وهؤلاء ـ أى أهل الشام ـ يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان ويقولون: لا نبايع من يؤوى القتلة[3]، ويقول إمام الحرمين فى «لمع الأدلة»: إن معاوية وإن قاتل علياً، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدّعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظاناً منه أنه مصيب، وكان مخطئًا[4].
ويقول الهيثمى: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أنّ ما جرى بين معاوية وعلى رضى الله عنهما من الحروب، لم يكن لمنازعة معاوية لعلى فى الخلافة؛ للإجماع على أحقيتها لعلىّ، فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما هاجت بسبب أن معاوية طلب تسليمه قتلة ابن عمّه فامتنع على[5]، لقد تضافرت الروايات وأشارت إلى أنّ معاوية رضى الله عنه اتخذ موقفه للمطالبة بدم عثمان، وأنه صرح بدخوله فى طاعة على رضى الله عنه إذا أقيم الحد على قتلة عثمان، ولو افترض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال على وطمعًا فى السلطة، فماذا سيحدث لو تمكن على من إقامة الحد على من قتلة عثمان؟ حتمًا ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلى ومبايعته له، لأنه التزم بذلك فى موقفه من تلك الفتنة، كما أن كل من حارب معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتلة عثمان، على أن

(١) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/ ١٤٥). (٢) البداية والنهاية (٨/ ١٢٩)، فتح البارى (١٣/ ٩٢).
(٣) العواصم من القواصم، ص (١٦٢). (٤) لمع الأدلة فى عقائد أهل السنة والجماعة، ص(١١٥).
(٥) الصواعق المحرقة (٢/ ٦٢٢)، هذا هو اجتهاد معاوية، وإن كان الصواب هو أن يسلم معاوية ويطالب بالدعوة للقصاص.

معاوية إذا كان يخفى فى نفسه شيئًا آخر لم يعلن عنه، سيكون هذا الموقف بالتالى مغامرة، ولا يمكن أن يقدم عليها إذا كان ذا أطماع[1].

إن معاوية رضى الله عنه كان من كتّاب الوحى، ومن قادة الصحابة، وأكثرهم حلمًا، فكيف يعتقد أن يقاتل الخليفة الشرعى، ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل؟ وهو القائل: والله لا أخير بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه[2]، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيه: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهد به» [3]، وقال: «اللهم علمه الكتاب وقه العذاب» [4]. وأما وجه الخطأ فى موقفه من مقتل عثمان رضى الله عنه، فيظهر فى رفضه أن يبايع لعلى رضى الله عنه قبل مبادرته إلى الاقتصاص من قتلة عثمان، ويضاف إلى ذلك خوف معاوية على نفسه لمواقفه السابقة من هؤلاء الغوغاء، وحرصهم على قتله، بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم، إن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، بل يدخل فى الطاعة ويرفع دعواه إلى الحاكم، ويطلب الحق عنده[5]، وقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد ويأخذ حقه دون السلطان، أو من نصبه السلطان لهذا الأمر، لأن ذلك يفضى إلى الفتنة وإشاعة الفوضى[6]. ويمكن القول: إن معاوية رضى الله عنه كان مجتهدًا، متأولاً يغلب ظنه أن الحق معه، فقد قام خطيبًا فى أهل الشام بعد أن جمعهم وذكّرهم أنه ولى عثمان ـ ابن عمه ـ وقد قُتل مظلومًا، وقرأ عليهم الآية الكريمة: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]. ثم قال: أنا أحب أن تعلمونى ذات أنفسكم فى قتل عثمان، فقام أهل الشام جميعهم وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفنى الله أرواحهم[7].

وإذا قارنّا بين طلحة والزبير رضى الله عنهما، ومعاوية لاحظنا أنهما أقرب إلى الصواب من معاوية رضى الله عنه ومن معه من أربعة أوجه؛ كان أولها: مبايعتهما

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥١).
(٣) صحيح سنن الترمذى للألبانى رقم (٣٠١٨) (٣/ ٢٣٦).
(٤) فضائل الصحابة (٢/ ٣١٩) إسناده حسن.
(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥١).
(٦) تفسير القرطبى (٢/ ٢٥٦).
(٧) صفين لابن مزاحم، ص (٣٢)، تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٥٢).

لعليّ رضى الله عنه طائعين مع اعترافهما بفضله، ومعاوية لم يبايعه وإن كان معترفًا بفضله[1]. والثانى: منزلتهما فى الإسلام وعند المسلمين وسابقتهما على معاوية ولاشك أن معاوية دونهما فيها[2]. الثالث: أنهما أرادا قتل الخوارج على عثمان فقط، ولم يتعمدا محاربة على ومن معه فى وقعة الجمل[3]، بينما أصر معاوية على حرب علىّ ومن معه فى صفين[4]، والرابع: لم يتهما عليّاً بالهوادة فى أخذ القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية ومن معه اتهموه بذلك[5]. ونضيف نقطة خامسة: أن طلحة والزبير اقتنعا بصواب موقف على ودخلا فى الطاعة عندما اتفقا مع القعقاع بن عمرو إنما الحرب بإثارة الغوغاء والسبئية لها .

٣ ـ معاوية يرد على أمير المؤمنين على رضى الله عنهما:

بعث على رضى الله عنه كتبًا كثيرة إلى معاوية، فلم يرد عليه جوابها، وتكرر ذلك مرارًا إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان رضى الله عنه فى صفر، ثم بعث معاوية طُوماراً[6] مع رجل، فدخل به على علىٍّ رضى الله عنه، فقال له على: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القَوَدَ[7]، كلهم موتور[8]، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق، فقال على: اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان. ثم خرج رسول معاوية من بين يدى على، فهمَّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد[9].

٤ ـ تجهيز أمير المؤمنين على لغزو الشام:

بعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين على رضى الله عنهما عزم الخليفة على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبى موسى الأشعرى بالكوفة، وبعث إلى عثمان بن حنيف بالبصرة بذلك، وخطب

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٢٩)، وفتح البارى (١٣/ ٩٢).
(٢) كان طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة .
(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١١٣)، تاريخ الطبرى (٥/ ٤٧٥) .
(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٢ ـ ٦١٥) .
(٥) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ١٣٩) ، البداية والنهاية (٧/ ٢٥٩) .
(٦) الطومار: الصحيفة .
(٧) القود: القتل بالقتيل .
(٨) الموتور: صاحب الثأر .
(٩) البداية والنهاية (٧/ ٢٤٠).

الناس فحثهم على ذلك، وعزم على التجهز وخرج من المدينة، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج عن أمره، ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسين رضى الله عنهما فقال: يا أبتِ دع هذا، فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقع الاختلاف بينهم، فلم يقبل منه ذلك، بل صمم على القتال، ورتّب الجيش، فدفع اللواء إلى محمد بن الحنفية، وجعل ابن عباس على الميمنة، وعمر بن أبى سلمة على المسيرة وقيل: جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخ أبى عبيدة، واستخلف على المدينة قثم ابن العباس، ولم يبق شىء إلا أن يخرج من المدينة قاصدًا الشام، جاءه ما يشغله عن ذلك[1]، وقد تمَّ تفصيل ذلك من خروج عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم إلى البصرة إلى معركة الجمل، فليرجع إليه فى كتاب «أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب»[2].

٥ ـ إرسال أمير المؤمنين على جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل:

ذُكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين علىّ إلى فتنة السبئية الثانية أو ما يسمى البصرة، أو معركة الجمل، خمسة أشهر وواحد وعشرون يومًا، وبين دخوله الكوفة شهر، وبين ذلك وخروجه إلى صفين ستة أشهر[3]، وروى شهران أو ثلاثة[4]، وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقيل له: انزل بالقصر الأبيض: فقال: لا، إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكره لذلك، فنزل فى الرحبة وصلَّى بالجامع الأعظم ركعتين، ثم خطب الناس فحثهم على الخير، ونهاهم عن الشر، ومدح أهل الكوفة فى خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله، وكان على همدان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على من هنالك ثم يُقبلان إليه، ففعلا ذلك، فلما أراد على أن يبعث إلى معاوية يدعو إلى بيعته، قال جرير بن عبد الله البجلى: أنا ذاهب إليه يا أمير المؤمنين، فإنَّ بينى وبينه وُدًا، فآخذ لك البيعة منه، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٤٠ ، ٢٤١) .

(٢) على بن أبى طالب للصَّلاَّبىِّ (١/ ٤٩٨ - ٦٢٤) .

(٣) مروج الذهب (٢/ ٣٦٠) .

(٤) التاريخ الصغير للبخارى (١/ ١٠٢).

المؤمنين، فإنى أخشى أن يكون هواه معه. فقال على: دعه، فبعثه وكتب معه كتابًا إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته، ويخبره بما كان فى وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلمَّا انتهى إليه جرير بن عبدالله، أعطاه الكتاب، وطلب معاوية رضى الله عنه عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام، فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم. فرجع جرير إلى على فأخبره بما قالوا، فقال الأشتر: ألم أَنْهك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريرًا؟ فلو كنت بعثتنى لما فتح معاوية بابًا إلا أغلقته. فقال له جرير: لو كنت لقتلوك بدم عثمان. فقال الأشتر: والله لو بعثتنى لم يعينى جواب معاوية، ولأعجلنَّه عن الفكرة، ولو أطاعنى فيك أمير المؤمنين، لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمَّة. فقام جرير مغضبًا فأقام بقرقيسياء وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وقيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه(١). وهكذا كان الأشتر سببًا فى إبعاد الصحابى جرير بن عبد الله، الذى كان واليًا على قرقيسياء وعلى غيرها، ورأسًا فى قبيلته بجيلة، ويضطره إلى مفارقة أمير المؤمنين على، وهذا الصحابى جرير بن عبد الله البجلى قال: ما رآنى رسول الله ﷺ إلا تبسم فى وجهى، وقال ﷺ: «يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذى يمن، على وجهه مسحة مَلَكَ»(٢).

٦ ـ مسيرة أمير المؤمنين على إلى الشام:

استعد أمير المؤمنين على لغزو الشام، فبعث يستنفر الناس، وجهز جيشًا ضخمًا، اختلفت الروايات فى تقديره، وكلها روايات ضعيفة(٣)، إلا رواية واحدة حسنة الإسناد ذكرت أنه سار فى خمسين ألفًا(٤)، وكان مكان تجمع جند أمير المؤمنين بالنخلة(٥)، وهو على ميلين من الكوفة آنذاك، فتوافدت عليه القبائل من شتى إقليم العراق(٦)، واستعمل أمير المؤمنين على رضى الله عنه أبا مسعود

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٥).

(٢) مسلم رقم (٢٤٧٥).

(٣) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (٢/ ٦٣٠).

(٤) تاريخ خليفة، ص (١٩٣) بسند حسن.

(٥) النخلة: موقع قرب الكوفة من جهة الشام، معجم البلدان (٥/ ٢٧٨).

(٦) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص (١٨٨).

الأنصارى، وبعث من النخيلة زياد بن النضر الحارثى طليعة فى ثمانية آلاف مقاتل، وبعث شريح بن هانئ فى أربعة آلاف، ثم خرج على رضى الله عنه بجيشه إلى المدائن (بغداد) فانضم إليه من فيها من المقاتلة، وولى عليها سعد بن مسعود الثقفى، ووجه منها طليعة فى ثلاثة آلاف إلى الموصل[1]، وسلك على رضى الله عنه طريق الجزيرة الرئيسى على شط الفرات الشرقى حتى بلغ قرب قرقيسياء[2]، فأتته الأخبار بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين، فتقدم على رضى الله عنه إلى الرقة[3]، وعبر منها الفرات غربًا ونزل على صفين[4].

٧ ـ خروج معاوية إلى صفين:

كان معاوية جاداً فى مطاردة قتلة عثمان رضى الله عنه فقد استطاع أن يترصد بجماعة ممن غزا المدينة من المصريين أثناء عودتهم وقتلهم ومنهم: أبو عمرو بن بديل الخزاعى[5]، ثم كانت له أيد فى مصر، وشيعة فى أهل «خربتا» تطالب بدم عثمان رضى الله عنه، وقد استطاعت هذه الفرقة من إيقاع الهزيمة بمحمد بن أبى حذيفة فى عدة مواجهات عام ٣٦هـ، كما استطاع أيضًا أن يوقع برؤوس مدبرى ومخططى غزو المدينة من المصريين مثل عبد الرحمن بن عديس، وكنانة بن بشر، ومحمد بن حذيفة، فحبسهم فى فلسطين، وذلك فى الفترة التى سبقت خروجه إلى صفين، ثم قتلهم فى شهر ذى الحجة عام ٣٦هـ[6]، وعندما علم معاوية بتحرك جيش العراق نحو صفين جمع مستشاريه من أعيان أهل الشام، وخطب فيهم وقال: إن علياً نهد إليكم فى أهل العراق.. فقال ذو الكلاع الحميرى: عليك أم رأى وعلينا أم فعال[7]. وكان أهل الشام قد بايعوا معاوية على الطلب بدم عثمان رضى الله عنه والقتال[8]، وقد قام عمرو بن العاص رضى الله عنه بتجهيز الجيش وقاد الألوية، وقام فى الجيش خطيبًا يحرضهم، فقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٠٣) بسند منقطع .

(٢) قرقيسياء: بلد يقع على نهر الخابور عند مصبه فى الفرات ، معجم البلدان (٤/ ٣٢٨) .

(٣) الرقة: مدينة مشهورة ـ فى سوريا اليوم ـ على نهر الفرات الشرقى، معجم البلدان (٣/ ١٥٣).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٠٤).

(٥) المحن لأبى العرب التميمى، ص (١٢٤)، خلافة على، لعبد الحميد، ص (١٩١).

(٦) خلافة على، لعبد الحميد، ص (١٩١).

(٧) الإصابة (١/ ٤٨٠)، خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (١٩٢).

(٨) أنساب الأشراف (٢/ ٥٢) بسند منقطع، وخلافة على، ص (١٩٢).

شوكتهم، وفلوا حدهم، ثم إن أهل البصـرة المخالفين لعلى قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار فى شرذمة قليلة ومنهم من قد قتل خليـفتكم، فالله الله فى حقكم أن تضـيعوه، وفى دمكم أن تبطلوه[1].

وسار معاوية فى جيش ضخم، اختلفت الروايات فى تقديره، وكلها روايات منقطعة أسانيـدها، وهى عين الروايات التى قـدرت جيش على رضى الله عنه، فـقدر بمائة وعشـرين ألفًا[2]، وقدر بسـبعين ألف مـقاتل، وقدر بـأكثر من ذلك بكثـير إلا أن الأقرب للصـواب أنهم ستون ألف مـقاتل، فهى وإن كـانت منقطعة الإسناد إلا أن راويها صفـوان بن عمرو السكسى، حمصى مـن أهل الشام ولد عام «٧٢هـ»، وهو ثبت ثقـة، وقد أدرك خلق ممن شـهد صفـين، كمـا تبين من دراسـة ترجمـته[3]، والإسناد إليه صـحيح[4]، وكان قـادة جيش معـاوية على النحو التالى: عـمرو بن العاص، على خيول أهل الشام كلهـا، والضحاك بن قيس على رجالة الناس كلهم، وذو الكلاع الحميـرى على ميمنة الجيش، وحبـيب بن مسلمة على ميـسرة الجيش، وأبو الأعور السلمى على المقدمة، هؤلاء هم القادة الكبار وتحت كل قائد من هؤلاء قادة وزعوا على حسب القبائل، وكان هذا التـرتيب عند مسيرهم إلى صفين، ولكن أثناء الحرب تغـير بعض القادة، وظهر قـادة آخرون مما اقتضـته الظروف، ولعل هذا يكون السـبب فى اختـلاف أسمـاء القادة فى بعض المصـادر[5]. وبعث معـاوية أبا الأعور السلمى مقدمة للجيش، وكان خـط سيرهم إلى الشمال الشرقى من دمشق، ولما بلغ صفين أسفل الفرات، عسكر فى مكان سـهل فسيح، إلى جانب شريعة ماء فى الفرات، ليس فى ذلك المكان شريعة غيرها وجعلها فى حيزه[6].

٨ ـ القتال على الماء:

وصل جـيش على بن أبى طالب رضى اللـه عنه إلى صفـين، حـيث عـسكر معاوية، ولم يـجد موضعًا فـسيحًا سهـلاً يكفى الجيش، فعسكـر فى موضع وعر نوعًا ما إذ أغلب الأرض صخـور ذات كدى وأكمات[7]، ففوجىء جـيش العراق

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٠١) بسند منقطع.

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (١٩٤)، المعرفة والتاريخ (٣/ ٣١٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٨٠).

(٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص(١٩٤).

(٥) امتداد العرب فى صدر الإسلام، صالح العلى، خلافة على، ص (١٩٤).

(٦) صفين لنصر بن مزاحم، ص (١٦٠، ١٦١).

(٧) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص(١٩٦).

بمنع معاوية عنهم الماء، فهرع البعض إلى على رضى الله عنه يشكون إليه هذا الأمر، فأرسل على إلى الأشعث بن قيس فخرج فى ألفين، ودارت أول معركة بين الفريقين، انتصر فيها الأشعث واستولى على الماء[1]، إلا أنه قد وردت رواية تنفى وقوع القتال من أصله مفادها: أن الأشعث بن قيس جاء إلى معاوية فقال: الله الله يا معاوية فى أمة محمد ﷺ! هبوا إنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذرارى؟ إن الله يقول: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] قال معاوية: فما تريد؟ قالوا: خلوا بيننا وبين الماء، فقال لأبى الأعور: خلِّ بين إخواننا وبين الماء[2].

وقد كان القتال على الماء فى أول يوم تواجها فيه فى بداية شهر ذى الحجة فاتحة شر على الطرفين من المسلمين، إذ استمر القتال بينهما متواصلاً طوال هذا الشهر، وكان القتال على شكل كتائب صغيرة، فكان على رضى الله عنه يخرج من جيشه كتيبة صغيرة يؤمر عليها أميرًا، فيقتتلان مرة واحدة فى اليوم فى الغداة أو العشى، وفى بعض الأحيان يقتتلان مرتين فى اليوم، وكان أغلب من يخرج من أمراء الكتائب فى جيش على الأشتر، وحجر بن عدى، وشبث بن ربعى، وخالد بن المعتمر، ومعقل بن يسار الرياحى، ومن جيش معاوية أغلب من يخرج؛ حبيب بن مسلمة، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو الأعور السلمى، وشرحبيل بن السمط، وقد تجنبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك والاستئصال، وأملاً فى وقوع صلح بين الطرفين تصان به الأرواح والدماء[3].

٩ ـ الموادعة بينهما ومحاولات الصلح:

ما إن دخل شهر المحرم، حتى بادر الفريقان إلى الموادعة والهدنة، طمعًا فى صلح يحفظ دماء المسلمين، فاستغلوا هذا الشهر فى المراسلات بينهم ولكن المعلومات عن مراسلات هذه الفترة ـ شهر المحرم ـ وردت من طرق ضعيفة[4]، مشهورة، إلا أن

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٢٩٤) بسند حسن.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١)، مرويات أبى مخنف، ص (٢٩٦).

(٣) خلافة على بن أبى طالب، لعبد الحميد، ص (١٩٧، ١٩٨)، تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٤)، البداية والنهاية (٧/ ٢٦٦).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٢، ٦١٣)، خلافة على بن أبى طالب، ص (١١٩).

ضعـفها لا ينفى وجودها. كـان البادىء بالمراسلة، أميـر المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، فأرسل بشير بن عمرو الأنصارى، وسـعيد بن قيس الهمدانى وشبت ابن ربعى التميـمى إلى معاوية رضى الله عنه يدعوه كما دعـاه من قبل إلى الدخول فى الجماعـة والمبايعة فرد معاوية عليـه برده السابق المعروف، بتسليم قتلة عـثمان أو القود منهم أولاً، ثم يدخل فى البيعة، وقد تبين لنا موقف على من هذه القضية(١)، كما أن قُرَّاء الفـريقين قد عسكروا فى ناحيـة من صفين، وهم عدد كبيـر، قد قاموا بمحاولات للـصلح بينهمـا، فلم تنجُ تلك المحاولات لالتـزام كل فريق منهـما برأيه وموقفه(٢). وقد حاول اثـنان من الصحابة وهما أبو الدرداء، وأبو أمـامة رضى الله عنهما الصلح بين الفريقين، فلم تنجح مـهمتهما، فتركا الفريقين ولم يشـهدا معهما أمرهما(٣)، وكذلك حضر مسروق بن الأجـدع أحد كبار التابعين وخطب الناس فى محـاولة منه لرأب الصدع بينهم، فقـال: أيها الناس أنصتـوا، ثم قال: أرأيتم لو أن مناديًا ناداكم من السماء فسمعتم كلامه ورأيتـموه فقال: إن الله ينهاكم عما أنتم فيه، أكنتم مطيعيه، قـالوا: نعم، قال: فوالله لقد نزل بذلك جبرائيل على محـمد. . فما زال يأتى من هذا. ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. ثم انساب فى الناس فذهب(٤). وقد انتقد ابن كثيـر التفصيلات الطويلة التى جاءت فى روايات أبى مـخنف ونصـر بن مـزاحم، بخـصـوص المراسـلات بين الطرفـين فقال: . . . ثم ذكر أهل السير كـلامًا طويلاً جرى بينهم وبين على، وفى صحة ذلك عنهم وعنه نظر، فإن فى مطاوى ذلك الكـلام من على ما ينتقص فيـه معاوية وأباه، وأنهم إنما دخلا فى الإسلام ولم يزالا فى تردد فيه، وغير ذلك، وأنه قال فى غضون ذلك: لا أقول إن عثمان قُتل مظلومًا ولا ظالمًا، وهذا عندى لا يصح من على رضى الله عنه(٥). وموقف على رضى الله عنه من قتل عثمان رضى الله عنه واضح، وقد بينته فى كتابى عن عثمان بن عفان رضى الله عنهما وفى هذا الكتاب.

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/٦١٣)، خلافة على بن أبى طالب، ص (١٩٩).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٤). (٣) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٠).

(٤) الطبقات (٦/ ٧٨)، القرّاء ودورهم فى الحياة العامة فى صدر الإسلام والخلافة الأموية، هادى حسين حمود.

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٦٩).

ثالثًا: نشوب القتال:

عادت الحرب على ما كانت عليه فى شهر ذى الحجة من قتال الكتائب والفرق والمبارزات الفردية، خشية الالتحام الكلى إلى أن مضى الأسبوع الأول منه، وكان عدد الوقعات الحربية بين الفريقين إلى هذا التاريخ أكثر من سبعين وقعة، وذكر أنها تسعون[1]، إلا أن عليًا أعلن فى جيشه أن غدًا الأربعاء سيكون الالتحام الكلى لجميع الجيش، ثم نبذ إلى معاوية يخبره بذلك[2]، فثار الناس فى تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها، وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فل سلاحه، وهو يحرض الناس على الاستبسال فى القتال[3]، وبات جميع الجيش فى مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية[4].

١ ـ اليوم الأول:

أصبح الجيشان فى يوم الأربعاء قد نظمت صفوفهم، ووزعوا حسب التوزيع المتبع فى المعارك الكبرى، قلب، وميمنة، وميسرة، فكان جيش على رضى الله عنه على النحو التالى[5]: على بن أبى طالب على القلب، وعبد الله بن عباس على الميسرة، وعمّار بن ياسر على الرجالة، ومحمد بن الحنفية حامل الراية، وهشام بن عتبة (المرقال) حامل اللواء، والأشعث بن قيس على الميمنة. وأما جيش الشام، فمعاوية فى كتيبة الشهباء أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع وهو أمير الجيش، وعمرو بن العاص قائد خيل الشام كلها، وذو الكلاع الحميرى على الميمنة على أهل اليمن، وحبيب بن مسلمة الفهرى على الميسرة على مضر، والمخارق بن الصباح الكلاعى حامل اللواء[6]، وتقابلت الجيوش الإسلامية ومن كثرتها قد سدت الأفق، ويقول كعب بن جعيل التغلبى أحد شعراء العرب[7]، وذلك عندما رأى الناس فى ليلة الأربعاء وقد وثبوا إلى نبالهم وسيوفهم يصلحونها استعدادًا لهذا اليوم:

---

(١) الأنباء بتواريخ الخلفاء، ص (٥٩)، شذرات الذهب (١/ ٤٥).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٣).

(٣) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٢٤٠) ضعيف.

(٤) على بن أبى طالب للصلاَّبى (٢/ ٦٣٥).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط، ص (١٩٣)، بسند حسن إلى شاهد عيان.

(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٣).

(٧) الأعلام للزركلى (٦/ ١٨٠).

أصـبـحت الأمة فى أمـر عـجب   والملك مـجـمـوع غـدًا لمن غلب
فـقلت قـولاً صادقًـا غـير كـذب   إن غـدًا تهلـك أعـلام العـرب[1]

وتذكر بعض الروايات الـضعيفـة أن عليًا خطب فى جـيشه، وحـرضهم على الصبر والإقدام والإكـثار من ذكر الله[2]، وتذكر أيضًا أن عمـرو بن العاص، قد استعرض جـيشه، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقـامتها[3]، وهذه الروايات لا يوجد مانع من الأخذ بها، لأن كل قائد يحرض جيشه ويحمسه، ويهتم بكل ما يؤدى به إلى النصر. والتحم الجيشان فى قتال عنيف، استمر محتدمًا إلى غروب الشمس لا يتوقف إلا لأداء الصـلاة، يصلى كل فريق فى معـسكره وبينهما جـثث القتلى فى الميدان تفصل بينهما، وسأل أحد أفراد جيش على رضى الله عنه حين انصرافه من الصلاة، فقـال: ما تقول فى قتلانا وقـتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فـقال: من قتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة[4]. وقد صبـر بعضهم على بعض فلم يغلب أحد أحدًا، ولـم ير موليًا حتى انتهى ذلك اليوم. وفى المساء خرج على رضى الله عنه إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشـام، فدعا ربه قائلاً: اللهم اغفر لى ولهم[5].

٢ ـ اليوم الثانى:

فى يوم الخميس تذكـر الروايات أن عليًا رضى الله عنه قد غلس بصـلاة الفجر واستعـد للهجوم، وغير بـعض القيادات، فوضع عبـد الله بن بديل الخزاعى على الميـمنة بدلاً من الأشـعث بن قيـس الكندى الذى تحـول إلى الميسـرة[6]، وزحف الفريقان نحو بعضهما، واشتبكوا فى قتال عنيف أشد من سابقه، وبدأ أهل العراق فى التقـدم، وأظهروا تفوقًا على أهل الشـام واستطاع عبـد الله بن بديل أن يكسر ميسرة معاوية وعليها حبيب بن مسلمة، ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء) وأظهر شجـاعة وحماسًـا منقطع النظير، وصاحب هذا التـقدم الجزئى، تقدم عـام لجيش

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٣)، تاريخ الطبرى (٥/ ٦٢٦).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٢٢) من طريق أبى محنف.
(٣) الطبقات (٤/ ٢٥٥) من طريق الواقدى.
(٤) سنن سعيد بن منصور (٢/ ٣٤٤، ٣٤٥) بسند ضعيف.
(٥) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٢٩٧) بسند صحيح.
(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٣٠).

العراق، حتى أن معاويـة، قد حدثته نفسه بترك ميدان القـتال، إلا أنه صبر وتمثل بقول الشاعر:

أبت لـى عــفــتى وأبى بـلائى وأخـذى الحـمـد بالثـمن الربيح
وإكــراهى على المكروه نفـسى وضــربى هامــة البطل المشــيح
وقـولى كلمـا جشـأت وجـاشت مكانك تحـمدى أو تـستـريحى[1]

واستحث كتيـبته الشهباء، واستطاعوا قتل عـبد الله بن بديل، فأخذ مكانه فى قيادة الميمـنة الأشتر، وتماسك أهل الشام وبايعوا بعضـهم على الموت، وكروا مرة أخرى بشدة وعزيمة، وقتل عدد من أبرزهم ذو الكلاع، وحوشب، وعبيد الله بن عمـر بن الخطاب رضى الله عنهما. وانقلب الأمـر لجيش الشام، وأظهر تقـدمًا، وبدأ جـيش العـراق فى التـراجع، واسـتـحر القـتل فى أهل الـعراق، وكـثـرت الجراحات، ولما رأى على جيشه فى تراجع، أخذ يـناديهم ويحمسهم، وقاتل قتالاً شديدًا واتجه إلى القلب حيث ربيعة، فثارت فـيهم الحمية وبايعوا أميرهم خالد بن المعمر على الموت وكانوا أهل قتال[2].

وكان عـمّار بن ياسـر رضى الله عنه قد جـاوز الرابعة والتـسعـين عامًـا، وكان يحارب بحـماس، يحرض النـاس، ويستنهض الهمم، ولكنـه بعيد كل البـعد عن الغلو، فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كـفر أهل الشام، فنهاه عمار عن ذلك وقال: إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلهنا واحد، ونبينا واحد، وقبلتنا واحدة[3].

ولما رأى عمار رضى الله عنه تقهقر أصحابه، وتقدم خصومه، أخذ يستحثهم، ويبين لهم أنهم على الحق ولا يغرنهم ضربات الشاميين الشديدة، فيقول رضى الله عنه: من سره أن تكتنفه الحور العين فليقدم بين الصفين محتسبًا، فإنى لأرى صفًا يضربكم ضربًا يرتاب منه المبطلون، والذى نفسى بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل، ولعلمنا أن مصلحينا على

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٣٦).

(٢) الإصابة (١/ ٤٥٤) ، أنساب الأشراف (٢/ ٥٦) بسند حسن إلى قتادة .

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٢٩٠) الإسناد حسن لغيره .

الحق وأنهم على الباطل[1]، ثم أخذ فى التقدم، وفى يده الحربة ترعد لكبر سنه- ويشتد على حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ويستحثه فى التقدم ويرغبه ويطمعه فيما عند الله من النعيم، ويطمع أصحابه أيضًا فيقول: أزفت الجنة وازينت الحور العين، من سره أن تكتنفه الحور العين، فليتقدم بين الصفين محتسبًا. وكان منظرًا مؤثرًا فهو صحابى جليل مهاجرى بدرى جاوز الرابعة والتسعين يمتلك كل هذا الحماس وهذا العزم والروح المعنوية العالية واليقين الثابت، فكان عاملاً هامًا من عوامل حماس جيش العراق ورفع روحهم المعنوية مما زادهم عنفًا وضراوة وتضحية فى القتال حتى استطاعوا أن يحولوا المعركة لصالحهم، وتقدم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وهو يرتجز بقوله:

أعور يبغى أهله مَحَلاً ... قد عالج الحياة حتى ملاَّ

لا بد أن يَفُلَّ أو يُفَلاَّ[2]

وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت فى أطراف الأسل[3]، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين.

اليوم ألقى الأحبة ... محمّدًا وحزبه[4]

وعند غروب شمس ذلك اليوم (الخميس)، طلب عمار شربة من لبن ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال لى: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»[5]. ثمّ تقدم واستحث معه حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبى وقاص الزهرى فلم يرجعا وقتلا[6]، رحمهما الله ورضى الله عنهما.

٣ـ ليلة الهرير ويوم الجمعة:

عادت الحرب فى نفس الليلة بشدة واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة، وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وقاتل

---

(١) مجمع الزوائد (٧/ ٢٤٣)، خلافة على بن أبى طالب ، عبد الحميد، ص (٢١٩) إسناده حسن.
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٥٢).
(٣) الأسل: الرماح.
(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٥٢).
(٥) مصنف ابن أبى شيبة (١٥/ ٣٠٢، ٣٠٣)، بسند منقطع.
(٦) تاريخ الطبرى (٥/ ٦٥٢).

أمير المؤمنين على قـتالاً شديداً وبايع على الموت[1]، وذكر أن عليًا رضى الله عنه صلى بجيشـه المغرب صلاة الخوف[2]، وقال الشافعى: وحفظ عن على أنه صلى صلاة الخوف ليلة الهرير[3]، يقول شاهد عيان: اقتتلنا ثلاثة أيام وثلاثة ليالى حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسايفة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتـى صرنا نعـانق بعضنا بعض، ولما صـارت السيـوف كالمناجل تضـاربنا بعـمد الحديد، فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم، ثم ترامينا بالحجارة وتحاثينا بالتراب، وتعاضـينا بالأسنان، وتكادمنا بالأفواه إلى أن أصـبحوا فـى يوم الجمعـة وارتفعت الشمس، وإن كانت لا ترى من غبـار المعركة، وسقطت الألوية والرايات، وأنهك الجيش التعب وكلت الأيدى وجفت الحلوق[4].

ويقول ابن كثير فى وصف ليلة الهرير ويوم الجـمعة: وتعاضوا بالأسنان، يقتتل الرجلان حتى يثخنا، ثم يجلسان يستريحـان وكل واحد منهما ليهمر على الآخر، ويهمر عليه، ثم يقومـان فيقتتلان كما كانا، فـإنا لله وإنا إليه لراجعون، ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصـبح الناس من يوم الجمعة وهم كـذلك، وصلى الناس الصبح إيمـاؤهم فى القتـال حتى تضـاحى النهار وتوجـه النصر لأهل العـراق على أهل الشام[5].

٤ ـ الدعوة إلى التحكيم:

إن ما وصل إليـه حال الجيشـين بعد ليلة الهرير لم يـكن يحتمل مزيد قـتال، وجاءت خطبة الأشعث بن قيس زعيم كندة أصـحابه ليلة الهرير فقال: قد رأيتم يا معشـر المسلمين ما قد كـان فى يومكم هذا الماضى، وما قد فنى فـيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن توافقنا غداً إنه لفناء العـرب، وضيعة الحرمات، أما والله

---

(١) المستدرك (٣/ ٤٠٢) قال الذهبى: ضعيف، خلافه على، ص (٢٢٦).

(٢) سنن الكبرى للبيهقى (٣/ ٢٥٢) قال الألبانى: رواه البيهقى بصيغة التمريض، إرواء الغليل (٣/ ٤٢).

(٣) تلخيص الحبير (٢/ ٧٨)، خلافة على بن أبى طالب، ص (٢٢٧).

(٤) شذرات الذهب (١/ ٤٥)، وقعة صفين، ص (٣٦٩).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٨٣).

ما أقول هذه المقالة جزعًا من الحرب، ولكنى رجل مسن،وأخاف على النساء والذرارى غدًا إذا نحن فنينا، اللهم إنك تعلم أنى قد نظرت لقومى ولأهل دينى فلم آلُ[1].

وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غدًا لتميلن الروم على ذرارينا ونسائنا ولتميلن أهل فارس على أهل العراق وذراريهم، وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا[2]، وهذه رواية عراقية لا ذكر فيها لعمرو بن العاص ولا للمخادعة والاحتيال، وإنما كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرو بشىء أن تأتى أحدهم الشجاعة فيبادر بذلك، وينقذ ما تبقى من قوى الأمة المتصارعة، إنما يزعج ذلك أعداء الأمة الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة، وتركوا لنا ركامًا من الروايات المضللة بشأنها، تحيل الحق باطلاً، وتجعل الفضل كالمناداة بتحكيم القرآن لصون الدماء المسلمة جريمة ومؤامرة[3] وحيلة، ونسبوا لأمير المؤمنين على أقوالاً مكذوبة تعارض ما فى الصحيح على أنه قال: (إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها، ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهنًا ومكيدة)[4]، ومن الشتائم قولهم عن رفع المصاحف: إنها مشورة ابن العاهرة[5]، ووسّعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو بن العاص -رضى الله عنه- حتى لم تعد تجد كتابًا من كتب التاريخ إلا فيه انتقاص لعمرو بن العاص، وأنه مخادع وماكر بسبب الروايات الموضوعة التى لفقها أعداء الصحابة الكرام، ونقلها الطبرى، وابن الأثير وغيرهما، فوقع فيها كثير من المؤرخين المعاصرين مثل حسن إبراهيم حسن فى تاريخ الإسلام، ومحمد الخضرى بك فى تاريخ الدولة الأموية، وعبد الوهاب النجار فى تاريخ الخلفاء الراشدين وغيرهم كثير، مما ساهم فى تشويه الحقائق التاريخية الناصعة.

---

(١) وقعة صفين للمتفرى، ص (٤٧٩).
(٢) المصدر نفسه، ص (٤٨١ ـ ٤٨٤).
(٣) الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين، ص (٣١٦).
(٤) الكامل (٢/ ٣٨٦).
(٥) المصدر نفسه، (٥/ ٦٦٢، ٦٦٣).

إن رواية أبى مخنف تفترض أن عليًا رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء، الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد[1]، وهذه الرواية تحمل سبًا من على لمعاوية وصحبه يتنزه عنه أهل ذاك الجيل المبارك، فكيف بساداتهم وعلى رأسهم أمير المؤمنين على، ويكفى للرواية سقوطًا أن فيها أبا مخنف الرافضى المحترق، فهى رواية لا تصمد للبحث النزيه، ولا ما يرويه الأمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبى ثابت قال: أتيت أبا وائل - أحد رجال على بن أبى طالب - فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى على المصحف، فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣]. فقال على: نعم، أنا أولى بذلك، فقال القُراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج، بأسيافهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا نمشى إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سهل بن حنيف الأنصارى رضى الله عنه فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ فى الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك فى الصلح الذى كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، ثم حدثهم عن معارضة عمر رضى الله عنه للصلح يوم الحديبية، ونزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ فقال على: أيها الناس إن هذا فتح فقبل القضية ورجع، ورجع الناس[2]. وأظهر سهل بن حنيف رضى الله عنه اشمئزازًا ممن يدعون إلى استمرار الحرب بين الإخوة وقال: أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم[3]، وبيَّن لهم بأنه لا خيار عن الحوار والصلح لأن ما سواه فتنة لا تعرف عواقبها، فقد قال: ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر إلا أسهلن بنا إلى ما نعرفه قبل هذا الأمر، ما سد منها خُصمًا إلا تفجر علينا خُصم ما ندرى كيف نأتى له[4]، وفى هذه الروايات الصحيحة رد على دعاة الفتنة، ومبغضى الصحابة الذين يضعون الأخبار المكذوبة، ويضعون الأشعار وينسبونها إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا فى

(١) الكامل (٥/ ٦٦٢، ٦٦٣).

(٢) مصنف أبى شيبة (٨/ ٣٣٦)، مسند أحمد مع الفتح الربانى (٨/ ٤٨٣).

(٣)، (٤) البخارى رقم (٤١٨٩).

صفين، ليظهروهم بمظهر المتحمس لتلك الحرب ليزرعوا البغضاء فى النفوس، ويعملوا ما فى وسعهم على استمرار الفتنة[1]. إن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية، وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية فى طاعة على والبيعة له، تطور فرضته أحداث حرب صفين، إذ أن الحرب التى أودت بحياة الكثير من المسلمين، أبرزت اتجاهًا جماعيًا رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكة الأمة، وصيانة قوتها أمام عدوها، وهو دليل على حيوية الأمة ووعيها وأثرها فى اتخاذ القرارات[2].

إن أمير المؤمنين على رضى الله عنه قبل وقف القتال فى صفين ورضى التحكيم وعد ذلك فتحًا ورجع[3] إلى الكوفة، وعلق على التحكيم آمالاً فى إزالة الخلاف وجمع الكلمة، ووحدة الصف، وتقوية الدولة، وإعادة حركة الفتوح من جديد. إن وصول الطرفين إلى فكرة التحكيم ساهمت فيه عدة عوامل، منها:

أ ـ أنه كان آخر محاولة من المحاولات التى بذلت لايقاف الصدام وحقن الدماء سواء تلك المحاولات الجماعية، أم المحاولات الفردية التى بدأت بعد موقعة الجمل ولم تفلح، أم الرسائل التى تبودلت بين الطرفين لتنفيذ وجهات نظر كل منهما، ولم تُجْدِ ـ هى الأخرى ـ شيئًا، وكان آخر تلك المحاولات ما قام به معاوية فى أيام اشتداد القتال حيث كتب إلى على رضى الله عنه يطالبه بتوقف القتال فقال: فإنى أحسبك أن لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك ما بلغت لم نجنها على أنفسنا، فإنا إن كنا قد غُلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منا ما ينبغى أن نندم على ما مضى ونصلح ما بقى[4].

ب ـ تساقط القتلى وإراقة الدماء الغزيرة ومخافة الفناء، فصارت الدعوة إلى إيقاف الحرب مطلبًا يرنو إليه الجميع.

جـ ـ الملل الذى أصاب الناس من طول القتال، حتى كأنهم على موعد لهذا الصوت الذى نادى بالهدنة والصلح، وكانت أغلبية جيش على فى اتجاه الموادعة

(١) الإنصاف فيما وقع فى تاريخ العصر الراشدى من الخلاف، ص (٥٣٠).
(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٨). (٣) المصدر نفسه رقم (٦١٩٢).
(٤) الأخبار الطوال للدينورى، ص (١٨٧)، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٣٢).

وكانوا يرددون: قد أكلتنا الحرب، ولا نرى البقاء إلا فى الموادعة[1]، وهذا ينقض ذلك الرأى المتهافت الذى رُوِّج بأن رفع المصاحف كان خدعة من عمرو بن العاص. والحق أن فكرة رفع المصاحف لم تكن جديدة، وليست من ابتكار عمرو ابن العاص، بل رفع المصحف فى الجمل ورشق حامله كعب بن سور قاضى البصرة بسهم وقتل.

د ـ الاستجابة لصوت الوحى الداعى للإصلاح، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ويؤيد هذا ما قاله على بن أبى طالب حينما عرض عليه الاحتكام إلى كتاب الله، قال: نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله[2].

٥ ـ مقتل عمّار بن ياسر -رضى الله عنه- وأثره على المسلمين:

يعد حديث رسول الله ﷺ لعمّار رضى الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»[3] من الأحاديث الصحيحة والثابتة عن النبى ﷺ. وقد كان لمقتل عمّار رضى الله عنه أثر فى معركة صفين، فقد كان علمًا لأصحاب رسول الله يتبعونه حيث سار، وكان خزيمة بن ثابت حضر صفين وكان كافًا سلاحه، فلما رأى مقتل عمّار سل سيفه وقاتل أهل الشام، وذلك لأنه سمع حديث رسول الله ﷺ فى عمّار: «تقتله الفئة الباغية»[4]، واستمر فى القتال حتى قُتل[5]، وكان لمقتل عمّار أثر فى معسكر معاوية، فهذا أبو عبد الرحمن السلمى دخل فى معسكر أهل الشام، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وأبو الأعور السلمى، عند شرعة الماء يسقون، وكانت هى شربة الماء الوحيدة التى يستقى منها الفريقان، وكان حديثهم عن مقتل عمّار بن ياسر، إذ قال عبد الله بن عمرو لوالده: لقد قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، قال: وأى رجل؟ قال: عمّار بن ياسر.. قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقال عمرو لمعاوية: لقد قتلنا الرجل وقد

(١) صفين صـ٤٨٢ ـ ٤٨٥، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٣٣).
(٢) مصنف ابن أبى شيبة (٨/٣٣٦).
(٣)، (٤) مسلم رقم (٢٩١٦).
(٥) خلافة على، ص (٢١١).

قال فيه رسول الله ﷺ ما قال! فقال معاوية: اسكت فوالله ما تزال تدحض[(١)] فى بولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به[(٢)]، فانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار فى الهشيم، وجاء فى رواية صحيحة أن عمرو بن حزم دخل على عمرو بن العاص فقال: قُتل عمار وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقام عمرو بن العاص فزعًا يرجع حتى دخل على معاوية، فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قُتل عمار، فقال معاوية: قُتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «تقتلك الفئة الباغية» فقال له معاوية: دحضت فى بولك، أو نحن قتلناه، إنما قتله على وأصحابه، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا، أو قال بين سيوفنا[(٣)]. وفى رواية صحيحة أيضًا: جاء رجلان عند معاوية يختصمان فى رأس عمار يقول كل واحد منهما: أنه قتلته، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ليطلب به أحدكما نفسًا لصاحبه، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية». قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: إن أبى شكانى إلى رسول الله ﷺ فقال: «أطع أباك ما دام حيًا ولا تعصه. فأنا معكم ولست أقاتل»[(٤)].

من الروايات السابقة نلاحظ أن الصحابى الفقيه عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما حريص على قول الحق، والنصح، فقد رأى أن معاوية وجنده، هم الفرقة الباغية لقتلهم عمارًا، فقد تكرر منه هذا الاستنكار فى مناسبات مختلفة، ولا شك أن مقتل عمار رضى الله عنه قد أثر فى أهل الشام بسبب هذا الحديث، إلا أن معاوية رضى الله عنه أوَّل الحديث تأويلاً غير مستساغ، ولا يصح فى أن الذين قتلوا عمار هم الذين جاءوا به إلى القتال[(٥)]، وقد أثر مقتل عمار كذلك على عمرو بن العاص، بل كان استشهاد عمار دافعًا لعمرو بن العاص للسعى لإنهاء الحرب[(٦)]، وقد قال رضى الله عنه: وددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة[(٧)]، وقد جاء فى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: كنا

---

(١) الدحض: الزلق ، والداحض: من لا ثبات له ولا عزيمة فى الأمور .

(٢) مسند أحمد (٢/٢٠٦) إسناده حسن . (٣) مصنف عبد الرزاق (١١/ ٢٤٠) بسند صحيح.

(٤) مسند أحمد (١٣٨/١١، ١٣٩) قال أحمد شاكر: سنده صحيح.

(٥) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٣٢٥).

(٦) معاوية بن أبى سفيان، الغضبان، ص (٢١٥).

(٧) أنساب الأشراف (١/ ١٧٠)، عمرو بن العاص للغضبان، ص (٦٠٣).

نحمل لبنة لبنة، وعمّار لبنتين لبنتين، فرآه النبى ﷺ، فينفض التراب عنه ويقول: «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار». قال عمّار: أعوذ بالله من الفتن[1]، وقال ابن عبد البر: تواترت الآثار عن النبى ﷺ أنه قال: «تقتل عمار الفئة الباغية». وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوته ﷺ، وهو من أصح الأحاديث[2]، وقال الذهبى بعد ما ذكر الحديث: وفى الباب عن عدة من الصحابة، فهو متواتر[3].

- فهم العلماء للحديث:

أ- قال ابن حجر: وفى هذا الحديث علم من أعلام النبوة، وفضيلة ظاهرة لعلى وعمار، وردٌّ على النواصب الزاعمين أن عليًا لم يكن مصيبًا فى حروبه[4]، وقال أيضًا: دل الحديث: «تقتل عماراً الفئة الباغية»، على أن عليًا كان المصيب فى تلك الحروب، لأن أصحاب معاوية قتلوه[5].

ب - يقول النووى: وكانت الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة لهذا الحديث[6].

ج- قال ابن كثير: كان على وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم، كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبى سلمة عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى، قال: حدثنى من هو خير منى ـ يعنى أبا قتادة ـ أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[7]. وقال أيضًا: وهذا مقتل عمار بن ياسر رضى الله عنهما مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب، قتله أهل الشام، وبان وظهر بذلك سر ما أخبر به الرسول ﷺ من أن تقتله الفئة الباغية، وبان بذلك أن عليًا محق، وأن معاوية باغ، وما فى ذلك من دلائل النبوة[8].

د- وقال الذهبى: هم طائفة من المؤمنين، بغت على الإمام على، وذلك بنص قول المصطفى صلوات الله عليه لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[9].

---

(١) البخارى رقم (٤٤٧).
(٢) الاستيعاب (٣/ ١١٤٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢١).
(٤) فتح البارى (١/ ٦٤٦).
(٥) المصدر نفسه (١٣/ ٩٢).
(٦) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٨).
(٧) البداية والنهاية (٦/ ٢٢٠).
(٨) المصدر نفسه (٧/ ٢٧٧).
(٩) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٠٩).

هـ- قال القاضى أبو بكر بن العربى فى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ﴾ [الحجرات: ٩]، هذه الآية أصل فى قتال المسلمين، والعمدة فى حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من هذه الملة، وإياها عنى النبى ﷺ بقوله: «تقتل عمار الفئة الباغية»(١).

و- وقال ابن تيمية: وهذا يدل على صحة إمامة على ووجوب طاعته، وأن الداعى إلى طاعته داع إلى الجنة، والداعى إلى مقاتلته داعٍ إلى النار - وإن كان متأولاً - وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال على، وعلى هذا فمقاتله مخطئ - وإن كان متأولاً - أو باغ - بلا تأويل -، وهو أصح القولين لأصحابنا، وهو الحكم بتخطئة من قاتل عليًا، وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين(٢). وقال أيضًا: مع أن عليًا أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عمار قتلته الفئة الباغية - كما جاءت به النصوص - فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولا نتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف(٣).

ز- وقال عبد العزيز بن باز: قال ﷺ فى حديث عمار: «تقتل عمار الفئة الباغية» فقتله معاوية وأصحابه فى وقعة صفين، فمعاوية وأصحابه بغاة، لكن مجتهدون ظنوا أنهم مصيبون فى المطالبة بدم عثمان(٤).

ح- وقال سعيد حوى: بعد أن قتل عمار الذى وردت النصوص مبينة أنه تقتله الفئة الباغية، تبين للمترددين أن عليًا كان على حق، وأن القتال معه كان واجبًا، ولذا عبّر ابن عمر عن تخلُّفه بأنه يأسى بسبب هذا التخلف، وما ذلك إلا أنه ترك واجبًا وهو نصرة الإمام الحق على الخارجين عليه بغير حق كما أفتى بذلك الفقهاء(٥).

- الرد على قول معاوية رضى الله عنه: إنما قتله من جاء به(٦):

إن جل الصحابة والتابعين قد فهموا من قول رسول الله ﷺ لعمار: «تقتلك

(١) أحكام القرآن (١٧١٧/٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٤٣٧/٤).
(٣) المصدر نفسه (٤٤٩/٤، ٤٥٠).
(٤) فتاوى ومقالات متنوعة (٨٧/٦).
(٥) الأساس فى السنة (١٧١٠/٤).
(٦) مسند أحمد (٢٠٦/٢) إسناده حسن.

الفئة الباغية»[١]، أن المقصود جيش معاوية رضى الله عنه، مع أنهم معذورون فى اجتهادهم؛ فهم يقصدون الحق ويريدونه، ولكنهم لم يصيبوه، وفئة على أولى بالحق منهم كما قال ﷺ[٢]، ومع أن الأئمة لم يعجبهم تأويل معاوية ـ كما سأنقل ـ إلا أنهم عذروه فى اجتهاده، فها هو ابن حجر يقول فى قوله ﷺ: «يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»[٣]. فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع على، والذين قتلوه مع معاوية، وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لوم عليهم فى اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها، وهو طاعة الإمام وكذلك معذورون للتأويل الذى ظهر لهم[٤].

وقال القرطبى: وقال الإمام أبو المعالى فى كتاب الإرشاد، فصل «على رضى الله عنه»: كان إمامًا حقًا فى توليته، ومقاتلوه بغاة، وحسن الظن بهم يقتضى أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه[٥]، وقال أيضًا: وقد أجاب على رضى الله عنه عن قول معاوية بأن قال: فرسول الله ﷺ إذن قتل حمزة حين أخرجه، وهذا من على رضى الله عنه إلزام، لا جواب عنه، وحجة لا اعتراض عليها، قاله الإمام الحافظ أبو الخطاب بن دحية[٦]، وقال ابن كثير: فقول معاوية: إنما قتله من قدمه إلى سيوفنا، تأويل بعيد جدًا، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يقتلون فى سبيل الله، حيث قدمهم إلى سيوف الأعداء[٧]، وقال ابن تيمية: وهذا القول لا أعلم له قائلاً من أصحاب الأئمة الأربعة ونحوهم من أهل السنة، ولكن هو قول كثير من المروانية ومن وافقهم[٨]، وقال ابن القيم معلقًا على هذا التأويل: نعم التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[٩]، فقالوا: نحن لم نقتله، إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا، فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذى قتله هو الذى قتله، لا من استنصر به[١٠].

---

(١) مسلم رقم (٢٩١٦).

(٢) معاوية بن أبى سفيان، ص (٢١٠ ـ ٢١٤).

(٣) البخارى رقم (٤٤٧).

(٤) فتح البارى (١/ ٦٤٥).

(٥) التذكرة (٢/ ٢٢٢).

(٦) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٣).

(٧) البداية والنهاية (٦/ ٢٢١).

(٨) منهاج السنة (٤/ ٤٠٦).

(٩) مسلم رقم (٢٩١٦).

(١٠) الصواعق المرسلة (١/ ١٨٤، ١٨٥).

٦- من هو قاتل عمّار بن ياسر؟

قال أبو الغـادية الجهنى وهو يحدث عن قتله لعـمار: فلما كان يوم صـفين، أقبل يستن أول الكتـيبة رَجِـلاً، حتى إذا كان بين الصـفين فأبصـر رجلٌ عورة. فطعنه فى ركبته بالرمح فعثر، فانكشف المغفر عنه، فضربته فإذا هو رأس عمار. ثم قتل عماراً، واستسقى أبو غادية، فـأتى بماء فى زجاج، فأبى أن يشرب فيها، فأتى بماء فى قدح فـشرب، فقال رجل: . . . يتورع عـن الشرب فى الزجاج ولم يتورع عن قتل عمار[1]، ويخبر عـمرو بن العاص رضى الله عنه الخبر فـيقول: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: «قاتل عـمار وسالـبه فى النار»[2]. قال ابن كـثير ومعلوم أن عماراً كان فى جيش على يوم صفين، وقتله أصحاب معاوية من أهل الشام، وكان الذى تولى قتله يقال له أبو الغادية، رجل من أفناء الناس، وقيل إنه صحـابى[3]، وقال ابـن حجـر: والظن بالصحـابة فى تلك الحروب أنهم كـانوا متـأولين للمـجتـهد المخطىء أجـر، وإذا ثبت هذا فى حق آحاد الناس فـثبـوته للصحـابة بالطريق الأولى[4]، وقـال الذهبى: وابن ملجم عند الروافض أشـقى الخلق فى الآخـرة، وهو عندنا أهل السنـة ممن نرجـو له النار، ونجـوّز أن الله يتجـاوز عنه، لا كما يقـول الخوارج والروافض، وحكمـه حكم قاتل عثـمان، وقاتل الزبير، وقاتل طلحة، وقاتل سعيد بن جـبير، وقاتل عمار وقاتل خارجة، وقاتل الحسين، فكل هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم فى الله، ونكل أمورهم إلى الله عز وجل[5]، وقد وفق الألبانى فى تعليقـه على قول ابن حجر: هذا حق، لكن تطبيقه على كل فرد من أفـرادهم مشكل، لأنه يلزم تناقض القاعدة المذكورة بمثل حديث التـرجمة، أى (قاتل عمـار وسالبه فى النار)[6]، إذ لا يمكن القول بأن أبا غادية القاتل لـعمار مأجور، لأنه قـتله مجتهـداً، ورسول الله ﷺ يقول: «قاتل عمار فى النار»[7]، فالصواب أن يقـال: إن القاعدة صحيـحة، إلا ما دل الدليل

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ٢٦٠، ٢٦١).
(٢) السلسلة الصحيحة (٥/ ١٨، ١٩).
(٣) البداية والنهاية (٦/ ٢٢٠).
(٤) الإصابة (٧/ ٢٦٠).
(٥) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص (٦٥٤).
(٦) السلسلة الصحيحة (٥/ ١٨، ١٩).
(٧) المصدر نفسه (٥/ ١٨، ١٩).

القاطع على خلافها، فيستثنى ذلك منها كما هو الشأن هنا، وهذا خير من ضرب الحديث الصحيح بها[1]. وقد ترجم لأبى الغادية الجهنى ابن عبد البر فقال: اختلف فى اسمه، فقيل: يسار بن سبُع، وقيل: يسار بن أزهر، وقيل: إن اسمه مسلم. سكن الشام ونزل فى واسط، يعدُّ فى الشاميين، أدرك النبى ﷺ وهو غلام، روُى عنه أنّه قال: أدركت النبى ﷺ وأنا أيفع، أرد على أهلى الغنم، وله سماع من النبى ﷺ قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[2]، وكان محبًا لعثمان، وهو قاتل عمار بن ياسر، وكان يصف قتله إذا سئل عنه لا يباليه، وفى قصته عجبٌ عند أهل العلم[3].

٧ ـ المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة:

إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين.. كانت هذه الوقعة من الغرابة إلى حد أن القارئ لا يصدق ما يقرأ، ويقف مشدوهًا أمام طبيعة النفوس عند الطرفين، فكل منهم كان يقف وسط المعركة شاهراً سيفه وهو يؤمن بقضيته إيمانًا كاملاً، فليست معركة مدفوعة من قبل القيادة يدفعون الجنود إلى معركة غير مقتنعين بها، بل كانت معركة فريدة فى بواعثها، وفى طريقة أدائها، وفيما خلفتها من آثار. فبواعثها فى نفوس المشاركين يعبر عنها بعض المواقف التى وصلت إلينا فى المصادر التاريخية، فهم إخوة يذهبون معًا إلى مكان الماء فيستقون جميعًا، ويزدحمون وهم يغرفون الماء، وما يؤذى إنسان إنسانًا[4]، وهم إخوة يعيشون معًا عندما يتوقف القتال، فهذا أحد المشاركين يقول: كنا إذا تواعدنا من القتال دخل هؤلاء، فى عسكر هؤلاء، وهؤلاء فى معسكر هؤلاء.. وتحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم[5]، وهم أبناء قبيلة واحدة ولكل منهما اجتهاده،

---

(١) السلسلة الصحيحة (٥/١٩).

(٢) مسند أحمد (٤/٧٦) وسنده حسن.

(٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب رقم (٣٠٨٩).

(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٦١٠)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١)، مرويات أبى مخنف، ص (٢٩٦).

(٥) البداية والنهاية (٧/ ٢٧٠)، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٣).

فيقاتل أبناء القبيلة الواحدة كل فى طرف[1] قتالاً مريراً، وكل منهما يرى نفسه على الحق وعنده الاستعداد لأن يُقْتَل من أجله، فكان الرجلان يقتتلان حتى يُثْخنا (وهنًا وضعفًا) ثم يجلسان يستريحان، ويدور بينهما الكلام الكثير، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا[2]، وهما أبناء دين واحد يجمعهما، وهو أحب إليهما من أنفسهما، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها[3]، ويوم قتل عمار بن ياسر صلى عليه الطرفان[4]، ويذكر شاهد عيان اشترك فى صفين: تنازلنا بصفين، فاقتتلنا أيامًا، فكثر القتلى بيننا حتى عقرت الخيل، فبعث على إلى عمرو بن العاص أن القتلى قد كثروا فأمسك حتى يدفن الجميع قتلاهم فأجابهم، فاختلط بعض القوم ببعض حتى كانوا هكذا -وشبك بين أصابعه- وكان الرجل من أصحاب على يشد فيقتل فى عسكر معاوية، فيستخرج منه، وقد مر أصحاب على بقتيل لهم أمام عمرو، فلما رآه بكى وقال: لقد كان مجتهداً أخشن فى أمر الله[5]. وكانوا يسارعون إلى التناهى عن المنكر حتى فى مثل هذه المواقع، فكانت هناك مجموعة عرفوا بالقراء، وكانوا من تلامذة عبد الله بن مسعود من أهل العراق ومن أهل الشام معًا، فلم ينضموا إلى أمير المؤمنين على، ولا إلى معاوية بن أبى سفيان، وقالوا لأمير المؤمنين: إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم، ونعسكر على حدة حتى ننظر فى أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له، أو بدا منه بغى كنا عليه، فقال على: مرحبًا وأهلاً، هذا هو الفقه فى الدين، والعلم بالسنة، من لم يرض بهذا فهو جائر خائن[6]. والحقيقة أن هذه المواقف منبعثة من قناعات واجتهادات استوثقوا منها فى قرارة أنفسهم وقاتلوا عليها[7].

---

(١) تاريخ الطبرى ، نقلاً عن دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٢٧٢) .

(٣) تاريخ الطبرى، نقلاً عن دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٤) تاريخ دمشق (٨/ ٢٣٣)، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٥) أنساب الأشراف (٦/ ٥٦) بسند حسن .

(٦) صفين، ص (١١٥)، دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

(٧) دراسات فى عهد النبوة، ص (٤٢٤).

٨ - معاملة الأسرى عند أمير المؤمنين على رضى الله عنه:

إن المعاملة الحسنة للأسير وإكرامه فى صفين من الأمور البدهية بعد ما استعرضنا المعاملة الكريمة أثناء القتال، وقد بين الإسلام معاملة الأسرى، فقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الأسرى، وإطعامه أفضل الأطعمة الموجودة، هذا مع غير المسلمين، فكيف إذا كان الأسير مسلمًا؟، لا شك إن إكرامه والإحسان إليه أولى، ولكن الأسير فى هذه المعركة يعتبر فئة وقوة لفرقته[(١)]، لذلك كان على رضى الله عنه يأمر بحبسه، فإن بايع أُخلى سبيله، وإن أبى أخذ سلاحه ودابته، أو يهبها لمن أسره ويحلفه ألا يقاتل، وفى رواية: يعطيه أربعة دراهم[(٢)]. وغرض الخليفة الراشد من ذلك واضح، وهو إضعاف جانب البغاة وقد أتى بأسير يوم صفين فقال الأسير: لا تقتلنى صبرًا! فقال على رضى الله عنه: لا أقتلك صبرًا إنى أخاف الله رب العالمين، فخلى سبيله ثمّ قال: أفيك خير تبايع[(٣)].

ويبدو من هذه الروايات أن معاملته للأسرى كانت كما يلى:

- إكرام الأسير والإحسان إليه.
- يعرض عليه البيعة والدخول فى الطاعة، فإن بايع أخلى سبيله.
- إن أبى البيعة أخذ سلاحه ويحلفه ألا يعود للقتال ويطلقه.
- إن أبى إلا القتال تحفظّ عليه فى الأسر ولا يقتله صبرًا[(٤)]. وقد أتى رضى الله عنه مرة بخمسة عشر أسيرًا، ويبدو أنهم جرحى، فكان من مات منهم غسله وكفنه وصلى عليه[(٥)]. ويقول محب الدين الخطيب معلقًا على هذه الحرب: ومع ذلك، فإن هذه الحرب المثالية هى الحرب الإنسانية الأولى فى التاريخ التى جرى فيها المتحاربان معًا على مبادئ الفضائل التى يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها فى حروبهم، ولو فى القرن الحادى والعشرين، وإن كثيرًا من قواعد الحرب فى

(١) كتاب قتال أهل البغى من الحاوى الكبير، ص (١٣٣، ١٣٤).

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٤٣).

(٣) الأم للشافعى (٤/ ٢٢٤) (٨/ ٢٥٦).

(٤) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٤٣).

(٥) تاريخ دمشق، تحقيق المنجد (١/ ٣٣١)، خلافة على بن أبى طالب، ص (٢٤٣).

الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب، ولله فى كل أمر حكمة[١]، قال ابن العديم: قلت: وهذا كله حكم أهل البغى، ولهذا قال أبو حنيفة: لولا ما سار على فيهم، ما علم أحد كيف السيرة فى المسلمين[٢].

٩ - عدد القتلى:

تضاربت أقوال العلماء فى عدد القتلى، فذكر ابن أبى خيثمة أن القتلى فى صفين بلغ عددهم سبعين ألفًا، من أهل العراقٍ خمسة وعشرون ألفًا، ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألف مقاتل[٣]، كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى فى صفين بلغ سبعين ألفًا أو أكثر[٤]، ولا شك أن هذه الأرقام غير دقيقة، بل أرقام خيالية، فالقتال الحقيقى والصدام الجماعى استمر ثلاثة أيام مع وقف القتال بالليل إلا مساء الجمعة فيكون مجموع القتال حوالى ثلاثين ساعة[٥]، ومهما كان القتال عنيفًا، فلن يفوق شدة القادسية التى كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمائة[٦]، وبالتالى يصعب عقلاً أن نقبل تلك الروايات التى ذكرت الأرقام الكبيرة.

١٠ - تفقد أمير المؤمنين على القتلى وترحمه عليهم:

كان أمير المؤمنين على رضى الله عنه بعد نهاية الجولات الحربية يقوم بتفقد القتلى، فيقول شاهد عيان: رأيت عليًا على بغلة النبى ﷺ الشهباء، يطوف بين القتلى[٧]، وأثناء تفقده القتلى ومعه الأشتر، مر برجل مقتول - وهو أحد القضاة والعباد المشهورين بالشام - فقال الأشتر - وفى رواية أخرى عدى بن حاتم -: يا أمير المؤمنين أحابس[٨] معهم؟ عهدى والله به مؤمن، فقال على فهو اليوم مؤمن. ولعل هذا الرجل المقتول هو القاضى الذى أتى عمر بن الخطاب وقال: يا أمير المؤمنين، رأيت رؤيا أفظعتنى، قال: ما هى؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين قال: فمع أيهما كنت؟ قال؟ مع القمر على الشمس، فقال

(١) العواصم من القواصم، ص (١٦٨، ١٦٩) من تعليق الخطيب فى الحاشية.

(٢) بغية الطالب فى تاريخ حلب (١/ ٣٠٩)، خلافة على، ص (٢٤٥).

(٣) الأنباء للقضاعى، ص (٥٩) نقلاً عن خلافة على، ص (٢٤٥).

(٤) الصواعق المرسلة (١/ ٣٧٧) بدون سند، تحقيق محمد دخيل الله.

(٥) الدولة الأموية، ص (٣٦٠ - ٣٦٢).

(٦) تاريخ الطبرى (٤/ ٣٨٨).

(٧) مصنف ابن أبى شيبة.

(٨) حابس بن سعد الطائى مخضرم، قتل بصفين.

عمر: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] فانطلق فوالله لا تعمل لى عملاً أبدًا، قال الراوى: فبلغنى أنه قتل مع معاوية بصفين[١]. وقد وقف علىٌّ على قتلاه وقتلى معاوية فقال: غفر الله لكم، غفر الله لكم، للفريقين جميعًا[٢]، وعن يزيد بن الأصم قال: لما وقع الصلح بين على ومعاوية، خرج على فمشى فى قتلاه فقال: هؤلاء فى الجنة، ثم خرج إلى قتلى معاوية فقال: هؤلاء فى الجنة، ويصير الأمر إلىَّ وإلى معاوية[٣]، وكان يقول عنهم هم: المؤمنون[٤]، وقوله رضى الله عنه فى صفين لا يكاد يختلف عن قوله فى أهل الجمل[٥].

١١ - موقف لمعاوية مع ملك الروم:

استغل ملك الروم الخلاف الذى وقع بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما، وطمع فى ضم بعض الأراضى التى تحت هيمنة معاوية إليه، قال ابن كثير: وطمع فى معاوية ملك الروم بعد أن كان أخشاه وأذله، وقهر جندهم ودحاهم، فلما رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب على تدانى إلى بعض البلاد فى جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين، لأصطلحن أنا وابن عمى عليك ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقنَّ عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة[٦]. وهذا الأثر يدل على أن الخلاف الذى بينه وبين على رضى الله عنه لن يبقى لحظة واحدة فيما لو تعرض أمن الدولة الإسلامية فى الشام للخطر، ولولا أن الروم يعلمون أن هذه الخلافات قابلة للنسيان المطلق ما أخذوا تحذير معاوية مأخذ الجد وكفوا أيديهم[٧].

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١١/ ٧٤) بسند منقطع.

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٥٠).

(٣) مصنف بن أبى شيبة (١٥/ ٣٠٣) بسند حسن.

(٤) تاريخ دمشق (١/ ٣٣١، ٣٢٩)، خلافة على، ص (٢٥١).

(٥) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد، ص (٢٥١)، تنزيه لخال المؤمنين، ص (١٦٩).

(٦) البداية والنهاية (٨/ ١٢٢).

(٧) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، ص (٢١١).

١٢ - قصة باطلة فى حق عمرو بن العاص بصفين:

قال نصر بن مزاحم الكوفى: وحمل أهل العـراق وتلقَّاهم أهل الشام فاجتلدوا وحمل عمرو بن العاص فاعترضه على وهو يقول:

قــد علمت ذات الـقــرون الميل والخـضــر والأنامل الطـفـول[١]

إلى أن يقول: ثم طعنه فـصرعه واتقاه عـمرو برجله، فبدت عـورته، فصرف على وجهـه عنه وارتُثَّ. فقال القـوم: أفلتَ الرجل يا أميـر المؤمنين. قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا. قـال: فإنه عـمرو بن العاص تلقـانى بعورته فـصرفت وجهى[٢]، وذكر القصة - أيضًا - ابن الكلبى، كما ذكر ذلك السهيلى فى الروض الأنف، وقول على: إنه اتقانى بعورته فأذكرنى الرَحِمَ إلى أن قال: . . ويروى مثل ذلك عن عـمرو بن العـاص مع -على رضى الله عنـه - يوم صفـين، وفى ذلك يقول الحارث بن النضر الشهمى: رواه ابن الكلبى وغيره.

أفى كل يوم فـارس غــيـر منتـهٍ وعـورته وسط العــجـاجـة بداية

يكـف لهــــا عـنه علـى سنـانه ويضحك منه فى الخلاء معاوية[٣]

والرد على هذا الافتراء والأفك المبيــن كالآتى: فراوى الرواية الأولى، نصر بن مزاحم الكوفى صاحب وقعـة صفين، شيعى جلد لا يستغـرب عنه كذبه وافتراؤه على الصـحابة، قـال عنه الذهبى فى الميزان: نصـر بن مزاحم الكوفى: رافـضى جَلد، تركوه، قال عنه العقيلى: شيعــى فى حديثه اضطراب وخطأ كثير، وقال أبو خيثمـة: كان كذابًا[٤]، وقال عنه ابن حجـر: قال العجلى: كان رافضيًـا غاليًا. . ليس بثـقة ولا مـأمون[٥]. وأما الكلـبى، هشام بن محـمد بن السـائب الكلبى، فاتفـقوا على غلوه فى التشيع، قـال الإمام أحمد: من يحـدث عنه؟ ما ظننت أن أحـدًا يحدث عنه، وقـال الدارقطنى: متـروك[٦]، وعن طريق هذين الرافـضيـين

---

(١) الطفول: جمع طفل، بالفتح، وهو الرخص الناعم.

(٢) وقعة صفين، ص (٤٠٦ - ٤٠٨)، قصص لا تثبت، سليمان الخراشى (٦/ ١٦).

(٣) الروض الأنف (٥/ ٤٦٢) ، قصص لا تثبت (٦/ ١٩).

(٤) ميزان الاعتدال (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤). (٥) لسان الميزان (٦/ ١٥٧).

(٦) المجروحين لابن حبان (٣/ ٩١)، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٤٣)، معجم الأدباء (١٩/ ٢٨٧)، قصص لا تثبت (١/ ١٨)

سارت هذه القصة فى الآفاق وتلقفها من جاء بعدهم من مؤرخى الشيعة، وبعض أهل السنة ممن راجت عليهم أكاذيب الرافضة(١)، وتعد هذه القصة أنموذجًا لأكاذيب الشيعة الروافض وافتراءاتهم على صحابة رسول الله، فقد اختلق أعداء الصحابة من مؤرخى الرافضة مثالب لأصحاب رسول الله ﷺ، وصاغوها على هيئة حكايات وأشعار لكى يسهل انتشارها بين المسلمين، هادفين إلى الغض من جناب الصحابة الأبرار - رضى الله عنهم - فى غفلة من أهل السنة الذين وصلوا متأخرين إلى ساحة التحقيق فى روايات التاريخ الإسلامى، بعد أن طارت تلكم الأشعار والحكايات بين القصَّاص، وأصبح كثير منها من المسلَّمات، حتى عند مؤرخى أهل السنة للأسف(٢).

١٣ - مرور أمير المؤمنين على بالمقابر بعد رجوعه من صفين:

لما انصرف على أمير المؤمنين رضى الله عنه من صفين مرّ بمقابر، فقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمّا قليل لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم، الحمد لله الذى جعل الأرض كفاتًا، أحياءً وأمواتًا، الحمد لله الذى خلقكم وعليها يحشركم، ومنها يبعثكم، وطوبى لمن ذكر المعاد وأعدّ للحساب، وقنع بالكفاف(٣).

١٤ - إصرار قتلة عثمان رضى الله عنه على أن تستمر المعركة:

إن قتلة عثمان كانوا حريصين على أن تستمر المعركة بين الطرفين، حتى يتفانى الناس، وتضعف قوة الطرفين، فيكونوا بمنأى عن القصاص والعقاب، ولذلك فإنهم فزعوا وهم يرون أهل الشام يرفعون المصاحف، وعلى رضى الله عنه يجيبهم إلى طلبهم، فيأمر بوقف القتال وحقن الدماء، فسعوا إلى محادثة تثنى أمير المؤمنين عن عزمه، لكن القتال توقف، فسقط فى أيديهم، فلم يجدوا بدًا من الخروج على على رضى الله عنه، فاخترعوا مقولة (الحكم لله) وتحصنوا بعيدًا عن الطرفين، والغريب أن المؤرخين لم يركزوا على ما فعله هؤلاء فى هذه المرحلة،

(١) قصص لا تثبت (١/ ٢٠).
(٢) المصدر نفسه (١/ ١٠).
(٣) البيان والتبيان للجاحظ (٣/ ١٤٨)، فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص (٣٢٧).

كما فعلوا فى معركة الجـمل، رغم أنهم كانوا موجودين فى جيش على، وعن سر إخفاق تلك المفاوضات التى دامت أشهراً عديدة، وعن الدور الذى يمكن أن يكون قتلة عثمان قد قاموا به فى معـركة صفين لإفشال كل محاولة صلح بين الطرفين، لأن إصلاح على مع معاوية هو أيضًا اصطلاح عل دمائهم، فلا يعقل أن يجتهدوا فى الفتنة فى وقعة الجمل، ويتركوا ذلك فى صفين[1].

١٥ - نهى أمير المؤمنين على عن شتم معاوية ولعن أهل الشام:

روى أن عليًـا - رضى الله عنه - لما بلغـه أن اثنين من أصحـابه يظهران شـتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل إليـهما: أن كفّا عمّا يبلغنى عنكما، فـأتيا فقالا: يا أمير المؤمنين: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قـال: بلى وربّ الكعبة المسدّنة، قالا: فلم تمنعنا من شـتمهم ولعنهم؟ قال: كـرهت لكم أن تكونوا لعّانين، ولكن قـولوا: اللهم احـقن دماءنـا ودماءهم، وأصلح ذات بـيننا وبينهم، وأبعـدهم من ضلالتهم حتى يعـرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغى من لجج به[2]، وأما ما قيل من أن عليـاً كان يلعن فى قنوته معـاوية وأصحابه، وأن مـعاوية إذا قنت لعن علياً وابن عباس والحسن والحسين، فهو غير صحيح، لأنَّ الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أكـثر حرصًا من غـيرهم على التقيد بأوامـر الشارع الذى نهى عن سباب المسلم ولعنه[3]، فقد روى عن رسـول الله ﷺ قوله: «من لعن مؤمنًا فـهو كقتله»[4]، وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بطعـان ولا بلعّان»[5]، وقوله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شـهداء يوم القيامة»[6]، كما أن الرواية التى جاء فـيها لعن أمير المؤمنين فى قنوته لمعـاوية وأصـحابه، ولعن مـعاويـة لأميـر المؤمنين وابن عبـاس والحسن والحسـين لا تثبت من ناحية السنـد حيث فيها أبو مـخنف لوط بن يحيى الرافضى المحترق الذى لا يوثق فى رواياته. كمـا أن فى أصح كتب الشيعة عندهم النهى عن سب الصحـابة، فقد أنكر على من يسب مـعاوية ومن معه فـقال: إنى

(١) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (١٤٧).

(٢) الأخبار الطوال، ص (١٦٥) نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/ ٢٣٢).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٢٣٢).

(٤) البخارى، ك الأدب (٧/ ٨٤).

(٥) السلسلة الصحيحة للألبانى رقم (٣٢٠)، صحيح سنن الترمذى (٢/ ١٨٩) رقم (١١١٠).

(٦) مسلم (٤/ ٢٠٠٦) رقم (٢٥٩٨).

أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب فى القول، وأبلغ فى العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم[1]. فهذا السب والتكفير لم يكن من هدى على باعتراف أصح كتاب فى نظر الشيعة[2].

رابعًا: التحكيم:

تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين، وهو أن يحكّم كل واحد منهما رجلاً من جهته، ثم يتّفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص، ووكل على أبا موسى الأشعرى رضى الله عنهما جميعًا، وكتب بين الفريقين وثيقة فى ذلك، وكان مقر اجتماع الحكمين فى دومة الجندل فى شهر رمضان سنة ٣٧هـ، وقد رأى قسم من جيش على رضى الله عنه أن عمله هذا ذنب يوجب الكفر فعليه أن يتوب إلى الله تعالى، وخرجوا عليه فسموا الخوارج، فأرسل على رضى الله عنه إليهم ابن عباس -رضى الله عنهما- فناظرهم وجادلهم، ثم ناظرهم على رضى الله عنه بنفسه، فرجعت طائفة منهم وأبت طائفة أخرى، فجرت بينهم وبين على رضى الله عنه حروب أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة.

تعتبر قضية التحكيم من أخطر الموضوعات فى تاريخ الخلافة الراشدة، وقد تاه فيها كثير من الكتاب، وتخبط فيها آخرون، وسطروها فى كتبهم ومؤلفاتهم، وقد اعتمدوا على الروايات الضعيفة والموضوعة التى شوهت الصحابة الكرام وخصوصًا: أبا موسى الأشعرى الذى وصفوه بأنه كان أبله ضعيف الرأى مخدوع فى القول، وبأنه كان على جانب كبير من الغفلة، ولذلك خدعه عمرو بن العاص فى قضيّة التحكيم، ووصفوا عمرو بن العاص رضى الله عنه بأنه كان صاحب مكر وخداع، فكل هذه الصفات الذميمة حاول المغرضون والحاقدون على الإسلام إلصاقها بهذين الرجلين العظيمين اللذين اختارهما المسلمون ليفصلا فى خلاف كبير أدّى إلى قتل الكثير من المسلمين، وقد تعامل الكثير من المؤرخين والأدباء والباحثين مع الروايات التى وضعها خصوم الصحابة الكرام على أنها حقائق

---

(١) نهج البلاغة، ص (٣٢٣).　(٢) أصول مذهب الشيعة (٢/ ٩٣٤).

تاريخية، وقد تلقاها الناس منهم بالقبول دون تمحيص لها، وكأنها صحيحة لا مرية فيها، وقد يكون لصياغتها القصصية المثيرة وما زعم فيها من خداع ومكر أثر في اهتمام الناس بها، وعناية المؤرخين بتدوينها، وليعلم أن كلامنا هذا ينصب على التفصيلات لا على أصل التحكيم حيث إن أصله حق لا شك فيه(1).

خامسًا : نص وثيقة التحكيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - هذا ما تقاضى عليه عليُّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

٢ - قضية على على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، قضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

٣ - إنّا تراضينا أن نقف عند حُكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نُحيي ما أحْيا، ونُميت ما أمات. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

٤ - وإن عليًا وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظرًا وحاكمًا، ورضي معاوية بعمرو بن العاص ناظرًا وحاكمًا.

٥ - على أن عليًا ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه وذمّته وذمّة رسوله، أن يتخذا القرآن إمامًا، ولا يعدوا به إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطورًا، وما لم يجدا في الكتاب ردّاه إلى سنة رسول الله الجامعة، لا يتعمّدان لها خلافًا، ولا يبقيان فيها بشبهة.

٦ - وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على على ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه، وليس لهما أن ينقُصا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره.

٧ - وهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما، ما لم يعدوا الحق، رضي به راض أو سخط ساخط، وإن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله.

(1) مرويات أبي محنف في تاريخ الطبري، ص (٣٧٨)، تنزيه لخال أمير المؤمنين معاوية، ص (٣٨).

٨ - فإن توفى أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة، فلشيعته وأنصاره أن يختاروا مكانه رجلاً من أهل المعدلة والصلاح، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق.

٩ - وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود فى هذه القضية، فلشيعته أن يُولوا مكانه رجلاً يرضون عدله.

١٠ - وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح .

١١ - وقد وجبت القضية على ما سمّيناه فى هذا الكتاب، من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين، والله أقرب شهيد وكفى به شهيداً، فإن خالفا وتعدّيا، فالأمّة بريئة من حُكمهما، ولا عهد لهما ولا ذِمّة.

١٢ - والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم إلى انقضاء الأجل، والسلاح موضوعه، والسبل آمنة، والغائب من الفريقين مثل الشاهد فى الأمر.

١٣ - وللحكمين أن ينزلا منزلاً متوسطًا عدلاً بين أهل العراق والشام.

١٤ - ولا يحضرهما فيه إلا من أحبَّا عن تراضٍ بينهما .

١٥ - والأجل إلى انقضاء شهر رمضان، فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة عجّلاها، وإن رأى تأخيرها إلى آخر الأجل أخَّراها.

١٦ - فإن هما لم يحكُما بما فى كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل، فالفريقان على أمرهم الأول فى الحرب.

١٧ - وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه فى هذا الأمر، وهم جميعًا يد واحدة على من أراد فى هذا الأمر إلحاداً أو ظلمًا أو خلافًا.

وشهد على ما فى هذا الكتاب الحسن والحسين، ابنا على، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب، والأشعث بن قيس الكندى، والأشتر بن الحارث، وسعيد بن القيس الهمدانى، والحصين والطفيل ابنا الحارث بن عبد

المطلب، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصارى، وعبد الله بن خباب بن الأرت، وسهل ابن حنيف، وأبو بشر بن عمر الأنصارى، وعوف بن الحارث بن عبد المطلب، ويزيد بن عبد الله الأسلمى، وعقبة بن عامر الجهنى، ورافع بن خديج الأنصارى، وعمر بن الحمق الخزاعى، والنعمان بن عجلان الأنصارى، وحجر بن عدى الكندى، ويزيد بن حجية النكرى، ومالك بن كعب الهمدانى، وربيعة بن شرحبيل، والحارث بن مالك، وحجر بن يزيد، وعلبة بن حجية. ومن أهل الشام، حبيب بن مسلمة الفهرى، وأبو الأعور السلمى، وبشر بن أرطأة القرشى، ومعاوية بن خديج الكندى، والمخارق بن الحارث الزبيدى، ومسلم بن عمرو السكسى، وعبد الله بن خالد بن الوليد، وحمزة بن مالك، وسبيع بن يزيد الحضرمى، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن يزيد الحضرمى، ويزيد بن أبجر العبسى، ومسروق بن حبلة العكى، وبسر بن يزيد الحميرى، وعبد الله بن عامر القرشى، وعتبة بن أبى سفيان، ومحمد بن أبى سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، وعمّار بن الأحوص الكلبى، ومسعدة بن عمرو العتبى، والصباح بن جلهمة الحميرى، وعبد الرحمن بن ذى الكلاع، وتمامة بن حوشب، وعلقمة بن حكم.

وكتب يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين[١].

سادسًا: قصة التحكيم المشهورة وبطلانها من وجوه:

لقد كثر الكلام حول قصة التحكيم، وتداولها المؤرخون والكتاب على أنها حقيقة ثابتة لا مرية فيها، فهم بين مطيل فى سياقها، ومختصر، وشارح ومستنبط للدروس، وبانٍ للأحكام على مضامينها، وقلما تجد أحدًا وقف عندها فاحصًا محققًا، وقد أحسن ابن العربى فى ردها إجمالاً وإن كان غير مفصل، وفى هذا دلالة على قوة حاسته النقدية للنصوص، إذ إن جميع متون قصة التحكيم لا يمكن أن تقوم أمام معيار النقد العلمى، بل هى باطلة من عدة وجوه[٢].

---

(١) انظر: الوثائق السياسية، ص (٥٣٧، ٥٣٨)، الأخبار الطوال للدينورى، ص (١٩٦ - ١٩٩)، أنساب الأشراف (١/ ٣٨٢)، تاريخ الطبرى (٥/ ٦٦٥ ، ٦٦٦)، البداية والنهاية (٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص (٤٠٢).

١ - **أن جميع طرقها ضعيفة**، وأقوى طريق وردت فيه هو ما أخرجه عبد الرزاق والطبرى بسند رجاله ثقات عن الزهرى مرسلاً قال: قال الزهرى: فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم، ودعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراقين، فعند ذلك حكموا الحكمين، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى، واختار أهل الشام عمرو بن العاص فتفرق أهل صفين حين حكم الحكمان، فاشترطا أن يرفعا ما رفع القرآن ويخفضا ما خفض القرآن، وأن يختار لأمّة محمد ﷺ، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح، فلما انصرف علىّ خالفت الحرورية وخرجت - وكان ذلك أول ما ظهرت - فآذنوه بالحرب، وردوا عليه: أن حكَّمَ بنى آدم فى حكم الله عز وجل، وقالوا: لا حكم إلا لله سبحانه، وقاتلوا، فلما اجتمع الحكمان بأذرح، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير فى إقبالهم فى رجال كثير، ووافى معاوية بأهل الشّام، وأبى على وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوى الرأى من قريش: أترون أحدًا من الناس برأى يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يفترقان؟ قالوا: لا نرى أحدًا يعلم ذلك، قال: فوالله إنى لا أظن أنى سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأرجعهما، فدخل عمرو بن العاص وبدأ به، فقال: يا أبا عبد الله، أخبرنى عما أسألك عنه، كيف ترانا معشر المعتزلة، فإنا قد شككنا فى الأمر الذى تبين لكم من هذا القتال، ورأينا أن نستأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمّة، قال: أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار، وأمام الفجار، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبى موسى فقال له مثل ما قال لعمرو، وقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأيًا، فيكم بقية المسلمين، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، فلقى الذين قال لهم ما قال من ذوى الرأى من قريش، فقال: لا يجتمع هذان على أمر واحد، فلما اجتمع الحكمان وتكلما، قال عمرو بن العاص: يا أبا موسى، رأيت أول ما تقضى به من الحق أن تقضى لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم، قال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: ألست تعلم أن معاوية وأهل الشّام قد وفوا، وقدموا للموعد الذى واعدناهم إياه؟ قال: بلى، قال عمرو: اكتبها فكتبها

أبو موسى، قال عمرو: يا أبا موسى، أأنت على أن تسمى رجلاً يلى أمر هذه الأمّة؟ فسمه لى، فإن أقدر على أن أتابعك فلك علىّ أن أتابعك، وإلا فلى عليك أن تتابعنى، قال أبو موسى: أسمى لك معاوية بن أبى سفيان! فلم يبرحا مجلسهما حتى استبا، ثم خرجا إلى الناس، فقال أبو موسى: إنى وجدت مثل عمرو كمثل الذى قال الله عز وجل: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. فلما سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيها الناس وجدت مثل أبى موسى كمثل الذى قال الله عز وجل: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥]. وكتب كل واحد منهما مثله الذى ضرب لصاحبه إلى الأمصار[١].

والزهرى لم يدرك الحادثة فهى مرسلة، ومراسيله كأدراج الرياح لا تقوم بها حجة[٢]، كما قرّر العلماء، وهناك طريق أخرى أخرجها ابن عساكر بسنده إلى الزهرى وهى مرسلة، وفيها أبو بكر بن أبى سبرة قال عنه الإمام أحمد: كان يضع الحديث[٣]. وفى سنده أيضًا الواقدى، وهو متروك[٤]، وهذا نصها: ... رفع أهل الشّام المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله والحكم بما فيه، وكان ذلك مكيدة من عمرو بن العاص، فاصطلحوا وكتبوا بينهم كتابًا على أن يوافوا رأس الحول أذرح، وحكموا حكمين ينظران فى أمور الناس فيرضون بحكمهما، فحكّم على أبا موسى الأشعرى، وحكم معاوية عمرو بن العاص، وتفرق الناس فرجع على إلى الكوفة بالاختلاف والدغل، واختلف عليه أصحابه فخرج عليه الخوارج من أصحابه ممن كان معه، وأنكروا تحكيمه وقالوا: لا حكم إلا لله. ورجع معاوية إلى الشام بالألفة واجتماع الكلمة عليه، ووافى الحكمان بعد الحول بأذرح فى شعبان سنة ثمان وثلاثين، واجتمع الناس إليهما وكان بينهما كلام اجتمعا عليه فى السر خالفه عمرو بن العاص فى العلانية، فقدم أبا موسى فتكلم وخلع عليّاً ومعاوية، ثم تكلم عمرو بن العاص فخلع عليًا وأقر معاوية، فتفرق الحكمان ومن كان اجتمع إليهما، وبايع أهل الشام معاوية فى ذى القعدة سنة ثمان وثلاثين[٥].

(١) المصنف (٥/٤٦٣)، مرويات تاريخ الطبرى، ص (٤٠٦).
(٢) المراسيل لأبى حاتم، ص (٣)، الجرح والتعديل (١/٢٤٦).
(٣) تهذيب التهذيب (١٢/٢٧)، مرويات تاريخ الطبرى، ص (٤٠٦).
(٤) مرويات تاريخ الطبرى، ص (٤٠٦).
(٥) تاريخ دمشق (١٦/٥٣).

وأمـا طرق أبى مخنف فـهى مـعلولة به، وبأبى جناب الكلبى، فـالأول: وهو أبو مخنف لوط بن يحـيى، ضعيف ليس بثـقة[1]، وإخبـارى تالف غالٍ فى الرفض. وأما الثانى قال فيه ابن سعد: كان ضعيفًا[2]، وقال البخارى وأبو حاتم: كان يحيى القطان يضعفه[3]، وقال عثمان الدارمى: ضعيف[4]، وقال النسائى: ضعيف[5].

هذه طرق قصة التحكيم المشهـورة، والمناظرة بين أبى موسى وعمرو بن العاص المزعومة، أفمـثل هذا تقوم به حجة، أو يعول على مـثل ذلك فى تاريخ الصحابة الكرام وعـهد الخلفـاء الراشدين، عـصـر القدوة والأسـوة، ولو لم يكن فى هذه الروايات إلا الاضطراب فى مـتونهـا لكفاها ضعـفًا، فكيف إذا أضـيف إلى ذلك ضعف أسانيدها[6].

٢ - أهميـة هذه القضـية فى جـانب الاعتـقاد والتـشريع: ومع ذلك لم تنقل لنا بسند صحيح، ومن المحال أن يطبق العلماء على إهمالها مع أهميتها وشدة الحاجة إليها[7].

٣- وردت رواية تناقض تلك الروايات تمامًـا، وذلك فيـما أخـرجه البـخارى فى تاريخه مختصراً بسند رجاله ثقـات، وأخرجه ابن عساكر مطولاً، عن الحصين بن المنذر أن معـاوية أرسله إلى عمرو بن العـاص فقال له: إنه بلغنى عن عمـرو كذا وكذا فاذهب فانظر ما هذا الذى بلغنى عنه، فأتيته فقلت: أخبرنى عن الأمر الذى وُلِّيت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فـيه؟ قال: قد قال الناس وقالوا ولا والله ما كان مـا قالوا ولكن لما اجتـمعت أنا وأبو موسى قلت له: مـا ترى فى هذا الأمر؟ قال: أرى أنه فى النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، قال: فقلت: أين تجعلنى من هذا الأمر أنا ومـعاوية؟ قال: أن يستعن بكما ففـيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما[8].

وقد روى أبو موسى عن تورّع عمـرو ومحاسبته لنفسـه، وتذكُّره سيرة أبى بكر وعمر، وخوفه من الإحداث بعدهمـا، قال أبو موسى: قال لى عمرو بن العاص:

(١) تحقيق مواقف الصحابة (٢/ ٢٢٣).
(٢) مرويات أبى مخنف ص (٤٠٧).
(٣) التاريخ الكبير (٤/ ٢/ ٢٦٧)، الجرح والتعديل (٩/ ١٣٨).
(٤) التاريخ للدارمى، ص (٢٣٨)، تحقيق مواقف الصحابة. (٢/ ٢٢٣).
(٥) الضعفاء والمتركون، ص (٢٥٣).
(٦) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص (٤٠٨).
(٧) المصدر نفسه، ص (٤٠٨).
(٨) التاريخ الكبير (٥/ ٣٩٨).

والله لئن كان أبو بكر وعمر تركـا هذا المال وهو يحلٌّ لهما، غُبِنا وأخطآ أو نقص رأيهمـا، ووالله ما كانا مـغبونين ولا مـخطئين ولا ناقصى الرأى. ووالله مـا جاء الوهم والضعف إلا من قِبلنا[١].

٤- إن معاوية كان يقر بفـضل على عليه وأنه أحق بالخلافة منه: فلم ينازعه الخلافة ولا طلبـها لنفـسه فى حيـاة على، فقـد أخرج يحـيى بن سليمـان الجعـفى بسند جيد[٢]، عن أبى مسلم الخـولانى أنه قال لمعاوية: أنت تنازع عليًا فـى الخلافة أو أنت مـثله؟ قـال: لا، وإنى لأعلم أنه أفـضل منى وأحق بالأمـر، ولكن ألسـتم تعلمون أن عثمان قتل مظلومًا وأنا ابن عمه ووليه، أطلب بدمه؟ فأتوا عليّاً فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا عليًا فكلموه فلم يدفعهم إليه[٣]، فهذا هو أصل النزاع بين على ومـعاوية رضى اللـه عنهمـا، فالتـحكيم من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها لا لاختيار خليفة أو عزله[٤].

ويقول ابن حزم فى هذا الصدد: إن عليًا قاتل معاوية لامتناعه من تنفيذ أوامره فى جمـيع أرض الشام، وهو الإمام الواجب طاعـته، ولم ينكر معـاوية قط فضل علىّ واستحقـاقه الخلافة، لكن اجتهاده أَدَّاه إلى أن رأى تقـديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه من أولاد عثمان وأولاد الحكم بن أبى العاص لسنّه وقوته على الطلب بذلك، وأصاب فى هذا وإنما أخطأ فى تقديمه ذلك على البيعة فقط[٥]. وفهم الخلاف على هذه الصورة - وهى صورته الحـقيقـية - يبين إلى أىِّ مـدى تخطئ الروايات السابقة عـن التحكيم فى تصوير قـرار الحكمين، إن الحكمـين كانا مـفوضين للحكم فى الخـلاف بين على ومعاوية، ولم يـكن الخلاف بينهما حـول الخلافة ومن أحق بها منهـما، وإنما كان حول توقيع القصاص على قتلة عـثمان، وليس هذا من أمر الخلافة فى شىء، فإذا ترك الحكمان هذه القضية الأساسية، وهى ما طلب إليهما الحكم فيه، واتخذا قراراً فى شأن الخلافة، كما تزعم الرواية الشائعة، فـمعنى ذلك أنهما لم يفقها موضوع النزاع، ولم يحيطا بموضوع الدعوى، وهو مستبعد جداً[٦].

---

(١) العواصم من القواصم، ص (١٧٨ - ١٨٠). (٢) فتح البارى (١٣/ ٨٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٠). (٤) مرويات أبى مخنف فى تاريخ الطبرى، ص (٤٠٩).

(٥) الفصل فى الملل والنحل (٤/ ١٦٠). (٦) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/ ٢٢٥).

٥ - أن الشروط التى يجب توافرها فى الخليفة هى العدالة والعلم، والرأى المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، وأن يكون[١] قرشيًا، وقد توافرت هذه الشروط فى على -رضى الله عنه- فهل بيعته منعقدة أم لا؟ فإن كانت منعقدة - ولا شك- وقد بايعه المهاجرون والأنصار أهل الحل والعقد، وخصومه يقرون له بذلك، فقول معاوية السابق يدل عليه بأن «الإمام إذا لم يَخْل عن صفات الأئمة، فرام العاقدون له عقد الإمامة أن يخلعوه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً باتفاق الأئمة، فإن عقد الإمام لازم، لا اختيار فى حله من غير سبب يقتضيه، ولا تنتظم الإمامة ولا تفيد الغرض المقصود منها إلا مع القطع بلزومها، ولو تخير الرعايا فى خلع إمام الخلق على حكم الإيثار والاختيار لما استتب للإمام طاعة ولما استمرت له قدرة واستطاعة ولما صح لمنصب الإمام معنى[٢]. وإذًا فليس الأمر بهذه الصورة التى تحكيها الروايات أن كل من لم يرض بإمامه خلعه، فعقد الإمامة لا يحله إلا من عقده، وهم أهل الحل والعقد، وبشرط إخلال الإمام بشروط الإمامة، وهل على رضى الله عنه فعل ذلك واتفق أهل الحل والعقد على عزله عن الخلافة وهو الخليفة الراشد حتى يقال إن الحكمين اتفقا على ذلك، فما ظهر منه قط إلى أن مات -رضى الله عنه- شىء يوجب نقض بيعته، وما ظهر منه قط إلا العدل، والجد والبر والتقوى والخير[٣].

٦ - أن الزمان الذى قام فيه التحكيم زمان فتنة، وحالة المسلمين مضطربة مع وجود خليفة له، فكيف تنتظم حالتهم مع عزل الخليفة! لا شك أن الأحوال ستزداد سوءًا، والصحابة الكرام أحذق وأعقل من أن يقدموا على هذا، وبهذا يتضح بطلان هذا الرأى عقلاً ونقلاً.

٧ - أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حصر الخلافة فى أهل الشورى وهم الستة وقد رضى المهاجرون والأنصار بذلك، فكان ذلك إذنًا فى أن الخلافة لا تعدو هؤلاء إلى غيرهم ما بقى منهم واحد، ولم يبق منهم فى زمان التحكيم إلا سعد بن أبى

(١) الأحكام السلطانية الماوردى، ص (٦)، الأحكام السلطانية لأبى يعلى، ص (٢٠)، غياث الأمم، ص (٧٩) وما بعدها.

(٢) غياث الأمم، ص (١٢٨)، مرويات أبى مخنف، ص (٤١٠).

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤/٢٣٨).

وقاص وقد اعتزل الأمر ورغب عن الولاية، والإمارة، وعلى بن أبى طالب القائم بأمر الخلافة، وهو أفضل الستة بعد عثمان فكيف يتخطى بالأمر إلى غيره[١].

٨ - أوضحت الروايات أن أهل الشام بايعوا معاوية بعد التحكيم: والسؤال ما المسوغ الذى جعل أهل الشام يبايعون معاوية؟ إن كان من أجل التحكيم؛ فالحكمان لم يتفقا ولم يكن ثمة مبرر آخر حتى ينسب عنهم ذلك، مع أن ابن عساكر نقل بسند رجاله ثقات عن سعيد بن عبد العزيز التنوخى[٢]، أعلم الناس بأمر الشام[٣] أنه قال: كان على بالعراق يدعى أمير المؤمنين، وكان معاوية بالشام يدعى الأمير فلما مات على دعى معاوية بالشام أمير المؤمنين[٤].

فهذا النص يبين أن معاوية لم يبايع بالخلافة إلا بعد وفاة على، وإلى هذا ذهب الطبرى، فقد قال فى آخر حوادث سنة أربعين: وفى هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء[٥]، وعلق على هذا ابن كثير بقوله: يعنى لما مات على قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنه لم يبق له عندهم منازع[٦]، وكان أهل الشام يعلمون أن معاوية ليس كفئا لعلى بالخلافة، ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف على رضى الله عنه، فإن فضل على، وسابقته، وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله.. كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه، أبى بكر، وعمر، وعثمان وغيرهم رضى الله عنهم[٧]، وإضافة إلى ذلك فإن النصوص تمنع من مبايعة خليفة مع وجود الأول، فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[٨]، والنصوص فى هذا المعنى كثيرة[٩]، ومن المحال أن يطبق الصحابة على مخالفة ذلك[١٠].

٩- أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عمر قال: دخلتُ على حفصة ونوساتها[١١] تنطف[١٢] قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين، فلم يجعل لى من الأمر شيء، فقالت: الحق فإنهم ينتظرونك وأخشى أن يكون فى احتباسك عنهم

(١) مرويات تاريخ أبى مخنف، ص (٤١١).
(٢) سعيد بن عبد العزيز التنوخى ثقة إمام (التقريب).
(٣) تهذيب التهذيب (٤/ ٦٠).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٧٦).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ٧٦).
(٦) البداية والنهاية (٨/ ١٦).
(٧) الفتاوى (٣٥/ ٧٣).
(٨) صحيح مسلم (٣/ ١٤٨٠).
(٩) سنن البيهقى (٨/ ١٤٤).
(١٠) مرويات أبى مخنف، ص (٤١٢).
(١١) نوساتها: ضفائرها.
(١٢) تنطف: تقطر.

فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية قال: من كان يريد أن يتكلم فى هذا الأمر فليطلع لنا قرنه، فلنحن أحق به منه ومن أبيه، قال حبيب ابن مسلمة: فهلا أجبته؟ قال عبد الله: فحللت حبوتى وهممت أن أقول أحق بهذا الأمر منك مَنْ قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عنى غير ذلك، فذكرت ما أعد الله فى الجنان. قال حبيب: حفظت وعصمت[1].

هذا الحديث قد يفهم منه مبايعة معاوية بالخلافة، وليس فيه تصريح بذلك، وقد قال بعض العلماء: إن هذا الحديث كان فى الاجتماع الذى صالح فيه الحسن بن على رضى الله عنه معاوية -رضى الله عنه- وقال ابن الجوزى: إن هذه الخطبة كانت فى زمن معاوية لما أراد أن يجعل ابنه يزيد ولى عهده، ويراها ابن حجر فى التحكيم[2]، ودلالة النص على القولين الأولين أقوى. فقوله: فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم.. دليل على اجتماع الكلمة على معاوية، وأيام التحكيم أيام فرقة واختلاف لا أيام جمع وائتلاف[3].

١٠- حقيقة قرار التحكيم: ليس من شك فى أن أمر الخلاف الذى رأى الحكمان رده إلى الأمة، أو إلى أهل الشورى ليس إلا أمر الخلاف بين على ومعاوية حول قتلة عثمان، ولم يكن معاوية مدعيًا للخلافة، ولا منكرًا حق علىّ فيها، كما تقرر سابقًا، وإنما كان ممتنعًا عن بيعته، وعن تنفيذ أوامره فى الشام حيث كان متغلبًا عليها بحكم الواقع لا بحكم القانون، مستفيدًا من طاعة الناس له بعد أن بقى واليًا فيها زهاء عشرين سنة[4]، وقد قال ابن دحية الكلبى فى كتابه «أعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهل صفين»: قال أبو بكر محمد بن الطيب الأشعرى - الباقلانى- فى مناقب الأئمة: فما اتفق الحكمان قط على خلعه - على بن أبى طالب- . . . وعلى أنهما لو اتفقا على خلعه لم ينخلع حتى يكون الكتاب والسنة المجتمع عليهما يوجبان خلعه، أو أحد منهما على ما شرطا فى الموافقة بينهما، أو إلى أن يبيّنا ما يوجب خلعه من الكتاب والسنة، ونصّ كتاب علىّ - عليه السلام - اشترط على الحكمين أن يحكما بما فى كتاب الله عز وجلّ من فاتحته إلى خاتمته

(١) البخارى (٥/ ٤٨) .
(٢) فتح البارى (٧/ ٤٦٦) .
(٣) مرويات أبى مخنف
(٤) تحقيق مواقف الصحابة فى الفتنة (٢/ ٢٣٤) .

لا يجاوزان ذلك ولا يحيدان عنه، ولا يميلان إلى هوى ولا إدهان، وأخذ عليهما أغلظ العـهود والمواثيق، وإن همـا جاوزا بالحكم كـتاب الله فـلا حكم لهـما . . والكتاب والسنة يثبتـان إمامته، ويعظمانه ويثنيان عليه، يشهـدان بصدقه وعدالته، وإمامته، وسابقـته فى الدين، وعظيم جهاده فى جهاد المشركيـن، وقرابته من سيد المرسلين، وما خص به من الـقدم فى الحلم والمعرفـة بالحكم، ووفور الحلم، وأنه حقيق بالإمامة، وأهل لحمل أعباء الخلافة[١].

١١ - مكان انعـقاد المؤتمر: كان الموعـد المحدد لاجـتماع الحـكمين - كما جاء فى الوثيقة - فى رمـضان فى عام ٣٧هـ، إذا لم تحدث عـوائق، فى موضع وسط بين العـراق والشام، وهذا الموضع المخـتار هو دومـة الجندل[٢]، فى روايات مـوثقة، وأذرح[٣] فى روايات أخرى دونها فـى الإتقان، ولعل لقرب المكانين من بعضـهما أثر فى اختـلاف الروايات، إذ يقول خليـفة بن خـياط[٤]: ويقال بأذرح وهى من دومة الجندل قريب، وقد تم الاجتماع فى الموعد المحدد بدون عوائق[٥].

إن المكان الذى اجتمع فيه الحكمان هو دومة الجندل، وهذا بخلاف ما جزم به ياقوت الحموى من أن التحكيم حدث فى أذرح، واسـتدل على ذلك ببعض روايات لم يبينها، وبالأشعار، وبخاصة بشعر ذى الرمة[٦]، فى مدح بلال بن أبى بردة[٧] وهو قوله:

أبوك تلافى الدين والناس بـعدمـا ... تشـاءوا وبيت الدين منقلع الكسـر
فـشـد إصـار الـدين أيام أذرح ... ورد حروبًا قد لقحن إلى عقر[٨]

١٢ - هل حـضر سـعـد بن أبى وقاص اجـتـماع الحكمـين: اجتـمع الحكمان فى موعدهما المحدد، ومع كل واحد منهمـا بضع مئات يمثلون وفدين، وفد عن أهل العـراق، وآخر يـمثل أهل الشـام، وطلب الحكمـان من عـدد من أعـيان قـريش

(١) أعلام النصر المبين فى المفاضلة بين أهل صفين ص (١٧٧).
(٢) دومة الجندل: غرب مدينة الجوف فى شمال الجزيرة العربية.
(٣) أذرح: اسم بلد فى أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحى البلقاء.
(٤) تاريخ خليفة، ص (١٩١، ١٩٢).
(٥) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد ص (٢٦٧).
(٦) ذى الرمة: هو غيلان بن عقبة توفى ١١٧هـ، سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٧).
(٧) بلال بن أبى بردة عامر بن أبى موسى الأشعرى، تهذيب تاريخ دمشق (٣/٣٢١).
(٨) ديوان ذى الرمّة، ص (٣٦١ ـ ٣٦٢)، نقلاً عن خلافة على، ص (٢٧٢).

وفضلائهم الحضور لمشاورتهم والاستئناس برأيهم، ولم يحضر الاجتماع عدد من كبار الصحابة كانوا قد اعتزلوا القتال منذ بدايته، وأفضل هؤلاء: سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فإنه لم يحضر التحكيم ولا أراد ذلك ولا همَّ به[1]، فعن عامر بن سعد أن أخاه عُمر انطلق إلى سعد فى غنم له خارجًا من المدينة، فلمّا أتاه رآه سعد قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الركب، فلمَّا أتاه قال: يا أبة، أرضيت أن تكون أعرابيًا فى غنمك، والناس يتنازعون فى الملك بالمدينة؟ فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت، فإنِّى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى»[2].

سابعًا: هل يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض النزاعات بين الدول الإسلامية؟

يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم فى فض النزاعات بين الدول الإسلامية، وذلك بتحمل قادة البلاد الإسلامية جميعًا مسئولياتهم ومن ورائهم الأمّة الإسلامية التى يحكمونها فى الضغط الجادِّ الصادق، على الطرفين المتنازعين، لكى يوقفا ما بينهما من قتال، ويلجآ إلى التحكيم الشرعى فى الإسلام، فيرسل هذا الطرف حكمًا من قبله، وذلك حكمًا آخر من قبله أيضًا، للفصل فى النزاع القائم وذلك على ضوء ما يلى:

١ - تحديد صلاحيات الحكمين فى إصدار الأحكام التى لا بُدّ منها لحل المشكلات التى هى سبب النزاع.

٢ - جعل مصادر التشريع الإسلامى هى المرجع الوحيد لإصدار تلك الأحكام والحلول التى تفصل فى مسائل النزاع.

٣ - أخذ العهد على كل طرف من طرفى النزاع، وأخذ العهد على جميع قادة البلاد الإسلامية بقبول ما يصدره الحكمان من أحكام، وحلول مشروعة لإنهاء النزاع الرّاهن، على أنها واجبة التنفيذ بحكم الإسلام، وأن الخروج عليها، أو الرضا بذلك الخروج يترتب عليه الإثم شرعًا.

(١) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد ص (٢٧٢).

(٢) المسند (١/١٦٨) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح (٣/٢٦)، خلافة على بن أبى طالب، للسُّلمى، ص(١٠٧).

٤ - إذا أصدر الحكمان ما اتَّفَقَا عليه من أحكام، وحلول، وانقاد لها الطرفان المتنازعان، قُضى الأمر، وكفى الله المؤمنين القتال.

٥ - إذا رفض أحد الطَّرفين، أو كلاهما، الانقياد لقضاء الحكمين اعتبر الطرف الرافض هو الطرف الباغى، سواء صدر الرفض من أحدهما، أو من كليهما، ووجب شرْعًا على القوات الإسلامية فى الأقطار الأخرى أن تضع نفسها تحت تصرُّف ما يصدره الحكمان من قرارات عسكرية، من أجل التدخل لحسم النزاع بالقوة على وجه لا تترتب عليه أضرار ومخاطر هى أكبر من ضرر النزاع القائم.

٦- ويكون من صلاحيّات الحكمين -بالاتفاق - إصدار القرارات التى تخص كيفية تحريك القوات المسلحة فى الأقطار الإسلامية الأخرى، من أجل حل النزاع القائم على ضوء ما سلف بيانه[١]، ولعلّ اللجوء إلى مثل هذه الطريقة فى حل المنازعات بين الأقطار الإسلامية، كفيل بسد الطريق على أيّة قوة خارجية تتدخل فى نزاعات المسلمين، بحجة أنَّ بعض أطراف النِّزاع دعاها إلى هذا التدخل.. ومن ثم تستغل هذه الفرصة، لكى تتآمر على المسلمين، فتعمل على تصعيد تلك النزاعات، وفرض الحلِّ الذى يَحْلو لها، ويكون فيه مصلحتها فقط، وليعانى المسلمون، بعدئذ، من آثار ذلك الحلِّ أسوأ ممّا كانوا يُعَانُون من فتنة النِّزَاع نفسها، فهذه المعاناة لا تهمها فى شيء، لا، بل إنَّ هذه المعاناة هى من جملة الاهتمامات التى فرضت من أجل تفجيرها ذلك الحل المشؤُوم، قلنا: لعل اللُّجُوء إلى التحكيم، على نحو ما سلف بيانه، يسد الطريق فى وجه تلك القوى الخارجيّة التى تبغى فى صفوف المسلمين الفساد، هذا، وإن الصفة الإلزاميَّة شرعًا للحل عن طريق التحكيم الذى عرضناه - تستند إلى إجماع الصحابة، فقد أجمع الصحابة كلهم فى عهد النِّزاع الذى نشب بين على ومعاوية على اللجوء إلى التحكيم، والقبول به.. سواء فى ذلك الصحابة الذين كانوا مع على، والصحابة الذين كانوا مع معاوية، والصحابة الذين اعتزلوا الفريقين، كسعد بن أبى وقاص، وابن عمر، وغيرهما - رضى الله عنهم أجمعين[٢].

---

(١)، (٢) الجهاد والقتال فى السياسة الشرعية (٣/ ١٦٦٥).

ثامنًا: موقف أهل السنة من تلك الحروب:

إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التى وقعت بين الصحابة الكرام - رضى الله عنهم- هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم -رضى الله عنهم- لما يسببه الخوض فى ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويترضى عنهم، ويترحم عليهم، ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم، وأن الذى حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد والجميع مثابون فى حالتى الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطىء فى اجتهاده، وأن القاتل والمقتول من الصحابة فى الجنة، ولم يجوز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم، وقبل أن أذكر طائفة من أقوال أهل السنة التى تبين موقفهم فيما شجر بين الصحابة، أذكر بعض النصوص التى فيها الإشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هى[1]:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

ففى هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال، لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله - عز وجل - مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم، وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان، فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا فى موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل فى اسم الإيمان الذى ذكر فى هذه الآية، فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيمانًا حقيقيًا، ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار فى إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد[2].

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام (٢/٧٢٧)، تنزيه لخال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان من الظلم والضيق فى مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان، ص (٤١).

(٢) العواصم من القواصم ص (١٦٩، ١٧٠)، أحكام القرآن (٤/١٧١٧).

٢ - عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق»[١]. والفرقة المشار إليها فى الحديث هى ما كان من الاختلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما، وقد وصف ﷺ الطائفتين معًا بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق، والحديث علم من أعلام النبوة؛ إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب على أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن عليًا هو المصيب، وإن كان معاوية مجتهدًا وهو مأجور إن شاء الله، ولكن على هو الإمام فله أجران كما ثبت فى صحيح البخارى: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجره»[٢].

٣ - وعن أبى بكرة قال: بينما النبى ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبى ﷺ «ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[٣]. ففى هذا الحديث شهادة من النبى ﷺ بإسلام الطائفتين أهل العراق وأهل الشام، والحديث فيه رد واضح على الخوارج الذين كفروا عليًا ومن معه ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام. ولذا كان يقول سفيان بن عيينة: قوله: فئتين من المسلمين يعجبنا جدًا. قال البيهقى: وإنما أعجبهم لأن النبى ﷺ سماهم جميعًا مسلمين، وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن على بعد وفاة على فى تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبى سفيان[٤].

فهذه الأحاديث المتقدم ذكرها فيها الإشارة إلى أهل العراق الذين كانوا مع على وإلى أهل الشام الذين كانوا مع معاوية بن أبى سفيان، وقد وصفهم النبى ﷺ بأنهم من أمته[٥]. كما وصفهم بأنهم جميعًا متعلقون بالحق لم يخرجوا عنه، كما شهد لهم ﷺ بأنهم مستمرون على الإيمان ولم يخرجوا عنه بسبب القتال الذى حصل بينهم، وقد دخلوا تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا

---

(١) مسلم (٢/ ٧٤٥).
(٢) البخارى مع شرحه فى فتح البارى (١٣/ ٣١٨).
(٣) البخارى، ك الفتن رقم (٧١٠٩).
(٤) الاعتقاد للبيهقى، ص (١٩٨)، فتح البارى (١٣/ ٦٦).
(٥) فى صحيح مسلم (٢/ ٧٤٦) تكون فى أمتى فرقتان.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات:٩]. وقد قدمنا أن مدلول الآية ينتظمهم رضى الله عنهم أجمعين، فلم يكفروا ولم يفسقوا بقتالهم بل هم مجتهدون متأولون، وقد بين الحكم فى قتالهم ذلك على بن أبى طالب رضى الله عنه كما مر معنا.
فالواجب على المسلم أن يسلك فى اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام رضى الله عنهم مسلك الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة، وهو الإمساك عما حصل بينهم -رضى الله عنهم- ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم، وكتب أهل السنة مملوءة ببيان عقيدتهم الصافية النقية فى حق أولئك الصفوة المختارة، وقد حددوا موقفهم من تلك الحرب التى وقعت بينهم فى أقوالهم الحسنة التى منها[١]:

١- سئل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى عن القتال الذى حصل بين الصحابة فقال: تلك دماء طهر الله يدى منها، أفلا أطهر بها لسانى؟! مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها[٢]. قال البيهقى معلقًا على قول عمر ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى: هذا حسن جميل لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب[٣].

٢- سئل الحسن البصرى رحمه الله تعالى عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا[٤]. ومعنى قول الحسن هذا أن الصحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، وما علينا إلا أن نتبعهم فيما اجتمعوا عليه، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأيا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله - عز وجل - إذ كانوا غير متهمين فى الدين[٥].

٣- سئل جعفر بن محمد الصادق عما وقع بين الصحابة فأجاب بقوله: أقول ما قال الله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢][٦].

٤- قال الإمام أحمد رحمه الله بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين على ومعاوية قال: ما أقول فيهم إلا الحسنى[٧]، وعن إبراهيم بن آرز الفقيه قال

(١) عقيدة أهل السنة فى الصحابة (٢/ ٧٣٢).
(٢) الإنصاف للباقلانى، ص(١٦)، الطبقات (٥/ ٣٩٤).
(٣) مناقب الشافعى، ص (١٣٦).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٣٢).
(٥) المصدر نفسه (١٦/ ٣٣٢).
(٦) الإنصاف للباقلانى، ص (١٦٤).
(٧) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى، ص (١٦٤).

حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين على ومعاوية، فأعرض عنه فقيل له : يا أبا عبد الله هو رجل من بنى هاشم فأقبل عليه فقال: اقرأ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤١].

٥- وقال ابن أبى زيد القيروانى فى صدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم فى أصحاب رسول الله ﷺ، وما ينبغى أن يذكروا به، فقال : وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكره، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب(١).

٦- وقال أبو عبد الله بن بطه أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة: ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ، فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم وأمرنا بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم(٢).

٧- قال أبو بكر بن الطيب الباقلانى: ويجب أن يعلم أن ماجرى بين أصحاب النبى ﷺ ورضى الله عنهم من المشاجرة نكف عنه ونترحم على الجميع ونثنى عليهم، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان، ونعتقد أن علياً عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران، وأن الصحابة رضى الله عنهم ما صدر منهم كان باجتهاد ،فلهم الأجر ولا يفسقون ولايبدعون. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] وقوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فإذا كان الحاكم فى وقتنا له أجران على اجتهاده فما ظنك باجتهاد من رضى الله عنهم ورضوا عنه، ويدل على صحة هذا القول قوله ﷺ للحسن رضى الله عنه: «إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله

(١) رسالته المشهورة مع شرحها الثمر الدانى، ص (٢٣).

(٢) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، ص (٢٦٨).

به بين فئتين عظيـمتين من المسلمين﴾[١]، فأثبت العظمة لكل واحـدة من الطائفتين، وحكم لهما بصـحة الإسلام، وقد وعد الله هؤلاء القـوم بنزع الغل من صدورهم بقـوله تعـالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]... إلى أن قال: ويجب الكف عمّا شجر بينهم والسكوت عنه[٢].

٨- وقال ابـن تيمـية فى صـدد عرضه لـعقيـدة أهل السنة والجـماعـة فيمـا شجـر بين الصحـابة: يمسـكون عما شـجر بين الصـحابة ويقـولون: إن هذه الآثار المروية فى مسـاويهم منها مـا هو كذب، ومنهـا ما هو زيد فـيه، ونقص، وغـير عن وجـهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون[٣].

٩- وقال ابن كثير: أما ما شجر بينهم بعده -علـيه الصلاة والسلام- فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل، ومنه ما كان عن اجـتهاد كيوم صفين، والاجتهاد يخطئ ويصيب ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ومأجور أيضًا، وأما المصيب فله أجران[٤].

١٠- وقال ابن حـجر: واتفق أهل السنة على وجوب مـنع الطعن على أحد من الصحابة بسبب مـا وقع لهم من ذلك، ولو عرف المحق منهم لأنهم لم يقاتلوا فى تلك الحروب إلا عـن اجتهـاد بل ثبت أنه يؤجر أجـرًا واحدًا، وأن المصـيب يؤجر أجرين[٥].

فأهل السنة مجمعون على وجوب السكوت عن الخوض فى الفتن التى جرت بين الصحابة رضى الله عنهم بعد قـتل عثمان، والترحم عليهم وحفظ فـضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم، ونشر محاسنهم رضى الله عنهم و أرضاهم[٦].

تاسعًا: تغير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين:

بعد معركة صفين بدأت الموازين تتبدل لصالح معاوية رضى الله عنه، فقد خرج الخوارج من جـيش على رضى الله عنه، وانشغل بقتـالهم، بينما ازداد أمر مـعاوية

(١) البخارى . ك الفتن رقم (٧١٠٩).

(٢) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به، ص (٦٧- ٦٩).

(٣) العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس، ص (١٧٣).

(٤) الباعث الحثيث، ص (١٨٢).

(٥) فتح البارى (١٣/ ٦٣٤)، عقيدة أهل السنة (٢/ ٧٤٠).

(٦) عقيدة أهل السنة (٢/ ٧٤٠).

قوة لا سيما بعد انتهاء أمر التحكيم، وعدم الوصول إلى حل جذرى وكان معاوية رضى الله عنه يعمل بشتى الوسائل سراً وعلانية على إضعاف جانب أمير المؤمنين على رضى الله عنه، واستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، فأرسل جيشًا إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص رضى الله عنه، سيطر عليها وضمها إليه، وقد ساعده على ذلك عدة أمور منها:

١- انشغال أمير المؤمنين على بالخوارج.

٢- عامل أمير المؤمنين على رضى الله عنه على مصر - محمد بن أبى بكر- لم يكن على قدر من الدهاء كسلفه قيس بن سعد الساعدى الأنصارى، فدخل فى حرب مع المطالبين بدم عثمان ولم يسايسهم، كما كان يصنع الوالى السابق فهزموه.

٣- اتفاق معاوية مع المطالبين بدم عثمان رضى الله عنه فى مصر فى الرأى، فساعده فى السيطرة عليها[1].

٤- بُعد مصر عن مركز أمير المؤمنين على رضى الله عنه وقربها من الشام.

٥- طبيعتها الجغرافية فهى متصلة بأرض الشام عن طريق سيناء وتمثل امتداداً طبيعيًا، وقد أضافت مصر قوة كبيرة لمعاوية رضى الله عنه، قوة بشرية واقتصادية كبيرة، وكذلك أرسل معاوية بعوثه إلى شمال الجزيرة الغربية، ومكة والمدينة، وإلى اليمن ولكن لم تلبث هذه البعوث أن ردت على أعقابها عندما أرسل أمير المؤمنين علىٌّ من يصدها[2]، وعمل معاوية رضى الله عنه على استمالة كبار أعيان القبائل وعمال على رضى الله عنه، فقد حاول سحب قيس بن سعد رضى الله عنه عامل علىّ على مصر إليه فلم يستطع، ولكنه استطاع أن يثير شك حاشية على رضى الله عنه ومستشاريه فيه فعزله[3]، وكان عزل سعد عن ولاية مصر مكسبًا كبيراً لمعاوية، كما حاول سحب زياد بن أبيه عامل على رضى الله عنه على فارس ففشل فى ذلك[4]، وقد استطاع معاوية رضى الله عنه أن يؤثر على بعض الأعيان والولاة بسبب ما يمنيهم ويعدهم به، ولما يرونه من علو أمر معاوية وتفرق أمر على رضى

(١) الطبقات (٣/ ٨٣) خلافة على، لعبد الحميد، ص (٣٥١) سند صحيح.

(٢) تاريخ خليفة، ص (١٩٨) بدون سند.

(٣) ولاة مصر، ص (٤٥، ٤٦).

(٤) الاستيعاب (٢/ ٥٢٥ ، ٥٢٦).

الله عنه؛ إذ يقول فى إحدى خطبه: ألا إن بسرًا قد اطلع من قبل معاوية، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون عليكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، وبطاعتهم أميرهم ومعصيتكم أميركم، وبأدائهم الأمانة وبخيانتكم، استعملت فلانًا فغلَّ وغدر وحمل المال إلى معاوية، واستعملت فلانًا فخان وغدر وحمل المال إلى معاوية، حتى لو ائتمنت أحدهم على قدح خشيت على علاَقَته، اللهم إنى أبغضتهم وأبغضونى، فأرحهم منى وأرحنى منهم[1]. ولم يستسلم أمير المؤمنين على رضى الله عنه لهذه المصائب، وهذا التقاعس، والتخاذل فقد بذل جهده فى استنهاض همة جيشه بكل ما أوتى من علم وفصاحة وبيان، فخطبه الحماسية المشهورة التى اشتهرت عنه، وتعتبر من عيون التراث لم يقلها من فراغ أو خيال، بل مرٌّ تجرعه، وواقع أليم عاصره، ولقد ذكرت منها فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه[2].

عاشرًا: المهادنة بين أمير المؤمنين على ومعاوية رضى الله عنهما:

بالرغم من كل هذه المحاولات والجهود المضنية لم يستطع أمير المؤمنين على رضى الله عنه أن يحقق مايريد؛ إذ لم يستطع أن يغزو الشام بسبب التفكك والتصدع الذى حدث فى داخل جيشه، وتفرق كلمتهم، وظهور الأهواء، فاضطر أمير المؤمنين على رضى الله عنه فى سنة أربعين للهجرة أن يوافق لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه على أن يكون العراق له، والشام لمعاوية، ولا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[3]، قال الطبرى فى تاريخه : وفى هذه السنة -٤٠هـ- جرت بين على وبين معاوية رضى الله عنهما المهادنة بعد مكاتبات جرت بينهما، يطول بذكرها الكتاب على وضع الحرب بينهما، ويكون لعلى العراق، ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[4]، ويبدو أن هذه المهادنة لم تستمر، فمعاوية أرسل بسر بن أرطأة إلى الحجاز واليمن فى العام الذى استشهد فيه على رضى الله عنه[5].

---

(١) التاريخ الصغير (١/ ١٢٥) بسند منقطع وله شواهد.

(٢) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب (٢/ ١٠٢٠).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٦)، خلافة على، عبدالحميد، ص (٣٥٦).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٥٦).

(٥) التاريخ الصغير للبخارى (١/ ٤١)، وخلافة على أبى طالب، ص (٤٣١).

الحادى عشر: استشهاد أمير المؤمنين على واستقبال معاوية خبر مقتله:

ولما لم يتمكن على رضى الله عنه من تجهيز الجيش بما يصبو ويريد، ورأى خذلانهم، كره الحياة وتمنى الموت، وكان يتوجه إلى الله بالدعاء ويطلب منه عز وجل أن يعجل منيته، فمما روى عنه أنه خطب يومًا فقال: اللهم إنى قد سئمتهم وسئمونى، ومللتهم وملونى، فأرحنى منهم وأرحهم منى، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم، ووضع يده على لحيته[1]، وقد ألح علىٌّ رضى الله عنه فى الدعاء فى أيامه الأخيرة، فعن جندب قال: ازدحموا على علىٍّ رضى الله عنه حتى وطئوا على رحاله، فقال: اللهم إنى قد مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبغضونى، فأرحنى منهم وأرحهم منى[2]، وفى رواية أخرى عن أبى صالح قال: شهدت عليًا وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تقعقع الورق، فقال: اللهم إنى سألتهم ما فيه فمنعونى، اللهم إنى قد مللتهم وملونى، وأبغضتهم وأبغضونى، وحملونى على غير أخلاقى، فأبدلهم بى شراً منى، وأبدلنى بهم خيراً منهم، ومث قلوبهم ميثة الملح فى الماء[3]، وفى رواية: فلم يلبث إلا ثلاثًا أو نحو ذلك، حتى قتل رحمه الله[4]، وقال الحسن بن على: قال لى على رضى الله عنه: إن رسول الله ﷺ سنح لى الليلة فى منامى، فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟[5] قال: ادع عليهم، قلت: اللهم أبدلنى بهم من هو خير منهم، وأبدلهم بى من هو شر منى لهم. قال الحسن رضى الله عنه: فخرج فضربه الرجل[6].

ولما جاء خبر قتل على إلى معاوية رضى الله عنهما جعل يبكى، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم[7]. وكان معاوية يكتب فيما ينزل به يسأل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن ذلك، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبى طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام، فقال له: دعنى عنك[8]، وقد

---

(١) مصنف عبدالرزاق (١٠/ ١٥٤) بإسناد صحيح، الطبقات(٣/ ٤).

(٢) الآحاد والمثانى لابن أبى عاصم (١/ ٣٧) بإسناد حسن، خلافة على، ص (٤٣٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٤).

(٤) المحن، ص (٩٩) لأبى العرب، وخلافة على، لعبد الحميد، ص (٤٣٢).

(٥) الأود: العوج، اللدد: الخصومة.

(٦) تاريخ الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين، ص (٦٤٩).

(٧) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).

(٨) الاستيعاب (٣/ ١١٠٨).

طلب معاوية رضى الله عنه فى خلافته من ضرار الصُّدائى أن يصف له عليًا رضى الله عنه فقال: أعفنى يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنَّه، قال: أما إذا لابد من وصفه فكان والله بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلاً[1]، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحَدِنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن -والله- مع تقريبه إيانا وقربه منا- لانكاد نكلمه هيبة له، يعظِّم أهل الدين ويُقرِّب المساكين، لا يطمع القوىُّ فى باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. وأشهد أنى قد رأيته فى بعض مواقفه - وقد أرخى الليل سُدولَه[2]، وغارت نجومه- قابضًا على لحيته، يتململ تململ السليم[3]، ويبكى بكاء الحزين، ويقول : يادنيا غُرِّى غيرى، إلىَّ تعرضتِ أم إلىَّ تشوَّفتِ؟ هيهات هيهات، قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كثير، آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه ياضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها وهو فى حجرها[4].

وعن عمر بن عبدالعزيز -رحمه الله- قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت عليه وجلست، فبينما أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتًا وأجيف[5] الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج على وهو يقول: قُضى لى ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غُفر لى ورب الكعبة[6].

(١) الاستيعاب (٣/ ١١٠٧).
(٢) سدوله : سدلته.
(٣) السليم: الملدوغ، كانت العرب تسميه كذلك تفاؤلاً بشفائه.
(٤) الاستيعاب (٣/ ١١٠٨).
(٥) أجيف الباب : رُدَّ وأغلق.
(٦) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).

المبحث الرابع

معاوية رضى الله عنه فى عهد الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم

كانت بيعة الحسن بن على رضى الله عنهما فى شهر رمضان من سنة ٤٠ هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب- رضى الله عنه- على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم المرادى(١)، وقد اختار الناس الحسن بعد والده، ولم يعين أمير المؤمنين أحدًا من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت عليًا يقول: لتُخضبن هذه من هذا(٢)، فما ينتظر بى الأشقى(٣). قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير(٤) عترته، قال: إذن والله تقتلون بى غير قاتلى. قالوا: فاستخلف علينا، قال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ، قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ -وقال وكيع(٥) مرة-: إذا لقيته؟ قال: أقول: اللهم تركتنى فيهم ما بدا لك، ثم قبضتنى إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم(٦)، وفى رواية: أقول: اللهم استخلفتنى فيهم ما بدا لك ثم قبضتنى وتركتك فيهم(٧)، وبعد مقتل على صلَّى عليه الحسن بن على وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المُحلِّين، فقال له الحسن رضى الله عنه: على كتاب الله وسنة نبيه، فإن ذلك يأتى من وراء كل شرط؛ فبايعه وسكت، وبايعه الناس(٨)، وقد اشترط الحسن بن على على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت(٩)، وفى رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا:

---

(١) الطبقات (٣/ ٣٥-٣٨) تحقيق د. إحسان عباس.

(٢) أى: لتخضبن لحيته من دم رأسه.

(٣) مجمع الزوائد (٩/ ١٣٩)، مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره.

(٤) نبير عترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب (٤/ ٥، ٥٣٨).

(٥) وكيع بن الجراح، ثقة حافظ عابد، التقريب، ص (٥٨١).

(٦) مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) حسن لغيره، الموسوعة الحديثية.

(٧) كشف الاستار عن زوائد البزار (٣/ ٢٠٤).

(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ٧٧).

(٩) المصدر نفسه (٦/ ٧٧).

ما هو؟ قال: تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت[1]،وفى رواية ابن سعد: إن الحسن بن على بن أبى طالب بايع أهل العراق بعد علىٍّ على بيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه، ويرضوا بما رضى به[2].

ويستفاد من الروايات السابقة ابتداء الحسن رضى الله عنه فى التمهيد للصلح فور استخلافه، وقد باشر الحسن بن على سلطته كخليفة، فرتب العمال، وأمّر الأمراء، وجند الجنود، وفرق العطايا، وزاد المقاتلة فى العطاء مائة مائة، فاكتسب بذلك رضاءهم[3]، وكان فى وسعه أن يخوض حربًا لاهوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته الفذة من الناحية العسكرية والأخلاقية، والسياسية، والدينية تساعده على ذلك مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد بن عبادة، وحاتم بن عدى الطائى وغيرهما فى صفه من الذين لهم من القدرات القيادية الشىء الكثير، إلا أن الحسن بن على، مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، والرغبة فيها عند الله، وزهده فى الملك، وغير ذلك من الأسباب.

وقد قاد الحسن بن على مشروع الإصلاح الذى توّج بوحدة الأمة، وقد تنازل الحسن بن على من موقف قوة، وهناك دلائل تشيرُ إلى ذلك منها:

١ - الشرعية التى كان يملكها الحسن:

لقد اختير الحسن بن على بعد والده اختياراً شوريًا، وأصبح الخليفة الشرعى على الحجاز واليمن والعراق، وكل الأماكن التى كانت خاضعة لوالده، وقد استمر فى خلافته ستة أشهر، وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ بأن مدتها ثلاثون سنة ثم تكون ملكًا، فقد روى الترمذى بإسناده إلى رسول الله ﷺ حيث قال: «الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك»[4]، وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن على، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية فى ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين سنة، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه توفى فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من

(١) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمى (١/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣١٦، ٣١٧)

(٣) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى، ص (٦٧)، مقاتل الطالبين، ص (٥٥).

(٤) سنن الترمذى مع شرحها تحفة الأحوذى (٦/ ٣٩٥ - ٣٩٧) حديث حسن.

الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليمًا[1]، وبذلك يكون الحسن بن على خامس الخلفاء الراشدين[2]، وقد تحدث عن شرعية الحسن بن على بالخلافة كثير من علماء أهل السنة منهم أبو بكر بن العربى[3]، والقاضى عياض[4]، وابن كثير[5]، وشارح الطحاوية[6]، والمناوى[7]، وابن الحجر الهيثمى[8]، ولو أراد الحسن أن يتعب معاوية بحكم أن الشرعية معه لأمكن ذلك، ولقام بترتيب حملة إعلامية منظمة فى أوساط أهل الشام، لكسب ثقتهم، أو على الأقل زعزعة موقف معاوية بينهم، فقد كان يملك قوة معنوية ونفوذًا روحيًا لا يستهان به بحكم الشرعية التى يستند إليها، ولكونه حفيد الرسول ﷺ.

٢- تقييم الحسن بن على للموقف وقدراته القيادية:

فعندما قال له نفير بن الحضرمى: إن الناس يزعمون إنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله[9]، فهذه شهادة الحسن رضى الله عنه، بأنه كان فى وضع قوى، وبأن أتباعه على استعداد لمحاربة من يريد أو مسالمتهم، كما كان -رضى الله عنه- يملك من الملكات الخطابية والفصاحة البيانية، وصدق العاطفة، وقوة التأثير، والقرب من رسول الله ﷺ ما يجعله أكثر قوة وتماسكًا، ودليلنا على ذلك، ما قام به من استنفار أهل الكوفة للخروج مع والده، وكان أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه قد ثبط الناس ونهاهم عن الخروج والقتال والفتنة، وأسمعهم ما سمعه من رسول الله من التحذير من الاشتراك فى الفتنة[10]، فقد أرسل على -رضى الله عنه- قبل الحسن محمد بن أبى بكر، ومحمد بن جعفر، ولكنهما لم ينجحا فى مهمتهما، وأرسل على بعد ذلك هشام بن عقبة بن أبى وقاص، ففشل فى مهمته لتأثير أبى موسى عليهم[11]، وأتبعه على بعبد الله بن عباس، فأبطأوا عليه،

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ١٣٤).

(٢) مآثر الإنافة (١/ ١٠٥)، مرويات خلافة معاوية، ص(١٥٥). (٣) أحكام القران لابن العربى (٤/ ١٧٢٠).

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٢٠١). (٥) البداية والنهاية (١١/ ١٣٤).

(٦) شرح الطحاوية، ص (٥٤٥). (٧) فيض القدير (٢/ ٤٠٩).

(٨) الصواعق المحرقة (٢/ ٣٩٧). (٩) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٦).

(١٠) تاريخ الطبرى (٥/ ٥١٤)، مصنف بن أبى شيبة (١٥/ ١٢) إسناده حسن.

(١١) خلافة على بن أبى طالب، ص (١٤٤)، لعبد الحميد، سير أعلام (٣/ ٤٨٦).

فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن[1]، وكان للحسن أثر واضح، فقد قام فى الناس خطيبًا وقال: أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهى[2] أمثل فى العاجلة، وخير فى العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به[3] وابتليتم، ولبى كثير من أهل الكوفة، وخرجوا مع عمار والحسن إلى على ما بين ستة إلى سبعة آلاف رجل[4]، ولا ننسى أن أبا موسى الأشعرى كان واليًا على الكوفة، ومن قيادات العراق المحبوبين من عهد عمر، وهو من هو فى علمه وزهده ومكانته عند الناس، ومع ذلك فقد استطاع الحسن أن يكسب أهل الكوفة لصفه وخرجوا معه.

٣- وجود بعض القيادات الكبيرة فى صفه:

كان معسكر الحسن بن على فيه من القيادات الكبيرة، كأخيه الحسين، وابن عمه عبد الله بن جعفر، وقيس بن سعد بن عبادة -وهو من دهاة العرب-، وعدى بن حاتم وغيرهم، فلو أراد الخلافة لأعطى المجال لقياداته للتحرك نحو تعبئة الناس والدخول فى الحرب مع معاوية، وعلى الأقل يكون خليفة على دولته إلى حين.

٤- معرفته لنفسية أهل العراق:

كان له قدرات خاصة فى التعامل مع أهل العراق ومعرفة نفوسهم، ولذلك زاد لهم فى العطاء منذ بداية خلافته، كما أن مهمته التى قادها فى نجاح مشروعه الإصلاحى كانت أصعب من حربه لمعاوية، ومع ذلك تغلب على الكثير من العوائق التى واجهته، فقد حاولوا قتله، ورفض بعض الناس الصلح، وغير ذلك من العوائق إلا أنه تغلب عليها كلها، وحقق الأهداف التى رسمها من حقن الدماء، ووحدة الأمة، وأمن السبيل، وعودة حركة الفتوح.. إلخ مما يدل على قدراته القيادية الفذّة.

٥- تقييم عمرو بن العاص ومعاوية لقوات الحسن رضى الله عنهم:

فقد جاء فى البخارى: استقبل -والله- الحسن بن على معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إنى أرى لا تُولى حتى تقتل أقرانها. فقال

(١) فتح البارى (١٣/ ٥٣)، على بن أبى طالب للصَّلاَّبى (٢/ ٦٠).
(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٥١٦)، أولو النهى: أصحاب العقول. (٣) تاريخ الطبرى (٥/ ٥١٦).
(٤) مصنف عبد الرزاق (٥/ ٤٥٦، ٤٥٧) بسند صحيح للزهرى.

معاوية- وكان خير الرجلين-: أى عمرو، إن قُتل هؤلاء من لى بأمور الناس، من لى بنسائهم، من لى بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بنى عبد شمس -عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز- فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه قولا له، واطلبا إليه[1].

أ- فعمرو بن العاص رضى الله عنه، القائد العسكرى الشهير، والسياسى المحنك والذى عركته الحروب يقول: إنى أرى كتائب لا تولى حتى تقتل أقرانها.

ب- وأما معاوية رضى الله عنه، فتقييمه للموقف العسكرى بأنه لا يستطيع أحد أن ينتصر ويحقق حسمًا عسكريًا إلا بعد خسائر فادحة للطرفين، ولا يستطيع معاوية حتى لو كان هو المنتصر أن يتحمل تركة الحرب من أرامل وأيتام وقتل خير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاسد كبرى اجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية للأمة الإسلامية، ولذلك اختار معاوية شخصيتين كبيرتين من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أصحاب النفوذ فى المجتمع الإسلامى ولهما حضور واحترام عند الحسن، وهما من قريش، فالشخصيتان اللتان أرسلهما معاوية رضى الله عنه تدل على حرصه على نجاح الصلح مع الحسن بأى ثمن ممكن، وقد ظل زمام الموقف بيد الحسن بن على رضى الله عنه ويد أنصاره، ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية إلى أن يفاوضه، ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، ولكان عرف ضعف جانب الحسن، وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد أو ينزل على شروطه ومطالبه[2].

كان الحسن بن على رضى الله عنه ذا خلق يجنح إلى السلم، وكان رضى الله عنه يملك رؤية إصلاحية واضحة المعالم، خضعت لمراحل وبواعث، وتغلب على العوائق، وكتب شروطه، وترتب على صلحه نتائج، وأصبح هذا الصلح من مفاخر الحسن على مر العصور وتوالى الأزمان، فكان فى صلحه مع معاوية وحقنه

---

(١) البخارى ، ك الصلح رقم (٢٧٠٤).

(٢) دراسة فى تاريخ خلفاء الدولة الأموية، ص (٦١).

لدماء المسلمين، كعثمان فى جمعه للقرآن، وكأبى بكر فى حربه للمرتدين[١]، ولا أدل على ذلك فى كون هذا الفعل من الحسن يعد علمًا من أعلام النبوة، ما أخرجه البخارى من طريق أبى بكرة رضى الله عنه قال: رأيت النبى ﷺ على المنبر -والحسن بن على على جنبه- وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[٢].

أولاً: أهم مراحل الصلح:

مر الصلح بمراحل من أهمها:

المرحلة الأولى: دعوة رسول الله ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتلك الدعوة المباركة دفعت الحسن رضى الله عنه إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم[٣].

المرحلة الثانية: شرط البيعة الذى وضعه الحسن رضى الله عنه أساسًا لقبول مبايعة أهل العراق له، ذلك الشرط الذى نص على أنهم يسالمون من يسالم، ويحاربون من يحارب[٤].

المرحلة الثالثة: وقوع المحاولة الأولى لاغتيال الحسن رضى الله عنه بعد أن كشف عن نيته فى الصلح مع معاوية رضى الله عنه، وهذه المحاولة يبدو إنها قد جرت بعد استخلافه بقليل[٥].

المرحلة الرابعة: خروج الحسن بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن، وإرساله للقوة الضاربة من الجيش، وهى الخميس إلى مسكن بقيادة قيس بن سعد بن عبادة[٦].

المرحلة الخامسة: خروج معاوية رضى الله عنه من الشام وتوجهه إلى العراق بعد أن وصل خبر خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه.

المرحلة السادسة: تبادل الرسل بين الحسن ومعاوية، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

---

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٣٤).
(٢) البخارى رقم (٧١٠٩).
(٣) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣١٧).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٥٦).
(٥) المصدر نفسه، ص (١٢٦).
(٦) المصدر نفسه، ص (١٢٨).

المرحلة السابعة: محاولة اغتيال الحسن رضى الله عنه، فبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما، شرع الحسن رضى الله عنه فى تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذى تم، فقام فيهم خطيبًا ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض معسكره محاولين قتله، لكن الله سبحانه وتعالى أنجاه كما أنجاه من قبل[(١)].

المرحلة الثامنة: تنازل الحسن بن على عن الخلافة وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهم أجمعين، بعد أن أنجى الله سبحانه وتعالى الحسن بن على من الفتنة التى وقعت فى معسكره، ترك المدائن وسار إلى الكوفة وخطب فى أهلها فقال: أما بعد فإن أكيس الكيس[(٢)] التُّقى، وإن أحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت فيه أنا ومعاوية؛ إما كان حقًا لى تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقن دمائهم، أو يكون حقًا كان لامرئ كان أحق به منى ففعلت ذلك ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[(٣)] [الأنبياء: ١١١].

ثانيًا: أهم أسباب ودوافع الصلح:

وأما أهم الأسباب والدوافع للصلح الذى تمَّ بين الحسن ومعاوية فهى:

١- الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة: قال الحسن بن على رضى الله عنه ردًا على نفير الحضرمى عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدى، يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله[(٤)].

٢- دعوة الرسول ﷺ له: إن دعوة الرسول ﷺ بأن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[(٥)] دفعت الحسن إلى التخطيط والاستعداد النفسى للصلح والتغلب على العوائق التى فى الطريق، فقد كان هذا الحديث الكلمة الموجهة الرائدة للحسن

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٣٩).

(٢) أكيس: أعقل، والكيس: العقل، لسان العرب (١٦/ ٢٠١)، ومن أراد التوسع فليراجع خلافة مرويات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٢٦- ١٤٩).

(٣) المعجم الكبير (٣/ ٢٦) إسناده حسن.

(٤) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٦).

(٥) البخارى رقم (٧١٠٩).

فى اتجاهاته وتصـرفاته ومنهج حيـاته، فقد حلت فى قـرارة نفسه واسـتولت على مشاعـره وأحاسيسه واخـتلطت بلحمه ودمه، ومن خـلال هذا التوجيه واستـيعابه وفهـمه له بنى مـشروعـه الإصلاحى وقـسم مراحله، وكـان متيـقنًا من نتـائجه، فالحديث النبوى كان دافعًا أساسيًا وسببًا مركزيًا فى اندفاع الحسن للإصلاح.

٣- حقن دمـاء المسلمين: قال الحسنِ رضى الله عنـه: . . . خشيت أن يجئ يوم القيامة سبعون ألفًا، أو أكـثر، أو أقلُّ، كلهم تنضح أوداجهم دمًا، كلهم يستعدى الله فيم هُرِيقَ دمه؟[١] وقال رضى الله عنه: ألا إن أمر الله واقع إذ لا دافع له وإن كره الناس، إنى ما أحببت أن لـى من أمة محمد مثقال حبـة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعنى ممَّا يضرنى، الحقوا بطيتكم[٢].

٤- حرصه على وحدة الأمة: قام الحسن بن على خطيبًا رضى الله عنه فى إحدى مراحل الصـلح فقال: أيهـا الناس، إنى قد أصـبحت غـير مـحتمل على مـسلم ضغينة[٣]، وإنى ناظر لكم كنظرى لنفـسى، وأرى رأيًا، فلا تردوا علىَّ رأيى، إن الذى تكرهون من الجماعة أفـضل مما تحبون من الفرقة[٤]، وقد تحقق بفضل الله. ثم حرص الحسن على وحدة الأمة ذلك المقصد العظيم، فقد ارتأى رضى الله عنه أن يتنازل عن الخلافة حقنًـا لدماء المسلمين، وتجنبًا للمفاسد العظـيمة التى ستلحق الأمة كلها فى المآل إذا بقى مصرًا على موقفه، من استمرار الفتنة، وسفك الدماء، وقطع الأرحام واضطراب السـبل، وتعطيل الثغور وغيـرها، وقد تحققت -بـحمد الله- وحدة الأمة بتنازله عن عرض زائل من أعـراض الدنيا حتى سمّى ذلك العام عام الجماعة[٥]، وهذا يدل على فقه الحـسن فى معرفته لاعتبـار المآلات ومراعاته التصرفات.

٥- مقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه: ومن الأسباب التى دعت أمير المؤمنين الحسن بن على إلى الصلح ما رُوّع به من مقتل أبيه، فقد ترك ذلك فراغًا كبيرًا فى جبهـة العراق، وأثر اغتيـاله على نفسية الحـسن رضى الله عنه، فترك فيـها حزنًا

---

(١) البداية والنهاية (١١/٦ ٢٠).
(٢) تاريخ دمشق (١٤/ ٨٩)، بطيتكم: جهتكم.
(٣) الضغينة: الحقد.
(٤) الأخبار الطوال، ص (٢٠٠).
(٥) اعتبارات المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، ص (١٦٧).

وأسى شديدًا، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق، ولم يرع الخوارج سابقته فى الإسلام وأفضاله العظيمة، وخدماته الجليلة التى قدمها للإسلام، فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب، لقد كان على رضى الله عنه معلمًا من معالم الهدى، وفارقًا بين الحق والباطل، فكان من الطبيعى أن يتأثر المسلمون لفقده. ويشعروا بالفراغ الكبير الذى تركه، فقد كان وقع مصيبة مقتله على المسلمين عظيمًا، فجللّهم الحزن، وفاضت مآقيهم بالدموع، ولهجت ألسنتهم بالثناء والترحم عليه، وكان مقتله سببًا فى تزهيد الحسن فى أهل العراق أولئك الذين غمرتهم مكارم أخلاق أمير المؤمنين وشرف صحبته، فأضلتهم الفتن والأطماع، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ونستثنى من أولئك الصادقين المخلصين لدينهم وخليفتهم الرّاحل العظيم رضى الله عنه وأرضاه، فقد كان مقتله ضربة قوية وجهت لعهد الخلافة الراشدة وكانت من أسباب زوالها فيما بعد.

٦- **شخصية معاوية:** إن تسليم الحسن بن على الخلافة إلى معاوية مع أنه كان معه أكثر من أربعين ألفًا بايعوه على الموت، فلو لم يكن أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه ولحاربه[(١)]، فقد ذكر المترجمون والمؤرخون لسيرته فضائل كثيرة وأعمالاً جليلة يأتى ذكرها بإذن الله تعالى فى هذا الكتاب.

٧- **اضطراب جيش العراق وأهل الكوفة:** كان لخروج الخوارج أثر فى إضعاف أمير المؤمنين على رضى الله عنه، كما أن الحروب فى الجمل وصفين والنهروان، تسببت فى ملل أهل العراق للحرب ونفورهم منها، وخاصة أهل الشام فى صفين، فإن حربهم ليس كحرب غيرهم، فمعركة صفين الطاحنة لم تفارق مخيلتهم، فكم يتمت من الأطفال، ورملت من النساء، بدون أن يتحقق مقصودهم ولولا الصلح أو التحكيم الذى رحب به أمير المؤمنين على وكثير من أصحابه لكانت مصيبة على العالم الإسلامى لا يتخيل آثارها السيئة، فكان هذا التخاذل عن المسير مع على رضى الله عنه إلى الشام مرة أخرى من فريق منهم، وتميل إليه نفوسهم، وإن كانوا يعلمون أن عليًا على حق[(٢)]، فقد تسلم الحسن رضى الله عنه الخلافة، وجيش

---

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٥٧).

(٢) خلافة على بن أبى طالب، عبد الحميد على، ص (٣٤٥).

العــراق مضطرب وأهل الكــوفة مــترددون فى أمــرهم[١] وهذا ليس على إطلاقه، فجيش الحــسن يمكن تقويته، كما أن هناك فــصائل منه على استعــداد للقتال على رأسهم قيس بن سعد الخزرجى وغيره من القادة[٢].

٨- قوة جيش معاوية: وفى الجانب الآخر كان معاوية رضى الله عنه يعمل بشتى الوسائل سرًا أو عــلانية على إضعاف جانب أهل العــراق منذ عهد على رضى الله عنه، فاستغل مــا أصاب جيشه من تفكك وخلاف، واجتــمعت لمعاوية رضى الله عنه عوامل ساعدت على قوة جبهته منها: طاعة الجيش له، اتفاق الكلمة عليه من أهل الشام، خبــرته الإدارية فى ولاية الشام، وثبات مصادره المالية، وعــدم تحرجه من دفع الأموال من أجل تحقيق أهدافه التى يراها مصلحة للأمة.

ثالثًا: شروط الصلح:

تحدثت الكتب التــاريخية والمــصادر الحديثــية وأشارت إلى حــصول الصلح وفق شروط وضعها الطرفان، وقد تناثرت تلك الشروط بين كتَّاب التاريخ، وحاول بعض العلماء جمعها وترتيبها واستئناسًا إلى ما وصلوا إليه نذكر أهم شروط الصلح منها:

١- العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء: وقد ذكر هذا الشرط مجموعة من العلماء منهم ابن الحــجر الهيثمــى حيث ذكر صورة الصلح بين الحــسن ومعاوية، وجاء فيهــا: صالحه على أن يُسلم إليه ولاية المسلمين وأن يعمل فــيهم بكتاب الله وسنة رســول الله ﷺ وسيرة الخلــفاء الراشدين المهــديين[٣]، وحتى بعــض كتب الشيعة ذكرت هذا الشرط، وهذا دليل على تــوقير الحسن بن على لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى إلى حــد جعل من أحد الشروط على معاوية بــن أبى سفيان رضى الله عنهم: أنه يعمل ويحكــم فى الناس بكتاب الله وسنة رسوله، وسيــرة الخلفاء الراشدين[٤]، وفى النسخة الأخرى: الخلفاء الصالحين[٥]، ففى هذا الشرط ضبط لدولة معاوية مرجعيتها ومنهجها فى الحياة.

---

(١) الشيعة وأهل البيت، ص (٣٧٩) نقلاً عن الاحتجاج للطبرسى، ص (١٤٨).
(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على، ص (٣٥٨) للصَّلاَّبى.
(٣) الصواعق المراسلة (٢/ ٣٩٩). (٤) الشيعة وأهل البيت، ص (٥٤).
(٥) منتهى الآمال (٢/ ٢١٢) نقلاً عن الشيعة وأهل البيت، ص (٥٤).

٢- الأموال: ذكر البخارى فى صحيحه أن الحسن قال لوفد معاوية عبد الرحمن ابن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لى بهذا؟ قالا: نحن لك[1] به.

فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بنى عبد المطلب يريد الحسن أن لا يطالبهم بها معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه من قادم[2]، وأما الروايات التى تشير بأن يجرى معاوية للحسن كل عام مليون درهم، وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليونى درهم فى كل عام، ويفضل بنى هاشم فى العطاء والصلات على بنى عبد شمس، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات، وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور إحساس الحسن بمصالح الأمة ضعيفًا أمام مصالحه الخاصة[3]. أما حقه من العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشرة معشار ما ذكرته الروايات[4].

٣- الدماء: ويتضمن اتفاق الصلح بين الجانبين أن الناس كلهم آمنون لا يؤخذ منهم أحد منهم بهفوة أو أحنة، ومما جاء فى رواية البخارى أن الحسن قال لوفد معاوية: وإن هذه الأمة عاثت فى دمائها، فكفل الوفد للحسن العفو للجميع فيما أصابوا من الدماء[5]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشىء كان فى أيام على. وهى قاعدة بالغة الأهمية تحاول دون الالتفات إلى الماضى، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[6]، وقد تمّ التوافق المبنى على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية بذنب أحدًا بذنب سابق، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وتأليف القلوب.

٤- ولاية العهد، أم ترك الأمر شورى بين المسلمين: قيل: ومما اتفق الجانبان عليه من الشروط أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن، وإن معاوية وعد إن حدث به

(١) البخارى، ك الصلح رقم (٢٧٠٤).
(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٤).
(٣) المصدر نفسه، ص (٦٣).
(٤) المصدر نفسه، ص (٦٣).
(٥) البخارى، ك الصلح (٩٦٣/٢).
(٦) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، ص (٣٤١).

حدث والحسن[١] حى ليُسميَنَّه وليجعلن الأمر إليه[٢]، ولكن ابن أكثم روى فى هذا الخصوص عن الحسن إنه قال: أما ولاية الأمر من بعده، فما أنا بالراغب فى ذلك، ولو أردت هذا الأمر لم أسلمه[٣]، وجاء فى نص الصلح الذى ذكره ابن الحجر الهيثمى: . . بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين[٤]، وعند التدقيق فى روايات طلب الحسن الخلافة بعد معاوية، نجد أنها تتنافى مع أنفة وقوة وكرم الحسن، فكيف يتنازل عن الخلافة حقنًا لدماء المسلمين، وابتغاء مرضاة الله، ثم يوافق على أن يكون تابعًا يتطلب أسباب الدنيا، وتشرئب عنقه للخلافة مرة أخرى، والدليل على أن هذا غير صحيح ما ذكر جبير بن نفير قال: قلت للحسن بن على أن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء مرضاة الله[٥]. ومن الملاحظ أن أحدًا من أبناء الصحابة أو الصحابة لم يذكروا خلال بيعة يزيد شيئًا من ذلك، فلو كان الأمر كما تذكر الروايات عن ولاية عهد الحسن بعد معاوية، لاتخذها الحسين بن على رضى الله عنه حجة، ولكن لم نسمع شيئًا من ذلك على الإطلاق، مما يؤكد على أن مسألة خلافة الحسن لمعاوية لا أساس لها من الصحة، ولو كان الحسن رضى الله عنه أسند إليه منصب ولاية العهد فى الشروط لكان قريبًا فى عهد معاوية من إدارة الدولة، أو تولى أحد الأقاليم الكبرى، لا أن يذهب إلى المدينة وينعزل عن إدارة شئون الحكم، كما أن روح ذلك العصر يشير إلى أن مبدأ اختبار الأمة للحاكم عن طريق الشورى هو الأصل.

رابعًا: نتائج الصلح:

أهم نتائج الصلح هى:

١- توحد الأمة تحت قيادة واحدة.

٢- عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه.

٣- تفرغ الدولة للخوارج.

٤- انتقال العاصمة الإسلامية إلى بلاد الشام.

---

(١) فتح البارى (١٣/ ٧٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦٤).
(٣) الفتوح (٣ ، ٤/ ٤٩٣).
(٤) الصواعق المرسلة (٢/ ٢٩٩).
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٢٠٦).

الفصل الثانى

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

المبحث الأول

بيعة معاوية وأهم صفاته وثناء العلماء عليه

أولاً: بيعة معاوية رضى الله عنه:

وبتنازل الحسن بن على رضى الله عنه اكتملت عوامل تولى معاوية الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميرًا للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة، وسمى هذا العام بعام الجماعة[1]، وسُجل فى ذاكرة الأمة عام الجماعة وأصبح هذا الحدث من مفاخرها التى تزهو به على مر العصور، وتوالى الدهور، فقد التقت الأمة على زعامة معاوية، ورضيت به أميرًا عليها، وابتهج خيار المسلمين بهذه الوحدة الجامعة، بعد الفرقة المشتتة، وكان الفضل فى ذلك لله ثم للسيد الكبير مهندس المشروع الإصلاحى العظيم الحسن بن على بن أبى طالب، ويعد عام الجماعة من علامات نبوة المصطفى ﷺ، وفضيلة باهرة من فضائل الحسن، ولا يلتفت إلى ما قال العقاد من فهم غير صحيح عن عام الجماعة فى هجومه الخاطىء على المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، فقد قال: فليس أضل ضلالاً، ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة، لأنها السنة التى استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت فى تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها[2]. والعقاد -رحمه الله- لم يأت بجديد فى حكمه الخاطىء بل سبقه إليه كثير من مؤرخى الشيعة، ويكفى معاوية فخرًا أن كل الصحابة الأحياء فى عهده بايعوه، فقد أجمعت الأمة على معاوية وبايعه علماء الصحابة والتابعين وعدوا خلافته شرعية

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٧)، تاريخ خليفة، ص (٢٠٣).

(٢) معاوية بن أبى سفيان للعقاد، ص (٢٥).

ورضوا إمامـته، ورأوا أنه خير من يلى أمـر المسلمين ويقوم به خيـر قيام فى تلك المرحلة، فـرُوى عن الأوزاعى أنه قال: أدركت خلافـة معـاوية عدة من أصـحاب رسول الله ﷺ منهم سعد، وأسامة، وجابر، وابن عمر، وزيد بن ثابت، ومسلمة بن مخلد، وأبوسعـيد الخدرى، ورافع بن خديج، وأبو أمـامة، وأنس بن مالك، ورجال أكثر مما سمـيت بأضعاف مضاعفة، كانوا مصـابيح الهدى، وأوعية العلم؛ حضروا من الكتاب تنزيله، وأخذوا عن رسول الله ﷺ تأويله، ومن التابعين لهم بإحسان إن شاء الله، منهم: المسور بن مخرمـة، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبيـر، وعبد الله بن محيريز فى أشباه له ، لم ينزعوا يده عن مجامعة فى أمة محمد ﷺ[1]. وقال ابن حزم: فبويع الحسن ثم سلّم الأمر إلى معاوية، وفى بقايا الصحابة من هو أفضل منهما بلا خلاف ممن أنفق قبل الفتح وقاتل، وكلهم؛ أولهم عن آخرهم بايع معاوية ، ورأى إمامته[2].

فالصحابة لم يبايعوا معاوية رضى الله عنه إلا وقد رأوا فيه شروط الإمامة متوافرة، ومنها العـدالة ، فمن يطعن فى عدالة معـاوية وإمامته فقـد طعن فى عدالة هؤلاء الصحابة جميعهم وخونّهم وتنقـصهم. فمن رضيه هؤلاء لدينهم ودنياهم ألا نقبله ونرضى به نحن؟ ومن قال: لعلهم بايعـوا خوفًا فقد اتهمـهم بالجبن وعدم الصدع بالحق، وهم القوم المعلوم من سـيرتهم الشجاعـة والشهامة وعـدم الخوف فى الله لومة لائم[3]. وفى مبايعة سبـط رسول الله ﷺ الحسن بن على لمعاوية درس بليغ وفهم عميق لآيات النهى عن الاخـتلاف، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣]. فـالصراط المستقـيم هو: القرآن، والإسـلام، والفطرة التى فطر الناس عليها، والسبل هى: الأهواء، والفرق، والبـدع، والمحدثات، قال مجاهد: ولا تتبـعوا السبل: يعنى البـدع، والشبهـات والضلالات[4]، ونهى الله سبـحانه وتعالى هذه الأمة عمـا وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتـفرق من بعد ما

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٤، ٤٣٥).
(٢) الفصل فى الملل والنحل (٥/ ٦) .
(٣) من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية، ص (١٢٠).
(٤) تفسير مجاهد، ص (٢٢٧)، دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ص (٤٩).

جاءتهم البينات، وأنزل الله إليهم الكتب، فقال سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٠٥]. وقد أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] لقد تحقق بفضل الله تعالى ثم بنجاح الحسن بن على فى صلحه مع معاوية مقصد عظيم من مقاصد الشريعة من وحدة المسلمين واجتماعهم، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى، ونحن مأمورون بالتواصى بالحقِّ والتواصى بالصبر، فلا بدّ من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحًا حقيقيًا لا تلفيقيًا، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، وقد تحدث الشيخ السعدى عن الجهاد المتعلّق بالمسلمين بقيام الالفة، واتفاق الكلمة، وبعد أن ذكر الآيات، والأحاديث الدالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم قال: فإن من أعظم الجهاد السَّعى فى تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم، ومصالحهم الدينية والدنيوية[1]. ولا ينظر للحديث الضعيف الذى رواه ابن عدى من طريق علىٍّ بن زيد، وهو ضعيف، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد، ومن حديث مجالد[2]، وهو ضعيف أيضًا، عن أبى الودَّاك عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم معاوية على منبرى فاقتلوه»[3]. أسنده أيضًا من طريق الحكم بن ظهيرة[4]، وهو متروك. وهذا الحديث كذب بلا شك، ولو كان صحيحًا لبادر الصحابة إلى فعل ذلك، لأنَّهم كانوا لا تأخذهم فى الله لومة لائم[5].

١ ـ انتهاء عهد الخلافة الراشدة:

انتهى عهد الخلافة الراشدة على منهاج النبوة بتنازل الحسن بن على لمعاوية رضى الله عنه، فقد قال رسول الله ﷺ «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء أن

(١) وجوب التعاون بين المسلمين، ص (٥).
(٢) الكامل فى الضعفاء (٦/ ٢٤١٦).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٤) الكامل فى الضعفاء (٢/ ٦٢٦).
(٤) الكامل (٢/ ٦٢٦/ ٦٢٧).
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٤).

تكون، يرفعها إذا شـاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فـتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جـبريًا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت»[١]. وقد بيَّن رسول الله ﷺ أن خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله الملك، أو ملكه من يشاء[٢]، وقوله ﷺ: «الخلافـة فى أمتى ثلاثون سنة، ثم ملـك بعد ذلك»[٣]. وإنما كملت الثـلاثون بخلافة الحسـن، فإنه نزل عن الخـلافة لمعـاوية فى ربيع الأول من سنة إحدى وأربعـين، وذلك كمال ثلاثين سنة من مـوت رسول الله ﷺ، فإنه توفى فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهـذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليمًا[٤]، وبذلك تكون مرحلة خـلافة النبوة قد انتـهت بتنازل الحسن رضى الله عنه عن الخلافة لمعـاوية فى شهر ربيع الأول من سنة ٤١هـ[٥]. فالحديث النبوى الكريم أشار إلى مراحل تاريخية وهى:

أ ـ عهد النبوة.

ب ـ عهد الخلافة الراشدة.

جـ ـ عهد الملك العضوض[٦].

د ـ عهد الملك الجبرى.

هـ ـ ثم تكون خلافة على منهاج النبوة.

وقـد بين رسول الله ﷺ بأنه سـتكون خـلافة نبـوة ورحمـة، ثم يكون ملك ورحمة[٧]. ويجوز تسمية من بعد الخلفـاء الراشدين خلفاء وإن كانوا ملوكًا، ولم يكونوا خلفاء الأنبـياء، بدليل ما رواه البـخارى ومسلم فى صحـيحيهـما عن أبى هريرة رضى الله عنه عـن رسول الله ﷺ قـال: «كـانت بنو إسـرائيل يسـوسـهم الأنبيـاء، كلما هلك نبى خلفه نبى، وإنه لا نبىَ بعـدى، وستكون خلفاء فـتكثر، قالوا:

---

(١) مسند أحمد (٤/ ٣٧١ ـ ٣٧٢)، سلسلة الأحاديث الصحيحة .

(٢) سنن أبى داود شرح عون المعبود (١٢/ ٢٥٩)، صحيح سنن الألبانى (٣/ ٨٧٩) .

(٣) سنن الترمذى شرح تحفة الأحوذى (٦/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧) حديث حسن .

(٤) البداية والنهاية (٨/ ١٦) .

(٥) مرويات خلافة معاوية، ص (١٦٥).

(٦) العضوض : الشديد فيه عسف وعنف وظلم .

(٧) سنن الدارمى (٢/ ١١٤)، الأشربة ، الفتاوى (٣٥/ ١٤) .

فما تأمرنا؟ قال: وفوا بيعة الأول، فالأول، ثم أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»[1]. فقوله: «فتكثر» دليل على من سوى الراشدين فإنهم لم يكونوا كثيرًا، وأيضًا قوله: «وفوا بيعة الأول فالأول» دل على أنهم يختلفون، والراشدون لم يختلفوا، وقوله: «فأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم» دليل على مذهب أهل السنة، فى إعطاء الأمراء حقهم من المال والمغنم[2]، فمعاوية رضى الله عنه أفضل ملوك هذه الأمة، والذين كانوا قبله خلفاء نبوة، وأما هو فكانت خلافته ملكًا، وكان ملكه ملكًا ورحمة، وكان فى ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين، ما يعلم أنه كان خيرًا من ملك غيره[3]، ومعاوية رضى الله عنه كان عالمًا ورعًا عدلاً دون الخلفاء الراشدين فى العلم والورع والعدل، كما ترى من التفاوت بين الأولياء، بل الملائكة والأنبياء، فإمارته -وإن كانت صحيحة بإجماع الصحابة وتسليم الحسن ـ رضى الله عنه ـ إلا أنها ليست على منهاج خلافة من قبله، فإنه توسع فى المباحات، وتحرز عنها الخلفاء الأربعة، وأما رجحان الخلفاء الأربعة فى العبادات والمعاملات فظاهر مما لا سترة فيه[4]، وقد حدد ابن خلدون مدى التغير الذى حدث، فقرر أن الخلافة وإن كانت تحولت إلى ملك، فإن معانى الخلافة بقيت بعضها، وإنما كان التغير فى الوازع، فبعد أن كان دينًا انقلب عصبية وسيفًا؛ يقصد بذلك أنه بعد أن كان الناس يتصرفون بوازع الدين، والخلافة شورى، صار الحكم مستندًا إلى العصبية والقوة، ولكن معانى الخلافة أى مقاصدها وأهدافها بقيت أى أن غايات هذا الملك كانت لاتزال تحقيق مقاصد الدين والحكم وفق الشريعة الإسلامية بالعدل وتنفيذ الواجبات التى يأمر بها الإسلام، أى أن الحكم أو الملك استمر إسلاميًا وشرعيًا[5].

ولخص الأدوار التى مرت بها الخلافة فقال: فقد بيَّن أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً، ثم التبست معانيها واختلطت بالملك، ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبية الخلافة، والله مقدر الليل والنهار[6]. فالدور الأول الذى يشير إليه

(١) البخارى رقم (٣٤٥٥).
(٢) الفتاوى (٣٥/ ١٥).
(٣) الفتاوى (٤/ ٢٩٢).
(٤) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٧٨).
(٥) النظريات السياسية للريس، ص (١٩٤) نقلا عن المقدمة لابن خلدون.
(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٥).

هو عصر الخلفاء الراشدين وهو عصر الخلافة الخالصة أو الكاملة، والدور الثانى هو عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين -، ولا يمنع كذلك العثمانيين- وهذا عصر الخلافة المختلطة بالملك أو الملك المختلط بالخلافة: أى الذى يحقق فى الوقت مقاصد الخلافة، أما الدور الثالث فهو عصر الملك المحض الذى صار بقصد لذات الملك والأغراض الدنيوية، وانفصل عن حقيقة الخلافة أو معانيها الدينية، فهذا وصف أو تفسير ابن خلدون المؤرخ الفقيه للتطور الذى حدث والأدوار التى مرت بها الخلافة[1].

إن الخلافة الحقيقية أو الكاملة أو خلافة النبوة استمرت ثلاثين عامًا، وهو عصر الخلفاء الراشدين، ثم تحولت إلى ملك، ولكن لكى نعبر عن الحقيقة يجب أن يراعى هذا التحديد، وهو أن الخلافة لم تنته أو تذهب كلية، وإنما بقيت معانيها أو مقاصدها، وأن التغيير حصل فى الأساس التى قامت عليه، أما حقيقتها فقد بقيت، فالتغير إذن لم يكن كليا ولكن جزئيًا، أى أن الخلافة فى العصر الأول كانت هى الخلافة الكاملة المثالية، ثم نقصت عن المثال من وجه أو بعض الوجوه، لكن معظم عناصرها بقيت، فهى خلافة أقل فى الرتبة أو خلافة مختلطة بالملك[2]، والرأى العام فى الإسلام يتمسك بالمثال، أو خلافة النبوة، أو الخلافة الكاملة، وهى تلك التى تقوم على الشورى والاختيار التام من الأمة، وأنه إذا كانت الظروف الواقعية والعوامل الاجتماعية قد حتمت أو أدت إلى هذا التطور، فإن تحمل ذلك أو قبوله لا يكون إلا مؤقتًا أو من باب الضرورة، ولكن لايلزم أن يكون المثل الكامل حاضراً دائمًا فى فكر الرأى العام، وبمجرد أن تزول تلك العوامل والظروف تجب العودة إلى تحقيق المثل الكامل، ولذا فإن الكتابات الإسلامية الأصيلة ظلت ملتزمة ومتشبثة بالمثال الكامل ولا تستخلص مبادئها إلا منه، وتفرق بين الخلافة وهى الخلافة الحقيقية الشرعية، والخلافة الواقعية التى بعدت قليلاً أو كثيراً عن الحقيقة[3]، قد ذكر ابن تيمية أن مصير الأمر - أى الخلافة - إلى الملوك ونوابهم من الولاة والقضاة الأمراء ليس لنقص فيهم فقط، بل لنقص فى الراعى والرعية جميعًا، فإنه كما تكونوا يولّ عليكم، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ

(١) النظريات السياسية، ص(١٩٥). (٢) المصدر نفسه، ص (١٩٦).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٧).

الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]. لقد ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار ملكًا، وظهر النقص فى الأمراء، وكذلك فى أهل العلم والدين، وجمهور الصحابة انقرضوا بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتى إنه لم يبق من أهل بدر إلا نفر قليل، وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا فى أواخر عصر أصاغر الصحابة فى إمارة ابن الزبير وعبد الملك، وجمهور تابعى التابعين انقرضوا فى أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية(١).

٢- هل يعتبر معاوية رضى الله عنه أحد الخلفاء الاثنى عشر؟

عن جابر بن سمرة رضى الله عنه: دخلت مع أبى على النبى ﷺ، فسمعته يقول: «إن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة، قال: ثم تكلم بكلام خفى علىَّ، قال: فقلت لأبى: ما قال؟، قال: كلهم من قريش(٢)، وفى رواية أخرى عن جابر: «لا يزال الإسلام عزيزًا إلى اثنى عشرة خليفة.. كلهم من قريش»(٣) وفى رواية أخرى عنه: «لا يزال هذا الدين عزيزًا منيعًا إلى اثنى عشر خليفة.. كلهم من قريش»(٤)، زاد أبو داود فى سننه، بإسناده عن جابر رضى الله عنه قال: فلما رجع إلى منزله أتته قريش فقال: ثم يكون الهرج(٥). وقد شرح ابن كثير هذا الحديث فقال: ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثنى عشر خليفة صالحًا يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، ومنهم عمر بن عبدالعزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بنى العباس، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدى المُبشَّر به فى الأحاديث الواردة بذكره.. وليس هذا بالمنتظر الذى تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامراء(٦)، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء

---

(١) الفتاوى (١٠/٢٠٧). (٢) صحيح مسلم على شرح النووى (١٢/٥٠٢).

(٣) المصدر نفسه (١٢/٥٠٣). (٤) المصدر نفسه (١٢/٢٠٣).

(٥) صحيح سنن الألبانى (٣/٨٠٧)، هرج الناس: وقعوا فى فتنة واختلاط وقتل.

(٦) سامراء: مدينة بين بغداد وتكريت على شرقى دجلة.

الاثنى عشر الأئـمة الاثنى عشر الذين يعـتقد فيهم الاثنـا عشرية[1]. وبالتأمل فى النص بكل حـيدة وموضـوعية نجـد أن هؤلاء الاثنى عشـر وصفوا بأنـهم يتولون الخلافة، وأن الإسـلام فى عهدهم يكون فى عزة ومنعة، وأن الناس تجـتمع عليهم ولا يزال أمر الناس ماضيًا وصالحًا فى عهدهم، وكل هذه الأوصاف لا تنطبق على من تدعى الاثنا عشرية فيهم الإمامة، فلم يتول الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين على والحسن[2]. . . ثم أنه ليس فى الحديث حصـر لأئمة بهذا العدد، بل نبوءة منه، بأن الإسلام لا يزال عزيـزًا فى عصور هؤلاء، وكان عصـر الخلفاء الراشدين وبنى أمية عصر عزة ومنعة[3]، ولهذا قال ابن تيمية: إن الإسـلام وشرائعه فى بنى أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم[4]، وعدّ معاوية من الأئمة المقصودين بالحديث[5].

ثانيًا: أهم صفات معاوية رضى الله عنه:

اشتهر معاوية رضى الله عنه بصفات كثيرة من أهمها:

١ - العلم والفقه:

استفاد مـعاوية رضى الله عنه من ملازمته لرسول الله ﷺ عـلمًا وتربية، وقد روى عن رسول الله ﷺ أحاديث كثـيرة قد ذكرت بعضهـا، وقد روى له البخارى ومسلم مع شرطهمـا ألا يرويا إلا عن ثقة ضابط صدوق[6]، وشهد له ابن عباس بالفقة، فعن ابن أبى مليكة قال: قيل لابن عباس رضى الله عنه: هل لك فى أمير المؤمنين معاوية، فإنّه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: أصاب إنه فقيه. رواه البخارى[7]. قال الشـرّاح: أى مجتـهد، وفى رواية أُخرى للبخـارى عن أبى مليكة قال: أوتر معاوية - رضى الله عنه - بعد العشاء بركعة وعنده مولى لابن عباس ـ رضى الله عنه ـ فأتى ابن عـباس ـ رضى الله عنه ـ، قال: دَعْهُ فإنـه صحب رسول الله ﷺ وكان ابن عباس ـ رضـى الله عنه ـ من فضلاء الصحابة، ويُلقّب: البحـر، لسعة علمه وحـبر الأمة، وترجـمان القرآن، وقـد دعا له الرسول ﷺ بـالعلم والحكمة

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤).
(٢) منهاج السنة (٤/ ٢١٠)، المنتقى، ص (٥٣٣).
(٣) أصول الشيعة (٢/ ٨١٦).
(٤) منهاج السنة (٤/ ٢٠٦).
(٥) المصدر نفسه(٤/ ٢٠٦).
(٦) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص(٤١).
(٧) البخارى رقم (٣٧٦٤) رقم (٣٧٦٥).

والتأويل، فاستجيب له، وكان من خواص أصحاب على رضى الله عنه وشديد الإنكار على أعدائه، وأرسله على رضى الله عنه ليحاج الخوارج فحاجهم حتى لم يبق لهم حجة، فإذا شهد مثله لمعاوية بأنه مجتهد وكف مولاه عن الإنكار مستدلاً بأنه من الصحابة[١]، كما أنه كان كاتب رسول الله ﷺ، وذكره مفتى الحرمين أحمد بن عبد الله بن محمد الطبرى فى خلاصة السير وقال: إن كتَّابه ﷺ ثلاثة عشر: الخلفاء الأربعة، وعامر بن فهيرة، وعبد الله بن أرقم، وأبى بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وخالد بن سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسلمى، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبى سفيان، وشرحبيل بن حسنة. وكان معاوية وزيد ألزمهم لذلك وأخصهم به[٢]، كما أن الفقهاء يعتمدون على اجتهاده ويذكرون مذهبه كسائر الصحابة، كقولهم: ذهب معاذ بن جبل ومعاوية وسعيد بن المسيب إلى أن المسلم يرث الكافر، وقولهم: روى[٣] استلام الركنين اليمانيين عن الحسن أو الحسين وصح عن معاوية. وقال أبو الدراء الصحابى لأهل الشام: ما رأيت أحد أشبه صلاة بصلاة رسول الله ﷺ، من إمامكم هذا ـ يعنى معاوية ـ[٤] وكان رضى الله عنه حريصًا على تعليم الناس العلم، فعن أبى أمامة سهل بن حنيف قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان وهو جالس على المنبر إذا أذن المؤذن قال: الله أكبر الله أكبر، قال معاوية: الله أكبر الله أكبر. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال معاوية: وأنا فقال: أشهد أن محمدًا رسول الله، فقال معاوية: وأنا. فلما قضى التأذين قال: يا أيها الناس، إنى سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس ـ حين أذن المؤذن ـ يقول ما سمعتم منى من مقالتى[٥].

وكان رضى الله عنه يحث الناس على الفقه فى الدين ويروى لهم الأحاديث الدالة على أهمية التفقه فى الدين، فعن الزهرى قال: أخبرنى حميد قال: سمعت معاوية بن أبى سفيان يخطب قال: سمعت النبى ﷺ يقول: **«من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطى الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة. أو حتى يأتى أمر الله»**[٦].

---

(١) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص (٤١).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٥٧).

(٤) منهاج السنة (٣/ ١٨٥).

(٥) فتح البارى (٢/ ٤٦٢).

(٦) فتح البارى (١٣/ ٣٠٦).

وكان رضى الله عنه يكاتب أصحاب الرسول ﷺ ليتعلم منهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ ، فعن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة: اكتب إلىَّ ما سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة، فأملى علىَّ المغيرة، قال: سمعت النبى ﷺ يقول خلف الصلاة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» . وقال ابن جريج: أخبرنى عدة أن ورادًا أخبره بهذا. ثم وفدت بعد إلى معاوية فسمعته يأمر الناس بذلك القول[1]، وكان رضى الله عنه حريصًا على اتباع السنة النبوية، فعن سعيد بن المسيب، وعن حمد بن عبد الرحمن بن عوف: أن معاوية لما قدم المدينة فى آخر مقدمة قدمها، قال على منبر رسول الله ﷺ : أين علماؤكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول الله ﷺ فى هذا اليوم ـ يوم عاشوراء ـ يقول: «من شاء منكم أن يصومه فليصمه» ، وفى رواية: وإنى صائم ، فصام الناس[2]، وقال: وسمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا، وأخرج قصة من شعر من كمه، فقال: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم[3]، يعنى وصل المرأة شعرها بشعر آخر، وقد صح فى عدد من الأحاديث لعن الواصلة والمستوصلة. وفى رواية أخرى أنه قال لهم: انكم أحدثتم أى حدث سوء، نهى رسول الله ﷺ عن (الزور)[4]. سماه الرسول زورًا لما فيه من التزوير والتغرير، فهنا نراه حريصًا على إحياء سنة كصوم عاشوراء الذى رأى أن الناس أهملوه، كما نراه حريصًا على إماتة بدعة ظهرت فى الناس، وهى تقليد اليهوديات بوصل الشعر[5].

وروى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج: أن العباس بن عبد الله بن عباس أنكح عبد الرحمن بن الحكم ابنته، وأنكحه عبد الرحمن ابنته، وقد جعلا ـ أى العقدين ـ صداقًا (أى كل منهما صداق الأخرى)، فكتب معاوية بن أبى سفيان ـ وهو خليفة ـ إلى مروان، يأمره بالتفريق بينهما، وقال فى كتابه: هذا الشغار الذى نهى عنه رسول الله ﷺ[6]، فهو يراعى إقامة السنة فى حياة الناس فى الأمور كلها؛ أمور الفرد، وأمور الأسرة، وأمور الجماعة[7]، وكان رضى الله عنه لا يروى

---

(١) فتح البارى (١١/ ٥٢١).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٨٧).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٥٩١).

(٤) المصدر نفسه (٦/ ٥٩٥).

(٥) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوى، ص (٧١).

(٦) مسند أحمد رقم (١٦٨٥٦) إسناده حسن.

(٧) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوى، ص (٧١).

الحديث عن رسول الله إلا بمناسبة اقتضته، فقد ورد أنه دخل على عبد الله بن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر له، ولم يقم ابن الزبير، فقال معاوية: مَهْ. قال رسول الله ﷺ «من أحب أن يَمثُل له عباد الله قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار»[1]. وعن مجاهد وعطاء عن ابن عباس: أن معاوية أخبره أن رسول الله قصر من شعره - أى فى العمرة - بمِشْقَص، فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية. فقال: ما كان معاوية على رسول الله متّهمًا[2].

وكان رضى الله عنه يهتم بمذاكرة العلم ويحرص عليه، فعن عبد الله بن الحارث قال: دخلت مع ابن عباس على معاوية فأجلسه على السرير، وفى تلك القصة سأله معاوية عن مسألة فقهية، وكان رضى الله عنه يعلم الناس ويحثهم على سؤاله، والاستفادة من علمه، فقد خطب يوم جمعة وقال: أيها الناس اعقلوا قولى، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والآخرة منى، أقيموا وجوهكم وصفوفكم فى الصلاة، فلتقيمن وجوهكم وصفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم، خذوا على أيدى سفهائكم أو ليسلطنهم الله عليكم، فليسومنكم سوء العذاب، تصدقوا؛ لا يقولنَّ الرجل: إنى مقلٌّ، فإن صدقة المقلِّ أفضل من صدقة الغنى، إياكم وقذف المحصنات، وأن يقول الرجل: سمعت، وبلغنى أنه لو قذف أحدكم امرأة على عهد نوح لسُئل عنها يوم القيامة[3].

وكان رضى الله عنه حريصًا على متابعة رسول الله ﷺ فعندما دخل مكة سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله؟ فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة[4]. وله اجتهاد فى تعيين ليلة القدر، فقد روى ابن أبى شيبة بإسناد صحيح عن معاوية قال: ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين[5]، وكان يعترف بالحجة والبرهان لغيره، فعن ابن عباس أنه طاف مع معاوية وكان معاوية يستلم الأركان بالبيت، فقال له ابن عباس رضى الله عنهما: إنه لا يستلم هذان الركنان. فقال: ليس شىء من البيت مهجورًا[6]، وجاء فى رواية: فقال له ابن عباس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب: ٢١] فقال معاوية: صدقت[7]، ومن الأحكام التى قضاها

---

(١) البخارى رقم (٣٤٨٨).
(٢) مسند أحمد رقم (١٦٨١٣) إسناده صحيح.
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٧).
(٤) الفتح (٣/ ٥٤٤).
(٥) الفتح (٤/ ٣١١).
(٦) الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح البارى، ص (٥٨٥).
(٧) المصدر نفسه، ص (٥٨٦).

معاوية، رضى الله عنه ما أخرجه ابن أبى شيبة من طريق عبد الله بن معقل قال: ما رأيت قضــاء أحسن من قضاء قضى به معــاوية، نرث أهل الكتاب ولا يرثوننا، كمــا يحل النكاح فيــهم ولا يحل لهم[1]. ومن المسائل الفــقهــية التى أثرت عن معاوية رضى الله عنه:

أ ـ أثر عنه رضى الله عنه أنه أوتر بركعة[2].

ب ـ أثر عنه رضى الله عنه الاستسقاء بمن ظهر صلاحه[3].

جـ ـ أنه يجزىء إخراج نصف صاع من البر فى زكاة الفطر[4].

د ـ استحباب تطييب البدن لمن أراد الإحرام[5].

هـ ـ جواز بيع وشراء دور مكة[6].

و ـ التفريق بين الزوجين بسبب العُنَّة[7].

ز ـ وقوع طلاق السكران[8].

ح ـ عدم قتل المسلم بالكافر قصاصًا[9].

ط- حبس القاتل حتى يبلغ ابن القتيل[10].

وأما علومه فــى الفقه السياسى والســياسة الشرعــية، ومقاصــد الشريعة، وفقه الجهاد، فالكتاب سوف يحدثنا عن الكثير من فقهه فى إدارة الدولة وتحقيق أهدافها.

٢- الحلم والعفو:

اشتهر أمير المؤمنين معــاوية بصفة الحلم، وكان يضرب به المثل فى حلمه رضى الله عنه، وكظم غيظه وعفوه عن الناس، وقد ذكر ابن كثير ما كان يتصف به أمير

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة (١١/ ٣٧٤)، سنن سعيد (١/ ٤٥).

(٢) فتح البارى (٧/ ١٣٠). (٣) المغنى (٣/ ٣٤٦).

(٤) زاد المعاد (٢/ ١٩). (٥) المغنى (٥/ ٧٧).

(٦) المصدر السابق (٦/ ٣٦٦).

(٧) العُنَّةُ: هى عجز الرجل عن إتيان زوجته، القاموس المحيط، ص (١٥٧٠)، زاد المعاد (٥/ ١٨١).

(٨) المغنى (٥/ ٢١١). (٩) المصدر السابق (١١/ ٤٦٦).

(١٠) المصدر السابق (١١/ ٥٧٧)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨، ٢٩.

المؤمنين معاوية من الحلم حيث قال: وقال بعضهم: أسمع رجل معاوية كلامًا سيئًا شديدًا، فقيل له: لو سطوت عليه؟! فقال: إنى لأستحى من الله أن يضيق حلمى عن ذنب أحد من رعيتى، وفى رواية: قال له رجل: يا أمير المؤمنين ما أحلمك!! فقال: إنى لا ستحى أن يكون جرم أحد أعظم من حلمى. وقال الأصمعى عن الثورى قال: قال معاوية: إنى لأستحى أن يكون ذنب أعظم من عفوى، أو جهل أكبر من حلمى، أو تكون عورة لا أواريها بسترى. وقال معاوية: يا بنى أمية فارقوا قريشًا بالحلم، فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعني شتمًا وأوسعه حلمًا، وأرجع وهو لى صديق، إن استنجدته أنجدنى، وأثور به فيثور معى، وما وضع الحلم عن شريف شرفه، ولا زاده إلا كرمًا، وقال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأى حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ الرجل ذلك إلا بقوة الحلم(١). وسئل معاوية: من أسود الناس؟ فقال: أسخاهم نفسًا حين يسأل، وأحسنهم فى المجالس خلقًا، وأحلمهم حين يستجهل(٢)، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: كان معاوية يتمثل بهذه الأبيات كثيرًا:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم
فلا تسْفَه وإن مُلِّئتَ غيظاً ... على أحد فإن الفحش لوْمُ
ولا تقطع أخًا لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم(٣)

وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه: إنه لا ينبغى أن يُساسَ الناس سياسة واحدة باللين فيمرحوا، ولا بالشدة فيُحْمَلَ الناس على المهالك، ولكن كن أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأنا للين والألفة والرحمة، حتى إذا خاف خائف وجد بابًا يدخل منه(٤).

فهذه الأقوال المروية عن أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه تبين لنا شيئًا مما اشتهر عنه من الاتصاف بخلق الحلم، وقد كان هذا الخلق همزة وصل بينه وبين من يعاملونه بشيء من الجفاء من أفراد رعيته، أو يصارحونه بقوة - بما يرونه حقًا وهو يخالفهم فى ذلك-، وكان لتخلقه بخلق الحلم الذى لم يخالطه ضعف أثر فى

(١) البداية والنهاية (١١/٤٤١) .
(٢)، (٣) المصدر نفسه (١١/٤٤٢) . (٤) المصدر نفسه (١١/ ٤٤٣).

نجاحه فى تثبيت أركان دولته، وذلك بمقدرته الفائقة على امتصاص غضب المخالفين، وتحويلهم إلى الرضا والقناعة بسياسته، وهكذا تأتى مكارم الأخلاق التى من أهمها الحلم والعفو والصبر والكرم؛ لتكون من أهم عناصر السيادة، وقد أبان فى هذه الأقوال بأن الحلم يخالطه شىء من الذل كما أن النصر يخالطه شىء من العز، ولكن أبدى سروره بذلك الذل لما يترتب عليه من النتائج الحميدة التى منها اكتساب الأصدقاء والأنصار[(١)] وفى كتابه إلى زياد أمير العراق بيان لسياسته الجيدة التى تخيف المتهورين الميالين إلى إحداث الفوضى والإخلال بالأمن، ولكنها فى الوقت نفسه تبعث الأمل لدى من يراجعون أنفسهم، ويريدون سلوك طريق الاستقامة والسلامة[(٢)].

ولقد أثنى على أمير المؤمنين معاوية حكماء عصره وذكروا اتصافه بمكارم الأخلاق وخاصة الحلم، وفى ذلك يقول الحافظ ابن كثير: وقال عبد الملك بن مروان - يوما وذكر معاوية-: ما رأيت مثله فى حلمه واحتماله وكرمه[(٣)]، وقال قبيصة بن جابر: مارأيت أحدًا أعظم حلمًا، ولا أكثر سؤددًا، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجًا، ولا أرحب بالمعروف من معاوية[(٤)]- وقال عبدالله بن الزبير رضى الله عنهما: لله در ابن هند، إن كنا لنُفْرِقه[(٥)] -وما الليث على براثنه بأجرأ منه -فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه- وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه- فيتخادع لنا، والله لوددت أنا متِّعنا به مادام فى هذا الجبل حجر- وأشار إلى أبى قبيس-[(٦)]. وفى قول ابن الزبير هذا وصف دقيق لمعاملة معاوية لقادة المسلمين وسادتهم، فهو جرىء شجاع ولكن يظهر عمدًا عكس ذلك ليصل من ذلك إلى عدم إثارة المخالفين، لأن إظهار الشجاعة يثير عنصر التحدى لديهم، وهو أدهى أهل الأرض فى زمانه، ولكنه يظهر الانخداع أمام محدثيه ليصل إلى تجفيف منابع نقمتهم عليه، وهو فى ذلك كله يخدم هدفًا ساميًا وهو تحقيق حياة الرخاء والأمن للأمة الإسلامية، ولقد تمنى ابن الزبير أن يطول عمر معاوية لأنه يخشى من تغير الأحوال من بعده[(٧)]، ويصف حبر الأمة عبدالله بن عباس رضى الله عنهما سياسة معاوية

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٦).
(٢) المصدر نفسه (١٧/ ٢٦).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٩).
(٤) المصدر نفسه (١١/ ٤٣٩).
(٥) نفرقه : نخوّفه.
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٤٤٢).
(٧) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٧).

بكلام موجز، لكنه يعنى خلاصة تفكير عميق حيث يقول: قد علمت بِمَ غلب معاوية الناس، كانوا إذا طاروا وقع، وإذا وقع طاروا[1]. وهذا يعنى أنه إذا رأى السيول الجارفة قد أقبلت لم يقاومها، وإنما يفسح لها حتى تمر، ثم يحتوى الميدان وقد زال إقبال الناس الشديد فيتمكن مما يريد، وقد عبر معاوية عن هذه السياسة بقوله المشهور: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا جذبوها أرخيتها، وإذا أرخوها جذبتها. ومن مواقفه فى الحلم أنه جرى بين رجل يقال له أبو جهم وبين معاوية كلام، فتكلم أبو جهم بكلام فيه غَمْزٌ لمعاوية، فأطرق معاوية ثم رفع رأسه فقال: يا أبا الجهم إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب الصبيان، ويأخذ أخذ الأسد، وإن قليله يغلب كثير الناس، ثم أمر معاوية لأبى الجهم بمال، فقال أبو الجهم فى ذلك يمدح معاوية:

نميل على جوانبه كأنا ... نميل إذا نميل على أبينا
نُقلِّبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرمًا ولينا[2]

وهكذا كان لحلم معاوية رضى الله عنه وحسن خلقه ومبادلته الإساءة بالإحسان الأثر الكبير فى نفس أبى الجهم، فقال هذين البيتين فى الثناء على معاوية، ولقد كان سلوك أمير المؤمنين معاوية تطبيقًا لقوله الله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

ونظرًا لحلم معاوية الكبير وما يتصف به من الشجاعة والعزة فإن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أثنى عليه بقوله: دعوا فتى قريش وابن سيدها، إنه لمن يضحك فى الغضب، ولا يُنال منه إلا على الرضا، ومن لا يؤخذ ما فوق رأسه إلا من تحت قدميه[3]. فهذا قول دقيق من عمر فى وصف معاوية، فقد وصفه بالدرجة العالية من الحلم، والعزة التى تجعله منيعًا لا ينال ما عنده على قهر منه، وهذه الصفة من صفاته التى جعلت أمير المؤمنين عمر يبقيه أميرًا على الشام لخطورة ذلك الثغر[4].

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٤٣).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٨)، البداية والنهاية (١١/ ٤٤٠).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤١٥).
(٤) التاريخ الإسلامى (١١/ ٣٠).

وقال معاوية رضى الله عنه: العقل والحلم أفضل ما أُعطى العبد، فإذا ذُكِّر ذكر وإذا أُعطى شكر، وإذا ابتلى صبر، وإذا غضب كظم، وإذا قدر غفر، وإذا أساء استغفر، وإذا وعد أنجز[1]، ففى هذا الخبر جمع أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه دررًا من الحكم، وهى الشكر عند الرخاء، والصبر عند الابتلاء، والتحكم فى السلوك عند الغضب، والعفو عند المقدرة، والوفاء بالوعد، والاستغفار عند الإساءة، فهذا الخبر على قصره قد جمع ستة موضوعات، كل موضوع يحتاج إلى أن يكتب عنه فى صفحات، وهذا من جوامع الكلم، وهو يعتبر من أعلى أنواع البلاغة، وذلك فى جمع المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة، وقد اشتهر فى هذا البيان عدد من الصحابة رضى الله عنهم تتلمذوا فى ذلك على رسول الله ﷺ الذى أوتى جوامع الكلم[2].

٣- الدهاء والحيلة:

ومن الصفات التى تميز بها معاوية رضى الله عنه صفة الدهاء والحيلة ومما يروى من دهائه وحسن إدارته وتدبيره، أن المسلمين غزوا فى أيامه فأسر جماعة منهم، فوقفوا بين يدى ملك الروم بقسطنطينية، فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقة[3]، ممن كان واقفًا بين يدى الملك فلطم حرّ وجهه[4]، وكان رجلاً من قريش فصاح: وإسلاماه، أين أنت عنا يا معاوية، إذ أهملتنا، وأضعت ثغورنا وحكَّمت العدو فى دمائنا وأعراضنا؟ فنمى ذلك الخبر إلى معاوية، فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب، فخلا بنفسه، وامتنع عن الناس، ولم يظهر ذلك لأحد من المخلوقين، ثم أعمل الحيلة فى إقامة الفداء بين المسلمين والروم، إلى أن فدى ذلك الرجل، ومن أسر معه من المسلمين، فلما صار الرجل إلى دار الإسلام، دعاه معاوية فبره وأحسن إليه ثم قال له: لم نهملك، ولم نضيعك، ولا أبحنا دمك وعرضك. ومعاوية أثناء ذلك يدبر الرأى ويعمل الحيلة، ثم بعث إلى رجل من ساحل دمشق من مدينة صور، وكان عارفًا كثير الغزوات فى البحر صُمك[5] من الرجال -مرطان بالرومية- فأحضره وخلا به، وأخبره بما قد عزم عليه وسأله إعمال

(١) أنساب الأشراف (٥/٣٣٦). (٢) التاريخ الإسلامى (١٩/ ٢٠، ٣٥٥).

(٣) البطارقة: جمع بطريق وهو رئيس الأساقفة والأسقف رجل الكنيسة.

(٤) لطم حرّ وجه: ما ظهر منه. (٥) الصمك والصموك: القوى الشديد، والغليظ الجافى.

الحيلة فيه، والتأنى له، فتوافقا على أن يدفع للرجل مالا عظيمًا، ليبتاع به أنواعًا من الطرف والملح والجهاز من الطيب والجوهر وغير ذلك، وأنشأ له مركبًا لا يلحق فى جريه سرعة، ولا يدرك فى سيره، إنشاءً عجيبًا، فسار الرجل حتى أتى مدينة قبرص فاتصل برئيسها، وأخبره أن معه حاجة للملك، وأنه يريد التجارة إلى القسطنطينية، قاصدًا إلى الملك وخواصه بذلك، فروسل[1] الملك بشأنه، فأذن له، فدخل خليج القسطنطينية، فلما وصلها أهدى للملك وجميع بطارقته، وبايعهم وشاراهم، وقصدهم، إلا ذلك البطريق الذى لطم القرشى، وتأنى الصورى من الأمور على حسب ما رسمها له معاوية، وأقبل الرجل من القسطنطينية إلى الشام، وقد أمره أكثر البطارقة أن يبتاع حوائج ذكروها، وأنواعًا من الأمتعة وصفوها، فلما صار إلى الشام سار إلى معاوية سرًا، وذكر له من الأمر ما جرى، فابتيع له ما طلب منه وما علم أن رغبتهم فيه، وتقدم إليه معاوية فقال: إن ذلك البطريق إذا عدت فى كرتك هذه سيعذلك عن تخلفك عن بره، واستعانتك به، فاعتذر إليه ولاطفه بالقول والهدايا، واجعله القيم بآمرك، والتفقد لأحوالك تزداد عندهم، فإذا أتقنت جميع ما أمرتك به، وعلمت ما غرض البطريق وإيش الذى يأمرك بابتياعه فعد به إلينا لتكون الحيلة على حسبه، فلما رجع الصورى إلى القسطنطينية ومعه جميع ما طلب منه، والزيادة مما لم يطلب، زادت منزلته، وارتفعت أحواله عند الملك والبطارقة وسائر الحاشية، فلما كان فى بعض الأيام وهو يريد الدخول إلى الملك، قبض عليه ذلك البطريق فى دار الملك، وقال له: ما ذنبى إليك؟ وبم استحق غيرى أن تقصده، وتقضى حوائجه وتعرض عنى؟، قال الصورى: أكثرُ من ذكرت ابتدأنى وأنا رجل غريب، وأرحل إلى هذا البلد كالمتنكر من أسارى المسلمين، وجواسيسهم لئلا يُنمُّوا خبرى ويوشوا بأمرى إلى المسلمين، فيكون فى ذلك بوارى، والآن فإذا قد علمت ميلك إلىَّ فلست أحب أن يعتنى بأمرى سواك، ولا يقوم بحالى عند الملك وغيره غيرك، فمرنى بحوائجك وجميع ما يعرض من أمورك بأرض الإسلام، وأهدى إلى ذلك البطريق هدية حسنة من الزجاج المخروط والطيب والجوهر والطرف والثياب، ولم يزل هذا فعله، يتردد من الروم إلى معاوية، ومن

---

(١) الشهب اللامعة، ص (٤٨٧).

معـاوية إلى الروم، ويسـأله الملك والبطريق وغيـره من البطارقة الحـوائج الجليلة، والحيلة لا تتوجه إلى معاوية، حتى مضى على ذلك سنين، فلما كـان فى بعضها قال البطريق للصورى، وقد أراد الخروج إلى دار الإسلام: قد اشتهيت أن تعمدنى بقاء حاجة، وتمن بها على، وهى أن تبتاع لى بساط سـوسنجرد بمخاده ووسائده، ويكون فيه من أنواع الألوان الحمـرة والزرقة وغيرها، ويكون من صفة كذا وكذا، ولو بما بلغ ثمنه كل مبلغ، فأنعم له بذلك، وكان من شأن الصورى أن يكون مركبه إذا ورد القسطنطينية بالقرب من موضع ذلك البطريق، وكان للبطريق ضيعة سرية، وفيها قصـر مشيد، ومنتزه حسن على أميال من القـسطنطينية، راكبه على الخليج، وكان البطريق أكثر أوقـاته فى ذلك المنتزه، وكانت الضيعة فيـما بين قسم الخليج من يلى بحر الروم والقسطـنطينية، فانصرف الصورى إلى مـعاوية سرًا، فأخبـره بالحال فأحضر معاوية بسـاطًا بوسائد ومخاد ومجلس حسن[1]، فانصرف به مع جميع ما طلب منه من أرض الإسلام، وقد تقدم إليه مـعاوية بالحيلة، وكيفية إيـقاعها، وكان الصورى فيما وصفنا من هذه المدة قد صار كأحدهم فى المؤانسة والعشرة، وفى الروم طمع وشـره فلما دخل من البـحر إلى خـليج القسطنطينيـة، وقد طابت له الريح، وقرب من ضـيعـة البطريق، أخذ الصـورى أخبـار البطريق من أصحـاب القوارب والمراكب، فأخـبر أن البطريق فى ضيعـته، وذلك أن الخليج طوله نحو من ثلاثمائة وخمسين ميلاً، والضياع والعمائـر على حافتيه، والمراكب والقوارب تختلف بأنواع المتاع والأقوات إلى القسطنطينية من هذه العمـائر لا تحصى كثرة، فلما علم الصورى أن البطريق فى ضيعته فرش البساط ونضد ذلك الصدر والمجلس بالوسائد والمخاد فى صحن المركب ومجلسه، والرجال تحت المجلس بأيديهم المقاذيف مشكلـة قائمة غير قاذفين بها، ولا يعلم بهم أنهم فى بطن المركب إلا من ظهر منهم فى عمله، والريح فى القلع، والمركب مار فى الخليج كأنه سهم خرج عن كـبد قوس لا يستطيع القائم على الشط أن يملأ بصره منه لسرعة سيـره واستقامته فى جريه، فأشرفه على قصر البطريق. وهو جـالس فى مسـتشـرفه مع حـرمه، وقد أخـذت منه الخـمر، وعلاه الطرب، وذهب به الفرح والسـرور كل مذهب، فلما رأى البطريق مـركب الصورى

---

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٨٩).

زعق طربًا، وصاح فرحًا وسرورًا وابتهاجًا بقدومه، فدنا من أسفل القصر فحط القلع، وأشرف البطريق على المركب فنظر إلى ما فيه من حسن ذلك البساط، ونظم تلك الفرش، كأنه رياض يزهر، فلم يستطيع اللبث فى موضعه، حتى نزل قبل أن يخرج الصورى من مركبه إليه، فطلع إلى المركب فلما استقر قدمه على المركب ودنا من المجلس، وضرب الصورى بعقبه على من تحت البساط، وكانت علامة بينه وبين الرجال الذين فى بطن المركب، فما استقر دقه فى المركب بقدمه، حتى اختطف المركب بالمقاذيف، وإذا هو وسط الخليج يطلب البحر لا يلوى على شىء، وارتفع الصوت ولم يدر ما الخبر لمعالجة الأمر، فلم يكن الليل حتى خرج عن الخليج وتوسط البحر، وقد أوثق البطريق كتافًا، وطابت له الريح، وأسعده الجد، وحمله المقدار فى ذلك اللج، فتعلق فى اليوم السابع بساحل الشام، ورأى البر وحمل الرجل، فكان فى اليوم الثالث عشر مأسورًا بين يدى معاوية فسُر بذلك معاوية[1]، وقال: علىّ بالرجل القرشى، فأتى به، وقد حضره خواص الناس، فأخذوا مجالسهم، وغص المجلس بأهله، فقال معاوية للقرشى: قم فاقتص من هذا البطريق الذى لطم وجهك على بساط معظم الروم، فإنا لم نضيعك ولا أبحنا دمك ولا عرضك، فقام القرشى فدنا من البطريق، فقال معاوية: انظر لا تتعد ما جرى عليك، واقتص منه على حسب ما صنع بك ولا تعتد، وارع ما أوجب الله عليك من المماثلة، فلطمه القرشى لطمات ووكزه فى حلقه، ثم أكب القرشى على يدى معاوية وأطرافه يقبلها، وقال: ما ضاع من سوَّدك، ولا خاب فيك من رأسك، أنت ملك لا يستضام[2]، تمنع حماك، وتصون رعيتك، وأرق فى وصفه ودعائه، وأحسن معاوية إلى البطريق، وخلع عليه وبرّه، وحمل معه البساط، وأضاف إلى ذلك أشياء كثيرة، وهدايا إلى الملك، وقال له: ارجع إلى ملكك، وقل له: تركت ملك المسلمين[3] يقيم الحدود على بساطك، ويقتص لرعيته فى دار مملكتك وسلطانك وعزك، وقال للصورى: سر معه حتى تأتى الخليج فتطرحه فيه ومن أسر معه، ممن كان بادر فصعد إلى المركب من غلمان البطريق، وخاصته،

---

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٩٠).

(٢) الضيم الإذلال والقهر، أى ملك لا يقهر ولا يذل.

(٣) أصل الكلمة فى الأثل العرب.

فحملوا إلى صور مكرمين، وحمل الجميع فى المركب، وطابت لهم الريح، فكانوا فى اليوم الحادى عشر متعلقين بأرض الروم فقربوا من الخليج، فإذا قد أحكم فمه بالسلاسل والمنعة من الموكولين به، فطرح البطريق، وحمل من وقته إلى الملك ومعه الهدايا والأمتعة، وتباشرت الروم بقدومه، وتلقوه مهنئين له بخلاصه من الأسر، فكافأ الملك معاوية على ما كان من فعله فى أمر البطريق والهدايا، فلم يكن يستضام أسير من المسلمين فى أيامه، وقال الملك: هذا أدهى العرب وأمكر الملوك، ولهذا قدمته العرب عليها، فأساس أمورها، ولو هَمَّ بأخذى لتمت له الحيلة عليّ[1]. وهذه القصة دليل على دهاء معاوية رضى الله عنه وحسن سياسته واهتمامه بأمور رعيته والمحافظة على حقوق كل فرد فيها وصيانة كرامته[2].

٤- عقليته الفذة وقدرته على الاستيعاب:

امتاز معاوية رضى الله عنه بالعقلية الفذة، فإنه كان يتمتع بالقدرة الفائقة على الاستيعاب، فكان يستفيد من كل ما يمر به من الأحداث، ويعرف كيف يتوقاها، وكيف يخرج منها إذا تورط فيها، وكانت خبراته الواسعة وممارسته لأعباء الحكم على مدى أربعين سنة، منذ ولاه عمر رضى الله عنه الشام، فكانت ولايته على الشام عشرين سنة أميراً، وعشرين سنة خليفة[3]، هذه الفترة الطويلة التى تقلب فيها بين المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبته خبرة فى سياسة البلاد، والاستفادة من كل الظروف والأوضاع التى تمر بها، حتى استطاع أن يسير بالدولة عشرين سنة دون أن ينازعه منازع[4]، يقول الشيخ الخضرى: أما معاوية نفسه، فلم يكن أحد أوفر منه يداً فى السياسة، صانع رؤوس العرب، وكانت غايته فى الحلم لا تدرك، وعصابته فيه لا تنزع، ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام[5]، ومن المعلوم أن السياسة الناجحة تتوقف على القدرة على ضبط النفس عند الغضب، واحتواء الشدائد حتى تنجلى، ولمعاوية فى ذلك نصيب وافر -رضى الله عنه- وكانت تلك سياسته مع العامة والخاصة، وهذه طريقته مع الملوك والسوقة، وهذه أمثلة من سياسته فى معاملة الناس:

---

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٩١).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤٩١)، تعليق محقق الكتاب السيد سليمان معتوق الرفاعى رحمه الله .

(٣) الطبقات الكبرى (٧/ ٤٠٦).

(٤) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ٨٢) .

(٥) الدولة الأموية للخضرى، ص (٣٧٧).

أ- المسور بن مخرمة -رضى الله عنه- واعتراضه على معاوية:

عن عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافداً على معاوية بن أبى سفيان فقضى حاجته، ثم دعاه فأخلاه فقال: يامسور ما فعل طعنك على الأئمة؟ فقال المسور: دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له. قال: معاوية لا والله لتكلمنَّ بذات نفسك، والذى تعيب علىّ. قال المسور: فلم أترك شيًا أعيبه عليه إلا بينته له. قال معاوية: لا برىء من الذنب، فهل تعد يا مسور ما ألى من الإصلاح فى أمر العامة، فإن الحسنة بعشر أمثالها؟ أم تعد الذنوب وتترك الحسنات. قال المسور: لا والله ما نذكر إلا ما ترى من هذه الذنوب. قال معاوية: فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه، فهل لك يامسور ذنوب فى خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله؟ قال مسور: نعم! قال معاوية: فما يجعلك أحق أن ترجو المغفرة منى؟ فو الله لما ألى من الإصلاح أكثر مما تَلى ولكن والله لا أُخير بين أمرين، وبين الله وغيره إلا اخترت الله تعالى على ما سواه، وأنا على دين يقبل الله فيه العمل، ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها، وأوارى أموراً عظامًا لا أحصيها ولا تحصيها من عمل لله فى إقامة صلوات المسلمين، والجهاد فى سبيل الله عز وجل، والحكم بما أنزل الله تعالى، والأمور التى ليست تحصيها وإن عددتها لك. قال المسور: فعرفت أن معاوية قد خصمنى حين ذكر لى ما ذكر. قال عروة: فلم يُسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا استغفر له[1]. وفى هذا الخبر مثل جيد فى فن الإقناع ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه أن يقنع المسور بن مخرمة رضى الله عنه بتقبل سياسته التى يسير عليها، وعاد مادحًا داعيًا له بعدما كان منتقداً مهاجمًا له، وفى هذا الخبر لفتة تربوية من معاوية حيث أبان أنه من العدل فى الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه وأن ينظر إلى سيئاته وخطئه، ثم يوازن بين الجانبين، فلعل هذا المسلم الذى برزت أخطاؤه فى ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لا تعد أخطاؤه إلى جانبها شيئًا مذكوراً[2].

---

(١) تاريخ بغداد (١/٢٠٨، ٢٠٩)، سير أعلام النبلاء (٣/١٥١).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧، ١٨، ٥٣٩).

ب ـ ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصارى رضى الله عنه:

كان ثابت بن قيس بن الخطيم، شديد النفس، وكان له بلاء مع على بن أبى طالب، واستعمله على المدائن، فلم يزل عليها حتى قدم المغيرة بن شعبة الكوفة، وكان معاوية يتقى مكانه. انصرف ثابت بن قيس إلى منزله فوجد الأنصار مجتمعة فى مسجد بنى ظفر يريدون أن يكتبوا إلى معاوية فى حقوقهم أول ما استخلف، فقال: ما هذا؟ فقالوا: نريد أن نكتب إلى معاوية. فقال: ما تصنعون أن يكتب إليه جماعة؟! يكتب إليه رجل منا، فإن كانت كائنة برجل منكم فهو خير من أن تقع بكم جميعًا وتقع أسماؤكم عنده، فقالوا: فمن ذلك الذى يبذل نفسه لنا؟ قال: أنا. قالوا: فشأنك، فكتب إليه وبدأ بنفسه فذكر أشياء منها: نصرة النبى ﷺ وغير ذلك. وقال: حبست حقوقنا واعتديت علينا وظلمتنا، ومالنا إليك ذنب إلا نصرتنا للنبى ﷺ، فلما قدم كتابه إلى معاوية دفعه إلى يزيد فقرأه ثم قال له: ما الرأى؟ فقال: تبعث فتصلبه على بابه، فدعا كبراء أهل الشام فاستشارهم، فقالوا: تبعث إليه حتى تقدم به ههنا وتقفه لشيعتك ولأشراف الناس حتى يروه، ثم تصلبه. فقال: هل عندكم غير هذا؟ قالوا: لا، فكتب إليه: قد فهمت كتابك، ولما ذكرت النبى ﷺ، وقد علمت أنها كانت ضجرة لشغلى وما كنت فيه من الفتنة التى شهرت فيها نفسك، فأنظرنى ثلاثًا، فقدم كتابه على ثابت فقرأه على قومه، وصبَّحهم العطاء فى اليوم الرابع[1]. فهذا الخبر فيه موقف كبير لأمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه فى الحكمة والسياسة، فهو بعد أن استشار ابنه يزيد وبعض وجهاء الشام لم يعجبه رأيهم، ولم يوافقهم على أخذ الناس بالشدة والعنف والجبروت، بل سارع إلى إرسال عطاء الأنصار رضى الله عنهم، ولم يؤاخذ ثابت ابن قيس رضى الله عنه على شدة اللهجة فى كتابه إليه، وبهذا التصرف الحكيم والسياسة الرشيدة لم يخسر شيئًا بل كسب رضا الأنصار عنه ورضا غيرهم ممن يطلع على خبره معهم، ولو أنه أخذ بمشورة السذج المتجبرين فبطش بصاحب ذلك الكتاب لثار عليه الأنصار، ولناصرهم طوائف من المسلمين لشهرتهم ومكانتهم فى الإسلام[2].

(١) تاريخ بغداد (١/١٧٦).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧/٥٣٧).

جـ - الأحنف بن قيس - رحمه الله -:

ذكر ابن خلكان فى ترجمته: ثم إن عبيد الله - يعنى ابن زياد أمير العراق - جمع أعيان العراق -وفيهم الأحنف- وتوجه بهم إلى الشام للسلام على معاوية، فلما وصلوا دخل عبيد الله على معاوية وأعلمه بوصول رؤساء العراق، فقال: أدخلهم علىَّ أولاً فأولً على قدر مراتبهم عندك، فخرج إليهم وأدخلهم على الترتيب كما قال معاوية، وآخر من دخل الأحنف، فلما رآه معاوية - وكان يعرف منزلته ويبالغ فى إكرامه لتقدمه وسيادته - قال: إلىَّ يا أبا بحر، فتقدم إليه فأجلسه معه على مرتبته، وأقبل عليه يسأله عن حاله ويحادثه، وأعرض عن بقية الجماعة.
قال: ثم إن أهل العراق أخذوا فى الشكر فى عبيد الله والثناء عليه، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال: إن تكلمت خالفتهم، فقال له معاوية: اشهدوا على أننى قد عزلت عبيد الله عنكم، قوموا وانظروا فى أمير أوليه عليكم وترجعون إلىَّ بعد ثلاثة أيام. قال: فلما خرجوا من عنده كان فيهم جماعة يطلبون الإمارة لأنفسهم، وفيهم من عيَّن غيره، وسعوا فى السَّر مع خواص معاوية أن يفعل لهم ذلك، ثم اجتمعوا بعد انقضاء الثلاثة كما قال معاوية، والأحنف معهم، ودخلوا عليه فأجلسهم على ترتيبهم فى المجلس الأول، وأخذ الأحنف إليه كما فعل أولاً وحادثه ساعة، ثم قال: ما فعلتم فيما انفصلتم عليه؟ فجعل كل واحد يذكر شخصًا وطال حديثهم فى ذلك وأفضى إلى منازعة وجدال، والأحنف ساكت، ولم يكن فى الأيام الثلاثة تحدث مع أحد فى شيء، فقال له معاوية: لم لا تتكلم يا أبا بحر؟ فقال الأحنف: إن وليَّت أحداً من أهل بيتك لم تجد من يعدل عبيد الله ولا يسد مسدَّه، وإن وليت من غيرهم فذلك إلى رأيك، ولم يكن فى الحاضرين الذين بالغوا فى المجلس الأول فى الثناء على عبيد الله من ذكره فى هذا المجلس ولا سأل عوده إليهم. قال: فلما سمع معاوية مقالة الأحنف قال للجماعة: اشهدوا على أنى قد أعدت عبيد الله إلى ولايته، فكل منهم ندم على عدم تعيينه، وعلم معاوية أن شكرهم لعبيد الله لم يكن لرغبتهم فيه، بل كما جرت العادة فى حق المتولى. قال: فلما فصل الجماعة من مجلس معاوية خلا بعبيد الله وقال له: كيف ضيعت مثل هذا الرجل -يعنى الأحنف-؟ فإنه عزلك وأعادك إلى الولاية وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا

عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عونًا وذخرًا، قال: فلما عادوا إلى العراق أقبل عليه عبيد الله وجعله بطانته وصاحب سره[(١)]. وفى هذا الخبر موقف لمعاوية رضى الله عنه حينما علم قدر الأحنف بن قيس -رحمه الله- وأدرك رفعة منزلته، فرفعه وأدناه منه، وأظهر له كثيرًا من الاهتمام والاحترام وهذا كما أنه يعتبر من تقدير أهل الفضل فهو يعتبر من السياسة الجيدة فى احتواء أهل القوة والتأثير على الناس، واستيعابهم[(٢)]. ومن القصص التى حدثت بين معاوية والأحنف والتى تدل على سعة صدر معاوية ومعرفته بعواقب الأمور، فعندما استقر الأمر لمعاوية دخل عليه يومًا، فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة فى قلبى إلى يوم القيامة؟ فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التى أبغضناك بها لفى صدورنا، وإن السيوف التى قاتلناك بها لفى أغمادها، وإن تدن من الحرب فترًا ندن منه شبرًا، وإن تمشى اليها نهرول إليها، ثم قام وخرج، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا الذى يتهدد ويتوعد؟ قال: هذا الذى إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من تميم، لا يدرون فيم غضب[(٣)].

د- أبو قتادة الأنصارى رضى الله عنه:

ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب وجاء بالسند فقال: من جامع معمر رواية عبد الرزاق[(٤)]، قال: حدّثنا معمر، عن عبد الله بن محمد بن عقيل: أن معاوية لما قدم المدينة لقيه أبو قتادة الأنصارى، فقال له معاوية: يا أبا قتادة، لم يكن معنا دواب، قال معاوية: فأين النَّواضح؟ قال أبو قتادة: عقرناها فى طلبك، وطلب أبيك يوم بدر، قال: نعم يا أبا قتادة، قال أبو قتادة: إن رسول الله ﷺ قال لنا: إنَّا سنرى بعده أثرة، قال معاوية: فما أمركم به عند ذلك؟ قال: أمرنا بالصبر، قال: فاصبروا حتَّى تلقوه[(٥)].

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٣٠٥، ٥٠٤). .

(٢) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٤) .

(٣) وفيات الاعيان (٢/١٨٦) .

(٤) مصنف عبد الرزاق رقم (١٩٩٠٩) وهو مرسل، فإن عبد الله بن محمد بن عقيل لم يدرك معاوية، وأبا قتادة، ,وابن عقيل ليس بذاك. وإما إخبار النبى ﷺ للأنصار بأنهم سيرون بعده أثرةً وأمره لهم بالصبر حق يأتوه فثابت من حديث أسيد بن حضير عند البخارى رقم (٣٧٩٢)، ومسلم رقم (١٨٤٥)، الاستيعاب، ص (٦٧٠).

(٥) الاستيعاب، ص (٦٧٠) رقم الترجمة (٢٣٤٦).

٥- تواضعه وورعه:

ومن صفات معاوية رضى الله عنه التى اشتهـر بها صفة التواضع، فقد كان فى خطبه العامة يعترف بأن فى الناس من هو خير منه وأفضل، وكان ذلك بعد أن تولى أمر المسلمين، واجتمع عليه الناس، فأصبح الأمير الذى لا ينازع، خطب مرة فقال: أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير منى، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم فى عدوكم، وأدرككم حلبًا(١)، وروى الإمام أحمـد بسنده إلى على بن أبى حملة عن أبيه قال: رأيت مـعاوية على المنبر بدمشق يخطب الناس وعليه قـميص مرقوع(٢)، وعن يونس بن ميسر الحميـرى قال: رأيت معاوية فى سـوق دمشق، وهو مردف وراءه وصيفًا، وعليه قميص الجيب، يسير فى أسواق دمشق(٣)، وبلغ من ورعه أنه لما رأى إحدى جواريه، ونظر إليها بشهوة، ولكنه شعر بعـجزه عن وطئها، قال لمن أحضرها إليه: اذهب بها إلى يزيد بن معاوية، ثم قال: لا، ادْعُ لى ربيعة بن عمرو الجرشى - وكان ربيعـة فقيهًا - فلما دخل عليه قـال: إن هذه أتيت بها مجردة، وقد رأيت منها ذلك وذلك، وإنى أردت أن أبعث بها إلى يزيد. فقال ربيعة: لا تفعل يا أمير المؤمنين: فـإنها لا تصلح له، فقال مـعاوية: نعم ما رأيت، ثم وهب معاوية الجارية لعبد الله بن مسعدة الفزارى، مولى فاطمة بنت رسول الله ﷺ وكان أسود، فقـال له: بيض بها ولدك(٤). ويعلق ابن كـثير علـى ذلك بقوله: وهذا من فـقه معاوية وتحريه، حيث كان نظر إليها بشهوة، ولكن استعفف نفسه عنها، فتحرج أن يهـبـهـا لولده يزيد؛ لقـوله تعـالى: ﴿وَلَا تَنكِحُـوا مَـا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَـاءِ﴾ [النساء: ٢٢]، وقد وافقه على ذلك ربيعة بن عمرو الجرشى الدمشقى(٥).

٦- بكاؤه من خشية الله:

روى فى مجلس معاوية رضى الله عنه حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ، فى أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة -من أمة محمد- القارى المرائى، والمنفق

---

(١) البداية والنهاية (١١/٤٣٦). (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٢)، الزهد، ص(١٧٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٢)، من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية، ص (١٢٩).
(٤) البداية والنهاية (١١/٣٩٦). (٥) المصدر نفسه (١١/ ٣٩٦).

المرائى، والمجاهد المرائى، وبيَّن رسول الله ﷺ ذلك حيث قال: إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضى بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل يقتل فى سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسلى؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلانًا قارىء، فقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذى قتل فى سبيل الله، فيقول الله له:فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فى سبيلك فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جرىء فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتى فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة. فعند ما سمع معاوية هذا الحديث قال: قد فُعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقى من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظن من حوله أنه هالك، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١] [هود: ١٥، ١٦].

هذه أهم صفات معاوية التى خرجت لى عند البحث فى سيرته.

ثالثًا: ثناء العلماء على معاوية ودخول دولة بنى أمية فى خير القرون:

١- عمر بن الخطاب رضى الله عنه: قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية[٢]، وقال أبو محمد الأموى: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية فى موكب يتلقاه، وراح إليه فى موكب، فقال له

(١) رواه الترمذى والحاكم عن أبى هريرة، وصححه الألبانى (١٧١٣).

(٢) المعجم الكبير (٥/ ٣٣٠) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٨٣).

عمر: يا معاوية، تروح فى موكب وتغدو فى مثله، وبلغنى أنك تصبح فى منزلك وذوو الحاجات ببابك قال: يا أمير المؤمنين إن العدو قريب منا، ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزًا، فقال له عمر: إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب؛ فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، مرنى بما شئت أصر إليه؛ قال: ويحك، ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه إلا تركتنى ما أدرى آمرك أم أنهاك(١).

٢- على بن أبى طالب رضى الله عنه: قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه: لا تكرهوا إمارة معاوية، فوالله لئن فقدتموه لترون رؤوسًا تندر عن كواهلها، كأنها الحنظل(٢). فهذا توجيه من أمير المؤمنين على لأصحابه لعدم كراهيتهم إمارة معاوية.

٣- عبدالله بن عمر رضى الله عنه قال: ما رأيت أحدًا أسود من معاوية، قال: قلت: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيرًا منه وكان معاوية أسود(٣) منه: وفى رواية: مارأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أسود من معاوية. قيل: ولا أبا بكر؟ قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان خيرًا منه، وهو أسود منهم(٤).

٤- عبد الله بن عباس رضى الله عنه: قال رضى الله عنه: ما رأيت رجلاً كان أخلق بالملك من معاوية(٥)، وفى صحيح البخارى أنه قيل لابن عباس: هل لك فى أمير المؤمنين معاوية، فإنه ما أوتر إلا بواحدة؟ قال: إنه فقيه(٦)، وذكر ابن عباس معاوية فقال: لله درُّ ابنِ هند ما أكرم حسبه وأكرم مقدرته، والله ما شتمنا على منبر قط، ولا بالأرض ضنًّا منه بأحسابنا وحسبه(٧). وحين عزى معاوية عبدالله بن عباس فى الحسن بن على بقوله: لا يخزيك الله ولا يسوؤك فى الحسن، فقال له ابن عباس: أما ما أبقى الله لى أمير المؤمنين، فلن يسوءنى الله ولن يخزينى(٨).

---

(١) أنساب الأشراف (٤/١٤٧)، الاستيعاب رقم الترجمة (٢٣٤٦)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٨٤).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٠).

(٣) المصدر السابق (١١/٤٣٨).

(٤) المصدر السابق (١١/٤٣٨).

(٥) المصدر السابق (١١/ ٤٣٩).

(٦) البخارى، رقم (٣٧٦٥).

(٧) تاريخ دمشق (٦٢/ ١٢٨، ١٢٩).

(٨) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/ ٦٧، ٦٨).

٥- سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه: قال رضى الله عنه: ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحقٍّ من صاحب هذا الباب، يعنى: معاوية(١).

٦- أبو هريرة رضى الله عنه: كان يمشى فى سوق المدينة وهو يقول: ويحكم تمسكوا بصدغى معاوية، اللهم لا تدركنى إمارة الصبيان(٢).

٧- أبو الدرداء رضى الله عنه: ما رأيت أحداً بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله من أميركم هذا- يعنى معاوية(٣)-. قال ابن تيمية بعد أن أورد أثر ابن عباس السابق، وأثر أبى الدرداء هذا: فهذه شهادة الصحابة بفقهه ودينه والشاهد بالفقه ابن عباس ويحسن الصلاة أبو الدرداء، وهما هما، والآثار الموافقة لهذا كثيرة(٤).

٨- سعيد بن المسيب رحمه الله: قال ابن وهب عن مالك عن الزهرى قال: سألت سعيد بن المسيِّب عن أصحاب رسول الله ﷺ فقال لى: اسمع يا زهرى، من مات محبًا لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية كان حقيقًا على الله أن لا يناقشه الحساب(٥).

٩- عبدالله بن المبارك -رحمه الله- قال: معاوية عندنا محنة، فمن رأيناه ينظر إليه شزراً، اتهمناه على القوم، يعنى الصحابة(٦). وسئل ابن المبارك عن معاوية فقال: ما أقول فى رجل قال رسول الله ﷺ :سمع الله لمن حمده . فقال خلفه: ربَّنا ولك الحمد؟ فقيل: أيُّهما أفضل هو أم عمر بن عبد العزيز؟ فقال: لتراب فى منخرى معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن عبدالعزيز(٧).

١٠- عمر بن عبد العزيز رحمه الله: قال ابن المبارك عن محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال: ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنسانًا قط إلا إنسانًا شتم معاوية، فإنه ضرب أسواطا(٨).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٠).

(٢) مختصر تاريخ دمشق (٢٥/٧٩)، أثر العلماء، ص (٨٤).

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/٣٥٧)، رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير قيس بن الحرث المدحجى.

(٤) منهاج السنة (٦/ ٢٣٥) .

(٥) البداية والنهاية (١١/٤٤٩) .

(٦) ، (٧) المصدر نفسه (١١/٤٤٩) .

(٨) المصدر نفسه (١١/٤٥١) .

١١- وقال محمد بن عبدالله بن عمار الموصلي وغيره: سُئل المعافى بن عمران: أيهما أفضل معاوية أم عمر بن عبد العزيز؟ فغضب وقال للسائل: أتجعل رجلاً من الصحابة مثل رجل من التابعين، معاويةصاحبه، وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحى الله(١).

١٢- أحمد بن حنبل -رحمه الله-: سئل الإمام أحمد: ما تقول رحمك الله فيمن قال: لا أقول إن معاوية كاتب الوحى، ولا أقول إنه خال المؤمنين فإنه أخذها بالسيف غصبًا؟ قال أبو عبد الله: هذا قول سوءٍ ردىء، يُجانبون هؤلاء القوم، ولا يجالسون، ونبين أمرهم للناس(٢).

١٣- الربيع بن نافع الحلبى - رحمه الله-: قال: معاوية ستر لأصحاب محمد ﷺ، فإذا كشف الرجل الستر، اجترأ على ما وراء(٣).

١٤- قال ابن أبى العز الحنفى: وأول ملوك المسلمين معاوية، وهو خير ملوك المسلمين(٤).

١٥- القاضى بن العربى المالكى: -رحمه الله-: تحدث ابن العربىٍّ عن الخصال التى اجتمعت فى معاوية رضى الله عنه، فذكر منها: . . . قيامه بحماية البيضة، وسدِّ الثغور، وإصلاح الجند، والظهور على العدوِّ، وسياسة الخلق(٥) وقال فى موضع آخر من كتابه العواصم من القواصم: فعمر ولاه، وجمع له الشَّامات كلّها، وأقرَّه عثمان، بل إنَّما ولاه أبو بكر الصَّديق، لأنَّه ولى أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقرّه عمر، فتعلَّق عثمان بعمر وأقرَّه، فانظر إلى هذه السِّلسلة ما أوثق عُراها(٦). وثبت أن رسول الله ﷺ استكتبه، ثمَّ صالحه، وأقرَّ له بالخلافة الحسن بن علىٍّ سبط رسول الله ﷺ(٧).

١٦- يقول ابن تيمية - رحمه الله -: واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة، وهو أول الملوك، كان ملكه ملكًا

(١) البداية والنهاية(١١/ ٤٥٠).
(٢) الخلاَّل، السنة (٢/ ٤٣٤) إسناده صحيح.
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٠).
(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ص (٧٢٢).
(٥) العواصم من القواصم، ص(٢١٠، ٢١١).
(٦) المصدر نفسه، ص (٨٢).
(٧) عثمان بن عفان للصَّلاَّبى، ص(٣٠٠)، المدينة المنورة فجر الإسلام (٢/ ٢١٦).

ورحمة[1]، وقال: فلم يكن من ملوك المسلمين خيراً منهم فى زمان معاوية[2]، إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، أما إذا نسبت إلى أيام أبى بكر وعمر ظهر التفاضل، وذكر ابن تيمية قول الأعمش عندما ذكر عنده عمر بن العزيز فقال: فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: فى حلمه، قال: لا والله فى عدله.

١٧- وقال الذهبى - رحمه الله -: أمير المؤمنين، ملك الإسلام[3] .وقال: ومعاوية من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببرىء من الهَنَات، والله يعفو عنه[4]، وحسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم - هو ثغر- فيضبطه ويقوم به أتم قيام، ويرضى الناس بسخائه وحلمه . . . فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه وقوة دهائه ورأيه[5].

١٨- وقال ابن كثير -رحمه الله -: وأجمعت الرعايا على بيعته فى سنة إحدى وأربعين . . فلم يزل مستقلاً بالأمر حتى هذه السنة التى كانت فيها وفاته، والجهاد فى بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم تَرِد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه فى راحة وعدل، وصفح وعفو[6]، وقال: كان حليمًا، وقوراً، رئيسًا، سيدًا فى الناس، كريمًا، عادلا، شهمًا[7]. وقال عنه أيضًا: كان جيد السيرة، حسن التجاوز، جميل العفو، كثير الستر، رحمه الله تعالى[8].

١٩- قال ابن خلدون -رحمه الله-: وقد كان ينبغى أن تلحق دولة معاوية وأخباره بدول الخلفاء وأخبارهم، فهو تاليهم فى الفضل والعدالة والصحبة. . والحق إن معاوية فى عداد الخلفاء وإنَّما أخَّره المؤرخون فى التأليف عنهم لأمرين:

الأول: إن الخلافة لعهده كانت مغالبة لأجل ما قدّمناه من العصبية التى حدثت لعصره، وأما قبل ذلك فكانت اختياراً واجتماعًا، فيميزوا بين الحالتين. فكان معاوية أوّل خلفاء المغالبة والعصبية الذين يعبرّ عنهم أهل الأهواء بالملوك، ويشبِّهون بعضهم ببعض، وحاشا لله أن يشبَّه معاوية بأحد ممَّن بعده. فهو من الخلفاء الراشدين، ومن

(١) الفتاوى (٤/٤٧٨).
(٢) منهاج السنة (٦/ ٢٣٢) (٣/ ١٨٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢٠).
(٤) المصدر نفسه (٣/١٥٩).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ١٣٢، ١٣٣).
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٤٠٠).
(٧) المصدر نفسه (١١/ ٣٩٧).
(٨) المصدر نفسه (١١/ ٤١٩).

تلوه فى الدين والفضل من الخلفاء المروانيَّة ممن تلاه فى المرتبة كذلك، وكذلك من بعدهم من خلفاء بنى العباس، ولا يقال: إن الملك أدون رتبة من الخلافة، فكيف يكون خليفة ملكًا، واعلم أن الملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هى الجبروتية المعبَّر عنها بالكسروية التى أنكرها عمر على معاوية حين رأى ظواهرها، وأما الملك الذى هو الغلبة والقهر بالعصبية والشوكة، فلا ينافى الخلافة ولا النبوَّة، فقد كان سليمان بن داود وأبوه صلوات الله عليهما نبيَّين ومَلِكَيْن، كانا على غاية الاستقامة فى دنياهما وعلى طاعة ربِّهما عز وجل. ومعاويةَ لم يطالب الحكم ولا أبَّهته للاستكثار فى الدنيا، وإنما ساقه أمر العصبية بطابعها لمّا استولى المسلمون على الدولة كلّها، وكان هو خليفتهم فدعاهم بما يدعو الملوك إليه قومهم، عندما تستفحل العصبية وتدعو لطبيعة الملك، وكذلك شأن الخلفاء أهل الدين من بعده، إذا دعتهم ضرورة الملك إلى استفحال أحكامه ودواعيه، والقانون فى ذلك عرض أفعالهم على الصحيح من الأخبار، لا بالواهى، فمن جرت أفعاله عليها فهو خليفة النبى ﷺ فى المسلمين، ومن خرجت أفعاله غير ذلك فهو من ملوك الدنيا، وإن سمى خليفة بالمجاز.

الأمر الثانى: فى ذكر معاوية مع خلفاء بنى أمية دون الخلفاء الأربعة إنهم كانوا أهل نسب واحد، وعظيمهم معاوية فجعل مع أهل نسبه، والخلفاء الأولون مختلفون الأنساب، فجعلوا فى نمط واحد، وألحق بهم عثمان، وإن كان من أهل هذا النسب للحوقه بهم قريبًا فى الفضل(١).

وكلام ابن خلدون ليس على إطلاقه وفيه نوع من المبالغة، فهذه بعض أقوال علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تلاهم على الثناء على معاوية رضى الله عنه أنه من ملوك المسلمين ومن خيارهم الذين غلب عدلهم وظلمهم، وما هو ببرىء من الهنات، والله يعفو عنه، وهو على دين كما قال عن نفسه: يقبل الله فيه العمل ويجزى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن يشاء. ولقد تعّرض معاوية رضى الله عنه ودولته ودولة بنى أمية عمومًا لسهام بعض الكتاب، وزعم بعضهم أنها دولة مدنية، وقال بعضهم: أنها كانت دولة عربية ولم تكن دولة إسلامية؛ بل قال بعضهم: إنها دولة علمانية لاصلة لها بالدين، ولا

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ص (٥٢٨، ٥٢٩).

بالأخلاق، وهذه فرية تكذبها حقـائق الدين وشواهد التاريخ، أما حقائق الدين، فقـد بدأت دولة بنى أمية سنة ٤٠هـ من الهـجرة، واستـمرت إلى سنة ١٣٢هـ. فقـد شملت القـرون الثلاثة التى هى خـير قرون الأمـة: قرن الصـحابة، وقرن التابعين، وقرن أتبـاع التابعـين[١] وهى التى جـاءت بها الأحـاديث الصحـاح المستفيضة عن رسـول الله ﷺ؛ مثل حديث ابن مسعود: «خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٢]، ومثله حـديث عمران بن حـصين: «خيـركم قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران لا أدرى أذكر النبى بعد قرنين أو ثلاثة.[٣] وكذلك حديث أبى سـعيد الخدرى مرفوعًا: قـال: يأتى زمان يغزو فئـام من الناس فيـقال: فـيكم من صحب أصـحاب النبـى ﷺ؟ فيقـال: نعم، فيفتح. ثم يأتى زمان، فيقال: فيكم من صحب من صحب أصحاب النبى ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح[٤].

ومعنى قول: «قرْنى» أى أهل عصرى. وهم الصحابة ثم قرن التابعين، ثم قرن الأتباع، وبعض الشرّاح حـددوا القرن بزمن، فقـال بعضهم: القـرن أربعون سنة، وبعضـهم قال: ثمـانون سنة. وبعضـهم جعله مـائة سنة، وهو الذى اشتـهر فى الاستعمال الآن، وأمسى حقيقة عرفيـة. وتكون القرون المفضلة والموصوفة بالخيرية على هٰذا ثلاثمـائة سنة. وهذا غيـر منسجم مع منطق الواقع التـاريخى، فالراجح تفسيره بِما ذكرنا، من عصر الصحابة، وعصر التابعين، وعصر الأتباع[٥]. ومن الأحاديث الصحيحة التى يستدل بها على منزلة الدولة الأموية من الإسلام. ماروا‌ه البخارى فى صحـيحه عن خالد بن مهران: أن عمـير بن الأسود العنْسى حدثه أنه أتى عبـادة بن الصامت، وهو نازل فى ساحـة حمص، وهو فى بناء له، ومعه أم حَرام (زوجه) قال عمر: حدثتنا أم حرام أنها سمعت النبى ﷺ يقول: «أول جيش من أمتى يغزون البحـر قد أوجبوا». (أى فعلوا فعلاً وجبت لهم به الجنة)، قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. ثم قال النبى ﷺ: «أول

(١) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى ص (٦٢).

(٢) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم (١٦٤٥).

(٣) المصدر نفسه رقم (١٦٤٦).

(٤) المصدر نفسه رقم (١٦٤٧).

(٥) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى، ص (٦٣).

جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: لا»[1]، ومدينة قيصر هى القسطنطينية، عاصمة الدولة البيزنطية[2]. قال الشراح: فى هذا الحديث منقبة لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر، وذلك فى خلافة عثمان، مازال معاوية يغريه بالغزو فى البحر، حتى استجاب له، وبدأ الأسطول الإسلامى منذ عهد عثمان، ثم اتسع وازداد فى عهد معاوية[3]، وفى هذه الغزوة مات أبو أيوب الأنصارى وكان فى هذا الجيش رضى الله عنه، فأوصى أن يدفن عند باب القسطنطينية، والذى يهمنا هو أن هذا الجيش المغفور له بالجملة، كان فى عهد بنى أمية. إذ كانت هذه الغزوة سنة اثنين وخمسين من الهجرة النبوية، أى فى عهد معاوية، ومن نظر فى سيرة معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة، وبعد تنازل الحسن السبط رضى الله عنه له، وتأمل هذه السيرة بإنصاف وجد الرجل حريصًا على إقامة الإسلام فى شعائره وشرائعه، وعلى اتباع السنة النبوية فى مجالات الحياة المختلفة.

****

(١) البخارى رقم (٢٩٢٤).
(٢) تاريخنا المفترى عليه، يوسف القرضاوى، ص (٦٣).
(٣) المصدر نفسه، ص (٦٣).

المبحث الثانى

العلاقة بين الأمة ومعاوية كرئيس الدولة الإسلامية

للخليفة كما للأمة حقوق، كما أن على كل منها واجبات مطالبًا بها محاسبًا عليها، وإليك شىء من الإيضاح:

أولا: واجبات الخليفة:

بيَّن الفقهاء الواجبات الملقاة على عاتق رئيس الدولة، وحددوها التحديد الذى يوضح مدى ما هو موكول إليه من المهام، ومهما اختلفت أساليب العلماء فى التعبير عن هذه الواجبات وتعدادها، فإنه يمكن القول إن هذه الواجبات فى حقيقتها لا تتعدى المحافظة التامة على المصالح الدينية والدنيوية، وإليك هذه الواجبات:

١- العمل بشتى الوسائل على أن يكون الدين مصونًا عن كل ما يسىء إليه، سواء فى هذا ما يتعلق بالعقيدة الإسلاميه، أو ما يتعلق بغيرها، وهذا الواجب ما عبر عنه الماوردى قائلاً: هو حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة، وبيَّن له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروسًا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل[1].

٢- نصب القضاة ليحكموا بين الناس بشريعة الله، حتى لا يكون هناك معتدٍ لا يخاف جزاء، ولا مظلوم لا يستطيع وصولاً إلى حق كفله الشارع له[2]، وسوف نتعرف على مؤسسة القضاء فى عهد الدولة الأموية فى هذا الكتاب.

٣- توفير الأمن لكل آحاد الأمة، حتى يستطيع كل فرد أن ينصرف إلى سبيل عيشه آمنًا على نفسه وأهله وماله.

٤- إقامة الحدود التى بينها الله سبحانه على مقترفى كل جريمة تستأهل حدًا، لا يفرق فى ذلك بين شريف وحقير، حتى تصان محارم الله من الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده عن إتلاف واستهلاك كما هو تعبير الماوردى[3].

---

(١) الأحكام السلطانية، ص (١٥). (٢) رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٥٦).

(٣) الأحكام السلطانية، ص (١٦)، رئاسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٥٧).

٥- إحاطة ثغـور البلاد بسيـاج منيع من القوة، حتى لا يجد أعـداء الإسلام ثغرة يتسللون منها إلى ضرب الأمة على حين غفلة، فيجب على رئيس الدولة أن يعمل على استكمال كل الوسائل التى تكلف الأمة الحماية التامة من شرور الأعداء.

٦- جهـاد أعداء الإسلام الذين عاندوا دعـوتهم إليه،حتى يدخلوا فى الإسلام أو يدخلوا فى الذمة.

٧- جباية الأموال المستحقة،سواء أكانت هذه الأموال صدقات أم فيئًا، وإخضاع ذلك إلى القواعد التى أوجـبها الشارع نصًـا واجتهاداً من غيـر زيادة أو نقصان فى الجباية، إذ أن الزيادة تقضى إلى خسران من تجب عليهم الزكوات، والنقصان مفضٍ إلى تضييق مجال الصرف على الفقراء والمساكين والعاملين ونحوهم.

٨- تقدير الحقوق والرواتب المستحقة فى بيت مال المسلمين،كالإعانات الاجتماعية للأسر المحتاجة، ورواتب الجند والموظفين، والعمل على إرساء قواعد تكون ضابطة لكل ما يتصل بهذا الواجب.

٩- اختيار الأكفاء الذين يثق فى مقدرتهم ودينهم وصلاحهم للمناصب القيادية التى توكل إليهم،حتى يسير دولاب الأعمال بيـد الأمناء الذين يخافون الله، ولا يثبون على حقوق الناس.

١٠- الإشراف بنفسـه على ما هو متصل بما يجب عليـه نحو الأمة،ولا يترك الأمور تسير بدون إشراف مباشر منه، إذ إن كل تقصير من أى من عماله الذين وكل إليهم بعض الأمور، منسوب إليه، متـحمل خطئه، محاسب عليه أمـام الله إن قصر فى المتابعة، فإن الإمام راعٍ وهو مسؤل عن رعيته كما بين ذلك رسول الله ﷺ

١١- الشورى،لأنها من سمات الحكم الإسلامى[1].

وسـوف نرى بإذن الله تعالى كـيف تعـامل معـاوية رضى الله عنه، والخلفـاء الأمويون من بعده مع هذه الواجبات، ولا نريد أن نستعجل الأحداث، وسنقف مع كل واجب من هذه الواجبات فى موقفه، ونرى قرب الخلفاء الأمويين وبعدهم من تطبيق هذه الواجبات.

---

(١) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٥٨).

ثانيًا: حقوق الخليفة:

إن الخليفة له حقوقًا على الأمة من شأنها أن تعينه على القيام بما هو موكول إليه من المهام، وقد بين علماء الإسلام هذه الحقوق وأهمها:

١- طاعته والانقياد له فى كل ما أمر به ونهى عنه، ما دامت هذه الأوامر والنواهى فى المعروف، ولم تتعارض مع الأحكام التى بينتها شريعة الإسلام، فما دام الخليفة أو رئيس الدولة قد التزم فى أوامره ونواهيه جانب الشرع، فلم يحد فى ذلك عن الحدود التى رسمتها، له الشريعة، فله حق ولاء المواطنين جميعًا، سواء فى ذلك أهل الحل والعقد الذين بايعوه رئيسًا للأمة، وسائر المواطنين الذين يلزمهم الانقياد له بمجرد تمام هذه البيعة.

٢- القيام بنصرته إذا احتاج الأمر إلى ذلك،فما دام يسير فى حكمه على طريق الحق فقد وجب على سائر الأمة نصرته على البغاة، وكل من رفع عليه السلاح، لأن نصرة الإمام الحق فى الواقع ما هى إلا نصرة للمسلمين وتأييد له فى العمل على أن يكون الدين قائمًا، وكف للمعتدين عن كل ما يمكن أن يصدر عنهم من جرائم.

٣- جَعْل راتب له مع مخصصات له،تكفيه ومن يعوله، فإن رئيس الدولة سيشغل نفسه بواجبات الرياسة التى ستستحوذ على وقته، مما لا يترك له فرصة السعى فى اكتساب رزقه، فيجب أن يُجعل له راتب يغنيه، ويليق بهذا المنصب بحيث لا يكون فيه تقتير ولا إسراف، لأن رواتب الولاة والقضاة من أموال المسلمين التى يحتاط فى وجوه صرفها.

٤- إخباره بأحوال من ولاهم المناصب العامة -كالولاة والقضاة- إذا انحرفوا عن الطريق الذين كلفوا بسلوكه، وذلك لأن الإمام مكلف شرعًا بمتابعة أعمال هؤلاء لإصلاح ما اعوج من أفعالهم، وتنبيههم إلى ما غفلوا عنه من وجوه المصلحة، وهو محاسب أمام الله على ما ارتكبه هؤلاء من أخطاء فى حق الله، والأمة، إذا هو قصر فى منع ذلك، ولا طاقة له على متابعة أعمالهم، ومراقبة سيرهم إلا إذا عاونته الأمة فى ذلك.

٥- تقديم جميع المساعدات إليه إن احتاج إلى ذلك في أداء ما تحمله من أعباء مصالح الأمة لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٢] وولاة الأمور أحق من أعين على ذلك[١]. والأمة فى عمومها لم تبخل على أمير المؤمنين معاوية بحقوقه وعلى الخلفاء الذين جاءوا من بعده، ولم يخل الأمر من ثورات ضد الخلفاء سنبينها فى موضعها بإذن الله تعالى.

ثالثًا: عاصمة الدولة الأموية وأحاديث الرسول فى فضائل الشام:

كانت الشام إحدى الولايات الهامة فى الامبراطورية الرومانية الشرقية «البيزنطية»، بل كانت لقربها من بيت المقدس، وتاريخها القديم، أحد المراكز الحضارية فى هذه الامبراطورية، وكان العرب قبل الإسلام ينظرون إليها نظرة كبيرة، لما تحتويه من حضارة، فضلاً عما بها من خيرات وخضرة وأسواق، وتعتبر مدينة دمشق المدينة الأولى فى بلاد الشام، فهى قاعدتها ومدينتها العظمى، ولعبت دورًا كبيرًا فى تاريخ المنطقة، لذلك اتخذها الحاكم الرومانى قاعدة حكمه، ولما دخل الإسلام الشام، ودمشق خاصة، حافظ عليها، واحتفظ الولاة لها بميزاتها، وظل معاوية الوالى يعتنى بها طوال فترة ولايته عليها، وأقام علاقات وطيدة مع سكانها[٢]، وعرف أهمية القبائل اليمنية فى دمشق والشام، فتزوج من إحداها وهى بنى كلب وأنجب من زوجته الكلبية ابنه يزيد، فضمن ولاءهم له ولأبنائه من بعده، لأن الخؤولة من أبرز ما تتحزب له القبائل العربية، هذا فضلا عن أن التصاهر عند العرب بمثابة التحالف السياسى[٣]، وقد كان معاوية ذكيا فى اعتماده على القبائل اليمنية بدمشق والشام[٤]، ولما قامت الدولة الأموية، رأى معاوية أن الدولة الإسلامية توسعت وامتدت شرقًا وغربًا فلم يجد أفضل من دمشق عاصمة للخلافة الأموية، وذلك لأنها تقع بين جزءى العالم الإسلامى؛ الجزء الشرقى الذى يشمل العراق وفارس، والجزء الغربى الذى يشمل مصر والمغرب، فضلاً عن أن القبائل التى ارتبطت به أيدته ودعمت موقفه، وصارت يده الطولى فى تدعيم حكمه، أى

(١) رياسة الدولة فى الفقه الإسلامى، ص (٣٧٠ - ٣٧٤).
(٢) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٥، ١٣٦).
(٣) الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، ص (٤٢). (٤) المصدر نفسه، ص (٤٢).

أنها كانت القوة العسكرية والسياسية التى استند عليها الحكم والدولة الأموية، كما قدم له سكان البلد ما يمكن أن يقدموه من خبرة وعمل إدارى[1]، فقد وجد معاوية فى دمشق تقاليد عريقة فى الحكم والادارة، كما وجد جهازًا إداريًا متمرسًا ساعده على تأسيس مهمته فى فترة التأسيس هذه، التى لا تحتاج الإرادة الطيبة، فحسب، بل تحتاج الخبرة والمران اللذين وفرهما له جهاز الموظفين الذين كانوا يعملون فى ظل الإدارة البيزنطية فى الميدانين الإدارى والمالى، كما أنه لابد لنا أن نلاحظ أن حظ الشام من الحضارة كان أوفر من حظ الأمصار الأخرى، فالقبائل العربية التى هاجرت إليها، واستقرت فيها قبل الفتح كانت قد اعتادت فكرة الحكم المركزى وفكرة الدولة عمومًا، على عكس عرب العراق مثلاً الذين لم يتقبلوا هذه الفكرة بسهولة، وينطبق هذا على من سكن العراق منهم قبل الفتح وبعده، فالذين سكنوا العراق قبل الفتح كانوا فى خصومة وصراع دائمين مع الحكم الفارسى[2]، وسكان بلاد الشام كانوا قد اعتادوا الخضوع والتعايش مع البيزنطيين، كما أن العرب الذين هاجروا إلى الشام بعد الفتح لم يعيشوا فى معسكرات مستقلة، كما كانت الحال فى العراق (البصرة والكوفة)، بل عاشوا جنبًا إلى جنب مع السكان المحليين والقبائل التى كانت تقطن الشام قبلاً، وقد ساعد هذا الاختلاط على كسر حدة التمرد القبلى[3].

وقد ساعد على تحقيق انتصارات معاوية فى الخارج الجيش الشامى الذى جمعه ونظمه ودربه منذ أن كان واليًا، والذى أغدق عليه العطاء، ولم يبخل عليه بكل ما يوفر له سبل الرضا والإخلاص بعد أن غدا خليفة، وتعددت لقاءاته فى البر والبحر مع الامبراطورية البيزنطية، وقد ساعدت هذه اللقاءات المستمرة على إعطاء جيش الشام فرصًا كثيرة للتدريب العملى، وقدمت له الخبرة اللازمة[4].

كما كان لأحاديث رسول الله ﷺ أثرها فى هجرة الناس للشام، واعتزاز أهلها بالإسلام، وحرصهم على زعامة العالم الإسلامى، فالنبى ﷺ ميز أهل الشام بالقيام بأمر الله دائمًا إلى آخر الدهر، وبأن الطائفة المنصورة فيهم إلى آخر الدهر،

(١) رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٦).
(٢) تاريخ خلافة بنى أمية، نبيه عاقل، ص (٦٢).
(٣) المصدر نفسه، ص (٦٢)، الجذور التاريخية للأسرة الأموية، د. إحسان صدقى العمد، ص (٩٤).
(٤) رجال الادارة فى الدولة الإسلامية العربية، ص (١٣٦).

فهو إخبار عن أمر دائم مستمر فيهم مع الكثرة والقوة[١]، وقد كان معاوية يحتج لأهل الشام بحديث رسول الله ﷺ حيث قال: «لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة» [٢]، فقام مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذاً يقول: وهم[٣] بالشام، فقال معاوية: وهذا مالك بن يخامر يذكر أنه سمع معاذا يقول: وهم بالشام. وماوراه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «لايزال أهل الغرب ظاهرين» [٤]، قال الإمام أحمد: وأهل الغرب هم أهل الشام[٥]. وذلك أن النبى ﷺ كان مقيماً بالمدينة فما يغرب عنها فهو غربه، وما يشرق عنها فهو شرقه[٦]... وقد أخبر أن الطائفة المنصورة القائمة على الحق من أمته بالمغرب وهو الشام وما يغرب عنها .. وكان أهل المدينة يسمون أهل الشام: أهل المغرب، ويقولون عن الأوزاعى: إنه إمام أهل المغرب[٧]. فإذا دلت النصوص على أن الطائفة القائمة بالحق من أمته التى لا يضرها خلاف المخالف، ولا خذلان الخاذل هى بالشام، فهذا لا يعارض قوله ﷺ: «تقتل عماراً الفئة الباغية» [٨]، وقوله فى الخوارج ﷺ: «تقتلهم أولى الطائفتين بالحق» [٩]. ولا ريب أن هذه النصوص لابد من الجمع بينها، فيقال: أما قول ﷺ: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين» [١٠]، ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم، فهذا وقع وهذا هو الأمر فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين[١١]، وأما قوله عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله» [١٢]، والذى هو ظاهر، فلا يقتضى ألا يكون فيهم من فيه بغى، ومن غيره أولى بالحق منهم، بل فيهم هذا وهذا[١٣]. وأما قوله: «تقتلهم أولى الطائفتين بالحق» فهذا دليل على أن علياً ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى، وإذا كان الشخص أو الطائفة مرجوحاً فى بعض الأحوال لم يمنع أن يكون قائماً بأمر الله، وأن يكون ظاهراً بالقيام بأمر الله من طاعة الله ورسوله، وقد يكون الفعل طاعة وغيره أطوع منه،

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٧٥).
(٢) البخارى رقم ٧٣١١، مسلم رقم (١٩٢٠، ١٩٢١).
(٣) الفتاوى (٤/ ٢٧٣)، مالك بن يخامر ذكره ابن حيان فى الثقات، تهذيب التهذيب (١/ ٢٥، ٢٣).
(٤) مسلم فى الإمارة.
(٥) الفتاوى (٤/ ٢٧٣).
(٦) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٣).
(٧) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٣).
(٨) البخارى رقم ٤٤٧.
(٩) مسلم فى الزكاة.
(١٠) مسلم فى الإمارة.
(١١) الفتاوى (٤/ ٢٧٤).
(١٢) البخارى رقم (٧٣١١).
(١٣) الفتاوى (٤/ ٢٧٤).

وأما كون بعضهم باغيًا فى بعض الأوقات، مع كون بغيه خطأ مغفورًا له، أو ذنبًا مغفورًا، فهذا -أيضًا- لا يمنع ما شـهدت به النصوص؛ وذلك أن النبى ﷺ أخبر عن جملة أهل الشام، ولا ريب أن جملتـهم كانوا أرجح فى عمـوم الأحوال[1]، وقد كان عـمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفضلهم فى مدة خـلافته على أهل العراق، حتى قدم الشام غير مرة، وامتنع من الذهاب إلى العراق، واستشار فأُشير عليه أنه لا يذهب إليـها، وكذلك حين وفـاته لما طُعن أدخل عليه أهل المدينة أولاً وهم كانوا إذ ذاك أفـضل الأمة، ثم أدخل عليـه أهل الشام، ثم أدخل عليه أهل العراق، وكانوا آخر من دخل عليه[2]. وكذلك الصديق كانت عنـايته بفتح الشام أكثـر من عنايتـه بفتح العـراق حتى قـال: لَكَفرُ الشـام أحب إلىَّ من فتح مـدينة العراق[3]، والنصوص التى فى كتاب الله وسنة رسـوله وأصحابه فى فضل الشام، وأهل الغرب على نجد والعراق وسائر أهل المشرق، أكثر من أن تذكر هنا، بل عن النبى ﷺ من النصوص الصحـيحة فى ذم المشرق وإخبـاره بأن الفتنة ورأس الكفر منه ما ليس هذا موضعه، وإنما كان فضل المشرق عليهم بوجود أمير المؤمنين على، وذلك كان أمـرًا عارضًا ولهـذا لما مات على رضى الله عنه ظهـر منهم من الفتن، والنفاق، والردة، والبدع، مايعلم به أن أولئك كانوا أرجح[4].

وكذلك - أيضًا - لاريب أن فى أعيانهم من العلماء والصالحين من هو أفضل من كثير من أهل الشام، كما كان على وابن مسعود، وعمار، وحذيفة ونحوهم، أفضل من أكثر من بالـشام من الصحابة، لكن مقـابلة الجملة وترجيحـها لا يمنع اختـصاص الطائفة الأخرى بـأمر راجح، وهذا يبين رجحـان الطائفة الشامـية من بعض الوجـوه، مع أن عليًـا رضى الله عنه كـان أولى بالحق ممن فارقـه، ومع أن عمارًا قتلته الفئه الباغية - كما جاءت به النصوص -. فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله، ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولانتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأمـا من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف[5].

---

(١) الفتاوى (٤/ ٢٧٤).

(٢)، (٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٥).

رابعًا: أهل الحل والعقد فى عهد معاوية رضى الله عنه:

كان المجتمع الإسلامى فى عصر الراشدين يتطور تطورًا سريعًا وخطيرًا بشكل يهدد المحافظة على السمات الأساسية لحكمهم، والتى تظهر فى ذلك الحب والانسجام والحرص المتبادل بين الخليفة والرعية، وخوف الله فى معاملة بعضهم للبعض، وقد تمثل ذلك التطور فى تقلص دور أهل الحل والعقد المقيمين فى المدينة بوفاة معظمهم أو بتفرقهم فى الأمصار، وباكتساب تلك الأمصار مكانة ضخمة تفوق مكانة الحجاز مقر الخلافة نتيجة نمو دور القبائل العربية التى أسلمت متأخرًا، ولكنها حملت على أكتافها عبء الفتوحات الإسلامية الكبرى، التى أدت إلى إثراء المجتمع الإسلامى بصورة لم يعرفها من قبل، تغيرت معها بعض النفوس والأخلاق[1]، وبدأت تدريجيًا تتغير بعض المفاهيم، كمفهوم أهل الحل والعقد، فلم يعودوا هم أهل بدر، أو جماعة السابقين إلى الإسلام فى المدينة، التى تقلصت أعدادها بمضى الزمن، وبرز إلى ساحة التأثير والفاعلية زعماء الأمصار، وزعماء الشام من بينهم، فحين نحتكم إلى أحداث التاريخ نجدها تؤكد قدرة أهل الأمصار آنذاك على الحسم السياسى، وعجز أهل المدينة عن ذلك، ثم تؤكد بعد ذلك تميز أهل الشام بقدر هائل من الطاعة والتوحد الاجتماعى، والتعود على الخضوع لنظم الدولة، وأساليب الإدارة، وأنماط الحضارة، وقد مكنتها هذه المؤهلات من فرض اختيارها على العراق وسائر الأمصار الإسلامية حتى بايعت معاوية، ثم استطاعت الاحتفاظ بهذه القدرات أكثر من تسعين عامًا هى عمر الدولة الأموية. . مما يؤكد أن قادتها أصبحوا هم بحكم الواقع السياسى جل أهل الحل والعقد فى المجتمع الإسلامى، والقادرين على اختيار الخليفة، وإقناع بقية الأمصار بذلك الاختيار - إن سلمًا أو عنفًا - فى ذلك المجتمع الذى أصبحت تحكمه عصبيات مختلفة الرغبات والأهواء والمطامع[2].

١ - رأى الفقهاء فى معنى أهل الحل والعقد:

وحين نحتكم إلى أقوال علمائنا فى معنى أهل الحل والعقد نجدهم يختلفون إلى عدة أقوال[3]، ويذكرون مصطلحات متعددة منها:

---

(١) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، ص (١٢٧). (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (١٢٨).

أ ـ أولو الأمر: وهو مصطلح شرعى جاء بنص القرآن الكريم وذلك فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وقد اختلف فى المراد بهم على أقوال من أشهرها:

- أنهم الأمراء، ورجحه الإمام الطبرى[١]، وقال النووى: هو قول جمهور السلف والخلف[٢].
- أنهم العلماء، وبه قال بعض السلف منهم: جابر بن عبد الله والحسن البصرى، والنخعى وغيرهم.
- أنهم أصحاب محمد ﷺ.
- أنهم أبو بكر وعمر .
- أنهم عامة فى كل أولى الأمر والعلماء، ومال إليه الإمام ابن كثير[٣]، وابن القيم[٤]، والشوكانى[٥] وغيرهم.
- أنهم العلماء والأمراء والزعماء، وكل من كان متبوعًا وهو رأى ابن تيمية[٦]، ومحمد عبده[٧]، وقال: إنهم هم أهل الحل والعقد[٨]، ولعل القولين الخامس والسادس هما الأقرب إلى الصواب، وليس بينهما فرق كبير[٩].

ب ـ العلماء: والمراد بهم علماء الشريعة: وهو لفظ قرآنى، قال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]. وربما جاء بلفظ ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ كما فى قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وفى السنة النبوية جاء هذا المصطلح فى أحاديث لا تكاد تحصر ومن ذلك الحديث المشهور: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ولكن بموت العلماء»[١٠].

---

(١) تفسير الطبرى (٨/ ٥٠٢) تحقيق محمود شاكر.
(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/ ٢٢٣).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).
(٤) الرسالة التبوكية، ص (٤١).
(٥) فتح القدير للشوكانى (١/ ٤٨١).
(٦) الحسبة، ص (١٨٥).
(٧) تفسير المنار (٥/ ١٨١).
(٨)، (٩) أهل العقد والحل، عبد الله الطريقى، ص(١٢).
(١٠) مسلم رقم (١٣).

جـ ـ أهل الاختيار: وهم الذين يوكل إليهم اختيار الإمام ومبايعته، وهم أهل الحل والعقد[1]، وهو مصطلح اجتهادى اصطلح عليه بعض أهل العلم[2].

د ـ أهل الاجتهاد: وهم العلماء الذين بلغوا درجة الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية، ويكونون مؤهلين للأعمال المهمة، كالإمامة الكبرى، والقضاء، والفتوى ونحو ذلك، وممن أطلق هذا المصطلح: البغدادى[3]، والقرطبى[4].

هـ ـ أهل الشورى: وهم الذين يستشارون فى أمر المسلمين وفق الآية الكريمة، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]

و ـ أهل الشوكة: وهم أصحاب القدرة والسلطان، لتوافر القدرة والبأس لديهم، وممن استعمل هذا المصطلح ابن تيمية[5].

ز ـ أهل الرأى والتدبير: وهم من يتسمون بالعقل والفكر الناضج مع القدرة على تصريف الأمور وتسييرها، وممن استعمل هذا المصطلح ابن عابدين[6].

فأهل الحل والعقد هم الذين لهم القدرة على عقد نظام جماعة المسلمين فى شئونهم العامة، والسياسية، والإدارية، والتشريعية، والقضائية، ونحوها، ثم حل هذا النظام لأسباب معينة ليعاد ترتيب هذا النظام وعقده من جديد[7].

والذى تحقق فى عهد معاوية -رضى الله عنه- أن أهل الحل والعقد فى دولته كانوا هم الولاة، وزعماء القبائل، وقادة الجيوش ونحوهم، وتركزت الشوكة والقوة الفعلية فى أهل الشام، حيث كانوا قادرين على الاختيار وتحقيق إرادتهم، وإمضاء رغبتهم على مخالفيهم، وهذا ما تحقق فى ذلك الظرف التاريخى فى أهل الشام، وإذا أردنا أن نكون أكثر إنصافًا، قلنا إنه كان يجب أن تتسع دائرة أهل الحل والعقد هذه لتشمل بجانب زعماء الشام بقية زعماء الأمصار الإسلامية فى العراق والحجاز، ومصر وغيرهم، وأن تضم بجوار أصحاب العصبيات القوية، أصحاب الرأى من

---

(١) الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف بالكويت (٧/ ١١٥).

(٢) أهل الحل والعقد، عبد الله الطريقى، ص (١٣)، وهذا الكتاب فريد فى بابه.

(٣) المصدر نفسه، ص (١٣) أصول الدين (٢٧٩).

(٤) تفسير القرطبى (١/ ٢٦٥).

(٥) منهاج السنة (١/ ٥٥٠).

(٦) حاشية ابن عابدين (٤/ ٢٦٣).

(٧) أهل الحل والعقد، ص (١٥).

علماء الأمة وأهل الديانة فيهم، وأن يوكل إلى هذه الطائفة منهم اختيار الخليفة أو عزله، علاوة على الفصل فى المسائل المهمة فى حياة الأمة.. ولو حدث ذلك فى مسيرة الدولة الأموية لتجنبت الأمة كثيراً من الاختلاف وإراقة الدماء.. ولكن الذى حدث فعلاً هو انفراد أهل الشام باختيار الخلفاء فى العصر الأموى من الأسرة الأموية ذاتها، وكانت بداية ذلك هى البيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد من أبيه، وبعد خطوب شتى أصبح تسلسل الخلفاء من البيت الأموى أمراً واقعًا، رضيت بذلك بقية الأمصار أم عارضت[1]. وسيأتى الحديث عن ولاية العهد فى حينه بإذن الله تعالى.

خامسًا: الشورى فى عهد معاوية رضى الله عنه:

عندما آلت الخلافة إلى بنى أمية، لم يكن معاوية بن أبى سفيان ممن يجهل فوائد الشورى ويهمل الأخذ بها ، وما كان يصدر فى المهمات إلا عن مشورة، فقد كان يشاور ذوى الرأى من الولاة ووجوه الناس وأشراف القوم وأهل العلم، وكان ذلك سنة من جاء بعده من الخلفاء من بنى أمية، وكان من كبار مستشارى معاوية رضى الله عنه: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان يستشير الوفود التى كانت تأتيه[2]، وكان الناس يتكلمون بحرية فيعرضون آراءهم، ويهتم الخليفة بها كل الاهتمام، ويناقشهم فيها، ويحقق ما يمكن تحقيقه منها.

وكان والحكم يعتمد على مستشارين أكفاء وكتّاب قادرين، أطلقت يدهم فى العمل، ومنحهم الخليفة ثقته، وشدّهم بسلطانه، والحكم لم يكن متمركزاً فى شخص الخليفة، فمملكته واسعة، ولا يستطيع أن يضطلع بكل أمر، وهو يرسل ولاته على الأقطار ويطلق لهم اليد فى شئونها، وهو لا يولى إلا من يثق به، ولا يعطى السلطان إلا لمن لا يخشاه[3]، وولاته يستشيرهم فى حدود معينة.

وأما أمر الخلافة فحصر فى بنى أمية، وأصبح أمرها خاصًا بالبيت الأموى، يفتى فيها بالمجامع الأموية خاصة من دون الناس، وكان الخلفاء من بنى أمية يرجعون فى شورى استخلاف السلطان ورد الطامعين به إلى الجماعة الأموية

(١) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، ص (١٢٨).
(٢) فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص (٥٥).
(٣) الدولة الأموية، يوسف العشى، ص (١٣٩).

غالبًا[١]. ومن هنا يمكن القول بوجود نوعين من الشورى فى عهد بنى أمية أولهما: شورى تتعلق بالأمور والمصالح العامة، وكان الخلفاء من بنى أمية يرجعون فيها إلى ذوى الرأى من أشراف القوم والولاة وغيرهم، وثانيهما: شورى تتعلق بالسلطان خاصة، وكان الخلفاء من بنى أمية يفزعون فيها إلى آل بيتهم ويقضون فيها بينهم[٢].

وقيادة معاوية للدولة لم تكن فردية خالصة، فاللامركزية فى الحكم والإدارة فى الأغلب، ومشاركة الرجال من أهل الرأى والخبرة فى حمل المسئولية والقيام بأعباء الدولة فى السلم والحرب، وفى المراكز والولايات، ووجود الإسلام فى حياة الفرد والمجتمع والدولة سلوكًا ونظام حكم منذ عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، تقلل من مظهر القيادة الفردية ومساوئها، وتعزز مظهر الشورى وغلبة الاتجاه العام الثابت فى السياسة والقيادة والإدارة وتصريف الأمور ورعاية المصالح[٣]، كما أن تحول الخلافة الراشدة إلى ملك وراثى لم يكن يعنى تحولاً كاملاً عن شورى الراشدين، أو ارتدادًا عن أوامر الإسلام ومنهجه فى الحكم، وقد كان لذلك ما يبرره من تطور اجتماعى وسياسى ولقد بقيت فى عهد معاوية والعصر الأموى - كما يقرر ابن خلدون - معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه، والجرى على مذاهب الحق، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان دينًا ثم انقلب عصبية وسيفًا، وهكذا كان الأمر فى عهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشيد وبعض ولده، ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها[٤]. وما ذهب إليه ابن خلدون ليس على إطلاقه؛ ففى عهد الدولة العثمانية فى زمن محمد الفاتح انتعشت بعض معانى ومقاصد الخلافة، من الفتوحات، والدعوة، وإعزاز الإسلام، والعدل، ولم يذم الشرع العصبية أو الملك، لما كان القصد منها إقامة الدين، وإظهار الحق، وقد سأل سليمان عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، لما علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل فى النبوة والملك[٥]، وعلى ذلك فإن الملك الذى يخالف بل ينافى الخلافة هو الجبروتية[٦]، التى يقصد بها قهر الناس بغير حق،

---

(١) فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص (٥٦). (٢) المصدر نفسه، ص (٥٧).

(٣) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٠٢).

(٤) مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٥).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (٢٧٥).

ولم يكن ذلك شأن معاوية فى خلافته، وقد استرعى انتباه بعض فقهائنا ومؤرخينا ذلك القرب الشديد بين مقـاصد خلافة معاوية ومقاصـد خلافة الراشدين، لذلك فقد رأى ابن تيمـية: . . فهذا يقتضى أن شوب الخلافـة بالملك جائز فى شريعتنا، وأن ذلك لا ينافى العدل، وإن كـانت الخلافة المحضـة أفضل[1]، ولن نبتـعد عن الحقـيقـة إذا قلنا إن معـاوية وبعض خلفاء بنى أمـية كـان يودون لو ساروا سـيرة الراشـدين كاملة، ولكنهم كـانوا غيـر قادريـن على ذلك فى تفاعلهم مع أحـوال رعيتهم وظروف عصرهم، وإن ذلك الأفق العـالى والمثل الرفيع الذى قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية والإنسانية كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على السواء، ولكنه كـان أيضًا يستعلى على قدراتهم، فيجـهدون أنفسهم لتحقيقه، ثم يعودون إلى جذبة الواقـع مقرين بصعوبة المحاولة والتجربة[2]، ولقد سأل معـاوية يومًا ولده وولى عهده يزيد: كـيف سيعمل بعـد استخلافـه؟ فقال: أعمل فـيهم عمل عمـر بن الخطاب، فتبسم مـعاوية وقال: والله لقـد جهدت أن أعمل فيهـا عمل عثمان فلم أقدر، أتعمل أنت فيـهم بعمل عمر بن الخطاب؟[3]، ولا يعنى ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة فى عصر الخلفاء الراشدين أمر مستحيل، ولكن لا يأتى به الحاكم وحده وإن صلحت نيتـه، وعظمت عزيمته، بل لا بد من تحقيق ذلك القدر من التوافق والانسجام بين الراعى والرعـية حيث؛ يتعاون الجميع على تحقيق ذلك المجـتمع الطيب، وطريق ذلك طويل وشاق، ويحتـاج إلى أجيال من الدعـاة والحكام الذين يبذلون جـهدهم لتـربية الرعـية علـى كمال الإيـمان، ويعطون القدوة فى ذلك والمثل، ويسـتفرغون فى ذلك وذاك وقتـهم وجهدهم[4]، وقد كان ابن تيمية يعبر عن هذه الحقيقة حين يرى أنه إن ساء الحكم فى مجتمع ما كـان ذلك إلا لنقص فى الراعى والرعيـة[5] معـًا. إن الشورى فى عـهد مـعاوية والدولة الأموية تقلصت عمّا كانت عليه فى عهـد الخلافة الراشدة وبقيت فى عهد معاوية بعض جوانبها، ولم تتقدم كليًا كما يطرح البعض.

---

(١) الفتاوى (٣٥/١٨) . (٢) الدولة الأموية المفترى عليه، ص (٢٧٦).

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٦).

(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٠)، الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧٧).

سادسًا: حرية التعبير فى عهد معاوية رضى الله عنه:

كان معاوية رضى الله عنه يفرق بين المعارضة السلمية والمسلحة، فهو يطلق حرية الكلام والتعبير عن الرأى ما دام ذلك فى حدود التعبير عن الرأى، أما إذا انقلب الأمر إلى حمل السلاح وسلِّ السيوف، فإنه لا يجد مفرًا من مواجهة هذه الثورات كما فعل مع الخوارج، وسيأتى بيان ذلك بإذن الله تعالى، فقد روى عن معاوية أنه قال: إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا(١). وقال عامله على العراق زياد بن أبيه فى خطبته لأهل البصرة: إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السلّ من بغضى لم أكشف له قناعًا، ولم أهتك له سترًا، حتى يبدى لى صفحته، فإذا فعل لم أناظره(٢)، ويقول عن أحد معارضيه: لو علمت أن مخ ساقه قد سال من بغضى ما هجته حتى يخرج على(٣). وإليك الكثير من المواقف التى تدل على حرية التعبير، وحق المعارضة السلمية، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمعاوية، وكيف كان يستقبل تلك الانتقادات.

١ ـ أبو مسلم الخولانى: فقد كان رحمه الله من العلماء الربانيين، وكان ممن لا يجامل ولا يداهن، فقد قام أمام معاوية فوعظه وقال: إياك أن تميل على قبيلة من العرب فيذهب حيفك بعدلك(٤). وكان يذكر معاوية بمسئولياته تجاه رعيته ويحثه على أداء حقوقه، فقد دخل ذات يوم على معاوية فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقال الناس: الأمير. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم فهو أعلم بما يقول. قال أبو مسلم: إنما مثلك مثل رجل استأجر أجيرًا فولاه ماشيته، وجعل له الأجر على أن يحسن الرعية، ويوفر جزازها وألبانها، فإن أحسن رعيتها ووفر جزازها حتى تلحق الصغيرة، وتسمن العجفاء، أعطاه أجره وزاده من قبله زيادة، وإن هو لم يحسن رعيتها وأضاعها حتى تهلك العجفاء وتعجف السمينة، ولم يوفر جزازها وألبانها

(١) ذكر الدكتور خالد الغيث فى كتابه القيم مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨١، ٢٨٢): أن فى إسناد هذه الرواية اجتمعت فيه علتان، الأولى: أن عبد الله بن صالح الجهنى لم يدرك عبد الملك بن عمير، وذلك أن مولد عبد الله بن صالح كان بعد وفاة عبد الملك بن عمير بسنة، والعلة الثانية: تشيع هشام بن سعد، وكراهية الشيعة لبنى أمية أمر معلوم، لذا لا يؤخذ منه فى هذا المقام، لأنه يروى ما يوافق هواه.

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٠٣). (٣) المصدر نفسه، ص (٣٠٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٣)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٢٧٤).

غضب عليه صاحب الأجر. فقال معاوية: ماشاء الله[1]. فانظر كيف حث أبو مسلم الخولانى معاوية رضى الله عنه على الاهتمام بأمر الرعية وحذره من التهاون أو التفريط فى إصلاح شئونهم، وذلك عن طريق ضرب المثل تقريبًا للصورة وتشبيهًا للحال[2]، وهناك موقف عملى آخر لأبى مسلم الخولانى مع معاوية أيضًا، وذلك عندما صعد معاوية المنبر ـ وكان قد حبس العطاء ـ فقام أبو مسلم وقال له: لم حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدك ولا من كد أبيك، ولا كد أمك حتى تحبس العطاء، فغضب معاوية غضبًا شديدًا، ونزل عن المنبر، وقال للناس: مكانكم، وغاب عن أعينهم ساعة ثم عاد إليهم فقال: إن أبا مسلم كلمنى بكلام أغضبنى، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليغتسل» [3] وإنى دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم: إنه ليس من كدى ولا كد أبى، فهلموا إلى أعطياتكم[4].

٢ ـ الفرزدق يهجو معاوية: هجا الفرزدق معاوية وافتخر عليه بنسبه وآبائه، وذلك لغرض شخصى، حيث أعطى معاوية عم الفرزدق الحتات بن يزيد المجاشعى -وكان ضمن وفد أتى معاوية- جائزة أقل من الآخرين، ولما مات الحتات بن يزيد المجاشعى فى الطريق أخذ معاوية تلك الجائزة وردها إلى بيت المال، فقال الفرزدق يخاطب معاوية:

فلو كان هذا الأمر فى جاهلية ... علمت من المرء قليل جلائبه
ولو كان هذا الأمر فى غير ملككم ... لأبديته أو غص بالماء شاربه
وكم من أب لى يا معاوى لم يكن ... أبوك الذى من عبد شمس يقاربه

فما زاد معاوية على أن بعث إلى أهل الحتات بجائزته[5].

وقد ظفر معاوية بتقدير زعماء المسلمين من أبناء الصحابة رغم نقد بعضهم المرير له، وكان كثيرًا ما يقول: إنى لأرفع نفسى أن يكون ذنبٌ أعظم من عفوى،

(١) فضيلة العادلين من الولاة للأصفهانى، ص (٣٠٦).
(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٣٠٦). (٣) سنن أبى داود (٤/ ٢٤٩).
(٤) مقامات العلماء بين يدى الخلفاء والأمراء، ص (٣٠٧)، أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٣٠٧).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٠٤)، تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٩).

وجهلٌ أكثر من حلمى، أو عورة لا أواريها بسترى، أو إساءة أكثر من إحسانى[1].
وكان أحيانًا يتمثل بهذه الأبيات:

تعفو الملوك عن الجليل من الأمور بفضلها
ولقد تعاقب فى اليسير وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف فضلها ويخاف شدة نكلها[2]

٣ ـ أم سنان بنت خيثمة فى مجلس معاوية: كانت أم سنان بنت خيثمة المذحجية من أنصار أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وفى عهد معاوية قدمت على دمشق واستأذنت عليه فأذن لها، فانتسبت له فعرفها، وأمرها بالجلوس، فلما جلست قال لها: مرحبًا يا ابنة خيثمة، ما أقدمك أرضنا وقد عهدتك تبغضين قومى، وتحضّين علىَّ عدوى؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إنّ لبنى عبد مناف أخلاقًا طاهرة، وأعلامًا ظاهرة، وأحلامًا وافرة، لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا يتعقبون بعد عفو، وإنَّ أولى النَّاس باتباع سنن آبائه لأَنْتَ. قال معاوية ـ رضى الله عنه ـ: صدقتِ يا أم سنان، نحن كذلك؛ ثم سادت فترة صَمْت، قطعها بسؤال لأم سنان يذكرها فيها بشعرها وتحريضها عليه، فقال لها: كيف قولك:

عَزبَ الرقاد فمقلتى ما ترقد ... والليل يُصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مُقام فشمّروا ... إن العدوَ لا أحمد يقصد
هذا علىٌّ كالهلال تحفُّهُ ... وسْطَ السماء من الكواكب أسعد
ما زال مُذْ شهد الحروب مظفرًا ... والنّصرُ فوق لوائه ما يُفقد

وكانت أمّ سنان ـ رحمها الله ـ تصغى لما ينشده معاوية من شعرها، ولما انتهى قالت له: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين، وإنَّا لنطمع أن تكون لنا خلفًا بعده، فمثلك جدير بذلك، وقبل أن يتكلم معاوية بكلمة، قال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين، وأنا أحفظ من شعرها خلاف ما تقول لك الآن، فهى القائلة:

إما هلكت أبا الحُسين فلم تزل ... بالحق تُعرف هاديًا مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت ... فوق الغُصون حمامة قمريا

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٣٠٤) تاريخ الطبرى.
(٢) تاريخ الطبرى (٦/٢٥٣).

فــاليـوم لا خــلـف يؤمّل بـعـده		هيــهــات نمدح بـعـده إنْسِـيـا[1]

عندئذ قالت أمُّ سنان وعــلائم الحزم والصِّدقِ ترتسم على وجهــها وهى تعّرضُ بجلسائه: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقــول صدق، ولئن تحقّق فيك، ما ظننّا، فحظُّك الأوفر، والله ما ورّثــك الشَّناءة ـ البغض ـ فى قلوب المسلمين إلا هؤلاء ـ وأشارت إلى بعض جلسائه- فــادحض مقالتهم، وابعد منزلتــهم، فإنك إن فعلت ذلك ازددت من الله عز وجل قربًا ومن المسلمين حبًــا. وتعجب معاوية مما تقول، فقطع عليها مقالتها قــائلاً: وإنّك لتقولين ذلك يا أم سنان؟ قالت: سبحان الله يا أمير المؤمنين، والله مــا مثلك مدح بباطل، ولا اعتــذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا، كان والله علىٌّ ـ رضى الله عنه ـ أحب إلينا منك إذ كان حــيًا، وأنت أحبّ إلينا من غيره إذ أنــت باق. فسألها مـعاوية: وممن أنا أحب إليكم ما دمت باقيًا؟ فقــالت: يا أمير المؤمنين، أنت أحبّ إلينا من مروان بن الحكم وسعــيد بن العاص. قــال: وبم استحقــقت بذلك عليهمــا؟. قالت: بحسن حلمك، وكرم عفوك[2]. وبعد انتهاء الحوار ســألها: ما حاجتك الآن يا أم سنان؟ فسألته حاجتها فى حفيدها بالمدينة أن يفك أسره، فلبى معاوية طلبها، وأكرمها ووصلهــا، وردّها إلى المدينة، وقد قضيت حاجتهــا، وكان لسانها يلهج بالدعاء لمعاوية[3]. هذه أمُّ سنان المذحجيّــة، إحدى نساء عصــر التابعين، وممن فُطرت نفســها على الصَّفاء والصَّــراحة، وأوتيت شطرًا من البلاغة والحكــمة ما جعلهــا فى سجل ناصع يحــكى خلودها وخلود أمثــالها[4]. ولم تكن أم سنان المذحجية وحدها التى كانت تعبر عن رأيها، وتتكلّم بوضوح عن معتقداتها، بل كانت مثيلاتها كــثيرات مثل: الزرقاء بنت عدى[5]، وأم الخير بنت الحريش[6]. لقد كان معاوية رضى الله عنه، يجرّىء الناس على الصدع بمعتقداتهم وآرائهم، ويشجعهم على حرية الرأى والتعبير وحق النقد والمعارضة السلمية.

---

(١) العقد الفريد (١٠٨/٢)، نساء من عصر التابعين، ص (٢٧٥ - ٢٧٨).

(٢) العقد الفــريد (١٠٨/٢)، تاريخ دمشق نقلاً عن نساء من عصــر التابعين، أحمد جــمعة، ص (٢٧٨)، شاعرات العرب، ص (١٧٦ ، ١٧٧).

(٣) نساء من عصر التابعين، ص (٢٨٠)، شاعرات العرب، ص (١٧٦ ، ١٧٧).

(٤) نساء من عصر التابعين، ص (٢٨٠).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٩٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٤٨).

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضى الله عنه

انعقد إجماع الأمة الإسلامية على خلافة معاوية سنة ٤١هـ، فأخذ يعمل بكل ما أوتى من ذكاء وفطنة ودهاء على توطيد دعائم الأمن والاستقرار فى ربوع العالم الإسلامى، فانتهج سياسة داخلية، تقوم على عدة أمور:

المبحث الأول

الإحسان إلى كبار الشخصيات من شيوخ الصحابة وأبنائهم وبخاصة بنو هاشم

فقد خطب مرة فى أهل الحجاز بعد توليه الخلافة فاعتذر عن عدم سلوكه طريقة الخلفاء الراشدين قبله، فقال: وأين مثل هؤلاء؟ ومن يقدر على أعمالهم؟ هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم؟ رحمة الله ورضوان الله عليهم، غير أنى سلكت بها طريقًا لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه فقد جعلته دبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فارضوا منى بعضه.. وإياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، أستغفر الله لى ولكم[1]، وبمثل هذه السيرة سار خليفة المسلمين وانقاد له أبناء المهاجرين والأنصار، وكل من يعتقد أنه أولى منه بالخلافة. كان رضى الله عنه، يهتم بغزو القلوب والإحسان إليها، مع الوعى والحذر الشديدين أن لا تنتقض الأمة عليه، لقد كان يبذل المال بلا حساب لكبار الشخصيات القيادية فى المجتمع، ويعتبر أن عليها مسئوليات ضخمة تجاه رعاياها من أبناء الأمة، فلا بد أن تكون مليئة لتسد الخلّة، وتلبى الحاجة، وتحلّ المعضلة، ولعل أشراف بنى هاشم كانوا فى هذا الصدد أكثر قيادات الأمة إغداقًا عليهم بالمال، فهم لايزالون

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٣٢) .

فى عُرف الناس القيادات الشعبية التى تمثل جـماهير الأمة، وتلجأ الأمة إليهم أكثر مما تلجـأ إلى الولاة والأمراء، وهذه القيـادات لم تشارك فى الحكم ولم تـكن لها رغبة فى ذلك[١].

أولاً : العلاقة بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما بعد الصلح :

كان الحسن بن على يقدم على معاوية فى خلافته، فقدم عليه ذات مرة فقال له معاوية: لأجـيزنك بجائزة ما أجزت بهـا أحدًا قبلك، ولا أجيز بهـا أحدًا بعدك، فأعطاه أربع مائة ألف فقبله[٢]، وجاء فى رواية: . . . أن الحسن بن على كان يفد كل سنة إلى معاوية فيصله بمائة ألف درهم، فقـعد سنة عنه ولم يبعث إليه معاوية بشىء فدعـا بدواة ليكتب إليه، فأغفى قـبل أن يكتب، فرأى النبىﷺ فى منامه كأنه يقول: يا حسن أتكتب لمخلوق تسأله حاجتك وتدع أن تسأل ربك؟ قال: فما أصنع يا رسـول الله وقد كـثـر دينى؟ قال: قل: اللـهم إنى أسألك من كل أمـر ضعفت عنه قـوتى، وحيلتى، ولم تنته إليه رغبتـى، ولم يخطر ببالى، ولم يبلغه أملى، ولم يجر على لسانى من اليقيـن الذى أعطيته أحدًا من المخلوقين الأولين، والمهاجرين الآخرين إلا أخـصصتنى يا أرحم الراحمين. قال الحسن: فـانتبهت وقد حفظت الدعـاء، فكنت أدعو به، فلم يلـبث معاوية أن ذكـرنى فقيـل له: لم يقدم السنة، فأمر له بمائتى ألف درهم[٣]. وجاء فى رواية: بأن الدعاء الذى علمه رسول الله للحسن فى المنام هو: اللهم اقذف فى قلبى رجاك، واقطع رجائى عمّن سواك، لا أرجو أحدًا غيرك، اللهم وما ضعفت عنه قوتى؛ وقصر عنه عملى؛ ولم تنته إليه رغبـتى، ولم تبلغـه مسـألتى، ولم يجر علـى لسانى مما أعطيت أحـدًا من الأولين والآخرين من اليقين فـخصنى به يا رب العالمين. قال: فوالله ما ألـححت به أسبوعًا حتى بعث إلىّ مـعاوية بألف ألف وخمـس مائة ألف، فقلت: الحـمد لله الذى لا ينسى من ذكره، ولا يخيّـب من دعاه، فرأيت النبىﷺ فى المنام فقـال: يا حسن كيف أنت؟ فقلت: بخير يا رسول الله، وحدثته حديثى فقال: يا بُنى هكذا من رجا الخالق ولم يرجُ المخلوق[٤]. وروى الزهرى: . . . لما قتل على بن أبى طالب رضى

---

(١) معاوية بن أبى سفيان للغضبان، ص (٣١٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/٢٦٩).
(٣) تاريخ دمشق (١٤/٨).
(٤) المصدر نفسه (١٤/٨).

الله عنه وجاء الحسن بن على رضى الله عنهما إلى معاوية، فقال له معاوية: لو لم يكن لك فضل على يزيد إلا أن أمك امرأة من قريش وأمه امرأة من كلب لكان لك عليه فضل، فكيف وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ[١].

ثانيًا : صلات معاوية للحسن وابن الزبير رضى الله عنهم :

عن جعفر بن محمد عن أبيه أن الحسن والحسين رضى الله عنهما كانا يقبلان جوائز معاوية رضى الله عنه[٢]، وكان يرسل للحسن والحسين، فقد أمر معاوية مرّة للحسن بن على بمائة ألف فذهب بها إليه فقال لمن حوله: من أخذ شيئًا فهو له، وأمر للحسين بن على بمائة ألف فذهب بها إليه وعنده عشرة، فقسمها عليهم عشرة آلاف، عشرة آلاف. وأمر لعبد الله بمائة ألف[٣]، وكان معاوية رضى الله عنه إذا لقى الحسن بن على رضى الله عنهما قال: مرحبًا بابن رسول الله وأهلاً، ويأمر له بثلاثمائة ألف، ويلقى ابن الزبير رضى الله عنه فيقول: مرحبًا بابن عمة رسول الله وابن حواريه، ويأمر له بمائة ألف[٤]، وقد أشاد ابن الزبير بذكر معاوية بعد وفاته، فقد حدث هشام بن عروة بن الزبير قال: صلى يومًا عبد الله بن الزبير، فوجم بعد الصلاة ساعة، فقال الناس: لقد حدث نفسه ثم التفت إلينا فقال: لا يبعدن ابن هند إن كانت فيه لمخارج لا نجدها فى أحد بعده أبدًا، والله إن كنا لنفرقه ـ أى نخوّفه ـ وما الليث الحرب على براثنه بأجرأ منه فيتفارق لنا، وإن كنا لنخدعه، وما ابن ليلة من أهل الأرض بأدهى منه فيتخادع لنا، والله لوددت أنا متعنا به ما دام فى هذا حجر ـ وأشار إلى أبى قبيس ـ[٥]. وقول ابن الزبير هذا قاله عندما حصر فى عهد عبد الملك بن مروان[٦].

ثالثًا : عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مع معاوية :

كان معاوية يحترمه ويقدره، وكان يفد على معاوية فأكرمه وقرّبه واحترمه وعظّمه، وكان يلقى عليه المسائل المعضلة فيجيب عنها سريعًا، فكان معاوية يقول: ما رأيت أحدًا أحضر جوابًا منه. ولما جاء الكتاب بموت الحسن بن على اتفق كون

(١) الشريعة للآجرى (٥/ ٢٤٧٠)، إسناده حسن.
(٢) الشريعة (٥/ ٢٤٧٠)، إسناده حسن.
(٣) تاريخ دمشق (٦٢/ ١٣٣).
(٤) المصدر نفسه (٦٢/ ١٣٣).
(٥) عيون الأخبار (١/ ١١ ، ١٢).
(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص(١١٥).

ابن عباس عند معاوية فعزّاه فيه بأحسن تعزية، وردّ عليه ابن عباس رداً حسنًا[1]، وبعث معاوية ابنه يزيد فجلس بين يدى ابن عباس وعزّاه بعبارة فصيحة وجيزة شكره عليها ابن عباس[2]، أما تعزية معاوية رضى الله عنه وإجازته لابن عباس، فكما رواها قتادة: ثم قال لابن عباس: لا يسوؤك الله ولا يحزنك فى الحسن بن على، فقال ابن عباس لمعاوية: لا يحزننى الله ولا يسوؤنى ما أبقى الله أمير المؤمنين. قال: فأعطاه ألف ألف درهم، وعروضًا وأشياء وقال: خذها فاقسمها فى أهلك[3]. وكان ابن عباس رضى الله عنه من سادات المجتمع الإسلامى وقائدًا من قاداتها الكبار، وكان معاوية رضى الله عنه يعرف مكانته الاجتماعية والعلمية، فابن عباس كان بمثابة المستشار للشئون العلمية للخليفة، وقد كان معاوية رضى الله عنه يعترف بفضل بنى هاشم على بنى أمية، فقد قيل له: أيكم كان أشرف، أنتم أو بنو هاشم؟ قال: كنا أكثر أشرافًا، وكانوا أشرف واحدًا، لم يكن فى عبد مناف مثل هاشم، فلما هلك كنا أكثر عددًا، وكانوا أكثر أشرافًا وكان فيهم عبد المطلب، ولم يكن فينا مثلهم، فصرنا أكثر عددًا وأكثر أشرافًا ولم يكن فيهم واحد كواحدنا، فلم يكن إلا كقرار العين حتى جاء شىء لم يسمع الأوَّلون بمثله، ولا يسمع الآخرون بمثله، محمد ﷺ[4]. وكان معاوية رضى الله عنه يحذر بنى أمية من الإساءة إلى آل على بن أبى طالب قائلاً: إن الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى. وكان يطلب من خلصاء على رضى الله عنه، وصفه وسرد روائع خصاله وأعماله[5].

رابعًا: هل عمّم معاوية سب أمير المؤمنين علىٍّ على منابر الدولة الأموية ؟

تذكر كتب التاريخ أن الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون على، وهذا الأثر الذى ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا على بن محمد، عن لوط بن يحيى، قال: كان الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون رجلاً رضى الله عنه، فلما ولى هو - عمر بن عبد العزيز - أمسك عن ذلك، فقال كثير عزة الخزاعى:

---

(1) البداية والنهاية (١١/ ٦٤٢).

(2) المصدر نفسه (١١/ ٦٤٢).

(3) المصدر نفسه (١١/ ٤٤٦).

(4) المصدر نفسه (١١/ ٤٤٦)

(5) الدور السياسى للصفوة، ص (١٧٢).

وليت فلـم تشـتـم عليًــا ولم تخف   بـريًا ولـــم تتبـع مـــقـالة مـــجـرم
تكـلمـت بالحـــق المبـــــين وإنمـــا   تبــــين آيـــات الهـــدى بالتــكلم
فـــصـــدَّقت مـــعـروف الـــذى قلت   بالذى فعلت فأضحى راضيًا كل مسلم(١)

فهذا الأثر واهٍ، فعلى بن محمد هو المدائنى فيه ضعف وشيخه لوط بن يحيى، واهٍ، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقـة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطنى: إخبارى ضعـيف ووصفـه فى الميزان: إخبـارى تالف لا يوثق به(٢)، وعامة روايته عن الضـعفاء والهلكى والمجاهيل(٣)، وقد اتهم الشيعة معاوية رضى الله عنه بحمل الناس على سب علـى ولعنه فوق منابر المساجد، فـهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذى يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعـها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتـأخرين من المُسلَّمات التى لا مجال لمناقشتها، ولم تثبـت قط فى رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء فى كتب الدميرى، واليعقوبى وأبى الفرج الأصـفهانى، علمًا بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف مـا ذكره هؤلاء(٤)، من احتـرام وتقدير مـعاوية لأميـر المؤمنين على وأهل بيـته الأطهـار، فـحكاية لعن علىٍّ على منابـر بنى أميـة لا تـتـفق مع منطق الحوادث، ولا طبيعة المتخاصميـن، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبنى أميـة، فإننا لا نجد فـيها ذكرًا لـشىء من ذلك أبدًا، وإنما نجده فى كتب المتـأخرين الذين كتبوا تاريخهم فى عـصر بنى العباس، بقصد أن يسيؤا إلى سـمعة بنى أمية فى نظر الجمهور الإسلامى، وقد كتب ذلك المسعودى فى مروج الذهب وغيره من كتَّـاب الشيعة، وقـد تسربت تلك الأكذوبة إلى كـتب تاريخ أهل السنة ولا يوجد فيها رواية صحيـحة صريحة، فهذه دعوة مفتقـرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجـرح، والمتن من الاعـتـراض، ومـعلوم وزن هذه الدعـوة عند المحـقـقـين والباحثين، ومعاوية، رضى الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله فى الدين، وكان مـحمود السيـرة فى الأمة، أثنى عليه بعض الصـحابة ومدحه خـيار

(١) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٧) .
(٢) الميزان (٣/٤١٩) .
(٣) دفاعاً عن السلفية، ص (١٨٧).
(٤) الحسن والحسين، محمد رضا، ص (١٨)، كلام المحقق د. أحمد أبو الشباب .

التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير[1]. وقد ثبت هذا فى حق معاوية - رضى الله عنه -، كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن على رضى الله عنه على المنابر، وهو من هو فى الفضل، ومن علم سيرة معاوية - رضى الله عنه- فى الملك، وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية - رضى الله عنه- فى الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال[2]، وقد فصلّنا فى صفة الحلم فى شخصية معاوية فيما مضى.

وأما ما استدل به الشيعة على تلك الفرية من صحيح مسلم فليس ما يدل على زعمهم، فعن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبى سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ذكرت ثلاثًا قالهن له رسول الله ﷺ، فلن أسبه، لأن تكون لى واحدة منهنّ أحب إلىّ من حمر النعم[3]، قال النووى: قول معاوية هذا ليس فيه تصريح بأنه أمر سعداً بسبه، وإنما سأله عن السبب المانع له من السب. كأنه يقول: هل امتنعت تورعًا أو خوفًا، أو غير ذلك، فإن كان تورعًا وإجلالاً له عن السب، فأنت مصيب محسن، ولعل سعد رضى الله عنه وقد كان فى طائفة يسبون، فلم يسب معهم، وعجز عن الإنكار أن أنكر عليهم، فسأله هذا السؤال، قالوا: ويحتمل تأويلاً آخر أن معناه: ما منعك أن تخطئه فى رأيه واجتهاده وتظهر للناس حسن رأينا واجتهادنا وأنه أخطأ[4]، وقال أبو العباس القرطبى صاحب المفهم -معلقًا على وصف ضرار الصُّدائى لعلى رضى الله عنه وثنائه عليه بحضور معاوية، وبكاء معاوية من ذلك وتصديقه لضرار فيما قال-: وهذا الحديث يدل على معرفة معاوية بفضل على رضى الله عنه ومنزلته، وعظيم حقه ومكانته، وعند ذلك يبعد عن معاوية أن يصرح بلعنه وسبّه، لما كان معاوية موصوفًا به من العقل والدين، والحلم وكرم الأخلاق، وما يروى عنه من ذلك فأكثره كذب لا يصح، وأصح ما فيها قوله لسعد بن أبى وقاص: ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟ وهذا ليس

(١) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٦٧) للرحيلى .

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب، ص (٣٥٣).

(٣) مسلم، ك: فضائل الصحابة (٤/ ١٨٧١).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٧٥) .

بالتصريح بالسب، وإنما هو سؤال عن سبب امتناعه ليستخرج من عنده من ذلك، أو من نقيضه، كما قد ظهر من جوابه، ولما سمع ذلك معاوية، سكن وأذعن، وعرف الحق لمستحقه[1]، قال الدكتور الرحيلي في كتابه الصحب والآل: والذي يظهر لي في هذا - والله أعلم -: أن معاوية إنما قال ذلك على سبيل المداعبة لسعد، وأراد من ذلك استظهار بعض فضائل علي ـ رضي الله عنه ـ فإن معاوية ـ رضي الله عنه ـ كان رجلاً فطنًا ذكيًا، يحب مطارحة الرجال واستخراج ما عندهم، فأراد أن يعرف ما عند سعد في علي ـ رضي الله عنه ـ فألقى سؤاله بهذا الأسلوب المثير. وهذا مثل قوله ـ رضي الله عنه ـ لابن عباس: أنت على ملة علي؟ فقال له ابن عباس: ولا على ملة عثمان، أنا على ملة رسول الله ﷺ[2]. فظاهر أن قول معاوية هنا لابن عباس جاء على سبيل المداعبة، فكذلك قوله لسعد هو من هذا الباب، وأما ما ادّعى الشيعة من الأمر بالسب فحاشا معاوية رضي الله عنه أن يصدر منه مثل ذلك[3]، والمانع من هذا عدة أمور:

١ـ أن معاوية - رضي الله عنه - ما كان يسب عليًا ـ رضي الله عنه ـ كما تقدم حتى يأمر غيره بسبه، بل كان معظمًا له، معترفًا له بالفضل والسبق إلى الإسلام، كما دلت على ذلك أقواله الثابتة عنه، فقد قال ابن كثير: وقد ورد من غير وجه: أن أبا مسلم الخولاني وجماعة معه دخلوا على معاوية فقالوا له: هل تنازع عليًا أم أنت مثله؟ فقال: والله إني لأعلم أنه خير مني وأفضل، وأحق بالأمر مني[4]، وعن جرير بن عبد الحميد عن المغيرة قال: لما جاء خبر قتل علي إلى معاوية جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم[5]، فهل يسوغ في عقل ودين أن يسب معاوية عليًا بل ويحمل الناس على سبه وهو يعتقد فيه هذا؟[6].

٢ـ أنه لا يعرف بنقل صحيح عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ تعرض لعلي رضي الله عنه ـ بسب أو شتم أثناء حربه له في حياته، فهل من المعقول أن يسبه بعد

(١) المفهم للقرطبي (٦/ ٢٧٨).

(٢) الإبانة (١/ ٣٥٥)، شرح أصول اعتقاد اللالكائي (١/ ٩٤).

(٣) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٧٥).

(٤) البداية والنهاية (٨/ ١٣٣).

(٥) المصدر نفسه (٨/ ١٣٣).

(٦) الانتصار للصحب والآل ص (٣٧٦).

انتهاء حربه معه ووفاته، فهذا من أبعد ما يكون عند أهل العقول، وأبعد منه أن يحمل الناس على سبه وشتمه.

٣ ـ أن معاوية رضى الله عنه كان رجلاً ذكيًا مشهورًا بالعقل والدهاء، فلو أراد حمل الناس على سب على ـ حاشاه ذلك ـ أفكان يطلب ذلك من مثل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، وهو من هو فى الشجاعة والفضل والورع، مع عدم دخوله فى الفتنة أصلاً، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلاً وتدبيرًا، فكيف بمعاوية.

٤ ـ أن معاوية ـ رضى الله عنه ـ انفرد بالخلافة بعد تنازل الحسن بن على رضى الله عنهما له، واجتمعت عليه الكلمة، ودانت له الأمصار بالملك، فأى نفع له فى سب على؟ بل الحكمة وحسن السياسة تقتضى عدم ذلك، لما فيه من تهدئة النفوس، وتسكين الأمور، ومثل هذا لا يخفى على معاوية.

٥ ـ إنه كان بين معاوية ـ رضى الله عنه ـ بعد استقلاله بالخلافة وأبناء على من الألفة والتقارب، ما هو مشهور فى كتب السير والتاريخ[١]، ومن ذلك أن الحسن والحسين وفدا على معاوية فأجازهما بمائتى ألف. وقال لهما: ما أجاز بهما أحد قبلى فقال له الحسين رضى الله عنه: ولم تعط أحدًا أفضل منا[٢]، ودخل مرة الحسن على معاوية فقال له: مرحبًا وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، وأمر له بثلاثمائة ألف[٣]. وهذا مما يقطع الكذب مما يدَّعى فى حق معاوية من حمله الناس على سب على، إذ كيف يحصل هذا مع ما بينه وبين أولاده من هذه الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم، وبهذا يظهر الحق فى هذه المسألة، وتتجلى الحقيقة[٤]، كما أن المجتمع فى عمومه مقيد بأحكام الشرع حريص على تنفيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذىء[٥]، وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات المشركين، فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فعن عائشة رضى الله عنها ـ مرفوعًا: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[٦].

(١) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٧٦).
(٢) البداية والنهاية (٨/ ١٣٩).
(٣) البداية والنهاية (٨/ ١٤٠).
(٤) الانتصار للصحب والآل، ص (٣٧٧).
(٥) صحيح ابن حبان رقم (٤٧)، صححه الألبانى فى الصحيحة رقم (٣٢٠).
(٦) البخارى رقم (٦٥١٦).

خامسًا: معاوية وسمُّ الحسن بن على؟

ذكرت بعض الروايات أن الحسن بن على تُوفى متأثرًا بالسم الذى وضع له، وقد اتجهت أصابع الاتهام نحو زوجة الحسن جعدة بنت الأشعث بن قيس أمير كندة، فهذه أم موسى سرية على تتهم جعدة بأنها دست السم للحسن، فاشتكى منه شكاة، فكان يوضع تحته طست(١)، وترفع أخرى، نحوًا من أربعين يومًا(٢)، وهذه رواية إسنادها لا يصح وهى ضعيفة(٣)، وحاول البعض من الإخباريين والرواة أن يوجد علاقة بين البيعة ليزيد ووفاة الحسن، وزعموا أن يزيد بن معاوية أرسل إلى جعدة بنت قيس أن سُمى حسنًا فإنى سأتزوجك، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت جعدة إلى يزيد تسأله الوفاء، فقال: إنا والله لم نرضك له أفنرضاك لأنفسنا؟(٤)، وفى سندها يزيد بن عياض بن جعدية، كذبه مالك وغيره(٥)، وقد وردت هذه الروايات فى كتب أهل السنة بدون تمحيص، مع العلم أن أسانيد تلك الروايات أسانيدها ضعيفة(٦).

١ ـ قال ابن العربى: فإن قيل: دس على الحسن من سمَّه، قلنا: هذا محال من وجهين: أحدهما: أنه ما كان ليُتقى من الحسن بأس وقد سلَّم الأمر، الثانى: أنه أمر مغيب لا يعلمه إلا الله، فكيف تحملونه بغير بيِّنة على أحد من خلقه فى زمن متباعد، ولم نثق فيه بنقل ناقل، بين أيدى قوم ذوى أهواء، وفى حال فتنة وعصبية، ينسب كل واحد إلى صاحبه ما لا ينبغى، فلا يقبل منها إلا الصافى، ولا يسمع فيها إلا من العدل الصميم(٧).

٢ ـ وقال ابن تيمية: وأما قوله: معاوية سمّ الحسن، فهذا مما ذكره بعض الناس، ولم يثبت ذلك ببينة شرعية، أو إقرار معتبر، ولا نقل يجزم به، وهذا مما لا يمكن العلم به، فالقول به قول بلا علم(٨). وقد جاء عن ابن تيمية فى رده عن اتهام معاوية بسمّ الحسن وأنه أمر الأشعث بن قيس بتنفيذ هذه الجريمة، وكانت ابنته

---

(١) طست : إناء معلوم .

(٢) الطبقات، تحقيق السُّلمى (١/٣٣٨)، إسناده ضعيف .

(٣) المصدر نفسه (١/٣٣٨) .

(٤) تهذيب الكمال (٦/٤٥٣) .

(٥) تقريب التهذيب، ص (٦٠٤) .

(٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٩٣) .

(٧) العواصم من القواصم، ص (٢٢٠، ٢٢١).

(٨) منهاج السنة النبوية (٤/٤٦٩) .

تحت الحسن، حيث قال: وإذا قيل إن معاوية أمر أباها كان هذا ظنًا محضًا، والنبى ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». ثم إن الأشعث بن قيس مات سنة أربعين وقيل سنة إحدى وأربعين، ولهذا لم يذكر فى الصلح الذى كان بين معاوية والحسن بن على، فلو كان شاهدًا لكان يكون له ذكر فى ذلك، وإذا كان قد مات قبل الحسن بنحو عشر سنين فكيف يكون هو الذى أمر بنته[1]. وهذا يدل على قدرة ابن تيمية على النقد العلمى القوى للروايات التاريخية.

٣ ـ وقال الذهبى: قلت: هذا شئ لا يصح فمن الذى اطلع عليه[2].

٤ ـ وقال ابن كثير: روى بعضهم أن يزيد بن معاوية بعث إلى جعدة بنت الأشعث أن سُمِّى الحسن وأنا أتزوجك بعده، ففعلت، فلما مات الحسن بعثت إليه فقال: إنا والله لم نرضك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا؟ وعندى أن هذا ليس بصحيح، وعدم صحته عن أبيه معاوية بطريق الأولى والأحرى[3].

٥ ـ وقال ابن خلدون: وما نقل من أن معاوية دس إليه السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث، فهو من أحاديث الشيعة، حاشا لمعاوية من ذلك[4].

٦ ـ د. جميل المصرى: وقد علق على هذه القضية بقوله: . . . ثم حدث افتعال قضية سم الحسن من قبل معاوية أو يزيد. . ويبدو أن افتعال هذه القضية لم يكن شائعًا آنذاك، لأننا لا نلمس[5] لها أثرًا فى قضية قيام الحسن، أو حتى عتابًا من الحسين لمعاوية. وبالنسبة لسم الحسن رضى الله عنه، فنحن لا ننكر هذا، فإذا ثبت أنه مات مسمومًا فهذه شهادة له وكرامة فى حقه[6]، وأما اتهام معاوية وابنه فهذا لا يثبت من حيث السند، كما مر معنا، ومن حيث المتن، وهل جعدة بنت الأشعث بن قيس بحاجة إلى شرف أو مال ـ كما تذكر الروايات ـحتى تسارع لتنفيذ هذه الرغبة من يزيد، وبالتالى تكون زوجة له، أليست جعدة ابنة أمير قبيلة

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال، ص (٢٦٦).

(٢) تاريخ الإسلام ، عهد معاوية، ص (٤٠)، اتهامات لا تثبت سليمان بن صالح الخراشى، ص (١٧٤).

(٣) البداية والنهاية (٨/٤٣) .

(٤) تاريخ ابن خلدون (٢/٥٢٧) .

(٥) أثر أهل الكتاب فى الفتن والحروب الأهلية، ص (٤٨٢)، مرويات خلافة معاوية، ص (٣٩٥).

(٦) منهاج السنة (٤/٤٢).

كندة كافة، وهو الأشعث بن قيس، ثم أليس زوجها وهو الحسن بن على أفضل الناس شرفًا ورفعة بلا منازعة، إن أمه فاطمة رضى الله عنها، وجده رسول الله ﷺ وكفى به فخرًا، وأبوه على بن أبى طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة ورابع الخلفاء الراشدين، إذًا ما هو الشىء الذى تسعى إليه جعدة وتحصل عليه حتى تنفذ هذا العمل الخطير؟[1]. إن هناك الكثير الذين هم أعداء للوحدة الإسلامية، وزادهم غيظًا وحنقًا ما قام به الحسن بن على، كان اقتناعهم قويًا بأن وجوده حيًا صمام أمان للأمة الإسلامية، فهو إمام ألفتها وزعيم وحدتها بدون منافس، وبالتالى حتى تضطرب الأحداث وتعود الفتن إلى ما كانت عليه فلا بد من تصفيته وإزالته، فالمتهم الأول فى نظرى هم السبئية أتباع عبد الله بن سبأ، الذين وجه لهم الحسن صفعة قوية عندما تنازل لمعاوية ووضع حدًا للصراع، ثم الخوارج الذين قتلوا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وهم الذين طعنوه فى فخذه، فربما أرادوا الانتقام من قتلاهم فى النهروان وغيرها[2].

سادسًا: موقف معاوية من قتلة عثمان رضى الله عنهما:

كان من ضمن شروط الحسن فى صلحه مع معاوية ألا يطلب أحدًا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشىء[3]، والذى يلاحظه المؤرخ أنه من ذلك الوقت تُرك الطلب بدم عثمان[4]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشىء كان فى أيام على، وهى قاعدة بالغة الأهمية تحول دون الالتفات إلى الماضى، وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[5]، وقد تمّ التوافق المبنى على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق عن كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية أحدًا بذنب سابق، وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وقد تمّ بسط الأمن وحفظ الدماء فى عهد معاوية إلى حد كبير[6]. وجاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة: إن معاوية بن أبى

---

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية، ص (١٢٣).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٢٤).
(٣) التبيين فى أنساب القرشيين، ص (١٢٧).
(٤) الخلفاء الراشدون للنجار، ص (٤٨٢).
(٥) الدور السياسى للصفوة فى صدر الإسلام، ص (٣٤١).
(٦) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على، ص (٣٤٩).

سفيان لما قدم بعـد عام الجماعة المدينة دخل دار عثمان بن عفـان، فصاحت عائشة بنت عثـمان بن عفـان وبكت ونادت أباها، فقال مـعاوية: يا ابنة أخى، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أمانًا، وأظهرنا لهم حلمًـا تحته غضب، وأظهروا لنا ذلاً تحته حـقد، ومع كل إنسان سيـفه ويرى موضع أصحابه، فـإن نكثناهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا، لأن تكونى ابنة عم أميـر المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض الناس[(١)]. والذى يعتد به من كـلام ابن قتيبة ما جـاء عن العهود والمواثيق التى أبرمت بـين معـاوية والحـسن وقضت بالـصلح بين الناس، ووضع الحـرب وحقن الدمـاء، وعدم تهـييج الـنفوس، وإضـافة إلى ذلك فـإن السنوات الخمس التى احتضـنت المعارك فى الجمل وصفين والنهروان ومـصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت أسماؤهم بتهمة قتل عثمان، ومع ذلك فإن مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة فى ذهن الخلفاء من بنى أميـة ونوابهم فى الأغلب، وأما انتصار بنى أمية لعثمان فكان حقيقة لا شبهة فيها[(٢)].

سابعًا: مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه:

تحدثت معظم المصادر فى مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه، ومن هذه المصادر: ابن سعد[(٣)]، وخليفة بن خياط[(٤)] باختصـار شديد، والبلاذرى[(٥)]، واليعقوبى[(٦)]، والمسعودى[(٧)]، وأبو الفرج الأصفهانى[(٨)] مطولاً، وابن الجوزى[(٩)]، وابن الأثير[(١٠)] مطولاً، والذهبى[(١١)]، وابن كثير[(١٢)]، وقد اعتـمد الطبرى فى خبر حـجر بن عدى وأصحابه على أبى مخنف المؤرخ الشيعى المشهـور، والذى ليس بثقة ولا يعتمد عليه عند علماء المسلمين من أهل السنة، فقد نقل الطبرى عنه ست عشرة رواية، وعمومًا فإن خبر مقـتل حجر بن عدى ورد فى مصادر متعددة، ولم تنفـرد الروايات الشيعية

---

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٩)، السلطان لابن قتيبة، ص (٥٨).

(٢) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٧٠).

(٣) الطبقات (٦/ ٢١٧) تحقيق إحسان عباس.

(٤) التاريخ، ص (٢١٣).

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٤٢).

(٦) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٣٠).

(٧) مروج الذهب (٣/ ١٢).

(٨) الأغانى (١٧/ ١٣٣).

(٩) المنتظم (٥/ ٢٤١).

(١٠) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٨).

(١١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٢).

(١٢) البداية والنهاية (١١/ ٢٢٧).

بسوق خبره، ولكن رواية أبى مخنف الساقط الاعتبار عند علماء أهل الجرح والتعديل أشارت إلى أن معاوية أوصى المغيرة بن شعبة بشتم على وذمه، لذلك كان المغيرة لا يترك ذمّ على فى خطبته طوال فترة ولايته على الكوفة، ونص خطبته التى أغضبت حجر بن عدى كما أوردها أبو مخنف: اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه، وأجزه بأحسن عمله، فإنه عمل بكتابك، واتبع سنة نبيك ﷺ، وجمع كلمتنا وحقن دماءنا، وقُتل مظلومًا، اللهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيه والطالبين بدمه، ويدعو على قتلته[1]، وكما نلاحظ من نص الخطبة أنه لم يرد فيها ذمُّ على، ومع ذلك فإن الرواية تشير أنّ هذه الخطبة تضمنت ذلك إلا إذا تأولت لعنه لقتلة عثمان بأنه ذم لعلى[2]، وبراءة على من دم عثمان يعرفها القاصى والدانى وقد أثبتها فى كتبى عن عثمان وعلى والحسن رضى الله عنهم جميعًا. ومهما يكن من أمر فإن الباحث فى مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه، يلاحظ أن موقف حجر من أمير المؤمنين معاوية قد مرّ بمرحلتين:

- المرحلة الأولى: مرحلة المعارضة القولية (٤١ ـ ٥٠هـ):

كان حجر بن عدى الكندى، أبو عبد الرحمن الشهيد، له صحبة ووفادة، وفد مع أخيه هانئ بن الأدبر، ولا رواية له عن النبى ﷺ، وسمع من على وعمار[3]، وكان شريفًا، أميرًا مطاعًا، أمَّارًا بالمعروف، مقدامًا على الإنكار، من شيعة على رضى الله عنهما، شهد صفين أميرًا، وكان ذا صلاح وتعبد[4]، وكان رضى الله عنه من المعارضين للصلح الذى قام بين الحسن ومعاوية رضى الله عنهما، غير أن هذه المعارضة لم يترتب عليها فى هذه المرحلة أى فعل، بل اقتصرت على الأقوال فقط[5]، وفى ذلك يقول البلاذرى: . . . لم يزل حجر بن عدى منكرًا على الحسن ابن على بن أبى طالب صلحه لمعاوية، فكان يعذله على ذلك ويقول: تركت القتال ومعك أربعون ألفًا ذوو نيات، وبصائر فى قتال عدوك، ثم كان بعد ذلك يذكر معاوية فيعيبه، ويُظلِّمه[6]، فكان هذا هجيراه، وعادته[7].

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٨، ١٦٩) .

(٢) أثر التشيع على الروايات، ص (٣٦٨ - ٣٧٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٢) .

(٤) المصدر نفسه (٣/ ٤٦٣) .

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٢٢) .

(٦) أى: ينسبه للظلم .

(٧) هجيراه: دأبه وشأنه، القاموس المحيط، ص (٦٣٧) .

- المرحلة الثانية : مرحلة المعارضة الفعلية:

هذه المرحلة بدأت فى سنة ٥١هـ حيث حصل فى هذه السنة تدهور مفاجئ فى علاقة حجر بن عدى مع زياد بن أبيه والى العـراق، وقد ذكرت المصادر سببين فى سبب تدهور هذه العلاقة:

أ ـ ما ذكر من إقدام المغيرة بن شعبة على الثناء على عثمان والترحم عليه، وذم على بن أبى طالب، وإقدام حـجر بن عدى علـى مدح على بن أبى طالب، وذم عثمان بن عفان، وسكوت المغيرة عن حجـر بن عدى، فلما مات المغيرة بن شعبة وتولى زياد بن أبيه، قال زياد فى عـثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب مـثلما كان يقول المغيرة، فقام حجر بن عدى وقال فيهما مثلما كان يقول للمغيرة، فكان ذلك سبب ابتداء المواجهة بين حجر وزياد(١).

ب ـ ما ذُكر من إطالة زياد الخطبـة، وتأخير الصلاة، وقيـام حجر بإنكار ذلك على زياد، فكان هذا سبب ابتداء المواجـهة بينهما(٢)، وهذان السببان يكدرهما ما يلى: .

ـ أن سيـاسة المغيـرة رضى الله عنه مع أهل الكوفة اتسـمت بالعفـو والصفح، وليس بإثارة الأحقاد والإحن، والحجة فى ذلك ما أخرجه البخارى من طريق زياد ابن علاقة قـال: سمعت جرير بـن عبد الله يقول يوم مـات المغيرة بن شعـبة قام فـحمـد الله وأثنى عليـه وقال: عليكم باتقـاء الله وحـده لا شريك له، والوقـار والسكينة حتى يأتيكم أميـر، فإنما يأتيكم الآن، ثم قال: استغفـروا لأميركم، فإنه كان يحب العـفو(٣). ثم قال: أما بعـد فإنى أتيت النبى ﷺ قلت: أبايعك على الإسلام، فشرط علىّ النصح لكل مسلم. فبايعته على هذا، ورب هذا المسجد إنى لناصح لكم(٤)، ثم استغفر ونزل(٥).

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٩) .
(٢) المصدر نفسه (٥/ ١٦٩) .
(٣) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٢٤) .
(٤) إشارة إلى أنه وفى بما بايع عليه رسول الله ﷺ، وكان صادقًا فى نصحه .
(٥) البخارى، صحيح البخارى مع الفتح (١/ ١٦٨) .

ـ أن ضم الكوفة إلى زياد كان فى سنة ٤٩هـ، وهو ما صرح به فيل مولى زياد حيث قال: ملك زياد العراق خمس سنين، ثم مات سنة ثلاث وخمسين، وهذه الرواية التى تحدد تاريخ ضم الكوفة إلى زياد بن أبيه تعد أصح ما فى الباب وحيث إن ولاية زياد على الكوفة كانت سنة ٤٩هـ، ولم يحدث الصدام بين حجر وأنصاره وزياد والى الكوفة لأن الحسن بن على رضى الله عنه مازال حيًا، ووجوده كان كفيلاً بردع تحركات المعارضين للصلح من أنصاره لأنه رضى الله عنه اشترط عليهم أن يحاربوا من حارب، ويسالموا من سالم، ولكن بعد وفاة الحسن رضى الله عنه عام ٥١هـ(١).

تغير موقف بعض قيادات أهل العراق ومنهم حجر بن عدى من المعارضة القولية إلى الفعلية، فقد روى البلاذرى بإسناده إلى الشعبى، وغيره، قالوا: لما قدم زياد الكوفة ـ عام ٤٩هـ ـ بعث إلى حجر فقال: يا هذا، كنا على ما علمت، وقد جاء أمر غير ذلك، أمسك عليك لسانك، وليسعك منزلك، وهذا سريرى فهو مجلسك، فإياك أن تستنزلك السفلة أو تستفزك، إنى لو استخففت بحقك هان علىَّ أمرك، ولم أكلمك من كلامى هذا بحرف، فلما صار إلى منزله اجتمعت إليه الشيعة فقالوا: أنت شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا الأمر(٢)، فلما شخص زياد إلى البصرة استخلف عمرو بن حريث على الصلاة والحرب، ومهران مولاه على الخراج، وأمر العمال بمكاتبة عمرو. . فكتب عمرو إلى زياد: إن كانت لك بالكوفة حاجة فالعَجَل، فإنى كتبت إليك وليس فى يدى منها مع حجر إلا القصر، فأخذ السير حتى قدم الكوفة، فبعث إلى عدى بن حاتم الطائى، وجرير بن عبد الله البجلى. . . فقال: ائتوا هذا الشيخ المفتون، فإنى خائف أن يحملنا من أمره على ما ليس من شأننا فأتوه. . وكلمه القوم، فلم يكلم منهم أحدًا، فأتوا زيادًا فقال: مهيم؟(٣) فقال عدى: أيها الأمير، استذمه(٤)، فإن له سنًا، فقال: لست لأبى سفيان إذًا، ثم أرسل إليه الشُّرَط فقوتلوا(٥)، وجاء فى رواية أخرى: لما

(١) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٢٥).

(٢) المصدرنفسه، ص (٤٢٨)، أنساب الأشراف (٤/ ٢٤٦) .

(٣) مهيم: كلمة استفهام ، أى ما وراءك؟

(٤) استذمه : لا تخفر ذمته .

(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٤٦ ، ٢٤٧) .

قدم زياد الكوفة أميرًا[١] أكرم حجر بن الأدبر[٢]، وأدناه، وشفَّعَه، فلما أراد الانحدار إلى البصرة[٣] دعاه فقال له: يا حجر إنك قد رأيت ما صنعت بك، وإنى أريد البصرة، فأحب أن تشخص معى، فإنى أكره أن تتخلف بعدى، فعسى أن أبلَّغ عنك شيئًا فيقع فى نفسى، وإذا كنت معى لم يقع فى نفسى منك شىء، فقد علمت رأيك فى على بن أبى طالب، وقد كان رأيى فيه قبلك على مثل ذلك، فلما رأيت الله صرف الأمر إلى معاوية، لم اتهم قضاء الله ورضيت به، وقد رأيت إلى ما صار أمر على وأصحابه، وإنى أحذرك أن تركب أعجاز أمور هلك من ركب صدورها[٤]. والمقصود من كلام زياد أنه كان من خواص على رضى الله عنه، ولما رأى تنازل الحسن لمعاوية وإجماع الأمة عليه دخل فى الجماعة وحرص على وحدة الصف وحذر من الفتن، فقال له حجر: إنى مريض ولا أستطيع الشخوص. قال: صدقت، والله إنك لمريض الدين والقلب، مريض العقل، وايم الله لئن بلغنى عنك شىء أكرهه لأحرِضنَّ على قتلك، فانظر أو دع، فخرج زياد فلحق بالبصرة، واجتمع إلى حجر قُرّاء أهل الكوفة، فجعل لا ينفذ لعامل زياد معهم أمر، ولا يريد شيئًا إلا منعوه إياه، فكتب إلى زياد: إنى والله ما أنا فى شىء مع حجر وأصحابه، وأنت أعلم، فركب زياد بغاله حتى اقتحم الكوفة، فلما قدمها تغيب حجر، فجعل يطلبه فلا يقدر عليه[٥]. أما تفاصيل المواجهة بين شرطة زياد وحجر بن عدى وأنصاره، فقد انفرد أبو مخنف من بين المصادر التى وقفت عليها بإيراد تفاصيلها[٦]، كذلك انفرد أبو مخنف بإيراد تفاصيل مهمة عن شهادة أهل الكوفة على حجر وأصحابه[٧].

١ ـ قضاء معاوية رضى الله عنه فى حجر رضى الله عنه وأصحابه:

نظرًا لخطورة قضية حجر بن عدى وحساسيتها، فقد وافق زياد بن أبيه على شرط حجر بن عدى عند استسلامه، وهذا الشرط هو إحالة قضية حجر ومن معه

(١) وذلك سنة ٤٩هـ .
(٢) الأدبر : لقب عدى والد حجر .
(٣) وذلك سنة ٥١هـ .
(٤) هذا تحذير من زياد لحجر يدل على رغبته على حسم مادة الفتنة، ولذلك حرص على أخذ أصحابه معه إلى البصرة.
(٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٧٠ ، ٢٧١) .
(٦) تاريخ الطبرى (٦/١٧٧- ١٨٣) .
(٧) المصدر نفسه (٦/ ١٨٤- ١٨٦) .

إلى معاوية ليحكم فيها[1]، وقبل الحديث عن حكم معاوية في حجر وأصحابه، ينبغي التذكير بالتهم الموجهة إليهم، وهذه التهم كما وردت عن أبي مخنف هي: . . . إن حجراً جمع إليه الجموع، وأظهر شتم الخليفة، ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، ووثب بالمصر، وأخرج عامل أمير المؤمنين، وأظهر عذر أبي تراب[2]، والترحم عليه، والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رءوس أصحابه، وعلى مثل رأيه وأمره[3]، أما قضاء معاوية رضي الله عنه في حجر رضي الله عنه، وأصحابه فإنه لم يقتلهم على الفور، ولم يطلب منهم البراءة من على رضي الله عنه كما تزعم بعض الروايات[4]، بل استخار الله سبحانه وتعالى فيهم، واستشار أهل مشورته، ثم كان حكمه فيهم أن قتل بعضهم، واستحيى بعضهم، والحجة في ذلك ما يرويه صالح بن أحمد بن حنبل[5] بإسناد حسن قال: حدثني أبي[6]، قال: حدثنا أبو المغيرة[7]، قال: حدثنا ابن عياش[8]، قال: حدثني شرحبيل بن مسلم[9]، قال: لما بُعث بحجر بن عدى بن الأدبر وأصحابه من العراق إلى معاوية ابن أبي سفيان، استشار الناس في قتلهم، فمنهم المشير، ومنهم الساكت، فدخل معاوية منزله، فلما صلى الظهر قام في الناس خطيباً، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم جلس على منبره، فقام المنادى، فنادى: أين عمرو بن الأسود العنسى[10]، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا إنا بحصن من الله حصين لم نؤمر بتركه، وقولك يا أمير المؤمنين في أهل العراق ألا وأنت الراعي ونحن الرعية، ألا وأنت أعلمنا بدائهم وأقدرنا على دوائهم، وإنما علينا أن نقول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٨٧ ، ١٨٨) .

(٢) المقصود به على بن أبى طالب رضى الله عنه، وهى كنيته.

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٨٨) .

(٤) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٣٠).

(٥) قال عنه الذهبى: صدوق ثقة، السير (١٢/ ٥٢٩).

(٦) أحمد بن محمد بن حنبل ، ثقة، حافظ، فقيه، حجة .

(٧) عبد القدوس بن الحجاج الخولانى.

(٨) إسماعيل بن عياش العنسى ، الحمصى ، صدوق .

(٩) شرحبيل بن مسلم الخولانى ، الشامى ، من شيوخ الشام .

(١٠) مخضرم ، ثقة عابد ، من كبار التابعين، مات فى خلافة معاوية .

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فقال معاوية: أما عمرو بن الأسود فقد تبرأ إلينا من دمائهم، ورمى بها ما بين عينى معاوية. ثم قام المنادى فنادى: أين أبو مسلم الخولانى، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فلا والله ما أبغضناك منذ أحببناك، ولا عصيناك منذ أطعناك، ولا فارقناك منذ جامعناك، ولا نكثنا بيعتنا منذ بايعناك، على عواتقنا إن أمرتنا أطعناك، وإن دعوتنا أجبناك، وإن سبقناك نظرناك، ثم جلس. ثم قام المنادى فقال: أين عبد الله بن مِخْمَر الشرعبى؟[1]، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: وقولك يا أمير المؤمنين فى هذه العصابة من أهل العراق، إن تعاقبهم فقد أصبت، وإن تعفُ فقد أحسنت، فقام المنادى فنادى: أين عبد الله بن أسد القسرى؟ فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، رعيتك، وأهل طاعتك، إن تعاقبهم فقد جنوا أنفسهم العقوبة، وإن تعف فإن العفو أقرب للتقوى يا أمير المؤمنين، ولا تطع فينا من كان غشومًا ظلومًا، بالليل نؤومًا، عن عمل الآخرة سؤومًا[2]. يا أمير المؤمنين، إن الدنيا قد انقشعت أوتادها، ومالت بها عمادها، وأحبها أصحابها، واقترب منها ميعادها، ثم جلس، فقلت[3] لشرحبيل: فكيف صنع؟ قال: قتل بعضًا واستحيى بعضًا، كان فيمن قتل حجر بن عدى بن الأدبر[4]، وكان حجر رضى الله عنه قبل قتله قال: يا قوم دعونى أصلى ركعتين، فتركوه فتوضأ، وصلَّى ركعتين، فطوَّل، فقيل له: طوَّلت، أجزعت؟ فقال: ما صليت صلاة أخفّ منها، ولئن جزعت، لقد رأيت سيفًا مشهورًا، وكفنًا منشورًا، وقبرًا محفورًا، وكانت عشائرهم قد جاؤوهم بالأكفان، وحفروا لهم القبور.

ويقال: بل معاوية الذى فعل ذلك. وقال حجر: اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل العراق شهدوا علينا وإن أهل الشام قتلونا. فقيل له: مُدَّ عنقك. فقال: إنَّ ذاك لدم ما كنت لأُعين عليه[5]، وجاء فى رواية: لما أتى معاوية بحجر،

---

(١) شامى مخضرم ، يروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه.

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٣٤)، نقلاً عن تاريخ دمشق (٤/ ٢٧١) .

(٣) القائل هو إسماعيل بن عياش .

(٤) أحمد بن حنبل : المسائل، رواية ابنه صالح (٢/ ٣٢٨ - ٣٣١)

(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٥)

قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، قال: أو أمير المؤمنين أنا؟ اضربوا عنقه فصلّى ركعتين، وقال لأهله: لا تطلقوا عنى حديداً، ولا تغسلوا عنى دمًا، فإنى ملاقٍ معاوية على الجادَّة[1]. وقد علق ابن العربى على مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه فقال: . . وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى فى الأرض فساداً[2]، وقد اعتمد معاوية رضى الله عنه فى قضائه على قوله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يَشُقَّ عصاكم[3]، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»[4]، وقوله ﷺ: «إنه ستكون هنات[5]، وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهى جميع، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»[6]. ومما يجدر التذكير به فى هذا المقام أن معاوية رضى الله عنه لم يكن ليقضى بقتل حجر بن عدى رضى الله عنه لو أن حجراً اقتصر فى معارضته إلى الأقوال فقط، ولم ينتقل إلى الأفعال، ولنا فى خبر المسور بن مخرمة وغيره مما مرّ معنا دلالة على ذلك[7].

٢ ـ موقف عائشة رضى الله عنها من مقتل حجر بن عدى رضى الله عنه:

بالغت الروايات فى ذكر موقف عائشة رضى الله عنها من مقتل حجر بن عدى، حيث ذهبت بعض الروايات إلى الزعم بتهديد عائشة لمعاوية بالقتل حين زارها ٥١هـ، وكذلك التهديد بمحاربة معاوية[8]. وهذه الروايات لم يصح منها شىء فى حق أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وأما حقيقة موقفها فعن ابن أبى مليكة: إن معاوية جاء يستأذن على عائشة، فأبت أن تأذن له، فخرج غلام لها يقال له: ذكوان[9]، قال: ويحك، أدخلنى علىَّ عائشة فإنها قد غضبت علىَّ، فلم يزل بها غلامها حتى أذنت له، وكان أطوع منى عندها، فلما دخل عليها. قال: أمتاه فيما وجدت علىَّ يرحمك الله؟ قالت: . . . وجدت عليك فى شأن حجر وأصحابه

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٦).
(٢) العواصم من القواصم، ص (٢٢٠).
(٣) يشق عصاكم : يفرق جماعتكم .
(٤) صحيح صحيح مسلم بشرح النووى (١٢/ ٢٤٢) .
(٥) هنات : جمع هَنَّة ، والمراد بها هنا الفتن والأمور الحادثة شرح صحيح مسلم (١٢/ ٢٤١) .
(٦) صحيح مسلم، بشرح النووى (١٢/ ٢٤١) .
(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٣٥).
(٨) المصدر نفسه، ص (٤٣٨) مثل ما ورد فى تاريخ الطبرى .
(٩) أبو عمرو مولى عائشة ثقة، توفى فى المدينة سنة ٦٣هـ .

أنك قتلتهم، فقال لها: . . . وأما حجر وأصحابه فإنى تخوفت أمرًا، وخشيت فتنة تكون، تهراق فيها الدماء، وتستحل فيها المحارم، وأنت تخافينى، دعينى، والله يفعل ما يشاء، قالت: تركتك والله، تركتك والله، تركتك والله[1]، وجاء فى رواية أخرى: لما قدم معاوية دخل على عائشة، فقالت: أقتلت حجرًا؟ قال: يا أم المؤمنين، إنى وجدت قتل رجلٍ فى صلاح الناس، خير من استحيائه فى فسادهم[2].

٣ ـ ندم معاوية على قتل حجر بن عدى:

جاء فى رواية: . . أن عائشة أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية فى حجر وأصحابه، فقدم عليه وقد قتلهم، فقال له عبد الرحمن: أين غاب عنك حلم أبى سفيان؟ قال: غاب حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى[3]، قال الذهبى: يعنى أنه ندم[4]. ومع أن قتل حجر رضى الله عنه وإن ذكر له من الأعذار والمبررات ما ذكر، ففى الحقيقة كانت غلطة من معاوية، وكان ينبغى أن يتسع حلمه لصحابى من صحابة رسول الله ﷺ، وقد ندم معاوية ندمًا كبيرًا على قتل حجر، وظل يذكر هذه الحادثة طوال حياته[5]، وقد روى أنه قال عند موته: يوم لى من ابن الأدبر طويل- ثلاث مرات ـ يعنى حجرًا[6].

٤ ـ موقف لمالك بن هبيرة السكونى رضى الله عنه:

لم يقبل معاوية رضى الله عنه شفاعة مالك بن هبيرة السكونى فى حجر بن عدى، فجمع مالك قومه وسار ليخلصه وأصحابه، فلقى القتلة وسألهم، فقالوا: مات القوم. وسار إلى عَدِىّ فتيقن قتلهم فأرسل فى أثر القتلة فلم يدركهم، وأخبروا معاوية فقال: تلك حرارة يجدها فى نفسه، وكأنى بها قد طفئت. ثم أرسل إليه بمائة ألف وقال: خفت أن يعيد القوم حربًا فيكون على المسلمين أعظم من قتل حجر فطابت نفسه[7]، ومالك بن هبيرة السكونى صحابى جليل وكان معاوية رضى الله عنه ولاّه حمص وكان يقول فيه: ما أصبح عندى من العرب أوثق فى نفسى نصحًا بجماعة المسلمين وعامتهم

(١) تاريخ دمشق (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤) نقلاً عن مرويات معاوية، ص (٤٤٠) .
(٢) تاريخ دمشق (٤/ ٢٧٣) نقلاً عن مرويات معاوية، ص (٤٤٠) .
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٥) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٦٥) .
(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١٦) .
(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٦) .
(٧) تاريخ ابن خلدون (٣/ ١٧).

من مالك بن هبيرة[١]. وقد كان يسع معاوية غير القتل من العقوبات، كالسجن، أو تفريق حجر وجماعته، أو يمن بهم على عشائرهم[٢].

٥ ـ ما قيل فى حجر بن عدى من رثاء:

قالت هند ابنة زيد بن مخرمة الأنصارية فى رثاء حجر:

ترفع أيها القمر المنير تَبَصَّرْ هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كم زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد بها محولا كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر بن عدى تلقاك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أدرى عديا وشيخًا فى دمشق له زئير

إلى أن قالت:

ألا ياليت حجراً مات موتًا ولم ينحر كما نحر البعير
فإن تهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هُلك يصير[٣]

وفيما عدا قضية حجر وأصحابه، فقد حافظ معاوية على سياسته السلمية القائمة على الحلم وسعة الصدر مع رعيته، والتى لخصها هو نفسه فى جمل يسيرة حين قال: لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، ولا أصنع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها[٤]. وهى سياسة حكيمة تفسح المجال أمام القول إذا ما ظل فى حدود لا يتعداها، فحيث يكفى المال عن اللسان يعتمده، ولا يضع السوط حيث يكفى اللسان، ولا يضع السيف حيث يكفى السوط[٥]، وقد قيل: بأن سليم مولى زياد فخر بزياد عند معاوية فقال معاوية: اسكت ما أدرك صاحبك شيئًا قط بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلسانى[٦].

---

(١) أثر الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص(٦٧١)، الطبقات الكبرى (٧/ ٤٢٠).
(٢) القرّاء ودورهم فى الحياة العامة، ص (١٩٥).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٩٦).
(٤) السلطان لابن قتيبة، ص (٥١).
(٥) السلطة والمعارضة فى الإسلام، زهير هوّارى، ص (٢٦٢).
(٦) السلطان لابن قتيبة، ص (٥٣).

المبحث الثانى

مباشرة معاوية للأمور بنفسه

وحرصه على توطيد الأمن فى خلافته

أولاً: مباشرة معاوية للأمور بنفسه:

ومن القواعد التى قامت عليها سياسة معاوية الداخلية مباشرة الأمور بنفسه، وكان رضى الله عنه يحرص على معرفة كل صغيرة وكبيرة فى دولته، فرغم أنه استعان بأمهر رجال عصره، فإنه لم يكن يكتفى بذلك بل كرّس كل وقته وجهده للدولة ورعاية مصالح المسلمين[1].

١ ـ مجلس معاوية فى يومه:

كان معاوية رضى الله عنه، يظهر فى اليوم والليلة خمس مرات، فكان إذا صلى الصبح جلس للقصاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه، فيقرأ جزأه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهى، ثم يصلى أربع ركعات، ويخرج إلى مجلسه، فينادى بخاصته، فيحدثهم ويحدثونه، ويُدخل عليه وزراءه، فيكلمونه فيما يريدون من يومهم، ثم يؤتى بالغداء الأصغر، وهو فضل عشاء الليل، . . ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله، وإذا أراد ثم يخرج فيقول: يا غلام أخرج الكرسى، ويسند ظهره إلى المقصورة، ويقوم الحراس، فيقدم إليه الضعيف والإعرابى والصبى والمرأة فيقول: ظُلمت، فيقول: أعزّوه، ويقول: عُدى علىّ فيقول: ابعثوا معه، ويقول: صُنع بى، فيقول: انظروا له، حتى لم يبق أحد دخل فجلس على السرير، ثم يقول: ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلنى أحد عن رد السلام، فيقال: كيف أصبح أمير المؤمنين، أطال الله عمره؟ فيقول: بنعمة من الله، فإذا استووا جلوسًا قال: يا هؤلاء إنما سُميتم أشرافًا، لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا حاجة من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: افرضوا لولده، ويقول: غاب فلان عن أهله، فيقول:

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١٧).

تعاهدوهم وأعطـوهم، واقضوا حـوائجهم واخدمـوهم. ويؤتى بالغداء ويحـضر الكاتب، فيقوم عند رأسه ويقدم الرجل فيقال له: اجلس على المائدة فيجلس فيمد يده، فيأكل لقمتين أو ثلاثًا، والكاتب يقرأ كتابه، فيـأمر فيه بأمره، فيقال: يا عبد الله أعقب، فيقوم ويتقدم آخـر حتى يأتى على أصحاب الحوائج كلهم، وربما قدم عليه من أصحـاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قـدر الغداء، ثم يرفع الغداء، وينصرف الناس، ويدخل منزله، فلا يطمع فيه طامع حـتى ينادى بالظهر، فيخرج فيصلى[1] ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة، فإن كان الوقت شتاء أتاهم بزاد الحاج، من الأخبصة اليـابسة والخشكبالج[2]، والأقراص المعجونة بالسكر واللّين من دقيق السمـيد، والكعك المسـمن، والفواكه الـيابسة، وإن كـان الصيف أتاهم بالفـواكه الرطبة ويدخل عليه وزراءه فيـؤامرونه فيما احتاجوا إليـه بقية يومهم، ويجلس إلى العصر، ثم يخـرج فيصلى العصر ثم يدخل منزله، فلا يطمع فـيه طامع حتى إذا كـان فى آخـر وقت العـصـر، خرج فـجلس علـى سريره، ويـؤذن للناس على منازلهم، فيؤتى بالعشـاء فيفرغ منها مقدار ما ينادى بالمغرب فـيصليها، ثم يصلى أربع ركعـات، يقرأ فى كل ركعـة خمسـين آية، يجهر تارة ويخـافت أخرى. ثم يدخل منزله فلا يطمع فيـه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة، فيـخرج فيصلى ثم يؤذن للخاصة، وخاصـة الخاصة، والوزراء والحاشية، فيؤامـره الوزراء فيما أرادوا صدراً من ليلتهم، ويسـمر ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامهـا، والعجم وملوكها وسياساتها، وسـير الأمم وحروبها، ومكائدها وسياساتها لرعيـتها، وغير ذلك من أخبـار الأمم السالفة، ثم تأتيه الطرف الغـريبة من عند نسائه؛ من الحلواء وغـيرها من المآكل اللطيفة، ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيحضر الدفاتر، فيها سير الملوك وأخبـارها، والحروب والمكائد، فيـقرأ ذلك عليـه غلمان له مرتبـون، وقد وكّلوا بحفظها وقراءتهـا، فيمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخـبار والسير والآثار، فيخرج ثم يصلى الصـبح، ثم يعود فيفعل ما وصفنا كـل يوم وليلة، وقد تبعه فى ذلك، عبد الملك بن مـروان وغيره، فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه الـسياسة، ولا التأنى للأمور ،ولا مداراة الناس على منازلهم، ورفقه بهم على طبقاتهم[3].

(١) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٣٠٩).
(٢) الخشكبالج: نوع من الحلوى.
(٣) الشهب اللامعة، ص (٣١٠، ٣١١)، مروج الذهب (٣/ ٢٢٠، ٢٢٢).

٢ ـ الدواوين المركزية التابعة لمعاوية:

أ ـ ديوان الرسائل: هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده، ووصاياه، ومواثيقه إلى موظفيه فى الأقاليم الإسلامية وإلى البلدان الخارجية التى لها علاقة بالدولة الإسلامية[1]. ومن أشهر من أشرف على ديوان الرسائل وقام بمهمة الكتابة فى هذا الديوان فى عهد معاوية عبد الله بن أوس الغسانى، وزمل بن عمرو العذرى، واستمر هذان الكاتبان فى خلافة يزيد الأول[2]، وكانت وسيلة الرسائل فى الاتصال بالولاة، وقادة الجند، والقضاة، وزعماء القبائل تابعة لمعاوية وتحت إشرافه المباشر.

ب ـ ديوان الخاتم: أنشأ معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ديوان الخاتم لتحقيق السرية والأمان لمراسلات الدولة، فلا تطلع عليها عين جاسوس، ولا تصل إليها يد خائن[3]، وكان من أغراض هذا الديوان تحاشى التزوير، ومنع حدوث التلاعب، فى الكتب التى يصدرها الخليفة، ثم أصبح الديوان بمثابة سجل للكتب الصادرة، وصارت الدولة تعتمد عليه فى تدقيق الأوامر، والمراسلات التى تتعلق بالصرف والحسابات، بين مقر الخلافة والأقاليم الإسلامية الأخرى[4]، كما أنه كان يقوم بالإشراف على تدقيق الدواوين الأخرى، وبيان الأخطاء التى تقع فيها، وهذا الديوان يختلف عن ختم الرسول ﷺ، وختم الخلفاء الراشدين، فختم الرسول ﷺ يعنى التوقيع بالختم، بينما نراه فى عهد معاوية، وعصر الدولة الأموية بمثابة جهاز للفحص والتدقيق فى الأعمال الصادرة عن الدواوين الأخرى، وقد تقلد الخاتم الكبير لمعاوية، عبد الله بن محصن الحميرى، وكان سبب ذلك أن معاوية أمر لعمرو بن الزبير فى معونته وقضاء دينه بمائة ألف درهم، وكتب بذلك إلى زياد ابن أبيه، وهو على العراق، ففض عمرو الكتاب وصير المائة مائتين، فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية، فأمر عمرًا بردها وحبسه، فأداها عنه أخوه عبد الله بن الزبير، فأحدث معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وخزم الكتب[5]، ولم تكن

---

(١) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٢٤).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٥٦).

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٣٣).

(٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٧٠).

(٥) تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر، ثم يوضع خاتم الخلافة.

تخزم[1]، وفى الحقيقة فإن تأسيس ديوان الخاتم أملته ظروف اتساع الدولة الإسلامية فى عهد معاوية رضى الله عنه، وحاجة الخليفة إلى نظام اتصال آمن وسرى لمتابعة عماله وقواده ورجال دولته[2].

جـ ـ ديوان البريد: يذكر المؤرخون أن معاوية بن أبى سفيان أول من أدخل نظام البريد فى الدولة الإسلامية، وأصدر أوامره بوضع الخيول فى عدة أماكن، وقام بتنظيمه[3]، وتشير بعض المصادر إلى أنه اقتبس من الروم[4]، وكانت أعماله فى العصر الأموى واسعة ومتشعبة، نظرًا لسعة رقعة الدولة الإسلامية، وقد قام الخلفاء الأمويون بتحسين طرق المواصلات التى يسير عليها صاحب البريد، وكانت تلك الطرق واضحة ومعلومة، والدليل على تحسين هذه الطرق هو سرعة وصول الأخبار إلى مقر الخلافة بالشام[5]، ولم تكن خدمات البريد مقصورة على ما يتعلق بالدولة، بل كان فى بعض الأوقات يحمل رسائل الناس من بلد إلى آخر[6]، وكانت الدولة فى عهد معاوية لا تستغنى عن البريد فى حالات السلم، والحرب، وكان موظف البريد من أهم أعوان الخليفة، وقد ذكرت بعض المصادر أسماء بعض من اشتغل مع معاوية فى ديوان البريد وهما: نصر ين ذبيان، والكميت، كانا على البريد فى أيام معاوية واستخدمهما فى نقل الأخبار بين الشام والحجاز[7]، وكانت أهم وسائل النقل: البغال[8]، والخيل[9]: ويعتبر معاوية مؤسس نظام البريد فى الإسلام، حيث كانت الرسائل ترسل قبل ذلك من قبل الخليفة إلى الجهة التى يراد إرسالها إليها، عن طريق رسول يحملها وينطلق بها وحده، حتى يوصلها إلى الجهة المقصودة، فكانت بذلك الرسائل تستغرق مدة طويلة حتى تصل إلى محلها. أما نظام البريد الذى استخدمه معاوية اقتباسًا من البيزنطيين فقد كان يقتضى أن تقسم الطرق إلى مسافات، يوضع فى نهاية كل

---

(١) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢٨٧)، مرويات خلافة معاوية، ص (٧٥).
(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٧٦).
(٣) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص(١٧٤).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٧٤).
(٥) المصدر نفسه، ص (١٧٥).
(٦) المصدر نفسه، ص (١٧٥).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٧٦).
(٨) المصدر نفسه، ص (١٧٦).
(٩) العيون والحدائق (٣/ ٨٢)، إدارة بلاد الشام، ص (١٧٦).

مسافة دواب (خيل) مهيأة لحمل رسائل الخليفة إلى الجهات المختلفة، تسلم الكتب والرسائل إلى صاحب البريد، وينطلق بها مسرعًا حتى إذا بلغ نهاية المسافة سلمها لمن بعده، وتظل الرسالة تنطلق من مسافة إلى مسافة حتى تصل إلى الجهات المرسلة إليها فى أقصر مدة، وأما مقدار المسافة الواحدة، فكان أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، وبذلك يكون طول المسافة اثنى عشر ميلاً، أى عشرين كيلو مترًا تقريبًا، وهذه المسافة تسمى بريدًا، وبهذه الطريقة تصل الرسالة بأكبر سرعة، دون إجهاد لصاحب البريد، حيث إن المسافة يمكن قطعها بسهولة، وتناوب أصحاب البريد إذا كان سيقطع المسافة وحده، وهكذا يوفر هذا النظام الراحة لأصحاب البريد، واختصار الوقت(١)، يقول أبو هلال العسكرى: أول من وضع البريد فى توصيلها ليوفر الزمن الذى يستريحه صاحب البريد فى الإسلام: معاوية ابن أبى سفيان، وأحكم أمره عبد الملك(٢).

د ـ نظام الكتبة: كان هناك كاتب لديوان الرسائل، وآخر لديوان الخراج، وثالث لديوان الجند، ورابع لديوان الشرطة، وخامس لديوان القضاء، وكان فى عهد الأمويين أكبر دواوين الدولة، ويقوم الموظفون فيه بنسخ أوامر الخليفة، وإيداعها ديوان الخاتم، بعد أن تخزم وتختم بالشمع، ثم تختم بخاتم صاحب الديوان(٣)، وظل ديوان الخاتم من أكبر دواوين الدولة، منذ أنشأه معاوية، وحتى أواسط العهد العباسى(٤)، وكانت هذه الدواوين تقوم بأعمال وزارة المالية (ديوان الخراج) ووزارة الدفاع (ديوان الجند) ووزارة الداخلية (ديوان الشرطة) ووزارة العدل (ديوان القضاء). كما كان ديوان الرسائل يقوم بأعمال السكرتيرية، وديوان الخاتم يقوم بأعمال السجلات والأرشيف، وكان لكل ديوان موظفوه من الكتبة المتخصصين، وكان ديوان الخراج يكتب فى العراق باللغة الفارسية، وفى الشام ومصر باللغة الرومية، وظل كذلك حتى عرّبه عبد الملك بن مروان(٥).

ثانيًا : حرصه على توطيد الأمن فى خلافته:

ومن القواعد التى بنى عليها معاوية سياسته الداخلية توطيد الأمن فى ربوع العالم الإسلامى، وقد اتخذ معاوية عدة وسائل لتحقيق هذا الهدف:

(١) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٠٠) .
(٢) الأوائل، ص (٢٣٧).
(٣) تاريخ الإسلام (١/ ٤٥٨) .
(٤) المصدر نفسه (١/ ٤٥٩) .
(٥) الأمويون بين الشرق والغرب (١/ ١٠٢) .

١- الحاجب: كان معاوية بن أبى سفيان أول من اتخذ الحاجب فى الإسلام، لكى يتجنب محاولات الاعتداء عليه[1]، وكان بعض المظاهر الملكية له ما يبرره فى هذه الحقبة التاريخية، فقد عبر ابن خلدون على احتجاب الخلفاء عن الناس، على النحو التالى: كان أول شيء بدأ به فى الدولة شأن الباب وستره دون الجمهور، لما كان يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر وعلى ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم، مع ما فى فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب[2]، ومما يعزز آراء ابن خلدون عن وجود العامل الأمنى وراء اتخاذ معاوية بعد محاولة اغتياله التى دبرها الخوارج: أمر عند ذلك بالمقصورات، وحرس الليل، وقيام الشرطة على رأسه إذا سجد[3]، وقد كان معاوية وبنو أمية يعيشون فى الشام قريبًا من أعدائهم الموتورين من الروم، فضلاً عن أعدائهم الموتورين من الشيعة والخوارج المتفرقين فى البلاد، وكانوا يرون أنه لابد لهم لاستقرار الدولة الإسلامية التى قتل ثلاثة من خلفائها من اتخاذ نمط من أنماط الحراسة والاحتراز[4]، وقد ذكر المؤرخون أسماء من مواليه شغلوا له وظيفة الحاجب، وهم سعد، وأبو أيوب، وصفوان[5]، وكان يشترط فى الحاجب أن يعرف منازل الناس وأنسابهم وطبقاتهم، لكى يتمكن أن يعرف من يأذن لهم، ومن لا يأذن لهم، فقد رويت أخبار كثيرة تؤكد ذلك، فمعاوية بن أبى سفيان قال لحصين بن المنذر، وكان يدخل عليه فى آخريات الناس:

يا أبا ساسان، كأنه لا يحسن أذنك؟ فأنشأ يقول:

وكل خفيف الساق يسعى مشمراً ... إذا فتح البواب بابك أصبعًا
ونحن الجلوس الماكثون رزانة ... وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا[6]

(١) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٠٢).
(٢) تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٩ ـ ١٥٠).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٦٥).
(٤) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٧١).
(٥) إدارة بلاد الشام فى العهدين، ص (١٠٣)، البداية والنهاية (١١/ ٤٦٥).
(٦) البيان والتبيين (٢/ ٩٠)، إدارة بلادة الشام، ص (١٠٧).

وعندما دخل شريك الحارثى على معاوية قال له: من أنت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، مارأيت لك هفوة قبل هذه، مثلك ينكر مثلى من رعيته، فقال له معاوية: إن معرفتك متفرقة، أعرف وجهك إذا حضرت الوجوه، وأعرف اسمك فى الأسماء إذا ذكرت، ولا أعلم أن ذلك الاسم هو هذا الوجه، ما ذكر لى اسمك تجتمع معرفتك(١)، فالحاجب يخبر الخليفة، والخليفة هو الذى يأذن أو لا يأذن. وذات يوم وقف الأحنف بن قيس، ومحمد بن الأشعث بباب معاوية الأول، فأذن للأحنف، ثم أُذن لابن الأشعث، فأسرع فى مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله، فلما رآه معاوية غمه ذلك، وأحنقه فالتفت إليه فقال: والله إنى ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلى أموركم كذلك نلى آدابكم، ولا يزيد متزيد فى خطوة إلا لنقص يجده فى نفسه(٢).

٢ ـ الحرس: كان معاوية بن أبى سفيان أول من اتخذ الحرس فى الدولة الإسلامية، خوفًا من الخوارج الذين كانوا يريدون قتله، فقد أمر بالمقصورات فى الجوامع وكان لا يدخلها إلا ثقاة حراسه(٣)، وكما يبدو أن معاوية لم يكتف باتخاذ الحرس، بل اتخذ المقاصير زيادة فى التشدد، وذلك لحماية نفسه من أى اعتداء قد يقع عليه(٤) وقد ذكرت كتب التاريخ أسماء رؤساء الحرس فى عهد معاوية وهم: المختار أبو المخارق(٥)، ويزيد بن الحارث العبسى(٦).

٣ ـ الشرطة: وظيفتها المحافظة على الأمن والنظام، والقبض على اللصوص والجناة والمفسدين، والدفاع عن الخليفة، وهى غير مسئولة عن صد أى هجوم خارجى عن الدولة(٧)، وقد قام معاوية بتنظيمها وتطويرها فى الشام، وقد ذكر المؤرخون أربعة أسماء من الذين عينهم على رئاسة الشرطة وهم: قيس بن حمزة الهمذانى، زمل بن عمرو العذرى، الضحاك بن قيس الفهرى، ويزيد بن الحر العنسى(٨). والشرطة لا يقتصر وجودها على عاصمة الخلافة فقط بل فى الولايات الإسلامية الأخرى، وهم يتبعون الولاة فهم الذين يختارونهم ويعينونهم، وكان

---

(١) عيون الأخبار (١/ ٩٠).

(٢) العقد الفريد (١/ ٦٨)، إدارة بلاد الشام، ص (١٠٨).

(٣)، (٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين، ص (١١١).

(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٥).

(٦) إدارة بلاد الشام فى العهدين، ص (١١٧)، العقد الفريد (٤/ ٣٦٢).

(٧) المصدر نفسه، ص (١١٥).

(٨) المصدر نفسه، ص (١١٧).

وجودها مهمًا للدولة والمجتمع، فالدولة تعتمد عليها فى قمع المتمردين، وفى القضاء على الثورات، والاضطرابات، وربما كانت تحل محل الجند فى حالة غيابهم واشتراكهم فى الغزوات، وهى للمجتمع، لأنها تعمل على تحقيق الأمن والاستقرار، فهى الجهة الوحيدة المسئولة عن حماية أرواح الناس، وحفظ حقوقهم وأموالهم من اعتداء بعضهم على بعض. وقد كلف الخلفاء الأمويون رؤساء الشرطة بأعمال شتى خارج بلاد الشام وداخلها: فالضحاك بن قيس كلفه معاوية بإبلاغ وصيته لابنه يزيد، وأخذ البيعة له[1].

٤ ـ حسن اختيار الرجال والأعوان: فقد وفق معاوية -رضى الله عنه- فى اختيار أعوانه من الرجال الموثوق بولايتهم وخبرتهم الإدارية، مع حكمتهم ودهائهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: عمرو بن العاص السهمى، والمغيرة بن شعبة الثقفى، وزياد بن أبيه الثقفى، ويزيد بن الحر العبسى، والضحاك بن قيس الفهرى، وعبد الله بن عامر بن كريز، وغيرهم من القادة المقاتلين أمثال المهلب بن أبى صفرة، وعقبة بن نافع الفهرى، ومالك بن هبيرة، وجنادة بن أمية الأزدى وآخرين، وكان عمرو بن العاص يقول: أنا للبديهة، ومعاوية للأناة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لصغار الأمور وكبارها[2]. وقد ساهم هؤلاء فى إدارة الدولة وفتوحاتها والتصدى لأعدائها، فكان لهم دور كبير ومتميز فى ترسيخ وتوطين وتثبيت الأمن ودعائم الخلافة الأموية[3].

٥ ـ استخدام المال فى تأكيد ولاء الأعوان وتأليف القلوب: فقد اعتبر معاوية من أجواد العرب؛ لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء، وجاد بالمال مع المداراة، وكان إذا بلغه عن رجل ما يكره أسكته بالمال[4].

٦ ـ اتباع سياسة الشدة واللين فى الوقت نفسه حسب الظروف والأحوال: وظهرت هذه السياسة بشكل واضح بعد توطيد دعائم الخلافة الأموية، وكتب معاوية إلى زياد بن أبيه فى ذلك وقال: إنه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس بسياسة

---

(١) إدارة بلاد الشام، ص (١٢٣)، الأخبار الطوال، ص (٢٠٥ ، ٢٠٦).
(٢) أنساب الأشراف (٤/ ١٣١).
(٣) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص (١٠٠).
(٤) المصدر نفسه، ص (١٠٠).

واحدة، إنا إن نشتد جميعًا نهلك الناس ونحرجهم، وإن نلن جميعًا نبطرهم، ولكن تلين وأشتد، وتشتد وألين[1]، ويؤكد هذه السياسة ما نسب إلى معاوية رضى الله عنه من أقوال مثل: لا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، فإذا لم أجد من السيف بدًا ركبته، أى استعملته[2]، وقوله المشهور: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، إن جبذوها أرسلتها، وإن خلوها جبذتها[3].

٧ - اتباع سياسة المنفعة المتبادلة بين بنى أمية ورعيتهم: لم يستطع معاوية رضى الله عنه اتباع سياسة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم الراشدة، ولا شك فى أن كثرة الأموال بعد اتساع الدولة الإسلامية جعلت كثيرًا من المسلمين يتطلعون إلى التمتع بالخيرات، التى أخذت تتدفق عليهم. وقد أعرب معاوية عن ذلك بشكل واضح وقال للمسلمين: . . غير أنى سلكت طريقًا لى فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكلٍ فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ما استقامت السيرة، وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم[4].

٨ - اتخاذ سياسة إعلامية للإشادة به وبخلافته. وجعل الناس يميلون إليهم: كان معاوية بن أبى سفيان يقول: أحب الناس إلىَّ أشدهم تحبيبًا لى إلى الناس[5]، وأتبعه بعد ذلك الخلفاء الأمويون باستمالة عشرات الشعراء وأغدقوا عليهم الأموال، فأشادوا بهم وبحقهم فى الخلافة وصلاحهم لها، ووجوب طاعتهم ونصرتهم، نظرًا لأن الشعر كان أهم وسيلة إعلامية فى ذلك العصر[6]، ومن الأشعار التى قيلت فى هذا الاتجاه ما قاله الأخطل:

تَمَّت جنودهم والله فضلهم ... وجدُّ قوم سواهم خامل نكد
وأنتم أهل بيت لا يُوازنُهم ... بيت إذا عُدّتِ الأحساب والعدد[7]

وقد اهتم معاوية بفن الدعاية والإعلام، وأوكله إلى عدد من الرجال يهمهم أمره ويؤيدونه، فكان يكثر أعطيات الشعراء، وكذلك شيوخ القبائل، لكسبهم فى

(١) أنساب الأشراف (٤/ ٨٤).
(٢) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص (١٠١).
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ٢١).
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٨).
(٥) الجذور التاريخية للأسرة الأموية، ص (١٠٢).
(٦) المصدر نفسه، ص (١٠٢)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٥).
(٧) التطور والتجديد فى الشعر الأموى، شوقى ضيف، ص (١٣٤).

صفه، ويعطى مجالاً واسعًا لولاته لكى يحققوا بعض المكاسب السياسية والإعلامية والأمنية، فقد كتب زياد والى البصرة فى عهد معاوية خمسمائة من مشايخها، وأعيانها فى صحبته، ورزقهم ما بين الثلاثمائة إلى الخمسمائة[1]، فقال فيه حارثة بن بدر الغُدانىّ:

ألا من مبلغ عنى زيادًا ... فنعم أخو الخليفة والأمير

فأنت إمام معدلةٍ وقصد ... وحزم حين تحضرك الأمور

أخوك خليفة الله بن حرب ... وأنت وزيره نعم الوزير[2]

وكان معاوية رضى الله عنه يحرص على امتصاص غضب الشعراء بحلمه وعفوه، فعندها هجا يزيد بن مفرِّغ الحميرى بنى زياد، عندما كان مع عباد بن زياد بسجستان، فاشتغل عنه بحرب الترك، فاستبطأه، فأصاب الجند مع عباد ضيق فى أعلاف دوابهم، فقال ابن مفرغ:

ألا ليت اللحى عادت حشيشًا ... فنعلفها خيول المسلمين

وكان عبّاد بن زياد عظيم اللحية، فأنهِىَ شعره إلى عبّاد وقيل: ما أراد غيرك، فطلبه عباد، فهرب منه، وهجاه بقصائد كثيرة، فكان مما هجاه به قوله:

إذا أودى معاوية بن حرب ... فبشِّر شعْبَ قعبك بانصداع

فأشهد أن أمك لم تباشر ... أبا سفيان واضعة القناع

ولكن أمرًا فيه لبس ... على وجل شديد وارتياعِ

وقوله:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة من الرجل اليمانى

أتغضب أن يقال أبوك عَفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زان

فأشهد أن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان[3]

ولما هجا ابن المفرِّغ عبَّادًا فارقه مقبلاً إلى البصرة، وعبيد الله يومئذ وافد على معاوية، فكتب عباد إلى عبيد الله ببعض ما هجاه به، فلما قرأ عبيد الله الشعر

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/١٣٩) .

(٢) المصدر نفسه (٦/١٣٩) .

(٣) المصدر نفسه (٦/٢٣٦).

دخل على معاوية، فأنشده إياه، واستأذنه فى قتل ابن مفرغ، فأبى عليه أن يقتله، وقال: أدِّبه ولا تبلغ به القتل[1] . . . ووقع ابن مفرِّغ بين يدى عبيد الله. . فأمر به فسقى دواء، ثم حمل على حمار عليه إكاف فجعل يطاف به وهو يسلح فى ثيابه[2].

وقال ابن مفرِّغ لعبيد الله:

يغسِل الماء ما صنعت وقولى   راسخ منك فى العظام البوالى

ثم حمله عبيد الله إلى عباد بسجستان، فكلمت اليمانية فيه بالشام معاوية، فأرسل رسولاً إلى عباد، فحمل ابن مفرغ من عنده حتى قدم على معاوية، فقال فى طريقه:

عَدَس ما لعبّاد عليك إمارة   نجوتِ وهذا تحملين طليق
لعمرى لقد نجاك من هوّة الرّدى   إمام وحبل للأنام وَثِيق
سأشكر ما أوتيت من حسن نعمة   ومثلى بشكر المنعمين حقيق

فلما دخل على معاوية بكى، وقال: ركب منى ما لم يركب من مسلم على غير حدث ولا جريرة. . . وبعد حوار مع معاوية قال له معاوية: اذهب فقد عفونا لك عن جرمك، أما لو إيانا تعامل لم يكن مما كان شىء، فانطلق وفى أى أرض شئت فانزل. فنزل الموصل، ثم إنه ارتاح إلى البصرة، فقدمها، ودخل على عبيد الله فأمنه[3]. فقد كان معاوية رضى الله عنه يحرص على كسب الشعراء لصفه، والتحبب إليهم وإكرامهم وعدم محاولة الإساءة إليهم، فقد كانوا أقرب الشبه بالفضائيات فى الوقت الحاضر.

٩ ـ جهاز المخابرات: كانت الأجهزة الأمنية الداخلية والخارجية فى عهد معاوية قوية جدًا، وكانت قدرتها على جمع المعلومات فائقة، وكان معاوية رضى الله عنه يشرف على جهاز المخابرات بنفسه، وكان له جهاز سرى مربوط به لمراقبة الولاة والرعية، فلم يكن فى قطر من الأقطار، ولا ناحية من النواحى عامل أو أمير

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٦).   (٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٣٨).

جيش إلا وعليه عين لا يفارقه، بل وصلت عيونه حتى فى البلاط البيزنطى، وإليك ما يدل على ذلك:

أ ـ اطلاعه على المراسلات التى بين الحسين وأهل العراق: لما توفى الحسن بن على اجتمعت الشيعة فى دار سليمان بن صرد، وكتبوا إلى الحسين كتابًا بالتعزية فى وفاة الحسن، وقالوا فى كتابهم: إن الله قد جعل فيك أعظم الخلق ممن مضى، ونحن شيعتك المصابة بمصيبتك، المحزونة بحزنك، المسرورة بسرورك، المنتظرة لأمرك، فرد الحسين على كتابهم: إنى لأرجو أن يكون رأى أخى فى الموادعة، ورأيى فى جهاد الظلمة رشدًا أو سدادًا، فالصقوا بالأرض وأخفوا الشخص، واكتموا الهوى، واحترسوا فى الأضناء ما دام ابن هند حيًا، فإن يحدث به حدث وأنا حى يأتكم رأيى إن شاء الله[1]. ولقد أشارت تلك الرسائل المتبادلة بين الحسين وأهل الكوفة مخاوف بنى أمية فى المدينة، فكتبوا إلى معاوية يستشيرونه بشأن الحسين: فكتب إليهم بأن لا يتعرضوا له مطلقًا[2]، وكان معاوية على معرفة بتلك الرسائل والعلاقات الوثيقة التى تربط بين الحسين وبين الكوفيين، ولهذا فقد طلب معاوية من الحسين أن يتقى الله عز وجل، وأن لا يشق عصا المسلمين ويذكره بالله فى أمر المسلمين[3]، ولقد كان موقف الحسين واضحًا وإعلانه صراحة بقوله: إنا قد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا[4]، وظل الحسين رضى الله عنه ملتزمًا ببيعته وطاعته طوال عهد معاوية[5]، رضى الله عنه.

ب ـ قصة معاوية مع المسور بن مخرّمة: فقد صارح معاوية المسور وقال له: يا مسور ما فعل طعنك على الأئمة[6]، ففيه معرفة معاوية ما يقول كبار الشخصيات فى المجتمع الإسلامى فيه.

جـ ـ قصة الأسير المسلم عند البيزنطيين، الذى لطم وجهه بين يدى ملك الروم وقوله الأسير: وا إسلاماه أين أنت يا معاوية؟ فوصل ذلك الخبر إلى معاوية[7].
هذه بعض الشواهد التى تدل على قوة جهاز المخابرات التابع للدولة الأموية.

---

(١)، (٢) أنساب الأشراف (٣/ ١٥٢)، مواقف المعارضة، ص (١٧٩).
(٣) أنساب الأشراف (٣/ ١٥٢)، مواقف المعارضة، ص (١٨٠). (٤) الأخبار الطوال، ص (٢٢٠).
(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٤٦٩).
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥١) إسنادها صحيح.
(٧) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٨٩).

د ـ وضع بعض أتباع علي رضي الله عنه بالكوفة تحت المراقبة: لم يدخل زياد في طاعة معاوية بسهولة، وامتنع في بداية أمره عن طاعته، وتحصن ببلاد فارس واستطاع معاوية بعد أخذ ورد إقناع زياد في دخوله طاعته، وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله، وسأل زياد معاوية أن يسمح له في نزول الكوفة، فأذن له، فشخص إلى الكوفة، فكان المغيرة يكرمه ويعظمه، فكتب معاوية إلى المغيرة: مُرْ زياداً وسليمان بن صرد، وحجر بن عدي، وشَبَث بن ربعي، وابن الكواء، وعمر بن الحمق بالصلاة في الجماعة، فكانوا يحضرون معه في الصلاة[1]، فقد كان هذا إجراء احتياطيًا من معاوية حتى يكون هؤلاء القوم تحت ناظري والي الكوفة باستمرار، وذلك أن صلح الحسن ومعاوية يوجد له معارضون، ولا يستبعد التفافهم حول بعض رجالات علي ـ رضي الله عنه ـ حسمًا منه لمادة الفتنة[2].

١٠ ـ الاهتمام ببناء الجيش الإسلامي: كان لمعاوية بعد نظر سياسي تمثل في بناء جيش قوي منذ أن كان واليًا على الشام، وتمحور دور هذا الجيش في استتباب الأمن داخل الولاية، ومن ثم القيام بعمليات توسع خارجية قبل وبعد نيله الخلافة،[3] تمثلت في حركة الفتوحات في عصره، وهذا سيأتي تفصيلها في محله بإذن الله تعالى.

١١ ـ سياسة الموازنات: على الرغم من نفوذ الكلبيين في الدولة الأموية، فإن المعادلة لم تكن قائمة على التحالف الأموي ـ الكلبي، ولكنها اتخذت في عهد معاوية رضي الله عنه منحًى توازنيًا ما بين كلب وفهر بصورة خاصة، وقحطان وقيس بصورة عامة، فإذا كان الكلبيون قد حملوا عبء الدفاع المسلح عن الدولة، مؤثرين الإقامة في جنوب الشام (جند الأردن)، فإن الفهريين كان لهم الدور السياسي والإداري البارز فضلاً عن الدور العسكري، حيث شارك زعيمهم الضحاك بن قيس في صفين، وكان بالإضافة إلى ذلك في طليعة الذين اعتمد عليهم معاوية في حضِّ الناس على البيعة ليزيد[4]، وقد ارتفع الضحاك في السياسة الأموية، وفي أعقاب الدور الأمني الذي شغله في عهد معاوية كقائد

---

(١) الكامل في التاريخ (٢/٤٥٨) .
(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (١٧٥).
(٣) الدولة الأموية، د. فرست مرعي الدهوكي، ص (٦٤).
(٤) الطبقات (٦/٢٢) .

على شرطته[١]، والدور السياسى فى عهد يزيد، كعامل له على دمشق، مما هيأه من خـلال هذا الموقع الهام، لدور أكـثر خطورة بعـد وفاة مـعاوية الثـانى الذى أوصى بأن يصلى الضحاك بالناس بدمشق[٢]، وهكذا نجح مؤسس الدولة الأموية فى الإمسـاك بزمام الأمور من خلال الموازنة بين القـبائل الشاميـة الكبرى، ولم يدع لأى منها مـجالاً بأن تتجاوز حـدودها المرسومة لها فى الدولة، بما فى ذلك القـبيلة الكلبيـة الأثيرة. وقد اتسـعت دائرة هذه السياسـة، لتصبح ظاهرة من ظواهر عـهد معـاوية رضى الله عنه، حيث نجح مـعاوية فى تحقـيق التوازن المنشـود داخل قريش (المهاجرة، وغيـر المهاجرة)، فضلاً عن التوازن داخل الأسـرة الأموية (بنو حرب ، وبنو العاص)، واحتواء الثقفيـين بعد منحهم إدارة العراق الذى ارتبط تاريخه أو كاد بهذه الأسرة، إلى آخر هذه التوازنات المتقنة التى ضبطها معاوية رضى الله عنه[٣].

١٢- سيـاسته مع الأسـرة الأموية: لم يأت معاوية رضى الله عـنه للخلافة بدعم مـادى أو معنوى من الأسـرة الأموية، وإنما أتاه الـدعم من جبـهة شـاميـة قبليـة متـماسكة وقفت وراءه، لذلك لم يكن لهـذه الأسرة دور بارز فى إدارة الدولة فى عـهده مـن الناحيـة الإدارية أو من الناحـيـة العـسكرية، نلاحظ ذلك من خـلال استعراض أسماء ولاة وقادة معاوية الذين استعان بهم[٤]، إلا أن معاوية لم يجافِ أسرته جفاءً تامًا، بل استعان بأفراد منها واضعًا نصب عينيه هدفين:

أ- الاستعانة بالأكفاء منهم.

ب- الحيلولـة دون ازدياد سلطانهم ونفوذهم بشكل يهـدد مخططاته السياسـية[٥]، وقـد استطاع مـعاوية تحـقـيق وحدة الصف الأمـوى بما كـان يملك من صفـات ومؤهلات قيادية فذة[٦].

هذه هى أهم الوسائل التى اتخـذها معاوية لتوطيـد الأمن فى دولته رضى الله عنه.

---

(١) مؤتمر الجابية، إبراهيم بيضون، جمهرة النسب، ابن الكلبى (١/ ٤٧١) .

(٢) الطبقات (٦/ ٣٩)، مؤتمر الجابية، ص (٣٥).

(٣) مؤتمر الجابية، ص (٣٦).

(٤) سيأتى الحديث عن اسمائهم بإذن الله عند التحدث عن الولاة .

(٥) الدولة الأموية، فرست مرعى، ص (١٧٩).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٨٠).

المبحث الثالث

حياة معاوية فى المجتمع واهتماماته العلمية

أولاً: حياة معاوية فى المجتمع:

١ ـ بين معاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهما:قال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين ألستُ أنصح الناس لك؟ قال: بذلك نلتَ ما نلت[(١)].

٢ ـ مشاجرة فى مجلس معاوية:عن جويرية بن أسماء، أن بسر بن أبى أرطأة نال من على عند معاوية وزيد بن عمر بن الخطاب جالس، فعلاه بعصًا فشجه، فقال معاوية لزيد: عمدت إلى شيخ من قريش سيد أهل الشام فضربته، وأقبل على بسر فقال: تشتم عليًا وهو جده، وابن الفاروق على رؤوس الناس، أو كنت ترى أنه يصبر على ذلك، ثم أرضاهما جميعًا[(٢)].

٣ ـ أنا أحق بهذا منك:قال معاوية: ما من شىء أحب إلىَّ من عين خرارة فى أرض خوّارة! فقال عمرو بن العاص: ما من شىء أحب إلى من أن أبيت عروسًا بعقيلة من عقائل العرب، فقال وردان مولى عمرو بن العاص: ما من شىء أحب إلىّ من الإفضال على الإخوان، فقال معاوية: أنا أحق بهذا منك، قال: ما تحب فافعل[(٣)].

٤ ـ نعى إلىَّ نفسى:كان عامل معاوية على المدينة إذا أراد أن يبرد بريدًا إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة يكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب زِرّ بن حبيش ـ أو أيمن بن خُرَيم ـ كتابًا لطيفًا ورمى به إلى الكتب وفيه:

إذا الرجال ولدت أولادها ... واضطربت من كبر أعْضادُها

وجعلت أسقامها تعتادها ... فهى زروع قد دنا حصادها

فلما وردت الكتب عليه فقرأ هذا الكتاب، قال: نعى إلىَّ نفسى[(٤)].

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٣).

(٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٥٣).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٥٤).

٥ ـ نصيحة معاوية لشاعر من بنى أمية: قال معاوية رضى الله عنه، لعبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص: يا ابن أخى، إنك قد لهجت بالشعر، فإياك والتشبيب بالنساء؛ فتعُرّ الشريفة[1]، والهجاء فتعر كريمًا، وتستثير لئيمًا، والمدح فإنه طعمة الوقاح، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الأمثال ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك[2].

٦ ـ لا تقل دارى فى البصرة، ولكن قل: البصرة فى دارى: ذكر أن رجلاً سأل معاوية أن يساعده فى بناء دار باثنى عشر ألف جذع من الخشب. فقال له معاوية: أين دارك؟ قال: بالبصرة. قال: وكم اتساعها؟ قال: فرسخان فى فرسخين، قال: لا تقل دارى بالبصرة، ولكن قل: البصرة فى دارى[3].

٧ ـ علمت أن أكله سيُورِثه داءً: ذكر أن رجلاً دخل بابن معه، فجلسا على سماط معاوية، فجعل ولده يأكل أكلاً ذريعًا، فجعل معاوية يلاحظه، وجعل أبوه يريد أن ينهاه عن ذلك فلا يفطن، فلما خرجا لامه أبوه وقطعه عن الدُّخول، فقال له معاوية: أين ابنك التِّلقامة؟[4] قال: اشتكى. قال: قد عملت أن أكله سيورثه داء[5].

٨ ـ وإنك لتلحظ الشعرة فى لقمتى: روى أن معاوية قال للأعرابى: ارفع الشعرة من لقمتك، فقال: وإنك لتلحظ الشعرة فى لقمتى، والله لا أكلت معك طعامًا[6].

٩ ـ إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها: نظر معاوية إلى رجل وقف بين يديه يخاطبه وعليه عباءة، فجعل يزدريه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنك لا تخاطب العباءة، إنما يخاطبك من فيها[7].

١٠ ـ يا بنية، إنه زوجك الذى أحله الله لك: تزوج عبد الله بن عامر هند بنت معاوية، فلمّا أدخلت عليه بالخضراء، أرادها عن نفسه فتمنّعت عليه وأبت أشد الإباء، فضربها فصرخت، فلمّا سمع الجوارى صوتها صرخن وعلت أصواتهنّ،

---

(١) عرّه: أساء إليه وساءه.
(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٤).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٣).
(٤) التلقام، والتلقامة: كبير اللُّقم.
(٥) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٣).
(٦) المنتخب والمختار، ص (٥٥٩).
(٧) المصدر نفسه (١١/ ٤٥٣).

فسمع معاوية فنهض إليهنّ، فاستعلمهن ما الخبر، فقلن: سمعنا صوت سيدتنا فصحنا. فدخل فإذا هى تبكى من ضربه، فقال لابن عامر: ويحك مثل هذه تضرب فى مثل هذه الليلة؟ ثم قال له: اخرج من ههنا، فخرج وخلا بها معاوية فقال لها: يا بُنَيَّةُ، إنه زوجك الذى أحله الله لك، أو ما سمعتِ قول الشاعر:

من الخَضِرات[1] البيض أمَّا حرامها فصعب وأمَّا حِلُّها فذلول

ثم خرج معاوية من عندها، وقال لزوجها: ادخل فقد مهدت لك خُلُقَها ووطَّأته، فدخل ابن عامر، فوجدها قد طابت أخلاقها، فقضى حاجته منها.[2] رحمهم الله تعالى.

١١ ـ هل يصح قول معاوية: إن الكريم طروب: عن محمد بن عامر، قال: لام معاوية عبد الله بن جعفر على الغناء، فدخل يومًا على معاوية ومعه بُديح[3]، ومعاوية واضع رجلاً على رجل، فقال عبد الله لبديح: إيها[4] يا بديح، فتغنى، فحرك معاوية رجله، فقال عبد الله: مه يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: إن الكريم طروب[5]. هذا الخبر أورده البلاذرى[6] بنحوه، وأورده ابن عبد ربه[7]، مع بعض الزيادات المنكرة[8]، وهذه الرواية الضعيفة يردها ما أخرجه الطبرانى بإسناد حسن، من طريق كيسان مولى معاوية قال: خطب معاوية الناس فقال: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ نهى عن تسع، وأنا أنهاكم عنهن: النوح، والشِّعر، والتبرُّج، والتصاوير، وجلود السباع، والغناء، والذهب، والخزُّ، والحرير[9]. وكان -رضى الله عنه ـ ينهى عن الاستماع إلى الغناء وينكر ذلك على من يعرف به، وكان عامله على المدينة ابن الحكم شديدًا على أهل الدعارة والفسوق، فكانوا يهربون من المدينة أثناء ولايته[10].

---

(١) الخضرات: جمع خَضِرة من الخضر، وهو شدة الحياء.

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٤).

(٣) بديح المليح، من موالى عبد الله بن جعفر.

(٤) إيه: كلمة استزادة واستلطاف، الفيروز أبادى، القاموس (١٦٠٤).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٨٢).

(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٢٧)، مرويات خلافة معاوية، ص (٨٣).

(٧) العقد الفريد (٦/ ٢١، ٢٢)، مرويات خلافة معاوية، ص (٨٣).

(٨) مرويات خلافة معاوية، ص (٨٣).

(٩) المعجم الكبير (١٩/ ٣٧٣)، إسناده حسن.

(١٠) الدولة والمجتمع فى العصر الأموى، ص (٩٤).

١٢ ـ قضاء ديون السيدة عائشة رضى الله عنها: كان معاوية -رضى الله عنه- يهتم بالسيدة عائشة ويقضى عنها ديونها، فعن سعيد بن عبد العزيز، قال: قضى معاوية عن عائشة ثمانية عشرة ألف دينار[١]. وقال عروة: بعث معاوية مرةً إلى عائشة بمائة ألف، فوالله ما أمْست حتى فرَّقتها[٢].

١٣ ـ الاهتمام بحوائج الناس: كان معاوية -رضى الله عنه- يشفق على نفسه أن يكون احتجابه أحيانًا عن المسلمين ذنبًا يحاسب عليه، فلما سمع حديث النبى ﷺ: «من ولاه الله شيئًا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره»، جعل معاوية على حوائج الناس رجلاً يبلغه بها، كى لا يغيب عنه شىء منها[٣]، وكان عامله على المدينة إذا أراد أن يبرد بريدًا إلى معاوية أمر مناديه فنادى: من له حاجة، يكتب إلى أمير المؤمنين[٤].

١٤ ـ تأثر معاوية رضى الله عنه بموت الصالحين: حين توفى ابن لعتبة بن أبى سفيان، وجاء ناس إلى معاوية يعزونه فيه قال: إن موت غلام من آل أبى سفيان قبضه الله، ليس بمصيبة، إنما المصيبة كل المصيبة لموت أبى مسلم الخولانى وكريب ابن سيف الأنصارى[٥].

١٥ ـ اهتمام معاوية بالمساجد والعيون: اهتم معاوية بن أبى سفيان بالمسجد الحرام وأمر بتوسعته، وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال، وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف، واهتم بالمسجد الأقصى، وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية بالزيادة فى المسجد الجامع بالفُسطاط عام ٥٣هـ، وطلا جدرانه بالجص وزخرف بنيانه، وبنى له أربع منارات شامخة، وفرشه بالحصير. وأخذ أهل مصر ببيان المنارات للمساجد، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم فى الليل فى وقت واحد[٦]، ووسع المغيرة بن شعبة المسجد الجامع بالكوفة، ثم قام زياد بن أبيه فبناه وزاد فيه، وأحكمه وفرشه بالحصى، وكان يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثمانى

---

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤).

(٣) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٢٧٣)، نقلاً عن البداية والنهاية.

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٥٤).

(٥) تاريخ دمشق (١/ ٢٢٧) نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٥٣).

(٦) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤٧).

عشرة مئة درهم، واتخذ فيه مقصورة جدّدها خالد بن عبد الله القسرى أثناء ولايته على العراق، ثم قام عبيد الله بن زياد وزاد فى المسجد الجامع وفرشه بالحصى[1]، وزاد زياد بن أبيه فى المسجد بالبصرة زيادة كبيرة، وبناه بالآجر والجص، واستعمل الأساطين فى البناء، وسقفه بالساج وبنى منارته بالحجارة، وبنى فى البصرة المساجد الكثيرة، ثم قام عبيد الله بن زياد فزاد فى المسجد الجامع[2]، واهتم معاوية بالمرافق العامة فى الدولة الإسلامية، وحرص على توفير مياه الشرب فى المدينة، وأجرى فى الحرم المكى عيونًا[3]، وأنشأ آبار المياه على الطرقات، فربط بين أجزاء مملكته ربطًا محكمًا[4].

١٦ ـ سباق الخيل فى عهد معاوية رضى الله عنه: ويعد معاوية رضى الله عنه من أوائل الخلفاء الذين أرسوا تقاليد سباقات الخيل فى تاريخنا الإسلامى، حيث كان يقيم سباق الخيل فى دمشق، حيث يشترك فيه فرسان من جميع أطراف الدولة، وكان هؤلاء يدخلون الحلبة وهم يقولون الشعر فى الفخر بأنفسهم وخيلهم، وعند انتهاء السباق كان الخليفة يقدم جوائز ثمينة للفائزين[5].

١٧ ـ إطعام الحجاج والصائمين: جعل أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه دار المراجل بمكة، والتى كان يطبخ فيها طعام الحجاج، وطعام الصائمين من الفقراء فى شهر رمضان المبارك[6]، وقفًا فى سبيل الله.

١٨ ـ الله أقدر عليك منك عليه: رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلامًا له، فقال له: اعلم أن الله أقدر عليك منك عليه، سوأة لك!! أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع منك؟ والله لقد منعتنى القدرة من الانتقام من ذوى الإحن، وإن أحسن من عفا لمن قدر[7]. فهذا توجيه سديد من أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه لابنه

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤٧)، فتوح البلدان، ص (٣٩٩ ـ ٣٤٠).
(٢) فتوح البلدان، ص (٤٢٦، ٤٢٧)، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤٨).
(٣) أخبار مكة (٢/ ٢٢٧) الأزرقى، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٣٤١).
(٤) الخلافة الأموية، عبد المنعم الهاشمى، ص (٢٥).
(٥) التربية والثقافة العربية الإسلامية فى الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الاستناد إلى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ص (٩٤)، الرفق بالحيوان د. سلامة الهرفى ص (٤٩).
(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى ص (٢٦).
(٧) البداية والنهاية، (نقلاً عن التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٣).

يزيد نحو التخلق بهذا الخلق الكريم. العفو عند المقدرة، هذا الخلق الذى يعتبر من أهم عناصر السيادة وسياسة الأمـة، ولقد ذكّره بقدرة الله -جل وعلا- عليه ليحطً من تعاظمه بنفسه وليخشى الله سبحانه فيمن هم تحت يده[1].

ثانيًا: اهتماماته العلمية:

كان معاوية رضى الله عنه يشجع الولاة والعلمـاء وأبناء الأمة على إيجاد نهضة ثقافية حـضارية، وشهد عصره نهضـة فى التفسير وعلوم القرآن والفقـه والعقيدة، وتألق فـيـه نجم عـديد من العلمـاء الذين ظل المسلمـون بعـد ذلك يأخـذون من علومهم، ويستشهـدون بأقوالهم واجتـهاداتهم، كابن عـباس وأبى هريرة، وابن عمـر، وغيرهم وكانت الـعلوم الرئيسيـة هى القرآن الكريم والسنة النبوية والفـقه واللغة العربية، واهتم معاوية رضى الله عنه بغيرها من العلوم أيضًا، منها:

١ ـ اهتمام معاوية بالتاريخ:

كان مـعاوية رضى الله عنه الراعى الذى عـمل على أول تدوين باللغة العـربية للتـاريخ بمعناه العام، لا على أنه المغـازى النبوية وقـصص الأنبيـاء، ولا على أنه الأنسـاب، وأيام العـرب، ولكن علـى أنه تاريخ الأمم السـالفـة، وسـيـر الملوك والحروب، وأنواع السـياسات مما هو جـدير بالقراءة على الملوك[2]، فقـد كان ينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعـد، فيحضر الدفاتر فيها سـير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظـها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والآثار وأنواع السياسات[3]، وقد استدعى معاوية عبيدة ابن شرية- وهو أحد علماء التاريخ البارزين فى بلاد اليمن -إلى دمشق وسأله عن أخبار القدمـاء وملوك العرب والعجم، وأمر معاوية كتّـابه أن يدونوا ما يتحدث به عبـيد الله بن شرية؛ كـتاب الأمثال وكـتاب الملوك وأخبـار الماضين[4]، ولم يكن عبيدة هذا هو العـالم الوحيد الذى استقدمه مـعاوية إلى دمشق فكتب عنه روايات

---

(١) التاريخ الإسلامى (١٧/ ٢٤) .

(٢) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٥٤)، التاريخ العربى (١/ ٩٥).

(٣) مروج الذهب (٢/ ٤١)، الدولة الأموية، ص (٤٥٥).

(٤) مروج الذهب (٢/ ٨٥)، الدولة الأموية، ص (٤٥٥)، التعليم فى العصر الأموى، انتصار السبتى، ص (١١٧).

وصيرها كتبًا، بل أن كثيراً من الإخباريين أهل الدراية بأخبار الماضين، وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين وفدوا على معاوية أيضًا[1]، والدرس البالغ الأهمية يظهر فى أهمية التاريخ للساسة والحكام والملوك والزعماء، فالسياسى المستوعب لحركة التاريخ وسننه ينجح فى ميدان عمله أكثر من غيره، فهناك علاقة متينة بين التاريخ والسياسة.

٢ ـ اهتمام معاوية بالشعر واللغة:

كان معاوية رضى الله عنه يدرك أهمية الشعر، تواقًا له، ولم يغب عن حسه أهميته فى الدعاية السياسية للدولة، وكان يهتم بتربية أبنائه وأبناء أخيه على تعلم ومعرفة وتذوق الشعر، فقد كتب إلى زياد: أن أوفد إلىَّ ابنك، فلما قدم عليه لم يسأله معاوية عن شىء إلا نفذ منه، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئًا، فقال له: ما منعك من تعلم الشعر، فقال: يا أمير المؤمنين إنى كرهت أن أجمع فى صدرى مع كلام الرحمن كلام الشيطان، فقال معاوية: اغرب؟ فوالله ما منعنى فى الفرار يوم صفين إلا ابن الاطنابة حيث قال:

أبت لى عفتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإعطائى على الإعدام مالى ... وإقدامى على البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى[2]

ثم كتب إلى أبيه أن روِّه الشعر، فروَّاه حتى كان لا يسقط عنه شىء منه[3]، وكان معاوية رضى الله عنه يتمثل بهذه الأبيات كثيراً:

فما قتل السفاهة مثل حلم ... يعود به على الجهل الحليم
فلا تسفه وإن مُلِّئت غيظًا ... على أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أخًا لك عند ذنب ... فإن الذنب يغفره الكريم[4]

---

(١) التاريخ العربى والمؤرخون (١/ ٩٥)، الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٥٥).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٤٢٦). (٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٥٧).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ٤٤٢).

ومن اهتمام معاوية بالشعر حفظه له، فقد دخل ذات يوم على معاوية فى مجلسه ابن أبى محجن الثقفى، فقال له معاوية: أبوك الذى يقول:

إذا مت فادفنى إلى جنب كَرْمة ... تُرَوِّى عظامى بعد موتى عُرُوقُها
ولا تدفننِّى بالفلاة فإنَّنى ... أخاف إذا ما مت أن لا أَذُوقها

فقال ابن أبى محجن: لو شئت ذكرتُ أحسن من هذا من شعره، قال: وما ذاك؟ قال: قوله:

لا تسأل الناسَ: مالى وكثرته ... وسائل القوم ما حزمى وما خلقى
القوم أعلم أنى من سراتهم ... إذا تَطِيش يد الرِّعديدة الفَرِق
قد أركب الهوْل مسدولاً عساكره ... وأكتُم السرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ

وهو القائل:

إن يكن ولىّ الأمير فقد ... طاب منه النَّجْلُ والأثرُ
فيكم مستيقظ فَهِمٌ ... قُلْقُلانٌ حَيَّةٌ ذكرُ
أحمد الله إليك فما ... وصلة إلا ستنبترُ[1]

وكان الشاعر مسكين الدارمى من المقربين من معاوية وابنه، فقد سأل معاوية عنه عطارد بن حاجب، وقال له: ما فعل الدارمى الصبيح الوجه، الفصيح اللسان - يعنى مسكينًا؟- فقال: صالح يا أمير المؤمنين، قال: أعلمه أنى قد فرضت له، فله شرف بالعطاء وهو فى بلاده، فإن شاء أن يقيم بها أو عندنا فليفعل، فإنّ عطاءه سيأتيه، وبشرّه بأنى قد فرضت لأربعة آلاف من قومه من خِنْدِف[2]، وهذا الشاعر هو القائل فى معاوية رضى الله عنه:

إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تُثير القطا ليلاً وهن هُجُود
على الطائر الميمون والجدّ صاعد ... لكل أناس طائر وجدود
إذا المنبر الغربى خلّى مكانه ... فإن أمير المؤمنين يزيد[3]

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٤٢٤) .
(٢) تاريخ دمشق (٢٠/ ٣٩، ٤٠) .
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٥٤٤) .

ويقال إن معاوية أمر مسكين الدارمى أن ينظم قصيدة فى البيعة ليزيد، وبعد أن أنشد قصيدته -وكان بنو أمية وأشراف الناس حاضرين- لم يتكلم أحد من بنى أمية فى ذلك إلا بالإقرار والموافقة. . ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلا صلته[١]، ويعتبر مسكين الدارمى من شعراء عهد معاوية، وممن ترك أبياتًا جميلة منها قوله:

وإذا الفاحش لاقى فاحشًا ... فهناكم وافق الشن الطبق
إنما الفُحُش ومن يعتاده ... كغراب السَّوءِ ما شاء نعق
أو حمار السوءِ إن أشبعته ... رمح الناس وإن جاع نهق
أو غلامِ السوءِ إن جوعته ... سرق الجار وإن يُشبع فسق
أو كَغَيْرى رَفَعَتْ من ذَيْلِها ... ثم أرخَته ضِرارًا فامَّزَق
أيها السائلُ عمنًّ قد مضى ... هل جديد مثل ملبوس خَلَق[٢]

وهو القائل:

نارى ونارُ الجار واحدة ... وإليه قبلى تُنزَل القِدْرُ
ما ضرَّ جارًا لى أُجاورُهُ ... ألاَّ يكون لبابه سترُ
أعمى إذا ما جارتى برزت ... حتى يغيب جارتى الخدر[٣]

وكان معاوية -رضى الله عنه- يستنكر اللحن فحين أرسل زياد بن أبيه والى العراق ابنه عبيد الله إلى معاوية بن أبى سفيان لحن فى كلامه، فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت ولكن قوِّم من لسانه[٤]، ولما ارتفع إلى زياد رجل وأخوه فى ميراث، فقال: أنّ أبونا لما مات وثب أخينا على مال أبانا فأكله، فأفأ زياد فقال: الذى أضعت من لسانك أضرُّ عليك مما أضعت من مالك[٥]، وقد برز فى البصرة فى عهد معاوية كثير من النحويين فكان أبو الأسود الدؤلى أول من وضع أساس

(١) الأغانى للأصفهانى نقلاً عن الحياة العلمية فى العراق، ص (١١٠).
(٢) الشعر والشعراء (١/ ٥٤٤) . (٣) المصدر نفسه (١/ ٥٤٥) .
(٤) البيان والتبيين (٢/ ٢١٠)، الحياة العلمية فى العراق، ص (١١٠).
(٥) البيان والتبيين (٢/ ٢٢٢).

النحو فى البصرة، وكان أول من استَنَّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها، فكان سراة الناس يلحنون وكذلك وجوه الناس، فوضع باب الفاعل، والمفعول به، والمضاف، وحرف الجر والرفع والنصب والجزم[1]، وألف كتابًا فى النحو[2]، وكان شاعرًا، ومن أشهر أبياته قوله:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذى السقام ... وذى الظنا كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدًا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانْهَها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه، فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويهتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتىَ مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم[3]

وله فى الزهد المبرأ من الكسل كقوله:

وإذا طلبت من الحوائج حاجة ... فادع الإله وأحسن الأعمال
فليعطينك ما أراد بقدرة ... فهو اللطيف لما أراد فعالا
ودع العباد وشأنهم وأمورهم ... بيد الإله يقلّب الأحوال[4]

٣ ـ اهتمام معاوية بالعلوم التجريبية:

ورثت الدولة الأموية علوم الأعاجم من الفرس والروم بعد انهيار دولتهم، وكان لابد ـ للإفادة من ذلك التراث ـ من ترجمته ونقله إلى العربية، بعد أن غدا تراثًا تقليديًا تداولته أيدى الشارحين والمحترفين ممن أجادوا اليونانية أو السريانية[5]، وقد كان بعض هذه الترجمات حافزًا على الاهتمام بالعلوم التجريبية، وربما كان العكس صحيحًا أحيانًا.. ومعلوم أن كل ذلك يحتاج إلى جهد كبير تعجز عنه

(١) طبقات النحويين، الزبيدى، ص (٢١)، الحياة العلمية فى العراق، ص (١٠٤).
(٢) الشعر والشعراء (٢/ ٧٢٩). (٣) الأدب الإسلامى وتاريخه، عابد الهاشمى (٢/ ١٧).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٧)، ديوان أبى الأسود الدؤلى.
(٥) تاريخ سوريا، فيليب حتى، (١/ ١٣٢)، الدولة الأموية، شاهين، ص (٤٥٩).

إمكانات الأفراد العاديين، ولذا فقد وقف الأمويون يشجعون على ذلك حتى تحققت أعمال جيدة -على نحو ما سنرى بإذن الله- كانت بداياتها فى عهد معاوية، فقد كان سباقًا إلى رعاية العلوم وأهلها؛ فأنشأ بيتًا للحكمة، أى مركز للبحث ومكتبة، واستمر المروانيون يعنون بهذا البيت حتى فى أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به[1].

ويشير بعض المؤرخين إلى دور ابن أثال النصرانى طبيب معاوية فى نقل بعض معارف الطب إلى العربية، على أن بداية الجهود الحقيقية فى الترجمة بدأت مع خالد بن يزيد أول من عنى بنقل الطب والكيمياء إلى العربية[2]، فقد أمر بإحضار جماعة من اليونانيين ممن درسوا بمدرسة الأسكندرية فى مصر وتفصحوا بالعربية كذلك، فطلب منهم نقل كثير من الكتب من اللسان اليونانى والقبطى إلى اللسان العربى، وكان هذا أول نقل فى الإسلام[3]، كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس فى الطب، فوضع بذلك أساس العلوم الطبية، وهو أول من أعطى الترجمة والفلاسفة، وقَرّب أهل الحكمة ورؤساء كل صنعة، وترجمت له كتب النجوم والطب والكيمياء، والحروب والآلات والصناعات، وهو أول من جمعت له الكتب وجعلها فى خزانة الإسلام، ففى دمشق أنشئت أول دار للكتب فى العالم الإسلامى[4]. وقد ظهرت دلائل كثيرة تدل على تزايد عدد المشتغلين فى الطب فى عهد معاوية بحيث أصبحت النسبة طبيبًا لكل خمسمائة وأربعة وثلاثين فردًا، وهذه النسبة تمّ أخذها مما أورده ابن كثير من أن زياد بن أبيه والى البصرة حينما طعن فى يده جمع مائة وخمسين طبيبًا ليداووه[5]، وكان عدد سكان البصرة ثمانين ألفًا تقريبًا[6].

---

(١) الدولة الأموية، يوسف العشى، ص (٣٤٨).

(٢) عيون الأبناء فى طبقات الأطباء، ابن أبى أصيبعة، ص (١٧١٧).

(٣) الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص (٤٦٠).

(٤) خطط الشام (٤/٢٣، ٢٤)، الدولة الأموية، حمدى شاهين، ص(٤٦٠).

(٥) البداية والنهاية (١١/٢٦١) .

(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٥٥).

المبحث الرابع

الخوارج فى عهد معاوية

عرف الخوارج بهذا الاسم بعد التحكيم فى معركة صفين، وكانوا قبلها من أشد أنصار على بن أبى طالب رضى الله عنه وحضروا معه موقعة الجمل وصفين، ولكنهم انشقوا عليه بعدها، ورفضوا التحكيم، وحاول على إقناعهم وردهم إلى الجماعة ولكنهم تشبثوا بموقفهم، وبالغوا فى شقاقهم وتطرفوا، حتى عاثوا فى الأرض فساداً، مما جعل عليًا يقاتلهم ويقضى على معظمهم فى معركة النهروان، وهم لا يرضون عن تسميتهم خوارج، لأن هذه التسمية أطلقها عليهم خصومهم لخروجهم على الإمام، وعلى جماعة المسلمين، أما هم فيسمون أنفسهم الشراة، لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى، على أن لهم الجنة يشيرون بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ... ﴾ [التوبة: ١١١]. ويسمون المحكمة، لأنهم قالوا: لا حكم إلا لله، وكان يطلق عليهم أيضًا الحرورية، نسبة إلى قرية حروراء التى انحازوا إليها بظاهر الكوفة لأول خروجهم على على[١]، ولما كان سبب خروجهم هو قبول على التحكيم بينه وبين معاوية رضى الله عنهما، فقد صاغوا لأنفسهم نظرية فى الخلافة تقوم على مبدأين عامين يجمعان بين فرقهم المتباينة[٢]، المبدأ الأول: أن الخلافة ليست وقفًا على قريش كما يذهب أهل السنة[٣]، بل تجوز لكل مسلم يكون أهلاً لها -حتى ولو كان عبدًا حبشيًا- ويجب أن يكون الخليفة باختيار حر من المسلمين، وأنه إذا تم اختياره لا يصح له أن يتنازل عنها، أو يقبل التحكيم، وفى ضوء هذا المبدأ اعترفوا بخلافة أبى بكر وعمر، أما عثمان فقد اعترفوا بخلافته فى شطرها الأول، ثم تبرؤوا منه وكفروه فى بقية عهده، وأما على فقد اعترفوا بخلافته من بدايتها إلى أن قبل التحكيم، وبعد قبوله التحكيم لم يعترفوا بخلافته بل كفروه[٤]، وكذلك لم

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٤).

(٢) النظريات السياسية الإسلامية، محمد ضياء، ص (٥٧).

(٣) الدولة الأموية فى المشرق، محمد النجار، ص (٨٧). (٤) مقالات الإسلاميين (١/١٥٦- ١٨٩).

يعترفوا بخلافـة معاوية وبنى أمية[١]، وكفروهم، كما كفـروا عائشة وطلحة والزبير وعمـرو بن العاص وأبا موسى الأشـعرى. وعلى الجملة كـفروا كل من لم ير رأيهم ويذهب مذهبهم من المسلمين، واعتبـروا دارهم دار كفر، وأباحوا أموالهم ودماءهم، حتى قـتل أطفالهم[٢]. المبدأ الـثانى الذى قامت عـليه نظرية الخـوارج: هو وجوب الخروج على الإمام الجائر[٣]، وهنا وجه الخطورة فى حـركتهم كلها، فلو اقـتصروا على الخـلاف النظرى فى الرأى، أو الجدال بـالحجـة والبرهان، لكان الأمـر أهون، ولكنهم شهروا الـسلاح فى وجه مخالفـيهم، بدءًا من على بن أبى طالب رضى الله عنه، وحاولوا فـرض آرائهم ومذهبهم بالقـوة، كما تطرفوا إلى أبعـد حد فى الرأى والمذهب، فقد تطرفـوا فى اللجوء إلى القوة والعنف، وكبدوا الأمة وأنفـسهم خسائر فادحة، وعكروا صفو الدولة الأمـوية، وكانوا من أشد مناوئيها[٤]، وقد تحدثت عن الخوارج بنوع من التفصيل فى كتـابى «أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على بن أبى طالب شخصيته وعصره»[٥]، وذكرنا قبل قليل أن خطورة حركة الخوارج تكمن فى لجوئـهم إلى الثورة والعنف، ولشـدة إيمانهم بمبـادئهم فقـد ضحـوا فى سبيـلها بأرواحـهم، وأبدوا كثـيرًا من ضـروب الشـجاعـة والإقدام فى حـروبهم مع الدولة الأموية، وكـانوا أشبه بالفرق الانتـحارية، فكثيـرًا ما كانت أعـداد قليلة منهم تهزم جيوشًا جرارة للدولة، ولو أن هذه الشجاعة والإقدام والتضحية اتجهت اتجاهًا سليمًا، ووحد الخوارج جهـودهم مع جهود الدولة فى محاربة أعداء الإسـلام لربما تغير وجه التاريخ الإنسانى كله بشكل جذرى، والحقيقة أنهم لم يكونوا طلاب دنيا، ولم يجروا وراء المادة، وإنما أخلصوا للفكرة التى آمـنوا بها وملكت عليهم جوانب حـياتهم[٦]، وأفنوا أنفسـهم، وكلفوا الأمة الكثـير من الجهـد والوقت والمال والأرواح، وإذا كان الخوارج قد خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب وكفروه وحاربوه، فسيكون موقفهم من الدولة الأموية أعنف، وبغضهم لها أشد، فقد شهروا السلاح فى وجهها من أول لحظة، فثاروا على معاوية رضى الله عنه قبل أن يغادر الكوفة عام ٤١هـ[٧].

(١) الدولة الأموية فى المشرق، ص (٨٧).
(٢) مقالات الإسلاميين (١/ ١٥٩ - ١٨٩).
(٣) النظريات السياسية الإسلامية، ص (٥٧).
(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٥).
(٥) أسمى المطالب فى سيرة أمير المؤمنين على، ص (٦٣٣).
(٦) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٤٥٨).
(٧) المصدر نفسه، ص (٤٥٨)، تاريخ خليفة ص (٢٠٣، ٢٠٤).

أولاً: حركات الخوارج فى الكوفة:

١ ـ حركة فروة بن نوفل الأشجعى: قال الطبرى فى حوادث عام ٤١هـ: وفيها خرجت الخوارج -التى اعتزلت أيام على عليه السلام بشهرزور-[١] على معاوية[٢]، وقال: حدثت عن زياد، عن عوانه، قال: قدم معاوية قبل أن يبرح الحسن من الكوفة حتى نزل النخيلة، فقالت الحرورية[٣]، الخمسمائة الذين كانوا اعتزلوا بشهرزور مع فروة بن نوفل الأشجعى-: قد جاء الآن ما لا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه، فأقبلوا وعليهم فروة بن نوفل حتى دخلوا الكوفة، فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام، فكشفوا أهل الشام، فقال معاوية لأهل الكوفة: لا أمان لكم والله عندى حتى تكفوا بوائقكم، فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلوهم، فقالت لهم الخوارج: ويلكم ما تبغون منا، أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله، وإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم، وإن أصابنا كنتم كفيتمونا، قالوا: لا والله حتى نقاتلكم، فقالوا: رحم الله إخواننا من أهل النهر[٤]، هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة، وأخذت أشجع صاحبهم فروة بن نوفل ـ وكان سيد القوم ـ واستعملوا عليهم عبد الله بن أبى الحر[٥] ـ رجلاً من طيء ـ فقاتلوهم فقتلوا[٦]. وفروة بن نوفل الأشجعى هو القائل قبيل معركة النهروان: والله ما أدرى على أى شيء نقاتل عليًا، لا أرى إلا أن انصرف حتى تنفذ لى بصيرتى فى قتاله أو اتباعه، وانصرف فى خمسمائة فارس[٧]. وذكر ابن حجر رواية هامة تبين موقف معاوية رضى الله عنه من الخوارج بعد توليه الخلافة، وفيما يلى نص رواية ابن حجر: . . . فرجع الناس فبايعوا معاوية، ولم يكن

---

(١) شهرزور: كورة واسعة تقع بين إربل وهمذان، أهلها أكراد، وهى فى العراق اليوم: معجم أماكن الفتوح، ص (٧٤١).

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٨١) .

(٣) الحرورية: هم الخوارج، وحروراء قرية بظاهر الكوفة، نزل فيها الخوارج الذين خالفوا عليًا رضى الله عنه، فنسبوا إليها، معجم البلدان (٢/ ٢٤٥) .

(٤) تاريخ الطبرى: (٦/ ٨١) .

(٥) كان ممن اعتزل قتل على يوم النهروان، أنساب الأشراف (٤/ ١٦٤) .

(٦) أنساب الأشراف (٤/ ١٦٤) . (٧) مرويات خلافة معاوية، ص (١٨٢) نقلاً عن تاريخ الطبرى.

لمعاوية هَمٌّ إلا الذين بالنهروان[1]، فجعلوا يتساقطون عليه فيبايعونه، حتى بقى منهم ثلاثمائة أو نيف[2]، وهم أصحاب النخيلة[3].

٢- حركة المستورد بن عُلَّفة التيمى[4]: تحدث الطبرى فى تاريخه عن حركة المستورد بن عُلَّفة التيمى بإسهاب وتفصيل بعكس أكثر المصادر التى تناولت هذا الحدث، حيث تحدث خليفة[5] بن خياط عن هذه الحركة باختصار شديد، وقد أطال الطبرى الحديث عن حركة المستورد بن عُلَّفة التيمى، ولعل ذلك إشارة منه لأهميتها، وأهمية هذه الحركة تعود إلى كون أصحابها يمثلون الامتداد الطبيعى لفكر خوارج النهروان الذين قاتلهم على رضى الله عنه، إذ أن معظم المنتسبين إلى هذه الحركة كانوا فى خندق واحد فى معركة النهروان، وهذا الأمر هو الذى دفع المغيرة ابن شعبة والى الكوفة إلى اللجوء إلى أنصار على رضى الله عنه، وخاصة الذين شاركوا فى معركة النهروان من أمثال معقل بن قيس الرياحى الذى كان أحد قادة على يوم النهروان[6]، وتكليفه قيادة الحملة المتوجهة لقتال الخوارج، لأن أنصار على رضى الله عنه هم أخبر الناس بالخوارج وأشدهم عليهم، وما جاء من مرويات فى تاريخ الطبرى قدمت لنا تفاصيل هامة عن الحدث، منها:

أ ـ موقف الخوارج من استشهاد على رضى الله عنه، ويستفاد هذا من قول الخوارج: . . لا يقطع الله يمينًا علت قذاله[7] بالسيف؛ قال: فأخذ القوم يحمدون الله على قتله[8].

ب ـ أسباب خروجهم على جماعة المسلمين: ويستفاد هذا من قول الخوارج: فلنأت إخواننا فلندعهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإلى جهاد الأحزاب، فإنه لا عذر لنا فى القعود، وولاتنا ظلمة، وسُنَّة الهدى متروكة، وثأرنا الذين قتلوا إخواننا فى المجالس آمنون، فإن يظفرنا الله بهم نعمد بعد إلى التى هى أهدى وأرضى وأقوم، ويشفى الله بذلك صدور قوم مؤمنين، وإن نقتل فإن فى مفارقة الظالمين راحة لنا، ولنا بأسلافنا أسوة[9].

---

(١) أى الخوارج .

(٢) النيف: من واحد إلى ثلاثة، القاموس المحيط، ص (١١١).

(٣) سموا بذلك لأنهم قتلوا فى النخيلة، معجم البلدان (٢/ ١٨٥).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧ - ٩٢).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٨٩).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٠).

(٧) القذال: مؤخرة الرأس، القاموس المحيط، ص (٧٧٤).

(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٨).

(٩) المصدر نفسه (٦/ ٨٩).

جـ ـ سياسة المغيرة بن شعبة رضى الله عنه مع الخوارج: ويستفاد هذا مما يلى: وأحسن فى الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وكان يؤتى ويقال له: إن فلانًا يرى رأى الشيعة، وإن فلانًا يرى رأى الخوارج، وكان يقول: قضى الله ألا تزالون مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون[1]. وقال المغيرة لقبيصة بن الدمون: الصق لى بشيعة على، فأخرجهم مع معقل بن قيس، فإنه كان من رؤوس أصحابه، فإذا بعثت بشيعته الذين كانوا يعرفون فاجتمعوا جميعًا، استأنس بعضهم ببعض وتناصحوا، وهم أشد استحلالاً لدماء هذه المارقة، وأجرأ عليهم من غيرهم، وقد قاتلوا قبل هذه المرة[2]. قال المغيرة: يا معقل بن قيس، إنى قد بعثت معك فرسان أهل مصر، أمرت بهم فانتخبوا انتخابًا، فسر إلى هذه العصابة المارقة الذين فارقوا جماعتنا، وشهدوا عليها بالكفر، فادعهم إلى التوبة، وإلى الدخول فى الجماعة، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، وإن هم لم يفعلوا فناجزهم، واستعن بالله عليهم[3].

د ـ حركة حيان بن ظبيان السلمى: ظهرت هذه الحركة عام ٥٨هـ، وكانت فى ولاية عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبى سفيان، ففى أثناء ولايته خرجت الطائفة الذين كان المغيرة بن شعبة حبسهم فى السجن من الخوارج الذين كانوا بايعوا المستورد بن علفة، فظفر بهم فاستودعهم السجن[4]، فلما مات خرجوا من السجن، وقاموا بحركة مضادة للخلافة، وكان رئيسهم حيان بن ظبيان السُّلَمى، فبعث إليهم والى الكوفة جيشًا فقتلوا الخوارج جميعًا[5].

ثانيًا: حركات الخوارج فى البصرة:

١ ـ حركة يزيد الباهلى وسهم الهجيمى: فى عام ٤١هـ خرج فى ولاية عبد الله ابن عامر لمعاوية، يزيد بن مالك الباهلى، وخرج معه سهم بن غالب الهجيمى، فأصبحوا عند الجسر، فوجدوا عبادة بن قرص الليثى -أحد بنى بجر ـ وكانت له

(١) تاريخ الطبرى (٦/٨٩).
(٢) مرويات خلافات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (١٩٢)، (تاريخ الطبرى (٦/١٠٥).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/١٠٦).
(٤) المصدر نفسه (٦/٣٢٦).
(٥) البداية والنهاية (١١/٣١٣).

صحبة ـ يصلى عند الجسر، فأنكروه فقتلوه، ثم سألوا ابن عامر الأمن فأمنهم، وكتب إلى معاوية: قد جعلت لهم ذمتك، فكتب إليه معاوية: تلك ذمة لو أخفرتها لا سُئلت عنها، فلم يزالوا آمنين حتى عزل ابن عامر[1]. وفى عام ٤٦هـ خرج سهم الهجيمى والخطيم وهو يزيد بن مالك الباهلى لما تولى زياد، فأما سهم فخرج إلى الأهواز فأحدث وحكَّم ثم رجع فاختفى وطلب الأمان، فلم يؤمنه زياد حتى أخذه وقتله وصلبه على بابه، وأما الخطيم فإن زيادًا سيره إلى البحرين، ثم أذن له فتقدم، فقال له: الزم مصرك، وقال لمسلم بن عمرو الباهلى[2]: اضمنه، فأبى وقال: إن بات خارج بيته أعلمتك، ثم أتاه مسلم فقال: لم يبت الخطيم الليلة فى بيته فأمر به فقتل، وألقى فى باهلة[3].

٢ ـ حركة قريب الأزدى وزحاف الطائى: فى عام ٥٠هـ خرج قريب الأزدى وزحّاف الطائى بالبصرة وهما ابنا خالة، وزيادِ بالكوفة وسمرة[4] على البصرة، فأتيا بنى ضبيعة، فى سبعين رجلاً، وقتلوا منهم شيخًا، وخرج على قريب وزحّاف شباب من بنى على وبنى راسب فرموهم بالنَّبل، وقتل عبد الله بن أوس الطاحىّ قريبًا وجاء برأسه، واشتد زياد على المنبر فقال: يا أهل البصرة والله لتكفُنّنى هؤلاء أو لأبدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهمًا، فثار الناس بهم فقتلوهم[5].

٣ ـ خبر عروة بن أُدية الخارجى: فى سنة ٥٨هـ اشتد عبيد الله بن زياد على الخوارج، فقتل منهم صبرًا جماعة كثيرة، وفى الحرب جماعة أخرى، وممن قتل منهم صبرًا عروة بن أديَّة أبى بلال مرداس بن أدية[6]، وكان سبب قتله أن ابن زياد قد خرج فى رهان له، فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع إليه الناس وفيهم عروة، فأقبل على ابن زياد يعظه، وكان مما قال له: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠].

---

(١) الكامل (٢/ ٤٥٤).
(٢) عمرو الباهلى والد قتيبة الفاتح الكبير.
(٣) الكامل (٢/ ٤٧٧).
(٤) سمرة بن جندب الفزارى صحابى، مات بالبصرة سنة ٥٨هـ، الاستيعاب (٢/ ٦٥٣).
(٥) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٢)
(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٠).

فلمّا قال ذلك ظن ابن زياد أنه لم يقل ذلك إلا ومعه جماعة، فقام وركب وترك رهانه. فقيل لعروة: ليقتلنّك، فاختفى، فطلبه ابن زياد فهرب وأتى الكوفة فأُخذ وقدم به على ابن زياد فقطع يديه ورجليه[(١)].. ثم دعا به فقال: كيف ترى؟ قال: أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك، فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها[(٢)] بسبب اعتناقها مذهب والدها[(٣)]. وذكر المبرد فى كتابه الكامل فى اللغة سببين هامين كان لهما أثر كبير فى مقتل عروة بن أدية، الأول: تكفير هذا الخارجى لعثمان وعلى رضى الله عنهما، والثانى: إقدامه على مساعدة أخيه مرداس بن أدية على الخروج[(٤)].

٤ ـ حركة مرداس بن أدية: وفى عام ٥٨هـ خرج مرداس بن أُديَّة بالأهواز، وكان ابن زياد قبل ذلك حبسه فيمن حبس من الخوارج، فكان السجان يرى عبادته، واجتهاده، وكان يأذن له فى الليل، فينصرف، فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن، وكان صديق لمرداس يسامر ابن زياد، فذكر ابن زياد الخوارج فعزم على قتلهم، إذا أصبح، فانطلق صديق مرداس إلى منزل مرداس فأخبرهم، وقال: أرسلوا إلى أبى بلال فى السجن فليعهد فإنه مقتول، فسمع ذلك مرداس، وبلغ الخبر صاحب السجن، فبات بليلة سوء إشفاقًا من أن يعلم الخبر مرداس فلا يرجع، فلما كان الوقت الذى كان يرجع فيه إذا به قد طلع، فقال له السجان: هل بلغك ما عزم عليه الأمير؟ قال: نعم، قال: ثم غدوت! قال: نعم، لم يكن جزاؤك مع إحسانك أن تعاقب بسببى، وأصبح عبيد الله فجعل يقتل الخوارج، ثم دعا مرداس، فلما حضر وثب السجان ـ وكان ظئرًا[(٥)] لعبيد الله- فأخذ بقدمه، ثم قال: هب هذا، وقص عليه قصته، فوهبه له وأطلقه[(٦)]. وقد أشار البلاذرى إلى أن عزم عبيد الله بن زياد على قتل من فى السجن من الخوارج كان بسبب إقدام بعضهم على قتل أحد الحرّاس[(٧)]. ثم أن مرداس خاف ابن زياد فخرج فى أربعين

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥١٧).

(٢) أنساب الأشراف (٤/ ٣٨٧، ٣٨٨)، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣٠).

(٣) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٠٤).

(٤) الكامل فى اللغة (٣/ ١٠٩٨)، نقلاً عن مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٠٥).

(٥) أى زوج مرضعته، لسان العرب (٤/ ٥١٥). (٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣١).

(٧) أنساب الأشراف (٤/ ١٨١).

رجلاً إلى الأهواز، فكان إذا اجتاز به مال لبيت المال أخذ منه عطاءه وعطاء أصحابه ثم يرد الباقى، فلما سمع ابن زياد خبرهم بعث إليهم جيشًا عليهم أسلم ابن زرعة الكلابى سنة ستين، وقيل: أبو حصين التميمى، وكان الجيش ألفى رجل، فلمّا وصلوا إلى أبى بلال ناشدهم الله أن يقاتلوه فلم يفعلوا، ودعاهم أسلم إلى معاودة الجماعة، فقالوا: أتردّوننا إلى ابن زياد الفاسق؟ فرمى أصحاب أسلم رجلاًمن أصحاب أبى بلال فقتلوه، فقال أبو بلال: قد بدأوكم بالقتال. فشدّ الخوارج على أسلم وأصحابه شدّة رجل واحد فهزموهم فقدموا البصرة، فلام ابن زياد أسلم وقال: هزمك أربعون وأنت فى ألفين، لا خيرَ فيك. فقال: لأن تلومنى وأنا حى خير من أن تثنى علىّ وأنا ميت، فكان الصبيان إذا رأوا أسلم صاحوا به: أما أبو بلال وراءك! فشكا ذلك إلى ابن زياد، فنهاهم فانتهوا[1]. فهذه أهم حركات الخوارج فى عهد معاوية.

ثالثًا: أهم الدروس والعبر والفوائد:

أهم الدروس والعبر والفوائد فى محاربة معاوية للخوارج:

١ ـ إن الناظر فى سلوك الخوارج زمن معاوية يجد أن خروجهم فى ذلك العهد كان يستهدف إزعاج نظام حكم بنى أمية وإضعافه، دون أن يكون لهم أمل فى القضاء عليه[2].

٢ ـ كانت بعض هذه الحركات مقتصرة على المجموعات المنسحبة من النّهروان والتى ظلت مشتتة فى الأرياف، وعدم وجود ما يشير إلى مشاركة الخوارج المقيمين فى الكوفة فيها، وهو ما يؤكد عدم حصول تحوّل فى موقف هؤلاء رغم التغيير الذى طرأ على السلطة[3].

٣ ـ ومن الملاحظات ما يخصّ الكوفيين الذين أبدى العديد منهم حماسًا فى محاربة الخوارج، وإذا كنا نعتقد أن تهديدات معاوية وعداء بعض الكوفيين للخوارج بسبب موقفهم من على قد لعبت دورًا فى دفع هؤلاء إلى المشاركة فى قمع الثائرين، فإننا لا نستبعد أن تكون الرغبة الملحّة فى إنهاء الحروب والانقسامات

(١) الكامل فى التاريخ (٢/٥١٨) .

(٢) الخوارج فى العصر الأموى، نايف معروف، ص(١٣٠).

(٣) حركة الخوارج، لطيفة البكّاى، ص(٦٠).

والعودة إلى الوحدة قد ساهمت بدورها فى دفع الكوفيين إلى مساعدة معاوية فى القضاء على هؤلاء المعارضين، رغم يقينهم أنّهم سيفقدون مع الحكم الجديد امتيازاتهم، وسيفقد مصرهم المكانة التى كان يتمتع بها فى خلافة على[1].

٤ ـ كان معاوية رضى الله عنه على وعى تام بحقيقة المعارضة الخارجيّة وموقفها من السلطة، ومن شخصه بالذّات، ولذلك لم يعمل على جلب الخوارج إلى صفّه، وقرّر منذ اللحظة الأولى التصدى لهم بالقوة[2].

٥ ـ لم يتردد المغيرة بن شعبة فى محاربة الخارجين على السلطة بالشرطة والجيش، ولم يقتصر استعمال القوة على الثائرين، بل شمل حتى الذين بلغه أنهم ينوون الخروج مثل معين بن عبد الرحمن المحاربى، وحيان بن ظبيان السّلمى وغيرهما، وهو ما يدل على أن المغيرة كان يقوم بمراقبة تحركات الخوارج داخل المصر، ويتجسس عليهم وينزل عقوباته بهم تبعًا لما يصله عنهم من أخبار[3].

٦ ـ أهم وأخطر ما قام به المغيرة رضى الله عنه هو استعماله أنصار على رضى الله عنه ضد الخوارج، مستفيداً من العداوة التى كانت بينهم، وهو عمل استفادت منه الدولة الأموية على المدى القريب والبعيد، فعلى المدى القريب، حاصر المغيرة بأعماله الفكر الخارجى فى الكوفة، وأسكت المعارضين الموجودين فيها دون أن يكلف الدولة خسارة تُذكر، . . فضلاً عن أنه شغل الكوفيين عن معارضة الدولة الأموية وأعطاها بذلك الفرصة لتدعيم نفوذها[4]. أما على المدى البعيد فقد عمّق المغيرة الهوّة بين الخوارج والشيعة، وأبعد إمكانية التقارب بين هاتين الحركتين لفترة طويلة، مجنبًا بذلك الدولة الأموية خطر مواجهة معارضة موحدة وقوية، غير أن ما قام به المغيرة تجاه المعارضة فى الكوفة لم يكن سوى تطبيق لأوامر الخليفة نفسه مع بعض الاجتهادات التى رأى أنّها تخدم الدولة أكثر[5]. . . وأما أنصار أمير المؤمنين على رضى الله عنه وخاصة الزعماء منهم، فقد عملت الدولة الأموية على تقريبهم وكسبهم، ولذلك سلك المغيرة سياسة اللين معهم وهو ما ضمن الهدوء فى الكوفة طيلة ولايته عليها[6].

---

(١) حركة الخوارج، لطيفة البكاى، ص (٦٠).
(٢) المصدر نفسه، ص (٦٦).
(٣) المصدر نفسه، ص (٦٥).
(٤) المصدر نفسه، ص (٦٥).
(٥) المصدر نفسه، ص (٦٦).
(٦) المصدر نفسه، ص (٦٦).

٧ - مع تولى زياد البصرة تصاعدت عمليات القمع ضد الخوارج، فبالإضافة إلى القتل كان زياد يمثل بالمقتولين فيصلبهم فى الأماكن العامة، أو فى دُورهم، وقد شمل التمثيل الخارجين من الرجال والنساء، ورغم أن التمثيل يعد من الأعمال البشعة التى نهى رسول الله ﷺ عن القيام بها حتى مع الكفّار، فإن زياداً استعمله مع المسلمين رجالاً ونساءً ليروِّع بقية السكان ويلزمهم الهدوء، ولم تكن العقوبات المسلطة على الخوارج مقتصرة على القتل والتمثيل والتسيير والإقامة الجبرية، بل شملت كذلك العطاء، وقد تجاوز زياد فى هذا المجال من سبقه من الحكّام، إذ قام بشطب أسماء الخوارج من سجلات الديوان[1].

٨ - أقحم زياد بأعماله العنف فى سياسة الدولة وجعله إحدى ركائزها، واعتبر أن مصلحتها تقتضى استعماله ضدّ كل الذين يرفضون الخضوع لسلطتها[2].

٩ - أدّت سياسة زياد - العنيفة - إلى إخماد تحرّكات الخوارج، وفرضت هيبة الدولة على الجميع، وحولّت القبائل إلى طرف له دور فى سياستها، ومنحتها مهمة توفير الأمن داخل المصر، بعد أن كانت مهامها تقتصر على دفع الدّية والتأطير العسكرى، إلا أنّها أضعفت التضامن القبلى، وأفقدت القبيلة القدرة على حماية أبنائها الخارجين على السُّلطة وأجبرتها على القبض عليهم ومعاقبتهم أحيانًا، ولئن نجح زياد فى إخماد تحرّكات المعارضين وزرع الرّعب فى نفوس بقية سكان العراق، وتحويلهم من مقاتلة يتمتعون بقدر كبير من الحرية إلى رعية خاضعة كليًا لأجهزة الدّولة، فقد فشل فى خنق إرادة الخروج لدى قسم كبير من الخوارج، وهو ما يفسر عودة الانتفاضات فى ولاية ابنه عبيد الله[3].

١٠ - تجاوز عبيد الله بن زياد والده فى قمع الخوارج، بفرضه العقوبات على الجميع، المعلن والمسر على حدّ السواء، وإذا كان القتل هو عقوبته المفضلة، فقد كان يعمد أحيانًا إلى سجن البعض منهم، كما كان يسمح أحيانًا أخرى وتحت تأثير رجال القبائل بإطلاق سراح البعض الآخر، مع فرض الإقامة الجبرية عليهم، وتكليف من يقوم بعملية المراقبة التى كانت غالبًا ما تنتهى بقتلهم لمخالفتهم الأوامر. . ولم يكن

---

(١) صدر الإسلام والدولة الأموية، محمد عبد الحى شعبان، ص (٩٩)، الخوارج، لطيفة البكّاى، ص (٧٠).

(٢)، (٣) حركة الخوارج، لطيفة البكّاى، ص (٧١).

ابن زياد ينتظر خروج الحرورِيَّة عليه بل كان يبحث عنهم مستعملاً كل الوسائل بما فى ذلك تشجيع السكّان بالمال لتتبع تحرّكات أبناء قبائلهم، ونقلها إليه أو إلى أعوانه، وقد أدّت هذه الطريقة إلى إلقاء القبض على العديد ممن يحمل هذا الفكر أو يتعاطف معه أو يُشتبه فيه ذلك، ولكنها فسحت فى الوقت نفسه المجال أمام الوشاية، وتلفيق التّهم بالباطل(٤)، فأججت بذلك الحزازات القبلية القديمة، وخلقت خلافات جديدة بين القبائل(٥).

١١ ـ كانت السمات العامة لحركات الخوارج فى خلافة معاوية رضى الله عنه كالتالى:

أ ـ اتسمت بالعشوائية والارتجال وقلة التنظيم.

ب ـ كانت أشبه ما تكون بعمليات انتحار جماعى، لأنهم يخرجون بفئات قليلة لا تلبث أن تستأصل.

جـ ـ افتقارهم إلى قيادة واعية ومحنكة تستطيع استثمار شجاعتهم وفروسيتهم لتحقيق أهدافهم.

د ـ تكرارهم لأخطاء بعضهم، وعدم استفادة كل حركة من تجربة سابقتها.

هـ ـ استبعادهم لأسلوب الحوار والمناظرة فى عودتهم، ومحاولة فرض فكرهم على المجتمع المسلم بالقوة.

و ـ اختلاط الدوافع الدينية التى دعتهم للخروج ـ بزعمهم ـ مع دوافع العصبية الجاهلية فى حركاتهم، والمتمثلة بخروج بعضهم ثأرًا لمن قتل من أصحابهم.

ز ـ شعورهم بالغربة داخل المجتمع المسلم، ونفورهم منه، واقتناعهم أن قتال أهل القبلة أولى من جهاد الكفار.

ح ـ عدم بحثهم عن أرض جديدة لنشر دعوتهم، واقتصارهم على بعض مدن العراق، وخاصة الكوفة والبصرة.

ط ـ سلوكهم طريقة منكرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى طريقة الاستعراض، ومرد ذلك إلى الجهل بالدين وقلة العلم، لأن كثرة العبادة ليست

---

(١) حركة الخوارج، ص (٧٤).

(٢) المصدر نفسه، ص (٧٤).

دليلاً على فقه الرجل، وإلا لكان الخـوارج أفقه أهل زمانهم[1]، ولكنهم كما قال رسول الله ﷺ: «يحقـر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصـيامه مع صيـامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[2].

ي ـ وافتقارهم لطول النفس والصبر فى مشروعهم التغييرى.

١٢ ـ شفاعـة أبى بكرة الثقفى لبعض الخـوارج عند معاوية ونصيـحته له: فى عام ٤١هـ وثب حمران بن أبان على البصرة، فأخذهـا وتغلب عليها، فبعث معاوية إليه جـيشًا ليـقتلوه ومن مـعه، فجـاء أبو بكرة الثقفى إلـى معاوية، فـسأله فى الصفح عنهـم والعفو، فـعفا عنهم وأطلقـهم، وولّى على البصـرة بسر بن أبى أرطأة[3]. . وقد قال مـعاوية لأبى بكرة: هل من عهد تعـهده إلينا؟ قال: نعم، أعهد إليك يـا أمير المؤمنين أن تنظر لنفسك ورعـيّتك وتعمل صالحًـا، فإنك قد تقلّدت عظيمًا، خلافة الله فى خلقه، فاتق الله، فإن لك غاية لا تعدوها، ومن ورائك طالب حثيث، وأوشكت أن تبلغ المدى، فيلحق الطالب، فتصير إلى من يسألك عـمّا كنت فيـه، وهو أعلم به منك، وإنما هى محـاسبة وتوقـيف، فلا تُؤثرن على رضا الله شيئًا[4].

١٣ ـ استـخدام العواطف فى حـرب الخوارج: خرج حوثرة بن وداع بن مـسعود الأسدى على الدولة الأمـوية، فدعا معـاوية أبا حوثرة فقـال له: اخرج إلى ابنك فلعله يرق إذا رآك، فخرج إليه وكلمه وناشده وقال: ألا أجيئك بابنك، فلعلّك إذا رأيته كرهت فراقه؟ فقال: أنا إلى طعنة بيد كافر برمح أتقلّب فيه ساعة أشوق منى إلى ابنى. فرجع أبوه فأخبـر معاوية بقوله، فسير معاوية إليـهم عبد الله بن عوف الأحمر فى ألفين، وخرج أبو حوثرة فيمن خرج فدعا ابنه إلى البراز، فقال: يا أبة لك فى غيرى سعة. وقاتلهم ابن عـوف وصبروا، وبارز حوثرة عبد الله بن عوف فطعنه ابن عوف فقـتله وقتل أصحابه إلا خمسـين رجلاً دخلوا الكوفة، وذلك فى جمادى الآخـرة سنة إحدى وأربعين، ورأى ابن عوف بوجه حـوثرة أثر السجود، وكان صاحب عبادة، فندم على قتله، وقال:

---

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢١٠).
(٢) البخارى مع الفتح (١٢/٢٠٣) .
(٣) البداية والنهاية (١١/١٤٩) .
(٤) المصدر نفسه (١١/ ١٥٠) .

قـتلـت أخـا بنى أسـدٍ سـفـاهًا ... لعـمـرُ أبى فـمـا لُقّيتُ رُشـدى
قـتلـت مـصليًـا مـحـيـاءَ لَيْلٍ ... طـويـل الحـزن ذا برٍ وقـصـد
قـتـلت أخـا تُـقًى لأنال دنيـا ... وذاك لشِـقـوَتـى وعِـثـارِ جَـدّى
فـهب لى توبة يـا رب واغـفـر ... لما قـارفت من خـطاءٍ وعـمـد[1]

رابعًا: من قصائد الخوارج فى عهد معاوية رضى الله عنه:

١ ـ ما قاله معاذ بن جوين بن الحصين فى سجن المغيرة بن شعبة:

ألا أيها الشارون قد حان لا مرىءٍ ... شـرى نفـسـه لله أن يتـرحَّـلا
أقـمـتم بدار الخـاطئـين جـهـالة ... وكل امـرىءٍ منكم يُصـادُ ليُـقْتَـلا
فـشُدُّوا عـلى القوم العُـداةِ فـإنما ... أقـامـتكم للذبـح رأيًا مـضَلَّلا
ألا فـاقصـدوا يا قوم للغـاية التى ... إذا ذكـرت كـانت أبرَّ وأعـدلا
فيـا ليتنى فـيكم على ظهـر سابح ... شديد القُـصَيْرَى دارِعًا غـيرَ أعزلا
ويا ليـتنى فـيكم أُعـادى عـدوّكم ... فـيسـقـينى كـأس المنيـة أوّلا
يعـزّ علىّ أن تخـافـوا وتُطردوا ... ولما أُجـرِّدْ فى المُحلِّـين مُنصُـلا
ولما يفـرقْ جـمعـهم كلُّ مـاجـد ... إذا قلت قـد ولَّى وأدبر أقـبَـلا
مُشيحًا بنصل السيف فى حمس الوغى ... يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
وعـزّ علىّ أن تصـابوا وتُنقـصـوا ... وأُصـبح ذا بـتٍّ أسـيـرًا مكـبـلاً
ولو أننى فـيكم وقـصـدوا لكم ... أثرت إذا بين الفـريـقـين قَـسْطَلا
فـيا رُبّ جـمعٍ قـد فَللتُ وغـارة ... شهدت وقرْنٍ قد تركت مُجدَّلا[2]

٢ـ ماقـال رجل من بنى تيم الله بن ثعلبـة عندما انتـصر مـرداس أبو بلال بن أدية من بنى ربيعة، وكان فى أربعين رجلاً على جيش لعبيد الله بن زياد، حيث قال:

أألفـا مـؤمن منكم زعـمـتم ... ويقـتلهم بـآسَك[3] أربعـونا

---

(١) الكامل فى التاريخ (٣/ ٤٥٠).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٥٠)
(٣) آسك: بلد فى نواحى الأهواز: معجم البلدان (١/ ٥٣)

كـذبتم ليس ذاك كـمـا زعـمـتم ولكـنّ الخـــوارج مـــؤمنـونا
هى الفـــئـة القليـلة قـد علمـتم على الفـئـة الكثيـرة ينصـرونا[1]

وفى رواية أخرى نسبت قصيدة إلى عيسى بن فاتك قال فيها:

فلمـا أصـبـحـــوا صلوا وقـامـوا إلى الجُـرْد العِـتاق مـسـوَّمـينا[2]
فلمـا استجـمعـوا حملوا عليـهم فظل ذوو الجـــعـائل يقـــتلونا[3]
بقـــيـــة يومـــهم حـــتـى أتاهم ســوادُ الليـل فـــيـــه يراوغـــونا
يقـــول بصــيـــرهم لما أتـاهم بـأن القـــــوم ولـوا هاربـينـا
أألفـا مــؤمن فـيـمـا زعـمـتم ويهــزمـــهم بآسـك أربعـــونا[4]

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٣١، ٢٣٢). .
(٢) الجرد العتاق: الخيل الجياد الكريمة، مسومين: معلمين .
(٣) ذوو الجعائل: جنود بنى أمية المأجورون.
(٤) أدب السياسة فى العصر الأموى، ص (٢٢٠) نقلا عن تهذيب الكامل (١/ ١٠٥) .

المبحث الخامس

النظام المالى فى عهد معاوية رضى الله عنه

أولاً: مصادر دخل الدولة :

١ـ الزكاة: وهى أهم مكونات النظام المالى الإسلامى، وذلك لكونها ثابتة بالكتاب والسنة، إذ يقول عنها سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، كما أجمع المسلمون على وجوبها باعتبارها أحد أركان الإسلام الخمسة، ومن ذلك اتفاق صحابة رسول الله ﷺ على قتال مانعيها فى عهد أبى بكر الصديق[١]، وقد أسند إلى السلطان مهمة تحصيلها وإنفاقها، فقد كان رسول الله يجمعها ويقوم على تفريقها، وكذلك فعل أبو بكر وعمر، أما فى عهد عثمان لما كثرت الأموال فقد رأى أن يفوض الممولين فيما يتعلق بالأموال الباطنة كالوكلاء عن الإمام[٢]، أما الأموال الظاهرة كالزروع والمواشى ونحوها، فقد استمرت الدولة فى جبايتها وإنفاقها، وقد ورد عن أبى بكر وعثمان بن عفان أنهما كانا يأخذان زكاة المال من عطاء الرجل[٣]. ثم اختلف بعد مقتل عثمان هل تدفع الزكاة إلى الولاة أم لا[٤]، وهذا الخلاف بشأن الأموال الباطنة، أما الأموال الظاهرة فظلت تحصلها الدولة، وهذا يدل على سبب نقص حصيلة الزكاة بشكل عام فى العصر الأموى، لامتناع جماعة من الناس عن دفعها للولاة، وتفريقها بمعرفتهم، عدا عهد عمر بن عبد العزيز الذى ما إن سمع الناس بولايته حتى سارعوا إلى دفعها للدولة[٥]. كما أعاد كذلك أخذ الزكاة من العطاء[٦]، أى بالخصم عند المنبع، وهكذا يعكس تعاظم دور الزكاة كأحد مكونات الإيرادات العامة إبان عهد عمر بن عبد العزيز، ولا يعنى

---

(١) المغنى والشرح الكبير (٢/ ٤٣٤)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٤).

(٢) بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع للكسانى، ك الزكاة (٢/ ٨٢٠) .

(٣) الأموال، لأبى عبيد القاسم بن سلام، ص (٣٧٢، ٣٧٣). (٤) المصدر نفسه، ص (٥٠٤ - ٥١١).

(٥) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٠٤)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٥)، عصام الجفرى.

(٦) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى، ص (٤٢٦).

هذا إغفال دورها الهام طيلة العصر الأموى، فبالرغم من عدم توافر أرقام عنها إلا أن الدلائل تشير إلى كبر أهميتها، وذلك لأنها كانت تحصل من قطاعين رئيسيين من قطاعات الاقتصاد الأموى، هما الزراعة وقطاع التجارة خاصة فى ظل نظام العشور[1]، ومنها أيضًا وجود ديوان خاص يسمى ديوان الصدقات[2]، وهو الديوان الذى يتولى النظر فى أمور الزكاة والصدقات التى تجبى من القادرين والمتمكنين ماليًا ليتم توزيعها على مستحقيها فى الوجوه الشرعية التى ذكرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[3]، وأشار إليه الجهشيارى أول مرة فى خلافة هشام بن عبد الملك، ويذكر أن إسحاق بن قبيصة بن ذؤيب كان يتقلد ديوان الصدقة للخليفة هشام بن عبد الملك.

وقد يعود عدم وجود أرقام عن حصيلة الزكاة لعدم تسجيل مقادير تلك الصدقات، إذ كانت تدفع جميعها أو معظمها فى الحال إلى مستحقيها[4]، وبصفة عامة يمكن القول إن نظام الزكاة كان مطبقًا فى العهد الأموى وفقًا للأسس الشرعية الخاصة به، وأن قمة التطور بالنسبة لحصيلة الزكاة كان فى عهد عمر بن عبد العزيز حيث وثق الشعب فى الدولة نتيجة حرصها على تطبيق الإسلام كواقع عملى، فسارع إلى دفع الزكاة إليها، وكذلك أخذ الزكاة من العطاء فيه تخفيف لتكاليف جباية الزكاة فزيادة الموارد مع قلة التكاليف أحدثت نموًا ملحوظًا فى حصيلة الزكاة[5].

٢ ـ الجزية: ما يؤخذ من أهل الذمة، وهى ضريبة على الذمى المستوفى لشروطها مقابل الدفاع عنه، وكانت تمثل أحد الموارد الثابتة للدولة الأموية، عملاً بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وهى ثابتة فى السنة لما قاله المغيرة بن شعبة لترجمان عامل كسرى: . . فأمرنا نبينا رسول ربنا ﷺ أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده، أو

(١) الخراج، ص (٢٧١، ٢٧٢).
(٢) النظم الإسلامية، أنور الرفاعى، ص (٨٢، ٨٣).
(٣) الدواوين فى العصر الأموى، نجم المسعودى، ص (٦١).
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٦).
(٥) المصدر نفسه، ص (٦٦).

تؤتوا الجزية[1]. وهى ثابتة أيضًا بالإجماع[2]. ولم يضف الأمويون شيئًا يذكر بالنسبة لتنظيم الجزية، ويمكن القول بأن جبايتها خضعت لما استقر عليه تنظيمها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فمن حيث ضوابطها تمثلت فى: تحديد الشريحة التى تؤخذ منها الجزية متمثلة فى الذكور العقلاء البالغين[3]، ثم تحديد الفئات المعفاة منها: وهم: الصبيان والنساء، المرضى المزمنون، العبيد، المجانين، العميان، الشيوخ، الرهبان الذين لا مورد لهم[4]، وكذلك مراعاة مستوى دخل الممول يسارًا وإعسارًا، حيث كانت تفرض على الفرد الغنى (٤٨) درهمًا سنويًا، وعلى المتوسط (٢٤) درهمًا سنويًا، وعلى ما دون ذلك (١٢) درهمًا سنويًا بشرط أن يكون ذا حرفة[5]، وأما عن تصنيفها فيمكن تقسيم الجزية وفق المعيارين التاليين:

أ ـ معيار المسئولية: وطبقًا له تنقسم الجزية إلى فردية وجماعية، فالجزية الفردية هى التى تفرض على كل ذمى مستوف لشروطها فى صورة مبلغ محدد يسقط عنه حالة إسلامه، أما الجماعية أو المشتركة فكانت تتم بوضع مبلغ إجمالى معين على أهل القرية أو المدينة، ثم يتولون هم توزيعه بين أفرادهم، ومثالها من عهد النبى ﷺ صلحه ﷺ لأهل أذرح على مائة دينار فى كل رجب[6]، وكان غالب الجزية فى العصر الأموى من هذا النوع[7].

ب ـ معيار النقدية والعينية: وطبقًا له انقسمت الجزية إلى ثلاثة أقسام: جزية نقدية، جزية عينية، جزية مشتركة، وكانت جميع أصناف الجزية معمولاً بها فى العصر الأموى، ولم يوجد ما يشير إلى الخروج عن ذلك، وخاصة أن الشريعة الإسلامية تقتضى بالالتزام بعقود الصلح، والوفاء بها، لكن هذا لم يمنع من خروج بعض الولاة أحيانًا عن الضوابط الشرعية[8]، وبالنسبة لحجم غلة الجزية ونسبتها إلى إجمالى الإيراد الكلى للدولة فهذا مما يصعب تحديده، لكن هناك

---

(١) فتح البارى (٦/ ٣١٧) .

(٢) المغنى، ك الجزية (١٠/ ٥٦٧).

(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٦).

(٤) الأحكام السلطانية، ص (١٤٤).

(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٧).

(٦) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٧١).

(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٦٧).

(٨) المصدر نفسه، ص(٦٨) ومن أراد التوسع فلينظر: تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص(٢٩٤).

مؤثرات تدل على عظم حجم إيراد الجزية وهو ما يتضح من الدور الكبير الذى قامت به الدولة الأموية فى نشر الإسلام فى بلدان كثيرة تم فتحها وفرض الجزية على من لم يسلم من أهلها(١).

٣ ـ الخراج: كبقية المصادر المالية للدولة التى كان لعمر بن الخطاب الريادة فى تنظيمها، فقد استفادت الدولة الأموية من تنظيم عمر له، إذ سارت فى أغلب أقاليمها عليه، إلا ما طرأ من تعديلات سوف يتم التعرض لها(٢)، وللخراج معنى خاص: وهو إيراد الأراضى التى افتتحها المسلمون عنوة وأوقفها الإمام لمصالح المسلمين على الدوام، كما فعل عمر بأرض السواد من العراق والشام(٣)، والخراج كما قال ابن رجب الحنبلى: لا يقاس بإجارة ولا ثمن، بل هو أصل ثابت بنفسه لا يقاس بغيره(٤)، وكان للخراج أهمية كبرى بالنسبة للدولة الأموية، وكانت غلة الخراج فى منطقة السواد على سبيل المثال فى عهد ابنه عبيد الله سنة ٥٤هـ ـ ٦٦هـ بلغت ١٣٥ مليون درهم(٥)، وأما منطقة الجزيرة والشام: فقد استمر الخراج فى هذه المنطقة وفقًا لما وضعه معاوية بن أبى سفيان، الذى فرض ضرائب على أهل المدن ذات شقين، شق منه جزية والآخر خراج وهو كما يلى:

أ ـ على أهل قنسرين حوالى مليون وخمسمائة ألف درهم.

ب ـ على الأردن ستمائة ألف درهم.

جـ ـ على فلسطين حوالى ستمائة ألف درهم(٦).

وقد حدثت بعض الانحرافات فى تحصيل الخراج فى عدة صور أهمها:

ـ فرض الخراج على أرض مستثناة منه بنص عقود الصلح(٧)، فقد حدث ذلك فى عهد يزيد بن معاوية(٦٠ ـ ٦٤) حيث فرض الخراج على أرض السامرة(٨)، بالأردن وفلسطين.

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧١). (٢) المصدر نفسه، ص (٧٣).
(٣) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٤، ٢٥) اقتصاديات الحرب، ص (٢١٥).
(٤) الاستخراج لأحكام الخراج، ص (٤٠)، اقتصاديات الحرب، ص (٢١٥).
(٥) الأحكام السلطانية، ص (١٧٥)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٤).
(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٦). (٧) فتوح البلدان، ص (١٦٢، ١٦٣).
(٨) السامرة: قوم من اليهود وهم صنفان: الدستان والكوشان، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٨).

- استخدام العنف فى تحصيل الخراج، فى بعض الأقاليم - باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز ، حيث استخدمت الشدة فى تحصيل الإيرادات بأنواعها(١).

- تحميل نفقات جباية الخـراج على الممول، ومن تلك النفقات قيمة الورق الذى يكتب عليه مقادير الخراج، قيمة إيجار المستودعات التى يتم تخزين حصيلة الخراج العينية فيها، أجرة الجابى الذى يقوم بالجـباية وبقية نفقات تحصيل الخراج(٢)، وقد حدث ذلك خاصة فى إقليم العراق وكان قبل عهد عمر بن عبد العزيز، فلما ولى الخلافة أبطلها ثم عادت بعد موته(٣)، وكان للخراج فى عهد الدولة الأموية ديوان خاص به، يسمى ديوان الخراج: وهو الذى يتولى النظر فى جـباية ضريبة الخراج، ويقوم بجمـعها وتسجيلها، ووضع تقـديرات لها، لأنها أعظم واردات الدولة(٤)، وكان الأمويون قد فصلوا بين الولاية والجباية وعـينوا مسئولين عنها لكى يحصروا المسئـولية، وقد ذكـرت المصادر قائمة بأسـماء الذين أسندت إليهـم مهمة الجـباية والإشراف على أعمـال الديوان، فمعاوية رضى الله عنه عـين على خراج دمشق: سرجون ابن منصور(٥)، وعلى خراج فلسطين: سليمان المشجعى(٦)، وعلى خراج حمص ابن أثال النصرانى(٧)، وفى خلافـة يزيد بن معاوية استـمر على الديوان: سرجون بن منصور، كما بقى عليه طوال حكم معاوية الثانى، ومروان بن الحكم، وعبد الملك، حـتى عزله(٨). وقد أولى معـاوية رضى الله عنه ولاته فى الأقاليم؛ الأرض ومن عليهـا عناية متزايدة، فاستـصلح البطائح وهى أرض واسعة مـغمورة بالمياه، بقطع القصب وعلب الماء بالمسنيـات مما أدّى إلى عمارة البلاد وزيادة الوارد العام بمقدار خمسة آلاف ألف درهم، وراعى معاوية حالة السكان وسعى لتطمينهم والتخفيف عن كاهلهم بمجموعة من الإجراءات يتعلق بعضها بضريبة الخراج ذاتها، وبعضهـا الآخر يتعلق بالقائمـين على الضريبة(٩). ومن ناحية أخـرى، فقد عمل

---

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٨٦، ١٨٧)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٧٨).

(٣) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى، ص (٤٥٦).

(٤) إدارة بلاد الشام فى العهدين الراشدى والأموى، ص (١٧٧).

(٥) الجهشيارى، ص (٢٤).

(٦) الجهشيارى، ص (٢٦)، إدارة بلاد الشام، ص (١٧٨).

(٧) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٢٣).

(٨) إدارة بلاد الشام فى العهد الراشدى والأموى، ص (١٧٨).

(٩) الخراج د. غيداء خزانة كاتبى، ص (٢٣٩).

معاوية على إنصاف دافعى الضريبة باختيار عماله ومتابعته لهم، وإن كانوا من المقربين، فقد عزل ابن أم الحكم وهو عبد الرحمن بن عبد الله الثقفى - وهو ابن أخته - لأنه اشتد فى أمر الخراج ولم يقبل من عامل خراجه جباية الخراج قبل موعده الموجود[١]. وفى الفترة الأموية تكثر الإشارة إلى استعمال الأعاجم فى الخراج، وصلاحهم لذلك لأسباب عبر عنها زياد بن أبيه بوضوح منها: معرفتهم بأمور الخراج ودورهم فى إعمار الأرض[٢]، حيث يقول: وينبغى أن يكون كُتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج[٣]، ودعا زياد إلى مراعاة الدهاقين والإحسان إليهم: أحسنوا إلى الدهاقين[٤]، فإنكم لن تزالوا سمانًا ما سمنوا[٥].

٤ - العشور: هى الأموال التى يتم تحصيلها على التجارة التى تمر عبر حدود الدولة الإسلامية سواء داخلة أو خارجة من أرض الدولة، وهى أشبه ما تكون بالرسوم الجمركية فى العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له العاشر أى الذى يأخذ العشور[٦]، وأول من وضعها فى الإسلام هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد فرضها على الحربى بنسبة العشر، وعلى الذمى نصف العشر، وعلى المسلم ربع العشر[٧]، وقد استمر هذا النظام فى العهد الأموى وفق القواعد التالية:

أ - إعفاء الحد الأدنى لرأس المال، والذى قدر بالنسبة للمسلم بمائتى درهم[٨]، أما بالنسبة للحربى والذمى فقد اختلف فيه[٩].

ب - لا تحصل العشور إلا مرة واحدة فى السنة .

جـ - يشترط لتحصيل العشر من النعم التى للمسلم أن تكون سائمة.

---

(١) الخراج د. غيداء، ص (٢٣٩).
(٢) المصدر نفسه، ص (٢٦٢).
(٣) المصدر نفسه، ص (٢٦٢).
(٤) الدهاقين: جمع دهقان والدهقان: شيخ القرية العالم بالزراعة، وما يصلح للأرض من شجر .
(٥) الضرائب فى السواد فى العصر الأموى للدورى، ص (٤٨)، الخراج، ص (٢٦٣).
(٦) الخراج لأبى يوسف، ص(٢٧١)، اقتصاديات الحرب، ص (٢٢٣).
(٧) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٧٥، ٤٧٦).
(٨) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٦).
(٩) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٧٧).

د ـ لا تؤخذ العشور من عبد ولا مكاتب ولا مضارب ولا بضاعة، وإنما من رب المال نفسه[1].

هـ ـ أن يكتب للتاجر سند بالمبلغ الذى دفعه، وبمقتضاه لا تأخذ منه العشور إلا فى السنة التالية[2].

و ـ أن لا يتم تفتيش التاجر ولا تعنيفه[3].

ز ـ أن من ادعى دينًا يستغرق ما معه من التجارة، صدق إن كان مسلمًا، وإن ارتاب فى أمره استحلفه (على خلاف ذلك)[4]، وأما الذمى فأقرب الأقوال فيه أن يشهد له شاهدان من المسلمين حتى يعفى[5].

ح ـ أن العشور التى تأخذ من المسلمين هى الزكاة فلا يجمع على المال زكاة وعشور[6].

ط ـ أن غير المسلم إذا مر بما يوصف بالمالية عندهم وليس بمال عند المسلمين كالخمر والخنزير ونحوهما، يقومه أناس من غير المسلمين، ويضاف إلى قيمة ما معه من تجارة ويؤخذ منه العشور[7]. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن العشور كانت تشكل جزءاً مهمًا فى إيرادات الدولة، من ذلك ما لمسه ابن الزبير من نقص فى مواد الدولة حينما منع تحصيل العشور لمدة عام واحد مما حمله على التراجع على ذلك القرار[8].

٥ ـ الصوافى: هو ما اصطفاه الإمام لبيت المال من أرض الفىء كما فعل رسول الله ﷺ أو من البلاد المفتوحة عنوة بحق الخمس، أو باستطابة نفوس الغانمين، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه[9].. ثم أقطعت أجزاء منها إلى بعض

---

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٤).

(٢) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٧٥)، التطور الاقتصادى، ص (٨٠).

(٣) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٥)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٠).

(٤) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٨٠، ٤٨١).

(٥) المرجع السابق، ص (٤٧٩)، التطور الاقتصادى، ص (٨٠).

(٦) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٧٣).

(٧) المصدر نفسه، ص (٢٧٣).

(٨) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٠).

(٩) الأحكام السلطانية، ص (١٩٢).

من كان يتـولى استثـمارها، على أن يؤدى لبـيت المال ما عليـها، وأول من أقطع عثمان بن عفان رضى الله عنه[١]، وذلك بدافع زيادة غلتها، وقد اشترط على من يقطعه إياها حق الفىء[٢]، فبلغت غلتـها آنذاك خمسـين مليون درهم[٣]، وانتبه معاوية بن أبى سفيان للصوافى فى وقت مـبكر، وكتب إلى الخليفة عثمان سأله أن يقطعه إياها، ليقوى بـها على ما وصف فى كتابه؛ يقول ابن عسـاكر: حتى كتب معـاوية فى إمرته على الشام إلى عثـمان أن الذى أجراه عليـه من الرزق فى عمله ليس يقوم بمؤن من يقـدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم، ومن يقـدم عليه من رسل الروم ووفـودها. ووصف فى كتـابه هذه المزارع الصـافيـة وسمـاها له، وسأله أن يقطعـه إياها ليقوى بهـا على ما وصف له، وأنها ليـست من قرى أهل الذمة ولا الخـراج، فكتب إليه عـثمان بذلك كـتابًا[٤]، يضاف إلى تلك المزارع، مزارع وأراضـى بنى فوقـا الذين لا وراث لهم، فأخـذ معـاوية ما يليـهم[٥]. ولما أفضى الأمر إليه، جعل هذه الأراضى حبسًا[٦] على فقراء أهل بيته والمسلمين[٧].

وأشار المؤرخ الشـيعى اليعـقوبى إلى أن مـعاوية جعل هذه الأراضى، وضـياع الملوك فى الشام والجزيرة واليمن والعراق خالصـة لنفسه عندما أفضى الأمر إليه[٨] فأقطع منها فقراء أهل بيته وخاصته، واعتبر بذلك: أول من كانت له الصوافى فى جميع أرجـاء الدنيا[٩]، وهذه الإشارة من اليـعقوبى تلـفت الانتباه إلى الالتـباس الواضح فى لغـتهـا، فقد ذكـرت صوافى فى الجـزيرة واليمن عـلمًا بأن عـمر بن الخطاب كان قـد أصفى مجـموعات خـاصة فى أراضى السـواد وأراضى الشام لم يدخل فيها صـوافى الجزيرة واليمن[١٠]. كما أشار اليعـقوبى إلى أن معاوية جعل هذه الأراضى خالصة لنفســه، فأقطع منها فقراء أهل بيته وخـاصته. وبمقارنة هذا

---

(١) فتوح البلدان، ص (٢٧٣).

(٢) الأحكام السلطانية، ص (١٩٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٩٣).

(٤) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٨٤)، الخراج د.غيداء، ص (٣٠٧).

(٥) الخراج، د. غيداء، ص (٣٠٧).

(٦) الحبس: الوقف.

(٧) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٨٤)، الخراج، غيداء، ص (٣٠٧).

(٨) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٣٢ ـ ٢٣٤).

(٩) المصدر نفسه (٢/ ٢٣٤).

(١٠) المعرفة والتاريخ (١/ ٤٣٤)، الخراج، غيداء، ص (٣٠٧).

النص، بنص ابن عساكر عن الموضوع نفسه، يظهر مدى المبالغة فى تلك الرواية، يقول ابن عساكر عن تلك الأراضى: فلم تزل بيد معاوية حتى قتل عثمان وأفضى إلى معاوية الأمر، فأقرّها على حالها، ثم جعل من بعده حبسًا على فقراء أهل بيته والمسلمين، أى أن معاوية لم يتصرف فيها ابتداء بل تركها على حالها.[1] ولكن يبدو أن هناك ضرورات سياسية نشأت فى الشام دفعت الدولة إلى اتخاذ ضرب جديد من التنظيم والسعى لخدمة مصالح الدولة، ومن هذه الضرورات محاولة إقامة توازن قبلى فى بلاد الشام بين اليمانية وبين القيسية، ولذلك أقطع معاوية إقطاعات واسعة فى هذا المجال[2]، ولقد أسئ فهم هذا الإجراء، وفسر بعض المؤرخين كاليعقوبى، موضوع مصالح الدولة بأنه يعنى مصالح الأسرة الأموية وبالتحديد معاوية[3]، ولا شك أن معاوية استخدم هذه الأموال فى تثبيت دعائم الدولة، وحفظ وحدة الأمة، فكان يتصرف وفق ما يراه مناسبًا للصالح العام[4]، ولا يمنع ذلك الإحسان إلى أسرته والمقربين إليه بالمعروف، وقد أمر معاوية بإعادة مسح للصوافى فى أمصار الدولة الأموية، وأضاف أراضى واسعة بعد العثور على سجل الضياع الساسانية[5] التى أصبحت تحت تصرف معاوية المباشر فكان يسد منها بعض حالات العجز فى النفقات العامة، فقد بلغ غلة صوافيه بالعراق وما يتبعه مائة مليون درهم[6]، وكذلك فعل بصوافى أرض الشام والجزيرة واليمن حتى فدك اصطفاها لنفسه ثم أقطعها لمروان بن الحكم[7]، وظلت كذلك طيلة العهد الأموى، باستثناء عصر عمر بن عبد العزيز الذى أعادها للملكية العامة وشجع القطاع الخاص على استثمارها[8]، كما رد فدك لبيت المال ووضع ما يأتى منها فى أبناء السبيل، كما فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده[9]، كما أمر باستثمار أراضى الصوافى حين كتب إلى واليه على العراق: انظر ما قبلكم من

(١) الخراج، غيداء، ص (٣٠٨).
(٢) المصدر نفسه، ص (٣٠٨).
(٣) المصدر نفسه، ص (٣٠٩)، دراسات فى حضارات الإسلام، ص (٤٦).
(٤) الخراج، ص (٣١١) غيداء خزنة كاتبى .
(٥) المصدر نفسه، ص(٣١١).
(٦) الإدارة فى العصر الأموى، نجدة خماش، ص (١٩٧).
(٧) فتوح البلدان، ص (٤٦).
(٨) المصدر نفسه، ص (٤٦)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٢).
(٩) فتوح البلدان، ص (٢٤ - ٤٨).

أرض الصافيـة، فأعطوه حتى تبلغ العشر فـإن لم يزرعها أحد فامنحـها فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين، ولا تبتزن قبلك أرضًا[1]، ونلاحظ من هذا النص اهتمام عمر بن عبد العزيز بأمر الصوافى مما يدل على أهميته فى موارد الدولة. . لكن أمر الصوافى عاد إلى ما كان عليه الأمر بعد عهد عمر بن عبد العزيز[2].

٦ ـ خمس الغنائم : تعرّف الغنيمـة: ما غلب عليه المسلمون بالقتـال حتى يأخذوه عنوة[3]، وقد نص عليها القرآن الكريم، وفى العصر الأموى ازدادت حركة الفتوحات وبالتالى زادت الغنائم كأحد موارد بيت المـال، وقد اتبع الأمويون نفس النهج العمرى بالنسبة للغنائم والأراضى المفتوحة، فكان تخميس الغنائم وتقسيمها بين الفاتحين وترك الأرض فيـئًا لمجموع المسلمـين مع ضرب الخراج عليـها[4]، هذه أهم المصادر المالية للدولة مع وجود مـصادر أخرى كنظام خمس الركـاز، ومال من لا وارث له، إذ ظل فى العصر الأموى على مـا كان عليه عهد رسول الله والخلفـاء الراشدين، إضافة إلى أن نسبة هذين العنصرين بسيطة جداً بالنسبة لغيرهما من المصادر[5].

ثانيًا: النفقات العامة:

١ ـ النفقات العسكرية:

حملـت الدولة الأموية على عـاتقهـا مهـمة مواصلـة نشر الإسلام فـى أرجاء المعمورة، ولذلك اتسعت الدولة الإسـلامية فى العصر الأموى اتساعًا كـبيرًا، وقد تم لها ذلك على الرغم مما كانت تعانيه من فتن وقلاقل داخلية تتطلب أموالاً طائلة لإخمادها، وتتضح مـعالم النفقات العسكرية فى العصر الأمـوى من خلال نفقات الجند والصناعات الحربية[6].

أ ـ رواتب الجند: ويشرف عليـها ديوان الجند، وتجـمع المصادر على أن أول من وضعه ورتبه هو الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠هـ[7]، وقد بقى هذا الديوان على

---

(١) واسط فى العصر الأموى، ص (٤٠٦).

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٢).

(٣) الخراج، يحيى القرشى، ص (٥٨).

(٤) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢١).

(٥) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٨٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (٩٧).

(٧) طبقات ابن سعد (١/ ٢١٣)، تاريخ اليعقوبى (٢/ ١٤٣).

الأساس نفسه حيث تحفظ سجلات بأسماء المقاتلين وأوصافهم، وأنسابهم ومقدار أعطياتهم[1]، وقد عمل معاوية بن أبى سفيان على تحسين حالة الجند المعاشية فزاد فى أعطياتهم، بسبب الظروف المستجدة وتحسن الأحوال الاقتصادية فى الدولة، وكان أمير المؤمنين معاوية يتفقد أحوال القبائل، كجزء من سياسته فى حفظ التوازن بين قبائل اليمن والقبائل القيسية، وكان قد جعل على كل قبيلة من قبائل العرب بمصر رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول: هل ولد الليلة فيكم مولود؟ وهل نزل بكم نازل؟ فيقال: ولد لفلان غلام ولفلان جارية، فيقال: سموهم فيكتب، ويقال: نزل بنا رجل من أهل اليمن بعياله فيسمونه وعياله، فإذا فرغ من القبائل كلها أتى الديوان[2]، وكان للجند ديوان مركزى فى دمشق فى حين وجدت دواوين فرعية فى مراكز الولايات: كالكوفة والبصرة والفسطاط[3]، وكان سلم رواتب الجند فى عهد معاوية كالآتى:

على درجات: شرف العطاء والمرتب ٢٠٠٠ درهم، عطاء العرب فئة(أ) ٣٠٠ درهم، فئة (ب) ١٠٠٠ درهم، فئة (جـ) ١٥٠٠ درهم، وأدخل الموالى فى العطاء[4]، وكانت نفقات رواتب الجند فى عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه كالآتى:

- فى منطقة مصر: كان عدد المسجلين فى الديوان ٤٠٠٠٠ جندى منهم أربعة آلاف مسجلين بشرف العطاء[5]، وبالتالى يكون مجمل عطائهم ٨٠٠٠٠٠٠ درهم، أما بقية المسجلين فى الديوان فكان عددهم ٣٦٠٠٠ جندى وعلى فرض أن عطاء الجندى سنويًا هو ٣٠٠ درهم يصبح إجمالى عطائهم ١٠٨٠٠٠٠٠ درهم[6].

- فى منطقة الشام: كان عدد الجند المسجلين فى ديوان الشام ستين ألف جندى، كان الدخل السنوى لكل جندى ألف درهم، أما إجمالى نفقات جند الشام فبلغ ستين مليون درهم[7].

(١) التراتيب الإدارية للكتانى (١/ ٢٢٥) الدواوين فى العصر الأموى، ص (٣٧).
(٢) حسن المحاضرة للسيوطى (١/ ٦٥)، الدواوين فى العصر الأموى، ص (٣٧).
(٣) الجيش والأسطول الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٥٣٥).
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٩٨).
(٥) ديوان الجند للسلومى، ص (١٤٩)، التطور الاقتصادى، ص (٩٩).
(٦) الخطط للمقريزى (١/ ١٢٨).
(٧) الخراج والنظم المالية للريس، ص (٩٤).

- في العراق نأخذ مثالاً ديوان البصرة: حيث بلغ عدد المسجلين به ثمانين ألف مقاتل[1]، وبلغت مرتباتهم في عهد زياد ٣٦٠٠٠٠٠٠ درهم، فإذا أخرجنا منهم نسبة ١٠٪ مسجلين في شرف العطاء، (قياسًا على ديوان مصر) يكون المتبقي ٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم، وعليه يكون متوسط الدخل للجندي في ديوان البصرة حوالي ٢٧٨ درهمًا ويمكن قياس بقية منطقة العراق على هذا[2].

وقامت الدولة الأموية بتطوير ديوان الجند، وهو الجهة المسئولة عن نفقات ورواتب الجند وكان من أبرز صور هذا التطوير ما يلي:

* قام مندوب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه المكلف بتوزيع عطاء المدينة بدفع عطاء كل رجل في يده مباشرة، وكان النظام السابق هو أن يدفع العطاء إلى العرفاء. لكن هؤلاء العرفاء لم يكونوا يغيبون غائبًا ولا يميتون ميتًا[3].

* وفي عهد معاوية قام واليه علي العراق زياد بن أبيه، بتخفيض النفقات الإدارية لديوان الجند، حيث اختصر عدد العرفاء المسئولين عن توزيع العطاء ليصبح لكل قبيلة عريف واحد[4].

ب- نفقات الصناعات الحربية: على الرغم من عدم وجود أرقام محددة في نفقات الدولة على الصناعات الحربية، إلا أن هناك ما يدل على اتجاه هذه النفقة نحو التزايد، فقد كان اهتمام الدولة الأموية منصبًا على تطوير سلاح البحرية، وقد بلغ عدد قطع الأسطول البحري الإسلامي في بداية تكوينه مائتي مركب[5]، ثم تطور على يد الدولة الأموية ليبلغ في عهد سليمان بن عبد الملك ألف وثمانمائة سفينة كبيرة[6].

٢- النفقات الإدارية :

تقسم هذه النفقات إلى قسمين: رواتب الموظفين ونفقات المستلزمات الإدارية، وكانت هذه الأخيرة ضئيلة للغاية، ومتمثلة في الشموع وأوراق الكتابة، وغيرهما

---

(١) الحياة الاقتصادية في صدر الإسلام، بطاينة نقلاً عن التطور الاقتصادي، ص (٩٩).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٠٠).
(٣) ديوان الجند للسلومي، ص (١٦٩)، التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٠٢).
(٤) الإدارة في العصر الأموي، ص (٣٢٠).
(٥) تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص (١١٥، ١١٦).
(٦) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٠٦).

من الأدوات البسيطة التى لا تشكل شيئًا يذكـر بالنسبة لما هو عليه الأمر اليوم ومع ذلك فقد تميز عهد عمر بن عبد العزيز بالحساسية للمال العام، فكانت هذه النفقات فى عهـده أقل من غيره من العـهود[1]، وسنركز الحـديث عن رواتب الموظفين، ويبدو أن رواتب الموظفين كـانت متروكة إلى والى الإقليم، يحدد لنفسـه ولعماله رواتبهم حسب مـا يرى، وقد ساعدت هذه اللامـركزية على ظهور مرتبات كـبيرة نسبيًا، إذا ما قـورنت بالمرتبات فى عهد عمر بن الخطاب وبمتوسط مسـتوى المعيشة المتواضع نسبيًا فى الدولة الأموية؛ حيث بلغ مرتب والى العراق زياد بن أبيه خمسة وعـشرين ألف درهـم شهـريًا[2]، وظهـرت أيضًا إلى جـانب المرتبـات الكبيـرة مخصصات إضافية، فهذا زياد بن أبيه يجعل لأحد الولاة التابعين لإدارته مائة ألف درهم سنويًا عدا مرتبه[3].

وهذه بعض النماذج مـن رواتب الموظفين خلال فـترات من العصـر الأموى، يمكن اعتبارها مؤشرًا على مـستوى رواتب ومكافآت موظفى الدولة، وذلك لعدم العثور على معلومات تفصيلية عنها.

أ- كان الحد الأقصى لرواتب الكتاب طوال العـصر الأموى وطرفًا من العباسى حـتى عهـد المأمـون هو ٣٦٠٠ درهم سنويًا، وكـان حدها الأدنى ٧٢٠ درهمًـا سنويًا[4].

ب- يرجح أن أكبر مـرتب لصاحب الشرطة فى العصـر الأموى بلغ مائة ألف درهم سنويًا[5].

جـ- مرتبات القضاة كانت عبـارة عن رزق يجرى عليهم من بيت المال ليتفرغوا للقضاء[6]، وكان حده الأدنى ألفًا ومائتى درهم سنويًا[7]، وأما الحد الأقصى فقد بلغ ثلاثة آلاف درهم سنويًا[8].

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٠٦).

(٢) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٣١٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٣١٠).

(٤) المصدر نفسه، ص (٣١٠).

(٥) المصدر نفسه، ص (٣١٨).

(٦) المصدر نفسه، ص (٣٣١).

(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص(١٠٧).

(٨) فتوح مصر وأخبارها، ص (٢٣٦).

٣ ـ مصارف الزكاة:

حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٦٠].

٤ ـ مصارف الفيء:

قال سبحانه وتعالى: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...**﴾ [الحشر: ٧].

٥ ـ معظم مصارف العشور:

التى تأخذ من المسلمين هى نفقات تحويلية لأنها تعتبر فى حقهم زكاة فتصرف فى مصارف الزكاة.

٦ ـ نفقات الضمان الاجتماعى:

تطورت نفقات الضمان الاجتماعى فى الدولة الأموية فكانت فى صورة عينية، وكمثال على ذلك ما ورد من أن الفقراء فى إقليمى الحجاز والعراق خلال الفترة (٤٥هـ ـ ٥٣هـ) كانوا يحملون بطاقات محدداً لهم فيها الكمية المخصصة لكل فرد منهم من المعونة العينية[١]، ثم أصبحت فى عهد عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ ـ ١٠١هـ) مزيجاً من النفقات النقدية والعينية، وكمثال على المعونات النقدية قضاء دين من أدان فى غير سفه، ولا سرف، وتزويج الرجل الذى ليس له مال وله رغبة فى الزواج[٢]، ومثال النفقات العينية، أنه أمر لكل أعمى بقائد، ولكل خمسة من اليتامى بخادم[٣]، وشملت فى عهده نفقات الضمان الاجتماعى إلى غير المسلمين[٤]، ثم تطور الأمر حتى مثلت نفقات الضمان الاجتماعى بنداً محدداً من بنود النفقات العامة للدولة، ومثال ذلك: يوجد ضمن بنود النفقات العامة السنوية

(١) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٣٣٥).
(٢) الأموال لأبى عبيد، ص (٢٣٤، ٢٣٥).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٨٣).
(٤) الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى، ص (٤٣٣).

فى إقليم العراق خلال الفترة (١٢٠ ـ ١٢٦هـ) مبلغ عشرة آلاف درهم[١]، مخصصًا لبيوت رعاية الأحداث[٢]، والعواتق[٣].

ثالثًا : اهتمام الدولة بالزراعة :

مع بداية الدولة الأموية ظهرت الملكيات الزراعية الكبيرة، وذلك نتيجة لدخول الولاة والخلفاء فى هذا الميدان، ولذلك اهتموا بإحياء الأرض الموات من أراضى الصوافى وغيرها، من الأراضى المفتوحة الخصبة، وبالذات إقليم العراق وما شابهه، وقد ساعدهم فى ذلك حجم السيولة التى يملكونها، فقد أحيا والى معاوية رضى الله عنه على خراج العراق أرضين من البطائح لمعاوية، حيث قام بقطع الماء عنها وتجفيفها وزراعتها، وقد بلغت غلتها خمسة ملايين درهم[٤]، وهذا مما يدل على عظم مساحتها، ولم يكن معاوية رضى الله عنه يجعل ريعها كله داخلاً فى نفقاته الخاصة، وإنما كان يُتدارك منها شىء من النقص فى النفقات العامة[٥]، ولم يدخل تلك الأرضين فى ملكه يتوارثها من بعده، بدلالة أن الأرض التى أحياها الحجاج فيما بعد لعبد الملك هى نفس الأرض التى أحياها معاوية رضى الله عنه، إلا أنها عادت مواتًا لغلبة الماء عليها[٦]. ومن الناحية الشرعية فإن إحياء الأرض بصفة عامة مباح، بل هو سبب من أسباب الملك لها، وذلك استنادًا إلى الأحاديث الواردة فى ذلك، وهى إباحة عامة يستوى فيها الحاكم، والمحكوم، إلا أنه فى حق الحاكم ينبغى أن تكون هناك قيود إضافية لعل من أبرزها:

- عدم استغلال الحاكم لسلطته ومكانته، وإنما يدخل فى عملية الإحياء كأى فرد من أفراد الشعب.

- عدم استخدام أموال المسلمين فى عملية الإحياء، بل يقوم بإحيائها من ماله الخاص.

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى، ص (١٧٥، ١٧٦).

(٢) حداثة السن: كناية عن الشباب وأول العمر، لسان العرب مادة حدث (٢/٧٩٦).

(٣) العواتق: جمع عاتق وقيل: هى البكر التى لم تبن عن أهلها وقيل: هى التى بين التى أدركت وبين التى عنست.

(٤) فتوح البلدان، ص (٢٩١)، الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، ص (١٨٧).

(٥) الحياة الاقتصادية والاجتماعية، بطاينة، ص (١٣٥).

(٦) الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية للريس، ص (٢١٤).

- ألا يترتب على تملكه للأرض بطريق الإحياء ضرر على المسلمين، الأفراد أو جماعة المسلمين، وكذا من له ذمة[1]، وقد ساهم الإقطاع - أى الإقطاع بقصد الإحياء والإعمار - فى تكوين الملكيات الزراعية الكبيرة، فقد أقطع معاوية رضى الله عنه بعض إخوته الجزيرة التى بين النهرين، فأرسل زياد بن أبيه الماء، فلما نظر إلى المقطوعة له ظن أنها بطيحة، فاشتراها منه زياد بمائتى درهم، وقد أقطع زياد بعد ذلك من تلك الأرض غيره، مما يدل على عظم حجمها، حتى أنه أيضًا حفر لها أنهارًا وليس نهرًا واحدًا[2]، وأقطع زياد بن أبيه مرّة مائة جريب[3] على نهر الأبلة فحفر لها نهرًا فسمى باسمه، كما أقطع أيضًا كل بنت من بناته - أى بنات زياد - ستين جريبًا[4]. واستمرت الملكيات الزراعية بالتوسع مع مجىء الخلفاء الأمويين بعد معاوية رضى الله عنه، ولم ينحصر الإقطاع للأراضى على الأسرة الأموية وبعض وجهاء قريش، وإن كان هو الغالب[5]، إذ كانت هناك إقطاعات لعامة الشعب، ومثال ذلك أن زيادًا كان يقطع الرجل القطيعة ويتركه سنتين فإن لم يعمرها أخذها منه[6]، وقد كانت تقدر مساحات تلك الاقطاعات بين (٦٠ - ١٠٠) جريب[7]، وقد كانت إقطاعات الدولة الأموية من الصوافى أو من الأراضى الموات.

ولكن بصفة عامة يؤخذ على الإقطاع فى العصر الأموى عنصر المحاباة، إذ أن أصحاب الملكيات الكبيرة كانوا إما من الأسرة الأموية أو من أشراف قريش، وبحثت الدولة عن أصحاب السيولة النقدية القادرين على استثمار تلك الأراضى، وترتب على ذلك السلوك تركز الثروة الكبيرة فى أيدى قلة من أفراد المجتمع[8]، كانت الزراعة فى العصر الأموى تعتمد بصفة رئيسية على مياه الأنهار، ولذا نجد أن مراكز الإنتاج الزراعى الرئيسية كانت هى العراق ومصر والشام، وبالذات حول

---

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى. (٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٧٨).

(٣) المقصود به هنا: وحدة المساحة. (٤) معجم البلدان (١/ ٤٣٥)، التطور الاقتصادى، ص(١٨٠).

(٥) أرض الصوافى للمصرى، ص (١٢٢).

(٦) تطوير نظام ملكية الأراضى، محمد على، ص (١٩٠، ١٩١).

(٧) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٨٨).

(٨) تطوير نظام ملكية الأراضى، محمد على، ص (١٩٠، ١٩١).

الأنهار[1]، وكان للقطاع الخاص دوره فى تطوير الزراعة فى العهد الأموى، وقد قام القطاع الخاص باستصلاح أراض زراعية جديدة بمساحات واسعة، ومثال ذلك أراضى البطائح التى كانت منذ عهد الفرس وحتى عهد الدولة الأموية أراضى مغمورة بالمياه، فبدأت من بداية الدولة الأموية حركة استصلاحها بحجز المياه عنها وتجفيفها، وقد خرجت منها أراض واسعة وخصبة وفيرة الإنتاج[2]، وقد توسعت الملكيات الزراعية الخاصة، وترتب عليها زيادة فى الإنتاج الزراعى، مما أدى إلى وجود أراض بعيدة عن مصدر الرى وهو النهر الأساسى، فحدث تطور فى تقنية الرى حيث ظهرت حركة حفر الأنهار والقنوات الفرعية وفق طرق هندسية تسمح لتلك الأراضى بالاستفادة من ماء النهر دون أن يؤدى ذلك إلى إغراقها، وقد توسع القطاع الخاص فى حفر هذه الأنهار والقنوات، فحدثت تنمية زراعية نتيجة استفادة الأراضى التى كانت تمر بجوارها تلك الأنهار والقنوات الفرعية[3]، وقد تمّ نقل التقنية الزراعية من البلاد المفتوحة حديثًا إلى مراكز الإنتاج الزراعى الرئيسية فى الدولة الأموية[4] إلا أن القطاع الزراعى تعرض للتدهور فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية بسبب عوامل متعددة منها:

١- الاضطراب السياسي، وفقدان الأمن بالمنطقة، فانعكس ذلك على مستوى الإنتاجية الزراعية، ويبدأ هذا الاضطراب مع مجئ يزيد بن معاوية، ومعاوية الثانى، ومروان بن الحكم.. إلخ.

٢- تركز الثروة فى يد قلة من سكان المنطقة، حيث كانت معظم التركيبة السكانية من الموالى[5]، مما ترتب عليه ضعف حركة النقود داخل المنطقة، فضعفت حركة تبادل السلع، أى حدوث كساد اقتصادى بالمنطقة.

٣- إعادة ضريبة النيروز والمهرجان التى روى أنها بدأت مع عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه[6]، وكان السبب فى إعادتها أن الناس اعتادوا دفعها على الرغم من منع الإسلام لها[7]، فأراد معاوية رضى الله عنه سحب مبالغها من غير

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٨٨).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٩٠).
(٣) الإدارة فى العصر الأموى، ص (١٥١).
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٩١).
(٥) المصدر نفسه، ص (١٩٦).
(٦) تاريخ اليعقوبى (٢/٢١٨).
(٧) مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى، ص (٣١).

المسلمين من الدهاقنة المسئولين عن الجباية، حتى لا يكونوا مراكز ثروة يتقوون بها ضد الدولة الإسلامية، وكان ينفقها رضى الله عنه فى مصالح الأمة الإسلامية، لكن الدهاقنة والأمراء المحليين أخذوا فيما بعد فى ابتكار ضرائب إضافية عديدة[1]، أرهقت كاهل المزارعين، بالإضافة إلى ما صاحب تلك الضرائب من عنف فى الجباية[2].

٤- إخضاع المشاريع الزراعية للضغوط السياسية، فقد أدت محاربة الدولة لخصومها السياسيين إلى تخريب أو تحجيم مشاريعهم الزراعية، فانعكس ذلك بنتائج سلبية على اقتصاد الدولة ككل، ومن صور ذلك ما حدث فى عهد الحجاج من أن بثوقًا انبثقت على الأرض المحياة من أرض البطائح فلم يعمل الحجاج ـ بوصفه والى المنطقة ـ على سد تلك البثوق مضارة لأهلها (لاتهامهم بمساعدة ابن الأشعث فى الخروج عليه). فغرقت أراضيهم الزراعية وتحولت إلى موات[3].

٥ ـ معاناة الدولة الأموية فى بداية نشأتها من مجموعة من المهاجرين الذين قدموا إلى إقليم العراق، وكانوا يعانون من البطالة، حيث لم يكونوا مسجلين بالعطاء، وليس لديهم أراض يقومون بزراعتها، فبدلاً من أن يقوموا بالعمل فى مجال من المجالات الأخرى قامت فئة منهم بإحداث بثوق فى نظام الرى، فأدى ذلك إلى تخريب المزارع وإغراقها، فلما ولى زياد العراق قام بالقضاء على مثل تلك الأعمال[4].

٦ ـ حدوث مواجهة عسكرية بين المزارعين المهاجرين من الأرياف إلى المدن من الموالى والدولة الأموية، وذلك حينما حاول والى العراق ـ الحجاج بن يوسف ـ إعادتهم إلى أراضيهم بالقوة وإعادة فرض الجزية عليهم، وقد وافق ذلك خروج ابن الأشعث على الدولة الأموية، فانضموا تحت لوائه[5]. ونتيجة لتلك العوامل وغيرها، فقد بدت علامات تدهور القطاع الزراعى العام فى المنطقة الشرقية من

---

(١) الخراج لأبى يوسف، ص (١٨٦، ١٨٧). (٢) الأحكام السلطانية للماوردى، ص (١٧٥).

(٣) إدارة العراق فى صدر الإسلام، رمزية خيرو، ص (٨٦).

(٤) المصدر نفسه، ص (٨٦).

(٥) الخراج والنظم للريس، ص (٢١٩)، الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الأموية، ص(٧١).

الدولة الأموية(١). ومع ذلك فقد كانت هناك مجموعة من الإجراءات والمشاريع التي خففت من حدة التدهور الزراعي بالمنطقة خلال هذه الفترة، وكان من أبرزها ما يلي:

أ- إنشاء زياد بن أبيه جسراً يمنع طغيان الماء على الكوفة(٢) مما وفر الفرصة لاستغلال أراضي كانت تعطل فترة من السنة نتيجة فيضان الماء عليها، وينتظر حتى تنتهي فترة الفيضان، وتجف الأرض حتى يمكن إعادة زراعتها مرة أخرى، كما أعطى هذا المشروع فرصة إدخال زراعة النباتات المعمرة إلى تلك الأراضي بدلاً من افتقار الزراعة فيها إلى المحاصيل الموسمية، وبلغ من أهمية هذا الجسر أن الولاة ظلوا يتعاهدونه طيلة فترة العصر الأموي(٣).

ب ـ عملية نقل الأيدي العاملة الزراعية من منطقة إلى منطقة أخرى، بهدف إحداث تنمية زراعية في الجهة المنقول إليها، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- نقل زياد خمسين ألف أسرة من البصرة والكوفة من ذوي الخبرة الزراعية المشهورة إلى خراسان لتعميرها(٤).

هذا وقد كانت الدولة الأموية تتولى مسئولية إقامة منشآت الري الكبرى والعمل على صيانتها وتطهيرها، كحفر الآبار ومجاري الأنهار، وسد البثوق (التصدع)، وفتح البريدات (مفاتيح الماء)، وإقامة المسنيات (السدود)، أما أصحاب الأراضي فكانوا يشاركون أحياناً في تطهير الأقنية الكبيرة، وكذلك الأمر فإنه كان يقع على عاتقهم، بطبيعة الحال، مسئولية إقامة الأقنية ووسائل الري داخل ممتلكاتهم الخاصة(٥). وقد حاول الحكام الأمويون استغلال ما أمكنهم من الأراضي، فعملوا على توسيع نطاق الأراضي الزراعية، وبخاصة تجاه بداية الشام، عن طريق استصلاحها وتأمين المياه، ووسائل الري لها(٦)، حتى إن قصور الأمويين في

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (١٩٨).

(٢) الإدارة في العصر الأموي، ص (٢٤٧).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٤٧).

(٤) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي للدوري، ص (٢٧).

(٥) تاريخ بلاد الشام الاقتصادي، عاطف رجال، ص (١٣٥).

(٦) التنظيم الاقتصادي في صدر الإسلام، ص (٨٢).

الصحراء كانت مراكز مهمة للاستثمار الزراعى حيث أقيمت حولها منشآت الرى، من قنوات وصهاريج، ومجارى وتوسعوا بذلك فى استصلاح الأراضى بواسطة توفير الرى لها[١]، وكان الخليفة معاوية بن أبى سفيان يبدى اهتمامًا كبيرًا بتنمية الزراعة ورفع مستوى إنتاجها، فكان يولى عنايته لتطوير وسائل الرى، وإخصاب الأراضى عن طريق الاستعانة بأصحاب الخبرة والاختصاص من السكان المحليين[٢]، كما أن يزيد بن معاوية كان يلقب بالمهندس نظرًا لخبرته الهامة فى الشئون الزراعية، وإبداء اهتمامه بإصلاح أنظمة الرى والعناية بها، فقد أمر بحفر قناة سميت باسمه بنهر يزيد، وكانت هذه القناة فى الأساس رافدًا صغيرًا بالكاد يروى ضيعتين بالغوطة، فقام يزيد بتوسيعها وتعميقها حتى أصبحت بعرض ستة أشبار، وبعمق ستة أشبار كذلك، الأمر الذى أدى إلى زيادة تدفق المياه وغزارتها، بحيث أصبحت تكفى لرى أراض واسعة فى الغوطة[٣]، وبذلك أتيح المجال أمام المزارعين للقيام باستصلاح بعض أراضيهم المتروكة والعمل على استغلالها[٤]، وكانت غالبية الأراضى فى بلاد الشام تعتمد فى ريها على مياه الأمطار التى تتساقط عليها خلال الفترة الممتدة بين تشرين الأول ونيسان، إلا أن أراضى واسعة[٥] كانت تروى سيحًا، أى من المياه الجارية على سطح الأرض حيث تأتى من مياه بعض الأنهار ومن مياه العيون فى الجداول والقنوات، وكذلك فإن قسمًا آخر من الأراضى كانت تروى بواسطة الآلات التى ترفع المياه من منخفضات بعض الأنهار إلى سواقى أعلى لرى الأراضى التى يعلو مستواها عن مجارى الأنهار، أو التى ترفع المياه من الآبار والخزانات[٦]، وتعتبر مياه العيون مهمة فى رى المزروعات، حيث كانت تروى قسمًا كبيرًا من الأراضى فى أنحاء الشام[٧]، وكانت الغلات والمزروعات

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٣٦).

(٢) النزعات المادية، حسين مروة (١/ ٤٧٦)، تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (١٣٦).

(٣) تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦) .

(٤) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٤١).

(٥) مفاتيح العلوم للخوارزمى، ص (٤٦)، تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (١٤١).

(٦) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٤١).

(٧) المصدر نفسه، ص (١٤٣).

المتوافرة: القمح والشعير والرز والزيتون، والنخيل والعنب والتين والفواكه والقطن، وقصب السكر، والبقول، والسمسم، والرياحين، وغير ذلك[١].

رابعًا : اهتمام الدولة بالتجارة الداخلية والخارجية:

يتوسط موقع الدولة الأموية بين دول الشرق الأقصى من ناحية مثل الصين والهند ونحوهما وبين الدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ومعنى ذلك - بالضرورة وطبقًا لمعايير ذلك العصر - أن أهم علاقاتها التجارية ارتبطت بهاتين الدولتين[٢]، وبعد تولى معاوية الخلافة استقرت الأمور وبدأت حركة التجارة الداخلية تزدهر كما كانت عليه قبل ذلك، واهتم معاوية بمصالح التجار وعمل على توسيع نطاق التجارة، وتميز أهل الشام فى حرفة التجارة، وفتحوا علاقات تجارية مع غربى أوربا واستفادوا من الأسطول الإسلامى، ومن بين العوامل التى ساعدت على نشاط حركة التجارة الثراء العريض الذى نعمت به طبقة الحكام وحاشيتهم، حيث نما فى نفوسهم حب البذخ والرفاهية، وبالتالى توافر عندهم الميل والحاجة إلى اقتناء المنتوجات الكمالية، فأقبلوا على شراء السلع التجارية الباهظة الثمن، مما زاد فى فعالية التجار وازدهار التجارة[٣]، وكان الأمويون يقومون بدور كبير فى عالم التجارة وخصوصًا أن الخليفة معاوية -رضى الله عنه- والده كان من كبار تجار قريش، كما أن معاوية نفسه لما كان واليًا فى عهد عثمان بن عفان على بلاد الشام كان يرسل بقوافله التجارية من الشام إلى حاضرة الجزيرة العربية[٤].

وكان التجار يحتلون مكانة اجتماعية عالية فى العصر الأموى، وكانوا يقومون بتأسيس الشركات فى سبيل زيادة فعالية التجارة، حيث كانوا يساهمون فى الشركة بتقديم المال وممارسة العمل كذلك، أو بواحد منهما، فإذا أقدم صاحب المال على تقديم ماله لآخر ليتاجر به لقاء حصة من الربح يتفق عليها، فيسمى ذلك الاتفاق بالمضاربة[٥]. وقد ازدهرت شركات المضاربة وأصبحت وسيلة مهمة فى مجال العمل التجارى[٦]، وكانت تجارة الأسواق المحلية مليئة بالحركة والنشاط، وقد

---

(١) تاريخ بلاد الشام فى العصر الأموى، ص (١٤٧ - ١٥٦).

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٠٥).

(٣) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٦٨). (٤) المصدر نفسه، ص (١٧٢).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٧٤).

أصبحت عاصمة الدولة دمشق مركزًا تجاريًا مهمًا يعود إلى الظروف السياسية الجديدة التى نشأت، فغيرت من سبل واتجاهات حركة التجارة عما كانت عليه سابقًا فى العصر البيزنطى، حيث أصبحت دمشق عاصمة للخلافة الأموية، ومحطًا للتجارة الشرقية(١)، وبالتالى مركزًا لتوزيع البضائع إلى الجهات المختلفة، بعد أن كانت القوافل المحملة بالبضائع الشرقية تتجه مباشرة إلى إنطاكية على ساحل الشام الشمالى، وهكذا كان لأهمية تجارة دمشق التى تتكدّس فى أسواقها البضائع المتنوعة المنتجة محليًا والمستوردة أن قال ياقوت بأنه يستحيل أن يطلب شىء فى أسواق دمشق غير موجود، حتى إن السلع الغالية الثمن التى تستورد من جميع أنحاء العالم المتمدن موجودة فيها(٢). ثم إن دمشق كانت بحكم موقعها الجغرافى المتاخم للبادية المركز التجارى الهام الذى يقصده البدو والمقيمون فى الصحراء(٣)، وقد اشتهرت مدن الشام كحلب والرصافة، وحمص، والرملة والقدس وإنطاكية بأهميتها التجارية، ونشاط أسواقها(٤)، وكانت عاصمة الشام، محط رحال القوافل التجارية الآتية من الشرق، ولا شك أن الكوفة والبصرة والموصل، ومدن الحجاز، ونجد وغيرها قد ازدهرت حركة التجارة فيها أيضًا إلا أن مدن الشام كانت تزدهر فيها التجارة أكثر من غيرها، حيث إنها تعتبر مراكز تجارية كبرى وأسواقًا هامة، كما أن الأسواق الموسمية التى كانت تقام فى بعض المدن، تعرض فيها البضائع المتنوعة بكثرة، كانت توفر مجالاً أوسع لتأمين كل متطلبات واحتياجات سكان المدن والقرى كذلك، بالإضافة إلى أن هذه الأسواق كانت مناسبة هامة للتجار الذين يأتون إليها من أماكن مختلفة تستفيد من كل ذلك. وقد كان من هذه الأسواق التى كانت قائمة فى العصر البيزنطى واستمر قيامها فى العصر الأموى سوق بصرى الذى كانت تطول مدة إقامته، حيث كان يستمر من ثلاثين إلى أربعين يومًا، وكذلك فقد كان هناك سوق أذرعات الذى استمر قيامه حتى ما بعد العصر الأموى(٥).

(١) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (١٨٣).

(٢) معجم البلدان (٢/ ٤٦٥).

(٣)، (٤) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى، ص (١٨٣).

(٥) تاريخ بلاد الشام الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (١٨٧).

وأما بالنسبة للتجارة الخارجية فى عهد معاوية رضى الله عنه وابنه، فقد ازدهرت التجارة مع الدولة البيزنطية، وازدادت نموًا وقوة، وقد ساهمت عدة عوامل فى هذا الازدهار منها :

١- كثرة الاضطرابات والحروب فى المنطقة الشرقية من الدولة الأموية، مما خفض من حجم المبادلات التجارية بينها وبين دول المشرق ولو بشكل جزئى، وبالتالى زيادة حجم المبادلات التجارية مع دولة بيزنطة بالغرب.

٢- الاستقرار الأمنى فى الدولة الأموية، دفع بكثير من رؤوس الأموال للهجرة من مناطق التوتر فى الشرق إلى إقليم الشام، بحثًا عن فرص استثمار تجارية آمنة.

٣- الاعتماد الكلى لكل من الدولتين على الأخرى فى مجال هام وحيوى بالنسبة لها، فكما كانت الدولة البيزنطية تعتمد كليًا على أوراق البردى، كانت الدولة الأموية تعتمد كليًا فى حجم النقد الذهبى داخلها على ما يردها من الدولة البيزنطية.

ومن العلامات التى تدل على ازدهار التجارة بين الطرفين فى عهد معاوية ومن بعده ما يلى:

أ- كمية الدنانير الذهبية البيزنطية التى كانت موجودة فى داخل الدولة الأموية وتتم بها عمليات التداول الداخلية .

ب- استمرار مصانع إنتاج البردى فى مصر فى إنتاجه على النهج البيزنطى للتصدير حتى عهد عبد الملك بن مروان[1].

خامسًا : الحرف والصناعات :

تأثرت الحرف والصناعات فى العصر الأموى بالبيئة الاقتصادية المحيطة بها، كما تأثرت الصناعات والحرف بطبيعة الاقتصاد الأموى، حيث كان النشاط الزراعى هو النشاط الرئيسى فيه، فظهرت وتطورت صناعات تعتمد فى موادها الخام على القطاع الزراعى، مثل صناعة النسيج وصناعة المعاصر والمطاحن، كما واكبت الصناعة حركة التطور العمرانى بالدولة الأموية، فظهرت وتطورت صناعة مستلزمات البناء، إضافة

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٠٩).

إلى تأثر الصناعة بالجو العسكرى السائد فى معظم فترات العصر الأموى، حيث تطورت صناعة السفن التجارية[1]، وقد اهتمت الدولة الأموية ببناء أسطول حربى، ليقف فى وجه الأسطول الحربى البحرى البيزنطى، والذى كان يهدد سلامة الشواطئ الغربية للدولة الإسلامية، فتطورت صناعة السفن الحربية فى العصر الأموى بشكل كبير ومتلاحق، فقد كان الإنتاج فى بداية العصر الأموى مقتصراً على السفن، التى كانت تنفرد مصر بصنعها حتى عام ٤٩هـ، حيث أمر معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، بإنشاء دار لصناعة السفن بالشام بمدينة عكا، وقد استقدم من مصر الخبراء للاستفادة منهم فى دار الصناعة الجديدة، والتى تميزت بسهولة حصولها على الأخشاب من جبال لبنان[2]. ثم تطورت هذه الصناعة، فأنشئت فى مصر منطقة صناعية جديدة، خاصة بصناعة السفن الحربية، وذلك عام (٥٤هـ)[3]. واستمرت الدولة الأموية فى تطوير صناعة السفن فيما بعد عهد معاوية رضى الله عنه وقد أصبحت مناطق دور صناعة السفن الحربية مناطق جذب سكانى، كما أصبحت مناطق جذب وتوطن صناعى، فأصبحت أماكن استثمار خصبة، حيث أنشئت فيها الفنادق، والمطاحن، ونحوها من الأنشطة الأخرى، وساعد على نمو وتطور هذه الصناعة، ما اتسمت به منذ بداية نشأتها، من دقة التنظيم.

ومن صور هذه الدقة ابتكار وظيفة المشرف العام على دار الصناعة ويسمى متولى الصناعة، ومن أبرز مهامه جمع الطاقات البشرية الفنية العاملة فى هذا المجال من نجارين وحدادين وعمال ونحوهم، سواء من الأقاليم المجاورة للصناعة، أو من مختلف أقاليم الدولة، ومن مهامه أيضًا توفير الأدوات الخام، مثل الأخشاب والمسامير وغيره من مستلزمات دار الصناعة، وعليه يمكن القول إن التنظيم كعنصر من عناصر الإنتاج فى العصر الحديث ترجع جذوره إلى القطاع العام الصناعى فى العصر الأموى، أو (متولى الصناعة). ومن صور دقة تنظيم هذه الصناعة، الاهتمام بتحديد أجور العمال، وتوفير الكميات الغذائية اللازمة

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٣٥).

(٢) خطط الشام (٥/ ٣٧)، النظم الإسلامية، إبراهيم العدوى، ص (٣٥٥)، التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٣٩).

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى، ص (١٦٦).

لهم، كما حرصت الدولة على توفير سبل الراحة للعاملين فى هذه الصناعة، وكان من بين ذلك رفعها كل ظلم يقع على العامل، وتوفير وحدات سكنية للعمال، والمشرفين على هذه الصناعة بداخل دور الصناعة، وكذا وحدات لتموين السفن الحربية بالسرعة والدقة المطلوبة(١)، ونتج عن ذلك كله تطور هائل فى حجم الأسطول البحرى إبان العهد الأموى(٢).

لقد كانت الدولة البيزنطية متفوقة على الدولة الإسلامية الأموية فى ميادين البحر، فاتخذ معاوية الوسائل المناسبة لإضعافها ثم القضاء عليها فيما بعد. وفى هذا الأمر درس عظيم لقادة الأمة فى معرفة عوامل قوة العدو، وجوانب تفوقه ثم السعى للوصول لنقطة تساوٍ ثم تفوق على الخصوم، سواء فى الميادين العسكرية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو الإعلامية، ومما نلاحظه الآن القوى العسكرية الهائلة التى تميز بها عدونا سواء على مستوى السلاح الجوى أو النووى والذرى، فواجب على الأمة أن تسعى لإيجاد حلول حتى تستطيع أن تقاوم أعداءها وعلى علماء الأمة ومفكريها ألا يخضعوا للضغوط النفسية والسياسية والإعلامية التى يمارسها الأعداء علينا، وعليهم أن يبينوا أحكام الله فى امتلاك ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل. إن استمرار الأعداء فى امتلاك الأسلحة الرادعة والتى لها قدرة بإذن الله على حسم المعارك العسكرية، جعلهم يتجبرون ويتغطرسون ويعملون على إفساد عقائدنا وثقافتنا وديننا، ويستولون على خيراتنا وثرواتنا مما يوجب علينا أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة، فلذلك وجب علينا أن نسعى لامتلاك الأسلحة الرادعة لكى نحمى بها أمننا وديننا ونقيم العدل وندفع الظلم عن البشرية.

ومن الصناعات التى اشتهرت فى العهد الأموى، صناعة السفن التجارية، ولم تكن السفن الحربية تختلف كثيرًا عن السفن التجارية، ومع ذلك كانت مناطق تصنيعها مختلفة، فقد اختصت منطقة البحرين أكثر من غيرها بإنتاج السفن التجارية، فى حين كانت مصر، وعكا، وتونس مواطن تصنيع السفن الحربية، وساعد البحرين على ذلك وقوعها على الخليج العربى، والذى كان يعد من أهم

---

(١) النظم الإسلامية للعدوى، ص (٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٤١).

طرق المواصلات التجارية البحرية بين الشرق والغرب، وكذا ما اكتسبه أهلها من خبرة ملاحية نتيجة احتكاكهم بشعوب لديها خبرات ملاحية كشعوب الهند، والصين[1]. ولم تقتصر صناعة السفن على البحرين، بل امتدت إلى مدينة واسط بالعراق وقد تطورت هذه الصناعة فى عهد ولاية الحجاج بصفة خاصة[2]، فقد أدخل تحسينات على صناعة السفن التجارية لتستطيع السير فى عرض البحر، فأمر بتكبير حجمها، واستخدام المسامير لتقويتها، والاهتمام بهيكلها العظمى[3]، وكانت السفن التى تصنع فى واسط تسمى الواسطية، وكانت تنتج مدينة واسط القوارب الصغيرة، والتى كانت تستخدم للنزهة والسفر ونقل السلع التجارية بين واسط والبصرة لضحالة الطريق النهرى بينهما وعدم قدرة السفن على السير فيه[4]، ولم تكن مراكز إنتاج السفن الشرقية بالدولة الأموية متخصصة فى إنتاج السفن التجارية فقط، وإن كان هو الغالب عليها، بل كان لديها القدرة المزدوجة، فقد قام الحجاج أيضًا ببناء قوة عسكرية بحرية بالخليج العربى وبحر الهند[5].

سادسًا : شبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية :

أثار بعض المؤرخين شبهات حول مصارف الأموال فى عهد معاوية رضى الله عنه، وذكروا عدة مصارف وسموها بأنها جائرة وغير شرعية منها:

١- التفريط فى خراج بعض الأقاليم والتفرقة فى العطاء:

أ- إعطاء مصر طعمة لعمرو بن العاص: تتعدد الروايات التى تنص على أن معاوية أعطى مصر طعمة لعمرو بن العاص لقاء تأييد الأخير له فى حربه ضد على ابن أبى طالب رضى الله عنه، وجل هذه الأخبار تحوى روحًا عدائية لعمرو ومعاوية وتصور اتفاقهما على حرب على، كما لو كانت مؤامرة دَنيئة أو صفقة مريبة، خان فيها الرجلان ربهما، ودينهما، وتاريخهما مقابل عرض زائل أو نصر

(١) البحرين فى صدر الإسلام، عبد الرحمن نجم، ص (٨٤).

(٢) العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، ص (١٠١).

(٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٤٢).

(٤) الحجاج بن يوسف الثقفى، ص (٥٩) هزاع الشمرى .

(٥) واسط فى العصر الأموى، ص (٢٤٣).

سريع، وكأنه من المستحيل أن يبذل ابن العاص نصرة لقضية اجتمع حولها آلاف الرجال فى الشام وغيرها - وهى الطلب بدم عثمان - إلا إذا نال ولاية مصر وخراجها لنفسه، وبعض هذه الروايات تحوى سبابًا لهذين الصحابيين، كأن تزعم أن عمرو فضل ولاية مصر على حسنى الآخرة وصرح بذلك فقال: إنما أردنا هذه الدنيا[1]، أو أنه قال لمعاوية: لا أعطيك من دينى حتى آخذ من دنياك[2]، أو قوله: إنما أبايعك بها دينى (أى بمصر)[3]، أو قوله لمعاوية: ولولا مصر وولايتها لركبت المنجاة منها، فإنى أُعلم أن على بن أبى طالب على الحق وأنت على ضده[4]، إلى غير ذلك من الروايات[5]، وهكذا روايات باطلة وموضوعة عند المسعودى وكتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة وغيرها تمسخ عمرو بن العاص إلى رجل مصالح، وصاحب مطامع وراغب دنيا، وقد تأثر بالروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة مجموعة من الكتّاب والمؤرِّخين، فأهووا بعمرو إلى الحضيض، كالذى كتبه محمود شيت خطاب[6]، وعبد الخالق سيِّد أبو رابية[7]، وعباس محمود العقَّاد الذى يتعالى عن النَّظر فى الإسناد، ويستخفُّ بقارئه، ويظهر له صورة معاوية وعمرو رضى الله عنهما بأنَّهما انتهازيَّان، صاحبا مصالح، ولو أجمع النَّاقدون التاريخيون على بطلان الرِّوايات التى استند إليها فى تحليله، فهذا لا يعنى للعقَّاد شيئًا، فقد قال بعد أن ذكر روايات ضعيفة، واهية، لا تقوم بها حجة: . . . وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا فى صدق هذا الحوار، وصحَّة هذه الكلمات، وما ثبت نقله، ولم يثبت منه سنده، ولا نصُّه، فالذى لا ريب فيه، ولو أجمعت التواريخ قاطبة على نقضه: أن الاتفاق بين الرجلين، كان اتفاق مساومة، ومعاونة على الملك، والولاية، وأن المساومة بينهما كانت على النصيب الذى آل إلى كلٍّ منهما، ولولاه لما كان بينهما اتفاق[8].

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها نقلاً عن الكامل فى التاريخ .

(٢) الإمامة والسياسة (١/ ٩٨) .

(٣) العقد الفريد (٤/ ٣٤٥) .

(٤) مروج الذهب (٣/ ٢٩) .

(٥) وقعة صفين، ص (٢٣٧) سلسلة هذه الروايات كلهم من الشيعة الروافض .

(٦) سفراء النبى ﷺ، ص (٥٠٨).

(٧) عمرو بن العاص، لعبد الخالق سيد أبو رابية، ص (٣١٦).

(٨) عمرو بن العاص للعقاد، ص (٢٣١، ٢٣٢).

وهناك عدة دلائل ترد على الروايات الضعيفة والموضوعة والسقيمة التى لاقت رواجًا واستقرارًا فى تشويه عمرو بن العاص ومعاوية بالظلم والبهتان، منها ما عرف من صحة إسلام وتقوى معاوية وعمرو، وتاريخهما المضىء فى خدمة دين الله منذ أسلما[1]، ففى معاوية يكفى دعاء رسول الله ﷺ عندما قال: «اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهد به» [2]، وقوله ﷺ: «اللهمّ علّم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب» [3]، وأما عمرو بن العاص رضى الله عنه فقد شهد له رسول الله ﷺ بالإيمان حيث قال: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص» [4] وفى حديث آخر قال: «ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام» [5]، وقول رسول الله ﷺ: «وصدق عمرو، إن لعمرو عند الله لخيرًا كثيرًا» [6].

- كانت بيعة عمرو لمعاوية فى عهد على عليٍّ الطلب بدم عثمان، فقد كان تأثر عمرو بمقتل عثمان عظيمًا، فعندما سمع خبر مقتل عثمان... ارتحل راجلاً يبكى، ويقول: يا عثماناه: أنعى الحياء والدين... حتّى قدم دمشق[7]، فقد كان من أقرب أصحابه، وخلانه، ومستشاريه، وكان يدخل فى الشُّورى ـ فى عهد عثمان ـ من غير ولاية، ومضى إلى معاوية -رضى الله عنهما- ليتعاونا معًا على الاقتصاص من قتلة عثمان والثأر للخليفة الشهيد[8]، لقد كان مقتل عثمان كافيًا لأن يحرِّك كلَّ غضبه على أولئك المجرمين السَّفَّاكين، وكان لابدَّ من اختيار مكان غير المدينة للثأر من هؤلاء الذين تجرَّؤوا على حرم رسول الله، وقتلوا خليفته على أعين النَّاس، وأىُّ غرابة أن يغضب عمرو لعثمان؟ وإن كان هناك من يشك فى هذا الموضوع، فمداره على الرِّوايات المكذوبة التى تصوِّر عمرًا؛ كلُّ همه السُّلطة والحكم[9].

(١) الدولة الأموية حمدى شاهين، ص (٤١٦).

(٢) صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/ ٢٣٦).

(٣) موارد الظمآن (٧/ ٢٤٩) إسناده حسن.

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٣٨) رقم (١٥٥).

(٥) الطبقات (٤/ ١٩١)، السلسلة الصحيحة (١/ ٢٤٠) رقم (١٥٦).

(٦) المستدرك (٣/ ٤٥٥) صححه الحاكم وقال الذهبى: صحيح إسناده حسن.

(٧) تاريخ الطبرى، نقلاً عن عمرو بن العاص، للغضبان، ص (٤٨١).

(٨) عمرو بن العاص، للغضبان، ص (٤٨٩، ٤٩٠).

(٩) المصدر السابق، ص (٤٩٢).

- ومن الدلائل على بطلان فرية إعطاء مصر طعـمة لعمرو بن العاص، ما ذكره أبو مخنف أحد رواة الفرية السابقة، أن دفع معـاوية جيشه إلى فتح مصر وأخذها من يد أنصار على بن أبى طالب سنـة ٣٨هـ ـ وكان عمرو قـائده فى هذه الحملة ـ أنه كان يرجـو أن يكون إذا ظهر عليـها ظهر على حـرب على لعظم خراجـها[١] . . فكيف يهب معاوية ذلك الخراج كله لعمرو وهو فى مسيس الحاجة إليه؟.

- ومن الدلائل أيضًا: أن معاوية كتب بعد استخلافه إلى عامله على خراج مصر ـ وردان ـ أن زد على كل امرئ من القبط قيراطًا، فرد عليه: كيف وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم؟.[٢] ولم يل وردان خـراج مصـر لمعـاوية إلا فى ولاية عمـرو بن العاص لأن من ولوا مصر بعـد موت عمرو ـ وهم عتبة بن أبى سفـيان وعقبة بن عامر ومـسلمة بن خالد ـ كانوا يتولـون صلاتها وخراجهـا، وهذه الرواية صريحة قاطعة فى الدلالة على اهتـمام معاوية بزيادة حصيلة الخـراج فى مصر، وفى ولاية عمرو بن العـاص عليها، وهذا الاهتمام لا معنى له إلا إذا كـان فائض الخراج فى مصر يـحمل إلى معاوية فى دمـشق ليواجه به وجوه الإنفـاق المتنوعة[٣]. كما أن معاوية لم يكن يـستحل أن يتنازل عن خراج مصـر ـ وهى من أغنى أقاليم الدولة الإسلامية آنذاك ـ لفرد واحـد وهو يعلم أنه حق الأمة كلها، وأنه لا يملك التنازل عنه، وقد روى ابن تيميـة عن عطية بن قيس قال: سمعت معـاوية بن أبى سفيان يخطبنا يقول: إن فى بيت مالكم فضلاً بعد أعطياتكم وإنى قاسمه بينكم، فإن كان يأتينا فضل عامًا قابلاً قسمناه عليكم، وإلا فلا عتبة علىَّ، فإنه ليس بمالى وإنما هو مال الله الذى أفاءه عليكم[٤]، وإذا أضفنا إلى ذلك ما نعـرفه من تنافس الأمصار الإسلامية مع بعضها، ووجود معارضـة للأمويين فى مصر كانت حديثة العهد منذ تبعيـة مصر لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه حتى دخلها عـمرو بن العاص سنة ٣٨هـ، لازددنا يقـينًا أن أهلها لم يكونوا يقـبلون ما يزعـمه الرواة حول إعـطائها طعمة لابن العاص.

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٩) . (٢) فتوح البلدان، ص (٢١٩).

(٣) الأمويون والفيء، ص (٦٧، ٦٨)، فهمى عبد الجليل .

(٤) منهاج السنة النبوية (٣/ ١٨٥) .

وعلى ذات السبيل نذكر أن من رجال مصر من بذل فى سبيل نصرة معاوية مثلما بذل عمرو بن العاص، إن لم يفقه، كمعاوية بن حديج وأصحابه من العثمانية، وهؤلاء لا يقبلون بحال أن يمتاز عمرو عليهم كل هذا الامتياز، وقد مر بنا فيما مضى أن معاوية بن حديج هذا قد أرجع ابن أخت معاوية - عبد الرحمن بن أم الحكم - الذى ولاه معاوية مصر، من قبل أن يدخلها، ورفض أن يتولى إمارتهم ورده إلى الشام على نحو غير كريم، فما استطاع معاوية أن يغضب بن حديج[١].

ب- **التنازل عن خراج (دارابجرد) للحسن بن على**: زعم بعض المؤرخين أن معاوية تنازل للحسن بن على رضى الله عنهما عن خراج (دارابجرد) وأن يعطيه مما فى بيت مال الكوفة مبلغ خمسة آلاف ألف درهم مقابل تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وأن الحسن قد أخذ ما فى بيت مال الكوفة ولكنه لم يستطع الحصول على خراج (دارابجرد)، إذ إن أهل البصرة قد منعوه منه، ويزعمون أن ذلك كان بتحريض معاوية أو بمبادرة من البصريين، على أن هذه الرواية تغض من شأن الحسن ومعاوية معًا وتجعلهما فى موقف التواطؤ على أكل أموال المسلمين بالباطل[٢]، وهذا باطل ولا يصح. والصحيح مثبت فى البخارى بأن الحسن قال لوفد معاوية؛ عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لى بهذا؟ قالا: نحن لك به[٣]، فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بنى عبد المطلب، يريد الحسن أن لا يطالبهم بها معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه قادم[٤]، وذكر ابن أعثم أن الحسن قال: أما المال فليس لمعاوية أن يشترط لى فىء المسلمين[٥]. والمعلوم أن جباية الخراج من مهام الدولة، ولا علاقة مباشرة بين الحسن وأهل البصرة فى هذا الجانب، ولكن الرواية أشارت إلى أن خراج دار ابجرد لم يكن فى الأموال التى صُيرت إلى الحسن[٦]، ورُوى أن الحسن قال لمعاوية: إن علىَّ عِدَّات ودُيونًا، فأطلق له من بيت المال نحو أربعمائة ألف أو أكثر[٧]، وذكر

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤١٧).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤١٧)، تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٥).

(٣) البخارى، ك: الصلح رقم (٢٧٠٤).

(٤) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٤).

(٥) الفتوح (٣/ ٢٩٣).

(٦) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٤).

(٧) تاريخ الإسلام، عهد معاوية، ص (٧).

ابن عساكر: يُسلِّم له بيت المال فيقضى منه ديونه ومواعيده التى عليه، ويتحمل منه هو ومن معه عيال أهل أبيه وولده وأهل بيته[1]، وذهب بعض المؤرخين إلى أن إبقاءه ما فى بيت المال معه (خمسة ملايين درهم)، استبقاه لأولئك المحاربين الذين كانوا معه، يوزِّعه بينهم، ويبقى لمعيشته له ولأهل بيته ولأصحابه[2]. ولا شك أن توزيع الأموال على بعض الجنود يساعد فى تخفيف شدة التوتر .

إن الذى جاء فى رواية البخارى هو الذى أميل إليه، فالأمر لا يكون تجاوز طلب العفو عن الأموال التى أصابها الحسن وآله فى الأيام الخالية. وأما الروايات التى تشير بأن يجرى معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليونى درهم فى كل عام، ويفضل بنى هاشم فى العطاء والصلات على بنى عبد شمس[3]، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور أن إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفًا أمام مصالحه الخاصة[4]. وأما حقه فى العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشر معشار ما ذكرته الروايات[5].

جـ- التفرقة فى العطاء: أول من سن ديوان العطاء فى الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أما قبل ذلك فى عهد رسول الله ﷺ، فكانت غنائم الحرب توزع على المسلمين فور انتهاء المعارك[6]، وقد أعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين، وكان شيئًا كثيرًا[7]، فتقرر بذلك أن تفضيل بعض الناس فى توزيع الغنائم أمر مباح، وقد يكون مستحبًا إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك[8]، وإن كان ذلك يزيد فى غنائمهم عن بقية المسلمين، ثم كثرت بعد ذلك الغنائم المجلوبة إلى حاضرة المسلمين نتيجة اتساع نطاق الغزو زمن عمر بن الخطاب فاستشار أصحابه وانتهى أمره إلى تدوين ديوان العطاء ليكفل توزيعه على نحو معروف، وفضل أصحاب السابقة والقرابة من النبى ﷺ على من عداهم[9].. ولما جاء

---

(١) تاريخ دمشق (١٤/ ٩٠).
(٢) التاريخ الإسلامى، شوقى أبو خليل، ص (٢٦٨).
(٣) الأخبار الطوال، ص (٢١٨).
(٤) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٦٣).
(٥) المصدر نفسه، ص (٦٣).
(٦) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤١٨).
(٧) الاستخراج لأحكام الخراج، ص (٢٦) ابن رجب الحنبلى.
(٨) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤١٨).
(٩) المصدر نفسه، ص (٤١٨).

الأمويون فضلوا أهل الشام على من عداهم، فـقد كانوا أنصارهم المخلصين، وهم عماد الجـيوش المجاهدة سواء فى الشـمال فى جهاد الروم أو فى الغـرب فى فتوح إفريقـية والأندلس، وهم المحـافظون على سلامـة الدولة وقمع مخـالفيـها، وكم استنجد بهم ولاة الأمصار حين خرج عليهم خارجون وعجز جند المصر فى الدفاع عن أنفسهم ونظـامهم، كما حدث فى قـتال ابن الأشعث[1]، ومواجهة ثورة يزيد ابن المهلب زمن يزيد بن عـبد الملك[2]، وكمـا حدث فى انتقاض البـربر الخوارج بإفريقية فى عهد هشام[3].

٢- التوسع فى إنفاق الأموال لتأليف القلوب واكتساب الأنصار:

أنفق معاوية رضى الله عنه أموالاً كبيـرة ليتألف بها قلوب الزعماء والأشراف ويوطد أركان الدولة الإسـلامية التى قـامت بعد فتـرات من الصراع والتطاحن، فقد رأى معاوية رضى الله عنه أن إراقة بعض المال خـير من إراقة كثير من دماء المسلمـين. . فأعطى هؤلاء الرجـال المال يستمـيل به قلوبهم، وقلوب أتبـاعهم وأنصارهم، ويعلى به مكانتهم ويسد خلة مَنْ وراءهم، ولعله قد فهم من إعطاء الرسول ﷺ المؤلفة قلوبهم بعد فـتح مكة ليستميلهم نحو الدين ويـسيل سخائم نفـوسهم، أنه يجـوز أن يعطى أمـثال هؤلاء الرجـال ليتـألف قلوبهم ويضـمن ولاءهم، والولاء للدين والدولة يختلطان فى فهم معاوية وبنى أمية حيث قامت دولتهم -فـيما اعتـقدوا- لنصرة الدين وجـمع شمل أهله[4]، وأخيرًا فـإن كان معاوية مخطئًا فى ذلك فمـا القول فى هؤلاء السادة الذين قبلوا عطاياه وجوائزه وفيهم من اشتهر بالتقوى والورع والخوف من الله تعالى؟ إن من الحق أن نقول: إن المجتمع الإسلامى فى ذلك العـهد كان يشهد تغيـراً كبيراً عن زمن النبى ﷺ وخلفائه الراشدين حتى صارت بعض فعالياته السيـاسية ترى أن من حقها التميز فى العطاء[5].

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٠).

(٢) المصدر السابق، ص (٤٢٠). (٣) المصدر نفسه، ص (٤٢٠).

(٤) الأمويون والفيء، ص (٧٢، ٧٣) فضلاً عن الدولة الأموية شاهين، ص (٤٢٢).

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٢).

٣ ـ مظاهر الترف عند الأمويين:

هذا ويحتل الحديث عن ترف الأمويين وبذخهم مكانة واسعة عند مؤرخينا، والحق أنه كان عندهم لون من ألوان البذخ فى سكناهم وفى لباسهم وفى عطائهم ونفقاتهم، وقد لفت معاوية نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنهم إليه وهو بعد أحد ولاة الشام، يغدو فى موكب ويروح فى آخر، ولكن من الحق أيضًا ألا ننظر إلى حياة الأمويين بمعزل عن حياة المجتمع العربى والإسلامى آنذاك، فهى جزء منه، تتأثر به، كما تؤثر فيه، وفى ذلك العصر كان التطور الاجتماعى يتلاحق، ومظاهر الغنى وانثيال الأموال والرغبة فى التمتع الحلال به تصبح أمرًا ظاهرًا يدفع الذوق العام والقيم الاجتماعية الحاكمة آنذاك إلى مزيد من التفتح والاتساع. . وأن هذه السمة الظاهرة لا تنفيها ورود أخبار مؤكدة فى زهد معاوية ورقة ثيابه(١)، أو زهد عامله زياد ولباسه المرقوع(٢)، فلا تناقض بين هذه الروايات وما عرف من التلبس بمظاهر الملك، بل هى دليل على نفوس عالية لا ترى الزهادة نقصًا ولا ترى التنعم حرامًا(٣)، وهكذا إذا نظرنا نظرة شاملة فى وجوه الإنفاق المالى فى ذلك العصر لا نجد مظاهر الترف والبذخ قصرًا على بنى أمية؛ خلفائهم وولاتهم، فبعض بنى هاشم وبنى الزبير وغيرهم من معارضى الأمويين لم يكونوا أقل سماحة بالمال من بنى أمية ولا أكثر حرصًا عليه(٤)، وإذا كان بنو أمية قد ابتنوا القصور فقد بنى رجال من أشراف العرب قصورًا كان لها ذكر وبهاء وكان العرب يعدون ذلك كرمًا، ويتفاخرون به، ويتوقعون مثله من كل شريف من أشرافهم وإن لم يكن حاكمًا(٥).

والترف فى المجتمعات الإسلامية ظاهرة سلبية لها ما بعدها، إن بحبحة الأمويين فى الإنفاقات المالية أدت إلى ظهور الترف ثم تعمق وتجذر فى الأمة حتى أصبح ترفًا مدمرًا، ظهرت معالمه وآثاره فى سقوط بلاد الشام فى يد الصليبيين ثم سقوط بغداد فى يد المغول، وزوال الدولة العباسية، لذلك يكره الإسلام الترف ويحذر منه أشد التحذير: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. إنه كالحمض الأكال الذى ينخر فى جسم المادة فيذهب

---

(١) العواصم من القواسم، ص (٢١٧) تعليق محب الدين الخطيب .
(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٤).
(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٤٢٤).
(٤) المصدر نفسه، ص (٤٢٤).
(٥) المصدر نفسه، ص (٤٢٥).

بصلابتها، فتصبح هشة سهلة القصف، أو تصبح لينة لا قوام لها فى الصدام، وقد كانت وفرة المال فى أيدى الناس هى الباب المؤدى إلى الترف بطبيعة الحال، ولكن هذا يفسر ولا يبرر، فإنه لا يوجد تبرير لمعصية الله، وقد جاء المال بوفرة نسبية على أيام عمر رضى الله عنه ولكنه تصرف بشأنه بمنع الفساد، فمنع الصحابة - رضوان الله عليهم - من الخروج من المدينة للضياع والتجارة حتى لا تتكون منهم طبقة تملك المال فى أيديها وتملك السلطان (الأدبى) على الناس، فيحدث التميز وتفسد الأحوال، فضلاً عن احتمال إصابتهم هم أنفسهم بالترف وهم هيئة المشورة إلى جانب الخليفة، فتفسد مشورتهم حين تترهل نفوسهم، وإلى جانب ذلك - وقبل ذلك - أخذ عمر رضى الله عنه نفسه وأهل بيته بالشدة الحازمة، حتى لا يكونوا قدوة سيئة أمام الناس، فيفسد الناس، أما حين يترك المال بدون تصرف معين من ولى الأمر، يسمح بالنفع ويمنع الضرر، فإنه لا بد أن يؤدى إلى نتائجه المحتومة حسب السنة الإلهية، لا لأن المال فى ذاته هكذا يفعل، ولكن لأن الجهد البشرى المطلوب لإصلاح الآفة لم يبذل، فتنفرد الآفة وحدها بالسلطان، وآفة المال الترف، وعلاجها فى يد ولى الأمر. . . بنشر روح الجد فى المجتمع وبإعطاء القدوة من نفسه لبقية الناس. أما حين يترك فى أيدى الناس - بلا ضابط - مع وجود فئة تعمل جاهدة فى إفساد أخلاق المجتمع وروحه كما فعل الفرس، فالنتيجة هى ما قررته السنة الربانية التى جاء بيانها فى كتاب الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. والترف مُعْدٍ ككل آفة. . فحين لا يعالج، ولا يوقف فإنه ينتشر ولا بد. . وحين يكون مبتدؤه فى قصور الخلافة فأمره أسوأ، لأن الحكام دائمًا قدوة، وقد كان الأمويون - برغم وجود الترف بينهم - أقل فساداً بالمال من العباسيين، لأنهم كانوا أكثر انشغالاً بتثبيت دولتهم من ناحية، وبالجهاد فى سبيل الله من ناحية أخرى، فأما العباسيون فبعد أن استتب لهم الملك أخذ الترف يسرى بينهم سريعًا، خاصة بفعل الحاشية الفارسية المفسدة المتعمدة للفساد. ومن قصور الخلافة انتقل الترف بالعدوى إلى قصور الأمراء والوزراء، ثم قصور التجار الذين وصل دخلهم فى التجارة العالمية إلى ملايين الدنانير، وشيئًا فشيئًا غلب الفساد على عاصمة الخلافة بغداد ثم العواصم الإسلامية الأخرى[(١)].

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟ محمد قطب، ص (١٢٦، ١٢٧).

المبحث السادس

القضاء فى عهد معاوية رضى الله عنه والدولة الأموية

يعتبر القضاء فى العهد الأموى من الدرجة الثالثة بعد القضاء فى العهد النبوى والقضاء فى العهد الراشدى، لأن العصر الأموى كان زاهيًا وفيه كثير من آثار العهد الراشدى، وكانت كثير من الأعمال امتدادًا للعهد الراشدى، وخاصة فى جانب الفتوحات الإسلامية، وانتشار الدعوة فى المشارق والمغارب، ودخول الناس فى دين الله أفواجًا، وازدهار الحضارة الإسلامية[(١)].

أولاً: صلة العهد الأموى بالعهد الراشدى :

كان العهد الأموى وخصوصًا عهد معاوية امتدادًا للعهد الراشدى فى عدة جوانب، فبقى كثير من الصحابة إلى العهد الأموى، وشاركهم فى العلم والفقه والقضاء وغيرها كبار التابعين، ثم صغار التابعين، كما بقى بعض قضاة العهد الراشدى يمارسون القضاء فى العهد الأموى، وبعضهم طال قضاؤهم كشريح بن الحارث رحمه الله، وبقيت فى العهد الأموى آثار التربية الدينية وسمو العقيدة، وآثار الإيمان، والالتزام بأهداب الدين، والتقيد بالأحكام الشرعية، وظهر فى العهد الأموى عدد كبير من المجتهدين الذين كانوا همزة الوصل بين الصحابة والمذاهب الفقهية، وكان العلماء والمجتهدون فى العهد الأموى أساتذة لأئمة المذاهب التى ظهرت فى العهد العباسى، وكان لهذه الصورة الفقهية الزاهية أثرها الكبير والمحمود على حسن سير القضاء والعدالة فى العهد الأموى، وظهر التوسع بالاجتهاد، كما بدأت حركة تدوين العلوم الإسلامية، والانفتاح على الحضارات الأخرى، وترجمة الثقافات والعلوم من الأمم المجاورة[(٢)].

ثانيًا : تخلى الخلفاء عن ممارسة القضاء، وفصل السلطات:

كان الخلفاء الراشدون يتولون القضاء بأنفسهم، ويفصلون فى القضايا والدعاوى والمنازعات، وصدرت عنهم أقضية كثيرة، وكان الولاة فى الأمصار يتمتعون بنفس

---

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٦٥).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٥).

السلطات والصلاحيـات الممنوحة للخليفة لأنهم نواب عنه، إلا إذا قـيدت سلطتهم ومنعوا من الـقضاء، وعـين معهم الـقضاة للفـصل بين الناس، ومن هؤلاء الولاة معاوية بن أبى سفيان الذى بقى واليًا على الشـام عشرين سنة، وكان يتولى القضاء والحكم بنفسه(١)، ولما تولى معاوية الخلافة تخلى عن ممارسة القضاء، وعين القضاة فى حاضـرة الدولة الإسلامـية بدمشق وفـوَّض إليهم السلطة القـضائيـة، وخولهم الصلاحيات الكاملة فى الدعاوى، وسار ولاته فى الأمصار على هذا النهج، وابتعد الولاة عن أعـمال القـضاء، وسـار خلفاء بنـى أميـة على هذه الخطة طوال العهـد الأموى، سواء فى عـاصمة الدولة الأموية، وفى سـائر الأمصار والمدن والولايات، وانقطعت صلة خلفاء بنى أمية عن القضاء الإسلامى إلا فى ثلاثة أمور:

١ـ تعيين القضاة مباشرة بالعاصمة دمشق.

٢ ـ الإشراف على أعمال القضاة وأحكامهم، ومتابعة شئونهم الخاصة فى التعيين والعزل، والرزق، وحسن السـيرة، ومراقبة الأحكام القضـائية التى تصدر عنهم، للتأكد من مطابقـتها للحق والعدل، والشرع والدين، والالتـزام بالسلوك القضائى القويم.

٣ ـ ممارسة قضاء المظالم، وقضاء الحسبة، وقد أولى خلفاء بنى أمية أهمية خاصة ورعاية كـاملة لقـضاء المظالم حـتى وقف على قدمـيه، وأصـبح له جهـاز كامل مستـقل. ومن ذلك نرى أن القضاء فى العهـد الأموى كان مستـقلاً عن أى سلطة أخرى حتى سلطة الخليفة، أو الوالى الذى كـانت سلطته تنتهى عند تولية القاضى أو عزله، دون أن يكون لهم تدخل فى أعمال القاضى واجتهاده وحكمه، وما على الخلفاء والولاة إلا تنفيذ الأحكام التى يصدرها القضاة(٢). قال النُباهى: ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدّمه من ملاحظة القضاة، وبقى الرسم على حذو ترتُّبه زمانًا(٣). فقد كان مـعاوية رضى الله عنه أول خليفة امتنع من القضـاء تمامًا، ودفعه إلى غيـره، فكان له قضاة فى قاعـدة ملكه، فضلاً عن قضاته فى الأمصار(٤).

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٦٦).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٧).
(٣) تاريخ قضاة الأندلس، ص (٢٤).
(٤) عبقرية الإسلام فى أصول الحكم، ص (٣٤٢).

ثالثًا: رزق القضاة :

من المعلوم أن عمـر بن الخطاب هو الذى فصل القـضاء عن الولاية، وهو أول من رتب أرزاق القضاة، وأمَّا أمير المـؤمنين على وهو المعروف بالزهد والقناعة فقد قال لعـامله على مصر فى شأن القـضاة: . . . وافسح له فى البذل مـا يزيل علته، وتقل معـه حاجـته إلى الناس[1]، واستـمر الحـال على ذلك فى العهـد الأموى، فكانت تجرى على القضاة أرزاقهم من بيت المال[2]، مع التوسيع عليهم، واختلاف المقدار بحسب البلدان والظروف[3]، وروى الشعبى عن شـريح أنه كان يأخذ على القضاء خمـسمائة درهم كل شهر ويقول: أستوفى لهم، وأوفـيهم، ويقول أيضًا: أجلس لهم على القضـاء وأحبس نفسى ولا أرزق. ولما قدم عـبد الملك بن مروان النخيلة سنة ٧٢هـ، وسأل عن شريح، فعلم أنه امتنع عن القضاء -فى عهده ـ ابن الزبير، فاسـتدعاه وقال له: وفقك الله، عُـدْ إلى قضائك، فقد أمـرنا لك بعشرة آلاف درهم، وثلاثمائة جريب، فأخذهما وقضى إلى سنة ثمان وسبعين[4]، وكان بعض القضاة لا يأخذون عـلى القضاء أجراً ويحتسبـون أجرهم عند الله تعالى فى إقامـة شرعه، منـهم مسروق بن الأجـدع القاضى والمفتـى ت ٦٣هـ، وكان أعلم بالفتـيا من شـريح، وشريح أبصر منه فى القـضاء، وقـالت امرأة مسـروق: كان مسروق لا يأخذ على القضاء رزقًا، وقـال القاسم: كان مسروق يقول: لأن أقضى يومًا فأقول فيه الحق أحب إلى من أن أرابط سنة فى سبيل الله[5].

رابعًا : تسجيل الأحكام والإشهاد عليها :

ظهـر فى العهـد الأموى لأول مـرة تسجـيل الأحكام القضـائية التى يصـدرها القاضى فى سـجله، وديوان المحكمة ليـرجع إليه القاضى عند الحـاجة، وأول من سجل الأحكام سُلَيم بن عنز التجيبى قاضى مصر فى عهد معاوية، لما تخاصم إليه أشـخاص فى توزيع مـيراث، فـحكم بينهم، فـغابـوا مدة، واخـتلفوا وتناكـروا

(١) القضاء ونظامه فى الكتاب والسنة، ص (٢٦٧).

(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٦٧).

(٣) المصدر نفسه (١٧٦، ١٧٧).

(٤) أخبار القضاة (٢/ ٢٢٧، ٣٩٧).

(٥) طبقات ابن سعد (٦/ ٨٢)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٧٨).

وتجاحدوا الحكم، وعادوا يطلبون فصل الخلاف ثانية، فتذكر القاضى قصتهم، وكاشفهم بها، فاعترفوا، فأعادوا الحكم بينهم، وطلب من كاتبه أن يُسجل الأحكام القضائية وكتب لهم كتابًا بقضائه، وأشهد عليه[١]. وقال الكندى: فكان سليم أول القضاة بمصر سجّل سجلاً بقضائه[٢]، وكان سُليم ـ فيما وصل إلينا ـ أول من أشهد على الأحكام القضائية لتوثيقها، ومنع جحودها أو إنكارها، ثم توسع الأمر فى العهد العباسى[٣].

خامسًا : أعوان القضاة :

يحتاج القضاة عادة إلى أعوان يساعدونهم فى حسن التقاضى وسير القضاء، منهم كاتب القاضى أو كاتب المحكمة، أو كاتب الضبط، وأول ما ظهر فى العهد الراشدى[٤]، ثم شاع استعماله فيما بعد، وظهر أعوان جدد فى العهد الأموى بحسب الحاجة، وتطور الحياة، واتساع أعمال القاضى، وكثرة الدعاوى، ونذكر أهمهم:

١ ـ المنادى: وهو الذى يجلس عند القاضى، لبيان مكانة القاضى، ومعرفته، والمناداة على الخصوم، وكان يطلق عليه (الذى على رأس القاضى) أو (صاحب المجلس) وأول ما ظهر ذلك فى عهد شريح، قال وكيع: عن عمرو بن قيس الماضى، قال: رأيت رجلاً كان يقوم على رأس شريح، وكان إذا تقدم إليه خصمان، فيقول: أيكما المدعى فليتكلم، وروى وكيع أيضًا: كان شريح إذا جلس للقضاء لم يقم حتى يُنادى: هل من خصم أو مستثبت؟ أو مستفتٍ؟[٥]

٢ ـ الحاجب: وهو الذى يقف على باب القاضى، ليحجب عنه الناس أثناء النظر فى الدعاوى، ويرتب دخول المتداعين عليه عند تزاحمهم وتعددهم، وقد يكون الحاجب هو المنادى الذى يقف على رأس القاضى، ويقوم بالعملين معًا، وقد يكون هو نفسه الجلواز (التابع للشرطى، أو أحد الشرطة القضائية)، وقد يكلفه القاضى القيام ببعض الأعمال فى المحكمة، أو أداء بعض المهمات

---

(١)،(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٨٠). (٣) المصدر نفسه، ص (١٨٠).

(٤) نظام الحكم فى الشريعة، ص (٢٥٩)، تاريخ القضاء، ص (١٨٠).

(٥) تاريخ القضاء، عرنوس، ص (١٢٨)، تاريخ القضاء، ص (١٨١).

خارجها[1]، وذكر وكيع أن إبراهيم النخعى كان جلوازاً للقاضى شريح[2]، وكان على رأس شريح شرطى بيده سوط[3].

٣ - الترجمان أو المترجم: اتخذ القضاة الترجمان لكثرة الشعوب غير العربية التى دخلت فى الإسلام، وتعارفت هذه الشعوب واختلطت مع بعضها، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣] فإذا حصل نزاع أو اختلاف، أو دعوى، استعان القاضى بالترجمان الثقة المقبول لينقل أقوال الخصوم له[4].

سادسًا: المراقبة والمتابعة:

إن تخلى الخلفاء والولاة عن ممارسة القضاء، والاقتصار على التعيين والعزل لم يمنع الخلفاء من مراقبة أعمال القضاة ومراجعة أحكامهم، ومتابعة الدعاوى والأقضية التى تصدر عنهم، لأن الخليفة هو المسئول عن القضاء، وجميع ما يخص الأمة والأفراد فى سياسة الدين والدنيا، وتفويض القضاء للقضاة لا ينجى الخليفة من المسئولية فى الدنيا والآخرة، لذلك كان الخلفاء يراقبون أعمال القضاة، ويتابعون ما يصدر عنهم، فإن وجدوا فيه خللاً، أو انحرافًا، أو تقصيراً، تصدوا للتقويم والتصحيح[5]، وهذا ما نقلناه سابقًا عن النباهى قال: (ولما أفضى الأمر إلى معاوية بن صخر جرى بجهده على سنن من تقدَّمه من ملاحظة القضاة، وبقى الرسم حذو ترتبه زمانًا)[6].

سابعًا: مصادر الأحكام القضائية فى العهد الأموى:

اعتمد القضاة على المصادر نفسها التى جرى عليها القضاة فى العهد الراشدى، وذلك بالالتزام بالكتاب والسنة، والإجماع، والسوابق القضائية والاجتهاد مع الاستشارة، وكان الالتزام بالقرآن والسنة هو الأساس، وهو ما تلتزم به الخلافة، وتتم عليه البيعة، وتطور الأمر فى السوابق القضائية على الإشادة بقول الصحابة رضوان الله عليهم والتقيد غالبًا بما صدر عنهم، لأنهم أقرب عهداً وصلة بمدرسة

---

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٨١).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٨١)، أخبار القضاة (٢/ ٢١٥).
(٣) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٨١).
(٤) المصدر نفسه، ص (٤٢٣).
(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٨٦).

النبوة، ونزول الوحى، وخصوصًا أقضيــة الخلفاء الراشدين، كما بدأ يظهر فى هذا العهد أثر العرف والعادة على أقضية الحكام، نظرًا لاختلاف الأعراف والعادات فى أصــقاع الخـلافة الأمـوية المتـراميـة الأطراف، فكان القـضاة ينظرون فى الأقـوال والدعاوى والأيمـان والتهم بحسب الأعراف التى تظلهم وتحـدد المراد من الألفاظ والمصطلحات[1]، وكان الفقـهاء والقضاة والخلفاء يحرصـون على التثبت من نقل النصوص، وصحــة الأحاديث للاعتمـاد عليها، وحذر مـعاوية رضى الله عنه من الاعتمـاد على الأحاديث المكذوبة، فخطب فى وفد من قريش، فـحمد الله وأثنى عليـه بما هو أهله ثم قـال: أما بعـد، فإنـه قد بلغنى أن رجـالاً فـيكم يتحـدثون بأحـاديث لـيـست فى كـتـاب الـله، ولا تُؤْثر عن رسـول الله ﷺ، فــأولئكم جهالكم[2]، وكان القضاة يعينون من الخلفاء والولاة، وتطلق يد القضاة لا يتقيدون برأى اجتهادى معين من أحكامهم، إلا ما ورد فى النصوص والإجماع، وإلى حد ما إلى السوابق القـضائية وقول الصحـابة، ولم تكن المذاهب الفقهيـة قد ظهرت، ولم تدون الأحكام، فكان الأمر راجـعًا إلى القضاة أنفسـهم، وبما يصلون إليه مع استشارة الفقهاء والعلماء والمجتهدين فى كل مصر على حدة[3].

ثامنًا: اختصاص القضاة، وتخصيص القضاء:

كان لاتساع الدولة الإسلامية فى العهد الأموى، وكثرة الناس، وانشغال الخلفاء بالفـتوحـات، وإدارة الدولة، وإخمـاد الفتن الداخليـة أن انصرفـوا عن القضــاء، وفوضوا جميع اختصـاصاته إلى القضاة، وتنازلوا عن النظر فى الجنايات والحدود، وكلفوا القضاة النظر فيها، وكان معاوية بن أبى سفيان أول من تنازل عن النظر فى الجراح والقتل والقصـاص إلى القضاة، فكتب إلى القاضى سُلَيم بن عِتـر (قاضيه على مصــر) يأمره بالنظر فى الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صـاحب الديوان، وكان سُليم أول قاض نظر فى الجـراح، وحكم بها، فكان الرجل إذا أصيب فـجرح أتى إلى القاضى، وأحضر بينته على الذى جرحه، فيكتب القاضى بذلك الجُرح قضاءه على عاقلة الجـارح ويرفعـها إلى صاحب الديوان، فـإذا حضر الـعطاء اقتص من

(١) المدخل الفقهى (١/ ١٥٠).

(٢) أعلام الموقعين(١/ ٦٣).

(٣) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (١٩٠).

أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح، وينجّم (يقسّط) ذلك في ثلاث سنين، فكان الأمر على ذلك[1]، وكان القاضي في العهد الأموي عام النظر في الحقوق والأموال، وأحكام الأسرة، والمواريث والقصاص والحدود، ويظهر ذلك جليًا في من سيرة القضاة وأقضيتهم التي ذكرها وكيع في كتابه (أخبار القضاة) والكندي في كتابه (الولاة والقضاة)[2] . وفي العهد الأموي ضُم إلى القاضي أعمال أخرى بعضها شبه قضائية، وبعضها إدارية، فمن أهم هذه الأعمال في ذلك العصر، النظر في أموال الأيتام، الإشراف على الأوقاف، الإفتاء[3].

تاسعًا: القضاة والأعمال المختلفة:

نظرًا لما يتمتع به القضاة من الثقة، وما يتصفون به من العدل والنزاهة، والورع والتقوى، فقد أسند لهم الخلفاء في العهد الأموي عدة أعمال هي:

١ـ الشرطة: تولى القضاة رئاسة الشرطة بالإضافة إلى أعمالهم القضائية، فجمعوا بين ولاية القضاء وولاية الشرطة، وذلك في عدة مدن إسلامية، فقد روى وكيع أن معاوية عزل سعيد بن العاص عن المدينة سنة ثلاث وخمسين، ويقال سنة أربع وخمسين في شهر ربيع، وأعاده مروان بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشُرَط مع القضاء وأخذ الناس بالشدة[4]، وقال الكندي عن مسلمة بن الحكم، فعزل مروان أبا سلمة، واستقضى أخاه مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، وضم إليه الشُرَط مع القضاء، وكان شديدًا صلبًا في ولايته، ولما ولي الشُرَط أخذ الناس بالشدة[5]، قال الكندي عن مسلمة بن مخلَّدَ أنه: قدم مسلمة الفُسطاط، فعزل السائب بن هشام ابن كنانة العامري عن شُرَطه، وولّى عليها عابس بن سعيد، وعزل سُليمان بن عنز عن القضاء وجعله إلى عابس، فجمع له القضاء والشّرط، وهو أول من جمع له سنة ستين[6]، ولما تولى مسلمة سنة ٦٢هـ، بعد أن مكث واليًا على مصر أكثر من

(١) نظام الحكم في الشريعة، ص (٢٥٦)، تاريخ القضاء في الإسلام، ص (١٩٢).
(٢) تاريخ القضاء في الإسلام، ص (١٩٣). (٣) المصدر نفسه، ص (١٩٣، ١٩٤، ١٩٥).
(٤)، (٥) أخبار القضاة (١/ ١١٨).
(٦) تاريخ القضاء، عرنوس، ص (٢٦)، الولاء والقضاء، ص (٣١١ـ ٣١٣).

١٥ سنة وليها سعيد بن يزيد الأزدى فى رمضان سنة ٦٢هـ، فأقر عابس بن سعيد على القضاء والشُرط جميعًا، ولما جاء عبد الرحمن بن عتبة بن جَحْدم الفهرى أميرًا على مصر أقر عابسًا على الشُرط والقضاء، وذكر الكندى أن مسلمة بن مخلد والى مصر عين عابس بن سعيد على شُرطته، ثم جمع له الشُرط والقضاء(١)، وذلك فى أول سنة إحدى وستين(٢).

٢ ـ الإمارة: استعمل بعض القضاة ولاة فى بعض الأحيان، كما كان الخليفة أحيانًا ينيب القاضى مكانه فى الإمارة إذا خرج عن دمشق، وكان كثير من الولاة يستخلفون القاضى على إدارة الأمور، وتصريف شئون المصر أثناء غيابهم، أو خروجهم لمهمة، قال أبو زرعة: لما خرج معاوية إلى صفين استخلف القاضى فضالة بن عُبيد على دمشق(٣).

عاشرًا : أسماء القضاة فى عهد معاوية :

١ ـ أشهر قضاة دمشق:

أ ـ فضالة بن عُبيد: الذى ولاه معاوية القضاء فى الشام بترشيح أبى الدرداء رضى الله عنه، وبقى فضالة على القضاء حتى مات فى خلافة معاوية سنة ٥٣هـ، وحضر معاوية جنازته وحمل بجانب السرير، وكان معاوية يستخلفه على دمشق عندما يخرج منها(٤)، وقضى فضالة بدرء الحد عندما أتاه رجل بسارق يحمل سرقته، فقال له فضالة: لعلك وجدتها، لعلك التقطتها، فقال له الرجل: إنّا لله وإنا إليه راجعون، إنه ليلقنه، قال: إى والله، أصلحك الله، وجدتها، فخلا سبيله، وأجاز الفقهاء تلقين المتهم فى الحدود، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ماعز(٥).

ب ـ النعمان بن بشير بن سعد، أبو إدريس الأنصارى الخزرجى: الصحابى الذى ولى القضاء بالشام بعد فضالة، وتوفى سنة ٦٤هـ قتلاً بقرب حمص(٦).

---

(١) ، (٢) تاريخ القضاء فى الإسلام ، ص (١٩٦) . (٣) قضاة دمشق لابن طولون ، ص (٤١٣) .
(٤) أخبار القضاة (٣/١٩٩ ـ ٢٠١) ، تاريخ القضاء فى الإسلام ، ص (١٩٨) .
(٥) تاريخ القضاء فى الإسلام ، ص (١٩٩) . (٦) المصدر نفسه ، ص (١٩٩) .

٢ ـ قضاة المدينة :

أ ـ أبو هريرة الصحابى المشهور رضى الله عنه: قضى بالمدينة، لما رواه وكيع عن نعيم قال: شهدت أبا هريرة يقضى وأمر بالتسوية بين الخصوم، ورفض حبس مدين معسر، وحكم على قاذف بثمانين جلدة، وكان أبو هريرة يسكن المدينة حتى توفى فيها سنة ٥٩هـ[(١)]، ولعله استقضى قبل عبد الله بن الحارث.

ب ـ عبد الله بن الحارث بن نوفل ، أبو عبد الله بن نوفل بن الحارث: وهو أول قاض فى المدينة لواليها مروان بن الحكم فى خلافة معاوية، وكان أول ما قضى حقًا على آل مروان، فزاده ذلك عند مروان بن الحكم خيرًا، وكان يقضى باليمين مع الشاهد، وتوفى سنة ٨٤هـ، وكان من صلحاء المسلمين وفقهائهم[(٢)].

جـ ـ أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (ت: ٩٤هـ): وهو من كبار التابعين، وكان يزعم عن نفسه أنه أفقه الناس، واستعمله سعيد بن العاص والى معاوية على قضاء المدينة، وكان يستحلف صاحب الحق مع الشاهد الواحد[(٣)].

د ـ مصعب بن عبد الرحمن بن عوف (ت: ٦٤هـ): استقضاه مروان بن الحكم سنة ٥٣هـ أو ٥٤هـ وضمَّ إليه الشُرط مع القضاء، وكان شديدًا صلبًا فى ولايته، ولما ولى الشُرط أخذ الناس بالشدة فى جرائم القتل التى انتشرت فى المدينة[(٤)]، ولما مات معاوية واستخلف يزيد استعمل على المدينة عثمان بن محمد بن أبى سفيان، فاستقضى طلحة بن عبد الله بن عوف، وهو أحد الأجواد، ويقال له طلحة الجواد[(٥)].

٣ ـ قضاة البصرة: تولى القضاة فى البصرة كثيرون، نذكر منهم: عُميرة بن يثربى الضِّبى الذى استقضاه عبد الله بن عامر بن كُريز عامل معاوية على البصرة، وكان عميرة يحكم بضمان العارية، وبقى فى القضاء حتى سنة ٤٥هـ، فعزله زياد

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٠)، أخبار القضاة (١/ ١١٠- ١١٤).
(٢) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).
(٣) أخبار القضاء (١١٦/١)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).
(٤) أخبار القضاء (١١٨/١)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).
(٥) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠١).

الذى ولى إمارة البصرة، وولى القـضاء عمران بن حصين فاستـعفاه بطلبه، وولى عبد الله بن فضالة ثم أخاه عاصم بن فضالة، ثم زرارة بن أوفى(١).

٤ ـ قضاة الكوفة: كانت الكوفة مـن أنشط المدن العلمية وكانت مـركز النشاط والحركة والعلم منذ أسست فى عهـد عمر رضى الله عنه واتخذها على رضى الله عنه عاصمة، وكان من أشهر قضاة الكوفة شريح القاضى، فقد كان من عهد عمر واستمر فى القضاء طوال العهد الراشدى، ومدة طويلة فى العهد الأموى تزيد على خمس وثلاثين سنة، وتوقف (فى عهد بن الزبير) ثم عاد إلى القضاء حتى استعفى من الحجاج فـأعفاه سنة ٧٨هـ(٢). ومن قضاة الكوفة فى عـهد معاوية رضى الله عنه، مسروق بن الأجـدع الهمدانى، ولى لمعاوية فى إمرة زياد القـضاء، وكان من الفضلاء(٣).

٥ ـ قضاة مصر: ومن أشهر قضاة مصر فى عهد معاوية سُلَيْم بن عتر التجيبى وهو أول من ولى القضاء بمصر فى أيام معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه سنة أربعين هجرية(٤)، وعابس بن سعـيد المرادى الذى عينه مسلمـة بن مخلد على الشرطة، ثم عزل سُليم بن عتر عن القضاء، وجعله إلى عابس فجمع له القضاء والشُّرط(٥). هؤلاء هم أشهر القضاة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

الحادى عشر: ميزات القضاء فى عهد معاوية والأموى عمومًا:

من أهم ميزات وخصائص القضاء فى العهد الأموى الآتى:

١ ـ بقى القـضاء فى العـهـد الأموى، كـما كـان فى العـهد النبـوى والعهـد الراشدى، فى مـعالمه الأسـاسية، وتنظـيمه الجـوهرى، ووسائله وأهدافـه، وكان استمرارًا لما سبق فى إقامة الحق والعـدل، والنزاهة والموضوعية، مع مراعاة التطور والتوسع فى الخلافة الأموية.

---

(١) أخبار القضاة (٢/٣)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٤).
(٢) أخبار القضاة (٢/١٨٤)، تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٧).
(٣) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢٠٧).
(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٢٠٩).

٢ ـ استعمل القضاة في العهد الأموى وسائل الإثبات الشرعية نفسها المعمول بها في العهد الراشدى، مع التوسع في الفراسة، واستعمال الحيل على المتهم، لكشف الحق، والوصول إلى الصواب والعدل(١).

٣ ـ ظهرت في العهد الأموى مصادر جديدة للأحكام القضائية وهى العرف، وقول الصحابى، وإجماع أهل المدينة إحيانًا، بالإضافة إلى المصادر الأصلية في العهد النبوى وهى القرآن الكريم والسنة الشريفة، والمصادر الاجتهادية في العهد الراشدى وهى: الإجماع، والقياس، والسوابق القضائية، والرأى(٢).

٤ ـ كان الخلفاء يعينون القضاة في الشام، وقد يرشحون بعض القضاة للأقاليم، وكان الولاة في الأمصار يعينون القضاة، ويعزلونهم.

٥ ـ حرص الخلفاء والولاة على اختيار أحسن الناس لولاية القضاء، من العلماء والفقهاء والشرفاء وخيرة القوم، الذين تتوافر فيهم صفات القاضى الشرعية، ويخشون الله تعالى، ويلتزمون بالحق والشرع، ويقيمون العدل بين الناس.

٦ ـ طرأت تغييرات بارزة على القضاء في العهد الأموى، وأضيفت لأول مرة، وهى:

أ ـ تسجيل الأحكام خوفًا من النسيان، ومنعًا للتجاحد، ووضعها في ديوان خاص.

ب ـ الإشراف على الأوقاف من أجل حسن تطبيقها .

جـ ـ النظر في أموال اليتامى ومراقبة الأوصياء .

د ـ ترتيب الدعاوى، واستعمال الرقعة لإدخال الخصوم والمناداة على الناس بالترتيب.

هـ ـ وجود المساعدين للقضاة، وهم الأعوان، والحاجب والشرطى في مجلس القضاة.

و ـ الاستعانة بالشرطة لتنفيذ الأحكام القضائية، وإجراءات الخصومة.

٧ ـ كان القضاة مجتهدين في إصدار الأحكام القضائية، ولهم الحرية المطلقة في استنباط الأحكام من القرآن والسنة ومقاصد الشريعة، وبقية المصادر، ولم يتقيدوا

(١) تاريخ القضاء في الإسلام، ص (٢١٣).
(٢) المصدر نفسه، ص (٢١٤).

برأى الخلفاء، ولم يلتزموا بمذهب فقهى، ولكن هذا لم يمنعهم من مشاورة العلماء والفقهاء، ومشاركتهم فى المجالس القضائية[1].

٨ - لم يتأثر القضاة بسياسة الحكام والخلفاء، وكان القضاة مستقلين فى عملهم، ولم تؤثر عليهم الميول السياسية، والحركات الثورية، والخلافات الفكرية، والفتن الداخلية[2]. هذا هى أهم ميزات القضاء فى العهد الأموى.

الثانى عشر: خطاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى معاوية فى القضاء:

كتب عمر إلى معاوية رضى الله عنهما: أما بعد، فإننى كتبت فى القضاء كتابًا لم آلك ونفسى فيه خيراً، .. ثم إن عمر قال:

١ - الزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك، إذا تقدم إليك الخصمان، فعليك بالبينة العادلة، واليمين القاطعة فهو الطريق للقاضى الذى لا يعلم الغيب. فمن تمسك به سلم له دينه، ونال أفضل الحظ والثواب فى الآخرة[3]. فمعنى اليمين القاطعة: القاطعة للخصومة والمنازعة[4].

٢ - وأدنِ الضعيف حتى يشتد قلبه، وينبسط لسانه[5]، ولم يرد بهذا الأمر تقديم الضعيف على القوى، وإنما أراد الأمر بالمساواة، لأن القوى يدنو بنفسه لقوته، والضعيف لا يتجاسر على ذلك، والقوى يتكلم بحجته، وربما يعجز الضعيف عن ذلك. فعلى القاضى أن يدنى الضعيف ليساويه بخصمه حتى يقوى قلبه، وينبسط لسانه، فيتكلم بحجته[6].

٣ - وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تعاهده ترك حقه، ورجع إلى أهله، فربما ضيع حقه من لم يرفع به رأسه[7]. قيل: هذا أمر بتقديم الغرباء عند الازدحام فى

(١) تاريخ القضاء فى الإسلام، ص (٢١٣ - ٢١٥).	(٢) المصدر نفسه، ص (٢١٥).

(٣) المبسوط للسرخسى (١٦/٦٦)، تهذيب ابن عساكر (٦/٣٠٦).

(٤) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/ ٤٦٥).

(٥) المبسوط للسرخسى (١٦/٦٦).

(٦) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/ ٤٦٥).

(٧) المصدر نفسه (٢/ ٤٦٥).

مجلس القضاء، فـإن الغريب قلبه مع أهله، فينبغى للقاضى أن يقـدمه فى سماع الخصومة، ليرجع إلى أهله، وكان رسول الله ﷺ يتعاهد الغرباء. وقيل مراده: إن الغريب منكسر القلب، فإذا لم يـخصه القاضى بالتعاهد عجز عن إظهـار حجته، فيترك حقه، ويرجع إلى أهله، والقاضى هو السـبب، لتضييع حقه، حين لم يرفع به رأسه.

٤ ـ وعليك بالصلح بين الناس، ما لم يستـبن لك فصل القضاء(١). وفيه دليل أن القاضى مندوب إليه أن يدعـو الخصم إلى الصلح، خصوصًا فى موضـع اشتباه الأمر(٢).

---

(١)، (٢) نظام الحكم فى الشريعة (٢/ ٤٦٥).

المبحث السابع

الشرطة فى عهد معاوية

شهد عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه تطوراً كبيراً فى نظام الشرطة من جهة نموها وترسخها كمؤسسة رسمية على مستوى الدولة، وبصورة لم تُعرف من قبل، لقد أصبحت مؤسسة الشرطة مسئولة مسئولية كاملة ومباشرة عن توفير الأمن وإقرار النظام فى جميع الأمصار الإسلامية، لقد أصبحت أهم قوة أمن يعتمد عليها معاوية وولاته لتحقيق الأمن الشخصى من جهة، وحفظ الأمن والنظام فى الداخل من جهة أخرى، يضاف إلى هذا كله، أن أصبحت الشرطة المدافع الأول عن نظام الأمن الأموى، وحمايته من اعتداءات الفرق الأخرى المعارضة له كالخوارج والشيعة وغيرهما، التى كانت تعمل على إسقاطه بشتى السبل، وقد استعمل معاوية رضى الله عنه الشرطة كحرس خاص لحمايته شخصيًا، ودونما شك أن المحاولة الفاشلة التى قام بها الخوارج لاغتيال معاوية، كان لها دور كبير فى دفع معاوية لاتخاذ قراره بالاعتماد على الشرطة كحرس خاص لضمان عدم تكرار المحاولة، وخصوصًا أن عليًا وعمرو بن العاص قد تعرضا للمحاولة نفسها، قُتل على أثرها أمير المؤمنين علىّ، وكان ذلك عام ٤٠هـ، ومنذ ذلك ومعاوية لا يخرج بدون حماية خاصة، وحتى أوقات الصلوات، كان يأمر حراسه بالوقوف عند رأسه حماية له من الاعتداءات المحتملة من مناوئيه(١).

أولاً: الشرطة فى العراق:

يعتبر المغيرة أول والٍ يعينه معاوية فى الكوفة، وقد استعان برجال الشرطة لغرض بسط الأمن، وعين صاحب شرطة عُرف بشراسته وقسوته، وكان يُدعى قبيصة بن دمّون(٢)، ومن الحوادث التى تبين مدى فعالية الشرطة فى حفظ الأمن والنظام ما أورده الطبرى حول صراع المغيرة مع الخوارج، وذلك حين أخبره

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٦٥)، الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٦).

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٧).

صاحب الشرطة باجتماعهم فى الكوفة لإثارة القلاقل والاضطرابات، فأصدر المغيرة أوامره إلى صاحب الشرطة بمحاصرة مكان الاجتماع، وبعد أن ألقى القبض عليهم أودعهم السجن. وفى البصرة، عين معاوية عبد الله بن عامر واليًا عليها ثم عزله فى عام ٤٥هـ، وعين زياد بن أبيه واليًا على البصرة. وقد تبين لزياد عند وصوله البصرة مدى التدهور الحاصل فى الأمن، فذكره وشدّد عليه فى خطبه التى افتتح بها ولايته، جريًا على العادة فى ذلك الوقت فألقى خطبة طويلة سيأتى الحديث عنها بإذن الله، بيَّن فيها أسلوبه الذى سوف يتبعه فى معالجة التدهور الأمنى.

ومن قراءة تلك الخطبة تبين أن زياد كان مصممًا على إقامة الأمن والنظام بغض النظر عن الوسيلة التى تحقق ذلك الهدف[1]، ولو كانت بالعسف وخصوصًا حين يقول: وإنى أقسم بالله لأخذنّ الولى بالولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد، أو تستقيم لى قناتكم[2]، ويروى البلاذرى كيف استتب الأمن فى البصرة فى عهد زياد، وذلك فى حادثة مفادها أن زيادًا سمع جلبة وأصواتًا بين العامة، فسأل عن السبب فقيل له: إنّ بعض الناس قد استأجر من يحمى له بيته، وذلك نظرًا لعدم وجود الشرطة، وانتشار السَّراق[3]، وفى اليوم التالى أمر زياد صاحب الشرطة بأن يقوم الشرطة بحراسة الطرقات بعد صلاة العشاء[4]، ويضيف البلاذرى أنّ الشرطة قد قتلت ما يقارب الخمسمائة نفر من لص ومنتهب للبيوت[5].

ويعتبر زياد أول من منع التجول وذلك بمنع العامة من الخروج من منزلهم ليلاً[6]، وكان يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ولا يرى إنسانًا إلا قتله. فأخذ ليلة أعرابيًا، فأتى به زيادًا فقال: هل سمعت النداء؟ ـ يقصد نداء منع التجول ليلاً ـ قال: لا والله، قدمت بحلوبة[7] لى وغشينى الليل فاضطررتها إلى موضع، فأقمت لأصبح، ولا علم لى بما كان من الأمير، قال: أظنك والله صادقًا، ولكن فى قتلك صلاح هذه الأمة، ثم أمر به فضربت عنقه[8]. ومثل هذا الفعل الظالم

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٨).
(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٥).
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ١٧١).
(٤) المصدر نفسه (٤/ ١٧١).
(٥) المصدر نفسه (٤/ ١٧١).
(٦) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٣٩).
(٧) الحلوب: ذات الحليب.
(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٨).

لا تقرّه الشريعة مهما كانت التبريرات[1]. وعلى ما يبدو أن قتل البدو لم يكن لمجرد الرغبة فى القتل ذاته، بل تمّ لإقناع أهل البصرة بجدية الوالى فى تنفيذ أوامره، وأن لا أحد منجى من العقوبة إذا خرق القانون، حتى لو كان بريئًا لا ذنب له، كما سبق وهدّد فى خطبته البتراء، لقد كان الهدف النهائى عند زياد إقرار هيبة الدولة والحصول على طاعة العامة، ولو عن طريق الإرهاب، وبذلك تستقيم الأمور فى البصرة حيث ترى العامة أن الأمر لا هزل فيه ولا هوان فى تطبيق العقاب[2]، ولم يكن خافيًا على زياد بن أبيه ضرورة إعادة تنظيم جهاز الشرطة حتى يتمكن من تحقيق سيطرة فعالة على الأوضاع الأمنية، لذلك عمل زياد على اتخاذ بعض الإجراءات التى تسمح له بفرض هيمنته، منها زيادة عدد الأفراد العاملين فى الشرطة فصعّد عددهم[3] حتى وصل أربعة آلاف فرد، وعين اثنين فى منصب صاحب الشرطة بدلاً من واحد[4].

إن ارتفاع عدد رجال الشرطة إلى أربعة آلاف يدل على أمرين: أولهما: شدة الاضطراب الداخلى. الثانى: أن الشرطة كانت ترفد الجيش فى كثير من الأحيان[5]. وبلغ من دقته فى عهده أنه قال: لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه[6]، وترتب على ذلك ما قاله الطبرى: وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم فى العقوبة، وجرد السيف، وأخذ بالظنّة، وعاقب على الشبهة، وخافه الناس فى سلطانه خوفًا شديدًا، حتى أمن الناس بعضهم بعضًا، حتى كان الشىء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم ير مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحدًا قبله، وأدرّ العطاء، وبنى مدينة الرزق[7]، وعندها ضمّ معاوية الكوفة إلى ولاية زياد، استطاع أن يفرض النظام الأمنى حيث حقق للأمويين رغبتهم فى استقرار النظام والأمن فى كل من البصرة والكوفة، وحيث أصبحت الشرطة أهم قوة داخلية وأكثرها فاعلية[8].

---

(١) ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢٣) نمر بن محمد الحميدانى.

(٢) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٠).

(٣) المصدرنفسه، ص (٤٠).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/١٣٨).

(٥) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ والإسلام (٢/٦٣٦).

(٦) المصدر نفسه (٦/١٣٩).

(٧) المصدر نفسه (٦/١٣٨).

(٨) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤١).

ثانيًا: الشرطة فى الأقاليم الأخرى:

عند مقارنة مصر مثلاً بغيرها من الأمصار الإسلامية كالبصرة مثلاً، نجد أن الشرطة لم تلعب الدور نفسه وذلك لبعد مصر عن الاضطرابات التى كان يحدثها عادة الخوارج وكذلك تذكر المصادر فى العادة حرص الولاة عند اختيار صاحب الشرطة، وقد عين مروان بن الحكم والى المدينة مصعب بن عبد الرحمن بن عوف فى منصبى صاحب الشرطة والقضاء فى آن واحد -كما مرّ معنا- وكان ذلك فى عهد معاوية[1]. ويروى ابن سعد أن مصعبًا كان شديدًا على المذنبين والخارجين على القانون[2]، وقد طلب مصعب من الوالى مروان بن الحكم أن يزوده بعدد كبير من أفراد الشرطة، إذا كان يريد الحفاظ على الأمن فى المدينة، حيث لم يكن عدد الشرطة المتوافر كافيًا لهذه المهمة[3]، وأجابه مروان إلى طلبه وأرسل إليه مائتى شرطى، وظل مصعب فى منصب صاحب الشرطة حتى وفاة معاوية[4].

ثالثًا: واجبات الشرطة:

كان للشرطة فى الدولة الأموية مكانة مميزة بسبب الواجبات المهمة التى كانت تقوم بها هذه المؤسسة تجاه السلطة والمجتمع، ومن هذه الواجبات:

١ ـ حماية الخليفة وولاة الأمصار ضد مناوئيهم فى الداخل:أول من استخدم الشرطة لحمايته الشخصية من الاغتيال، الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية، الذى خاض صراعًا سياسيًا ـ عسكريًا عنيفًا مع معارضيه من الخوارج وغيرهم، وكان الشرطة يحرسون معاوية بشكل دائم فى حله وترحاله، بل حتى وقت الصلاة كان هناك حارس يقف عند رأسه وهو يصلى فى المحراب، وعلى ما يبدو أن الخليفة كان يسير بين يديه صاحب الشرطة متقلدًا كامل سلاحه، وكذلك تقوم الشرطة بتوفير الحماية للولاة فى الأمصار المختلفة، بالطريقة السابقة نفسها، وكما ذُكر سابقًا أن زياد بن أبيه كان يستخدم الشرطة لأمنه الشخصى، وكان صاحب الشرطة هو المسئول الأول عن سلامة الوالى[5]. إن ظهور صاحب الشرطة فى

---

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٣)، الطبقات (٥/ ١٥٨). (٢) الطبقات لابن سعد (٥/ ١٥٨).

(٣) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٣)، الأغانى (٥/ ٧٤).

(٤) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٤٣).

(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٨)، الدولة الأموية فى العصر الأموى، ص (٧٩).

مقدمة موكب الخليفة أو الوالى فى الأماكن العامة ليس دليلاً فقط على الحماية، بل لإشعار العامة أيضًا بالهيمنة والسلطة، إلى جانب ذلك كانت الشرطة أداة بيد الخليفة والولاة لفرض سلطة الدولة على الذين يحاولون التمرد عليها أو معارضتها[١]، وكانت تعين الخليفة على جمع المعلومات، فقد كان معاوية رضى الله عنه قد بلغ من اهتمامه فى الحصول على أخبار عماله ورعيته أن بثّ عيونه فى كل قطر وكل ناحية، فكانت تصله الأخبار أولاً بأول فانتظم له أمره، وطالت فى الملك مدته[٢]، وحذا زياد بن أبيه حذو معاوية، ومما يحكى عنه: أن رجلاً كلمه فى حاجة له فتعرف عليه وهو يظنّ أنه لا يعرفه فقال: أصلح الله الأمير أنا فلان ابن فلان. فتبسم زياد وقال: أتتعرّف إلىّ وأنا أعرف منك بنفسك، والله إنى لأعرفك وأعرف أباك وأمك وجدك وجدتك، وأعرف هذا البُرد[٣] الذى عليك وهو لفلان.. فبُهت الرجل وأرعد حتى كاد يغشى عليه[٤].

٢ ـ معاقبة المذنبين والخارجين عن القانون: الشرطة بحكم كونها القوة الرئيسية المسئولة عن حفظ الأمن، والنظام داخل المدن، إضافة إلى واجبها فرض القانون، ولكن الأحوال الاجتماعية فى المدن الكبرى كانت تدفع الشرطة إلى اتخاذ إجراءات مشددة تجاه العامة. وقد بين زياد بن أبيه فى خطبته البتراء خطورة التجاوزات التى حدثت من الناس فقال: ... من بيّت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، ... وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرّق قومًا، غرقناه، ومن حرّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتًا نقبت عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفنته فيه حيًا[٥] ... من هذه الخطبة يتبين مدى التدهور الحاصل فى البصرة، من خلال طبيعة الجرائم التى كان يرتكبها بعض المنحرفين من أهلها قبل قدوم زياد، وحين انتهى من خطبته أمر صاحب الشرطة بحراسة الطرقات وقتل كل من يوجد خارج منزله ليلاً[٦]. ويروى البلاذرى أن زيادًا لم يتردد فى تنفيذ ما توعّد به[٧] حرفيًا.

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٧٩).
(٢) المحاسن والمساوئ، ص (١٤٣، ١٤٤) للبيهقى.
(٣) البرد: كساء مخطط يلتحف به .
(٤) المحاسن والمساوئ، ص (١٤٤).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٦).
(٦) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٨٣)، أنساب الأشراف (٤/ ١٧٢).
(٧) الشرطة فى العصر الأموى، ص (٨٣).

٣ ـ **تنفيذ العقوبات الشرعية**: من الواجبات التى كانت الشرطة تقوم بها، تنفيذ الحدود الشرعيــة، التى يأمر بها القضاة، ضد كل من يظهر منه فساد فى المجتمع الإسلامى، والحدود الشرعية -كما هو معروف- مذكورة فى القرآن الكريم، والسنة النبوية بينت ذلك. وكان الصحابة والتابعون رضى الله عنهم لديهم غيرة وحرص على أوامر الدين وتنفيذها، ومن ذلك ما رواه الإمام مالك أنّ عبدًا سرق وديًّا[١] فوجدوه، فاستعدى على العبد مروان بن الحكم[٢]، فسجن مروان العبد، وأراد قطع يده، فانطلق سيد العبد إلى رافع بن خديج رضى الله عنه، فسأله عن ذلك، فأخبره أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا قطع فى ثمر ولا كثر»[٣]، فقال الرجل: فإنَّ مروان بن الحكم أخذ غلامًا لى وهو يريد قطع يده، وأنا أحبّ أن تمشى معى إليه فتخبره بالذى سمعت من رسول الله ﷺ، فمشى معه رافع إلى مروان بن الحكم، فقال: أخذت غلامًا لهذا، فقال: نعم، فقال: ما أنت صانع به؟ قال: أردت قطع يده، فقال له رافع: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا قطع فى ثمر ولا كثر» فأمر مروان بالعبد فأرسل[٤].

ويستفاد من هذه اللمحة كذلك احترام الولاة والعمال للصحابة الكرام، وعدم التعرّض لتصرّفاتهم ما دامت منبثقة من الحرص على تنفيذ أمر الله ورسوله حتى وإن كانت داخلة ضمن مهام الوالى[٥]، ومن مظاهر الغيرة على أوامر الدين وتغليب أمر الله على ما سواه، امتناع والى شرطة المدينة مصعب بن عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنهما من هدم دور بنى هاشم، ومن كان فى حيّزهم، ودور بنى أسد بن العزّى، والشدّة عليهم، وذلك لموالاتهم الحسين بن على وابن الزبير، وامتناعهم عن بيعة يزيد، إذ قال مصعب لأمير المدينة عمرو بن سعيد[٦]: أيها الأمير إنّه لا ذنب لهؤلاء ولست أفعل، فقال له الأمير: انتفخ سحرك يا ابن أم حريث، إلىّ سيفنا، فرمى إليه بالسيف وخرج عنه[٧]. وهذا الفعل يدل على قوة

(١) الودى: الواحدة وديّة، وهى صغار النخل، الفائق فى غريب الحديث (٤/ ٥١) .
(٢) ولاية الشرطة فى الإسلام ص (١٢٠).
(٣) الكثر: بفتح الكاف والمثلثة هو جمّار النخل أى وعاء الطلع.
(٤) غريب الحديث (٣/ ٢٤٧).
(٥) ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢١).
(٦)، (٧) نسب قريش ص (٢٦٨)، ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢٢).

إيمان مصعب، وأنّه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق[1]، ومن واجبات الشرطة، مساعدة الجيش ضد أعداء الدولة[2]، وتنفيذ أحكام الإعدام، والتعذيب للمناوئين السياسيين وكل ما يتصل بالسجناء عند صاحب السجن[3]، وإن كانت الواجبات الأخيرة تتضح ملامحها فى عهد الخلفاء الذين بعد معاوية أكثر.

رابعًا: قوات ومؤسسات أخرى وعلاقتها بالشرطة:

تعتبر الشـرطة العمود الفقرى للجهاز الأمنى فى الدولة الأمـوية، وكانت المهمة الرئيسية لهم حفظ الأمن الداخلى بالدرجة الأولى، ومع ذلك عرف العصر الأموى مؤسسات أخرى لعبت دورًا مشابهًا ومكملاً للشرطة وهذه المؤسسات هى:

١ ـ الحرس: استخـدمت كلمة حرس فى بدايات العصـر الأموى لوصف كل من يقوم بمهـمة الحراسة بغض النظر عن المـكان أو الشخص الذى يحرسه، وفى العـصر الأموى كان الحرس يمثلون تلك الفئة التى تـقوم بمهمة حماية الخلفاء والولاة، وعلى ما يظهـر أن معاوية كان أول خلفـاء بنى أمية يتـخذ الحرس لحمـايته الشخصـية من احتمال الاعتـداء عليه من قبل الخوارج وغيرهم، وفى خلافة مـعاوية استخدم الولاة الحرس، كقوة أمنية داخلية إلى جانب الشرطة، وقد استخدم زياد بن أبيه، خمسمائة رجل فى قـوات الحرس الخاصـة به، وعين عليـهم رجلاً من بنـى سعد أطلق عـليه صاحـب الحرس[4]، ومنذ ذلك الحـين وخلفاء بنى أمـية يعـينون من يثقـون به[5]، وخلاصة القول: أن مـفهوم الشرطة يتسع إلى الدرجة التى يضم فيـها نشاط الحرس تحت سلطته، فى حين أن الحرس لا يدخلون ضمن الشرطة[6]، ويورد الجاحظ شطر بيت من الشعر: كأنه شرطى بات فى حرس، للدلالة على التفرقة بين المؤسستين[7].

٢ ـ الحرس مـن غير الـعرب: عرف العـرب، قبل قيـام الدولة الأموية، بعض الألفـاظ الأجنبـية التى تطـلق على الحرس الذيـن كانوا يحـرسـون بيت المال فى

---

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٢٢). (٢) المصدر نفسه، ص (٩٧).
(٣) المصدر نفسه، ص (٩٧ - ١٠٩).
(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٢٨).
(٥) الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٢٨). (٦) المصدر نفسه، ص (١٣٠).
(٧) الحيوان (٣/ ١٥٨)، الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣٠).

البصرة[1]. وهذه الألفاظ هى الأساورة والسيابجة والزطّ، ويشرح البلاذرى هذه الألفاظ فيقول إنّ الأساورة من الفرس، أما السيابجة والزطّ فينحدرون على ما يظهر من الهند[2]، ويتضح من تاريخ الخلافة الأموية أن الولاة كانوا يستخدمونهم لضرب الثورات التى تقوم بها المعارضة، بين حين وآخر، وكان يُطلق على هذه العناصر لفظ البخارية تبعًا لرواية البلاذرى، أيضًا، أن والى خراسان عبيد الله بن زياد، أسر فى إحدى المعارك عددًا كبيرًا من أهل بخارى وجعل من البصرة مستقرًا لهم، وأجرى لهم من الأعطيات ما كان يدفعه نفسه للقبائل العربية، وذلك حين أصبح واليًا على العراق[3]، وقد استخدم عبيد الله هذه القوة الجديدة لمساندة قوة الشرطة للقضاء على ثورة الخوارج فى العراق[4]، وأما ابن سعد فيذكر أن البخارية قد استعملوا أول الأمر كقوة أمنية، على يد والد عبيد الله حين كان واليًا على العراق، ويضيف ابن سعد أن زيادًا استخدم البخارية لمساعدة الشرطة فى محاولتهم للقبض على حجر بن عدى[5] رضى الله عنه. ويشيد البلاذرى بمهارة البخارية فى الرمى بالقوس[6]، ويظهر من مراجعة المصادر التاريخية أن استعمال هذه الفرقة كقوة بشرية لم يكن مقتصرًا على الولاة، بل وجد أنهم كانوا يقومون بخدمة الأشراف، ففى مدينة البصرة مثلاً، كان أبناء عبد الله بن عامر والى العراق فى السابق، يستخدمون البخارية كحرس خاص لحمايتهم الشخصية[7].

٣ ـ العرفاء: ونظرًا لما يتمتع به العرفاء من مكانة لدى الولاة فإن بعضهم يستطيع من الأمور ما لا يقدر عليه غيره، نظرًا لكون العريف مسئولاً عن مراقبة العامة وتبليغ السلطات عن الحركات المشبوهة أو عن الأفراد الذين يُشك فى ولائهم للسلطة. . ولذلك لم يكن لهذا المنصب شعبية، إلاّ أن ذلك لم يمنع كبار القوم من توليه، إذ يورد ابن سعد فى طبقاته أسماء كثيرة تولت مهام هذا المنصب[8].

---

(١) الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣٠).   (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (١٣٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٢١٩)، الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣١).

(٥) طبقات ابن سعد نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣١).

(٦) الأنساب للبلاذرى نقلاً عن الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣١).

(٧)، (٨) المصدر نفسه، ص (١٣١).

٤ ـ صاحب الاستخراج أو العذاب : شهد العهد الأموى قيام جهة خاصة مهمتها استخراج الأموال من الذين يختلسونها بحكم مناصبهم الرسمية، وكان يطلق على الشخص المكلف بمهمة تعذيب المختلسين لكى يقروا بمكان وجودها، لقب «صاحب الاستخراج»، ويروى ابن قتيبة أن هذه المهنة ظهرت فى عهد زياد بن أبيه، الذى كان دائم التحذير لمن يعينهم لمساعدته فى الإدارة، وكان لا يتردد فى إعفائهم من مناصبهم إذا ظهرت منهم خيانة، ويكون العزل بعد إيقاع العقوبة بهم(١)، ويورد كثير من المؤرخين حوادث تتصل بالولاة الذين استخدموا صاحب الاستخراج لاسترداد الأموال المختلسة من المختلسين، أو ممن ظهرت عليهم إمارات الخيانة أو ما شابه ذلك من أمور. من ذلك أن والى العراق عبيد الله بن زياد عزل من مساعديه رجلاً يدعى عبد الرحمن واستخلص منه مائتى ألف درهم(٢)، كما استخلص مبلغ مائة ألف درهم اختلسها أحد العاملين فى إدارته(٣).

٥ ـ جهاز الحسبة: والمقصود هنا بالحسبة: المعنى الضيق، أى عملية الإشراف على تنظيم الأسواق والعمليات التجارية فيها، وقد كان من مهام المحتسب فى الدولة الأموية جباية ضرائب المبيعات وتحصيل أجرة الدكاكين التابعة للدولة(٤)، إضافة إلى مسئوليات السوق والتى من أبرزها(٥):

أ- التأكد من دقة الأوزان، والمكاييل، والمقاييس المستعملة فى عمليات السوق، منعًا لحدوث غبن فى التعامل.

ب- التفقد المفاجئ لعيار الحبات، والمثاقيل لضمان عدم الإخلال بها.

جـ- منع الارتفاع الفاحش لأسعار السلع الأساسية .

د- منع حالات الاحتكار إن وجدت، وإجبار المحتكر على بيع ما احتكره.

ووفق هذا المفهوم نجد أن الحياة الاقتصادية فى بداية الدولة الأموية كانت بسيطة، وعليه فقد سار ولاة الأقاليم على نهج الخلافة الراشدة، فكان الولاة ـ كل فى إقليمه ـ يباشر الحسبة بنفسه(٦). لكن هذا لم يمنع من ظهور وظيفة العامل على السوق فى مدينة البصرة فى عهد ولاية زياد بن أبيه (٤٥ ـ ٥٣هـ)(٧). ويمكن

(١) عيون الأخبار (١/ ٥٥)، الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣٤).
(٢) الشرطة فى العصر الأموى، ص (١٣٤).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٣٤) نقلاً عن الأنساب للبلاذرى .
(٤) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٢٣). (٥) الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢٢٣).
(٦) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٢٣). (٧) المصدر نفسه، ص (٢٢٤).

القول ـ من خلال التتبع ـ بأن نظام الحسبة كان موجودًا منذ بداية العصر الأموى، وإن لم يكن يحمل لفظ الحسبة، إنما دور المحتسب فى تنظيم السوق كان متواجدًا طوال العصر الأموى، وقد نما النظام وتطور بما يوافق تطور قطاع التجارة، والأسواق، فيلاحظ أنه فى بداية الأمر كان الوالى يتولى بنفسه أعمال الحسبة ثم تطور الأمر لأن يكون هناك شخص معين وظيفته الإشراف على السوق، ثم تطور الأمر ليكون لهذا المعين أعوان يعينونه فى عمله[1].

٦- نظام المراقبة: ظهر هذا النظام فى دمشق فى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما، فى عدة صور:

أ- إلزام بعض مناوئيه السياسيين بأداء الصلاة فى الجماعة فى مساجد معينة[2]. ويشبه هذا الإجراء ما هو معمول به فى بعض الدول المعاصرة من إلزام المشبوهين بالتردد على مراكز الشرطة فى أوقات محددة[3].

ب ـ إسكان بعض مناوئيه فى مساكن خاصة أعدّها لهم فى دمشق وغيرها لتسهل عليه مراقبتهم.

جـ ـ إحكام المراقبة الشخصية على الأجانب الذين يدخلون دار الإسلام[4].

٧ ـ مؤسسة الدرك: والدرك فى الاصطلاح: مؤسسة تضم قوى الدولة العاملة فى سبيل الأمن خارج حدود المدن الكبيرة[5]، وفى الطبرى نص يفيد اهتمام زياد عام ٤٥هـ، أى أيام معاوية بالسُّبُل ـ أى الطرق ـ جاء فيه: قيل لزياد: إن السبل مخوفة. فقال: لا أعانى شيئًا سوى المصر، حتى أغلب على المصر وأصلحه، فإن غلبنى المصر، فغيره أشد غلبة، فلما ضبط المصر تكفل ما سوى ذلك، فأحكمه[6]. وكان يقول: لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه[7]. وهذا لا يكون إلا إذا كان رجاله متمكنين من الطرق والسبل[8]. وقد طرح زياد نظرية أمنية مفادها التمكن أولاً من داخل الأمصار، ثم التوسع لما حولها من طرق وسبل. هذه بعض الملامح والمعالم الكبيرة عن نظام الشرطة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

***

(١) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٢٤).

(٢) ولاية الشرطة فى الإسلام، ص (١٢٥). (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٢٥).

(٥) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٢/ ٦٤٣).

(٦)، (٧) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٩). (٨) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ (٢/ ٦٤٤).

المبحث الثامن

الولاة والإدارة فى عهد معاوية رضى الله عنه

حاول معاوية رضى الله عنه طيلة فترة خلافته أن يجعل أسلوب حكمه فى وضع بين المركزية واللامركزية. فقد اتخذ من دمشق عاصمة للدولة، وغدت المركز الرئيسى الذى تصدر منه الأوامر السياسية والاقتصادية والإدارية للدولة، أما ترتيب أمور الولايات داخليًا فقد تركه معاوية رضى الله عنه للولاة ليقوموا به كل حسب خبرته وجدارته على أن يكونوا جميعًا مسئولين أمام معاوية رضى الله عنه مسئولية مباشرة، ومحاسبين على كل عمل يقومون به، ولعل من ضمن الأسباب التى حدت بمعاوية لأن يتخذ من دمشق عاصمة للدولة الأموية هو معرفته الجيدة بأهل الشام وثقته التامة فيهم وفى ولائهم له، فقد أمضى معاوية رضى الله عنه هناك قرابة عشرين عامًا أميرًا على بلاد الشام، كان خلالها يتمتع خلالها بشعبية كبيرة بينهم، ولعلّ معاوية رضى الله عنه كان يشعر أن استمرار دولة الأمويين يعتمد فى درجة كبيرة على مدى المساعدة التى يقدمها إليه أهل الشام خاصة. كان معاوية رضى الله عنه يعى هذه المسائل جيدًا ويعيرها جلّ انتباهه، لذلك حاول جهده منذ البداية أن يعمل على حفظ التوازن بين رجالات القبائل العربية المختلفة فى بلاد الشام وعلى درجة الخصوص القبائل اليمانية والقبائل القيسية[1]، وقد عمل معاوية رضى الله عنه كل ما فى استطاعته لإيجاد التوازن بين مصالح الطرفين فى بلاد الشام، فقد كان فى خدمة معاوية رضى الله عنه رجالات من القيسية أمثال الضحاك بين قيس الفهرى وحبيب بن مسلمة الفهرى، مثلما كان هناك رجالات من اليمانية أمثال مالك بن هبيرة السكونى، وشرحبيل بن سمط الكندى، وحسان بن بحدل الكلبى وغيرهم، كما أن معاوية رضى الله عنه حصل على مساعدات من كلا الطرفين إبان فترتى ولايته وخلافته، وكانوا يحاربون إلى جانبه فى جيش واحد وتحت إمرة واحدة[2]، وكانت سياسة معاوية تقوم على الاستعانة بأفراد من أقاربه أبناء البيت الأموى مثل: عنبسة بن أبى سفيان، وعتبة

(١) خلافة معاوية بن أبى سفيان، العقيلى، ص (٧٠). (٢) المصدر نفسه، ص (٧٣).

ابن أبى سفيان، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان وسعيد بن العاص بن أمية، ومروان بن الحكم وابنه عبد الملك[1]، وعمرو بن سعيد بن العاص[2]، وغيرهم. كما حرص معاوية رضى الله عنه على اختيار أعوانه وولاته من ذوى التجارب الواسعة من المسلمين، كعبد الله بن عامر بن كريز، والمغيرة بن شعبة، والنعمان ابن بشير الأنصارى، ومسلمة بن مخلد الأنصارى[3]، وغيرهم. ولم تكن المحاباة هى الأساس الأهم والأوحد فى انتقاء معاوية لهؤلاء الرجال دون غيرهم وإنما كان كثير منهم ممن خدم أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ورأى أن يستفيد بجهودهم ومواهبهم ولاسيما أولئك الذين أظهرتهم أحداث الفتوحات الإسلامية بالشام[4].

ونلاحظ أن معاوية استعان بأهل الصحبة والكفاية والولاء ولاة على الأمصار، ومع أن معاوية رضى الله عنه اختار بعض أعوانه من أهل بيته، يوليّهم الولايات إلا أنه كان يعاملهم بحذر شديد إلى أن يطمئن لهم، ويقتنع بمقدرتهم الإدارية فقد كان يختارهم أول الأمر لولاية مدن صغيرة كالطائف[5] مثلاً، فإذا ما أظهر أحدهم مقدرة إدارية، فإن معاوية -رضى الله عنه- يضم إليه مكة لتكون تحت إشرافه ثم يتبعها بالمدينة وعند ذلك يقال: هو قد حذق[6]. وغنى عن البيان أن الطائف كانت مدينة مهمة فى ذلك الوقت حيث تتمركز فيها قبيلة ثقيف[7] القوية، وأن من يستطيع من الولاة أن يسيطر على الطائف - سياسيًا واقتصاديًا - فإن بقية المدن تسهل السيطرة عليها بعد ذلك. وتشير نجدة خمَّاش إلى أن معاوية رضى الله عنه جعل من مدن الحجاز مدرسة يدرب فيها أبناء البيت الأموى على إدارة تلك الولاية والسماح لهم بالتدرّج فى تلك الإدارة وفق خطوات مقررة[8]. وقد اتبع معاوية رضى الله عنه أسلوبًا مميزًا فى معاملته لبنى أهله ممن يستعين بهم. فقد كان يحاول أن يجعلهم متفرقين عن بعضهم البعض، وذلك كى يتجنب أى تحالف ضده[9].

---

(١) البلاذرى أنساب الأشراف نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلى، ص (٧٣).
(٢) خلافة معاوية، ص (٧٣) نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ١٦٠).
(٣) خلافة معاوية، العقيلى، ص (٧٤).
(٤) الأمويون والبيزنطيون، إبراهيم العدوى، ص (٧٤).
(٥) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٧٤).
(٦) تاريخ الطبرى، خلافة معاوية للعقيلى، ص (٧٥).
(٧) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٧٥).
(٨) الإدارة فى العصر الأموى، ص (١٠٨، ١٠٩).
(٩) أنساب الأشراف (٤/ ٦٥، ٦٧)، خلافة معاوية، ص (٧٥).

وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه تمتع رعايا الدولة من غير المسلمين بمنتهى التسامح والرفق، وحصلوا على امتيازاتهم بسهولة ويسر. فقد كانوا يعملون فى مختلف الوظائف الحكومية، ذلك أن معاوية رضى الله عنه أبقى على النظم البيزنطية والقبطية التى كان معمولاً بها فى الشام ومصر والمغرب. كما أبقى على النظم الفارسية فى العراق وخراسان. وكان ترك معاوية رضى الله عنه هذه النظم على حالتها بسبب نقص من كانوا يعرفون لغات ونظم إدارة البلاد المفتوحة من المسلمين فى أوائل العهد الأموى، وعلاوة على ذلك فقد كان طبيب معاوية رضى الله عنه الخاص، ويدعى ابن أُثال[١] غير مسلم، وكذلك سريج (سرجون) بن منصور الرومى مستشاره المالى[٢]، وابن مينا[٣]، وابن النضير[٤] مولاه من عماله على الصوافى، كانوا أيضًا من سلالة غير المسلمين، وأسلم بعضهم فيما بعد. وفضلاً عن ذلك ترك معاوية لرعايا الدولة من غير المسلمين أيضًا حرية تامة فى ممارسة طقوسهم الدينية، فاستجاب لطلب نصارى دمشق بعدم زيادة كنيسة يوحنا فى مسجد دمشق[٥]. كما رمّ لهم كنيسة الرَّها (أُديسًّا) والتى كانت قد تهدمت من جراء الزلازل[٦]. كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط فى حارة الروم فى ولاية مسلمة بن مخلد الأنصارى على مصر ما بين عامى ٤٧هـ - ٦٨هـ[٧]. كما استعان معاوية رضى الله عنه بمهندسين وفنّيين من غير المسلمين فى بناء قصر الخضراء بدمشق الذى اتخذه معاوية مقرًا لإقامته فى فترة إمارته على بلاد الشام ثم فى فترة خلافته بعد ذلك. ويروى البلاذرى أنهم بنوه لمعاوية رضى الله عنه من الحجارة بعد أن كان قبل مبنيًا باللِّبن والطين[٨].

وكما كانت سياسة التسامح مع الرعايا غير المسلمين هى الطابع المميز لفترة خلافة معاوية رضى الله عنه كذلك نرى سياسة التعاطف والاهتمام المتزايد وحسن المعاملة تجاه الموالى من المميزات الأخرى فى عصر معاوية. فنجد معاوية رضى الله

---

(١) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٢٣).
(٢) تاريخ خليفة، ص (٢٢٨).
(٣) تاريخ اليعقوبى (٢/ ٢٩٧) المحن، ص (١٧١) لأبى العرب.
(٤) أنساب الأشراف (٤/ ١٢٣).
(٥) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٨٠).
(٦) الأمويون والبيزنطيون، ص (٢٩١).
(٧) فتوح مصر، ص (١٣٢)، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى للقرضاوى، ص (٢٠، ٢١).
(٨) أنساب الأشراف (٤ / ١٤٧).

عنه استعان بكثير من الموالى فى إدارة بعض شئون الدولة؛ فعين مولاه عبد الله بن درّاج على خراج الكوفة ومعونتها فى ولاية المغيرة بن شعبة[1]. وكان وردان مولاه على خراج مصر فى ولاية عتبة بن أبى سفيان[2]، وكان على حرسه رجل من الموالى يقال له المختار، وقيل رجل يقال له مالك ويكنى أبا المخارق مولى لحمير، وكان على حجابه سعد مولاه[3]. وكان يلى أمواله بالحجاز أيضًا. وهو الذى قال فيه معاوية: أغبط الناس عيشًا مولاى سعد، كان يتربع جدَّة، ويتقيَّظ الطائف، ويشتو بمكة[4]. واتخذ زياد بن أبى سفيان من مهران مولاه، حاجبًا له وكاتبه على الخراج فى العراق[5]. وكان أبو المهاجر دينار مولى لمسلمة بن مخلد الأنصارى فتولى له إدارة شئون المغرب[6] فى سنة ٥٥هـ.

وبالرغم من هذه الأمثلة نجد أن عباس محمود العقاد يشير إلى أن معاوية كان لا يلتفت إلى الموالى، وردّد ما سبقه إليه المستشرقون فى طعنهم فى تسامح معاوية رضى الله عنه مع الموالى، رغم ما تزخر به المؤلفات العربية القديمة من أمثلة على هذا التسامح[7]. ومن ناحية أخرى، فقد ترك معاوية رضى الله عنه الإصلاحات الضرورية لعماله على الأقاليم ليقوم كل واحد منهم بواجبه تجاه الإقليم الذى يرى شئونه[8]، وقد أصبح التقسيم الإدارى للدولة فى عهده كالآتى: دمشق عاصمة للدولة، وقسم البلاد إلى ولايات يحكم كل ولاية منها والٍ من قبل الخليفة، وكان لكلٍّ سلطة غير محدودة فى الولاية التى يحكمها، وفى بعض الأحيان أطلقت الدولة للوالى سلطة التصرف كما يشاء، حتى كان بعضهم يقتل وينفى، ويسجن، ويشرد... وقد لاحظنا أن هذا الحكم المطلق لم يتكرر، بل كان دائمًا محصورًا فى ولاية العراق، وذلك لما كان يحدث فيها من اضطرابات وفتن أكثر من غيرها، وكان الخليفة يختار لهذه الولاية ولاة مشهورين بالحزم والشدة، فكان زياد بن أبيه من أشهر ولاة معاوية، أما بقية الولايات فكانت تحكم بطابع الدولة المألوف، فالوالى

(١) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٨١).
(٢) الإدارة فى العصر الأموى، خماش، ص (٣٤٧).
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ٥٤، ٦٣) خلافة معاوية، ص (٨٢).
(٤) معجم البلدان (٤/ ١٢) خلافة معاوية، ص (٨٢).
(٥) تاريخ خليفة، ص (٢١٢).
(٦) خلافة معاوية للعقيلى، ص (٨٢).
(٧)، (٨) خلافة معاوية، ص (٨٢).

مقيـد بأوامر الخليفة، لا يقـضى إلا بعد رأيه، ولا يفصل إلا بعد مـشاورته، وكان الوالى يرجع إلى الخليفة فى كل مـا يتصل بالمصالح العامة، فإذا كـان الأمر خاصًا بولايته له أن يتصرف فيـه بحسب ما يحقق المصلحة العامة، وإلا فهـو مسئول أمام الخليفة عن كل تصرفاته، وكانت ولايات الدولة الكبرى فى عهد معاوية[1]، دمشق العاصمة، والبـصرة، والكوفة، والمدينة ومكة، ومصر وغيـرها، أما ولاة الأمصار فى عهد معاوية فسوف نتحدث عنهم فى حديثنا عن كل إقليم بإذن الله تعالى.

أولاً: البصرة:

ومن أشهر ولاتها فى عهد معاوية:

١- بسـر بن أرطأة رضـى الله عنه: تولى الولاية عـام ٤١هـ وجـاءت روايات لم تصل إلى درجة الصحة تشير إلى تعرض بسر لابنى زياد بن أبيه[2]، ثم عزل وعين بدله عبد الله بن عامر.

٢- عبد الله بن عامر رضى الله عنه (٤١ - ٤٤هـ): ففى هذه السنة أى ٤١هـ ولى معاوية عبـد الله بن عامر البصرة، وحرب سـجستان[3]، وخراسان[4]. ولم يكن تعيين عبد الله بن عامر على البصرة لأسباب شخصية، لأنه لم ترد رواية صحيحة تؤكد ذلك، ولكن اختـيار معاوية رضى الله عنه له كـان نتيجة خبـرته السابقة فى ولاية البصرة وحرب سجـستان وخراسان أيام عثمان، فـما كان من معاوية إلا أن أسند الأمن إلى أهـله، ووضع الرجل المناسب فى المـكان المناسب[5]، وبعـد أن أمضى ابن عامر ثلاث سنوات تمكن فـيها من تثبيت الفتح فى سجـستان وخراسان واستفاد المسلمون من خبرته العسكرية، ثم دعت الحـاجة إلى تغييره، فعزله معاوية وولى الحارث بن عـبد الله الأزدى البـصرة فى أول سنة خـمس وأربعين، فـأقام بالبصرة أربعة أشهر، ثم عزله وولاها زيادًا[6].

---

(١) الدولة الأموية (١/٩٧) محمد سيد الوكيل.

(٢) تاريخ الطبرى (٦/٨٢).

(٣) سجستان: تقع حاليًا جنوب غرب أفغانستان.

(٤) تشمل حاليًا: شمال شرق إيران، وشمال غرب أفغانستان

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٣٤).

(٦) تاريخ الطبرى (٦/١٣٣).

٣ - زياد بن أبيه (٤٥هـ - ٥٣هـ):

أ - نسبه: يعتبر نسب زياد المكنى بأبى المغيرة، من أكثر القضايا غموضًا فى حياته، فقد كانت أمه أمة اسمها سمية[١]، ولم يتفق المؤرخون من هو أبوه، وبالتالى هم مختلفون فى ذكر نسبه فقد ذُكر اسمه فى المصادر، تارة زياد بن سمية[٢]، وتارة زياد ابن عبيد[٣]، ومرة زياد الأمير[٤]، وأخرى زياد بن أبى سفيان[٥]، وفى أغلب الأحيان عرف بابن أبيه[٦]، وذلك لما وقع فى أبيه من الشك[٧].

ب - صلح زياد مع معاوية: كان زياد بن أبيه واليًا على خراسان لأمير المؤمنين على رضى الله عنه وكان مخلصًا له غاية الإخلاص، وحاول معاوية أن يكسب زياد ويضمه إلى صفه فى عهد على رضى الله عنه إلا أنه فشل فى ذلك. وبعد مقتل أمير المؤمنين على رضى الله عنه وجد معاوية فرصة طيبة لإعادة النظر فى مساعيه الهادفة إلى استمالة زياد بأقل التكاليف، واستخدم معاوية لغة التهديد والترغيب مع زياد عند تحصنه بقلعة عرفت باسمه فخافه معاوية وهو من أكثر الناس معرفة بصلابته، ولا شك أن اعتصام زياد بفارس مع علمه بأنه الوحيد الذى لم ينزل على حكم معاوية، ويدخل فيما دخل فيه الناس، إنما يدل على ثقته بنفسه أولاً، وبإمكانيات إقليم فارس الاقتصادية والبشرية ثانيًا، إلا أن هذه الأمور وحدها ليس كافية لمواجهة معاوية إذا ما لجأ إلى استخدام القوة، الأمر الذى دفع زيادًا فى المرحلة التالية فى علاقته بمعاوية إلى تبديل موقفه الرافض بموقف أكثر إيجابية، وبعد صلح الحسن حاول معاوية الاتصال بزياد وسمح للمغيرة بن شعبة أن يتدخل لحل هذا المشكل، واستطاع المغيرة بن شعبة أن ينجح فى إقناع زياد ببيعة معاوية والدخول فى طاعته. وكان هذا النجاح من المغيرة من أعظم ما قدمه لمعاوية من خدمات، فقد كان من الصعب على معاوية أن يصل إلى زياد أو يوفق فى إخضاعه

---

(١) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة للرواضية، ص (٣١). (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١).
(٣) العواصم من القواصم، ص (٣١).
(٤) الطبقات (٧/ ٩٩)، زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، ص (٣١).
(٥) طبقات خليفة بن خياط، ص (١٩١).
(٦) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، ص (٣٢).
(٧) المصدر نفسه، ص (٣٢)، الوافى بالوفيات (١٥/ ٣٢).

إلا بعد قتال عنيف، لا يدرى أحد من سيكون الرابح فى مثل ذلك الموقف الخطير[١]، وقد تمّ لمعاوية احتواء حركة اعتصام زياد بفارس، ولم يستعجل فى الأمر، وابتعد عن استخدام القوة، وأعطى للزمن فرصته، واستعان بداهية من دهاة العرب فى إقناع زياد وهذا من حكمته[٢] رضى الله عنه.

جـ- حول استلحاق معاوية زياد بن أبيه: قال الطبرى فى عام ٤٤هـ: فى هذه السنة استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبى سفيان فيما قيل[٣]، وقال الطبرى: . . زعموا أن رجلاً من عبد القيس كان مع زياد لما وفد على معاوية فقال لزياد: إن لابن عامر عندى يدًا، فإن أذنت لى أتيته، قال: على أن تحدثنى ما يجرى بينك وبينه، قال: نعم، فإذن له فأتاه، فقال له ابن عامر: هيه هيه أو ابن سمية يقبح آثارى، ويعرض بعمالى، لقد هممت أن آتى بقسامة[٤] من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية، قال: فلما رجع سأله زياد، فأبى أن يخبره، فلم يدعه حتى أخبره فأخبر زياد معاوية، فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضرب وجه دابته عن أقصى الأبواب، ففعل ذلك به، فأتى ابن عامر يزيدًا، فشكا إليه ذلك، فقال له: هل ذكرت زيادًا؟ قال: نعم، فركب معه يزيد حتى أدخله، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل، فقال يزيد لابن عامر: اجلس فكم عسى أن تقعد فى البيت عن مجلسه، فلما أطال خرج معاوية، وفى يده قضيب يضرب به الأبواب، ويتمثل:

لنا سياق[٥] ولكم سياق   قد علمت ذلكم الرفاق[٦]

ثم قعد فقال: يا ابن عامر، أنت القائل فى زياد ما قلت، أما والله لقد علمت العرب أنى كنت أعزها فى الجاهلية، وإن الإسلام لم يزدنى إلا عزًا، وإنى لم أتكثر بزياد من قلة، ولم أتعزز به من ذلة، ولكن عرفت حقًا له فوضعته موضعه[٧]، وقد اتهم معاوية رضى الله عنه عندما استلحق زياد بن أبيه إلى أبيه بأنه خالف أحكام الإسلام لأن الرسول ﷺ قال: «لا دعوة فى الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد

---

(١) زياد بن أبيه ودوره فى الحياة العامة، ص (٧٥ – ٨١).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (١٧٣)، تاريخ الطبرى (٦/ ٩٤، ٩٥). (٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١) القسامة: هم القوم الذين يحلفون.

(٥) السياق: المهر، القاموس المحيط (١١٥٦). (٦) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٢).

(٧) المصدر نفسه (٦/ ١٣٢).

للفراش(١)، وللعاهر الحجر»(٢). وقد ردّ على هذا الاتهام الدكتور خالد الغيث فى رسالته مرويات خلافة معاوية بقوله: . . أما اتهام معاوية رضى الله عنه باستلحاق نسب زياد، فإنى لم أقف على رواية صحيحة صريحة العبارة تؤكد ذلك، هذا فضلاً عن أن صحبة معاوية رضى الله عنه، وعدالته ودينه وفقهه تمنعه من أن يرد قضاء رسول الله ﷺ لاسيما أن معاوية أحد رواة حديث: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»(٣). ووجه التهمة إلى زياد بن أبيه بأنه هو الذى ألحق نسبه بنسب أبى سفيان واستدل برواية أخرجها مسلم فى صحيحه من طريق أبى عثمان(٤) قال: لما ادعى زياد لقيت أبا بكرة فقلت له: ما هذا الذى صنعتم؟ إنى سمعت سعد بن أبى وقاص يقول: سمع أذناى من رسول الله ﷺ وهو يقول: «من ادعى أبًا فى الإسلام غير أبيه، يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام». فقال أبو بكرة: وأنا سمعته من رسول الله ﷺ(٥).

قال النووى رحمه الله معلقًا على هذا الخبر: . . فمعنى هذا الكلام الإنكار على أبى بكرة، وذلك أن زيادًا هذا المذكور هو المعروف بزياد بن أبى سفيان، ويقال فيه: زياد بن أبيه، ويقال: زياد بن أمه، وهو أخو أبى بكرة لأمه. . . فلهذا قال أبو عثمان لأبى بكرة: ما هذا الذى صنعتم؟ وكان أبو بكرة رضى الله عنه ممن أنكر ذلك وهجر بسببه زيادًا وحلف أن لا يكلمه أبدًا، ولعل أبا عثمان لم يبلغه إنكار أبى بكرة حيث قال هذا الكلام، أو يكون مراده بقوله: ما هذا الذى صنعتم؟ أى هذا الذى جرى من أخيك ما أقبحه وأعظم عقوبته فإن النبى ﷺ حرم على فاعله الجنة(٦). وبذلك يكون زياد هو المدِّعى. وفى حقيقة الأمر فإن مسألة استلحاق معاوية زياد هى مسألة اجتهادية ويذهب الكثير من المؤرخين بأن هناك دلائل عديدة تثبت أن أبا سفيان قد باشر سمية - جارية الحارث بن كلدة الثقفى -

(١) الفراش: لفظة يعبر بها عن المرأة غالباً وقد يعبر بها عن حالة الافتراش، والمراد لحوق حالة نسب الولد بمن له الاختصاص بالوطء كالزوج، والسيد فتح البارى (١٢/ ٣٦) .

(٢) صحيح سنن أبى داود (٢/ ٤٣٠) للعاهر الحجر: أى للزانى الخيبة وحرمان الولد الذى يدعيه، وقد جرت عادة العرب أن تقول لمن خاب: له الحجر وبقية الحجر والتراب. فتح البارى (١٢/ ٣٧) .

(٣) فتح البارى (١٢/ ٣٩) .

(٤) أبو عثمان النهدى، معروف بكنيته، مخضرم من كبار الطبقة الثانية ٩٥ هـ ت .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى (٢/ ٥١، ٥٢). (٦) شرح صحيح مسلم (٢/ ٥٢، ٥٣) .

وكانت من البغايا ذوات الرايات -فى الجـاهلية- فعلقت منه بزياد، وذكروا بأن أبا سفيان اعترف بنفسـه بذلك أمام على بن طالب رضى الله عنه وآخرين بعدما شب ونبغ فى عهد عمر بن الخطاب[١]، وقال ابن تيمية بأن أبا سفيان كان يقول زياد من نطفته[٢]، فلما كـانت خلافة معـاوية شهد لزياد بذلك النـسب أبو مريم السلولى وهو صحـابى كان يعمل فى الجـاهلية خماراً بالطـائف، وهو الذى جمع بين أبى سفيان وسمية، وكان ذلك أمرًا مألوفًا آنذاك[٣]. ويبدو أن هذا النسب قد شاع أمره حتى لقد شهـد بذلك أحد رجال البصرة لزياد قبل اسـتلحاق معاوية إياه[٤]، فهى دعوة قديمة إذن ولـم تكن -كـما يزعم الرواة- نتيجة مشورة المغيـرة بن شعبة على معاوية كجزء من صـفقة متبادلة بين معاوية وزياد أو غيـر ذلك من التفاصيل التى اخترعها الرواة[٥].

وبعد عـقود من السنيـن نجد الإمام مـالك بن أنس - إمام أهل المدينـة - يذكر زيادًا فى كتـابه الموطأ بأنه زياد بن أبى سـفيان، ولـم يقل زياد بن أبـيه، وذلك فى عصر بنـى العباس[٦]، والدولة لهم والحكم بأيديهم فما غـيروا عليه، ولا أنكروا ذلك منه، لفضل علومهم ومعرفتهم بأن مسألة زياد قد اختلف الناس فيها، فمنهم من جوّزها، ومنهم من منعهـا، فلم يكن لاعتراضهم عليهـا سبيل[٧]. وفى نسبة الإمام مالك لزياد إلى أبى سـفيان فقه بديع لم يفطن له أحـد، وهو أنها لما كانت مسـألة خلاف ونقد الحـكم فيهـا بأحد الوجهـين لم يكن لها رجـوع، فإن حكم القـاضى فى مسـائل الخلاف بأحـد القولين يمـضيـها ويرفع الخـلاف فيهـا والله أعلم[٨]. وأما تعـارض هذا الاستلحـاق مع نص الحديث الشـريف، فمن اعـتذر لمعاوية قال: إنما استلحق معاوية زيادًا لأن أنكحة الجاهلية كانت أنواعًا، وكان منها أن الجماعـة يجامعون الـبغى، فإذا حملت وولدت ألـحقت الولد لمن شاءت منهم فيلحقـه، فلمّا جاء الإسلام حرّم هذا النكاح، إلا أنّـه أقر كل ولد كان يُنسب إلى

(١) مروج الذهب (٣/ ١٤، ١٥)، الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٩٥).

(٢) الفتاوى (٢٠/ ١٤٨).

(٣) الكامل فى التاريخ (٢ / ٤٧٠).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣١، ١٣٢).

(٥) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (١٩٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٩٦).

(٧) العواصم من القواصم، ص (٢٥٤).

(٨) فصل الخطاب فى مواقف الأصحاب، ص (١٤١) نقلاً عن العواصم، ص (٢٤٢).

أب من أى نكاح كان من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرّق بين شيء منها، فتوهم معاوية أنّ ذلك جائز له ولم يفرّق بين استلحاق فى الجاهلية، والإسلام[1]. وأجاز الإمام مالك أن يستلحق الأخ أخًا له ويقول: هو ابن أبى، ما دام ليس له منازع فى ذلك النسب. فالحارث بن كلدة (الذى كانت سمية جارية له) لم ينازع زيادًا، ولا كان إليه منسوبًا، وإنما كان ابن أمة بغى ولد على فراشه - أى فى داره - فكل من ادعاه فهو له، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه، فلم يكن على معاوية فى ذلك مغمز، بل فعل الحق على مذهب مالك، فإن قيل: فلم أنكر عليه الصحابة؟ قلنا: لأنها مسألة اجتهاد[2]. والحوادث تثبت أن معاوية كان مقتنعًا بحق زياد فى ذلك، ولابد أنه كان قد سمع من أبيه، ولهذا فإن معاوية كان مؤمنًا بأن عمله لم يكن إلا عملاً موضوعيًا وواجبًا ضروريًا من باب وضع الشيء فى محله، ولا ريب أن هذا كان معروفًا عند الناس غير أن معاوية أراد أن يثبته[3].

د- خطبة زياد المعروفة بالبتراء بالبصرة: لما تولى زياد ولاية البصرة، عام ٤٥هـ، خطب خطبة بتراء[4]، لم يحمد الله فيها وقيل: بل حمد الله فقال: الحمد لله على أفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه، اللهم كما رزقتنا نعمًا، فألهمنا شكرًا على نعمتك علينا. أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والفَجر[5] الموقد لأهله النار، الباقى عليهم سعيرها، ما يأتى سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش منها الكبير، كأن لم تسمعوا بآى الله، ولم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، فى الزمن السرمد[6] الذى لا يزول. أتكونون كمن طرفت[7] عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكروا أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا به، من ترككم هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة، فى النهار المبصر، والعدد غير قليل، ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج[8] الليل وغارة

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٧١). (٢) العواصم من القواصم، ص(٢٥٣).

(٢) إدارة العراق فى صدر الإسلام، رمزية عبد الوهاب، ص (٦١). (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٤).

(٥) الفَجر: الانبعاث فى المعاصى والزنى، القاموس المحيط، ص (٥٨٤).

(٦) السرمد: الدائم، القاموس المحيط، ص (٣٦٧).

(٧) الطَّرفة: نقطة حمراء من الدم تحدث فى العين من ضربة وغيرها.

(٨) الدَّلج: السير من أول الليل، القاموس المحيط، ص (٣٤٢).

النهـار، قربّـتم القرابة، وباعـدتم الدين، تعتـذرون بغيـر العـذر، وتغطون على المختلس[1]، كل امرىء منكم يذب عن سـفيهه، صنيع من لا يخـاف عقابًا، ولا يرجو معـادًا، ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبـعتم السفهـاء، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم، حتى انتهكوا حـرم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوسًا فى مكانس الريب[2]، حُرِّم علىّ الطعام والشـراب حتى أسويها بالأرض هدمًـا وإحراقًا، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله، لين فى غـير ضعف، وشدة فى غير جبرية وعنف، وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالولى[3]، والمقيم بالظاعن[4]، والمقبل بالمدبر، والصـحيح منكم بالسقـيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فـيقول: انج سعد فقد هلك سعيد[5]، أو تستقيم لى قناتكم، إن كذبة المنبر تبقى مشهورة، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقـد حلت لكم معصيتى[6]، من بُيِّت[7] منكم فأنا ضامن لما ذهب له، إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه، وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكـوفة ويرجع إلىَّ، وإياى ودعوى الجاهلية[8]، فإنى لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه، وقـد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرَّق قومًا غرقته، ومن حرَّق على قوم حرقناه، ومن نقب بيتًـا نقبت عن قلبه، ومن نبش قبـرًا دفنته[9] حيًا، فكـفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف يدى وأذاى، لا يـظهر من أحد منكم خـلاف ما عليـه عامتـكم إلا ضربت عنقه. وقد كانت بينى وبين أقوام إحن[10]، فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى، فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسـانًا، ومن كان مسيئًا فلينزع عن إساءته، إنى لو علمت أن أحـدكم قد قـتله السل من بغضـى لم أكشف له قناعًـا، ولم أهتك له

(١) الخلس: الأخذ فى نُهزة ومخاتلة، لسان العرب (٦/ ٦٥).
(٢) كنوساً فى مكانس الريب: استتروا فى موضع الريبة، لسان العرب (٦/ ١٩٨).
(٣) بمعنى واحد وهو: الصاحب والقريب والجار والحليف والشريك.
(٤) الظاعن: المسافر، لسان العرب (١٣/ ٢٧٠، ٢٧١).
(٥) المثل يُضرب فى الاستخبار عن الأمرين الخير والشر، أيهما وقع.
(٦) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٤٠).
(٧) بُيِّت: أُوقع به ليلاً، لسان العرب (٢/ ١٦).
(٨) دعوى الجاهلية: المفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر.
(٩) عند الجاحظ: دفناه فيه حياً، البيان والتبيين (٢/ ٢٣٠).
(١٠) الإحن: الأحقاد.

ستراً، حتى يبدى لى صفحته، فـإذا فعل لم أناظره، فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم، فرب مبئس بقدومنا سيسـر، ومسرور بقدومنا سيبتئس[1]. أيها الناس، إنا أصبـحنا لكم ساسـة، وعنكم ذادة[2]، نسوسكـم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفىء[3] الله الذى خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولُينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا[4] بمناصحتكم، واعلموا أنى مهما قصرت ولو أتانى طارقًا بليل، ولا حـابسًا رزقًا ولا عطاءً عن إبانه[5]، ولا مُجمراً[6] لكم بعثًا، فادعـوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساسـتكم المؤدبون لكم، وكهفكم الذى إليه تأوون، ومـتى تصلحوا يصلحـوا، ولا تشربوا قلوبكم بغضـهم، فيشـتد لذلك غيظكم، ويطول له حـزنكم، ولا تدركوا حاجـتكم، مع أنه لو استجـيب لكم كان شرًا لكم، أسأل الله أن يعين كلاً على كل، وإذا رأيتمـونى أنفذ فيكم الأمر فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعـاى. فقام عبد الله بن الأهتم فقـال: أشهد أيها الأميـر أنك قد أوتيت الحكمة وفـصل الخطاب، فقـال: كذبت، ذاك نبى الله داود عليه السلام[7]. قال الأحنف: قد قلت فـأحسنت أيها الأميـر، والثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نُثنى حتى نُبتلى، فقال زياد: صدقت[8].

وهذه الخطبة تعـتبـر من الخطب المشهورة فى التـاريخ وعلى الرغم من كثـرتها وكثرة المصـادر التى أوردتها إلا أنها لم تأت بإسناد صحيح يجـعل القارىء يطمئن إلى صحة ما ورد فيها، لاسيما أنهـا تحتوى على مآخذ عديدة، وتناقضات واضحة تقلل من صـحة نسـبة جـميع ما جـاء فيـها إلى زياد، وقـد نبه إلى هذه المـآخذ والتناقضات الدكتور خالد الغيث[9] حفظه الله، منها:

- تحدثت الخطبة عن انتشـار الفجور فى البصرة وكثرة بيوت الدعـارة فيها، ويستفاد ذلك من قول زياد: . . من ترككم هذه المواخير المنصـوبة، قوله: حُرِّم علىَّ الطعام والشراب حـتى أسويها بالأرض هدمًا وإحـراقًا[10]. وهذا الكلام المنكر عن حال

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٦) .
(٢) ذادة: حماة ومدافعون .
(٣) الفىء: الغنيمة .
(٤) فيئنا: عطفنا وبرنا، لسان العرب (١/ ١٢٦).
(٥) إبَّانه: حينه، القاموس المحيط ١٥١٥ .
(٦) تجمير الجيش: هو حبس الأمير للجيش فى الثغر وعدم السماح بالعودة.
(٧)، (٨) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٧) .
(٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٤).
(١٠) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٥)

البصرة عند قدوم زياد، يرده حقيقة ما كانت عليه البصرة منذ تأسيسها فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث بنيت لتكون قاعدة تنطلق منها الجيوش الإسلامية لمواصلة الفتح ونشر الإسلام فى ربوع البلاد المفتوحة، ومن أجل هذه الغاية استوطن البصرة أكثر من خمسين ومائة صحابى، حملوا على عواتقهم مهمة الدعوة إلى الله وتعليم الناس أمور دينهم، فأنَّى لهذه المنكرات أن تنبت وتنتشر فى مجتمع عماده الصحابة والتابعون دون أن ينكروه، كذلك فإن وجود الخوارج فى البصرة وما عرف عنهم من الاستعجال والاندفاع فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دليل آخر على انتفاء وجود هذه المنكرات فى مجتمع البصرة وبالحجم الذى ورد فى خطبة زياد[1].

- ومن التناقضات الواردة فى الخطبة: قول زياد: وإياى ودعوى الجاهلية، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه[2]. مع أنه ذكر فى موضع آخر من الخطبة نقيض ذلك وهو قوله: وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح منكم بالسقيم[3]. وورد فى الخطبة قول زياد: إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه[4]. لكنه عاد فى موضع آخر من الخطبة لينقض ما ذكره آنفًا فقال: لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقًا بليل[5]. وهذه التناقضات الواردة فى الخطبة يستغرب صدورها من زياد مع ما عرف عنه من البلاغة والفصاحة، وهذا يقودنا إلى قضية أخرى وهى احتمال كون النص الذى بين أيدينا عن خطبة زياد عند مجيئه إلى البصرة عبارة عن أكثر من خطبة تم دمجها فى سياق واحد. ويؤيد ذلك ثناء عبد الله بن الأهتم والأحنف بن قيس على زياد بعد انتهاء الخطبة مع أن الخطبة تستوجب النقد وليس الثناء، لما فيها من تقديم حكم الجاهلية على حكم الله[6]. وعن الشعبى قال: ما سمعت متكلمًا قد تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا أن يسىء إلا زياداً، فإنه كان كلما أكثر كان أجود كلامًا[7]. وهذا الثناء من الشعبى على زياد يقوى الشك حول خطبة زياد البتراء التى سبق الحديث عنها فى الرواية السابقة[8].

---

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٤).
(٢)، (٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٥).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ١٣٦).
(٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٦).
(٧) المنتظم لابن الجوزى (٥/ ٢١٢).
(٨) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٤٧).

هـ - **استعانة زياد بصحابة رسول الله:** استعان زياد بعدة من أصحاب النبى ﷺ، منهم عمران بن الحصين الخزاعى[1]، ولاه قضاء البصرة، والحكم بن عمرو الغفارى[2]، ولاه خراسان، وسمرة بن جندب، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سمرة، فاستعفاه عمران فأعفاه، واستقضى عبد الله بن فضالة الليثى[3]، ثم أخاه عاصم بن فضالة[4]، ثم زرارة بن أوفى الحرشى[5]، وكانت أخته لبابة عند زياد[6].

و- **من سياسة زياد فى العراق:** يعتبر زياد بن أبى سفيان عامل معاوية على البصرة والكوفة بعد عبد الله بن عامر والمغيرة بن شعبة، هو الذى قام بمعظم الإصلاحات الضرورية فى ذلك الجناح الشرقى من الدولة الأموية وكان هذا الرجل يتمتع بقدرة إدارية فائقة[7]. وقد استن زياد عدة قوانين وتنظيمات وقام بكثير من الإصلاحات فى البصرة أولاً (٤٥ - ٥٠هـ) ثم فى الكوفة بعد أن جُمعت المدينتان تحت إمرته فى ولاية واحدة وذلك منذ سنة ٥٠هـ وحتى سنة ٥٣هـ. فبنى دار الرزق فى البصرة[8]، وهى شبيهة بمخزن المؤن فى أيامنا هذه، فكان الأهالى يتمونون منها، وعين أشخاصًا يشرفون عليها منهم: عبد الله بن الحارث بن نوفل، وروَّاد بن أبى بكرة. كما عين الجَعْد بن قيس النّمرى مشرفًا على السوق ومراقبًا على أسعار المواد الغذائية فيه[9]. وكان يعطى قروضًا للتجار إذا ما ارتفعت الأسعار كى يحثهم على المحافظة على سعر السلعة أو بزيادة بسيطة. وإذا ما تحقق ذلك وتوفرت الحاجات: ارتجع ماله[10].

وترك زياد الناس فى البصرة أخماسًا، أما الكوفة فقد قسمهم إلى أرباع[11]، بدل الأسباع. واختار عريفًا لكل قسم يقوم بمهمة توزيع الأعطيات على أفراد عشيرته، كما أنه كان مسئولاً أمام زياد عما يحدث فى ناحيته، فيقوم بإرسال

(١) مات بالبصرة عام سنة ٥٢هـ بالبصرة، أخرج له الستة، التقريب ٤٢٩ .
(٢) مات بمرو عام ٥٠هـ، أخرج له البخارى والأربعة ابن حجر، التقريب ١٧٥ .
(٣) ابن حجر، التقريب ٣١٧ .
(٤) الإصابة (٣/ ٥٧٤) .
(٥) توفى وهو يصلى سنة ٩٣هـ ،التقريب لابن حجر ٢١٥ .
(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٣٧٠).
(٧) خلافة معاوية بن أبى سفيان للعقيلى، ص (٨٦).
(٨) أنساب الأشراف (٤/ ٣١٤)، خلافة معاوية، ص (٨٧).
(٩) خلافة معاوية، ص (٨٧) نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ٢١٢، ٢١٧).
(١٠) أنساب الأشراف (٤/ ٢٣٧).
(١١) تقسيم يتعلق بالقبائل.

التقارير بما حصل فيهـا أولاً بأول إلى زياد، واستطاع أن يضبط الأمور فى المدينتين برجـال من أهلها، وأصـدر زياد أوامره بألاَّ يدخل أو يخـرج أحد من الكـوفة أو البصـرة بعد صلاة العشـاء، وأوقع القصاص بالسارق وقـاطع الطريق، فعمَّ الأمن والطمأنينة بحيث إن المرأة كـانت تنام وباب بيتها مفتـوح، وإن الشيء ليسقط على الأرض فيظل ملقى دون أن يحـركه أحد[1]. ونظم العطاء من الديوان فحذف منه أسماء الذين توفوا ومن كان غائبًـا عن قطره ومن كان عابثًا بالأمن، فكان إذا جاء شعبان أخرج أعطية المقاتلة فمـلأوا بيوتهم من كل حُلْو وحامض واستقبلوا رمضان بذلك، وإذا كان ذو الحجـة أخرج أعطية الذرية[2]. ويشير البلاذرى إلى أنه: كان لكل عـيِّل جريبـان ومائة درهم، ومـعونـة الفطر خمـسون، ومـعونة الأضـحى خمسون[3]، واختار زياد حوالى خمسمـائة رجل من أهل البصرة ليعملوا كحرس خاص له، وكذلك حماية الأماكن الهـامة وأعطى لكل واحد منهم ما بين ثلاثمائة إلى خمسمائة درهم، وأسند قيادتهم إلى شيبان بن عبد الله السعدى[4]، وبنى زياد مسـاجد عـديدة، منها: مـسجـد بنى عدى، ومـسجـد بنى مجـاشع، ومسـجد الأساورة. وكان لا يدع أحدًا يبنى بقرب مسجد الجماعة مسجدًا، فكان مسجد بنى عدى أقربها منه[5]. ويذكر ابن الفقيه: إن زيادًا بنى سبـعة مساجد فلم يُنسب إليه شيء منها، وأن كل مسـجد بالبصرة كانـت رحبته مستـديرة فإنه من بناء زياد[6]. وزاد زياد فى مسجد البـصرة زيادة كثيرة، وبناه بالآجر والجص، وسـقفه بالساج، وبنى منارته بالحجارة[7].

وكان يهتم بنظافة المدينة ويعتبر الأفراد مسئولين على نظافة بيوتهم ويعاقب من يهمل ذلك، فقد كان يأخذ صاحب كل دار بعد المطر إذا أضحت برفع ما بين يدى فنائه من الطين، فمن لم يفعل أمـر ذلك الطين فألقى فى مجلسه، وكان يأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات، ثم أنه اشترى عبيدًا ووكلهم فكانوا يلمونه[8]. فهـذه الرواية تشير إلى وجود مـوظفين مهمـتهم

(١) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلى، ص (٨٨).
(٢) أنساب الأشراف (٤/ ٢١٩). (٣) خلافة معاوية، ص (٨٨) نقلاً عن أنساب الأشراف (٤/ ٢٢١).
(٤) خلافة معاوية، ص (٨٩)، أنساب الأشراف (٤/ ٢٢١).
(٥) مختصر كتاب البلدان، ص (١٩١). (٦) الإدارة فى العصر الأموى، ص (١٦٠).
(٧) فتوح البلدان، ص (٣٤٦، ٣٤٧)، خلافة معاوية، ص (٨٩).
(٨) أنساب الأشراف (٤/ ٢٠٦)، الإدارة فى العصر الأموى، ص (٢١٤).

مراقبة النظافة من ناحية، كما تشير إلى أن زياداً تنبه إلى أن نظافة الطرق أمر يجب أن يتولاه أشخاص معينون فاشترى عبيداً وكل إليهم تنظيف الطرق من القذر والكناسات[1]. واهتم زياد بتقدم الزراعة وتنظيم طرق الري: فبنى السدود[2]، وحفر القنوات[3]، كما أنه كان يمنح المزارع قطعة من الأرض الزراعية، مساحتها ٦٠ جريباً ثم يدعه عامين فإن عمّرها أصبحت له، وإلا استردها منه، وأعطاها آخرين ينتظرونها[4]. ولكي يسهل الاتصال بين ضفتي نهر الفرات، فقد أصلح زياد قنطرة الكوفة وأعاد بناءها باللبن والطوب المقوّى، بعد أن كانت من أخشاب القوارب المتهالكة، وأصبحت تعرف بعد ذلك بجسر الكوفة[5].

وأما عن كيفية تصرف زياد في موارد بيت مال الولاية فيشير البلاذري إلى أن زياداً كان يجبي من كُوَر البصرة ستين ألف ألف، فيعطي المقاتلة من ذلك ستة وثلاثين ألف ألف، ويعطي الذرية ستة عشرة ألف ألف درهم، وينفق من نفقات السلطان ألفي ألف، ويجعل في بيت المال للبوائق والنوائب ألفي ألف درهم، ويحمل إلى معاوية أربع آلاف (ألف) درهم، وكان يجبي من الكوفة أربعين ألف ألف، ويحمل إلى معاوية ثُلثي الأربعة الآلاف ألف لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة. كما أن عبيد الله بن زياد، والذي خلف أباه على ولاية العراق حمل إلى معاوية ستة آلاف ألف درهم فقال معاوية: اللهم ارض عن ابن أخي[6].

٤ - ولاية سمرة بن جندب رضي الله عنه: عن جعفر بن سليمان الضبعي، قال: أقر معاوية سمرة بعد زياد ستة أشهر، ثم عزله، فكذبوا على سمرة وزعموا أنه قال: لعن الله معاوية، والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبني أبداً[7]. هذا الخبر المنسوب إلى سمرة بأنه شتم معاوية خبر مكذوب على هذه الصحابي الكريم، وفي ذلك يقول ابن كثير: وهذا لا يصح عنه[8]، كما أن معرفة ميول

---

(١) الإدارة في العصر الأموي، ص (٢١٤).

(٢) خلافة معاوية للعقيلي، ص (٨٩).

(٢) فتوح البلدان، ص (٣٥٦، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٩).

(٤) خلافة معاوية، ص (٩٠).

(٥) فتوح البلدان، ص (٢٨٥، ٢٨٦).

(٦) أنساب الأشراف (٤/٢١٨ ـ ٢١٩).

(٧) مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص (٢٦١).

(٨) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص (٢٦٢).

مصدر الخبر جعفر بن سليمان الضبعى، والذى قال عنه ابن حجر: صدوق زاهد لكنه يتشيع[1]، تبين أثر التشيع فى تشويه التاريخ الإسلامى[2].

٥- ولاية عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفى:

قال الطبرى: وفى هذه السنة - ٥٤هـ- كان عزل معاوية بن أبى سفيان لسمرة بن جندب عن البصرة، واستعمل عبد الله بن غيلان[3].

٦- ولاية عبيد الله بن زياد خراسان ثم البصرة:

قال الطبرى: وفى هذه السنة ولى معاوية عبد الله بن زياد خراسان[4]، وفى عام ٥٥هـ عزل معاوية ابن عمرو بن غيلان عن البصرة وولاها عبد الله بن زياد[5]، وأوصى معاوية عبد الله بن زياد بهذه الوصية: إنى قد عهدت إليك مثل عهدى إلى عمالى، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندى، لا تبيعن كثيراً بقليل، وخذ لنفسك من نفسك، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخفّ عليك المؤونة وعلينا منك، وافتح بابك للناس تكن فى العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزمت على أمر فأخرجه إلى الناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع، وإذا لقيت عدوك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبونك على بطنها، وإن احتاج أصحابك إلى أن تواسيهم بنفسك فآسيهم[6]. وفى رواية قال له: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئًا، فإن فى تقواه عوضًا، وقِ عرضك من أن تدنسه، وإذا أعطيت عهدًا فوف به، ولا تبيعنَّ كثيرًا بقليل، ولاَ تخرجن منك أمرًا حتى تُبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك، وإذا لقيت عدوك فكن أكثر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطمعن أحدًا فى غير حقه، ولا تؤيسن أحدًا من حق له. ثم ودعه[7].

ثانيًا: الكوفة:

١- ولاية المغيرة بن شعبة رضى الله عنه(٤١هـ): الأمير أبو عيسى، ويقال: أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد، من كبار الصحابة أولى الشجاعة والمكيدة. شهد بيعة

(١) تقريب التهذيب، ص (١٤٠).
(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٦٢).
(٣)، (٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٢).
(٥) المصدر نفسه (٦/ ٢١٧).
(٦) المصدر نفسه (٦/ ٢١٣).
(٧) المصدر نفسه (٦/ ٢١٤).

الرضوان، كان رجلاً طوالاً مهيبًا، ذهبت عينه يوم اليرموك وقيل يوم القادسية[1]. وكان يقول: أنا آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ، لما دفن رسول الله ﷺ في القبر، فألقيت خاتمي، فقلت: يا أبا الحسن، خاتمي، قال: انزل فخذه، قال: فمسحت يدي على الكفن ثم خرجت[2].

وله مواقف في الدهاء والمكر والكيد منها، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر استعمل المغيرة بن شعبة على البحرين، فكرهوه، فعزله عمر، فخافوا أن يردّه، فقال دهقانهم[3]: إن فعلتم ما آمركم لم يردّه علينا. قالوا: مُرْنا. قال: تجمعون مائة ألف حتى أذهب بها إلى عمر، وأقول: إن المغيرة اختان هذا، فدفعه إليَّ. قال: فجمعوا له مائة ألف، وأتى عمر، فقال ذلك، فدعا المغيرة، فسأله، قال: كذب، أصلحك الله، إنما كانت مائتي ألف، قال: ما حملك على هذا؟ قال: العيال والحاجة. فقال عمر للعِلْج: ما تقول؟ قال: لا والله لأصدُقَنَّك ما دفع إليَّ قليلاً ولا كثيرًا، فقال عمر للمغيرة: ما أردت إلى هذا؟ قال: الخبيث كذب عليَّ، فأحببت أن أخزيه[4].

وعن الشعبي: سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة، فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب، لا يخرج من باب إلا بمكر، لخرج من أبوابها كلها[5]، وقال الشعبي: والدهاة أربعة: معاوية وعمرو بن العاص، والمغيرة، وزياد[6]. وكان المغيرة بن شعبة من أنصار التعدد فكان يقول: صاحب المرأة الواحدة يحيض معها ويمرض معها، وصاحب المرأتين بين نارين تشتعلان[7]. فهو يدعو للزواج من ثلاث أو أربع.

وقد استعمل معاوية المغيرة على الكوفة عام ٤١هـ[8]، وقام بجهود عظيمة في قتال الخوارج، ووجد وقتًا كافيًا قام فيه بتوسيع مسجد الكوفة فجعله يتسع لأربعين ألفًا من المصلين[9]. وبقي في الولاية إلى عام ٤٩هـ وقيل ٥٠هـ، وهو الراجح وعندما مات ضم معاوية الكوفة إلى زياد، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة[10].

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢١).
(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٦).
(٣) الدِّهقان: القوى على التصرف، رئيس الإقليم.
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٦).
(٥) المصدر نفسه (٣/ ٣٠).
(٦) البداية والنهاية (١١/ ٢٢).
(٧) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣١).
(٨) تاريخ الطبري (٦/ ٨٢).
(٩) خلافة معاوية للعقيلي، ص (٨٥).
(١٠) تاريخ الطبري (٦/ ١٥٠).

٢- ولاية زياد بن أبيه على الكوفة: كان زياد على البصرة وأعمالها إلى سنة خمسين، فمات المغيرة بن شعبة بالكوفة وهو أميرها، فكتب معاوية إلى زياد بعهده على الكوفة والبصرة، فكان أول من جمع له الكوفة والبصرة، فاستخلف على البصرة سمرة بن جندب، وشخص إلى الكوفة، فكان زياد يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة(١). وقد تحدثنا عن سياسة زياد فيما سبق بالعراق وقد وصفه الذهبى فقال فيه: .. كان من نُبلاء الرجال، رأيًا، وعقلاً، وحزمًا، ودهاءً، وفطنة، وكان يضرب به المثل فى النُّبل والسؤدد، وكان كاتبًا بليغًا كتب للمغيرة، ولابن عباس وناب عنه بالبصرة(٢). وقال الشعبى: ما رأيت أحدًا أخطب من زياد(٣). وقال فيه ابن حزم: لقد امتنع زياد وهو فِقَعَةُ القاع(٤)، لا نسب له ولا سابقة، فما أطاقه معاوية إلا بالمداراة، ثم استرضاه وولاّه(٥). وقال أبو الشعثاء: كان زياد أفتك من الحجَّاج لمن يخاف هواه(٦)، وعندما استقر أمره بالعراق وتمكن منها، كتب زياد إلى معاوية: قد ضبطت لك العراق بشمالى ويمينى فارغة، فاشغلها بالحجاز... فلما بلغ ذلك أهل الحجاز أتى نفر منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، فذكروا ذلك له، فقال: ادعوا الله عليه فيكفيكموه، فاستقبل القبلة، واستقبلوها فدعوا ودعا، فخرجت طاعونة(٧) على أصبعيه، فأرسل إلى شريح(٨) -وكان قاضيه- فقال: حدث بى ما ترى، وقد أمرت بقطعها، فأشر علىَّ، فقال له شريح: إنى أخشى أن يكون الجراح على يدك، والألم على قلبك، وأن يكون الأجل قد دنا، فتلقى الله عز وجل أجذم(٩) وقد قطعت يدك كراهية للقائه، أو أن يكون فى الأجل تأخير، وقد قطعت يدك فتعيش أجذم وتعير ولدك، فتتركها، وخرج شريح فسألوه، فأخبرهم بما أشار به، فلاموه وقالوا: هل أشرت عليه بقطعها، فقال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن»(١٠). وقد مات زياد سنة ثلاث وخمسين(١١).

(١)، (٢) تاريخ الطبرى (٦ / ١٥٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣ / ٤٩٥).
(٤)، (٥)، (٦) المصدر نفسه (٣/٤٩٦).
(٧) الطاعون: الوباء.
(٨) شريح الكندى: مختلف فى صحبته، ولى القضاء فى عهد عمر حتى عصر عبد الملك، توفى سنة ٧٨هـ.
(٩) الأجذم: المقطوع اليد، أو الذاهب الأنامل.
(١٠) صحيح الأدب المفرد للألبانى ١١٣.
(١١) تاريخ الطبرى (٦/٢٠٦)

٣- ولاية عبد الله بن خالد بن أسيد: عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العيص، ولى فارس لزياد، ثم[1] استخلفه زياد على الكوفة عند مماته، وهو الذى صلى على زياد.

٤- ولاية الضحاك بن قيس الفهرى: وفى سنة ٥٥هـ عزل معاوية عبد الله بن خالد بن أسيد عن الكوفة، وولاها الضحاك بن قيس الفهرى[2].

٥ - ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الثقفى(٥٨هـ): وفى سنة ٥٨هـ ولى معاوية الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفى، وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبى سفيان، وعزل عنها الضحاك بن قيس[3].

هذا وقد قام معاوية رضى الله عنه بعزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة بسبب إقدامه على قتل أحد أهل الذمة، ودليل ذلك ما أخرجه أحمد بن حنبل، بإسناد صحيح، قال: حدثنى هارون بن معروف قال: حدثنا سفيان، عن مطرف، قال: أخبرنى ابن سعيد قال: . . ثم إن ابن الحكم عزل حين قتل ابن صلوبا[4].

٦ - ولاية النعمان بن بشير رضى الله عنه (٥٩ - ٦٠هـ): وفى سنة ٥٩هـ عزل عبد الرحمن بن أم الحكم عن الكوفة، واستعمل عليها النعمان بن بشير الأنصارى[5]. فهولاء هم ولاة الكوفة فى عهد معاوية رضى الله عنه.

ثالثًا: المدينة النبوية:

تعتبر المدينة من أهم الولايات للنفوذ الروحى والدينى على الدولة الأموية بسبب وجود الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار، ولا تكاد تنعقد البيعة إن لم يبايع أهل المدينة، إذ فيها عدد من أهل الحل والعقد، ومن يطيعهم الناس ويسيرون برأيهم[6]، وقد دخلت المدينة فى سلطان معاوية رضى الله عنه بعد عام الجماعة سنة ٤١هـ، وقد حرص معاوية على زيارتها منذ بيعته فقدم المدينة وتلقته رجال من

---

(١) نسب قريش للزبيرى، ص (١٨٧). (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٨).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٢٦).
(٤) التاريخ الكبير للبخارى (٦/ ٥٣٣)، العلل ومعرفة الرجال (٢/ ٢٤، ٢٥)، مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٢٧).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٣). (٦) التاريخ الإسلامى، العهد الأموى، محمود شاكر ص (٩٠).

وجوه قريش فقالوا: الحمد لله الذى أعزّ نصرك وأعلى أمرك، فما رَدَّ عليهم جوابًا حتى دخل المدينة، فقصد المسجد، وعلا المنبر، فحمد الله وأثنى عليه فقال: . . . ولقد رمت نفسى على عمل ابن أبى قحافة فلم أجدها تقوم بذلك ولا تقدر عليه، وأردتها على عمل ابن الخطاب، فكانت أشد نفورًا وأعظم هربًا من ذلك، وحاولتها على مثل سنيّان عثمان، فأبت على، وأين مثل هؤلاء ومن يقدر على أعمالهم، هيهات أن يدرك فضلهم أحد ممن بعدهم. . غير أنى سلكت بها طريقًا لى منفعة ولكم فيه مثل ذلك، ولكم فيه مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة، ما استقامت السيرة وحسنت الطاعة، فإن لم تجدونى خيركم، فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد علمتموه قد جعلته دُبر أذنى، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله، فارضوا منى ببعضه، وإياكم والفتنة، فلا تهموا بها، فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة[١].

ونلاحظ فى هذه الخطبة حرص معاوية رضى الله عنه على أن يكسب ودهم ويحافظ على عهده لهم، ما حافظوا على بيعتهم له[٢]. وقد هدأت المدينة بعد بيعة معاوية وأخلدت إلى السكينة، وانصرف أهلها إلى أعمالهم، وانقطع أهل العلم إلى رواية ما حفظوه من حديث رسول الله ﷺ وأغدق معاوية الأموال على سراة الناس لاستمالتهم وكان كرم هؤلاء يسع الكثير من أجل المدينة[٣]. وكان معاوية عند عهده لأهل المدينة وفيًا بالسياسة التى رسمها فى خطبته عند زيارة المدينة، وكان يقدم من الترغيب أكثر مما يعلن من الترهيب، وكان إكرامه لرجالات المدينة إكرامًا يفوق كل وصف، وما قصده أحد فى طلب إلا أعطاه. لقد كان يخص وجهاء القوم، ولكن هؤلاء كانوا موزعين لعطايا معاوية، كلما كثرت عطايا معاوية كثر إنفاقهم على أهل المدينة[٤]، فقد روى أن معاوية قضى عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدَّين الذى كانت تعطيه الناس[٥]، وبعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف، ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم، فقالت لها خادمتها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحمًا؟ فقالت: ألا ذكّرتنى[٦].

(١) البداية والنهاية (١١/٤٣٢).
(٢) المدينة فى العصر الأموى محمد شرّاب، ص (٧٠).
(٣) المصدر نفسه، ص (٧١).
(٤) المصدر نفسه، ص (٧٣).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤).
(٦) تذكرة الحفاظ ترجمة ١٣، سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٤).

وأما ولاة المدينة فهم:

١- مروان بن الحكم (٤٢ - ٤٩هـ): فى عام ٤٢هـ ولى معاوية مروان بن الحكم المدينة، فاستقضى مروان عبد الله بن الحارث بن نوفل[١].

٢- ولاية سعيد بن العاص رضى الله عنه (٤٩ - ٥٤هـ): فى سنة ٤٩هـ عزل معاوية مروان بن الحكم عن المدينة فى شهر ربيع الأول، وأمَّر فيها سعيد بن العاص على المدينة فى شهر ربيع الآخر وقيل فى شهر ربيع الأول[٢].

٣- ولاية مروان بن الحكم الثانية: (٥٤ - ٥٧هـ): فى عام ٥٤هـ عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة، واستعمل عليها مروان بن الحكم[٣].

٤- ولاية الوليد بن عتبة بن أبى سفيان: استعمل معاوية على المدينة حين صرف عنها مروان، الوليد بن عتيبة بن أبى سفيان[٤]، وكان ذلك عام ٥٧هـ[٥].

* وفاة أبى هريرة رضى الله عنه بالمدينة ٥٨هـ وقيل: ٥٩هـ:

توفى أبو هريرة رضى الله عنه فى عهد معاوية وقد تعرّض للهجوم الشرس من قبل أعداء السنة النبوية بسبب خدمته لها، فرأيت من المناسب أن أترجم لأبى هريرة وأتعرض للشبهات المثارة حوله وبيان بطلانها وزيفها.

أ- التعريف به: هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى، كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن واشتهر أبو هريرة بكنيته، حتى غلبت على اسمه فكاد ينسى، وسئل أبو هريرة: لم كنيت بذلك؟ قال: كنيت أبا هريرة لأنى وجدت هرة فحملتها فى كمى، فقيل لى: أبو هريرة. وكان يرعى غنم أهله فى صغره، ويداعب هرته وكان يقول: لا تكنونى أبا هريرة، فإن النبى ﷺ كنانى أبا هر، والذكر خير من الأنثى[٦].

ب- إسلامه: هاجر أبو هريرة من اليمن إلى المدينة ليالى فتح خيبر، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وكان قد أسلم على يد الطفيل بن عمرو فى اليمن، ووصل المدينة وصلى الصبح خلف سباع بن عرفطة الذى كان قد استخلفه رسول الله ﷺ

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧) .
(٢) المصدر نفسه (٦/ ١٤٨) .
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢١٠).
(٤)، (٥) المصدر نفسه (٦/ ٢٢٥).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٤) .

على المدينة أثناء غزوة خـيبر[1]. وقد لازم أبو هريرة النبى ﷺ إلى آخـر حياته، وقصر نفسه على خدمته، وتلقى العلم الشريف منه، فكان يدور معه ويدخل بيته، ويصاحبه فى حجه وغزوه، ويرافـقه فى حله وترحاله، فى ليله ونهاره،حتى حمل عنه العلم الغزير الطيب، فكانت صحبته أربع سنوات، وقد اتخذ الصُّفة مقامًا له، وخدم الرسول ﷺ عـلى ملء بطنه، وجعله رسول الله ﷺ عريف أهل الـصفة، فقد كان أعرف الناس بهم وبمراتبهم[2].

جـ- دعـوته لأمه للإسـلام: قال أبو هريرة رضى الله عـنه: كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت إلى رسـول الله ﷺ وأنـا أبكى، قلت: يا رسـول الله إنى كـنت أدعـو أمى إلى الإسلام فتأبى علىَّ، فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره، فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة، قال رسول الله ﷺ: اللَّهم اهد أم أبى هريرة، فخرجت مستبشرًا بدعوة رسول الله ﷺ، فلما جئت إلى الباب فإذا هو مجاف، فسمعت أمى خشف قدمى فقـالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خـضخضة الماء، قـال: فاغتـسلت ولبست درعها وعجلت عن خـمارها ففتحت الباب، ثم قـالت: أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهـد أن محمـدًا عبده ورسـوله. قال: فرجـعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيـته وأنا أبكى من الفرح، قـال: قلت: يا رسول الله أبشـر، قد استـجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة، فحمد الله وأثنى عليـه وقال خيرًا. قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: اللَّهم حبب عُـبيدك هذا - يعنى أبا هريرة - وأمه إلى عبـادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين. فما خلق مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحبنى[3].

د- عبـادة أبى هريرة رضى الله عنه وأسرته: كان أبو هريرة رضى الله عنه ورعًا، ملتزمًا سنة الرسول ﷺ، يحذر الناس فى الانغماس فى ملذات الدنيا، وشهواتها،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٥) .

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٧٦)، السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب، ص (٤١٢).

(٣) مسلم رقم ٢٤٩١، بر الوالدين، أم حفص الشويحى، ص (٣٥).

ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا يفرق فى ذلك بين غنى ولا فقير، أو بين أمير وحقير، وأخباره فى هذا الصدد كثيرة، وكان يخشى الله كثيراً فى السر والعلن، ويذكر الناس به، ويحثهم على طاعته[1]، وكان عابداً، يصوم النهار ويقوم الليل، ويتناوب قيامه هو وزوجته، وابنته[2]، وكان يهتم بعمران بيته بعبادة الله تعالى، فعن أبى عثمان النهدى قال: تضيَّفت ابا هريرة سبعًا، فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثًا: يصلى هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلى هذا ثم يوقظ هذا.[3] فبيت أبى هريرة إشراقة مضيئة تبين لنا بيوت المسلمين فى ذلك العهد، فهو بيت عامر بالصلاة طوال الليل، فأين تجد الشياطين لها مكانًا فى هذا البيت؟ إنها تربية عالية على التقوى والعمل الصالح من الحافظ الكبير والعالم الربانى أبى هريرة رضى الله عنه، واستجابة كريمة من امرأة طاهرة زكية، وخادم صالح مطيع. إن أبناء الدنيا حينما يكلفون خدمهم بعمل كبير، فإنما يكلفونهم بأعمال الدنيا، ويرون أنه لا مصلحة لهم بتكليفهم بعمل الآخرة، أما أبناء الآخرة فإنه من كمال سرورهم أن يروا خدمهم يجتهدون فى أعمال الآخرة، لأنهم يكسبون بذلك أجراً على حسن توجيههم[4].

هـ- فقره وعفافه: كان أبو هريرة أحد أعلام الفقراء والمساكين، صبر على الفقر الشديد حتى أنه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع، يطوى نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم صلبه[5]، قال سعيد بن المسيب - رحمه الله -: رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق، ثم يأتى أهله فيقول: هل عندكم من شىء؟ فإن قالوا: لا قال: فإنى صائم[6]، وكان قنوعًا راضيًا بنعم الله، فإذا أصبح لديه خمس عشرة تمرة أفطر على خمس، وتسحر على خمس، وأبقى خمس لفطره[7]، وكان كثير الشكر لله، كثير الحمد والتسبيح والتكبيرعلى ما أتاه الله من فضل وخير[8].

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣٨) .
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٣٧٨) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٩) .
(٤) التاريخ الإسلامى للحميدى (١٩/ ٢١٥).
(٥) السنة قبل التدوين، ص (٤١٣).
(٦) حلية الأولياء (٣/ ٣٣٨١).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٥) .
(٨) تاريخ الإسلام (٢/ ٣٣٥)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣٩، ٤٤٠) .

و- **حلمه وعفوه**:كانت عند أبى هريرة زنجية قد غمتهم بعملها، فرفع يومًا السوط ثم قال: لولا القصاص يوم القيامة لأغشينك به، ولكن سأبيعك ممن يوفينى ثمنك أحوج ما أكون إليه، اذهبى فأنت حرة لله عز وجل(١)، وهكذا يوازن أبو هريرة رضى الله عنه بين قدرته على تلك الخادمة وقدرة الله تعالى عليه، فيفضل اتقاء سخط الله سبحانه وتعالى وعذابه على تنفيذ مقتضى سخطه هو، فيتورع عن عقوبة تلك الخادمة ويحسن إليها بدلاً من إساءتها، بإعتاقها لوجه الله عز وجل، وبهذا يكون قد جمع بين عدد من الأعمال الصالحة: خشية الله تعالى، والعفو عن المسيء، والإحسان إليه، وهذا يبين لنا عمق تصور الصحابة رضى الله عنهم للحياة الآخرة واستحضارهم رقابة الله تعالى وسعيهم الحثيث لبلوغ رضاه(٢).

ز- **ولايته على البحرين فى عهد عمر رضى الله عنه**:كان رسول الله ﷺ قد أرسل أبا هريرة مع العلاء الحضرمى إلى البحرين، لينشر الإسلام، ويفقه المسلمين، ويعلمهم أمور دينهم، فحدث عن رسول الله ﷺ وأفتى الناس، وفى عهد عمر رضى الله عنه استعمله على البحرين فقدم بعشرة آلاف، فقال له عمر: استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة: لست بعدو الله وعدو كتابه، ولكنى عدو من عاداهما، قال: فمن أين هى لك؟ قال: خيل نتجت، وغلة رقيق لى، وأعطية تتابعت عليّ. فنظروا فوجدوا كما قال(٣)، وقد قاسمه عمر رضى الله عنه مع جملة من قاسمهم من العمال، وكان أبو هريرة يقول: اللَّهم اغفر لأمير المؤمنين(٤)، وبعد ذلك دعاه عمر ليوليه، فأبى، فقال: تكره العمل وقد طلب العمل من كان خير منك، يوسف عليه السلام، فقال: يوسف نبى ابن نبى، وأنا أبو هريرة ابن أميمة وأخشى عملكم ثلاثًا واثنتين، فقال: فهل قلت خمسًا، قال: لا. أخاف أن أقول بغير علم وأقضى بغير حلم، وأن يضرب ظهرى، وينزع مالى، ويشتم عرضى(٥).

ح- **اعتزاله الفتن**:كان أبو هريرة يوم حصار عثمان رضى الله عنه عنده فى الدار مع بعض الصحابة وأبنائهم، الذين جاءوا ليدفعوا الغوغاء عنه، وقد حفظ ولد

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٥) .
(٢) التاريخ الإسلامى للحميدى (١٧/ ٢٣) .
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٧) .
(٤) طبقات ابن سعد (٤/ ٦٠)، السنة قبل التدوين، ص (٤١٦).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٤١)، السنة قبل التدوين، ص (٤١٦).

عثمان له يده واحترموه حتى أنه لما مات أبو هريرة كانوا يحملون سريره حتى بلغوا البقيع(١)، وقد اعتزل أبو هريرة رضى الله عنه الفتن بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه(٢).

ط- مرحه ومزاحه: كان أبو هريرة رضى الله عنه حسن المعشر، طيب النفس، صافى السريرة، كان يحب الفكاهة والمزاح، ومع هذا كان يعطى كل شىء حقه، فقد نظر إلى الدنيا بعين الراحل عنها، فلم تدفعه الإمارة إلى الكبرياء، بل أظهرت تواضعه، وحسن خلقه، فربما استخلفه مروان على المدينة، فيركب حمارًا قد شدَّ عليه بَرْذعة وفى رأسه خلبة من ليف، يسير فيلقى الرجل، فيقول: الطريق قد جاء الأمير(٣). ويمر أبو هريرة فى السوق، يحمل الحطب على ظهره - وهو يومئذ أمير لمروان - فيقول لثعلبة بن أبى مالك القرظى: أوسع الطريق للأمير يا ابن مالك، فيقول: يرحمك الله يكفى هذا!! فيقول أبو هريرة: أوسع الطريق للأمير والحزمة عليه(٤). وكان يحب إدخال السرور إلى نفوس الأطفال، فقد يراهم يلعبون بالليل لعبة الأعراب، فلا يشعرون به حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجليه كأنه مجنون فيفزع الصبيان منه ويفرون(٥)، هاهنا وهاهنا يتضاحكون(٦). قال أبو رافع: وربما دعانى أبو هريرة إلى عشائه فى الليل، فيقول: دع العُراق للأمير - يعنى قطع اللحم - فانظر فإذا ثريد بزيت(٧).

ى- **حياته العلمية**: صحب أبو هريرة رسول الله ﷺ أربع سنوات، وسمع منه كثيرًا، وشاهد دقائق السنة، ووعى تطبيق الشريعة، وكان همه طلب العلم، وأمله التفقه فى الدين(٨)، وكان حفظ أبى هريرة الخارق من معجزات النبوة(٩)، فعن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: **ألا تسألنى من الغنائم التى يسألنى أصحابك؟** قلت: أسألك أن تعلمنى مما علمك الله، فنزع نمرة كانت على ظهرى، فبسطها بينى

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٢٣). (٢) السنة قبل التدوين، ص (٤١٧).
(٣) طبقات ابن سعد نقلاً عن السنة قبل التدوين، ص (٤١٨).
(٤)، (٥) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٦). (٦) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٨) فى الحاشية.
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٨). (٨) السنة قبل التدوين، ص (٤٢٠).
(٩) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٤).

وبينه، حتى كأنى أنظر إلى النمل يدب عليها، فحدَّثنى حتى إذا استوعبت حديثه، قال: اجمعها فصُرْها إليك. فأصبحت لا أسقط حرفًا مما حدّثنى[1].

وكان يقول رضى الله عنه: إنّكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يُحدِّثون مثله، وإن إخوانى من المهاجرين يشغلهم الصَّفق فى الأسواق، وكان إخوانى من الأنصار يشغلهم عمل أموالهم، وكنت امرأ مسكينًا من مساكين الصفة، ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطنى فأحضر حين يغيبون، وأعى حين ينسون، وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث يحدثه يومًا: إنَّه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى جميع مقالتى، ثم يجمع إليه ثوبه، إلا وعى ما أقول. فبسطت نمرة علىَّ، حتى إذا قضى مقالته، جمعتها إلى صدرى. فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ من تلك شيئًا[2]، وفى رواية: إنه حدثنا يومًا فقال: من يبسط ثوبه حتى أقضى مقالتى، ثم قبضه إليه، لم ينس شيئًا سمع منى أبدًا. ففعلت فوالذى بعثه بالحق، ما نسيت شيئًا سمعته منه[3]. وعن أبى هريرة، قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: لقد ظننت يا أبا هريرة لا يسألنى عن هذا الحديث أحدٌ أوّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، إن أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من نفسه[4].

وكان أبو هريرة حافظًا متقنًا، ضابطًا لما يروى، دقيقًا فى أخباره، فقد اجتمعت فيه صفتان عظيمتان تكمل إحداهما الأخرى، الأولى: سعة علمه وكثرة مروياته، والثانية: قوة ذاكرته وحسن ضبطه. وهذا غاية ما يتمناه أولو العلم[5]. ويذكر لنا أبو الزعيزعة كاتب مروان ما يثبت إتقانه وحفظه فيقول: دعا مروان أبا هريرة فجعل يسأله، وأجلسنى خلف السرير، وجعلت أكتب عنه، حتى إذا كان رأس الحول، دعا به، فأقعده من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدم ولا أخر[6]. ولم يكن أبو هريرة راوية للحديث فقط، بل كان من رؤوس العلم فى زمانه، فى القرآن والسنة والاجتهاد، فإن صحبته وملازمته لرسول الله ﷺ أتاحت له أن يتفقه فى الدين، ويشاهد السنة العملية، عظيمها

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٤) رجاله ثقات.
(٢) مسلم رقم ٢٤٩٢.
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٥)، مسلم رقم ٢٢٩٤.
(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٦) إسناده صحيح
(٥) السنة قبل التدوين، ص (٤٢٧).
(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٨).

ودقيقها، فتكونت عنده حصيلة كثيرة من الحديث الشريف. كل ذلك هيأ أبا هريرة لأن يفتى المسلمين فى دينهم نيفًا وعشرين سنة والصحابة كثيرون آنذاك(١).

ك- أصح الطرق عن أبى هريرة فى الحديث عن رسول الله: حُكى عن ابن المدينى أن من أصح الأسانيد إطلاقًا حماد بن يزيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة(٢)، وأصح ما روى من الحديث عن أبى هريرة ما جاء عن:

- الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة.
- أبو الزناد عن الأعرج - عبد الرحمن بن هرمز - عن أبى هريرة.
- مالك عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- معمر عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة(٣).

* الرد على الشُبه التى أثيرت حول أبى هريرة رضى الله عنه:

كتب بعضِ أهل الأهواء قديمًا فى الطعن فى أبى هريرة، وتابعهم فى هذا العصر بعض المستشرقين أمثال (جولد تسهير) و(شبرنجر) فى الطعن فى أبى هريرة رضى الله عنه بالظلم والبهتان، وكتب عبد الحسين شرف الدين العاملى الشيعى كتابًا تحت عنوان (أبو هريرة) وافترى فيه على أبى هريرة افتراءات يندى لها جبين العلم وتخز ضمير العلماء، وتجرح الحق، ولا تلتقى معه، حتى انتهى إلى تكفير أبى هريرة(٤)، وقد استقى من هذا الكتاب أبو رية صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية. فكان أشد على أبى هريرة من أستاذه وأكثر ضلالاً وزيفًا، وأهم هذه الشبهات التى ألصقت بأبى هريرة رضى الله عنه:

أ - عمر وأبو هريرة رضى الله عنهما: اتهم عبد الحسين شرف الدين وأبو رية(٥) أبا هريرة بأنه سرق عشرة آلاف دينار حينما ولى البحرين لعمر، فعزله وضربه

(١) السنة قبل التدوين، ص (٤٢٨).
(٢) السنة قبل التدوين، ص (٤٣٤).
(٣) المصدر نفسه، ص (٤٣٥).
(٤) المصدر نفسه، ص (٤٣٧).
(٥) أبو هريرة لعبد الحسين، ص (١٤، ١٥)، أضواء السنة المحمدية، ص (١٩٢).

بالدرة حتى أدماه، لقد ذكرت جميع الروايات المعتمدة أن عمر رضى الله عنه قاسمه ماله، كما قاسم غيره من الولاة[1]، وليس فيها أنه ضربه حتى أدماه، وكان أبو هريرة يقول: اللَّهم اغفر لأمير المؤمنين فلم يحقد على عمر رضى الله عنه مع أنه يعلم أن ما قاسمه إياه إنما هو عطاياه وأسهمه وغلة رقيقه، ولو أن عمر شك فى أمانة أبى هريرة بعض الشك لحاكمه وعاقبه العقوبة الشرعية، ولكنه عرف فيه الأمانة والإخلاص فعاد إليه بعد حين يطلبه للولاية فأبى أبو هريرة قبولها كما أسلفنا. هذا وجه الحق الذى أخفاه عبد الحسين وأبو رية، فعبد الحسين نقل رواية واحدة عن العقد الفريد لابن عبد ربه[2]، حيث وجد فيها ما يوافق هواه واكتفى أبو رية بالنقل عن عبد الحسين من غير أن يشير إلى المصدر ومن غير بحث أو مقارنة وتمحيص[3]. وهذا يدل على حرصهم على التزوير والإخلال بالأمانة العلمية.

ب - هل تشيع أبو هريرة للأمويين؟ ووضع أحاديث فى ذم على وأبنائه؟ وقد اتهمه عبد الحسين بأنه دعاية الأمويين فى سياستهم، فتارة يفتئت الأحاديث فى فضائلهم. وتارة يلفق أحاديث فى فضائل الخليفتين نزولاً على رغائب معاوية وفئته الباغية[4]. وجمع أبو رية فى هذا الموضوع كل شتائم كتب الشيعة فى أبى هريرة ونبش الأكاذيب والافتراءات على صحابة رسول الله واعتمد الكتب التى لم يعرف مؤلفوها بالصدق ولا بالتمحيص فى الرواية أو التى عرف مؤلفوها بالبغض القاتل لأبى هريرة، والعقيدة التى ندين بها أن أبا هريرة رضى الله عنه كان محبًا لآل بيت رسول الله ﷺ، روى فى فضائل الحسن والحسين أكثر من حديث[5]، ولم يناصب أهل البيت العداء قط ومشهور عنه أنه تمسك بسنة رسول الله ﷺ، فكان يحب من أحبه رسول الله ﷺ، ومن العجيب أن يدعى إنسان نهل عن العلم بعضه أن أبا هريرة يكره عليًا وأهله رضى الله عنهم[6]، وقد كتب الأستاذ عبد المنعم صالح العزى كتابه القيم فى الدفاع عن أبى هريرة، وبين حبه لعلى

(١) تاريخ الإسلام (٢/ ٣٣٨)، حلية الأولياء (١/ ٣٨٠) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٧).
(٢) السنة قبل التدوين، ص (٤٣٨).
(٣) المصدر نفسه، ص (٤٣٩).
(٤) أبو هريرة لعبد الحسين، ص (٣٥).
(٥) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، ص (٣٥٣، ٣٥٤).
(٦) البرهان فى تبرئة أبى هريرة من البهتان، ص (١٢٧).

وفاطمة رضى الله عنهما وبين بأنه يروى منقبة على يوم خيبر، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله قال يوم خيبر: **لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه** - ثم روى إعطاءه إياها[1]، أفهذه رواية كاره لأمير المؤمنين على رضى الله عنه[2]. وفى مناقب فاطمة رضى الله عنها يروى أبو هريرة قول النبى ﷺ: **إن فاطمة سيدة نساء أمتى**[3]، وروى أبو هريرة أحاديث فى حب الحسن بن على، وله معه وقائع وأخبار تدل على حب عظيم كان يكنه للحسن[4]. ويروى لنا أبو هريرة صورة لحبه للحسن رضى الله عنه مع النبى ﷺ فيقول: لا أزال أحب هذا الرجل بعد ما رأيت رسول الله ﷺ، وهو يدخل أصابعه فى لحية النبى ﷺ، والنبى يدخل لسانه فى فمه، ثم قال: **اللّهم إنى أحبه فأحبه**[5]. فلا غرابة بعد هذا الحب أن رأينا أبا هريرة يبكى يوم يموت الحسن ويدعو الناس إلى البكاء[6]، يقول: من حضر ذاك اليوم: رأيت أبا هريرة قائمًا على المسجد يوم مات الحسن يبكى وينادى بأعلى صوته: يا أيها الناس، مات اليوم حب رسول الله ﷺ فابكوا[7]، ولم يكن حب الحسين بن على أقل ظهوراً عند أبى هريرة من حب الحسن، إذ ينقل لنا حادثة أخرى للنبى ﷺ فيقول: ما رأيت الحسين بن على إلا فاضت عينى دموعًا، وذاك أن رسول الله ﷺ خرج يومًا فوجدنى فى المسجد، فأخذ بيدى واتكأ على، فانطلقت معه حتى جاء سوق بنى قينقاع، قال: وما كلمنى فطاف ونظر، ثم رجع ورجعت معه فجلس فى المسجد واحتبى، وقال لى: **ادع لى لكاع**، فأتى حسينٌ يشتد حتى وقع فى حجره ثم أدخل يده فى لحية رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يفتح فم الحسين فيدخل فاه فيه ويقول: **اللَّهم إنى أحبه فأحبه**[8]. والقصة هذه رواها البخارى وفيها أنه الحسن لا الحسين، لكن الحاكم أشار إلى أن كلا الروايتين محفوظة واردة، وذلك محتمل، لأن فيها ذكر الرجوع إلى المسجد[9]، ولقد أثبت عبد المنعم العزى فى كتابه أقباس

---

(١) مسلم . (٢) الأدلة الباهرة على نفى البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة صـ١٣٣ .

(٣) التاريخ الكبير للبخارى (١/ ٢٣٢) بسند موصول.

(٤) الأدلة الباهرة، ص (١٣٤). (٥) المستدرك (٣/ ١٦٩) بسند صحيح .

(٦) الأدلة الباهرة، ص (١٣٥). (٧) التهذيب (٢/ ٣٠١) .

(٨) المستدرك (٣/ ١٧٨).

(٩) الأدلة الباهرة على نفى البغضاء بين الصحابة والعترة الطاهرة، ص (١٣٥).

من مناقب أبى هريرة بالدلائل القطعية الكافية اعتداد أبناء على رضى الله عنهم بحديث أبى هريرة، وروايتهم عنه، ورواية كبار فرسان على وأمراء جنده، الذين قاتلوا معه فى معارك الجمل وصفين والنهروان عن أبى هريرة، ورواية جمهرة من التابعين عنه ممن لاقوا عليًا رضى الله عنه ورووا عنه، ورواية عدد كبير آخر من جماهير الشيعة والكوفيين ومحبى ذرية على من طبقة أتباع التابعين والطبقة التى تليهم لحديث أبى هريرة، واستعماله له، واستدلالهم به، وتدوينه فى كتبهم(١).

إن الحقيقة العلمية التاريخية تقول: لا يوجد أى دليل يعتمد عليه فى تشيع أبى هريرة للأمويين، أو محاربته وعداوته لعلى وأبنائه، وإنما ظلم وافتراء واختلاق على الحقيقة، وإنما ما نسب إليه من أحاديث فى مدح الأمويين، إنما هى ضعيفة وموضوعة عليه وأهل الخبرة فى هذا الشأن بينوا الكذابين والواضعين لها(٢).

وأما دعوى كون الدولة الأموية وضعت أحاديث لتعمم بها رأيًا من آرائها، فهذه دعوى لا وجود لها إلا فى خيال الكذّابين، فما روى لنا التاريخ أن الحكومة الأموية وضعت أحاديث، ونحن نسأل من زعم ذلك أين هى تلك الأحاديث التى وضعتها الحكومة؟ إن علماءنا اعتادوا ألا ينقلوا حديثًا إلا بسنده، وها هى أسانيد الأحاديث الصحيحة محفوظة فى كتب السنة، ولا نجد حديثًا واحدًا من آلافها الكثيرة فى سنده عبد الملك أو يزيد أو الوليد أو أحد عمالهم كالحجاج وخالد القسرى وأمثالهم، فأين ضاع ذلك فى زوايا التاريخ لو كان له وجود؟ وإذا كانت الحكومة الأموية لم تضع بل دعت إلى الوضع، فما الدليل على ذلك؟(٣)، وأما ما زعمه عبد الحسين وأبو رية بأن أبا هريرة كذب على رسول الله إرضاء للأمويين ونكاية بالعلويين(٤)، فأبو هريرة من كل هذا براء، ولكنهما أوردا أخبارًا ضعيفة وموضوعة لا أصل لها(٥)، وكل ما كان فى هذا الشأن وما جاءنا من هذه الأخبار الباطلة إنما كان عن طريق أهل الأهواء الداعين إلى أهوائهم، المتعصبين لمذاهبهم،

---

(١) أقباس من مناقب أبى هريرة، عبد المنعم العزى، ص (١٢٧ - ١٤٩).

(٢) البرهان فى تبرئة أبى هريرة من البهتان، ص (١٢٨).

(٣) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، ص (٢٠٣).

(٤) أبو هريرة عبد الحسين، ص (٣٥)، أضواء على السنة، ص (١٩٠).

(٥) السنة قبل التدوين، ص (٤٤١).

فتجـرؤوا على الحق، ولم يعرفوا للصحـبة حرمتهـا، فتكلموا فى خيـار الصحابة واتهموا بعـضهم بالضلال والفسق، وقـذفوا بعضهم بالكفر وافـتروا على أبى بكر وعمر وعثـمان وغيرهم[1]. ولقد كشف أهل الحديث عن هؤلاء الكذبة، وكشف الله بهم أمر هذه الفـرق وأماط اللثام عن وجـوه المتسترين وراءها فكان أصـحاب الحديث هم جنود الله عز وجل، بينوا حقيـقة هؤلاء، وأظهروا نواياهم وميولهم، فما من حديث أو خبر يطعن فى صحـابى أو يشكك فى عقيدة، أو يخالف مبادئ الدين الحنيف إلا بيَّن جـهابذة هذا الفن يد صانعـه، وكشـفوا عن علته، فـادعاء هؤلاء مردود حتى يثـبت زعمهم بحجـة صحيحة مـقبولة، وكيف نتصـور معاوية يحرض الصحابة على وضع الحديث كـذبًا وبهتانًا وزورًا، ليطعنوا فى أمير المؤمنين على رضى الله عنه[2]، وقد شهـد علماء الأمة من الصحابة والتـابعين على عدالة معاوية، وقد بين مواقفه من أمير المؤمنين على رضى الله عنه ولم يذكر فى مصدر موثوق به ما يدل على أن عليًا رضى الله عنه كذّب أبا هريرة أو نهاه عن الحديث، ولكن بعض أعداء أبى هريرة يستشهدون برواية مكذوبة عن أبى جعفر الإسكافى، وهى أن عليًا لما بلغه أبو هريرة قال: ألا إن أكـذب الناس - أو قال أكذب الأحياء على رسـول الله - أبو هريرة الدوسى[3]. فـهـذه رواية مـردودة لا نقـبلهـا عن الإسكافى، لأنه شيعى محترف، ومـعتزلى ناصب أهل الحديث العداء[4]، وقد رد ابن قتيبة على جميع ما ألصقوه بالإمام على طعنًا فى أبى هريرة[5].

جـ- كثرة حديثه: أخذ النظام المعتزلى على أبى هريرة كـثرة حديثه وتابعه بعض المعتزلـة قديمًا ومنهم بشر المريسى، وأبو القـاسم البلخى، وقد ردّ ابن قتيـبة على النظَّام فى كتـابه (تأويل مختلف الحديث)، ولقـيت هذه الشبهة صـدى فى نفوس بعض المتأخرين كعبـد الحسين شرف الدين الشيعى الذى سود صفـحات كثيرة من كتابه (أبو هريرة)[6]، يشكك فى مروياته ويستكثـرها، ويوهم القارىء أن ما رواه أبو هريرة أكثر مما رواه الصحابة الذين اشتغلوا بأمـور الدولة وسياستها، ويثير هذه

(١) العواصم من القواصم، ص (١٨٢، ١٨٣)، السنة قبل التدوين، ص (٤٤٣).
(٢) السنة قبل التدوين، ص (٤٤٤).
(٣) شرح نهج البلاغة (١/ ٤٦٨).
(٤) السنة قبل التدوين، ص (٤٤٣).
(٥) تأويل مختلف الحديث، ص (٢٧، ٥١) وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص (٤٦٠).
(٦) أبو هريرة، ص (٤٥) وما بعدها، السنة قبل التدوين، ص (٤٤٦).

الشبهـة نفسها أبو رية فى كتابه أضـواء على السنة المحمدية[1]، ويستشهد هؤلاء جمـيعًا بأخبـار ضعيفـة أو موضوعة أحـيانًا، وبتأويلات وموازنات باطلة أحـيانًا أخرى، وتلتقى أهواء هؤلاء بأهواء بعض المستشرقين أمثال «جـولد تسيهر» الذى اسـتكثر أيضًـا مـرويات أبى هريرة[2]، وخـلاصة أقـوالهم، أن أبا هريرة تأخـر إسلامـه، وروى عن رسول الله ﷺ (٥٣٧٤) حـديثًا، وهى أكثـر كثـيرًا مما رواه الخلفاء الأربعـة وغيـرهم من الصحابة الذيـن سبقـوه إلى الإسلام[3]، ومن الخطأ الفاحش أن يـقارن الخلفاء الراشـدون وأبو هريرة فى مجـال الحفظ وكـثرة الرواية لأسباب عديدة منها:

- صـحيح أن الخـلفاء الراشـدين الأربعـة رضى الله عنهم سـبقـوا أبا هريرة فى صحبتهم وإسلامهـم، ولم يرو عنهم مثل ما روى عنه، إلا أن هؤلاء اهتموا بأمور الدولة، وسياسة الحكم، وأنفذوا العلماء والقراء والقضاة إلى البلدان، فأدوا الأمانة التى حملوها، كما أدى هؤلاء الأمانة فى توجيـه شئون الأمة، فكما لا نلوم خالد ابن الوليد على قلة حديثه عن الرسول ﷺ لانشغاله بالفتوحات، لا نلوم أبا هريرة على كثرة حديثه لانشغاله بالعلم[4].

- انصراف أبى هريرة إلى العـلم والتعليم، واحتـياج الناس إليـه لامتداد عـمره، يجـعل الموازنة بينه وبين غيـره من الصحـابة السابقـين أو الخلفـاء الراشدين غـير صحـيحة، بل هى خطأ كبـير[5]، وكون أبى هريرة رضى الله عنه أكـثر رواية من السيدة عائشة رضى الله عنهـا لأنها كانت تفتى الناس فى دارها، وأما أبو هريرة، فقد اتخذ حلقة له فى المسجد النبوى، كما كان أكثر احتكاكًا بالناس من السيدة أم المؤمنين عائشـة بصفته رجلاً، كـثير الغدو والرواح، وأضيـف إلى هذا أن السيدة عائشـة كان جل همها مـوجهًا نحو نسـاء المؤمنين، وكان يتعذر دخـول كل إنسان عليـهـا[6]. إن نظرة مـجـردة عن الهـوى تدرك أن مـا روى عـن أبى هريرة من الأحاديث لا يثـير العجب والدهشـة، ولا يحتاج إلى هذا الشـغب الذى اصطنعه

---

(١) أضواء على السنة المحمدية، ص (١٦٠) وما بعدها.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ـ مادة حديث نقلاً عن السنة قبل التدوين، ص (٤٤٧).

(٣) السنة قبل التدوين، ص (٤٤٧).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٥٠).

(٥) المصدر نفسه، ص (٤٥١).

(٦) المصدر نفسه، ص (٤٥١).

أهل الأهواء وأعداء السنن، وإن ما رواه عن رسول الله ﷺ، سواء أسمعه منه أم من الصحابة لا يشك فيه لقصر صحبته، بل إن صحبته تحتمل أكثر من هذا، لأنها كانت فى أعظم سنوات دولة الإسلام دعوة ونشاطًا، وتعليمًا وتوجيهًا فى عهد رسول الله ﷺ(١).

- كثرة ملازمته للنبى ﷺ: فقد صحب النبى ﷺ أربع سنين، فعن أبى هريرة قال: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان فى كتاب الله، ما حدثت حديث ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٥٩، ١٦٠]. إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا الأنصار كان يشغلهم العمل فى أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون(٢).

- دعاء النبى ﷺ له فى الحفظ: فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله إنى أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه، قال: ابسط رداءك. فبسطه، قال: فغرف بيديه ثم قال: ضمه. فضممته فما نسيت شيئًا بعده(٣).

- كثرة تلامذته والناقلين عنه: فكان عدد تلامذته قريبًا من ثمانمائة(٤).

- تأخر وفاته: فقد قيل: ٥٨هـ وقيل: ٥٩هـ. ثم إن هذه الأحاديث المنقولة عنه تنقسم إلى ما يلى:

* ما كان ضعيف السند لا يصح عن أبى هريرة .

* ما كان مكررًا.

* ما كان له أكثر من إسناد.

* ما رواه عن أكابر الصحابة كالعشرة وأمهات المؤمنين وغيرهم

---

(١) السنة قبل التدوين، ص (٤٥٢). (٢) البخارى رقم ١١٨، مسلم رقم ١٥٩ .

(٣) البخارى رقم ١١٩، مسلم رقم ١٦٠ .

(٤) حقبة من التاريخ، ص (٢٢٣)، سير أعلام النبلاء (٢ / ٥٧٩).

* ما كان موقوفًـا عليه من كلامه[1]. وقد اتفق البخـارى ومسلم على إخراج ثلاثمائة وسـتة وعشـرين حديثًا، وانفـرد البخارى بثـلاثة وتسعين، وانفـرد مسلم بثـمانيـة وتسعـين، ثم إن جُلَّ الأحاديث التـى رواها أبو هريرة لم ينفرد بهـا عن رسول الله ﷺ بل شاركه فى روايتهـا غيره من الصحابة[2]، وأما اعتراض الشيعة على مروياته، فـإن جابر بن يزيد الجـعفى روى عن محـمد الباقـر رضى الله عنه سبعـين ألف حديث، وعن باقى الأئمة مائة وأربعـين ألف حديث[3]، وروى أبان ابن تغلب عن جعفر الصادق رضى الله عنه ثلاثين ألف حديث[4]، وروى محمد ابن مـسلم عن البـاقـر ثلاثين ألف حـديث، وعن الـصادق سـتـة عـشـرة ألف حديث[5]. وهذا يبين تناقضهم.

وقد شهد لأبى هريرة الصـحابة والتابعون وجهابذة العلم بقـوة الحفظ وحضور الذاكرة[6]. فقـد قال ابن عمر: يا أبا هريرة كنت ألـزمنا لرسول الله ﷺ وأعلمنا بحديثه[7]، وقال الشافعى: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره[8]. وقال الذهبى: . . سيد الحفاظ الأثبات[9]، وقال أيضًا: وأبو هريرة إليه المنتهى فى حفظ ما سمعه من رسول الله ﷺ وأدائه بحروفه[10].

وقد دافع الكثيـر من العلماء عن أبى هريرة وردوا الشبهـات التى ألصقت به ومن الكتب المعاصرة التى نسفت الأباطيل التى اتهم بها أبا هريرة، العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب[11]، وموقف المدرسة العقلية من السنة النبوية[12].

ل- بكاء أبى هريرة فى مرض موته ووصية معاوية بورثته: لما حضر أبو هريرة الموت بكى فقـيل له: ما يبكيـك؟ فقال: مـا أبكى دنياكم هذه، ولكن أبكى عـلى بعد

(١) حقبة من التاريخ، ص (٢٢٣).
(٢) المصدر نفسه، ص (٢٢٣).
(٣) خاتمة وسائل الشيعة، ص (١٥١).
(٤) رجال الكشى، ص (٩).
(٥) مشيخة الصدوق، ص (٦).
(٦) موقف المدرسة العقلية من السيرة النبوية، الأمين الصادق (٢/ ٧٤).
(٧) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤) رجاله ثقات إسناده صحيح.
(٨) المصدر نفسه (٢/ ٥٩٩).
(٩) المصدر نفسه (٢/ ٥٧٨).
(١٠) المصدر نفسه (٢/ ٦١٩).
(١١) العصرانيون، محمد حامد الناصر، ص (١١٥).
(١٢) موقف المدرسة العقلية (٢/ ٧٤).

سفرى وقلّة زادى، وإنى أصبحت فى صعود مهبط على جنة ونار، لا أدرى إلى أيِّهما يُؤخذ بى[1]. وجاء فى رواية: وصلى عليه الوليد بن عتبة بن أبى سفيان والى المدينة وفى القوم ابن عمر وأبو سعيد الخدرى وخلق، وكانت وفاته فى داره بالعقيق، فحمل إلى المدينة، فصُلِّىَ عليه ثم دفن بالبقيع - رحمه الله ورضى الله عنه - وكتب الوليد بن عتبة إلى معاوية بوفاة أبى هريرة، وكتب إليه معاوية أن انظر ورثته فأحسن إليهم، واصرف إليهم عشرة آلاف درهم، وأحسن جوارهم، وأعمل إليهم معروفًا، فإنه كان ممن نصر عثمان، وكان معه فى الدار[2].

* هل أراد معاوية أن ينقل منبر رسول الله من المدينة إلى الشام؟

ذكر الطبرى فى تاريخه فى أحاديث عام ٥٠هـ بأن معاوية أمر بمنبر رسول الله ﷺ، أن يحمل إلى الشام فحُرِّك فكسفت الشمس حتى رُئيت النجوم بادية يومئذ، فأعظم الناس ذلك، فقال: لم أرد حمله، إنما خفت أن يكون قد أرِضَ[3]، فنظرت إليه، ثم كساه يومئذ[4]، وجاء فى رواية أخرى: قال معاوية: أنى رأيت أن منبر رسول الله وعصاه[5]، لا يتركان بالمدينة، وهم قتلة أمير المؤمنين عثمان وأعداؤه، فلما قدم طلب العصا وهى عند سعد القرظى، فجاء أبو هريرة وجابر بن عبد الله، فقالا: يا أمير المؤمنين، نذكرك الله عز وجل ألا تفعل هذا، فإن هذا لا يصح، تُخرج منبر رسول الله ﷺ من موضع وضعه، وتخرج عصاه من المدينة. فترك ذلك معاوية، ولكن زاد فى المنبر ستَّ درجات، واعتذر إلى الناس[6]. وقد تحدثت الروايات السابقة عن القضايا التالية:

١ - عزم معاوية رضى الله عنه على نقل منبر رسول الله، وعصاه إلى الشام: فقد ذكره الزبير بن بكار[7]، واليعقوبى وابن الجوزى[8]، دون أن يشيروا إلى خبر

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٨٤) . (٢) المصدر نفسه (١١/ ٣٨٩) .

(٣) أى: أصابته الأرضة وهى دويبة تأكل الخشب القاموس المحيط، ص (٨٢٠).

(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٥) . (٥) كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخطب توكأ على عصا .

(٦) البداية والنهاية (١١/ ٢١٤)، تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٥).

(٧) فتح البارى (٢/ ٤٦٣) مرويات خلافة معاوية، ص (٣٨٨).

(٨) المنتظم (٥/ ٢٢٧) .

العصا، أما ابن الأثير[1]، وابن كثير[2]، فقد أورد خبر المنبر والعصا، هذا وقال الدكتور خالد الغيث: ولم أقف على رواية صحيحة تؤكد مزاعم الواقدى هذا فضلاً عن أن دين معاوية، وعدالته، وصحبته لرسول الله ﷺ تمنعه من حمل منبر رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام وهو يعلم قوله ﷺ: «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة»[3]. هذا وقد أورد عبد الرزاق[4] خبر قدوم معاوية رضى الله عنه المدينة وزيادته درجات المنبر دون الإشارة إلى إرادة معاوية نقل المنبر إلى الشام، أو أخذ العصا، وزيادة معاوية رضى الله عنه للمنبر وكسوته تعد من مناقب معاوية التى حاول بعض الأخباريين طمسها وتشويهها[5].

٢- **خبر ربط كسوف الشمس بتحريك المنبر:** فقد ذكره عبد الرزاق والزبير بن بكار[6]، وابن الجوزى[7]، وابن الأثير[8]، وابن كثير[9]، بينما ذهب اليعقوبى[10] الشيعى إلى حدوث زلزلة عند تحريك المنبر، وهذا الخبر لم يرد بإسناد صحيح، هذا فضلاً عن أن كسوف الشمس على افتراض حدوثه، فإنه لم يكن نتيجة لتحريك المنبر ليس إلا، وقد حصل ما يشبه ذلك فى عهد الرسول ﷺ، حيث أخرج البخارى من طريق المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا، وادعوا الله**»، وعن أبى بكرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد، ولكن الله تعالى يخوف بهما عباده**»[11].

٣- **اتهام معاوية رضى الله عنه ببغض أهل المدينة (الأنصار):** لكونهم قتلة عثمان ابن عفان رضى الله عنه، هذا الخبر أورده ابن الأثير[12]، وهو خبر ضعيف

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٢).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ٢١٤).
(٣) البخارى، صحيح البخارى مع الفتح (٤/ ١١٩).
(٤) المصنف (٣/ ١٨٣).
(٥) مرويات خلافات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٨٩).
(٦) فتح البارى (٢/ ٤٦٤).
(٧) المنتظم (٥/ ٢٢٨).
(٨) الكامل (٢/ ٤٨٢).
(٩) البداية والنهاية (١١/ ٢١٤).
(١٠)، (١١) البخارى: صحيح البخارى مع الفتح (٢/ ٦١٢).
(١٢) الكامل (٢/ ٤٨٢)

الإسناد[1]. وقد بينت موقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وكيف أن كعب بن مالك الانصارى حث الأنصار على نصرة عثمان رضى الله عنه، وقال لهم: يا معشر الأنصار، كونوا أنصار الله مرتين، فجاءت الأنصار عثمان، ووقفوا ببابه ودخل زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه، وقال له: هؤلاء الأنصار بالباب، إن شئت كنّا أنصار الله مرتين[2]. فرفض القتال، وقال: لا حاجة لى فى ذلك، كفُّوا[3]. وأما زعمهم أن معاوية يبغض الأنصار رضى الله عنهم لكونهم قتلة عثمان رضى الله عنه، فمردود بما ورد من حقيقة موقف الأنصار من عثمان رضى الله عنه، كما أن تقريب معاوية للأنصار وتوليته إياهم فى مناصب هامة وحساسة يرد هذه الفرية، ومن الشواهد على ذلك:

١- توليته فضالة بن عبيد الأنصارى رضى الله عنه قضاء دمشق[4]، وتوليته إياه منصب أمير البحرية الإسلامية فى مصر[5].

٢- تعيينه النعمان بن بشير الأنصارى رضى الله عنه أميرًا على الكوفة[6].

٣- تعيينه مسلمة بن مخلد الأنصارى رضى الله عنه أميرًا على مصر والمغرب معًا[7].

٤- تعيينه رويفع بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه أميرًا على طرابلس[8].

رابعًا: مكة:

- **ولاية خالد بن العاص بن هشام رضى الله عنه:** ولى معاوية -فى سنة ٤٢هـ-. مكة خالد بن العاص بن هشام[9]، وبعد أن سمى الطبرى من ولى مكة فى سنة ٤٢هـ وسنة ٤٣هـ نجده بعد ذلك يسكت عن تسمية عمال مكة[10]، ويكتفى

---

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٩٠).

(٢) فتنة مقتل عثمان للغبان الملحق ص (٢٠٠) إسناده حسن لغيره .

(٣) مرويات خلافة معاوية ص (٣٩١) فتنة مقتل عثمان (١/ ١٦٢) .

(٤) الاستيعاب (٣/ ١٢٦٢)، الإصابة (٥/ ٣٧١) .

(٥) رياض النفوس للمالكى (١/ ٨٠).

(٦) مرويات خلافة معاوية ص (٣٩١) نقلا عن تاريخ الطبرى .

(٧) المصدر نفسه، ص (٣٩٢).

(٨) الاستيعاب (٢/ ٥٠٤) .

(٩) تاريخ الطبرى (٦/ ٨٧).

(١٠) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٧٨).

بعبارة: وكانت الولاة والعمال على الأمصار فى هذه السنة من تقدم ذكره قبل[1]، أو عبارة نحوها وقد تابعه كل من ابن الجوزى[2]، وابن الأثير[3].

خامسًا: ولاة الطائف:

لم يذكر الطبرى أسماء ولاة الطائف، لكن وردت عنده رواية تفيد تولى بعض بنى حرب الطائف، وفيما يلى نص هذه الرواية: وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلاً من بنى حرب ولاه الطائف، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها، فإن أحسن الولاية، وقام بما ولى قيامًا حسنًا جمع له معهما المدينة، فكان إذا ولى الطائف رجلاً قيل: هو أبى جاد[4]، فإذا ولاه مكة قيل: هو فى القرآن، فإذا ولاه المدينة قيل: هو قد حذق[5]. أما بالنسبة لمن ولى الطائف من بنى حرب فإن رواية الطبرى تسكت عن تسميتهم، لكن ورد عند البلاذرى ما يفيد تولية عنبسة بن أبى سفيان بن حرب وعتبة بن أبى سفيان بن حرب على الطائف[6].

سادسًا: مصر:

١- ولاية عمرو بن العاص رضى الله عنه: ولى معاوية عمرو بن العاص على مصر عام ٤١هـ[7]. وهذا من باب وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب، فعمرو فاتح مصر وواليها على عهد عمر وعثمان رضوان الله عليهم، وهو أقرب الناس لتولى هذه الولاية الهامة[8]. وقد تكاثرت الروايات الموضوعة والضعيفة فى العلاقة بين عمرو ومعاوية رضى الله عنهما، واشتمل على مغامز خفية ومعلنة على الرجلين، وتشير بعضها إلى أن معاوية قد أعطى ولاية مصر لعمرو بن العاص مكافأة له نظير وقوفه إلى جانبه أثناء الفتنة التى أعقبت استشهاد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وهذا الأمر قد بينته فى كتابى عن على بن أبى طالب رضى الله

---

(١) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٧٨) نقلا عن تاريخ الطبرى
(٢) المنتظم (٥/ ١٩٣ـ ٢٠٦).
(٣) الكامل فى التاريخ نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص (٣٧٨).
(٤) هو أبى جاد: فى أول الأمر.
(٥) تاريخ الطبرى، مرويات خلافات معاوية، ص (٢٧٩).
(٦) أنساب الأشراف (٤/ ٣٩)، مرويات خلافة معاوية، ص (٢٧٩).
(٧) مرويات خلافة معاوية (٢٨١، ٢٨٢).
(٨) المصدر نفسه، ص (٢٨٢).

عنه بأن وقوف عمرو بن العاص مع معاوية فى المطالبة بالتعجيل بتطبيق القصاص على قتلة عثمان لم يكن تضامنًا من عمرو مع شخص معاوية بل كان نابعًا من اجتهاد عمرو الشخصى فى هذه المسألة، حيث رأى رضى الله عنه الأخذ بالقَوَد من قتلة عثمان على الفور، فكان هذا الاجتهاد من عمرو بن العاص متطابقًا مع اجتهاد معاوية فى القضية نفسها[1]. وقد كانت ولاية عمرو بن العاص على مصر ذات صلاحيات واسعة بسبب ما كان يتمتع به من مقدرة إدارية فائقة، وقابليات سياسية وعسكرية متميزة، فقد واصل فتوحات الشمال الإفريقى ونظم أمر العطاء والإعمار والبناء والزراعة والرى بمصر وقد بقى عمرو فى ولاية مصر[2] حتى وفاته عام٤٣هـ.

– وصيته عند موته: يروى ابن شماسة المهرى وصية عمرو بن العاص لحظة احتضاره فيقول: حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت[3]، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بَشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إنى كنت على أطباق ثلاث[4]. لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضًا لرسول الله ﷺ منى، ولا أحب إلىَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، لو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدى، قال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن اشترط، قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يغفر لى، قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟[5]، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله ﷺ ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له،ولو سئلت أن أصفه ما

(١) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨٢).

(٢) مصر فى العصر الأموى، عدنان أحمد الجنالبى، ص (٤٩، ٥٠).

(٣) فى سياقة الموت: أى: حال حضوره . (٤) أى: على ثلاث أحوال .

(٥) أى يسقطه ويمحو أثره، وصايا وعظات قيلت آخر الحياة للحموى، ص (٧٠).

أطقت، لأنى لم أكن أمـلأ عـينى منه، ولو مت على تلك الحـال لرجـوت أن أكون من أهل الجنة[١].

وجاء فى رواية: ثم تلبست بعد ذلك بـالسلطان وأشياء، فلا أدرى علىّ أم لى، فإذا مت فلا تبكينَّ علىّ باكية، ولا تُتبعنى مادحًا ولا نارًا، وشُدُّوا علىّ إزارى فإنى مخاصم، وشنُّوا علىّ التراب شَـنًّا، فإن جنبى الأيمن ليس بأحق بالتراب من جنبى الأيسر، ولا تجعلُنَّ فى قبرى خشبة ولا حـجرًا، وإذا واريتمونى فاقعدوا عندى قدر نحر جذور وتقطيعها، أستأنس بكم[٢]. وقد روى مسلم هذا الحديث فى صحيحه: كى أستأنس بكم لأنظـر ماذا أراجع به رسل ربى عز وجل[٣]، وفى رواية: أنه بعد هذا حوّل وجهه إلى الجدار وجعل يقول: اللهم أمرتنا فـعصينا، ونهيتنا فما انتهينا، ولا يسعنا إلا عفوك. وفـى رواية: أنه وضع يده على موضع الغُلِّ من عنقه، ورفع رأسه إلى السماء، وقال: اللهم لا قوى فأنتصر، ولا برىء فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت، فلم يزل يُردّدها حتى مات رضى الله عنه[٤].

٢ - **ولاية عبد الله بن عـمرو بن العاص رضى الله عنه:** كانت وفاة عمرو ليلة الفطر سنة ثلاث وأربعين، واستخلف ابنه عبد الله على صلاتها وخراجها،[٥] وبعد وصول خبر وفاة عمرو بن العاص إلى معاوية قام بتعيين أخيه عتبة على مصر وذلك فى شهر ذى القعدة من سنة ثلاث وأربعين[٦]. أى أن ولاية عبد الله بن عمرو على مصر لم تزد على شهـرين وهى الفترة التى استـغرقها وصول خـبر وفاة عمـرو إلى معاوية، واتخاذه لقرار تعيين الوالى الجديد[٧]. وقد وصف الذهبى عبد الله بن عمرو بقوله: الإمام الحـبر العـابد، صاحب رسول الله وابن صـاحبـه أبو محمـد وقيل أبو عـبد الرحمن. . . وليس أبوه أكبـر منه إلا بإحدى عشرة سنة أو نحـوها، وقد أسلم قبل أبيه فيما بلغنا، ويقال: كان اسمـه العاص، فلما أسلم غيره النبى ﷺ بعبد الله[٨]، وقد ورث عبد الله من أبيه قناطير مقنطرة من الذهب فكان من ملوك الصحابة[٩].

(١) مسلم رقم (١٢١).
(٢) البداية والنهاية (١١/ ١٦١).
(٣) مسلم (١٢١).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ١٦١).
(٥) ولاة مصر للكندى، ص (٥٧).
(٦) المصدر نفسه، ص (٥٧).
(٧) مرويات خلافة معاوية، ص (٢٨٦).
(٨) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٠).
(٩) المصدر نفسه، ص (٥٧).

٣ - ولاية عتبة بن أبى سفيان: ولد على عهد رسول الله ﷺ ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الطائف وصدقاتها ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو ابن العاص، وكان فصيحًا خطيبًا، يقال: إنه لم يكن فى بنى أمية أخطب منه. خطب أهل مصر يومًا وهو والٍ عليها فقال: يا أهل مصر خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تأتونه، وذم الباطل وأنتم تفعلونه، كالحمار يحمل أسفارًا يثقُله حملها، ولا ينفعه علمها، وإنى لا أُداوى داءكم إلاّ بالسيف، ولا أُبلغ السيف ما كفانى السوط، ولا أبلغ السوط ما صلحتم بالدّرة، وأبطئ عن الأولى إن لم تسرعوا إلى الآخرة، فألزموا ما ألزمكم الله لنا تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا. وهذا يوم ليس فيه عقاب، ولا بعده عتاب.[1] وجاء فى رواية: . . . لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل، فناداه المصريون من جنبات المسجد سمعًا، سمعًا، فناداهم عدلاً عدلاً[2]. وقد قام عتبة ببناء دار الإمارة بعد أن خرج مرابطًا فى الاسكندرية[3]، وكان عتبة قد اتخذ لأولاده مؤدبًا، يعلمهم ويربيهم، فقد عهد لعبد الصمد بن عبد الأعلى ليكون مؤدبًا لولده[4]، ووجه مؤدب أولاده بتتبع أساليب التشويق وتحبيب دراسة كتاب الله إلى نفوسهم فقال له: علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه[5]، وجاء فى رواية: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بنى إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبح عندهم ما استقبحت، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم، وعلمهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء وجنبهم محادثة النساء، وتهددهم بى، وأدبهم دونى، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، ولا تتكل على عذرى، فإنى قد اتكلت على كفايتك، وزد فى تأديبهم أزدك فى برى إن شاء الله[6].

---

(١) الاستيعاب رقم (١٩٢٣).

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ١٢٤)، مصر فى العصر الأموى (٨٢).

(٣) مصر فى العصر الأموى، ص (٨٢)، النجوم الزاهرة (١/ ٣٤).

(٤) مكانة المعلم فى التراث العربى للزبيدى، ص (١٠٦).

(٥) البيان والتبيين للجاحظ (٢/ ٧٣).

(٦) عيون الأخبار (٢/ ٥) (٢/ ٦٦)، التبيان والتبيين (٢/ ٧٣، ٧٤).

يتضح من هذه الوصية حرص الولاة الأمويين على تعليم أبنائهم القرآن الكريم والحديث والشعر وغيرها إضافة إلى التأكيد على الجانب التربوى وتزويدهم بالآداب والأخلاق الحسنة، كما أنهم يمنحون المؤدبين صلاحيات واسعة، ويكرمونهم(١).

٤ - ولاية عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه: (٤٥هـ - ٤٧هـ): أغفل الطبرى ذكر ولاية عقبة بن عامر الجهنى على مصر، وتابعه ابن الجوزى، وابن الأثير وابن كثير، مع أن ولايته على مصر قد أثبتتها المصادر التاريخية المختصة بالديار المصرية(٢)، وهى مقدمة على غيرها فى هذا المقام(٣)، كما أثبتها له ابن عبد البر(٤)، وابن حجر(٥)، وكان عالمًا مقرئًا، فصيحًا فقيهًا فرضيًا، شاعرًا كبير الشأن، وكان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن، فقال له عمر بن الخطاب: اعرض علىّ فقرأ. فبكى عمر، وكانت له صحبة وبايع رسول الله على الهجرة وأقام معه، وكان من أهل الصفة وكان من الرماة المذكورين، مات سنة ٥٨هـ(٦).

٥ - ولاية مسلمة بن مُخلد الأنصارى (٤٧هـ -٦٢هـ): هو مسلمة بن مُخلد الأنصارى الخزرجى، الأمير، نائب مصر لمعاوية يكنى أبا معن، وقيل أبو سعيد، وقيل أبو معاوية له صحبة ولا صحبة لأبيه(٧). قال مجاهد: صليت خلف مسلمة بن مُخلد، فقرأ سورة البقرة، فما ترك واوًا ولا ألفًا(٨). قال الليث: عزل عقبة بن عامر عن مصر فى سنة سبع وأربعين فوليها مسلمة حتى مات زمن يزيد(٩)، وقد توفى سنة ٦٢هـ فى ذى القعدة بالأسكندرية(١٠)، وكانت له جهود فى الفتوحات بالشمال الأفريقى يأتى ذكرها بإذن الله تعالى، وكان المغرب كله تابعًا له(١١).

هذه هى أهم الولايات والولاة فى عهد معاوية رضى الله عنه، ويمكن تلخيص صلاحيات الولاة بالولايات على الإجمال، كتعيين الموظفين، وتشكيل مجالس شورى، إنشاء الجيوش وتجهيزها بالنسبة للولايات القريبة من حركة الفتح الإسلامى، كمصر والبصرة، والحفاظ على الأمن الداخلى، والإشراف على الجهاز القضائى بالولاية، والنفقات المالية، ومراقبة الأوضاع بالولاية وغير ذلك من الصلاحيات.

---

(١) التعليم فى العصر الأموى، ص (٦٦) السبتى.

(٢) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٢٨٧).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٨٧)، وولاة مصر، والنجوم الزاهرة.

(٤) الاستيعاب رقم الترجمة (١٨٩٨).

(٥) الإصابة (٤/ ٥٢١).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦٨).

(٧) المصدر نفسه (٣/ ٤٢٤).

(٨)، (٩) المصدر نفسه (٣/ ٤٢٥).

(١٠) المصدر نفسه (٣/ ٤٢٦).

(١١) مصر فى العصر الأموى، ص(٨٣).

الفصل الرابع

الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه

نريد أن نسجل حركة الانسياح الإسلامى فى الأرض، التى تمت فى عهد بنى أمية منذ عهد معاوية رضى الله عنه، لندحض كل وهم بأن الإسلام قد انتهى بعد عهد الخلفاء الراشدين، فحركة الفتح الإسلامى التى قامت فى عهد الخلافة الراشدة وبنى أمية ليست مجرد توسع فى الأرض، ولا يجوز النظر إليها بهذا الاعتبار، إنما هى أكبر حركة (هداية) للناس فى التاريخ وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور، وقد يبدو هذا الكلام فى حس المثقفين - لأول وهلة - مجرد تشابه مع دعوى كل (دولة عظمى) أنها نشرت الحضارة فى الأرض، وأن حركتها التوسعية كانت من أجل نشر تلك الحضارة، فلننظر إذن فى تاريخ (الإمبراطوريات) فى القديم والحديث: الإمبراطورية الفرعونية، والإمبراطورية الأشورية، الإمبراطورية الفينيقية، والرومانية، والفارسية، والهندية، والصينية، والبريطانية، والفرنسية، والأمريكية، والروسية، . . . إلى آخر تلك الإمبراطوريات الجاهلية التى يعج بها تاريخ الأرض، كيف قامت أولاً؟ وما نشرت فى الأرض؟، فأما قيامها على التسلط بالقوة، وقهر الآخرين وإذلالهم، وإخضاعهم لسيطرة الدولة الأم، وتحويلهم خدمًا لتلك الدولة الأم، يمدونهم بالرجال المقاتلين، ويمدونهم بمختلف الخيرات، لتنتفش هى وتشبع وتتخم على حساب الجائعين المقهورين الأذلاء، فهذا أمر لا يحتمل المراء[1]، وأما الذى نشرته فى الأرض فلا شك أنها نشرت بعض الخير، إلى جانبه كثيراً من الفساد، لأن حياتها هى ذاتها -وهى لا تهتدى بمنهج ربانى- لا تشتمل إلا على بعض الخير والكثير من الفساد، وكل إناء ينضح بما فيه، وفاقد الشىء لا يعطيه، وأما الحضارة الغربية اليوم، ففظائع الاستعمار الذى صاحب تلك الحضارة من احتلال أراضى الشعوب ونهب خيراتها وإذلال أهلها خير شاهد على فسادها، كما أن آخر إفرازات هذه الحضارة الذى يسمى النظام العالمى الجديد، إن هو إلا نوع جديد من الطغيان تمارسه الدول القوية على الدول الضعيفة، ومن أبرز مآثره التخطيط للتحكم فى الدول المنتجة

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١١٨، ١١٩).

للبترول لحساب الدول الغربية القوية المتحكمة، وذلك باستنزاف هذا البترول فى مدة أقصر، وطرحه فى الأسواق بسعر أقل، لكى تزداد الدول الطاغية غنى ويزداد الفقراء فقرًا وذلاً وضياعًا باسم (النظام العالمى الجديد). ومن مآثره كذلك إمداد إسرائيل بكل وسائل العدوان وحرمان الدول العربية من إمكانية صد العدوان. وأما أصحاب الرسالات السماوية السابقة من اليهود والنصارى فماذا نشروا فى الأرض؟ فأما اليهود فقد حولوا دينهم إلى عصبية خاصة ببنى إسرائيل، لا يحبون نشره فى الأرض لكى يبقى الإله خالصًا لهم لا يشاركهم فيه أحد من الناس، وأما النصارى فمنذ بولس وهم يسعون إلى نشر دينهم على نطاق واسع فأى شىء نشروه؟، لقد نشروا بادىء ذى بدء دينًا وثنيًا بدلاً من الدين الربانى الذى أنزله الله على عيسى ابن مريم. دينًا يعبد فيه عيسى وروح القدس جبريل عليه السلام مع الله، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]. ونشروا دينًا يدعو إلى الرهبانية، وإهمال الحياة الدنيا واحتقار الجسد ودوافعه فنشأ عنه تعطيل دفعة الحياة وإهمال عمارة الأرض، ثم نشأ عنه رد فعلٍ أسوأ وهو انكباب على لذائذ الجسد وماديات الحياة[1]، قال تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧]، ونشأ مع ذلك الدين نظام كهنوتى يتمثل فى الكنيسة ورجالها على رأسهم البابا يمارس ألوانًا من الطغيان البشع فى جميع نواحى الحياة، ويعادى الفكر ويحجر على العقل، ويضطهد العلماء ويمنعهم من البحث العلمى التجريبى أو النظرى، فتأخرت الحياة فى كل جانب، ثم حدث رد فعلٍ أسوأ، تمثل فى الإلحاد وإقامة الحياة على مبعدة من الدين، بل فى عداء مع الدين، وهكذا تحولت رسالة السماء على يد الكنيسة إلى غير ما نزلت من أجله، ونشرت الفساد بدلاً من الإصلاح، سواء فى الفترة التى كانت تمارس سلطانها على

---

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١١٩).

الناس، أو فى الفترة انقلب فيها الناس على سلطانهم ورفضوا الخضوع للدين[1]، وفى مقابل ذلك كان الانسياح الإسلامى فى الأرض فريداً فى التاريخ، شيئًا غير التوسع (الإمبراطورى) الذى مارسته الجاهليات القديمة والحديثة، وغير الطغيان المفسد الذى مارسته النصرانية المحرفة وهى تتوسع فى الأرض، فى تلك الحركة الفريدة فى التاريخ كان المسلمون ينشرون الهدى فى مكان الضلال، والنور فى مكان الظلام، والعبودية الصحيحة فى مكان العبوديات الزائفة للحكام والكهنة والأوثان، ويحررون المستعبدين فى الأرض، ويردون إليهم إنسانيتهم الضائعة، ويرفعونهم إلى المكان اللائق بالإنسان، وكانوا ينشرون قيمًا من العدل والأخوة والتسامح والتكافل لا عهد للبشرية بها من قبل، ولا رأتها من بعد فى غير الإسلام، وينشرون حضارة حقيقية شاملة شامخة، لا يستأثرون بها لأنفسهم، بل يفتحون أبوابها لكل مسلم فى الأرض، بل يستظل بظلها النصارى فى الأندلس وشرق أوربا، واليهود فى مختلف بلاد العالم الإسلامى، والوثنيون عباد البقر فى الهند، وكل من أراد أن يتعلم أو يمارس الحياة دون عدوان[2]. لم ينهب المسلمون خيرات البلاد المفتوحة، ولم يستذلوها ليتمتعوا بالسلطان، ولم يحافظوا عليها متأخرة متدنية ليبرروا استمرار سيادتهم عليها واستعلاءهم على أهلها. . إنما دعوهم أولاً إلى الخير - وهو الإسلام ـ فإن استجابوا فهم إخوة فى الدين. . وإن أبوا طلبوا منهم جزية تدل على عدم مقاومتهم للخير المنزل من السماء أن يصل إلى قلوب الناس صافيًا بلا غش، فإن أبوا هذا وذاك فعندئذ يقع القتال، لا لإكراه أحد على اعتناق الإسلام، إنما لإزالة مراكز القوى التى تمنع الحق أن يصل إلى الناس على حقيقته. . فإذا أزيلت مراكز الطغيان، وزال تأثيرها على النفوس، ترك الناس أحراراً فى ظل الإسلام، يعتنقون ما يشاءون[3].

إن حركة الفتح الإسلامى: دوافعها وخصائصها، وآثارها الواقعة لهى فصل أساسى فى كتابة التاريخ الإسلامى، لابد أن يعالج باستفاضة لدحض مزاعم المستشرقين ومن يتتلمذ عليهم من بعض المؤرخين العرب وغيرهم. . وإن كنا نورده هنا من زاوية معينة: هى دلالتها على مدى عمق الوجود الإسلامى فى نفوس الأمة التى تتحرك به، ولن تتحرك به أمة هذه الحركة الواسعة السريعة الفعالة المؤثرة

---

(١)، (٢) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢١).

وهى نفسها خاوية منه أو غير ممتلئة به حتى أعماقها[1]. وأول ما يسقط من دعاوى المغرضين فى هذا الشأن ـ لفرط هشاشته ـ قول من قال إن الدوافع الاقتصادية هى التى دفعت حركة الفتح الإسلامى! إن الذى تحركه الدوافع الاقتصادية لا يخرج ليدعو الناس ـ أول ما يدعوهم ـ إلى الإسلام، فإن أسلموا ألقى سلاحه وعانقهم كما يعانق الأخ أخاه، وأخذ يعلمهم تعاليم الإسلام ليشاركوه فى الخير الربانى الذى هداه الله إليه، فأصحاب هؤلاء الفرية يفترون الكذب على التاريخ[2]، وتسقط الدعاوى الأخرى تباعًا وتبقى حقيقة مهمة هى أن هذه الحركة لا يمكن أن تأخذ صورتها التى أخذتها بالفعل، إلا أن تكون صادرة عن أمة ممتلئة بهذا الدين حتى أعماقها، حريصة عليه، مؤمنة به، راغبة فيه، راغبة فى نشره فى آفاق الأرض، فالقوة وحدها لا تفسر ما حدث فى هذه الحركة من العجائب، فكم استخدمت القوى الطاغية فى الأرض قوتها للتوسع فى الأرض، فلم تصنع ما صنعته الحركة الإسلامية. إن السيف، يمكن أن يفتح الأرض، ولكنه لا يفتح القلوب، والذى حدث فى حركة الفتح الإسلامى لم يكن مجرد التوسع فى الأرض، إنما كان فتح القلوب لتعتنق الإسلام، وكان - فى كثير من الأقطار - اتخاذ لغة الدين لغة رسمية، ونسيان الشعوب المفتوحة ما كانت تستعمله من قبل من اللغات، حتى الذين بقوا على دينهم بغير إكراه لو لم يكن الفاتحون مسلمين حقًا، بمعنى الإيمان بهذا، وممارسته فى عالم الواقع والتمكن منه عقيدة وسلكًا وحركة، ما حدثت هذه العجائب فى الفتح الإسلامى.

وأمر آخر يتعلق بهذه القوة ذاتها إنها فى غالب الأحيان لم تكن هى الأكبر عددًا وعدة وخبرة حربية... إنما كان العدد والعدة والخبرة فى الجانب الآخر، جانب الذين انهزموا أمام قوة المسلمين، فلو لم يكن هناك عنصر آخر غير مادى ـ فى جانب الفاتحين - ما تمكنوا من التغلب على أعدائهم الذين يفوقونهم فى فنون الحرب، كما يفوقونهم فى العدد والعدة سواء، ذلك العنصر هو العقيدة الحية التى تملأ القلوب، وهذه هى الدلالة التى نركز عليها هنا فى وجه الدعاوى التى تقول: إن انحرافات بنى أمية قضت على هذا الدين وهو بعد فى المهد. وتلك نقطة ينبغى أن نقف عندها طويلاً حتى نقومها فى نفوس الدارسين، ينبغى أن نلغى من حسهم ذلك الإيحاء الخبيث بأن الإسلام قد انتهى بعد الخلافة الراشدة ولم يعد له وجود،

(١)، (٢) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢١).

ويكون ذلك بعرض الواقع الإسلامى بأمانة كاملة ودقة كذلك . . وسيتبين لنا بالحساب، حساب مجموع الانحرافات ومجموع الاستقامات أن الحصيلة المتبقية ضخمة جدًا رغم وجود الانحراف. ويكون هذا بالتالى فرصة سانحة لتقدير عظمة هذا الدين وضخامته، وأصالة جذوره فى التربة وتعمقها، بحيث تبقى هذه الحصيلة الضخمة، وتبقى تلك الحيوية، التى تسعى لنشر الدين فى الأرض بكل الإصرار والتدفق والحماسة التى قام بها المسلمون فى العهد الأموى بالذات(١).

وأما ما حدث من الهبوط عن مستوى الذروة فقد حدث ولا شك على درجات متفاوتة فى بعض أفراد المجتمع، أو قل إن شئت فى كثير منهم، وهذا لا يعتبر فى ذاته انحرافًا إنما هو الأمر المتوقع بعد غياب شخص الرسول ﷺ عن ذلك المجتمع، وبعد زوال أثر النشأة الجديدة من نفوس الناس، فنحن الآن لسنا فى العهد الذى شهد التحول العظيم من الجاهلية إلى الإسلام، إنما العصر الذى يليه، ولكن فلنذكر جيدًا تزكية رسول الله ﷺ لذلك الجيل من الناس: «**خيركم قرنى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(٢). فنحن إذن ما زلنا مع القرون المفضلة، وليس بعد شهادة رسول الله ﷺ شهادة بشر(٣)، صحيح أننا الآن مع المستوى العادى للإسلام، ولكن ذلك المستوى رفيع فى ذاته، وإن لم يكن على مستوى الذروة التى وصل إليها الجيل الفريد، وأنه يحقق للناس من الخير حين يلتزمون به ما لا يحققه نظام آخر(٤)، والحق أنه قد بقى فى مجتمع بنى أمية أفراد على المستوى الرائع، بل لم يخل جيل من أجيال المسلمين كلها ـ حتى فى عصور الانحطاط ـ من نماذج متفرقة على ذلك المستوى الرفيع، إنما الملاحظ أن كثافة تلك النماذج فى مجتمع الذروة كانت فذة بصورة غير عادية، ثم ظلت تخف تدريجيًا مع مرور الزمان(٥).

إن استئناف حركة الجهاد فى عهد معاوية لم يكن بدعة على سياسته، فقد استمد كثيرًا من الشهرة العريضة والمكانة العريضة من كفايته كوالٍ على بلاد الشام وهى جبهة واسعة من جبهات الجهاد، ومن شهرته كمجاهد موفقٍ فى البر والبحر منذ عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم، وكان له فتوحاته الكبرى فى الساحل الشمالى للشام، كما أن له الفضل ـ بعد الله ـ فى تأسيس البحرية الإسلامية وهزيمة الروم فى البحر وانتزاع السيادة منهم لأول مرة فى تاريخ

(١) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢٢).
(٢) البخارى.
(٣) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١٢٣).
(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (١٢٣).

المسلمين[1]، فالجهاد فى سبيل الله أصل فى حـياة المسلمين فى عهد الدولة الأموية، ولم تكن الغنائم هى الدافع الرئيسى للقيادة الإسلامـية نحو الفتح والجهاد، وإن وجد لدى بعض الأفـراد وهؤلاء لا يخلو منهم جـيش حتى على عـهد رسـول الله ﷺ ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ [آل عمـران: ١٥٢] وغيـرها، ولكن هذا بالطبع لا يمـثل وجهة نظر المسلمين فى فتوحاتهم، ولا يمـثل القيادة الفكرية التى كان يتبناها الخليفة والقادة وينفـذها الجند، كما أنه لا يمـثل وجهة نظر الأمة ورأيهـا العام[2]، ومما يدل على ذلك مشاركة كبار الصحابة فى ذلك الوقت فيها وحثهم المسلمين على الجهاد فى سبيل الله. وحوادث الجهاد وجهود الأمويين على جبهات القتال توضح ذلك: فجبهة الروم مثلاً وهى التى كانت مـثار الشجاعة ومرتع البطولة مـا كانت تدر الربح الكثير بل كان بيت المال يئن منهـا، لأن حملاتها ما كـانت تنتهى إلى تقدم[3]، خاصة إذا ذكرنـا الحمـلات الثلاث الكبـرى التى توجهت إلى القـسطنطينيـة وتكلفت نفـقات باهظة[4]. لقد أعطى المجـاهدون المسلمون فى العهد الأمـوى صوراً رائعة للتضـحية والبطولة والتجرد وإخلاص النية لله فى جهادهم، سواء كانوا من القادة أو الأمراء أو من عامـة الجند، أو من جماعـات العلماء والزاهدين والربانيين الذيـن فهموا عـبادة الجهـاد، ومارسوا ذلك على نحـو مثيـر للإعجاب ودافع إلى التـأسى، وقد توزعت صور الإخـلاص والتضحـية هذه على جميـع جبهات القـتال، وفى جمـيع مراحل الجهـاد، مما يدل دلالة واضحـة على عمق التوجـه الإسلامى للفـتوحات فى العـهد الأموى، وينـفى الغبش الذى يثـيره المنحـرفون عن بنى أمـية على أنصع منجـزاتهم وأحراها بالفخـر والإعزاز، ومما لا شك فيه إسـلامية الفتوح فى العـهد الأموى[5]، وقد كانت الحصـيلة النهائية والحصيلة التاريخـية لحركة الفتوح لذلك العـصر، امتداد عالم الإسلام إلى آفاق بعيدة وكسب ـ عـبر امتداده هذا ـ الأرض والإنسان، كما أنه حمى وعـزّز فى الوقت نفـسه منجزات المـوجة الأولى فى حركـة الفتح التـى قادها وخطط لها الخلفاء الراشدون، فـالموجة الثانية لحركة الفـتوح هى التى بدأت فى عهد معاوية نفسه واستمرت فيما بعد لكى تبلغ أقصى اتساعها فى عهد الوليد[6].

(١) الدولة الأموية حمدى شاهين، ص (٢٣٩).
(٢) الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين، ص (٧٨).
(٣) الدولة الأموية، يوسف العشى، ص (٣٤٦). (٤) المصدر نفسه، ص (٣٤٦).
(٥) الدولة الأموية المفترى عليها.
(٦) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ، عماد الدين خليل، ص (٩٢، ٩٣).

المبحث الأول

حركة الجهاد ضد الدولة البيزنطية

كان معاوية رضى الله عنه يرى أن الخطر الأكبر من وجهة نظره الدولة البيزنطية، وإن كانت قد خسرت أهم أقاليمها فى الشرق - الشام ومصر - إلا أن جسم الدولة ما زال سليمًا لم يمس، فعاصمتها باقية، وممتلكاتها فى آسيا الصغرى وأوربا وشمال إفريقيا ما زالت شاسعة وإمكانياتها كبيرة، وقدرتها على المقاومة هائلة، وهى لم تكف بعد عن مناوأة المسلمين، وباختصار فهى العدو الرئيسى والخطر الأكبر الماثل أمام المسلمين، وكان معاوية رجل المرحلة وقادرًا على فهم وتقدير هذا الخطر، وعلى مواجهته، أيضًا، فقد كان موجودًا بالشام منذ مطلع الفتوحات فى عهد أبى بكر الصديق، وأصبح واليًا عليه ولمدة عشرين سنة تقريبًا، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسى مع الدولة البيزنطية، فطول إقامة معاوية رضى الله عنه بالشام، أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم، لكل ذلك فليس غريبًا أن نرى معاوية يولى حدوده مع الدولة البيزنطية وعلاقاته معها جل اهتمامه، ويرسم لنفسه نحوها سياسة واضحة ثابتة سار عليها هو وخلفاؤه من الأمويين إلى نهاية دولتهم، وقد كان من أهدافه الرئيسية الاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية[1].

أولاً: معاوية والقسطنطينية:

بعد أن أستقر الأمر لمعاوية بن أبى سفيان سنة ٤١هـ خليفة للمسلمين بدأ فى تطوير الأسطول البحرى ليكون قادرًا على دك معاقل القسطنطينية عاصمة الروم ومبعث العدوان والخطر الدائم ضد المسلمين، فبعد أن قضى معاوية على حركات الردة أو الجراجمة الذين استخدمهم الروم وسيلة لرصد حركات الدولة الإسلامية، ونقاط ضعفها، وإبلاغ الروم عنها متخذين من مرتفعات طوروس وجبل اللكام مقرًا لهم[2]، بدأ الخليفة نشاطه البحرى بإرسال حملات بحرية استطلاعية منها

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤١).

(٢) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (٥١).

حملة فضالة بن عبيد الأنصارى[1]، للوقوف على تحركات الروم وجلب المعلومات الدقيقة عنهم لمنعهم من استخدام جزر قبرص، وأرواد[2]، ورودس ذوات الخدمة التعبوية والعسكرية فى عملياتهم ضد الأسطول الإسلامى وقد باشر أعماله الاستطلاعية بإحدى الشواتى وهى شاتية بسر بن أبى أرطأة فى البحر عام ٤٣هـ[3]، وأعقبها بشاتية مالك بن عبد الله بأرض الروم سنة ٤٦هـ وصائفة عبد الله بن قيس الفزارى بحرًا، وحملة عقبة بن عامر الجهنى بأهل مصر فى البحر سنة ٤٨هـ، وصائفة بن عبد الله بن كرز البجلى، وحملة بن عبد الله بن يزيد بن شجر الرهاوى، وشاتيته بأهل الشام فى سنة ٤٩هـ[4]، وكان نظام الشواتى والصوائف مستمرًا. فقد وضع معاوية أمامه هدفًا واضحًا وهو محاولة الضغط على الدولة البيزنطية من خلال الضغط على عاصمتها القسطنطينية تمهيدًا للاستيلاء عليها، ولعل معاوية رضى الله عنه كان يرمى إلى إسقاط الدولة البيزنطية ذاتها بالاستيلاء على عاصمتها. فهو يعلم أن هذه العاصمة العتيدة هى مركز أعصاب الدولة ومستقر الأموال والرجال، وفيها العقول المفكرة، فإذا سقطت فى يده فإن هذا سيؤدى إلى شلل كامل فى الدولة كلها، وأمامه تجربة المسلمين مع الفرس، فبعد سقوط المدائن عاصمتهم فى أيديهم أصابهم الارتباك ولاحقهم الفشل، ولم تقم لهم قائمة وزالت دولتهم، فإذا استطاع إسقاط عاصمة البيزنطيين فسيكون ذلك نذيرًا بإسقاط الدولة، ويستريح من خصم عنيد وعدو رئيسى، لذلك واصل ضغطه ومحاولاته لتحقيق هدفه، وليس من المبالغة القول إن الدولة البيزنطية ظلت على قيد الحياة مدة تقرب من ثمانية قرون، وهى مدينة ببقائها لعاصمتها القسطنطينية، فمناعة المدينة وصمودها أمام محاولات الأمويين المستمرة لفتحها، حال دون ذلك، وبالتالى حال دون سقوط الدولة والدليل على هذا أنه عندما استطاع السلطان العثمانى محمد الفاتح فتح القسطنطينية والاستيلاء عليها فى سنة ٨٥٧هـ - التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣م كان إيذانًا بسقوط الدولة البيزنطية وزوالها من الوجود[5].

(١) العلاقات العربية البيزنطية، ص (٥١) نقلاً عن الأمويين والبيزنطيين.

(٢) أرواد: جزيرة قرب القسطنطينية، ياقوت الحموى، معجم البلدان (١/ ٢٠٧).

(٣) مواقف حاسمة، ص (٣١)، محمد عبد الله عنان.

(٤) النجوم الزاهرة (١/ ١٣٤)، العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (٥١).

(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٤).

ثانيًا: التخطيط الاستراتيجى عند معاوية للاستيلاء على القسطنطينية:

حرص معاوية رضى الله عنه أن يكون زمام المبادرة دائمًا فى يده، لأنها هى التى تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد، وتشجع أهلها على شن الغارات على ساحل مصر والشام، وقد سار فى تحقيق هذا الهدف فى عدة اتجاهات:

١ ـ **الاهتمام بدور صناعة السفن فى مصر والشام**، واختيار أمهر الصناع للعمل فيها والإغداق عليهم بالأجور والهبات حتى يبذلوا قصارى جهدهم بالعمل[١]، فقد أدرك معاوية ـ رضى الله عنه ـ بحسه العسكرى وفكره العبقرى أن معارك المسلمين مع الروم، ستعتمد أساسًا على الأسطول البحرى، وزاد هذا الإحساس عمقًا فى قلب معاوية ونفسه تكتل الروم وإعدادهم أكثر من خمسمائة سفينة فى معركة ذات الصوارى لقهر الأسطول الإسلامى، ومع أن الروم باءوا بفشل ذريع فى هذه المعركة، إلا أنهم لم يكفوا عن الإعداد ولم ينتهوا عن تجميع قواتهم لمواجهة قوة المسلمين فى البحر، لقد كانوا يظنون أن قوة المسلمين البحرية يمكن القضاء عليها لأنها ما زالت فى دور التكوين، ولكنهم فوجئوا بهزيمتهم المنكرة فى ذات الصوارى، فتوقعوا بعد ذلك أن تكون المعركة القادمة على أسوار العاصمة القسطنطينية فراحوا يستعدون لذلك[٢]، وقد أدى التعاون بين مصر والشام فى صناعات السفن إلى الوصول إلى نتائج ممتازة، ففى الشام كانت تتوافر أخشاب الصنوبر القوى والبلوط والعرعر التى تصلح لبناء السفن. وفى مصر كانت توجد الأخشاب التى تصلح لعمل الصوارى، وضلوع جوانب السفن، وخشب الجميز واللبخ والدوم التى تصلح لصناعة المجاديف[٣]، وكذلك استغل معاوية معدن الحديد الذى كان متوافرًا فى مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسى والخطاطيف والفئوس، كما كان يتوافر فى مصر مادة القطران اللازمة لقلفطة السفن، ونبات الدقس الذى كانت تصنع منه الحبال، وباختصار فقد أدى التعاون المصرى الشامى إلى ازدهار البحرية الإسلامية التى ازدادت أهميتها بعد أن أمر معاوية عامله على مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى ببناء دار لصناعة السفن

---

(١) العالم الإسلامى فى الأموى، ص (٢٤٥).
(٢) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/ ١٥٤).
(٣) تاريخ الدولة العربية، ص (٣١٢).

فى جزيرة الروضة عام ٥٤هـ[١]. وذلك على أثر غارة شنها البيزنطيون على مصر[٢].

٢ـ تقوية الثغور البحرية فى مصر والشام: فقد آثر أن يحصن المدن الساحلية ويزودها بالقوات المجاهدة بما يجعلها قواعد تنقل منها الجنود بحراً إلى أى مكان يشاء، ووضع لهذه المدن نظامًا عرف بالرباط، وهو ما يقصد به الأماكن التى تتجمع بها الجند والركبان استعداداً للقيام بحملة على أرض العدو، واعتنى بهذا النظام حتى أصبح جزءاً مرتبطًا أشد الارتباط بالجهاد، إذ اجتذب الرباط إليه كل الأتقياء المتحمسين العاملين على إعزاز الإسلام ونصرته[٣]، وتدرج معاوية رضى الله عنه فى تدعيم هذا النظام على نحو ما اتبعه فى كل أعماله التى اتسمت بالدقة والابتعاد عن الارتجال والاندفاع، فأعد الرباط لتكون حصونًا يتجمع فيها الجند للدفاع عن المناطق المعرضة لإغارات الأساطيل البيزنطية، ولتكون ملجأ يحتمى بها الأهالى فى المناطق الساحلية بأن يأخذوا حذرهم إذا ما لاح خطر السفن البيزنطية فى المياه الإقليمية، فكان الحصن فى الرباط يضم حجرات للجند ومساكن لهم، ومخازن للأسلحة والمؤن، وبرجًا للمراقبة، ثم لم يلبث أن اتسع وازدادت أهميته حتى أصبح قاعدة للهجوم وشن الغارات[٤]، وتعتبر سياسة منح الإقطاعات بالسواحل الخطوة الأخيرة فى سلم السياسة البحرية الدفاعية التى رسمها معاوية قبل أن يستطيع ركوب البحر فى عهد عثمان، إذ أتم بفضل هذه الامتيازات إعداد القواعد البحرية التى أخذ ينشىء فيها أساطيله، وكانت آية ازدهار المدن الساحلية نقل جماعات من أهالى بعلبك وحمص وأنطاكية عام ٤٢هـ إلى صور وعكا وغيرهما من المدن بسواحل الأردن، كذلك أصلح معاوية رضى الله عنه حصون هاتين المدينتين ولاسيما عكا التى خرج منها بأولى حملاته البحرية ضد قبرص، وبسط معاوية رضى الله عنه اهتمامه إلى سائر المدن الساحلية[٥].

٣ ـ الاستيلاء على الجزر الواقعة شرقى البحر المتوسط: وقد بدأ ذلك بالاستيلاء على جزيرة قبرص ـ كما سبق ذكره ـ ثم استولى على جزيرة أخرى هامة وهى

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٦).
(٢) كتاب الولاة والقضاة للكندى، ص (٣٨).
(٣) الأمويون والبيزنطيون، ص (٦٨).
(٤) المصدر نفسه، ص (٦٩).
(٥) المصدر نفسه، ص (٧٠).

رودس وأمر ببناء حصن بها، وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها، وجعلها رباطًا يدفعون منه عن الشام، وآثر معاوية أن يحيط المسلمين فى رودس بالجو الإسلامى الدينى، ويعلى راية الإسلام بين أهاليها، فأرسل إليها فقيهًا يدعى مجاهد بن جبر يقرئ الناس القرآن(١). وأراد معاوية أن يتوج حملاته البحرية بغلق بحر إيجة وسد منافذه الرئيسية فى وجه السفن البيزنطية، ومنعها من الوصول إلى بلاد المسلمين، وعمل على تحقيق ذلك فى الاستيلاء على جزيرة (كريت) إذ تسيطر هذه الجزيرة تمامًا على بحر إيجة، الذى يشبه طرفه الجنوبى فوهة قربة تمتد جزيرة (كريت) عبرها، بامتدادها البالغ ١٦٠ ميلاً وتقسم الجزيرة هذه فتحة إلى مدخلين يتحكم فى كل منهما، وأرسل معاوية جنده الذى استولى على رودس لفتح هذه الجزيرة الهامة ومنع الأساطيل البيزنطية من التسلل عبر الفتحات البحرية المتاخمة لها لمهاجمة الشام على أن جنادة بن أمية الأزدى لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة لضخامتها، واكتفى بالإغارة عليها والبطش بالبيزنطيين وأساطيلهم بها، وهكذا وجه معاوية رضى الله عنه أنظار المسلمين شطر البحر الأبيض المتوسط، وأوقفهم على أهمية جزره، فاستولى على ما استطاعت أساطيله أن تفتحه منها، وطرق باب غيرها ومهد الطريق لمن يأتى بعده من الخلفاء الأمويين، وكفل معاوية للمسلمين قوة بحرية نافست البيزنطيين أنفسهم سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط، ثم أخذ يعبئها لأهم عمل فى تاريخها، وهو ضرب عاصمة البيزنطيين أنفسهم والاستيلاء عليها، ولكن تريث معاوية فى تحقيق الهدف الأخير حتى يمكن لنفسه من التفوق البحرى على البيزنطيين(٢).

٤ ـ كان من الضرورى لكى تؤتى هذه الاستعدادات البحرية ثمارها وتحقق أهدافها أن يصاحبها تحصين أطراف الشام الشمالية، التى تشكل مناطق الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، ضد غارات البيزنطيين من ناحية ولتكون سندًا للقوات الزاحفة على القسطنطينية من ناحية ثانية، ذلك لأن المسلمين فى فتوحاتهم الأولى فى عهد الخلفاء الراشدين، وصلوا إلى أطراف الشام الشمالية، ثم وقفت أمامهم سلسلة جبال طوروس تحول دون وصولهم إلى آسيا الصغرى البيزنطية، وكان

---

(١) الأمويون والبيزنطيون، ص (٨٢).

(٢) المصدر نفسه، ص (٨١).

البيزنطيون عند انسحابهم وتقهقرهم أمام المسلمين قد قاموا بتخريب المناطق الواقعة شمال حلب وإنطاكيا لئـلا يستفيد منها المسلمون، كما خربوا معظم الحصون فيما بين الأسكندرونة وطرسوس[1]، فرأى معاوية ضرورة الاهتمام بهذه المناطق وتعميرها وتحصينها، فاهتم أولاً بمدينة أنطاكيا التى كانت معرضة دائمًا للإغارات البيزنطية المفاجئة، واتبع فى تعميرها السياسة التى سار عليها إزاء المدن الساحلية للشام، وأغرى الناس على الإقامة بأنطاكيا، بأن منحهم إقطاعات من الأرض، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم وأخذ معاوية يوالى تدريجيًا تعمير المدن الواقعة بين الأسكندرونة وطرسوس أثناء غاراته على أراضى البيزنطيين حتى أصبحت حدود الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس الحد الفاصل بين الشام وآسيا الصغرى. ولإحكام سيطرته على المعاقل الهامة الواقعة فى مناطق التخوم الإسلامية البيزنطية، استولى على سميساط وملطية، كما جدد حصونًا أخرى مثل مرعش والحدث، ثم استولى على حصن زبطرة البيزنطى الهام وأعاد تحصينه[2]، ولكى تكون الحركة مستمرة وتكون مناطق الحدود ميدانًا عمليًا لتدريب جند المسلمين، وتعويدهم على الدروب والطرق والممرات الجبلية الوعرة دأب معاوية على الغزو المستمر، وأصبح هذا النشاط العسكرى يعرف بغزوات الصوائف والشواتى[3]، فلا تكاد تمر سنة وإلا ونجد ذكرًا عند الطبرى وغيره لغزو فى البر أو البحر كأن يقول: وفيها شتى فلان بأرض الروم أو كانت صائفة فلان إلى أرض الروم[4]، وكانت هذه الغزوات تنطلق إلى بلاد الأعداء وتخرب تحصيناتهم وتغنم وتعود، وكان تكرار هذه الغزوات يشكل ضغطًا على الدولة البيزنطية ويرهق أعصابها وينهك قواها[5]، وقد برز فى هذه الحملات المستمرة عدد من كبار القادة المسلمين الذين تلقوا تدريباتهم فى ميدانها وأتقنوا فن الحرب، مثل عبد الله بن كرز البجلى، ويزيد بن شجرة الرهاوى، ومالك بن هبيرة السكونى، وجنادة بن أمية الأزدى، وسفيان بن عوف، وفضالة بن عبيد[6]، ومالك بن عبد الله الخثعمى، الذين

(١) فتوح البلدان، ص (١٩٤) البلاذرى، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٧).
(٢) الأمويون والبيزنطيون، ص (١١٠)، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٧).
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٥).
(٥) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).
(٦) تاريخ الطبرى، نقلاً عن العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).

أطلقوا عليه مـالك الصوائف لعلو كعبـه فى الميدان الحربى فى آسيـا الصغرى[١]، وهؤلاء القادة أبلوا بلاءً حسنًا فى الجهاد ضد البيزنطيين لإعلاء كلمة الله[٢]

ثالثًا: الحصار الأول للقسطنطينية:

بعث مـعاوية رضى الله عـنه سنتى ٤٧ ـ ٤٨هـ سرايا من قـواته لتـغيـر على الأراضى البيزنطية لتمهد الطريق فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية. فتمكن مالك بن هبيرة السكونـى من قضاء الشتاء فى الأراضى البـيزنطية[٣]، ولقد شهدت سنة ٤٩هـ/ ٦٦٩م أول حصار إسلامى لمدينة القسطنـطينية ذلك أن نجاح قوات المسلمين فى توغلهم فى الأراضى البيزنطيـة بالإضافة إلى الصراعات الداخلية الـتى واجهها الإمبراطور قُسطانز الثانى نتيجـة تمرد اثنين من قادته هما سيليوس وميزيريوس[٤]، كل ذلك ساعد مـعاوية رضى الله عنه على أن يبعث قواته فى البر والبـحر بقيادة كل من فضالة بن عبيد الليثى وسفيان بن عوف العامرى يساعدهما يزيد بن شجرة الرهاوى، تجاه القسطنطينية[٥]، ووصل الأسطول الإسلامى إلى خلقيدونية ـ ضاحية من ضواحى القـسطنطينية على البـر الآسيوى ـ وحـاصرها توطئة لاقـتحامـها فى محاولة لاختراق المدينة من تلك الناحية، ولكن انتـشار مرض الجدرى وفتكه بكثير من جند المسلمين عـلاوة على حلول الشتاء القارص جعل ظروف الجـيش المحاصر صعـبة للغاية، فـما كـان من فضالة بن عـبيد الليـثى، قائد الجـيش البرى إلا أن استنجد بمـعاوية طالبًا منه أن يمده بقـوات إضافية، فأرسل مـعاوية رضى الله عنه مددًا من الجيش يضم بين أفراده مجموعة من الصحابة، أمثال: عبد الله بن عمر، وعبـد الله بن الزبير، وعبـد الله بن عمرو بن العـاص، وأبو أيوب خالد بن يزيد الأنصارى، رضى الله عنهم[٦]، وكان القائد العام لهذه الفرقة هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، وعندما وصل يزيد بقـواته إلى خلقيدونية انضم إلى الجيش المرابط هناك، وزحفوا جميعهم نحو القـسطنطينية وعسكروا خلف أسوارها ضاربين عليها

(١) الأمويون والبيزنطيون نقلاً عن العالم الإسلامى، ص (٢٤٨).

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٤٨).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٥) خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٠٨).

(٤) يشير إبراهيم العدوى إلى أن الإمبراطور قتل وجىء بابنه قسطنطين الرابع.

(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٨). (٦) المصدر نفسه (٦/ ١٤٨).

الحصار حوالى ستة أشهر (من الربيع إلى الصيف) وكان يتخلل هذا الحصار اشتباكات بين قوات الفريقين، وأبلى يزيد فى هذا الحصار بلاءً حسنًا وأظهر من دروب الشجاعة والنخوة والإقدام ما حمل المؤرخين على أن يلقبوه بـ(فتى العرب)[1]. وكادت القوات الإسلامية أن تحرز انتصارًا لولا أنها واجهت صعوبات جمة منها: الشتاء الغزير المطر والبرد القارص مما أدى إلى نقص الطعام والأغذية، وتفشى الأمراض بينهم، كما كان لمناعة أسوار القسطنطينية أثرها فى تراجع المسلمين وإجبارهم مرة أخرى على العودة إلى بلاد الشام[2]، كما كانت النار التى فتحها المتحصنون بها على جيش المسلمين من أهم الأسباب التى عوقت قدرتهم على فتحها، فقد أحرقت النار كثيرًا من سفن المسلمين[3]، ويعد غزو القسطنطينية من دلائل النبوة حيث أخبر به نبينا محمد ﷺ حيث قال: «أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم»[4]، وقد اشترك فى غزو القسطنطينية عدد من كبراء الصحابة رضوان الله عليهم، طلبًا للمغفرة التى بشر بها رسول الله ﷺ[5].

رابعًا: وفاة أبى أيوب الأنصارى فى حصار القسطنطينية:

هو خالد بن زيد بن كليب، أبو أيوب الأنصارى الخزرجى، شهد بدرًا والعقبة والمشاهد كلها، وشهد مع على رضى الله عنه قتال الخوارج، وفى داره كان نزول رسول الله ﷺ، حين قدم المدينة مهاجرًا من مكة فأقام عنده شهرًا حتى بنى المسجد ومساكنه حوله، ثم تحوَّل إليها[6]، وقدوفد أبو أيوب على عبد الله بن عباس لما كان واليًا على البصرة فى عهد على، فبالغ فى إكرامه، وقال: لأجزينَّك على إنزالك النبى ﷺ عندك، فوصله بكل ما فى المنزل فبلغ ذلك أربعين ألفًا[7]، وجاء فى رواية لما أراد الانصراف خرج له عن كل شىء بها، وزاده تحفًا وخدمًا كثيرًا، وأعطاه أربعين ألفًا، وأربعين عبدًا، إكرامًا له لما كان أنزل رسول الله ﷺ

---

(١) الأمويون والبيزنطيون، ص (١٦٤)، خلافة معاوية، ص (١٠٩).

(٢) الكامل فى التاريخ (٦/ ٤٨٠)، خلافة معاوية للعقيلى، ص (١١٠).

(٣) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/ ٥٩).

(٤) البخارى، صحيح البخارى مع فتح البرى (٦/ ١٢٠).

(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٢٠).

(٦) البداية والنهاية (١١/ ٢٥١).

(٧) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٤).

في داره، وقد كان من أكبر الشرف له[1]. وهو القائل لزوجته أم أيوب حين قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ - أي في حديث الافك - فقال لها: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله. فقال: والله لهي خير منك فأنزل الله[2] ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. وقد آخى رسول الله ﷺ بين أبي أيوب ومصعب بن عمير[3] - رضي الله عنهما - صاحب الفتح السلمي الكبير بالمدينة المنورة.

وكانت وفاته ببلاد الروم قريبًا من سور قسطنطينية، وكان في جيش يزيد بن معاوية وإليه أوصى وهو الذي صلى عليه[4].

وقد جاء في رواية: أغزى أبو أيوب، فمرض، فقال: إذا متُّ فاحملوني، فإذا صافقتم العدوَّ، فارموني تحت أقدامكم. أما إني سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»[5]، ودفن أبو أيوب عند سور القسطنطينية، وقالت الروم لمن دفنه: يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا، والله لئن نُبش، لأُضرِبَ بناقوس في بلاد العرب[6]. وبعد مجيء الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية أصبحت مكانة أبي أيوب الأنصاري عظيمة في الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك أن يقيموا حفلاً دينيًا في مسجد أبي أيوب، حيث يتقلدون سيفًا للرمز إلى السلطة، التي أفضت إليهم. وكان لأبي أيوب رضي الله عنه عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولي الله الذي تهوى إليه القلوب المؤمنة وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله، فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة كما أن له مكانة مرموقة بين المجاهدين واعتبروا ضيافته لرسول الله وجهاده في سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره[7].

وقد ترك أبو أيوب رضي الله عنه في وصيته بأن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو في نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل في أرض العدو حيًا وميتًا، وكأنما لم يكفه

(١) البداية والنهاية (١١/ ٢٥٢).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠٢)، البداية والنهاية (١١/ ٢٥٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٠٥).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ٢٥٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤١٢) إسناده قوي.
(٦) المصدر نفسه (٢/ ٤١٢).
(٧) الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، حسين المصري، ص (١٢).

ما حقق فى حياته فتمنى مزيداً عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده فى مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق[1]. ومن الغريب ما نراه فى حياتنا من حرص بعض المسلمين إذا مات خارج بلده أن يوصى أهله بإرجاعه ودفنه فى أرضه، والأرض أرض الله والبلاد بلاد الله. وقد مدحه شعراء الأتراك فى أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندى يشير إشارة لامحة إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهداً ومجاهداً ومكابداً بحروبه ما كابدا
حتى أتى بصلابة ومهابة فى آخر الغزوات هذا المشهدا
قد مات مبطونًا غريبًا غازيا فغدا شهيداً قبل أن يستشهدا

كان أبو أيوب رضى الله عنه عندما خرج فى غزوة القسطنطينية قد تقدمت به السن وأصبح شيخًا كبيراً وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً...﴾ [التوبة: ٤١] لا أجدنى إلا خفيفًا أو ثقيلاً[2]، وكان أبو أيوب رضى الله عنه يعلم الناس الفهم الصحيح لآيات الله ومفاهيم الإسلام، فعن أبى عمران التجيبى قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - يعنى الجماعة الذين غزوا من المدينة - والروم ملصقو ظهورهم بحائط القسطنطينية، فحمل رجل على العدو فقال الناس مه، مه لا إله إلا الله، يلقى بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلمَّ نقيم فى أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية[3]. فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، وإن الهلاك الحقيقى هو هلاك الآخرة بسبب التهاون فى واجبات الإسلام[4].

(١) الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى، ص (٦٨).
(٢) سكب العبرات للموت والقبر والسكرات (١/ ١٧٥).
(٣) سنن أبى أيوب رقم (٢٥١٢)، سنن الترمذى رقم (٢٩٧٢).
(٤) التاريخ الإسلامى (١٣/ ١٥).

خامسًا: الحصار الثانى للقسطنطينية :

استطاع معاوية رضى الله عنه أن يضيق الخناق على الدولة البيزنطية بالحملات المستمرة، والاستيلاء على جزر رودس وأرواد اللتين سبقت الإشارة إليهما، وقد كان لجزيرة أرواد -والتى تسميها المصادر الأوروبية كزيكوس- أهمية خاصة لقربها من القسطنطينية، حيث اتخذ منها الأسطول الإسلامى فى حصاره الثانى للمدينة أو حرب السنين السبع ٥٤ ـ ٦٠هـ قاعدة لعملياته الحربية، وذلك أن معاوية أعد أسطولاً ضخمًا، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية، وظل مرابطًا أمام أسوارها من سنة ٥٤هـ إلى سنة ٦٠هـ[١]، فكانت الأساطيل تنقل الجنود من هذه الجزيرة إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية على حين يكمل الأسطول الحصار، واستمر الحصار البرى والبحرى للقسطنطينية من شهر أبريل إلى سبتمبر، تتخلله مناوشات بين أساطيل المسلمين وجنود البيزنطيين من الصباح إلى المساء، على حين تتراشق القوات البرية الإسلامية مع الجند البيزنطى المرابط على أسوار القسطنطينية بالقذائف والسهام، استمر هذا الوضع طيلة سبع سنوات[٢]، حتى أرهقت البيزنطيين، وأذاقتهم ألوان الضنك والخوف، وأنزلت بهم خسائر فادحة، وبالرغم من كل ذلك لم تستطع اقتحام المدينة أو التغلب على حراسها المدافعين عن أسوارها[٣].

وكانت العوامل التى ساعدت القسطنطينية على الصمود عديدة منها:

١ ـ **استعمال البيزنطيين فى هذه المعارك نارًا سموها النار البحرية** أو النار الأغريقية، وهو عبارة عن مركب كيمائى مكون من النفط والكبريت، القار، وكان هذا المركب يشعل بالنار وتقذف به المراكب فيشعل فيها النار، والعجيب أنه كان يزداد اشتعالاً إذا لامس الماء. ومخترع هذا المركب الكيميائى الفتاك، الذى فتك بالعديد من سفن المسلمين وجنودهم هو مهندس سورى الأصل اسمه كالينكوس، كان فى أوائل الأمر فى خدمة المسلمين ثم هرب إلى القسطنطينية، ووضع خبرته فى خدمة البيزنطيين[٤]. وكان هذا السلاح الجديد من أهم العوامل التى ساعدت البيزنطيين على الصمود والاستمرار فى الدفاع عن العاصمة. وظل هذا السلاح

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٠ إلى ٢٤٠). (٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٣٥١، ٢٥٢).
(٣)، (٤) الأمويون والبيزنطيون ص (١٧٦)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص (٢٥٢).

سرًا خفيًا، لا يعرفه إلا المتخصصون فى صناعته، وكان الأباطرة يمدون حلفاءهم بهذا السلاح دون أن يطلعوهم على سره، ومرت أربعة قرون، وهو سلاح غامض لم يعرف كنهه سوى مخترعه، وفى القرن العاشر المسيحى، الرابع الهجرى، عرف الباحثون سر هذه النار، وبينوا العناصر التى تكونت منها، والوسائل التى يمكن إخمادها بها، وتطور هذا السلاح حتى كان منه ما يشبه المفرقعات، وكانت تلقى على الأعداء بواسطة المجانيق، أو أنابيب نحاسية تقذف من السفن، وكان لها صوت مدو يصحبه دخان كثيف مسبوق بلهب خاطف، وشغل هذا الاختراع عقول العلماء المسلمين، فراحوا يبحثون ويفكرون، حتى عرفوا سره فى مطلع القرن الحادى عشر المسيحى، الخامس الهجرى، وأدخلوا عليه تعديلات جعلته أشد فتكًا، وأقوى أثرًا من النار الإغريقية. واستخدم المسلمون هذا السلاح الفتاك فى حروبهم مع الصليبيين بأرض الشام، وكان وقعه شديدًا على الصليبيين، ونشر فيهم الرعب والفزع، ومن ذلك الحين عرفت هذه النار (بالنار الإسلامية[١])، يقول الدكتور إبراهيم العدوى: إن الأعداء عجزوا عن معرفة هذا السلاح الجديد الذى احتضنه المسلمون، وظل استخدام النار الإسلامية سائدًا حتى القرن الرابع عشر المسيحى، الثامن الهجرى حيث دخلت عليها تطويرات وتعديلات كثيرة، أدت أخيرًا إلى صناعة البارود. ومن ثم تعتبر النار الإسلامية أساس هذا الانقلاب الخطير فى أساليب الحرب التى عرفها العالم الحديث وبرهن المسلمون على أنهم لا يقفون مكتوفى الأيدى أمام أى سلاح جديد يفاجئهم به الأعداء، وأنهم قادرون على استغلاله فيما بعد لما فيه صالحهم ونفعهم[٢]. ونسأل الله تعالى أن يوفق المسلمين لايجاد حل للتفوق العسكرى الأمريكى والغربى عليهم.

٢ ـ السلسلة الحديدية الضخمة، الحاجزة ما بين القرن الذهبى ميناء القسطنطينية وبين الشاطئ الآسيوى، حيث كان يتم إقفالها فى حالات الحرب أو التهديد بالحصار[٣].

٣ ـ الموقع الجغرافى الفريد الذى وصفه المؤرخ بينز بأنه (استقر على شبه الجزيرة البارز من أوروبا، والذى يكاد يلاقى الشاطئ الآسيوى، وفى وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية فى بقعة يحميها مدّ مرمرة العنيف من الهجمات البحرية.

---

(١) الأمويون (١/ ٦٥) محمد سيد الوكيل. (٢) الأمويون والبيزنطيون، ص (١٧٨).

(٣) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (١٦٧).

٤ ـ الأسوار الداخلية والخارجية الضخمة والمزوّدة بعدد كبير من أبراج المراقبة التى كان لها دور فى كشف التحركات المعادية وإبطال عنصر المفاجأة فيها .

٥ ـ ضعف التجربة الأموية فى حرب الحصار للمدن المتداخلة مع مياه البحر، مثل القسطنطينية، حيث تطلب ذلك أسلحة متطورة بأساليب جديدة فى القتال، لم تكن فى متناول القوات الأموية حتى ذلك الحين[(١)].

٦ ـ دبلوماسية الدولة البيزنطية والإسلامية: لقد تظاهرت عدة عوامل ساهمت فى منع سقوط القسطنطينية منها: مناعة المدينة الطبيعية وقوة تحصيناتها، والنار الإغريقية، وشدة الطقس وقسوته، والتيارات المائية الشديدة الانحدار الآتية من البحر الأسود لتحول دون استيلاء المسلمين على المدينة، رغم صبرهم وبسالتهم وتحملهم المشاق وفى النهاية دعت الظروف الداخلية فى كل من الدولتين إلى إنهاء الحصار، فدخلوا فى مفاوضات انتهت بعقد صلح بينهما، عاد بمقتضاه الجيش الإسلامى والأسطول إلى الشام. . ففيما يتعلق بالدولة الأموية أدرك معاوية أن مدة الحصار قد طالت دون أن يتحقق الهدف، ولما كانت سنّه قد كبرت، وأحس بدنو أجله، رأى من المصلحة أن يعود هذا الجيش الكبير المرابط حول المدينة تحسبًا لأى مشاكل قد تواجه ابنه وخليفته يزيد بعد موته، فيكون وجود هذا الجيش عنده ضروريًا لضبط الأمور داخليًا، كذلك كانت الدولة البيزنطية تواقة إلى إنهاء هذا الحصار عن عاصمتها، فقد أرهقها وأنهك قواها، ولذلك يقال: إنها أرسلت إلى دمشق رجلاً يدعى يوحنا من أشهر رجالها الدبلوماسيين، وأكثرهم ذكاء وفطنة، وحضر هذا الرجل جلسات كثيرة تضم خيرة أبناء البيت الأموى وأبدى فيها من الإجلال للدولة الإسلامية، ما أكسبه تقدير معاوية واحترامه، ونجحت مفاوضاته فى عقد صلح بين الطرفين، وبعد إبرام المعاهدة أخذت القوات الإسلامية المرابطة براً وبحراً أمام القسطنطينية طريق العودة إلى الشام، وتركت عاصمة البيزنطيين تئن من جراحها المثخنة[(٢)].

سادسًا: العلاقات السلمية بين الدولتين:

رغم أن الطابع العام الذى ميز العلاقات بين الدولة الإسلامية والبيزنطية فى عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموى كان عسكريًا نتيجة لحركة الجهاد واستمرارها فى العهد

(١) امن دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص (١٦٨).

(٢) الأمويون والبيزنطيون، ص (١٧٥)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٥٣).

الأموى من حمـلات الصوائف والشواتى طوال السنة تقريبًا، وكـذلك الدور الجهادى الذى كانت تؤديه مـدن الثغور، إلا أن هذا لا يعنى أن الطابع السلـمى -المتمثل فيـما جرى من مـفاوضات ومـداولات- كان مفقـودًا فقد اتخـذت العلاقات السلمـية بين الدولتين الإسـلامية والبـيزنطية فى العـهد الأموى أشكالاً مـختلفة منهـا المراسلات، وتبادل الخبرات، والمناظرات فى المجالات الثقافية، وتبادل الأسرى والسفراء[1].

١ـ المراسلات: فقد تم مراسلة قيصر الروم من قبل معاوية فى فترة الفتنة وتوصل معـه إلى عقد صلح على أن يؤدى مـعاوية له مالاً وأن يـأخذ كل طرف رهنًا من الطرف الآخر[2]، وارتهن مـعاوية منهم رهناء فـوضـعهم ببـعلبك، ثم إن الروم غـدرت فلم يستـحل معـاوية والمسلمـون قتل من فى أيـديهم من رهنهم، وخلوا سبـيلهم وقالوا: وفاء بغـدر خير من غـدر بغدر[3]، والمهم أن مثل هذه الحوادث يجب أن تُقـدَّر بقدرها فـلا يجـوز للدولة الإسلامـيـة - فى الأصل- أن تتهـاون وتتكاسل عن الأخذ بأسباب القوة حتى تصل إلى مرحلة من الضعف تمكّن الأعداء منهـا أو يطمع فيهـا الطامعـون، بل الأصل فى دولة الإسلام أن تكون دولـة قوية يهابها الأعداء، فإذا مرت بها فترة ضعف أو احتاجت إلى دفع ضرر عليها بمال أو نحوه فـذلك يدخل من باب (الضرورات) وليس حكمًـا عامًا (ومـا أبيح للضرورة يُقدّر بقدرها) كمـا قرر الفقهاء[4]، فلا ينبغى عقد صلح دائم مع العدو بدفع المال إليه، بل يجب أن يكون الصلح والدفع لفترة ضـعف المسلمين أو حالة الضرورة، مع العمل الجاد على رفع حالة الضعف وبناء قوة الأمة وقدراتها المطلوبة بكل جدية وعزم، فإذا زالت يجب على المسلمين أن يمتنعوا من عـقد أى معاهدة فيها ذلة أو مفسدة لهم، والخـلاصة: إنه يجوز للدولة الإسلامية عقـد معاهدة اضطرارية تُقدّر بقدرها وتنتهى بانتهاء حالة الضرورة التى عُقدت من أجلها[5].

لم تقتصر المراسلات على الجـانب العسكرى فقط، ولكن رويت بعض المراسلات التى تتناول المناظرة فى الجوانب العلميـة والأمور العامة، فقد كـتب قيصر الروم إلى

(١) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٢٢، ١٢٣). (٢) المصدر نفسه، ص (١٢٣).
(٣) فتوح البلدان، ص (١٦٣) للبلاذرى، العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص (٢٣٩).
(٤) الأشباه والنظائر ابن نجيم، ص (٨٦).
(٥) العلاقات الخارجية للدولة الإسلامية، ص (٢٤٠).

معاوية: سلام عليك أما بعد: فأنبئنى بأحب كلمة إلى الله وثانية وثالثة ورابعة وخامسة، وعن أربعة أشياء، فيهن روح ولم يرتكضن فى رحم، وعن قبر يسير بصاحبه، ومكان فى الأرض لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة وغير ذلك من الأسئلة، فكتب إليه معاوية: أما أحب كلمة إلى الله، فلا إله إلا الله لا يقبل عملاً إلا بها، وهى المنجية، والثانية سبحان الله صلاة الخلق، والثالثة الحمد لله كلمة الشكر والرابعة الله أكبر، فواتح الصلوات والركوع والسجود، والخامسة لا حول ولا قوة إلا بالله. والأربعة فيهن روح ولم يرتكضن فى رحم فآدم وحواء وعصا موسى والكبش، والموضع الذى لم تصله شمس إلا مرة واحدة، فالبحر حين انفلق لموسى وبنى إسرائيل، والقبر الذى سار بصاحبه، فبطن الحوت الذى كان فيه يونس[1].

٢ـ تبادل الخبرات: وفى مجال تبادل الخبرات حاول كل من العرب والروم الاستفادة من خبرات الطرف الثانى فى مجالات الحياة كافة، معتمدين على الاقتباس تارة، والإبداع تارة أخرى، على أن ما أخذه المسلمون من الروم فى هذا المجال لم يكن مجرد اقتباس، بل طُور كثيراً بأن أضيف إليه أحيانًا وشذب فى أحيان أخرى، حتى أصبح يتماشى مع روح الدين الإسلامى، ويتمثل ذلك فى معالم النهضة العمرانية المتمثلة فى اهتمام الأمويين بالمساجد والتوسع فى إقامتها[2]، وقد استخدم معاوية عدداً من الروم ممن كانوا فى الإدارة البيزنطية فى بلاد الشام قبل فتحها، كتّابًا فى الأمور الإدارية، حيث عين سرجون بن منصور الرومى كاتبًا له، كما استخدم ابن أثال النصرانى طبيبًا له[3]، وكان معاوية رضى الله عنه متسامحًا مع النصارى حتى شهد له بروكلمان بهذا التسامح: «واختلطوا بالمسيحية اختلاطًا بعيداً». . . وفى بلاط معاوية لعب سرجون بن منصور النصرانى دور المستشار المالى المتنفذ، وحفظ النصارى للخليفة معاوية هذا التسامح وأخلصوا له، وأعظموه إعظامًا، لاتزال تقع عليه فى الروايات النصرانية، وحتى فى كتب التاريخ الإسبانية[4].

(١) عيون الأخبار (١/١٩٨، ١٩٩)، الحدود العربية البيزنطية (٢/٣٨٧) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٢٦).

(٢) التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، ص (١٣٢).

(٣) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٣٢).

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية نقلاً عن العلاقات العربية ـ البيزنطية، ص (١٤٠).

٣ ـ تأثر الدولة البيزنطية بالتسامح الإسلامى: يذكر العدوى: إن انعكاس التسامح الدينى مع النصارى ظهر تأثيره على الدولة البيزنطية، إذ من المعروف، أنها كانت تضطهد رعاياها من أصحاب المذاهب الأخرى وتعاملهم معاملة قاسية وتعتبرهم هراطقة، وبظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين فى التبعية لها، اتجهت الإمبراطورية البيزنطية إلى تجديد أساليبها وسياستها، وجعلت من نفسها صاحبة الحق فى رعاية المسيحيين فى بلاد الشام[١]، وكان معاوية رضى الله عنه يجلس إلى جماعات المسيحيين من المذاهب المختلفة ويستمع إلى جدلهم الدينى ومناقشاتهم المختلفة[٢]، وبهذا ضربت الدولة الإسلامية الأموية مثلاً ساميًا، يدل على عظمة الرسالة الإسلامية ومدى التسامح الدينى تجاه رعاياها من غير المسلمين وابتعادها عن التعنت والتعصب الدينى الذى يتهمهم به قسم من المستشرقين[٣].

٤ ـ آداب السفراء: لم يكن نظام الموفدين والسفراء مقتصراً على العهد الأموى بل له امتداداته من عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، فكان السفير يختار وفق مواصفات خاصة تتمثل فى قوة شخصيته ونباهته ورجاحة عقله، وكان السفير من كلتا الدولتين، يزود بخطاب يحمل تعريفًا بشخصية الرسول والغرض من رسالته وتخويله حق التحدث رسميًا باسْم دولته[٤]. ولم يكن الموفدون والسفراء مدار اهتمام الدولة الإسلامية الأموية فقط، بل اهتم الروم كذلك بسفرائهم أيضًا، فكانوا يختارونهم من رجال الدين الدهاة العارفين بأمور دينهم وأصحاب القدرة على النقاش والجدال، وفصيحى اللسان، وعارفين بالعربية إضافة إلى لغتهم الأصلية[٥]، وكان الخلفاء والملوك يهتمون بالسفراء والمبعوثين، ويستقبلون فى قصور الخلفاء وتسمع آراؤهم فيها، فحين سأل معاوية رسول البيزنطيين، بعد أن فرغ من بناء قصره المعروف بالخضراء، أبدى عليه ملاحظاته قائلاً: أما أعلاه فللعصافير، وأما أسفله فللفار وعندما أدرك معاوية صحة انتقاد السفير وصواب رأيه جعل يعيد بناء قصره بالحجارة[٦].

---

(١) العلاقات العربية ـ البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٤٢).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٤٢) نقلا عن الأمويين والبيزنطيين.

(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٢).

(٤) العلاقات العربية البيزنطية فى العصر الأموى، ص (١٤٧).

(٥) الأمويون والبيزنطيون، ص (٢١٥ - ٢٢٢).

(٦) المصدر نفسه، ص (٢٢٠).

وأما البيزنطيون فكانوا يستقبلون السفراء العرب فى كنيسة أيا صوفيا وقناطير المياه والأديرة حول القسطنطينية[1]، وعند رجوع السفير كانت تقدم له الهدايا والمجوهرات الثمينة إكرامًا له ولمن بعثه[2]، ويبدو أن الهدف من وراء ذلك عند كلتا الدولتين، هو إظهار صيغ الاحترام المتبادل والنيات الحسنة فى إقامة الصلح وإنابة السلام وكذلك إظهار كل دولة للأخرى مدى قوتها ورخائها، كى تكون محط أنظار السفير ومهابته من أجل وصف ما يشاهده إلى من بعثه عند رجوعه إليه[3]، ورغم ما أشير إليه من الصفات التى يجب توفرها فى السفير إلا أنه يبقى محط أنظار الخليفة أو الملك، وتراقب تصرفاته وحركاته خشية الوشاية والكيد وإشعال نار الحرب، وهذا ما حدث مع سفير معاوية إلى القسطنطينية الذى أرسل لعقد هدنة مع الروم وكان السفير مزودًا بتعليمات مشددة تقتضى ألا يخفف من شروط الهدنة مع البيزنطيين ولكن لم يستطع هذا السفير تنفيذ وصية معاوية وتهاون فى عقد الهدنة حتى جاءت فى صالح البيزنطيين[4]، فلما عاد عزله من منصبه[5].

سابعًا: الجراجمة فى عهد معاوية رضى الله عنه:

فى أثناء الحروب والغارات بين المسلمين والبيزنطيين، فى عهد معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، كان هناك طرف ثالث يشارك فى النزاع القائم بينهما، يطلقون على أنفسهم اسم (الجُرَاجمة) نسبة إلى مدينة (الجُرجُومة)[6]، وأصولهم غير معروفة، ويشير البلاذرى إلى أنهم كانوا يدينون بالنصرانية وأنهم كانوا لذلك يتبعون (بطريق أنطاكية وواليها)[7]. وعندما فتح المسلمون بلاد الشام أرسل أبو عبيدة عامر بن الجراح حبيب بن مسلمة الفهرى، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بادروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح فى جبل اللكام، وأن لا يُؤخَذوا بالجزية، وأن يُنَفَّلوا أسلاب من يقتلون من عدوّ المسلمين إذا حضروا حربًا معهم فى مغازيهم[8]. ولكن الجراجمة لم يلبثوا أن نقضوا اتفاقهم هذا، وصنعوا حاجزًا بين المسلمين

(١) المصدر نفسه، ص (٢٢٠).
(٢) العلاقات العربية ـ البيزنطية، ص (١٤٨).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٨).
(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (١٤٩).
(٦) الجرجومة: مدينة على جبل اللكام بالثغر الشامى فيما ما بين بياس وبوقا قرب أنطاكية، معجم البلدان (١٢٣/٢).
(٧) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٥٨).
(٨) المصدر نفسه، ص (٥٨).

والبيزنطيين واستطاعوا عرقلة سير الفتوحات الإسلامية فى آسيا الصغرى، فكانوا متذبذبين مرّة مع المسلمين وأخرى مع الروم، وقد بقيت شوكة فى ظهر الجيوش الإسلامية ليس فى عهد معاوية لكن حتى عهد عبد الملك، ثم ما لبث أن تفرقت فى بلاد الشام وآسيا الصغرى، فخفَّ خطرها[1]. وعلى أية حال، فلابد من القول بأن الإنشاءات والمجهودات التى قام بها معاوية رضى الله عنه فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية وإن كانت لم تثمر خلال حياته إلا أنها لعبت دورًا أساسيًا فى حفز من جاؤوا بعده من الخلفاء لأن يكملوا المسيرة التى بدأها[2].

ثامنًا: أبو مسلم الخولانى من الغزاة فى أرض الروم:

وهذا مثال من عظماء الرجال فى ذلك العصر الذين ساهموا فى صياغة نموذج إسلامى فى السلوك والتعامل مع الحكام والمشاركة الإيجابية فى المجتمع وحركة الفتوحات.

قال عنه الذهبى: سيد التابعين وزاهد العصر واسمه عبد الله بن ثوب على الأصح[3]، قدم المدينة وقد قبض النبى ﷺ، واستخلف أبو بكر[4]، وكانت له مواقف محمودة ضد الأسود العنسى الذى تنبأ باليمن، وثبت أبو مسلم على الإسلام فبعث إليه الأسود، فأتاه بنار عظيمة، ثم إنَّه ألقى أبا مسلم فيها، فلم تضُرَّه، فقيل للأسود: إن لم تَنْفِ هذا عنك أفسد عليك من اتَّبعك. فأمره بالرحيل، فقدم المدينة فأناخ راحلته ودَخل المسجد يُصلى، فبصُر به عمر رضى الله عنه، فقام إليه، فقال: ممَّن الرجل؟ قال: من اليمن. قال: ما فعل الذى حَرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال: نشدتك بالله، أنت هو؟ قال: اللهمَّ نعم، فاعتنقه عمر وبكى، ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين الصِّدِّيق. فقال: الحمد لله الذى لم يُمتنى حتَّى أرانى فى أمة محمد من صُنع به كما صُنع بإبراهيم الخليل[5]. وهذا التابعى الكبير كان من أهل الشام فى عهد معاوية وقد تأثر به خلق كثير بها، وكان رحمه الله كثير العبادة، فعن أبى العاتكة: قال: علَّق أبو مسلم سوطًا فى المسجد[6]، فكان يقول: أنا أولى بالسَّوط من البهائم، فإذا فتر مَشَقَ[7] ساقيه سوطًا أو سوطين. وروى أنه كان يقول: لو رأيت الجنة عيانًا أو النَّار

---

(1) خلافة معاوية للعقيلى، ص (116).

(2) المصدر نفسه، ص (116).

(3) سير أعلام النبلاء (4/ 7، 8).

(4) المصدر نفسه (4/8).

(5)، (6) سير أعلام النبلاء (4/9)

(7) مَشَقَ: ضرب بسرعة.

عيانًا ما كان عندى مستزاد[1]، وعن شرحبيل: أن رجلين أتيا أبا مسلم، فلم يجداه فى منزله، فأتيا المسجد، فوجداه يركع فانتظراه فأحصى أحدهما أنه ركع ثلاث مئة ركعة[2]، وكان أبو مسلم إذا استسقى سُقى[3]، وكان مستجاب الدعوة؛ فعن محمد ابن زياد، عن أبى مسلم، أن امرأة خَبَّبت[4] عليه امرأته، فدعا عليها، فعميت، فأتته فأعرضت وتابت، فقال: اللهُمَّ إن كانت صادقة، فاردُد بصرها، فأبصرت[5].

وشارك رحمه الله بالجهاد فى أرض الروم، فعن أبى مسلم الخولانى، أنَّه كان إذا غزا أرض الروم، فمروا بنهر فقال: أجيزوا بسم الله، ويمر بين أيديهم، فيمرون بالنهر الغَمر، فربما لم يبلغ الدَّواب إلا الرُّكب، فإذا جازوا قال: هل ذهب لكم شيء؟ فمن ذهب له شيء فأنا ضامن له، فألقى بعضهم مِخْلاته عمدًا. فلما جازوا قال الرجل: مخْلاتى وقعت، قال: اتبعنى فاتّبعه، فإذا بها معلَّقةٌ بعود فى النهر، قال: خذها[6]. وكان الولاة يتيَّمنون بأبى مسلم، ويؤَمِّرونه على المقدِّمات[7].

وقد توفى رحمه الله بأرض الروم، وكان شتا مع بُسر بن أبى أرطأة فأدركه أجله، فعاده بُسر فى مرضه فقال له أبو مسلم: يا بُسر، اعقد لى على من مات فى هذه الغزاة فإنى أرجو أن آتى بهم يوم القيامة على لوائهم[8]، وعندما سمع معاوية رضى الله عنه بموته قال: إنما المصيبة كل المصيبة بموت أبى مسلم الخولانى وكريب ابن سيف الأنصارى[9]، وكان رحمه الله من أهل الحكمة، فقد روى عن أبى مسلم الخولانى فى مجال الرِّضا التام بقضاء الله وقدره، قوله: لأن يولد لى مولود يحسن الله عز وجل نباته حتى إذا استوى على شبابه وكان أعجب ما يكون إلىّ قبضه منىّ أحب إلىّ من أن يكون لى الدنيا وما فيها[10]. وهذا دليل على كمال توحيد أبى مسلم عبد الله بن ثوب الخولانى حيث جاوز مرحلة الصبر على أقدار الله المؤلمة إلى مرحلة الرضا بقضاء الله، فاعتبر المصيبة بفقد ولد قد أحسن الله نباته وكان على خير ما يتمناه المؤمن؛ شبابًا وصلاحًا أحبّ إليه من الدنيا وما فيها[11].

هذه بعض الملامح العريضة على الجبهة الشامية المتعلقة بالجهاد فى عهد معاوية رضى الله عنه.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩).
(٢)، (٣) المصدر نفسه (٤/ ١٠).
(٤) خبَّب فلان على فلان صديقه: إذا أفسده عليه.
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ١١).
(٦) المصدر نفسه (٤/ ١١).
(٧)، (٨) المصدر نفسه (٤/ ١٣).
(٩) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٤).
(١٠) صفة الصفوة (٤/ ٢١٣) حلية الأولياء (٢/ ١٢٧).
(١١) التاريخ الإسلامى (١٩/ ٣٥٦).

المبحث الثانى

فتوحات الشمال الإفريقى فى عهد معاوية رضى الله عنه

أولاً: حملة معاوية بن حديج رضى الله عنه:

معاوية بن حديج الكندى له صحبة ورواية قليلة عن النبى ﷺ، فقد روى حديث رسول الله ﷺ: «إن كان فى شىء شفاء فشربة عسل أو شرطة محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوى»(١)، وكان رضى الله عنه ملكًا مطاعًا من أشراف كندة(٢)، وكان من خيرة الأمراء، فعن عبد الرحمن بن شماسة قال: دخلت على عائشة، فقالت: ممن أنت؟ قلت: من أهل مصر، قالت: كيف وجدتم ابن حُديج فى غزاتكم هذه؟ قلت: خير أمير، ما يقف لرجل منا فرس ولا بعير إلا أبدل مكانه بعيرًا، ولا غلامًا إلا أبدل مكانه غلامًا. قالت: إنه لا يمنعنى قتله أخى أن أُحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ: «اللهم من ولى من أمر أُمتى شيئًا فرفق بهم فارفق به، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه»(٣)، وبعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، كانت جبهة شمال أفريقيا، من أولى الجبهات التى وجه إليها اهتمامه، لأنها تتاخم حدود مصر الغربية من ناحية، ومن ناحية أخرى فهى تخضع لنفوذ الدولة البيزنطية، العدو اللدود للمسلمين، والتى صمم أمير المؤمنين معاوية على تضييق الخناق عليها، وعدم إعطائها فرصة لالتقاط أنفاسها، ففى الوقت الذى واصل فيه ضغطه عليها من الشرق، وزحفه على جزرها فى البحر المتوسط تمهيدًا للوصول إلى عاصمتها القسطنطينية ـ كما سبق ذكره ـ نراه قد قرر أن يطوقها من الجنوب، من شواطئ شمال إفريقية التى كانت تعتبرها من أملاكها، ففى أول سنة من حكمه ٤١هـ أرسل معاوية بن حديج على رأس حملة إلى إفريقية ثم أرسله ثانية سنة ٤٥هـ على رأس حملة من عشرة آلاف مقاتل، فمضى حتى دخل إفريقية وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشراف قريش،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧) إسناده صحيح .

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٤٠) .

(٣) مسلم رقم (١٨٢٨).

فبعث ملك الروم إلى إفريقية بطريقًا يقال له: نقفور فى ثلاثين ألف مقاتل، فنزل الساحل، فأخرج إليه معاوية بن حديج (عبد الله بن الزبير) فى خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر بينه وبين مدينة سوسة[(١)]، اثنا عشر ميلاً، فلما بلغ ذلك نقفوراً أقلع من فى البحر منهزمًا من غير قتال، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القرن، ثم وجه ابن حديج عبد الملك بن مروان فى ألف فارس إلى مدينة جلولاء[(٢)] فحاصرها وقتل من أهلها عدداً كثيراً حتى فتحها عنوة، وأغزى معاوية بن حديج جيشًا فى البحر إلى صقلية فى مائتى مركب، فسبوا وغنموا وأقاموا شهراً، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة[(٣)]، وبعد هذه الفتوح عاد معاوية بن حديج إلى مصر دون أن يترك قائداً أو عاملاً، ويفهم من هذا التصرف ومن سلوك معاوية بن حديج أثناء هذه الغزوة أن البربر أهل البلاد كانوا قد أصبحوا حلفاء للمسلمين على الروم، وأن المسلمين كانوا يكتفون إلى ذلك الحين بإبعاد الخطر الرومى من هذه الناحية[(٤)]. وعندما استعاد معاوية بن حديج طرابلس الغرب ترك فيها رويفع بن ثابت الأنصارى واليًا عليها سنة ٤٦هـ فغزا منها إفريقية (تونس) ودخلها سنة ٤٧هـ، وفتح جزيرة جربة التى كان يسكنها البربر[(٥)]، وقد تحدثت المراجع عن كثرة السبايا فى هذه الغزوة، وقام رويفع بن ثابت الأنصارى بتذكير المسلمين فى هذه بأحكام وطء السبايا، حيث قال: أما أنى لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره[(٦)]، ولا يحل لامرئ يؤمن

(١) سوسة مدينة صغيرة بنواحي إفريقية، بينها وبين القيروان ستة وثلاثون ميلاً ويحيط بها البحر من ثلاث جهات من الشمال والجنوب والشرق، معجم البلدان (٣/ ٢٨٢) .

(٢) هنالك مدينتان تحملان هذا الاسم، إحداهما بفارس، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وهى على طريق خراسان، وبها كانت الوقعة المشهورة بين المسلمين والفرس سنة ١٦هـ، وهذه التى بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة وعشرون ميلاً. ياقوت الحموى، معجم البلدان (٢/ ١٥٦) .

(٣) البيان المغرب لابن عذارى (١/ ١٦، ١٧)، الشرف والتسامى بحركة الفتح الإسلامى، ص (٢٠٩)، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، شكرى فيصل، ص (١٦١).

(٤) تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس (١/ ٨٥) .

(٥) صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقى للصّلابىّ، ص (٣٣٢).

(٦) زرع غيره: أى محل زرع لغيره، يعنى إتيان الحبالى.

بالله واليوم الآخر أن يقع[١] على امراة من السبى حتى يستبرئها[٢]، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنمًا[٣] حتى يُقسم»[٤].

وقد بقى فى ولاية طرابلس الغرب ثم ولاه مسلمة بن مخلد ولاية مصر وبرقة، وبقى عليها أميرًا ومات بها سنة ٥٦هـ وقبره معروف فى الجبل الأخضر ببرقة فى مدينة البيضاء، وهو آخر من توفى من الصحابة هناك، وروى عن النبى ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيهًا من أصحاب الفتيا من الصحابة، وكان خطيبًا مفوهًا[٥].

ثانيًا: عقبة بن نافع وفتح إفريقية:

هو عقبة بن نافع القرشى الفهرى، نائب إفريقية لمعاوية وليزيد، وهو الذى أنشأ القيروان واسكنها الناس[٦]، وكان ذا شجاعة، وحزم، وديانة، لم يصحّ له صحبة، شهد فتح مصر، واختطّ بها[٧]، فقد أسند معاوية بن أبى سفيان قيادة حركة الفتح فى إفريقية إلى هذا القائد الكبير الذى خلد التاريخ اسمه فى ميدان الفتوحات، وكان عقبة قد شارك فى غزو إفريقية منذ البداية مع عمرو بن العاص واكتسب فى هذا الميدان خبرات واسعة، وكان عمرو بن العاص قد خلفه على برقة عند عودته إلى الفسطاط، فظل فيها يدعو الناس إلى الإسلام، وقد جاء إسناد القيادة إلى عقبة بن نافع خطوة موفقة فى طريق فتح شمال إفريقية كله، ذلك أنه لطول إقامته فى برقة وزويلة وما حولهما، منذ فتحها أيام عمرو بن العاص، أدرك أنه لكى يستقر الأمر للمسلمين فى إفريقية ويكف أهلها عن الارتداد، فلا بد من بناء قاعدة ثابتة للمسلمين ينطلقون منها فى غزواتهم، ويعودون إليها ويأمنون فيها على أهلهم وأموالهم، فلما أسند إليه معاوية بن أبى سفيان قيادة الفتوحات فى إفريقية، أرسل إليه عشرة آلاف فارس وانضم إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه[٨]، وسار فى جموعه حتى نزل بمغمداش من سرت[٩]، فبلغه أن أهل

---

(١) يقع على امراة: يجامعها.
(٢) يستبرئها: بحيضة أو بشهر.
(٣) مغنماً: أى شيئاً من الغنيمة.
(٤) يُقسم: أى من الغانمين ويخرج منه الخمس.
(٥) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٤٨٦)، صفحات من تاريخ ليبيا والشمال الإفريقى، ص (٣٣٣).
(٦) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٢).
(٧) المصدر نفسه (٣/ ٥٣٣).
(٨) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٣).
(٩) سرت مدينة بين برقة وطرابلس، معجم البلدان (٣/ ٢٠٦).

ودان[1] قد نقضوا عهدهم مع بسر بن أبى أرطأة الذى كان عقده معهم حين وجهه إليهم عمرو بن العاص، ومنعوا ما كانوا اتفقوا عليه من الجزية، فوجه إليهم عقبة قسمًا من الجيش عليهم عمر بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى، وسار معهم بالقسم الآخر من الجيش واتجه إلى فزان[2]، فلما دنا منها دعاهم إلى الإسلام فأجابوا[3]، ثم واصل فتوحاته، فتح قصور كُوّار[4]، وخاور[5]، وغدامس[6]، وغيرها[7]، ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب فى مسيره المناطق الساحلية، فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلدًا بلدًا، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية للاستقرار والإطاحة بالوجود البيزنطى[8].

ثالثًا: بناء مدينة القيروان:

فى سنة ٥٠هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهدًا جديدًا مع عقبة بن نافع، المتمرس بشئون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها[9]، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزًا للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إنى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون[10]، ولم يعجبه موضع القيروان الذى كان بناه معاوية بن

---

(١) ودان جنوب إفريقية بينها وبين زويلة عشرة أيام من جهة إفريقية، معجم البلدان (٥/ ٣٦٥، ٣٦٦) .

(٢) فزان: جنوب ليبيا، ولاية واسعة كانت عاصمتها زويلة. (٣) فتوح مصر، ص (١٣٢).

(٤) إقليم ببلاد السودان الغربى جنوب فزان، معجم البلدان (٤/ ٤٨٦).

(٥) خاور: مدينة جنوب فزان .

(٦) غدامس: مدينة جنوب ليبيا قرب الحدود الجزائرية .

(٧) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص(٢٩٦). (٨) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص(٢٨٠).

(٩) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٣٨) . (١٠) البيان المغرب (١/ ١٩) .

حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم[١]، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعى، فدعا عليها، فلم يبق فيها شىء ، وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها[٢]، وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادى، إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا، ثلاث مرات، فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادى: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله[٣]، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة[٤]، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس فى قطع الأشجار ،وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وتم أمرها سنة ٥٥هـ وسكنها الناس، وكان فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جناب من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها[٥]، وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامى، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائمًا إلى جوار بعضهما، ويكونان دائمًا فى قلب المدينة التى يختطها المسلمون ويرتكزان فى وسطها[٦]، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسى للقيروان، الذى يسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغًا حول المسجد ودار الإمارة فى هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمرارًا للشارع الرئيسى فى الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحى إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها، وكان الكثير منهم دخل فى الإسلام، وشرعوا فى تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم، وهكذا نشاهد -فيما بين سنتى ٥٠ و٥٥هـ- حركة قوية بدأت فى تعريب الشمال الإفريقى[٧].

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٠). (٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٣) .
(٣) رياض النفوس (١/ ٩) معالم الإيمان (١/ ٩)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٣) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٣٣) وخروج الدواب بسبب دعاء عقبة وتأمين من معه رواية صحيحة الإسناد .
(٥) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٤) . (٦) الأمويون، محمد سيد الوكيل (١/ ٧٢) .
(٧) تاريخ المغرب وحضارته (١/ ٨٩) .

١ ـ الخصائص المتوافرة فى موضع القيروان :

كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية فى قرار عقبة فى اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتى :

أ ـ بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية فى الفسطاط أى بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البرى الذى يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب، ويبدو أن عقبة رحمه الله أخذ بنظرية عمر بن الخطاب فى بناء الأمصار والمعسكرات بألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب ـ موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع فى أن يكون الموضع قريبًا من السبخة، فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إبلكم على بابها فى مراعيها(١) . . وكذلك فى الكلمات التى عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم فى الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر(٢).

جـ ـ بأنه يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التى كان فيها موضع القيروان عبارة عن غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهًا لجبال أوراس، معقل قبائل البربر، إذن فإنه كان فى بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التى تكفل للمجاهدين المسلمين موردًا غذائيًا مهمًا(٣).

د ـ صحيح أن المشكلة الرئيسية التى جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثلة بالموارد المائية، كما هى الحال فى مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصرين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين، الأول منهما: الأمطار حيث كانت تخزن فى صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل)، وثانيهما: مياه وادى السراويل فى قبلة المدينة، لكنه كان مالحًا. لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان

---

(١) الروض المعطار، ص (٤٨٦)، دراسات فى تاريخ المدن العربية الإسلامية د. عبد الجبار ناجى، ص (٢٥٢).

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (١/ ٧٨) .

(٣) القيروان، للحبيب الجنحانى، ص (٥٩).

قائلاً: وشربهم من مـاء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسـيول دخل ماء المطر من الأودية إلـى برك عظام يقـال لهـا (المواجل).. ولـهم واد يسـمى وادى السراويل فى قبلة المدينة يأتى فيه ماء مالح.. يستـعملونه فيما يحتاجونه[1]، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجيًا إلى حد ما[2].

٢ ـ القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية:

لم تبدأ الحياة العلمـية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ، فـسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامـية بالمغرب وعاصمته العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفـاق، ومما رشح القيروان فى هذه المكانة ما يلى:

أ ـ إن إنشاء مدينة القيروان يعنى أن إفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءًا لا يتجزأ من العالم الإسلامى الكبير، وبالتالى سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامـية، فإن القيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقى مسئولية نشر الإسلام فى المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعـاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقـد شعر الصحـابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها[3].

ب ـ لقـد تم بناء الجامع وهـو المدرسة الأولى فى الإسـلام، ولا شك أن الصـحابة الذين كانوا فى جيش عـقبة قد جلسوا للتدريس فيـه على النمط الموجود فى مدن المشرق آنذاك، فقـد كان مع عقبة أثناء تأسيس القـيروان ثمانية عشر صـحابيًا[4]، وقد مكثـوا فيهـا خمس سنوات كاملة كـان عملهم فـيها، ولا شك، نشـر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة فى جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غـيابًا طويلاً عن القيروان، أما فى غزوة عقبة الثانية فقد كان مـعه خمسة وعشرون صحابيًا[5]، وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوى الشريف فى هذه الفترة، مما دعا عقبة أن يوصى

(١) القيروان، للحبيب الجنحانى، ص (٥٩).
(٢) دراسات فى المدن العربية الإسلامية، ص (٢٥٢).
(٣) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٠).
(٤) البيان المغرب (١/ ٢٠).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٢٣).

أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحرى حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن[١].

جـ ـ لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر فى الإسلام ورسخ الدين[٢]، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة[٣]. ومن القيروان انتشر الإسلام فى سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً فى بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام[٤]، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا فى دين الله أفواجًا ودعّم حسان بن النعمان -فيما بعد- جهود عقبة فى نشر الإسلام بين البرير حيث خصّص ثلاثة عشر فقيهًا من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام[٥]، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن، وأن يفقّهوهم فى الدِّين[٦]، وترك فى المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهًا لتعليم أهله[٧].

د ـ كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السرارى وأمهات الأولاد، قال أبو العرب[٨]: روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية من أم الولد وماتت، فدفنها فى مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية[٩]. ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية، ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان

---

(١) شجرة النور (٢/ ١٠٠) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥١).

(٢) تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٨٦). (٣) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥١).

(٤) البيان المغرب (١/ ٢٧)، مدرسة الحديث فى القيرون (١/ ٥١).

(٥) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢). (٦) البيان المغرب (١/ ٤٢).

(٧) المصدر نفسه (١/ ٤٢).

(٨) الرياض (١/ ٩١)، مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢).

(٩) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢).

فى وقت مبكر جدًا، فقد روى عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن فى الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه[1]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين: أولاهما سنة ٦٠هـ أى بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة ٧٨هـ[2].

هـ- إن الموقع الجغرافى لمدينة القيروان كان له دور كبير فى إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت فى موقع متوسط بين الشرق والغرب، يمرّ بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس فى ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها[3]، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق[4].

و - لقد كانت التجارة فى القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدّثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهمًا فى ازدهار الحياة العلمية بالقيروان[5].

ز- ومما أسهم فى ثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هى العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيرًا من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق والتى استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثانى، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب[6].

ح- كما أن القيروان اكتسبت نوعًا من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذى أسسه صحابة رسول الله ﷺ، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهى آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب[7]، كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية فى إفريقية والمغرب حتى وصفها

(١) أسد الغابة نقلاً عن مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٢).

(٢) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٣).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٥٣).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٥٣).

(٥) المصدر نفسه (١/ ٥٣).

(٦)، (٧) المصدر نفسه (١/ ٥٤).

أبو إسحاق الجبنياني بقوله: القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل ولا قتل على إحياء السنة إلا أئمتها[1]، وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب فى المجال العلمى، من ذلك ما وصفها به ماقديشى بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهى لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع فى جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا؟ ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب، ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها فى هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام[2]، وهكذا أصبحت القيروان دار العلم الإفريقية وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء، ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب[3]، لقد قامت القيروان بدور كبير فى فتح شمال إفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام فى المغرب وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية[4].

رابعًا: عزل عقبة وتولى أبى المهاجر دينار سنة ٥٥هـ:

بينما كان عقبة يواصل فتوحاته، وينظم مدينته الجديدة، إذ بوالى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى يعزله ويولى مكانه مولاه أبا المهاجر بولاية إفريقية، وقد صرح هو نفسه بذلك حينما قالوا له: لو أقررت عقبة فإن له جزالة وفضلاً فقال: ... إن أبا المهاجر صبر علينا فى غير ولاية، ولا كبير نيل، فنحن نحب أن نكافئه[5]، ولما عزل عقبة ذهب إلى معاوية فى دمشق معاتبًا، وقال له: فتحت البلاد، وبنيت المنازل، ومسجد الجماعة ودانت لى، ثم أرسلت عبد الأنصار، فأساء عزلى. فاعتذر إليه معاوية، وقال له: عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم، وتقديمه إياه، وقيامه بدمه وبذله مهجته[6]، ووعد معاوية عقبة برده إلى ولايته، ولكن الأمر تراخى كما يقول ابن عذارى حتى توفى معاوية وأفضى الأمر إلى

(١) مناقب أبى إسحاق الجبنيانى، ص (٦٠، ٦١). (٢) حسن البيان للشيخ محمد النيفر، ص (١٨٩).
(٣) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٥٥). (٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص(٢٧٠).
(٥) فتوح مصر، ص(١٣٤)، البيان المغرب (١/ ٢٢). (٦) فتوح مصر، ص (١٣٤).

يزيد، فرد عقبة واليًا على إفريقية[١]. وهناك نقطة فى هذا الموضوع، وهى الإساءة التى تعرض لها عقبة من أبى المهاجر أثناء عزله فقد ذكرت المصادر أن أبا المهاجر أساء إلى عقبة إساءة بالغة، فقد سجنه وأوقره حديدًا[٢]، ولا ندرى ما الذى حمل أبا المهاجر على هذا؟ قال الدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف فى كتابه القيم: ولا ندرى ما الذى حمل أبا المهاجر على هذا؟ ويصعب علينا أن نقبل اتهام الدكتور حسين مؤنس لمسلمة بن مخلد، بأنه هو الذى أوعز إلى أبى المهاجر أن يسىء إلى عقبة[٣]. فهذا اتهام لا يستند إلى دليل، خصوصًا أن ابن عبد الحكم يقول عن مسلمة حين ولى أبا المهاجر: وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة بأن يحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه وأوقره حديدًا، حتى أتاه كتاب من الخليفة بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[٤]. ثم يذكر أن مسلمة ركب إلى عقبة حين مر بمصر وترضاه، وأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر وقال له: ولقد أوصيته بك خاصة[٥]. ولكن لماذا خالف أبو المهاجر وصية مولاه مسلمة وأساء إلى عقبة، مع أنه هو شخصيًا كان يجل عقبة، ويعرف مقامه، وقد جزع عندما دعا عليه عقبة، وقال: هذا رجل لا يرد له دعاء، هذا هو السؤال الذى لا نملك عليه جوابًا شافيًا . . اللهم إلا الاستنتاج الذى أخذ به محمد على دبوز، وهو أن أبا المهاجر ربما يكون قد اضطر اضطرارًا إلى القبض على عقبة وسجنه، لأن عقبة خاشنه ولم يرضخ للعزل بسهولة لأنه كان يرى نفسه أحق بالولاية والقيادة من أبى المهاجر، ولعل أبا المهاجر قد خاف من خلاف يقع بين المسلمين لعدم رضوخ عقبة له فيستغله أعداؤهم الروم، فاضطر إلى سجنه حتى لا يحدث خلل بين المسلمين[٦]. إن كان هذا الاستنتاج صحيحًا وهو على كل حال معقول، فقد يخفف من شدة اللوم الذى يوجه إلى أبى المهاجر كل مسلم حريص على أن تسود روح الاحترام والإجلال بين القادة المسلمين مهما كانت خلافاتهم، وأن يحاول اللاحق منهم الاستفادة من جهود السابق وخبرته، بدلاً من الإساءة وتبادل

(١) البيان المغرب (١/ ٢٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧١).
(٢) فتوح مصر، ص (١٣٣ ـ ١٣٤)، البيان المغرب (١/ ٢٢).
(٣) فتح العرب للمغرب، ص (١٥١).
(٤) فتوح مصر، ص (١٣٣، ١٣٤).
(٥) فتوح مصر، ص (١٣٤).
(٦) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٢، ٣٣).

الأحقـاد، وأن يكون السابق منهم حـريصًا كـذلك على أن يعطى خبـرته وتجاربه ونصائحه للاحق، حتى ينجح فى مهمتـه لأن هدفهم واحد وهو الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ونشر دينه[1].

خامسًا : فتوحات أبى المهاجر دينار (٥٥ ـ ٦٢هـ) :

على الرغم من الخطأ الكبـير الذى ارتكبه أبو المهـاجر فى حق سلفـه، المجاهد الكبير عقبة بن نافع، إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نقول إنه قام بدور عظيم فى فتح المغرب وتمهيـده لقبول الإسلام دينًا ونظام حيـاة، فقد كان أبو المهاجر يتـمتع بقدر كبير من الكيـاسة والسياسة وحسن التصرف، وقد رأى ـ بثـاقب نظره ـ أن سياسة الشدة التى كان يسيـر عليها عقبة بن نافع لا بد أن تتغـير، وعليه أن يصطنع بدلها سياسـة كسب القلوب، فالبربر قـوم أشداء يعتدون بكرامتـهم وحريتهم، فسـياسة اللين معهم قد تكون أجدى من سياسة الشدة وقد نجح أبو المهاجر فى سياسته تلك نجاحًا كبيرًا، كما أن أبا المهاجر قد أدرك أن الذين يحركون البربر فى شمال أفريقيا ضد المسلمين ويؤلبونهم عليهم، هم الروم[2]، الذين أخذوا يتحبـبون إلى البربر، ولذلك انتهج سياسة تقوم على كشف حـقيقة الروم وعلى إقناع البربر أن المسلمين ما جاءوا إلى هذه البلاد ليستعمروهم ويسـتعبدوهم ويستغلوا بلادهم، كما يحاول الروم أن يفهموهم، وإنما جاءوا لهدايتهم ولخيرهم ودعوتهم إلى الإسلام الذى فيه سعـادتهم ومساعـدتهم على التحـرر من ربقة الروم، الذين يستـغلون بلادهم منذ قرون، وكـان الروم رغم الهزائم التى حلت بهم فى وسط إقليم إفريقـية وجنوبه، مازالوا قوة فى الشمال، ومازالت عاصمـتهم قرطاجنة عذراء لم يقصدها أحد من الفاتحـين الأولين، ثم إنهم مازالوا قـوة فى ساحل المغرب من بـنزرت إلى طنجة، فكان على أبى المهـاجر أن يضرب الروم ضـربة قوية ليـضعضع نفـوذهم فى تلك النواحى، ويكسر الحلف الذى عـقدوه مع البربر، فسار إلى قـرطاجنة ونازلها[3]، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فـشدد أبو المهاجر الحصار عليها فعلم الروم أنه لا قبل لهم بالجيش الإسلامى، وأن أبا المهاجر لا بد أن ينتصر عليهم، فيدخل

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٤).
(٢) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٣) .
(٣) النجوم الزاهرة (١/ ١٥٢) .

العاصمة باقتداره وقوته، فطلبوا الصلح فصالحهم بإخلاء جزيرة شريك[1]، لتنزل فيها جنوده، وكان أبو المهاجر يهدف من احتلال جزيرة شريك، القريبة من قرطاجنة، أن يراقب الروم وتحركاتهم، وترك فيها حامية من الجيش جعل على رأسها قائده حنش الصنعانى ليصد الروم إذا حاولوا مهاجمة المسلمين أثناء غزوهم للبلاد[2]. رفع أبو المهاجر الحصار عن قرطاجنة بعد أن انتزع من الروم جزيرة شريك، ذلك الموقع الاستراتيجى الهام، وترك فيها حامية تؤمن ظهر المسلمين، وتراقب تحركات الروم، ثم اتجه بعد ذلك مسايرًا الساحل ناحية الغرب، وقد خافه الروم والبربر جميعًا، فلم يتعرض له أحد، حتى وصل إلى مدينة ميلة[3]، على خمسين ميلاً من بجاية فى جنوبها الشرقى[4]، فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم، تحصنوا بها، فنازلها أبو المهاجر واحتلها، وغنم ما فيها واستقر بها، وكانت ميلة تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهى أحسن مكان يراقب منه أمور البربر والروم فى هذه البقاع، فجعلها مقره، وأقام بها نحوًا من سنتين. وقد استثمر هذه المدة فى الاتصال بالبربر، وإفهامهم حقيقة الإسلام، ودعوتهم إليه، وقد نجح فى سياسته نجاحًا كبيرًا فأقبل البربر على الإسلام، وآية ذلك أن المؤرخين لم يتحدثوا عن معارك وقعت له فى هذه النواحى من المغرب، قسنطينة الآن ونواحيها إلى بجاية[5]. لأن الروم كانوا يتقوون بالبربر، وهاهو أبو المهاجر قد نجح فى اجتذاب البربر وفصلهم عن الروم، فسكنت تلك النواحى، سكون البحر بعد العاصفة[6]، وترامت الأخبار إلى أبى المهاجر أن جمعًا من الروم والبربر يستعد لحربه، فقرر المسير إليهم، وكانت زعامة المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة[7]، وهى قسم كبير من أقسام البربر البرانس، وكان زعيم هذه القبيلة كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة قوى الشخصية، زكى الفؤاد، غيورًا على وطنه، وكان

---

(١) سميت شريك نسبة إلى شريك العبسى وهى تقع شرق قرطاجنة. تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٤) .

(٢) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٤)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٦).

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ١٥٢)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٧).

(٤) بجاية على ساحل البحر بين تونس والمغرب. معجم البلدان (١/ ٣٣٩) .

(٥) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٥) .

(٦) المصدر نفسه (٢/ ٣٥)، العالم الإسلامى فى العصرالأموى، ص (٢٧٧).

(٣) تاريخ ابن خلدون (٦/ ١٤٦)، تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٨) .

البربر يجلونه ويحبونه وكان نصرانيًا متمسكًا بدينه، وكان لا يعرف حقيقة الإسلام والمسلمين، فاستطاع الروم أن يوحوا إليه ما أرادوا فى الإسلام والمسلمين فرآهم عدوًا لدينه ووطنه، ورأى أن أبا المهاجر فى ميلة، فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن بلادهم، فتحمس البربر بثورة أميرهم كسيلة فلبسوا لأمة الحرب، واستعدوا للقراع، فتجمع لكسيلة جيش كثيف من البربر والروم[1].

١ ـ معركة تلمسان[2]: بعد أن استكمل كسيلة عدته عسكر فى تلمسان، وانتظر اللقاء المرتقب مع أبى المهاجر ولم يطل انتظاره، فقد وصل أبو المهاجر، وعسكر بجيشه حول تلمسان، فالتقى الجيشان ودارت معركة قاسية، أبلى فيها كل من الفريقين بلاءً كبيرًا، وأدركوا خطورتها وأن لها ما بعدها، وكثر القتلى من الجيشين، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فهزموا جيش كسيلة فولى الأدبار.

٢ ـ إسلام كسيلة: أسر كسيلة فى معركة تلمسان وحمل إلى أبى المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك[3]، وطمع فى إسلامه، فحدثه عن الإسلام وعرفه حقيقته، وأنه دين التوحيد الخالص، والعدل والمساواة، والأخوة، وأنه لو أسلم فلن يخسر شيئًا، بل العكس سوف يكسب الكثير روحيًا وماديًا، وكان كسيلة ذكيًا طموحًا مخلصًا لقومه لا يريد لهم إلا الإصلاح، فآمن كسيلة، وأصبح من المسلمين، وأغرم بالعربية فصار يتعلمها، وأصبح من المقربين من أبى المهاجر وشمّر كسيلة لمناصرة الإسلام والمسلمين. ودعا قومه البربر للدين الحنيف، وكان البربر قد تفتحت قلوبهم للإسلام والمسلمين وعاد أبو المهاجر بعد أن اطمأن إلى أمور المغرب الأوسط وإلى إسلام البربر إلى مقره قريبًا من القيروان، وأقام بقرية تسمى دكرور يراقب الأمور، ويرصد تحركات الروم ودسائسهم ويعمل على إزالة نفوذهم من الشمال الإفريقى، لكن لسوء الحظ لم يطل به المقام، فقد توفى مولاه مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر سنة ٦٢هـ، وكان مسلمة سندًا قويًا لأبى

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٨).

(٢) هما مدينتان إحداهما قديمة والأخرى جديدة اختطها المرابطون فهى كالقسطاط والقاهرة من أرض مصر. معجم البلدان (٢/ ٤٤).

(٣) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٣٨).

المهاجر فلمـا زال هذا السند أعاد يزيد بن معاوية (٦٠- ٦٤هـ) عـقبة بن نافع إلى إفريقية ثانية وعزل أبا المهاجر[١]، وفى تولية أبى المهاجر على إفريقية دليل على ثقة مسلمة بن مخلد الأنصارى فيه وحسن معاملة الموالى فى الإسلام، وبيان أن الناس كلهم سواسـية فى الإيمان سـواء أكانوا عربًا مسلمـين أو أجناسًا أخرى من غـير العرب، ونسـتدل من هذا الاخـتيار على أن المـوالى قد تمتعـوا بمكانة مرمـوقة فى العصر الأمـوى بعكس ما تصوره بعض الأقوال، وقيل: إن أبا المهـاجر من موالى النوبة فى مصر وقيل بأنه يرجع إلى أصول بربرية[٢].

سادسًا: حملة عقبة بن نافع الثانية (٦٢ ـ ٦٣هـ):

وصل عقبة بن نافع إلى إفريقية ورتب أمورها وعامل أبا المهاجر معاملة قاسية، فقد أوثقه فى وثاق شديد[٣]، ومع هذا فقد كـان أبو المهاجر مخلصًا وفيًـا شهمًا غيورًا، فلم يبـخل بنصائحه لعقبـة بالرغم ما حدث بينهمـا من الجفوة. ومن أبرز هذه النصائح إشارته على عـقبة بإكرام زعيم البـربر كسيلة، ومحاولة تأليفـه ليبقى على الإسلام، ولكن عقـبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمـره يومًا أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عـقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام كسيلة مغـضبًا وجعل كلما دس يده فى الشاة مسح بلحيـته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسـول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار فى قومه وبدار عزه حديث عهـد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثَّق من الرجل فإنى أخاف فتكه[٤]. فتهاون به عقبة، وسيأتى الحديث عن غدر كسيلة بالمسلمين، وكيف اغتنم فرصة انفراد عقبة فى بعض جيشـه كما سيأتى بيانه، وكيف قال عقبة لأبى المهاجـر: الحق بالقيروان وقم بأمـر المسلمين وأنا اغـتنم الشهادة، فـقال أبو المهاجـر: وأنا اغتنم الشهـادة مثلك، فكسـر كل واحد منهمـا غمد سـيفه وكـسر المسلمون أغمـاد سيوفهم وقاتـلوا حتى قتلوا[٥]. قد لاحظنا أن أبا المهـاجر خاض معـركة واحـدة كبـرى دوخ بها الروم والبـربر، وخضع له البـربر، ودخل بعض

---

(١) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٧٩). (٢) خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٠، ١٣١).
(٣) فتوح مصر، ص (١٣٤).
(٤) قادة فتح المغرب (١/ ١٣٧ ـ ١٤٢)، رياض النفوس (١/ ٢٦) .
(٥) رياض النفوس (١/ ٢٦ ـ ٢٧)، قادة فتح المغرب (١/ ١٣٧ ـ ١٤٢) .

زعمائهم فى الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومه فى الإسلام ووفر أبو المهاجر بذلك جهوداً كبيرة كان لابد من بذلها فى فتح بلاد المغرب لو بقى أولئك البربر على كفرهم، ولاشك أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربرى لم يكن يعتقد بصحة إسلامه إذ أن عقبة كان فى غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضى بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته فى نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين، ولكنه أخطأ فى اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثى عهد بالإسلام، ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال فى عدم الصدق فى الولاء فإن كسبه وبقاءه فى جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذى صحبهم وحاز على شىء من ثقتهم[1]، ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التى من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأى أهل الحل والعقد خاصة فى الأمور المهمة، وعلى أى حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً فى تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته، وإنما كان رائدهما النظر فى مصلحة الإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبى المهاجر أقرب إلى الصواب فى هذه القضية[2].

١ ـ جهاده من القيروان إلى المحيط:

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين فقام برحلته الجهادية المشهورة التى قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان فى تونس إلى ساحل المحيط الأطلسى فى المغرب، وقد استخلف على القيروان زهير بن قيس البلوى ودعا لها قائلاً: يا رب املأها علمًا وفقهًا واملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزًا لدينك وذلاً على من كفر بك.. وامنعها من جبابرة الأرض[3]، وخرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد

(١) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٥٤) . (٢) المصدر نفسه (١٣/ ٢٥٤) .
(٣) البيان المغرب (١/ ٢٣)، الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٢٦) .

من كفر بالـله ثم قال: يا بنى أوصيكم بثلاث خـصال فاحفظوها ولا تضـيعوها: إياكم أن تملأوا صدوركم بالشـعر وتتركـوا القرآن، فإن القـرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تداينوا ولو لبستم العباء فإن الدّين ذُلٌّ بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعـراضكم وتبق لكم الحرمة فى الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمـن نجا. ثم قال: عليكم سلام الله وأراكم لا تروننى بعد يومكم هذا. ثم قـال: اللهم تقبّل نفـسى فى رضاك واجعل الجـهاد رحـمتى ودار كرامتى عندك[1]. وهكذا ما إن وطئت أقدام عـقبة أرض القيـروان حتى عزم على الخروج للجهاد غـير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجـهاد وهيامه به قوله فى وصيته لأولاده: إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله. فهـو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتـاق إلى الثمن العظيم الغالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة: ١١١]. فجعل عمله الذى نذر حيـاته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيـه الهدف السامى، وهو إعلاء كلمة الله فى الأرض[2]، وفى وصيـته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فـقد أوصاهم بثلاث وصايا:

أ ـ الوصية الأولى: الاهتمام بانتـقاء العلم واختيار أطيبـه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكـريم، حيث إنه الكتاب الـذى يدل على الله عز وجل، ومـا أبلغه من وصف يهدى إلـى بلوغ الهدف السـامى الذى يسعى إليـه كل مؤمن، وهو ابتـغاء رضوان الله تعالى ونعيمـه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل فى مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا**

(١) البيان المغرب (١/ ٢٣)، صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الإفريقى، ص (٢٤٨).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٥٧) .

اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشـر: ٧]. ثم انتقاء الطيب من كـلام العرب الذى يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

ب ـ الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدين ذل بالنهار حيث يدفع المستدين إلى بعض مـواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

جـ ـ الوصية الثالثة: التحرى فـى تلقى العلم، وذلك باختيار العلمـاء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حـقيقة العلم وثمرته وهى تقوى الله عز وجل[١]. ونجـد عقـبة فى نهـاية وصيـته لأولاده يسلـمّ عليهم سـلام المودع، مما يدل على استمـاتته فى سبيل الله تعـالى، ثم يقول: اللهم تقبل نفسـى فى رضاك، واجعل الجهاد رحمـتى ودار كرامتى عندك[٢]. وبهذا الاهتمـام الكبير نجح عقـبة بن نافع رحمه الله فى فتـوحاته حيث جعل الجهاد قضيتـه الكبرى فى هذه الحياة[٣]. سار عقبـة فى جيش عظيم متجهًا إلى مـدينة باغية[٤]، حيث واجه مقـاومة عنيفة من البيزنطيين الذين انهـزموا أمامه ودخلوا مدينتهم وتحصنوا بها، فـحاصرهم مدة ثم سار إلى تلمسان وهى من أعظم مدائنهم فـانضم إليها من حولها من الروم والبربر فخرجوا إليه فى جيش ضخم والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن فى تلك المعركة فناءهم، ولكن الله منَّ عليهم بالصـبر فكانوا فى ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم، فهاجـموا الروم هجومًا عنيفًا حتى ألجأوهم إلى حـصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة[٥]، ثم استمر غربًا قاصدًا بلاد الزاب، فسأل عن أعظم مدنها فقيل له (أَرَبَه) وهى دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامـرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المـدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم. ورحل عقبة إلى(تاهرت) فاستـغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم، وقام عقبـة بن نافع فى الناس خطيبًا فقال بعدما حـمد الله وأثنى عليه: أيها الناس

---

(١) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الإفريقى، ص (٢٥٩).

(٢) البيان المغرب (١/ ٢٣) .

(٣) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٥٨).

(٤) مصر فى العصر الأموى، ص (١٢٣)، الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٨٩) .

(٥) البيان المغرب (١/ ٢٣ـ٢٧)، التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦١).

إن أشرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله بيعة الرضوان على من كذب بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم فى دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبا لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين[(١)].

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضى الله عنه قد اعتمد فى حروبه على السلاح الأعظم الذى فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة . . ألا وهو التوكل على الله تعالى، واستحضار عظمته وجلاله، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالى بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذى يهتم به أن يتأكد جيداً من أن هذا السلاح المعنوى الفعال قد توافر فى جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع فى هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين. وما أعظم شبه عقبة بخالد بن الوليد رضى الله عنه، الذى كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم ـ من غير غرور ولا استهانة ـ كلما تضخم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذه قدوة فى القيادة والإقدام الذى لا يعرف التردد والسآمة، وهو فى إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين. إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به[(٢)].

هذا وقد التقى المسلمون بأعدائهم فى مدينة (تاهرت) وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيراً، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم

(١) البيان المغرب (١/٢٣ـ ٢٧)، قادة الفتح المغرب العربى (١/١٠٨ـ ١٢٠) .

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٠) .

وسلاحهم[١]، ثم توجه إلى جهات المغرب الأقصى فوصل إلى طنجة، حيث قابل بطريقًا من الروم اسمه (جوليان) الذى أهدى له هدية حسنة، ونزل على حكمه[٢]. ولما سأله عقبة عن بحر الأندلس قال عنه: لا إنه محفوظ لا يرام[٣]، ثم سأله عن البربر والروم -بقوله: دلنى على رجال البربر والروم، فقال: قد تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وفرسانهم فى عدد لا يعلمهم إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم، فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: فى السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين[٤].. استفاد عقبة من هذه المعلومات واتجه إلى الجنوب الغربى، قاصدًا بلاد السوس الأدنى حيث التقى بجموع بربر أطلس الوسطى، فهزمهم وطاردهم نحو صحراء وادى درعا، حيث بنى مسجدًا فى مدينة درعا ثم غادر صحارى مراكش باتجاه الشمال الغربى إلى منطقة (تافللت) من أجل أن يدور حول جبال أطلس العليا كى يدخل بلاد صنهاجة الذين أطاعوه دون قتال، وكذلك فعلت قبائل هكسورة فى مدينة (أغمات)، بعدها اتجه عقبة نحو الغرب إلى مدينة تفيس[٥]، حيث حاصر بها جموعًا من البيزنطيين والبربر، فلم ينفعهم تحصنهم، فدخل المدينة منتصرًا وبذلك أتم تحرير بلاد السوس الأقصى ودخل عاصمتها (ايجلى) التى بنى فيها مسجدًا، ثم دعا القبائل فيها هناك إلى الإسلام فأجابته قبائل جزولة، وبعد ذلك سار إلى مدينة (ماسة) ومنها إلى رأس (ايفران) على البحر المحيط[٦]، وبوصول عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسى يكون قد أنجز تحرير معظم بلاد المغرب.

وتشير مصادرنا التاريخية إلى أن عقبة لما وصل إلى المحيط الأطلسى قال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدًا فى سبيلك. ثم قال: اللهم أشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يعبد أحد من دونك، ثم وقف ساعة ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم،

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٥٩٠).
(٣)، (٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٩٠)، مصر فى العصر الأموى، ص (١٢٥).
(٥) مصر فى العصر الأموى، ص (١٢٦)، البيان المغرب (١/ ٢٦_٢٧).
(٦) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠).

ففعلوا، فقال: اللهم لم أخرج بطرًا ولا أشرًا وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شىء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعًا[1]. وندرك من قوله المذكور مدى حبه للجهاد وشعوره بالمسئولية الكبرى التى حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته، والقضاء على دول الكفر التى حجبت نور الإسلام عن شعوبها، فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذى تحت مقدرته، وهذه الشهادة تشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه، وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيّن أن الحد الذى يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يعبد إلا الله وحده، ومادام الشرك قائمًا فإن الجهاد لا بد أن يكون موجودًا، فالجهاد إذن هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشرى وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام لكى يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسرًا لكل الناس[2]. ولم يقف عمل عقبة على الجهاد بل رافق ذلك بناء المساجد مثل مسجد درعة ومسجد ماسة بالسوس الأقصى[3]، كما كان يترك نفرًا من أصحابه يعلمون الناس القرآن وشرائع الإسلام، ومن هؤلاء شاكر الذى بنى رباطًا ما بين بلدتى مراكش وموجادور ولا زال موقعه باقيًا إلى اليوم وهو المعروف عند العامة بالمغرب الأقصى بسيدى شاكر[4]، ويظهر أن أغلبية بربر المغرب الأقصى أسلموا على يده طوعًا مثل صنهاجة وهسكورة وجزولة[5]، كما أخضع المصامدة، وحملهم على طاعة الإسلام[6]، وكى يأمن القبائل الكثيرة من الانتقاض عليه، كان عقبة يأخذ منها رهائن ويولى عليها رجلاً منها مثلما فعل مع مصمودة، فقد ترك عليها أبا

---

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩٠)، البيان المغرب (١/ ٢٣ـ٢٧) ، قادة الفتح المغرب العربى (١/ ١٠٨ـ١٢٠).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٢) .

(٣) رياض النفوس (١/ ٢٦)، الإسلام والتعريب (١/ ١٣٣) .

(٤) البيان المغرب (١/ ٢٧) .

(٥) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٣٣) .

(٦) تاريخ ابن خلدون (٦/ ١٠٨) .

مدرك زرعة بن أبى مدرك، أحد رؤسائها، الذى شارك فى فتح الأندلس فيما بعد[١]، ويلاحظ أن الوثنية كانت غالبة على بربر المغرب الأقصى مما يفسر كثرة السبايا والغنائم، وأصاب (عقبة) نساء لم ير الناس مثلهن فقيل إن الجارية كانت تساوى بالمشرق ألف مثقال وأكثر[٢]، وكان السبى أحد عوامل انتشار الإسلام بين البربر بحكم اختلاطهم بالبيئة العربية الإسلامية، ثم إن الاحتكاك والاختلاط المستمرين بين المقاتلة العرب والبربر أوجد صلات وروابط تجلت فى الحلف والولاء فى هذا الوقت المبكر[٣]. يذكر السلاوى أن عقبة حين وصل إلى جبل درن: نهضت زناته وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة[٤]. وهذا يشعر بأن زناته ومغراوة كانتا قد أسلمتا منذ زمن وكانتا حليفتين للمسلمين فنهضتا للدفاع عن المسلمين[٥].

٢ ـ استشهاد عقبة بن نافع وأبى المهاجر رحمهما الله تعالى:

يبدو أن عقبة المجاهد المخلص، كان يحس إحساس المؤمن الصادق، أنه سيلقى ربه شهيدًا فى هذه الجولة، فعندما عزم على المسير من القيروان فى بداية الغزو دعا أولاده وقال لهم: إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل . . . إلى أن قال: ولست أدرى أترونني بعد يومى هذا أم لا، لأن أملى الموت فى سبيل الله، وأوصاهم بما أحب، ثم قال: عليكم سلام الله . . اللهم تقبل نفسى فى رضاك[٦]. نعى عقبة نفسه إلى أولاده، فتقبل الله منه وحقق له أمله فى الشهادة، فقد أعد له الروم والبربر كمينًا عند تهوذة[٧]، وأوقعوا به وقضوا عليه هو ومن معه من جنوده، وترجع المصادر أمر الكارثة التى تعرض لها عقبة عند تهوذة إلى سبب رئيسى وهو سياسته نحو البربر بصفة عامة، وزعيمهم كسيلة بصفة خاصة، ذلك الزعيم صاحب النفوذ والمكانة فى قومه، والذى كان أبو المهاجر قد تألفه وأحسن إليه، فأسلم وتبعه كثير من قومه، لكن عقبة أساء إلى هذا الرجل إساءة بالغة، فأدرك أبو المهاجر عاقبة الخطأ الذى وقع فيه عقبة ولم يكتم نصيحته عنه ـ رغم أنه كان فى حكم المعتقل ـ ولكن عقبة لم يسمع منه، وكان أبو المهاجر من معاشرته للبربر

(١) فتوح مصر، ص (٢٠٧)، الإسلام والتعريب (١/ ١٣٤). (٢) رياض النفوس (١/ ٢٤).
(٣) الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٣٤). (٤)، (٥) المصدر نفسه (١/ ١٣٥).
(٦) البيان المغرب (١/ ٢٣، ٢٤).
(٧) تهوذة: اسم لقبيلة بربرية بناحية إفريقية لهم أرض تعرف بهم.

وزعيمهم، قد عرف مدى اعتزازهم بكرامتهم، وأدرك أنهم لن يقبلوا هذه الإهانة، وهذا الإذلال الذى لحق بزعيمهم من عقبة فخاف غدرهم، فأشار على عقبة بالتخلص من كسيلة وقال له: عاجله قبل أن يستفحل أمره[1]، ولكن عقبة لم يصغ إلى هذه النصيحة أيضًا، وليته احتاط للأمر، بل أقدم على عمل آخر فى غاية الخطورة، حيث جعل معظم جيشه يسير أمامه بعد أن رجع من رحلته الطويلة من المغرب الأقصى قاصدًا القيروان، ولما صار قريبًا من القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان وبقى هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين، وكان من عادة عقبة أنه يكون فى مقدمة الجيش عند الغزو ويكون فى الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائمًا. وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوبًا لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمرًا ويتسابقون على التضحية اقتداء به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد فى أى عمل يتوجه إليه، ولما علم الروم بانفراد عقبة بهذا العدد القليل من جيشه انتهزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوى يعتبر أهم العوامل فى تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فتآمروا عليه مع كسيلة البربرى، فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعًا لا قِبَلَ لهم[2] به، وإذا بكسيلة يحيط بجيش عقبة فى جمع عدته خمسون ألفًا[3]. وكان أبو المهاجر موثقًا فى الحديد مع عقبة، فلمّا رأى الجموع تمثل بقول أبى محجن الثقفى:

كفى حزنًا أن تمرغ الخيل بالقنا   وأُترك مشدودًا علىّ وثاقيا
إذ قمتُ عنّانى الحديد وأُغلت   مصارع من دونى تصمّ المناديا

فلما سمع عقبة ذلك أطلقه، فقال له: الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل وقال: وأنا أيضًا أريد الشهادة[4]، وهكذا كان أبو المهاجر نموذجًا من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى، ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار

(١) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩١).
(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٣).
(٣) البيان المغرب (١/ ٢٥).
(٤) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٩١).

ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى استشهدوا جميعًا فى بلاد (تهوذة) من أرض الزاب. ويَذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة فى ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها[1]. وهكذا تحقق أمل عقبة وأبى المهاجر ونالا الشهادة فى سبيل الله بعد ما قاما بالواجب الذى عليهما، واستقبلا الشهادة فى سبيل الله بنفس راضية مطمئنة إلى حسن ثواب ربها، وقد استطاع عقبة أن يشق بجهاده للإسلام طريقه فى هذا الجزء من العالم الذى سار فيه خلفاؤه من بعده، زهير بن قيس البلوى، وحسان بن النعمان الغسانى، وموسى بن نصير، فقد حقق أهدافه من التمهيد لنشر الإسلام والجهاد فى سبيل الله[2]، ولقد كان استشهاد عقبة بن نافع ومن معه فى عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك فى حدود أربع وستين سنة، وبهذا ندرك مبلغ القوة التى كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره. وهكذا استشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عامًا قضاها فى فتوح شمال أفريقيا، ابتداء بمصر وانتهاء بالمغرب الأقصى[3].

٣ ـ أثر معركة تهوذة على المسلمين (٦٣هـ) :

كانت معركة تهوذة مصيبة على المسلمين، فقد استشهد القائد المجاهد عقبة بن نافع وصحبه، وكان لاستشهاده وقع أليم على المسلمين، وانتابتهم حالة من الهلع والفزع، فمع أن العدد الذى استشهد مع عقبة كان قليلاً ـ قيل حوالى ثلاثمائة جندى ـ وأن معظم الجيش كان قد سار متقدمًا ونجا من المعركة، وكان من الممكن أن يتماسك هذا الجيش ويقاوم، حتى يحتفظ بوجوده فى القيروان، إلا أن الحالة النفسية للجنود لم تسمح بذلك، وقد حاول زهير بن قيس البلوى خليفة عقبة على القيروان أن ينفخ فى الجنود روح المقاومة والتصدى لكسيلة عندما زحف على القيروان، وهتف قائلاً: يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد منّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم، أو يفتح الله عليكم دون ذلك[4]، ولكن صيحة زهير هذه لم تجد استجابة، بل لقيت معارضة وتثبيطًا، حيث تصدى له

(١) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٤)، البيان المغرب (١/ ٢٨) .

(٢) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٦٥) .

(٤) البيان المغرب (١/ ٣١)

حنش الصنعانى وقــال له: لا والله ما نقبل قــولك ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجــاة بهذه العــصابة من المسلمين إلى مــشرقــهم، ثم قال: يا معــشر المسلمين من أراد منكــم القفول إلى مشــرقة فليتــبعنى فاتبــعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض فى أثره، ولحق بقصره ببرقة، وأقام بها مرابطًا إلى دولة عبــد الملك بن مروان[1]، وأما كــسيلة فاجتــمع إليه جمــيع أهل إفريقية، وقــصد القيروان، وبها أصحاب الأثقــال والذرارى من المسلمين، فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم، ودخل القيروان، واستولى على إفريقــية وأقام بها غير مدافع إلى أن قوى أمر عبد الملك بن مروان[2]. ولئن أخرجت إفريقية من يد المسلمين فإنها لم تخرج عن الإسلام، فــقد أسلمت قــبائل من البربــر وثبتت على إسلامــها وكــان تعيش بالقيروان، وكان كــسيلة يحسب حسابها ويتــفاداها لشدة بأسها فقد اعــترف كسيلة بذلك حين اقــترح على جيشــه الخروج من القيروان واخــتيار موضع آخــر لمواجهة جيش زهير الذى أمــده به عبد الملك بن مروان، قــال كسيلة: إنى أردت أن أرحل إلى ممس فأنزلهــا، فإن هذه المدينة (يعنى القيــروان) فيها خلــق عظيم من المسلمين ولهم علينا عهد فــلا نغدر بهم، ونحن نخاف إذا التحم القتــال أن يثبوا علينا[3]. هذا وقد بقــيت القيروان بيــد كسيلــة مدة تقارب خــمس سنوات من عام ٦٤هـ ـ ٦٩هـ حتى خلصــها زهيــر البلوى من قبضــته بعد أن أمــده عبــد الملك بن مروان بجيش كبير عندما يأتى الحديث عن زهير بإذن الله فى عهد عبد الملك بن مروان.

وفى مقتل عــقبة رحمــه الله درس بليغ وهو أهمية الحذر من العــدو فقد أرسل جنوده وبقى فى مجمــوعة قليلة من المقاتلين رغبة فى الشــهادة وهذا مطلب سامى وكبــير إلا أن استــشهاده كــان له آثار سيــئة على الفتــوحات فى شــمال إفريقــيا، وضــاعت القــيروان من أيدى المسلمــين لمدة خــمس سنوات، وتأخــرت الدعــوة الإسلامية، لذلك يجب على القادة أن يوازنوا بين مصالح الأمة الكبرى وحرصهم على الشهادة.

---

(١) البيان المغرب (١/ ٣١)، النجوم الزاهرة (١/ ١٥٩).

(٢) النجوم الزاهرة (١/ ١٦٠)، العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (٢٨٦).

(٣) رياض النفوس (١/ ٣٠)، الإسلام والتعريب فى الشمال الإفريقى (١/ ١٣٦).

المبحث الثالث

فتوحات معاوية فى الجناح الشرقى للدولة الأموية

كان المسلمون حتى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد أتموا فتح البلاد التى تقع بين العراق ونهر جيحون، وتضم جرجان وطبرستان وخراسان وفارس وكرمان وسجستان، فلما قتل عثمان تعثرت حركة الفتح، وخرج أكثر أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا جاء عهد معاوية رضى الله عنه أخذت دولته تبذل جهوداً بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطاعة ومد حركة الفتح[(١)].

أولاً: فتوحات خراسان[(٢)] وسجستان وما وراء النهر:

لما استقامت الأمور لمعاوية بن أبى سفيان ولّى عبد الله بن عامر البصرة وحرب سجستان وخراسان[(٣)]، ولقد جاء تعيين عبد الله بن عامر فى هذا المنصب نظراً لخبرته السابقة فى هذه المنطقة. وفى سنة ٤٢هـ - ٤٣هـ عين ابن عامر، عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس واليًا على سجستان فأتاها وعلى شرطته عبّاد بن الحصين الحبطى ومعه من الأشراف عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى، وعبد الله بن خازم السُّلمى، وقطرى بن الفجاءة، والمهلب بن أبى صفرة الأزدى ففتحوا فى هذه الحملة مدينة زرنج[(٤)] صلحًا ووافق مرزبانها على دفع ألفى ألف (مليونى) درهم، وألفى وصيف. ثم تقدموا نحو مدن خواش[(٥)]، وبست[(٦)]، وخُشَّك[(٧)]، وغيرها من البلدان وتمكنوا من فتحها، كما تمكنوا من فتح مدينة كابل بعد أن ضربوا عليها حصاراً استمر لعدة أشهر[(٨)]. وما لبث أن جعل معاوية رضى الله عنه إقليم سجستان ولاية مستقلة وأمّر عليها عبد الرحمن بن سمرة كمكافأة له على تحقيقه مثل تلك الفتوحات[(٩)]. وظل عبد الرحمن واليًا عليها

---

(١) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (٢١٩).

(٢) خراسان: أى مطلع الشمس.

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٣٣).

(٤) زرنج: مدينة كبيرة هى قصبة سجستان معجم البلدان (٣/ ١٣٨).

(٥) خواش: مدينة بسجستان. معجم البلدان (٢/ ٣٩٨).

(٦) معجم البلدان (١/ ٤١٤).

(٧) خشك: بلدة من نواحى كابل. ومعجم البلدان (٢/ ٣٧٣).

(٨) فتوح البلدان، ص (٣٩٥).

(٩) المصدر نفسه، ص (٣٩٦).

حتى قدم زياد بن أبى سفيان البصرة معينًا عليها بدل عبد الله بن عامر، والذى عزله معاوية سنة ٤٥هـ كما مر معنا، وعادت ولاية خراسان وسجستان مرة أخرى تحت إشراف والى البصرة. وعند وصول زياد البصرة سنة ٤٥هـ قسم خراسان أربعة أقسام هى: مرو وعليها أُمَير أحمد اليشكرى والذى كان أول من أسكن العرب فى مرو[١]، ونيسابور وعليها خُلَيد بن عبد الله الحنفى، ومرو الرُّود والطالقان والفارياب وعليها قيس بن الهيثم السُّلمى، وهَراة وباذغيس وبوشنج وقاديس وعين عليها نافع بن خالد الطاحى الأزدى[٢]، وفى سنة ٤٧هـ عمل زياد على جعل السلطة المركزية فى خراسان فى مدينة مرو (القاعدة الأساسية فيها).

ثانيًا: تعيين الحكم بن عمرو الغفارى:

وكان عفيفًا وله صحبة[٣]، وفى سنة ٤٧هـ غزا الحكم (طخارستان)[٤]، فغنم غنائم كثيرة ثم سار إلى جبال الغور[٥]، وغزا أهلها الذين ارتدوا عن الإسلام فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة[٦]، وكان المهلب بن أبى صفرة مع الحكم بخراسان، فغزا معه بعض جبال الترك وغزا معه جبل (الأشل)[٧] من جبال الترك، إلا أن الترك أخذوا عليهم الشعاب والطرق، واحتار الحكم بالأمر، فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أسر عظيمًا من عظماء الترك، فقال له: إما أن تخرجنا من هذا الضيق أو لأقتلنك، فقال له: أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق، وسير الأثقال نحوه، فإنهم سيجتمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى طريق أخرى، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه، وفعل ذلك المهلب، فسلم الناس بما معهم من الغنائم[٨]، وقطع الحكم نهر جيحون وعبر إلى ما وراء النهر[٩] فى ولايته ولم يفتح، وكان أول من شرب من

---

(١) فتوح البلدان، ص (٤٠٨).

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٥).

(٣) فتوح البلدان، ص (٤٠٩).

(٤) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد.

(٥) الغور: جبال وولاية بين هراة وغزة.

(٦) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٧٨).

(٧) الأشل: جبل فى ثغور خراسان.

(٨) الكامل فى التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١١٨).

(٩) ما وراء النهر: جيحون بخراسان، فما كان فى شرقه يقال له: ما وراء النهر، وما كان غربه فهو خراسان، وولاية خوارزم. معجم البلدان (٧/ ٣٧٠).

مائه من المسلمين هو أحد موالى الحكم، فقد اغترف بترسه بماء النهر، فشرب وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الحكم أول من فعل ذلك[1]. وقد قال عبد الله بن المبارك لرجل من أهل (الصغانيات): (من فتح بلادك؟) فقال الرجل: لا أدرى!! فقال ابن المبارك: فتحها الحكم بن عمرو الغفارى[2]. وقد مات الحكم سنة ٥٠هـ[3]، فخلفه الصحابى الجليل غالب بن فضالة الليثى والذى واصل سياسة سلفه فى إرسال حملات منظمة فى فتح طخارستان[4] ولكنه، رغم كل الجهود التى بذلها لم يحرز أى تقدم يذكر فى ولايات طخارستان. لذلك عزله زياد وولى مكانه الربيع بن زياد الحارثى (٥٠ ـ ٥٣هـ)[5]، وقد استطاع الربيع بن زياد إبان فترة ولايته على خراسان أن يغزو بلخ فصالحه أهلها، ثم غزا قوهستان ففتحها عنوة، ثم أن ابنه عبد الله، خلفه لبضعة أشهر من عام ٥٣هـ وخلفه خليد ابن عبد الله الحنفى فى إدارة الإقليم، وظل خليد فى منصبه هذا حتى وصل عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان عامل معاوية رضى الله عنه المعين على خراسان فى سنة ٥٤ ـ ٥٥هـ وكان عبيد الله ابن ٢٥ عامًا[6].

ثالثًا: عبيد الله بن زياد:

ما إن وصل عبيد الله إلى مرو حتى قاد حملة مكونة من ٢٤ ألف رجل وقطعوا نهر جيحون على الإبل، وفتحوا راميثين[7] ونسف[8] وبيكندة[9]، فأرسلت (خاتون) ملكة (بخارى) إلى الترك تستمدهم فجاءهم منهم عدد كبير، فلقيهم المسلمون وهزموهم، وعند القتال انتصروا عليهم[10]، فبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان وصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم فلم يفتح بخارى وفتح بيكندة[11]، وكان قتال عبيد الله الترك من زحوف «خراسان» التى تذكر، وقد ظهر

(١) الكامل فى التاريخ (٢/٤٧٨).

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى، ص (٤٠٠)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١١٨).

(٣) طبقات ابن سعد (٧/٢٩). (٤) خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٦).

(٥) فتوح البلدان، ص (٤٠٩)، خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٦).

(٦) تاريخ الطبرى نقلاً عن خلافة معاوية، ص (١٣٨). (٧) الكامل فى التاريخ (٢/٥٠٦).

(٨)، (٩) المصدر نفسه (٢/٥٠٦).

(١٠) تاريخ اليعقوبى (٢/٢١١)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٢٥).

(١١) فتوح البلدان، ص (٤٠١)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٢٥).

منه بأس شديد[1]، فقد ذكر شـاهد عيان، فقال: ما رأيت أشجع بأسًـا من عبيد الله بن زياد، لقينا زحف الترك بـ(خراسان)، فرأيتـه يقاتل فيحمل عليهم، فيطعن فيهم ويغيب عنا، ثم يرفع رايته تقطر دمًـا ، وبقى عبيد الله بخراسان[2] سنتين ، إذ ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥هـ[3]، فقدم معـه البصرة بخلق من أهل بخارى[4] وهم ألفان كـلهم جيد الرمى بـالنشاب[5]، وتولى ابن زياد أرفع المناصب فى أيام معـاوية ويزيد ومروان وعبـد الملك، وكان موضـع ثقة بنى أميـة وكان يعتـمد فى حكمه على القـسوة لفرض سـيطرته على الناس، وكان لا يبـالى من أجل تدعيم سيطرته أن يرتكب كل أنواع الإجراءات الرادعـة قتلاً وتعذيبًا وحجـزًا للممتلكات والأموال[6]، فقد كان ذا شخصية طاغية يحب الإمارة ويحب السيطرة. ولقد أساء ابن زياد، فترك تصرفه الأهوج فى قـتل الحسين رضى الله عنه أثرًا بالغًا فى أيامه، ولا نزال نعانى من نتائج قـتله حتى اليوم[7]، وسيأتى بيـان تفصيل ذلك بإذن الله عند الحـديث عن مقـتل الحسـين رضى الله عنه. وفى سنة ٥٥ هـ قـدم أسلم بن زرعة الكلابى خراسان واليًا عليها من قبل معاوية بن أبى سفيان بدلاً من عبيد الله ابن زياد والذى ندبه مـعـاوية لولاية البـصرة وظـل أسلم فى ولايتـه مدة تقـارب السنة[8].

رابعًا : سعيد بن عثمان بن عفان(٥٦هـ):

تروى المصادر التـاريخية أن سعـيد بن عثمـان بن عفان قد اصطحب مـعه إلى خراسان حوالى أربعة آلاف رجل فيهم عدد من مشاهير رجالات القبائل العربية فى البصرة والكوفـة، كما كان من ضمنهم حـوالى خمسين عابثًـا وقاطعًا للطريق من أمثال مالك بن الرِّيب المازنى التميـمى، وهؤلاء تابوا ورجعوا إلى رشدهم وفضلوا الجهاد فى سبيل الله[9]، ومالك بن الريب هو القائل:

ألم ترنـى بعت الضـلالـة بالهـدى   وأصبحت فى جيش ابن عفان غازيا[10]

(١) الكامل فى التاريخ نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٢٥).
(٢) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٠٦) .
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٥٠٧).
(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٠٦)، الفتوح، ص (٤٠١).
(٥) الفتوح، ص (٤٠١).
(٦) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٣٥).
(٧) المصدر نفسه، ص (١٣٧).
(٨) خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٣٩).
(٩) المصدر نفسه، ص (١٤٠).
(١٠) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٥٤).

وقدم سعيد خراسان فقطع النهر إلى (سمرقند) وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذى صالحت عليه عبيد الله بن زياد وأقبل أهل الصُّغد وكِش ونسف إلى سعيد فى مائة ألف وعشرين ألفًا، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية، فنكثت العهد، ولكن قسمًا من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال، فأثّر انصرافهم فى معنويات الآخرين واهتزّت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك، أعادت الصلح، فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحًا[1]، وطلب سعيد من خاتون أن تبعث إليه بثمانين من أعيان بلادها ممن كانوا على رأس الخارجين عليها، وممن تخشى غدرهم بها وتهديدهم لعرشها، وتخلّصت بذلك من أشدِّ أعدائها خطرًا على عرشها وحاضرها، ومستقبلها، وحين تمَّ الصلح بين خاتون وسعيد، زارت خاتون سعيدًا بمقرِّه، فطلعت عليه فى زينتها الملكية، وكانت نادرة الجمال على ما يقال، فادّعى أهل بخارى أن القائد المسلم أعجب بجمالها أيّما إعجاب، وجرى ذكر إعجاب سعيد بها فى الأغانى الشعبية التى لا يزال أهل بخارى يردِّدونها ويتغنون بها حتى اليوم، ولكن هذا الإعجاب لا ذكر له فى المصادر العربية الإسلامية المعتمدة، ومن الواضح أنه أقرب إلى خيال الأدباء والفنانين منه إلى حقائق المؤرخين. وغزا سعيد سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند، وحلف ألا يبرح أو يفتحها، وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام، وكان أشدّ قتالهم فى اليوم الثالث حيث فُقئت عين سعيد، ولزم أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عنوة ويقتل من فيه، فطلبوا الصلح، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهنًا من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة ومن شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم، ويقال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين[2]. وكان معه من الأمراء المهلب بن أبى صُفرة الأزدى وغيره، واستشهد معه يومئذ قثم بن العباس بن عبد المطلب، وكان يُشبَّه بالنبى ﷺ[3]، وكان أخوه عبد الله بن عباس دفن بالطائف وأخوه معبد استشهد بإفريقية وعبيد

(١) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر صـ٨٢، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٤).
(٢) فتوح البلدان، ص (٤٠١ ـ ٤٠٢)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤١).
(٣) شذرات الذهب (١/ ٦١)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٢).

الله بالمدينة وكلهم من أب واحد وأم واحدة قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذا وانصرف سعيد بن عثمان إلى (تِرْمِذ) ففتحها صلحًا[١]، وقد كان سعيد شاعرًا ومن شعره فى معاوية قوله:

ذكرت أمير المؤمنين وفضله ... فقلت جزاه الله خيرًا بما وصل
وقد سبقت منى إليه بوادر ... من القول فيه آفة العقل والزلل
فعاد أمير المؤمنين بفضله ... وقد كان فيه قبل عودته ميل
وقال: خراسان لك اليوم طعمة ... فجُوزى أمير المؤمنين بما فعل
فلو كان عثمان الغداة مكانه ... لما نالنى من ملكه فوق ما بذل[٢]

وعزل معاوية سعيد عام ٥٧هـ، فأخذ سعيد مالاً من خراج خُراسان، فوجّه معاوية من لقيه بـ(حلوان)[٣] وأخذ المال منه، ومضى سعيد بالرهن الذين أخذهم من أبناء عظماء (سمرقند) حتى ورد بهم المدينة النبوية، فدفع ثيابهم ومناطقهم إلى مواليه، وألبسهم جباب الصوف، وألزمهم السقى والعمل[٤]، وألقاهم فى أرض يعملون له فيها بالمساحى، فأغلقوا يومًا باب الحائط ووثبوا عليه فقتلوه ثم قتلوا أنفسهم[٥]، فقال خالد بن عقبة بن أبى معيط الأموى[٦]:

ألا إنّ خير الناس نفسًا ووالدًا ... سعيد بن عثمان قتيل الأعاجم
فإن تكن الأيام أردت صروفها ... سعيدًا فهل حىٌّ من الناس سالم؟

وقال أيضًا يرثيه:

يا عين جودى بدمع منك تهتانًا ... وأبكى سعيد بن عثمان بن عفانا

لم يف سعيد لأهل (سمرقند) بإعادة الرهن لهم، بل جاء بالغلمان معه إلى المدينة النبوية وجعل يستعملهم فى النخيل والطين وهم أولاد الدهاقين وأرباب

(١) فتوح البلدان، ص (٤٠٢)، قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٢).
(٢) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٤).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٤٣، ١٤٤). (٤) فتوح البلدان، ص (٤٠٢ ـ ٤٠٣).
(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (٤٠٣)، قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٢).

النِّعم، فلم يطيقوا ذلك العمل وسئموا عيشهم فوثبوا عليه فى حائط له، وبذلك غدر بهم[١]، فكان هذا الغدر وبالاً عليه، إذ قدم حياته ثمنًا لغدره[٢]، لقد كان سعيد شهمًا غيورًا يعتد بشخصيته، طموحًا، مُتْرَفًا، سخيًا، وكان من شخصيات قريش البارزة[٣].

خامسًا: فتح سلم بن زياد أخى عبيد الله بن زياد (٥٧هـ):

عزل معاوية بن أبى سفيان سعيد بن عثمان بن عفان سنة سبع وخمسين الهجرية، وأُضيفت إلى ولاية عبيد الله بن زياد فى رواية[٤]، وفى رواية أخرى، أن معاوية بن أبى سفيان ولّى خراسان عبد الرحمن بن زياد، وكان شريفًا، فلم يصنع شيئًا فى مجال الفتح، وكان ذلك فى سنة ٥٩هـ[٥]، ومات معاوية وعلى خراسان عبد الرحمن بن زياد ولما سار سلم إلى خراسان، كتب معه يزيد إلى أخيه عبيد الله بن زياد، فى العراق ينتخب له ستة آلاف فارس، وقيل: ألفى فارس، وكان سلم ينتخب الوجوه، فخرج معه عمران بن الفضيل البُرجُمىّ، والمهلب بن أبى صفرة، وعبد الله بن خازم السُّلمى، وطلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعى وخلق كثير من رؤساء البصرة وأشرافهم، فأخذ سلم هؤلاء الفرسان معه من البصرة، وتجهز ثم سار إلى خراسان[٦]، وبدأ سلم بغزو خوارزم، فصالحوه على أربعمائة درهم وحملوها إليه. وقطع سلم النهر (جيحون) ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبى العاص الثقفى، وكانت أوّل امرأة عربية عُبر بها النهر، فأتى (سمرقند) فصالحه أهلها[٧]. ووجد (خاتون) ملكة بخارى قد نقضت العهد، واستنجدت بجيرانها من الصُّغْد، وأتراك الشمال، فجاء طرخون على جيش الصُّغْد، كما جاء ملك الترك فى عسكر كثيف، ولم تؤثر تلك الحشود الضخمة من القوات المعادية فى معنويات المسلمين، فحاصروا بخارى دون أن

---

(١) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٣).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٤٣).
(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥١٤).
(٤) النجوم الزاهرة (١/ ١٤٩)، قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٨).
(٥) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٤٨).
(٦) الكامل فى التاريخ نقلا عن قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٩).
(٧) قادة الفتح الإسلامى، ص (١٤٩)، فتوح البلدان، ص (١٤٩).

يهجموا عليها، ليقفوا أولاً على تفاصيل قوات أعدائهم ومواضعها، وهى متربصة بهم فى مواضع ليست بعيدة عن بخارى. وأمر سلم المهلب بن أبى صفرة الأزدى أن يستطلع أحوال العدو فاقترح المهلب أن يكلف غيره بهذه المهمة، وحجته أنه معروف المكانة بين قومه والمسلمين وقد يفشى تغيبه عن معسكر المسلمين سرّ الواجب الذى أُلقى على عاتقه، وهذا الواجب ينبغى أن يبقى سراً مكتومًا حتى يتم إنجازه بسرية تامة وكتمان شديد وحذر بالغ، لأن إفشاءه يعرّض المسلمين لخطر جسيم، ولكنّ سلم بن زياد أصرّ على إيفاد المهلب دون غيره فى هذا الواجب الحيوى الذى قد يعجز غيره عن النهوض به كما ينبغى، وأرسل معه ابن عمه ورجلاً من كل لواء من ألوية المسلمين، واشترط المهلب على سلم ألا يبوح لأحد من الناس كائنًا من كان بمهمته، ثم مضى إلى سبيله ليلاً مع جماعته الاستطلاعية، فكمن فى موضع مستور، واستطلع قوات العدو دون أن يشعر العدو بموضعه المخفىّ المستور، ويبدو أن قوم المهلب والمسلمين افتقدوا المهلب فى صلاة الفجر من تلك الليلة التى تسلل بها المهلب إلى موضع قريب من العدو، فما كان تغيب مثله أن يخفى على أحد وهو ليس مجهول المكان والمكانة، يملأ الأعين قدراً وجلالاً، فألحّوا على سلم بالسؤال عن المهلب وألحفوا عليه، فلم يستطع أن يكتم أمره وأخبرهم أنه أرسله فى مهمة استطلاعية ليلاً، وفشا الخبر بسرعة خاطفة فى العسكر، فأسرع جمع من المسلمين بالركوب وتوجّهوا صوب موضع المهلب المستور، فكشفوا موضعه وموضع رجاله للعدو، وأبصرهم المهلب مقبلين نحوه يتسابقون بدون نظام ولا تنظيم، فلامهم أشد اللوم على ما أقدموا عليه، لأنهم كشفوا موضع جماعته الاستطلاعية للعدو دون مسوِّغ، فعرّضهم لخطر محدق أكيد، وأصبح موقف المهلب ومن معه من المسلمين فى خطر داهم فبذل المهلب قصارى جهده لمعالجة موقفه الخطير، وتدارك ما يمكن تداركه، وأحصى المهلب المسلمين الذين التحقوا به متطوّعين، فكانوا تسعمائة من الفرسان المجاهدين، فقال لهم: والله لتندمُنّ على ما فعلتم، وحدث ما توقعه المهلب، فما كاد ينظِّم المسلمين صفوفًا، حتى هاجمهم الترك وأبادوا منهم أربعمائة فارس مجاهد، ولاذ الباقون منهم على قيد الحياة بالفرار، وأحيط بالمهلب ومن بقى معه من جماعته

الاستطلاعية ذات العدد المحدود، ولكنه ثبت ثباتًا راسخًا لا يتزعزع عن موضعه، فالموت بالنسبة لأمثاله أهون عليهم من الفرار، وصاح المهلب بصوته الجهوريّ القوى مستغيثًا بالمسلمين، فسُمع صوته من معسكر المسلمين القريب، الذى كان على نصف فرسخ من موضعه المواجه للعدو، وبادر فورًا إلى نجدته من قومه الأزد، فشاغلوا الترك ريثما أقبل المسلمون خفافًا لنجدته على عجل بقيادة سَلْم، ونشب القتال بين الجانبين، فقاتل المسلمون الترك حتى هزموهم هزيمة نكراء حيث هربوا من ساحة المعركة مخلِّفين أموالهم وأثقالهم، فغنمها المسلمون حتى أصاب كلّ فارس ألفين، وأربعمائة درهم فى رواية، وعشرة آلاف درهم فى رواية أخرى، وطارد المسلمون الترك المنهزمين، فلم ينج منهم إلا الشريد، وكان من بين القتلى (بندون) أو (بيدون) الصُّغدى ملك الصُّغد وأعادت خاتون الصُّلح من جديد مع سلْم ، فاستعاد فتح بخارى[1]، وبعث سَلْم وهو بالصّغد جيشًا من المسلمين إلى (خُجَنْدة) وفيهم الشاعر أعشى همدان، فهُزم المسلمون فقال الأعشى:

ليت خيلى يوم الخُجَنْدة لم يهزم   وغودرت فى المكرِّ سَلِيبَا
تحضُرُ الطيرُ مصرعى وتروحت   إلى الله فى الدماء خضيبا[2]

وكان عمّال خراسان قبل سَلْم يغزون، فإذا دخل الشِّتاء رجعوا إلى (مزوا الشَّاهجان)، فإذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلى خُوارِزم، فيتعاقدون أن لا يغزو بعضهم بعضًا، ويتشاورون فى أمورهم. فلما قدم سَلْم غزا فشتا فى تلك السنة، فألحّ عليه المهلّب بن أبى صفرة وسأله التوجه إلى تلك المدينة، فوجّهه فى ستة آلاف، وقيل: أربعة آلاف، فحاصرهم، فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم، فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيِّف وعشرين ألف درهم، وكان فى صلحهم أن يأخذ منهم عروضًا، فكان يأخذ الرأس والدّابة بنصف ثمنه، فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف درهم[3]، وعاد سلم إلى(مَرْو) بعد جهاد هذه السنة الذى استمرّ سنتى إحدى وستين الهجرية واثنتين

(١) تاريخ بخارى للنرشخى، ص (٦٥ ـ ٦٧) نقلاً عن قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٥٢).
(٢) فتوح البلدان، ص (٥٨١)، الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٨٤).
(٣) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٨٤).

وستين الهجرية، ويبدو أنه قطع النهر ثانية فى سنة ثلاث وستين الهجرية[١]، لأنه علم بأنّ الصُّغد قد جمعت له، فقاتلهم وقتل ملكهم[٢]، ولكنه عاد مسرعًا إلى (مرو) ليعالج مشاكل المنطقة الداخلية، فقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم[٣]، فقد مات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين، فبويع بعده معاوية بن يزيد بن معاوية فلم يمكث إلا ثلاثة اشهر حتى هلك، وقيل: بل ملك أربعين يومًا ثم مات[٤]، وقيل غير ذلك، ولما بلغ سلم موت يزيد بن معاوية كتم ذلك، ولكنّ الخبر انتشر بين الناس فى خُراسان انتشار النار فى الهشيم، فمثل هذا الخبر يستحيل كتمانه مدة طويلة، ولما علم سلم بانتشار خبر موت يزيد بين الناس، أظهر موت يزيد وابنه معاوية، ودعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثمّ نكثوا بعد شهرين، وكان سلم محسنًا إليهم محبوبًا فيهم، ولكن قسمًا من القبائل العربية خلعوه عصبية وتعصبًا وفتنة، فلم يجد أهل خُراسان أميرًا قد أحبهم مثل سَلْم بن زياد[٥]، ولكن قائلهم قال: بئس ما ظنّ سَلْم، إن ظنَّ أنه يتأمر علينا فى الجماعة والفتنة[٦]، ووثب أهل خُراسان بعمالهم فأخرجوهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، ووقعت الحرب[٧]، ونشب الاقتتال بين القبائل العربية ، وأصبحت خراسان مناطق؛ فى كل منطقة قائد وأمير، وتساقطت القتلى بين المسلمين بالسيوف، وتوقف الفتح وتوجه سَلْم إلى عبد الله ابن الزبير فى مكة المكرمة[٨].

سادسًا : فتوحات السند فى عهد معاوية :

تمكن المسلمون فى عهد معاوية رضى الله عنه من بسط نفوذهم إلى ما وراء نهر السند، ففى سنة ٤٤هـ غزا المهلب بن أبى صفرة ثغر السند فأتى بَنَّة[٩]، ولاهور،

(١) قادة الفتح الإسلامى، ص (١٥٢). (٢) فتوح البلدان، ص (٥٨٢).
(٣) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٥٢).
(٤) الكامل فى التاريخ (٢/ ٦٠٥). (٥) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٢).
(٦) فتوح البلدان، ص (٥٨٢).
(٧) قادة الفتح الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، ص (١٥٣).
(٨) فتوح البلدان، ص (٥٨٢)، قادة الفتح الإسلامى، ص (١٥٤).
(٩) بَنَّة: مدينة بكابل، ياقوت، معجم البلدان (٢/ ٥٠٠).

وهما بين المُلتان[١]، وكابل، وأما فى مستهل سنة ٤٥هـ فقد أرسل والى البصرة عبد الله بن عامر (عبد الله بن سوّار العبيدى) إلى ثغر السند على رأس حملة قوامها أربعة آلاف رجل، ولما وصل ابن سوّار إلى مدينة مكران، بقى هناك أربعة أشهر يعدّ نفسه وجنده للحملة المرتقبة. ثم تقدم وجماعته نحو بلاد القيقان[٢]، وفتحها، وكانت هديته إلى معاوية رضى الله عنه خيلاً قيقانية[٣] سلّمها بنفسه إليه فى الشام، فأصل البرازين القيقانية من نسل تلك الخيول[٤]. وعلى أية حال، فلم يدم المقام لابن سوّار طويلاً فى ثغر السند فقد قتلته جماعة من الترك هناك فى سنة ٤٧هـ[٥]، وفى سنة ٤٨هـ اختار زياد بن أبى سفيان سنان بن سلمة بن المُحَبَّق الهذلى ليكون واليًا على الأقاليم المفتوحة من ثغر السند وما أن وصل سنان إلى هناك حتى تمكن من فتح مدينة مكران (عنوة) ومصَّرها وأقام بها وضبط البلاد[٦]. ولكن سنان لم يمكث هناك سوى سنة أو سنتين ثم عزله زياد. وولى مكانه راشد ابن عمرو الأزدى، فأتى مكران ثم تقدم فى بلاد القيقان، فظفر، ثم اتجه نحو الميد، فقتل هناك[٧]، وبعد ذلك تولَّى عباد بن زياد بن أبى سفيان أمر سجستان فقاد حملة توغل فيها فى منطقة حوض نهر السند فنزل كِشْ، ثم سار إلى قُنْدُهار[٨]، فقاتل أهلها فهزمهم، وفتحها بعد أن أصيب رجال من المسلمين[٩]، وكان آخر الولاة الذين تولوا أمر الفتوحات فى هذا الجزء هو المنذر بن الجارود العبدى أبو الأشعث والذى وصل ثغر السند معينًا عليه من قبل عبد الله بن زياد ابن أبى سفيان والى البصرة سنة ٦٢هـ، فقاد المنذر حملة ضد مدينة قُصدار[١٠]، وتمكن من فتحها[١١].

(١) المُلتان: مدينة من نواحى الهند قرب غزنة، أهلها مسلمون.

(٢) القيقان: بلاد قرب طبرستان، معجم البلدان (٤/ ٤٢٣).

(٣) فتوح البلدان، ص (٤٣٢).

(٤)، (٥) تاريخ خليفة، ص (٢٠٧)، خلافة معاوية بن أبى سفيان للعقيلى، ص (١٤٢).

(٦) فتوح البلدان، ص (٤٣٢).

(٧) المصدر نفسه، ص (٤٣٢).

(٨) معجم البلدان (٤/ ٤٠٢).

(٩) فتوح البلدان، ص (٤٣٣).

(١٠) معجم البلدان (٤/ ٣٥٣).

(١١) فتوح البلدان، ص (٤٣٣)، خلافة معاوية للعقيلى، ص (١٤٣).

المبحث الرابع

أهم الدروس والعبر والفوائد في فتوحات معاوية رضى الله عنه

أولاً : أثر الآيات والأحاديث فى نفوس المجاهدين :

كان للآيات والأحاديث التى تتحدث عن فضل الجهاد أثرها فى نفوس المجاهدين، فقد بين المولى عز وجل أن حركات المجاهدين كلها يثاب عليها، قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : ١٢٠ ، ١٢١].

وقد تعلموا أن الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه، قال تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة : ١٩ـ ٢٢].

واعتقدوا أن الجهاد فوز على كل حال، قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة : ٥٢]، وأن الشهيد لا تنقطع حياته بل هو حى، قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١]. وكانوا يشعرون بسمو هدفهم الذى يقاتلون من أجله، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٤ ـ ٧٦].

وقد بيَّن الرسول ﷺ للمسلمين فضل الجهاد فألهبت أحاديثه مشاعرهم وعواطفهم وفجرت طاقاتهم، ومن هذه الأحاديث ما ورد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، أى الناس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: **«مؤمن يجاهد بنفسه وماله»**[(١)]، وقد بيِّن رسول الله ﷺ درجات المجاهدين فقال: **«إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»**[(٢)]. وقد وضح ﷺ فضل الشهداء وكرامتهم فقال: **«انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يُخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرّية ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم اقتل ثم أحيا ثم أقتل»**[(٣)] وقال ﷺ: **«ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شىء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»**[(٤)]. وغير ذلك من الأحاديث.

وقد تأثر المسلمون الأوائل ومن سار على نهجهم بهذه الآيات والأحاديث، فكان كبار الصحابة رضى الله عنهم يغزون وقد تقدم بهم العمر فيشفق عليهم الناس وينصحونهم بالقعود عن الغزو، لأنهم معذورون فيجيبونهم أن سورة التوبة تأبى عليهم القعود ويخافون على أنفسهم من النفاق إذا ما تخلفوا عن الغزو[(٥)].

---

(١) البخارى رقم (٢٧٨٦).

(٢) البخارى رقم (٢٧٩٠).

(٣) مسلم (٣/١٤٩٧).

(٤) البخارى رقم (٢٨١٧).

(٥) الجهاد فى سبيل الله للقادرى (١/ ١٤٥).

كمـا كان للـعلماء والفـقهـاء والزهاد دور كبـير فى تربيـة الناس على هذه الآيات والأحاديث ومن هؤلاء العلماء كـبار الصحابة كأبى أيوب الأنصـارى، وابن عمر، وغيرهما ومن التابعين كأبى مسلم الخولانى، يرون أن الجهاد فى سبيل الله ضرورة من ضرورات بقاء الأمـة الإسلامية، فقامـوا بهذه الفريضة فى فتـوحات بلاد الشام والشمال الأفريقى وخراسان وسجسـتان والسند، وترتب على قيامهم بهذه الفريضة ثمرات كثيرة منها: تأهيل الأمة الإسلامية لقيادة البشرية، القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب فى قلوبهم، ظهور صدق الدعوة للناس الأمر الذى جعلهم يدخلون فى دين الله أفواجًـا، فيزداد المسلمون بذلك عـزاً والكفار ذُلاً، وتوحدت صفوف المسلمين ضد أعدائهم وأسعدوا الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته[1].

ثانيًا: من سنن الله فى فتوحات معاوية:

يلاحظ البـاحث فى دراستـه للفتوحـات فى عهـد معـاوية بعض سنن الله فى المجتمعات والشعوب والدول، ومن هذه السنن:

١ ـ سنة الله فى الاتحاد والاجتماع: كانت الفـتنة التى أدت إلى استشـهاد عثـمان رضى الله عنه أكبر معوق أصاب حـركة الفتوحات بعد الردة أيام أبى بكر رضى الله عنه، حيث أدى اسـتشهاد عـثمان إلى توقف الجـهاد، واتجاه سيـوف المسلمين إلى بعضـهم فى فتنة كادت تعصف بـالأمة الإسلاميـة، لولا أن تداركتها رحـمة الله ـ سبحانه -وتعالى- بصلح الحسن بن على مع مـعاوية رضى الله عنهما، وقد امتلأت المصادر بالنصوص التى تبين أثر الفتنة فى انحسار حركة الجهاد.[2] ومن هذه الآثار:

ـ عن الحـسن بن على رضى الله عنه أنه قـال: قد رأيـت أن أعمـد إلى المدينة فأنزلها وأخلـى بين معاوية وبين هذا الحديث، فـقد طالت الفتنة، وسقطت فـيها الدماء وقطعت فيها الأرحام وقطعت السبل، وعُطلت الفروج ـ يعنى الثغور-[3].

ـ ما أخرجه أبو زرعة الدمشقى بإسناده قـال: لما قتل عثمان، واختلف الناس، لم تكن للناس غازية، ولا صائفة حتى اجتمعت الأمة على معاوية[4].

---

(١) الجهاد فى سبيل الله (٢/ ٤١١ ـ ٤٨٢).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٣١٠).

(٣) الطبقات: تحقيق السُلمى (١/ ٣٣١).

(٤) مرويات خلافة معاوية، ص (٣١٠).

ـ قول أبى بكر المالكى: فوقعت الفتنة . . واستشهد عثمان رضى الله عنه، وولى بعده على رضى الله عنه، وبقيت إفريقية على حالها إلى ولاية معاوية رضى الله عنه[1]، ولكن بعد الصلح وما ترتب عليه من الاتحاد والاجتماع عادت حركة الفتوحات إلى ما كانت عليه، وأصبحت فى عهد معاوية على ثلاث جبهات كما مر معنا . إن الاتحاد والاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله مقصد من مقاصد الشريعة، وهذا المقصد من أهم أسباب التمكين لدين الله واستمرار حركة الفتوحات، فالأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين، وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جدًا فى إعزاز المسلمين، وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم[2]. فحركة الفتوحات بين الانطلاق والتوقف مرهون بتحقيق سنة الاتفاق والاتحاد والاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف والشقاق، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٢ ـ سنة الأخذ بالأسباب: قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد قام معاوية رضى الله عنه بالعمل بهذه الآية وحث ولاته على العمل بها، ويظهر أخذ معاوية رضى الله عنه بسنة الأخذ بالأسباب، فى اهتمامه ببناء الأسطول البحرى وتطويره، وتقوية الجيش، والقضاء على الفتن الداخلية، ودعم الثغور، وأماكن الرباط والتخطيط الاستراتيجى للدولة فى سياستها الداخلية والخارجية، والتكتيك العسكرى، فى نظام المعسكرات، ونظام الرباط والثغور، والصوائف والشواتى، وبناء الحصون، ونظام التعبئة، وتوطين القبائل، لنشر الإسلام وتثبيت الفتوحات والتصدى لحركات التمرد، فبعدما زال خطر الهجوم العسكرى من الفرس قام بتوطين عشرات الألوف من الأسر العربية فى الجناح الشرقى من الدولة خاصة خراسان، وقد نجحت هذه السياسة وآتت ثمارها فى هذا الجناح[3].

---

(١) رياض النفوس (١/ ٢٧). (٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على، ص (٣٥٩).
(٣) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١١٩).

٣ ـ سنة التدافع: قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١] وقد تحققت هذه السنة فى حركة الفتوحات عمومًا، وسنة التدافع من أهم سنن الله تعالى فى كونه وخلقه، وهى من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية، وقد استوعب المسلمون الأوائل هذه السنة وعملوا بها وعلموا: أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضى به، وقلوب تحنو عليه وأعصاب ترتبط به. إنه يحتاج إلى جهد بشرى، لأن هذه سنة الله فى الحياة الدنيا وهى ماضية(١).

٤ ـ سنة الابتلاء: قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقد وقع البلاء فى حصار القسطنطينية، وتعرض الكثير من المسلمين للقتل، وفى فتوحات الشمال الإفريقى، واستشهاد القادة كعقبة بن نافع وأبى المهاجر دينار، وغيرهما، فهذه سنة الله فى العقائد والدعوات فلا بد من الأذى فى الأموال والأنفس ولا بد من صبر، واعتزام(٢).

٥ ـ سنة الله فى الظلم والظالمين: قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ـ ١٠٢]. وسنة الله مطردة فى هلاك الأمم الظالمة، وقد مارست الدولة الفارسية الظلم على رعاياها، وتمردت على منهج الله فمضت فيها سنة الله وسلط الله عليها المسلمين فأزالوها من الوجود(٣)، وكذلك نفوذ الدولة البيزنطية من الشام ومصر، وتزعزع وجودها فى الشمال الإفريقى، وما جاء عهد الوليد بن عبد الملك حتى زال نفوذها من الشمال الإفريقى كليًا.

---

(١) لقاء المؤمنين، عدنان النحوى (٢/ ١١٧).

(٢) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين للصلابى، ص (٤٥٦).

(٣) السنن الإلهية فى الأمم والجماعات والأفراد، ص (١١٩ـ١٢١).

٦ ـ سنة الله فى المترفين: قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. وجاء فى تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أى: متنعميها وجبّاريها وملوكها، ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكها، وإنما خص الله المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[1]، وقد مضت هذه السنة فى زعماء الفرس وأئمتهم فى بلاد فارس وزعماء الروم فى الشام ومصر والشمال الإفريقى.

٧ـ سنة الله فى الطغيان والطغاة: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] والآية وعيد للعصاة مطلقًا، وقيل: وعيد للعصاة ووعيد لغيرهم[2]. وفى تفسير القرطبى: أى يرصد كل إنسان حتى يجازيه به[3]، وواضح من أقوال المفسرين فى الآيات التى ذكرناها فى الفقرة السابقة أن سنة الله فى الطغاة إنزال العقاب بهم فى الدنيا، فهى سنة ماضية لا تتخلف، جرت على الطغاة السابقين وستجرى على الحاضرين والقادمين، فلن يفلت منهم أحد من عقاب الله[4]. وسنة الله فى الطغاة وما ينزله الله بهم من عقاب فى الدنيا، إنما يعتبر بها من يخشى الله جلّ جلاله ويخاف عقابه، ويعلم أن سنة الله قانون ثابت لا يحابى أحدًا، قال تعالى فى بيان المعتبرين بسنته فى الطغاة ـ بعد أن ذكر ما حلّ بفرعون من سوء عقاب ـ: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦]، فهؤلاء الطغاة من زعماء الفرس، وزعماء الروم فى مصر والشام مضت فيهم سنة الله.

٨ ـ سنة التدرج: خضعت الفتوحات الإسلامية لسنة التدرج، ويعتبر الحصار الأول والثانى للقسطنطينية مرحلة مبكرة لفتح القسطنطينية على عهد السلطان العثمانى محمد الفاتح، فالأعمال التى قام بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية قبل محمد الفاتح ساهمت فى عمل تراكمى توّج بفتح القسطنطينيه فى عهد العثمانيين.

---

(١) تفسير الآلوسى (١٥/ ٤٢).
(٢) السنن الإلهية، ص (١٩٣).
(٣) تفسير القرطبى نقلا عن السنن الإلهية، ص (١٩٣).
(٤) السنن الإلهية، ص (١٩٤).

٩ـ سنة الله فى الذنوب والسيئات: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقد أهلك الله تعالى أمة الفرس بسبب ذنوبهم التى اقترفوها، وأزال ملك الروم من مصر والشام وليبيا بسببها، وفى هذه الآية حقيقة ثابتة وسنة مطردة؛ أن الذنوب والمعاصى تهلك أصحابها، وأن الله تعالى هو الذى يهلك المذنبين بذنوبهم(١)، وقد سلط الله أمة الإسلام على الفرس والروم عندما حققت شروط التمكين وعملت بسننه وأخذت بأسبابه وحققت أهدافه

١٠ـ سنة تغيير النفوس: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وقد قام الصحابة الكرام رضوان الله عليهم والتابعون بإحسان فى فتوحات الشام ومصر والشمال الأفريقى وبلاد المشرق بالعمل بهذه السنة الربانية مع الشعوب التى أرادت أن تدخل فى دين الله. فشرعوا فى تربية الناس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فغرسوا فى نفوسهم العقائد الصحيحة والأفكار السليمة والأخلاق الرفيعة.

ثالثًا: التخطيط الاستراتيجى للفتوحات عند معاوية رضى الله عنه:

خضعت الفتوحات فى عهد معاوية للتخطيط الدقيق والمحكم، فقد كانت سياسته فى الفتوحات كالآتى:

١ـ سياسته تجاه الروم:

فقد سلك الخطوات التالية:

أ ـ التركيز على عمليات الصوائف والشواتى، من أجل تحقيق عدة أهداف منها:

ـ استنزاف قوة الروم.

---

(١) السنن الإلهية، ص (٢١٠).

- انتزاع زمام المبادرة من الروم، وجعلهم فى حالة دفاع مستمر[1].

- إرغام الروم على توزيع قواتهم بحيث لا يستطيعون القيام بهجمات حاسمة وقوية ضد الدولة الإسلامية[2].

ب - مهاجمة الروم فى عقر دارهم ومحاصرة عاصمتهم، وما يترتب على ذلك من إضعاف معنوياتهم، وقذف الرعب فى قلوبهم.

جـ - تقليص النفوذ البحرى للروم عن طريق فتح الجزر الواقعة فى بحر الشام[3]، وما يترتب على ذلك من حرمان سفن الروم من قواعدها البحرية الهامة.

٢ - سياسته فى جبهة الشمال الإفريقى:

أ - أولى معاوية رضى الله عنه جبهة المغرب اهتمامًا خاصًا تمثل بارتباط هذه الجبهة به شخصيًا، حيث كان معاوية رضى الله عنه المرجع المباشر لقادة هذه الجبهة إلى سنة ٤٧هـ، وهى السنة التى ضُمت فيها جبهة المغرب إلى والى مصر[4].

ب - عمل معاوية رضى الله عنه على إقامة قاعدة جهادية متقدمة فى قلب بلاد المغرب، وقد قام عقبة بن نافع ببناء القيروان لكى تكون عزاً للإسلام والمسلمين.

٣ - سياسته فى جبهة سجستان وخراسان وما وراء النهر:

أ - استعانة معاوية رضى الله عنه بفاتح سجستان وخراسان أيام عثمان رضى الله عنه، وهو عبد الله بن عامر رضى الله عنه، وتكليفه بإعادة فتحها مرة أخرى.

ب - العمل على تثبيت الحكم الإسلامى، ونشر دعوة الإسلام فى هذه المنطقة عن طريق إسكان خمسين ألفًا من العرب بعيالهم فى خراسان[5].

رابعًا: الشورى فى إدارة حركة الفتوحات:

عند انتقال الخلافة إلى معاوية رضى الله عنه كان مجلس الشورى لديه يتألف من كبار أعيان عصره وولاته ومعاونيه الذين يتصفون بالبلاغة والسياسة وحسن

---

(١) فن الحرب الإسلامى، بسام العسلى (١/ ٢٣٣). (٢) المصدر السابق (١/ ٢٣٣).
(٣) المصدر السابق (١/ ٢١١). (٤) ولاة مصر، ص (٦١)، النجوم الزاهرة (١/ ١٧٥).
(٥) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٦٤، ٣٦٥).

التدبيـر فى أمور الإدارة العسكرية، وكـان من هؤلاء عمـرو بن العاص رضى الله عنه الذى كان مـشهوراً بالصفـات السابقة، مما جـعل الخليفة مـعاوية يعتمـد عليه كالوزير المدبر لدولته والمشير، ومنهم أيضًا زياد بن أبيه. ولم تكن الوزارة فى عهد بنى أمية مقننة القواعد ولا مقررة القـوانين، وكان ذوو الآراء من مستشارى الخليفة يقومون مـقام الوزراء، وكان الواحد منـهم يسمى كاتبًا أو مـشيراً[1]، إضافة إلى ذلك كان الخليفة معاوية يعتمد فى إدارته العسكرية على مشورة قادة وأمراء القبائل وخصوصًا التى بالشام، فقد كان يقربهم ويـدنى مجلسهم ويستشيرهم، وسار قادة معاوية بن أبى سفيان سيرته بمبدأ المشورة فى إدارتهم العسكرية للمعارك الحربية[2].

خامسًا: مركزية القيادة والإمداد فى إدارة معاوية:

عندما انتقلت الخلافة إلـى بنى أمية أصبحت دمشق مقر الخلافـة ومركز القيادة العليا للإدارة العسكرية، فكان الخليـفة بها هو الذى يقرر السياسة الحربيـة كما كان مسـئولاً عن الحرب والسلم، فكان التنـظيم الإدارى العام للجيش أمـراً من الأمور المركزية الـتى يشرف الخليفـة مبـاشرة عليـها[3]، وذلك بالرغم من وجود عـمال الولايات والأقـاليم الذين كـان لهم مطلق السلطات والتى مـنها قـيـادة الجيـوش بأنفـسهم، أو تعـيين الـقادة المناسـبين من قـبلهم، ووضع الخطط لهم وإمـدادهم وتموينهم، ومن أمثلة هؤلاء زياد بن أبيه وابنـه عبيد الله[4]، فمن مركـزية القيادة لإدارة معـاوية بن أبى سفيـان رضى الله عنه فى تعيـين القادة أنه كـتب إلى واليه بالبصـرة زياد بن أبيه يأمره أن يـوجه إلى خراسـان رجلاً يقوم بأمـرها فولى زياد الحكم بن عـمرو الغفـارى رضى الله عنه، وكتب له عـهده على خـراسان وولاه حربها، وخراجها وسار إليهـا بمن يريد الجهاد فى سبيل الله، من المتطوعة من أهل البـصـرة، إضـافة إلـى الجند النظامى أصـحـاب الديوان، فـوضع لهم الأرزاق، وأعطاهم وقواهم وسار لما أمر به[5]. ومن مركـزية القيادة العليا فى إدارة مـعاوية العسكرية تسـيير الجيوش والإمـدادات العسكرية لها، فنرى القائد علـقمة بن يزيد

---

(١) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٢٨٠).

(٢) الفتوح، لابن أعثم (١/ ٣٤٠)، الإدارة العسكرية (١/ ٢٨٠).

(٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٣١٤).

(٤) المصدر نفسه (١/ ٣١٤).

(٥) الفتوح لابن أعثم (٢/ ٣١٨).

الغطيفى كتب إليــه قائلاً: إنك خلفتنى بالإسكندرية وليس معى إلا اثنا عشــر ألفًا ما يكاد بعضنا يرى بعض من القلة، فكتب إليــه الخليفة معاوية: إنى قد أمــددتك بعبد الله بن مطيع فى أربعة الآف من أهل المدينة، وأمرت معن بن يزيد السلمى أن يكون بالرملة فى أربعة آلاف ممسكين بأعنَّة خيولهم متى يبلغهم عنك فزع يعبروا إليك[1].

سادسًا: الألوية والرايات:

حين انتقلت الخــلافة إلى معاوية تعــددت الألوية والرايات فى إدارتهم العسكرية، كما تعــددت ألوانها كاللون الأخضر والأحمــر والأبيض، بالرغم من اتخاذهم اللون الأبيض شعارًا ورمزًا لخلافتهم[2]، فمنذ عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه لا نرى جيشًــا يخرج ويسير نحو العدو إلا ويعــقد للقائه لواء أو راية تكون لهم شعارًا ورمزًا يسيرون خلفها ويذودون عنها، فنرى الواحد يصرع تلو الآخر وكل همه بقاءها منصوبة[3]، وكان القادة من الشجاعة والإقــدام ما جعلهم يكونون أكفاء لحمل هذه الراية مثل عقبة بن نافع، والحكم بن عمرو الغــفارى وفضالة بن عبيد الله، وقد جعل والى العراق من قــبل الخليفة معاوية زياد بن أبيه خــروج القبائل على الرايات، ويبدو أن الغاية من ذلك معرفة مدى جدية كل منها فى القتال والتزامها بالأوامر[4].

سابعًا: اهتمامه بالعيون والبرْيد:

كان اهتمام معاوية رضى الله عنه بأمر المخابرات وجمع المعلومات على الأعداء قديمًا منذ كان أميرًا على بلاد الشام وتطور جهاز المخابرات لما تولى الخلافة، وزاد اهتمــامه به، فــفى عهــده أسر رجل من المسلــمين بالقــسطنطينية وأهين ببــلاطهم فاستــغاث وامعاويــاه: لقد أغفلت أمورنا وأضــعتنا. فوصل الخبــر إليه عن طريق جواسيــسه المتواجدين بــأرض الروم، فقام بفدائه وبأســر من أهانه، وجعل المسلم يقتص منه بمثل مــا أهانه، وأن لا يزيد. وهذا دليل على مدى دقــة نظام المخابرات فى إدارته[5]. ولقد ذكرت القصة فيما مضى بالتفصيل، كما قام الخليفة رضى الله

(١) فتوح مصر، ص (١٩٢)، الخطط للمقريزى (١/ ٢٦٨).
(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/ ٣٦٨).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٦٨).
(٤) تنظيمات الجيش للجنابى، ص (٢٢٧)، الإدارة العسكرية (١/ ٣٦٩).
(٥) نهاية الأرب (٦/ ١٥٨)، الإدارة العسكرية (١/ ٤٠٥).

عنه بفرض رقابة دقيقة ومحكمة على أفراد الحاميات وأسرهم وعين موظفًا فى كل حامية ليتحرى عن الداخلين والخارجين حتى لا يتسلل عين للعدو إلى أرض المسلمين فيتعرفوا على مواقع معسكراتهم ونقاط الضعف بها إن وجدت[١]. وفى إدارته أنشأ ديوان البريد واعتنى به عناية فائقة وذلك لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها بما فى ذلك أخبار الثغور، ولم يكن للبريد ديوان قبل ذلك[٢]، وأما علاقة صاحب البريد بالإدارة العسكرية فقد كان عبارة عن عين الخليفة الباصرة وأذنه السامعة، ينقل إليه أخبار عماله وقادته وسائر رجال دولته فكان له عيون يوافونه بكل جديد كما كان البريد واسطة بين الولاة والخلفاء والقادة لنقل الأوامر العسكرية. وكان أصحاب البريد رقباء ومفتشين من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند فى مختلف حالات القتال وفى كل الظروف والأوقات، ويخبرونه بحال المال والعطاء وذلك أنه يوكل بمجلس عرض الأولياء وأعطياتهم من يراعيه ويطالع ما يجرى فيه ويكتب بما يقف عليه من الحال فى وقته، إضافة إلى ذلك كان من واجبات صاحب البريد مساعدة الإدارة العسكرية فى التموين والإمداد وحفظ الطرق وصيانتها من الأعداء وانسلال الجواسيس فى البر والبحر، وإليه كانت ترد كتب أصحاب الثغور وولاة الأطراف فيقوم بتوصيلها بوجه السرعة من اختصار للطرق واختيار المراكب لمعرفته بالطرق والمسالك إلى جميع النواحى. وكان الخليفة يجد عنده ما يحتاج إليه من المعرفة عند إنفاذ جيش وغيره وقت الحاجة إلى ما هنالك من مهام قام البريد بتأديتها فى الإدارة العسكرية[٣]، على الجملة كان يقال للبريد جناح المسلمين لما كان يطير به من الأخبار[٤].

ثامنًا: اهتمام معاوية بالحدود البرية للدولة:

حين انتقلت الخلافة إلى معاوية زاد الاهتمام والاعتناء بهذه التحصينات لحماية الحدود الإسلامية، وبخاصة إذا علمنا أن المؤسس الأول للدولة الأموية معاوية رضى الله عنه قد قام بتولى حملات الصوائف والشواتى بنفسه حين كان قائدًا

(١) الجندية للدقدوقى، ص (١٧٧).
(٢) خطط الشام، محمد كرد (٥/١٩).
(٣) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (١/٤٠٦).
(٤) ثمار القلوب للثعالبى، ص (٢٤١)، الإدارة العسكرية (١/٤٠٧).

وواليًا للخليفتين عمر وعثمان رضى الله عنهما ،كما أسند إليه فى خلافتيهما إنشاء وترميم بعض الحصون الدفاعية على الحدود الإسلامية كما سبق وأشرنا مما جعله ملمًا بهذه الثغور والتحصينات، فاستكمل ما بدأه حين استقرت بيده الخلافة، فقام ببناء وتحصين مرعش والحدث من ثغور الجزيرة وأسكنها الجند وكان يتعهدهما باستمرار[1]، واتخذ معاوية رضى الله عنه لتحصين المدن الساحلية سياسة التهجير أو النواقل؛ بنقل قوم من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها، ونقل من الزط وأساورة البصرة والكوفة وفرس وبعلبك وحمص إلى ثغر أنطاكية[2]، وولى القائد عبد العزيز بن حاتم الباهلى أرمينية وأذربيجان فبنى مدينة دبيل[3]، وعمل عدة تحصينات دفاعية كما بنى مدينة النشوى[4] ورم مدينة برذعة[5]، وجدد بناء البيلقان[6]، إلى ما هنالك من تحصينات دفاعية قام بإنشائها[7]، كما قلد الوالى زياد بن أبيه القائد الربيع بن زياد الحارثى[8] ثغر خراسان وأرسل معه من المصرين (الكوفة - البصرة) زهاء خمسين ألفًا من الجند بعيالاتهم، وأسكنهم ما دون النهر لحماية حدود الدولة الإسلامية هنالك[9] ويظهر لنا اهتمام زياد بأمر الثغور فى قوله لحاجبه: وليتك حجابتى وعزلتك عن أربع وذكر منها: ورسول صاحب ثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله علىَّ وإن كنت فى لحافى[10]، وسأل زياد جلساءه عن أنعم الناس عيشًا؟ فأجابوه قائلين: أنت أيها الأمير، فقال: فأين ما يرد على من الثغور والخراج[11]. وهذا يبين مدى ما كان يلقاه زياد من عناء الثغور فى إدارتها والإشراف على أمرها لحفظها وسدها. ومما أثر عن زياد أيضًا قوله: أربعة أعمال لا يليها إلا المسن الذى عض على

(١) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٣).

(٢) كان ذلك فى عام ٤٢هـ، فتوح البلدان (١/ ١٣٩).

(٣) مدينة بأرمينية تتاخم إيران، كانت ثغراً.

(٤) النشوى: مدينة بأذربيجان، معجم البلدان (٥/ ٢٨٦).

(٥) برذعة: فى أقصى أذربيجان، معجم البلدان (١/ ٣٧٩).

(٦) بيلقان: فى أرمينية الكبرى قريبة من شروان، معجم البلدان (١/ ٥٣٣).

(٧) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٤٧٤).

(٨) المصدر نفسه (٢/ ٤٧٤).

(٩) كان ذلك سنة ٥١هـ، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٤).

(١٠) الأوائل للعسكرى نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٥).

(١١) المحاسن والمساوىء، ص (٢٦٩).

ناجذه: الثغر والصائفة والشرط والقضاء[1]، وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه فى إدارته لثغر مصر من قبل معاوية لا يحمل له من الخراج إلا الشىء اليسير وينفق جل الأموال على التحصينات وعطاء الجند المرابطين بالثغر[2]، واهتم معاوية بأمر الصوائف والشواتى حيث كانت تخرج فى كل عام فى وقتها المحدد لها لأداء مهمتها المنوطة بها، وكان يختار لها كبار القواد والأمراء، وكانوا يتمنون إدارتها ويعدون ذلك شرفًا وفخرًا لهم، فمن ذلك قول الخليفة معاوية لابنه يزيد: يا بنى إن أمير المؤمنين قد بسط أملك فاذكر حاجتك فطلب منه مطالب كان أولها قوله: يجعل أمير المؤمنين غزو الصائفة العام إلىّ لأفتح أمرى بتجهيز الجيوش فى سبيل الله[3]، ومن أبرز الولاة والقادة الذين تولوا إدارة حملات الصوائف والشواتى فى عهد معاوية لعدة مرات هم سفيان بن عوف الغامدى الأزدى، ومالك بن هبيرة السكونى[4]، وكان أمير المؤمنين معاوية رضى الله عنه قبل أن يعين القادة على هذه الحملات يجرى لهم اختبارًا لمعرفة مدى حصافة القائد الإدارية، ومن الذين كان يعتمد عليهم من قادته سفيان بن عوف الغامدى لخبرته الإدارية وقد توفى وهو بالصائفة يدير أعمالها، وحين بلغ الخبر معاوية تأثر وكتب إلى أمصار وأجناد المسلمين ينعاه، وكان معاوية إذا رأى خللاً فى الصوائف قال: واسفياناه ولا سفيان لى[5]، وكان معاوية رضى الله عنه لا يقصر فى اتخاذ الإجراءات والتدابير اللازمة لحماية حدود وأراضى الدولة الإسلامية والدفاع عنها[6].

تاسعًا: اهتمام معاوية بالأسطول والحدود البحرية:

عندما قامت الدولة الأموية استكمل معاوية رضى الله عنه ما بدأه فى بناء القوة البحرية لحماية سواحل الدولة الإسلامية بإقامة المراكب للغزو إلى جانب ترتيب الحفظة فى السواحل مما استولى عليه المسلمون من قواعد ومنشآت بحرية، وعندما خرجت الروم فى عهده إلى السواحل الشامية أمر بجمع الصناع من النجارين

(١) تاريخ اليعقوبى، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٥).
(٢) فتوح مصر، ص (١٠٢).
(٣) أنباء نجباء الأبناء، ص (١٠٦) لابن ظفر المالكى، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٦).
(٤) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٧)، الإصابة (٣/ ٢٣٧).
(٥) تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٨٥)، الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٧).
(٦) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٤٧٨).

فجُمعوا، ورتبهم فى السواحل الشامية وجعل مقر دار صناعة السفن فى جند الأردن بعكا. وكما هو معلوم أن بلاد الشام غنية بالأخشاب التى تعتبر من أجزاء السفن الأساسية يومئذ[1]، كما أنشأ الخليفة معاوية أول دار صناعة للأساطيل لإنتاج السفن الحربية المختلفة بمصر سنة ٥٤هـ فى عهد واليها مسلمة بن مخلد الأنصارى، وكان مقرها بجزيرة الروضة، لذا عرفت باسم صناعة الروضة[2]، وكان قادة بحرية الخليفة معاوية ذوى خبرة وفن ببناء السفن الحربية، فقد كلف أحدهم بمهمة عسكرية نحو الروم وطلب منه قائلاً: أنشىء مركبًا يكون له مجاديف فى جوفه واستعمله للسفر إلى بلاد الروم[3]، أى بعمل فتحات جانبية للمجاديف[4]، وبلغت السفن الحربية فى عهد معاوية رضى الله عنه نحواً من ألف وسبعمائة سفينة شراعية مشحونة بالرجال والسلاح وجميع العتاد، والمستلزمات القتالية البحرية[5]، وبذلك نجد أن معاوية رضى الله عنه قد أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام ومصر لا ينجيها من غزوات الروم إلا إيجاد هذا الأسطول الإسلامى الذى يحافظ على الحدود البحرية ويغزو سواحل الروم الحين بعد الحين حتى يرتدع العدو ويحسب لهم ألف حساب[6]، وأخذ الأسطول الإسلامى فى عهد معاوية فى فتح الجزر الواقعة بالبحر المتوسط الواحدة تلو الأخرى والتى منها جزيرة رودس[7]، بقيادة القائد جنادة بن أمية الزهرانى الأزدى[8]، حيث فتحها ـ كما مر معنا ـ عنوة وكانت غيضة فى البحر وهى من أخصب الجزائر بالمنطقة وأنزلها قومًا من المسلمين بأمر الإدارة العليا المركزية، واتخذ بها حصنًا وناطوراً يحذرهم ما فى البحر ممن يريدهم بكيد، وكان المسلمون بها على حذرٍ من الروم، وكان الخليفة معاوية يعاقب بين الجند فيها ولم يجمرهم وأدر عليهم الأرزاق والعطاء، وكان الجند المقيمون بها أشد شىء على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم

(١) الإدارة العسكرية (٢/ ٤٧٨).

(٢) حسن المحاضرة (٢/ ٣٧٨) للسيوطى، الإدارة العسكرية (٢/ ٥٤٣).

(٣) نهاية الأرب (٦/ ١٨٦).

(٤) الإدارة العسكرية (٢/ ٥٤٤).

(٥) خطط الشام (٥/ ٣٧) محمد كرد على.

(٦) الحدود الإسلامية لبيزنطة (١/ ٢٣٧) فتحى عثمان.

(٧) رودس: جزيرة ببلاد الروم مقابل الإسكندرية.

(٨) الاستيعاب (١/ ٢٤٣)، الأعلام للزركلى (٢/ ١٤٠).

وقد خافهم العدو[1]. واستمـر فى فتح الجزر وشحنها بالجنـد المرابطين وأصبحت قواعـد بحرية لحمـاية سواحل الدولة الإسلامـية[2]، وأخذت حمـلات الصوائف والشواتى البـحرية تجوب البـحر وتمخر فى عبـابه فى عهد مـعاوية رضى الله عنه وتسير جنـبًا إلى جنب مع شقيقـتها الحمـلات البرية حيث كانت تخـرج من مصر والشام لتحمى سواحل المنطقة البحرية وتولى قيـادتها كبار القادة المشهورين كالقائد يزيد بن شجرة الرهاوى، وموسى بن نصـير، وبسر بن أبى أرطأة العامرى، وجُنادة ابن أمية الزهرانى، وعقـبة بن عامر وغيرهم من القادة، وسـار خلفاء بنى أمية من بعد الخليفة معاوية على سنته وأصبح الأسطول الإسلامى فى نمو مطرد وأكثروا من إنشاء سفنه وتفننوا فى إتقانه وجهزوه بالأدوات والمعـدات الملاحية والقتالية، ورتبوا عليه الجند والقواد وزودوه بالتموين اللازم والأرزاق، وظلت صوائفه وشواتيه تقلق الروم فى كل عام وتهدد سواحلهم وحدودهم البحرية[3].

عاشرًا : الاهتمام بديوان الجند والعطاء:

اسـتمـر ديوان الجند فى أداء مهـامه المنـاطة به، وحدث به تطور بسـبب كثـرة الفتوحـات واتساع رقعة الدولة الإسـلامية فقد أصـبح ديوان الجند مؤسسة كـبيرة حظيت باهتـمام الخلفـاء وولاتهم ومر بعـدة مراحل تطويريـة خلال هذه الفـترة، فعندما تولى معاوية رضى الله عنه الخلافة تقاعس بعض الجند عن الحرب فى بداية إدارته العـسكرية إثر الفتن والصـراعات الداخليـة، فتـمكن بحـسن إدارته ودهائه بالإغلاق عليهم فـى العطاء حتى تمكن مرة أخرى من إلزامهـم مرة أخرى بالجندية وتأليف القلوب[4]، وقرب إليه زعـماء القبائل وقـد بلغ عدد الجند النظامى الذين يتسلمـون العطاء فى بداية العصر الأمـوى نحوًا من ثمانين ألف جندى بالبـصرة، وستين ألفًـا بالكوفة، وأربعين ألفًا بمصر، وبالشـام نحوًا من ذلك، هذا سوى من فى باقى الأقاليم الأخـرى من جند كفارس ومـا وراء النهر وغيرهمـا من الأقاليم وأمصار الدولة الإسلامية[5]، كما كان بالكوفـة من أبناء العجم زهاء عشرين ألف

(١) النجوم الزاهرة (١/ ١٤٤)، الإدارة العسكرية (٢/ ٥٤٥).

(٢) الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٥٤٥).

(٣) المصدر نفسه (٢/٥٤٦). (٤) المصدر نفسه (٢/٦٤٣).

(٥) فتوح البلدان، ص (١٠٢)، الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٤).

رجل فرض لهم وكانوا يسمون الحمراء[1]، وبالبصرة ألفا رجل من سبى بخارى كلهم جيد الرمى بالنشاب، فقد ألحقهم الخليفة معاوية بالخدمة العسكرية وفرض لهم العطاء، وقد ولى كتابة الجند فى إدارة الخليفة معاوية المركزية بدمشق عمرو بن سعيد بن العاص، هذا بالإضافة إلى دواوين الجند المحلية بالأقاليم الإسلامية المحلية الأخرى التى تتحمل مهام الإدارة العسكرية المحلية[2]، وظل دور أمر العرفاء والنقباء سائرًا ومستمرًا كما كان فى السابق، وذلك لاعتماد الإدارة عليهم فى الشئون العسكرية والمالية وبخاصة فى توزيع العطاء، على الجند، فقد كان الخليفة معاوية يدفع إلى العرفاء العطاء وكان لكل قبيلة عريف يأخذ أعطيتهم ويدفعها إليهم[3]، هذا مع ما يقومون به من التعرف على أحوال الجند وأخبارهم ورفع التقارير عنهم للإدارة العليا[4]، وقد طور زياد الهيكل التنظيمى العسكرى للعرفاء، فجعل الناس فى البصرة أخماسًا وجعل على كل خمسة رجلاً، كما جعل فى الكوفة أرباعًا على قيادة عشرة جنود فى القتال، بل أصبحوا مسئولين عن النواحى الأمنية ومثيرى الشغب والفتن والقلاقل داخل قبائلهم ومعسكراتهم، فكانوا حلقة الاتصال فى الإدارة العسكرية بين القبائل العربية فى الأمصار الإسلامية وبين السلطات الإدارية للدولة فيما يختص بتثبيت أسماء الجند فى الدواوين وتوزيع العطاء عليهم واستدعائهم عند الحاجة، وقد حل أولئك العرفاء فى القوة والنفوذ محل رؤساء القبائل والعشائر، وكان اختيارهم يتم من بين ذوى النفوذ ليستطيعوا أداء واجباتهم تجاه الإدارة العسكرية[5]. ومثال على ذلك ما قام به زياد حيث خطب فى أهل البصرة وهددهم بقطع العطاء إذا لم يكفوه الخوارج حيث قال: يا أهل البصرة والله لتكفننى هؤلاء أو لأبدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجل لا تأخذون العام من عطائكم درهمًا، فثار الناس بهم فقتلوهم[6]. كما استخدمت الزيادة فى العطاء للقادة والجند المتجاوبين والمنفذين للأوامر تشجيعًا

---

(١) الأخبار الطوال، ص (٢٢٨) نقلاً عن الإدارة العسكرية فى الدولة الإسلامية (٢/ ٦٤٤).

(٢) التراتيب الإدارية (١/ ٢٢٩)، الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٤).

(٣) نسب قريش، ص (١٥٤)، الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٥).

(٤) خطط الشام (٥/ ٧).

(٥) تنظيمات الجيش، ص (٢٢٣)، الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٦).

(٦) تاريخ الطبرى، نقلا عن الإدارة العسكرية (٢/ ٦٤٦).

وحثًا لهم على المضى قدمًا فى مهامهم ومناصبهم العسكرية المسئولين عنها[١]، كما فعل معاوية مع أشراف أهل الشام.

الحادى عشر: الأثر العلمى والاقتصادى والاجتماعى للفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه:

ومن الظواهر العلمية التى زادت ازدهاراً فى عهد معاوية طائفة القصاص، وقد كانوا ينتشرون بين الجند كالقراء يقصون عليهم أمجاد أسلافهم ويلقون عليهم الشعر الحماسى، فتجيش له همم العسكر فيسارعون للقتال، وقد كان الخطباء والوعاظ يقومون بنفس المهمة كما يقوم بها القراء والقصاص والشعراء لينشروا فى الجند روح الفداء ويرفعوا من روحهم المعنوية القتالية[٢]، وسلك الخليفة معاوية فى وصاياه وتوجيهاته العلمية للأمراء والقادة والجند على منوال من سبقه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم، فعندما عين عبيد الله بن زياد على ثغر خراسان كان من نماذج وصاياه قوله: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئًا[٣].. وقد سبق الحديث عن وصيته لعبيد الله، ومن الآثار العلمية للحضارة الإسلامية فى عهد معاوية أنه حينما فتح جزيرة رودس كان ممن اشترك فى فتحها مجاهد بن جبر المقرىء، فكان مقيمًا بها يقرىء الناس القرآن ويفقههم فى الدين فى المسجد الذى بنى فيها أثناء الفتح، وهذا أنموذج ومثال من ألوف النماذج والأمثلة حيث إن هذا الأثر العلمى لا يقتصر على جزيرة رودس بل شمل كافة الأمصار والشعوب الإسلامية[٤].

ومن الآثار الاقتصادية والاجتماعية للفتوحات أن والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى رضى الله عنه وغيره من الولاة فى عهد معاوية رضى الله عنه كانوا يبعثون إليه بأموال الخراج بعد أن يستقطعوا منها ما ينفق على الأراضى الزراعية بمصر لاستصلاحها من الخلجان والقناطر والجسور، وحملا القمح إلى الحجاز لتفريقه وتوزيعه على سكان الحرمين الشريفين، كمعونة لهم[٥]، وكان بالجزيرة مكان الروضة قبل أن تبنى بها دار صناعة السفن فى عهد معاوية خمسمائة عامل

(١) المحاسن والمساوىء، ص (٤٦٤)، الإدارة العسكرية (٢/٤٦٧) .
(٢) الفن الحربى، ص (١١٧)، نقلاً عن الإدارة العسكرية (٢/٧١٨).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/٢١٣) .
(٤) الإدارة العسكرية (٢/٧١٩) .
(٥) فتوح مصر، ص (١٠٢)، حسن المحاضرة (١/١٥١) .

مستعد لأى حريق يكون فى البلاد أو هدم للإعانة فى الكوارث وتقديم الخدمات الاجتماعية لأهل المنطقة[1]. ومن التكافل الاجتماعى فى عهد معاوية مراعاته لأبناء الشهداء فى إدارته ورعاية شئونهم والفرض لهم[2]، فقد كان يقول لجلسائه: يا هؤلاء، إنما سميتم أشرافًا لأنكم شرفتم على من دونكم بهذا المجلس، ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا، فيقوم الرجل فيقول: استشهد فلان، فيقول: أفرضوا لولده[3]، وعندما أذن معاوية رضى الله عنه لعبد الله بن صفوان بن أمية بالدخول عليه والمثول بين يديه طلب من معاوية أن يفرض للمنقطعين من ديوان العطاء، كما ذكّره بأن لا يغفل عن قواعد قريش والبر إليهم، وأن يقدم لهم الخدمات الاقتصادية والاجتماعية التى تكفل لهم الحياة الرغدة[4]. ومن الآثار الحضارية للفتوحات فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية استمرارية معاوية فى توطين الجند بالثغور وإقطاعهم القطائع والأراضى والمساكن بها وشقه للأنهار وجلبه للمياه. فقد أمر عسكره المقيم بجزيرة رودس بأن يزرعوا ويتخذوا بها أموالاً ومواشى يرعونها حولها[5].

الثانى عشر: كرامات للمجاهدين فى عهد معاوية رضى الله عنه:

حدثت كرامات للمجاهدين فى عهد معاوية رضى الله عنه منها ما كان لأبى مسلم الخولانى والتى مرّ ذكرها، وما حدث لعقبة رحمهما الله، حينما نادى الوحوش والدواب وطلب منها الرحيل، فرحلت بإذن الله تعالى حيث قال: فارحلوا عنّا فإنّا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجِب، من أن السباع تخرج من الشَّعْراء[6] وهى تحمل أشبالها سمعًا وطاعة، والذئب جرْوَه، والحية تحمل أولادها. ونادى فى الناس: كُفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها، فخرج ما فيها من الوحش والسباع والهوامّ والناس ينظرون إليها، حتى أوجعهم حرُّ الشمس، فلمَّا لم يروا منها شيئًا، دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر، فأقام أهل إفريقية - بالقيروان - بعد ذلك أربعين عامًا لا يرون بها

---

(١) حسن المحاضرة (٢/ ٣٧٨)، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٣).

(٢)، (٣) مروج الذهب (٣/ ٣٩، ٤٠)، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٤).

(٤) نسب قريش، ص (٣٨٩)، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٤).

(٥) الفتوح لابن أعثم (١/ ٣٥٤)، الإدارة العسكرية (٢/ ٧٧٥).

(٦) أى من الشجر.

حيَّة، ولا عـقربًا، ولا سَبُعًا. فـاختط عقبـة أولاً دار الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجـد الأعظم فاختـطَّه، ولم يُحدث فـيه بناء. وكـان يصلى فيـه وهو كذلك، فاختلف الناس عليـه فى القبلة وقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعـون قبلتهم على قبلة هذا المسـجد، فأجهـد نفسك فى تقويمـها، فأقامـوا أيّامًا ينظرون إلى مطالع الشتـاء والصيف من النجوم ومشـارق الشمس، فلمَّا رأى أمرهم قـد اختلف بات مغـمومًا، فـدعا الله ـ عز وجل ـ أن يفُـرج عنه، فأتاه آت فى منامه فـقال له: إذا أصبحت فخذ اللواء فى يدك، واجعله على عنُقك. فإنك تسمع بين يديك تكبيرًا لا يسمعـه أحد من المسلمين غيرك، فـانظر الموضع الذى ينقطع عنك فيه التكبيـر فهو قبلتك ومحـرابك، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسـجد وهذه المدينة، وسوف يعـز الله بها دينه، ويذل بها من كـفر به، فاسـتيقظ من منامـه وهو جزع، فتـوضأ للصلاة، وأخذ يصـلى وهو فى المسجد ومعـه أشراف الناس، فلما انفـجر الصبح وصـلى ركعتى الصـبح بالمسلميـن إذا بالتكبيـر بين يديه، فقـال لمن حوله: أتسمعون مـا أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أنَّ الأمر من عند الله، فأخـذ اللواء فوضعه على عنُقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى مـوضع المحراب فانقطع التكبير فركز لواءه وقال: هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة، ثم أخذ الناس إليها المطايا من كل أُفق وعظم قدرها.. وكان عقبة خير والٍ وخير أمير، مستجاب الدعوة[1].

وفى هذه القصـة عبرة بليغـة فيما حدث من عـقبة حينمـا نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغـادرت ذلك المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أولياءه لما يـريد بهم نصر الإسلام ونـشره فى الأرض، حيث أسـمع تلك الدواب كلام عقبـة وأوقع فى قلوبها الخوف منه، وقدَّر لها أن تسمع وتطـيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك وقد رأى ذلك قبيل كبير من البربر فاسلموا، كما ذكر ابن الأثير فى روايته[2].

هذا وقد حـمل بعض الباحثـين هذا الخبر على أنه من الأسـاطير التى نسجـها الرواة حول عـقبة، وعللوا هذا الخبـر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضـجيج

(١) البيان المُغـرب فى أخبار الأندلس والمغرب (١/ ١٩ ـ ٢١)، الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٨٤)، فـتوح مصر، ص (١٣٣) والقصة صحيحة الإسناد.

(٢) فتوح مصر، ص (١٣٣)، التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٤٩).

الجيش الإسلامى فحملت أولادها وولَّت هاربة، وهذا التأويل من عجائب بعض الباحثين حيث يُغفلون تفكيرهم الصحيح من أجل ردِّ مالا يؤمن به العقل المجرد، كما أنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة فى حياة الناس إلى ما يشبه الأساطير، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذى اعتمدوه لا ينسجم مع العقل السليم، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفزع تأوى إلى جحورها الآمنة لتستخفى بها ولا تلجأ إلى الهرب حتى لا تتعرض للأذى مما فزعت منه، ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادى وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك ما يدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذى حملهم على الدخول فى الإسلام من أجل ذلك، ولم يكن فى ذلك ما يحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة.

وقد جاء فى إحدى روايات ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثنى زياد بن العجلان: إن أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمست حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت[1]، وعبرة أخرى فى تلك الرؤيا التى رآها عقبة بن نافع فى أمر تحديد القبلة وما تلا ذلك من سماعه التكبير الذى لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى لهذا الولى الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التى تظهر فيها الكرامات على أيدى أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة، فاستجاب الله تعالى دعاءه فى تفريج همه وهموم المسلمين فى هذا الأمر[2]. وأهل السنة والجماعة يثبتون الكرامات للصالحين، فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ[3]، فيفعلون ما أمر الله به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله فى قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التى يكرم الله بها أولياءه المتقين لحاجة فى الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك، وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسول الله ﷺ ومما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد

(١) فتوح مصر، ص (١٣٣)، التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٤٩) .

(٢) التاريخ الإسلامى (١٣/ ٢٤٩) . (٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٤) .

تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوى إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنيًا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور فى التابعين أكثر منها فى الصحابة(١). ومن عقيدة أهل السُّنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء(٢).

الثالث عشر: قسمة الحكم بن عمرو الغفارى للغنائم فى غزو جبل الأسل بخراسان:

عن عبد الرحمن بن صبح، قال: كنت مع الحكم بن عمرو بخراسان، فكتب زياد إلى عمرو، إن أهل جبل الأشل سلاحهم اللبود(٣)، وآنيتهم الذهب(٤)، فغزاهم حتى تواسطوا، فأخذوا بالشعاب والطرق، فأحدقوا به، فعىَّ(٥) بالأمر فولى المهلب الحرب، فلم يزل المهلب يحتال حتى أخذ عظيمًا من عظمائهم، فقال له: اختر بين أن أُقتلك، وبين أن تخرجنا من هذا المضيق، قال له: أوقد النار حيال الطريق لتسلكوه فإنهم يستجمعون لكم، ويعرون ما سواه من الطرق، فبادرهم إلى غيره، فإنهم لا يدركونك حتى تخرج منه، ففعلوا ذلك، فنجا وغنموا غنيمة عظيمة(٦)، وعن عبد الرحمن بن صبح قال: كتب إليه زياد: والله لئن بقيت لك لأقطعن منك طابقًا سحتًا(٧)، وذلك أن زيادًا كتب إليه لما ورد بالخبر عليه بما غنم: إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ أن أصطفى له صفراء وبيضاء(٨)، والروائع(٩)، فلا تحركن شيئًا حتى تخرج ذلك، فكتب إليه الحكم: أما بعد، فإن كتابك ورد، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلى أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء والروائع، ولا تحركن شيئًا، فإن كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقًا(١٠) على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجًا، وقال

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٨٣).

(٢) الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٥٠٨).

(٣) اللبود: هو الالتصاق بالأرض: أى يكمنون لعدوهم.

(٤) وهذا دلالة على غناهم وثراهم.

(٥) عىَّ، وعيى: عجز، القاموس المحيط (١٦٩٧).

(٦) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٧٦).

(٧) لأقطعن منك طابقاً سحتاً: أى لأستأصلن ما خبث من كسبك.

(٨) الصفراء والبيضاء: هما الذهب والفضة.

(٩) الروائع: المقصود بها فى هذا المقام، ما أعجبك وسرك من الغنائم.

(١٠) الرتق: ضد الفتق، وهو الالتحام، لسان العرب (١٠/ ١١٤).

للناس: اغدوا على غنائمكم، فغدا الناس، وقد عزل الخمس، فقسم بينهم تلك الغنائم، قال: فقال الحكم: اللهم إن كان لى عندك خير فاقبضنى، فمات بخراسان بمرو[1]. إن خبر قسمة الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه الغنائم بين أفراد جيشه ذكره ابن عبد البر[2]، وابن الجوزى[3]، وابن الأثير[4]، وابن كثير[5]، وتتفق هذه المصادر حول طلب معاوية رضى الله عنه اصطفاء الذهب والفضة وعدم قسمتها بين الجيش ـ لكنها لم تورد هذا الخبر بأسانيد صحيحة ـ وزاد ابن كثير أن معاوية رضى الله عنه طلب أن يرسل الذهب والفضة إلى بيت المال[6]، وهنا يجدر التذكير بأن مصارف الغنيمة فى الإسلام قد بينها الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. وهذا يعنى أن أربعة أخماس الغنيمة يقسم بين الجيش، ويبقى خمس الغنيمة فيقسم كما ورد فى الآية السابقة، وهذا الحكم لا يخفى على معاوية رضى الله عنه، كما أن دين معاوية وعدالته تمنعه من رد حكم الله سبحانه وتعالى[7]، وبالرجوع إلى رواية الطبرى نلاحظ أن الحكم بن عمرو الغفارى رضى الله عنه لم يبادر إلى قسمة الغنائم بين الجيش على الفور ـ مع وضوح حكم الشرع فى ذلك ـ بل دارت بينه وبين زياد مراسلات فى شأن الغنائم، وهذا التأخير فى قسمة الغنائم يقودنا إلى عدة احتمالات يمكن من خلالها إزالة الغموض الوارد فى الرواية وهذه الاحتمالات هى:

١ ـ رغبة معاوية رضى الله عنه فى أن يكون خمس الغنيمة ـ الذى يتولى إمام المسلمين قسمته من الذهب والفضة.

٢ ـ رغبة معاوية رضى الله عنه فى حمل ما غنم المسلمون من ذهب وفضة -قبل تخميسه وقسمته ـ إلى الهند وبيعه هناك[8] بقيمة مرتفعة ثم يخمس ثمنه بعد ذلك، وفى ذلك خير للجميع[9].

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ١٦٧) .
(٢) الاستيعاب (١/ ٣٥٧) .
(٣) المنتظم (٥/ ٢٣٠) .
(٤) الكامل فى التاريخ (٢/ ٤٧٦) .
(٥)، (٦) البداية والنهاية (١١/ ٢١٧) .
(٧) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٥١، ٣٥٢) هذه الفقرة كلها من هذا الكتاب القيم .
(٨) ذكر الدكتور خالد الغيث - حفظه الله - مبحثًا مهمًا فى مسألة الغنائم والحكم بن عمرو الغفارى فنقلته منه، انظر: مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٥٢).
(٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٣٥٢).

٣ ـ وجـود نقصٍ طارئ فى بيت مال المسلـمين، فـأراد معـاوية رضى الله عنه أن يقترض مـا غنمه جيش الحكم رضى الله عنه إلى أجل مـعلوم، وتأخير قـسمة الغنائم بين الجيش إلى وقت لاحق(١).

ومن الدروس المهمـة إن ثبتت الرواية التزام الحكم بن عـمرو الغفـارى بمبدأ لا طَاعة لمخلوق فى معصيةِ الخـالق، وتمسكه بأداء الأمانة فى قسمة الغنائم، ولم يغل منها شيئًا ووزعها على العسكر بعد أن عزل الخمس(٢).

هذه أهم الدروس والعبر والفوائد من الفتوحات فى عهد معاوية.

الرابع عشر : استشهاد صلة بن أشيم وابنه بسجستان عام ٦٢هـ:

صلة بن أشيم هو الزاهد، العابد، القدوة، أبو الصهباء العدوىُّ البصرى، زوج العالمة مـعاذة العدوية، وكانت لصلـة مواقف فى المجتمع الإسـلامى مؤثرة، ومن هذه المواقف: عن ثابت قال: جاء رجل إلى صلة بنعى أخيه، فقال له: ادن فكُل، فقد نُعى إلىَّ أخى منذ حين، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وكان صلة له كـرامات منها، عن حـمّاد بن جعـفر بن زياد أنّ أباه أخبـره، قال: خـرجنا فى غزاة إلى كـابل، وفى الجـيش صلة، فنزلوا فـقلت: لأَرمُقَنَّ عـمله، فصلَّى ثم اضـطجع، فالتمس غـفلة الناس، ثم وثـب، فدخل غَـيْضَـةً، فدخلتُ فتوضَّأ وصلّى، ثم جاء أسد حتى دنا منه، فصعدتْ شجرة، أفتراه التفتَ إليه حتى سجـد؟ فقلت: الآن يفتـرسه فلا شيء، فـجلس ثم سلَّم، فقـال: يا سبع اطلب الرِّزق بمكان آخر، فـولى وإن له زئيرًا أقـول: تصدّع منه الجـبل فلمّا كـان الصبح جلس، فحمد الله بمحامد لم أسـمع بمثلها، ثم قال: اللَّهم إنى أسألك أن تُجيرنى من النار، أو مـثلى يَجتَرِئُ أن يسـألك الجنَّة(٣)، وعن العلاء بـن هلال، أن رجلاً قال لصلة: يا أبـا الصهبـاء رأيت أنى أعطيت شهادة، وأعطـيت شهادتين فـقال: تستـشهـد وأنا وابنى، فلمـا كان يوم يزيد بن زياد، لقـيتـهم الترك بسـجستـان،

(١) مرويات خلافة معاوية، ص (٣٥٢).
(٢) المصدر نفسه، ص (٣٥٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٤٩٩).

فانهزمــوا. وقال صلة: يا بُنىَّ ارجع إلى أمك. قال: يا أَبَة، تريد الخــير لنفسك، وتأمرنى بالرجــوع! قال: فتــقدَّمْ، فتــقدَّم، فقــاتل حتى أصــيب، فرمى صلة عن جسده، وكان راميًــا، حتى تفرَّقوا عنه، وأقبل حتى قام عليــه، فدعا له، ثم قاتل حتى قُتل[١]، وعن حمّــاد بن سلمة: أخبرنا ثابت أنّ صلة كــان فى الغزو، ومع ابنه، فقال: أى بنى، تقدم فقاتل حتى احتــسبك، فحمل، فقاتل، حتى قُتل، ثم تقدَّم صلة فقتل، فــاجتمع النساء عند امرأته معاذة، فقالــت: مرحبًا إن كنتنّ جئتنَّ لتُهنَّئننى، وإن كنتنَّ جئتُنَّ لغير ذلك فارجعنَّ.[٢] وكانت الملحمة التى استشهد فيها سنة ٦٢هـ[٣].

***

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٠٠) رجالة ثقات.

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ١٣٧)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٥٠٠) .

المبحث الخامس

ولاية العهد ووفاة معاوية رضى الله عنه

أولاً : بداية التفكير فى بيعة يزيد:

يُحمِّل كثير من الباحثين، المغيرة بن شعبة، المسئولية عن بيعة يزيد بن معاوية، وذلك باعتباره العقل المدبر، وصاحب الفكرة الأولى، حين عرض على معاوية أن يتولى يزيد الخلافة من بعده، وتكفل بالدعوة ليزيد وتهيئة أهل الكوفة لتقبل خبر اختياره لولاية العهد وكل من اتهم المغيرة بن شعبة كانت حجته فى ذلك تلك الرواية التى أوردتها بعض المصادر القديمة ومفادها: أن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - دخل على معاوية واستعفاه من ولاية الكوفة فأعفاه، وأراد معاوية أن يولى بدلاً منه سعيد بن العاص، فبلغ ذلك أحد الموالين للمغيرة، وتأثر المغيرة عند ذلك، وتمنى العودة للإمارة، فقام فدخل على يزيد وعرّض له بالبيعة، فأخبر يزيد والده بما قال له المغيرة، فاستدعى معاوية المغيرة بن شعبة، وأمره بالرجوع واليًا مرة أخرى على الكوفة وأن يعمل فى بيعة يزيد[1]، وأسانيد هذه الرواية ضعيفة، فسند هذه الرواية لا يشجع على قبولها أو الاستئناس بها بأى حال من الأحوال، كما أن المغيرة رضى الله عنه صحابى جليل تمّ التعريف به فى موضعه من هذا الكتاب، وقد توفى عام ٥٠هـ[2] قبل ظهور فكرة ولاية العهد عند معاوية، حيث بدأت هذه الفكرة فى الظهور فى عهد زياد بن أبيه على العراق، وقد صرّح الطبرى بأن معاوية إنما دعا إلى بيعة يزيد سنة ٥٦هـ[3]، فلماذا تأخر كل هذه السنين إذا كان المغيرة قد شرع فى التمهيد لهذه الفكرة قبل موته؟![4].

---

(١) الإشراف فى منازل الأشراف لابن أبى الدنيا، ص (١٢١) إسناده ضعيف، تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٠)، إسناده ضعيف جداً، تاريخ الذهبى حوادث (٦١ - ٨٠هـ)، ص (٢٧٢)، إسناده ضعيف جداً .

(٢) تاريخ الطبرى (٦/ ١٥٠) .

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢١٩)، انظر: مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية، ص (٨٤ - ٨٧).

(٤) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية، ص (٨٧).

ثانيًا: الخطوات التى اتبعها معاوية لبيعة يزيد:

١ ـ المشاورات:

لم نعثر فى المصادر التاريخية على تحديد دقـيق لتلك الفترة التى بدأ فيها معاوية رضى الله عنه يفكر تفكيرًا جـديًا فى تولية ولده يزيد من بعده خليفـة للمسلمين. ولكنه بالتـأكيد لم يفكر إلا بعـد سنة خمسـين من الهجـرة، وذلك بعد أن خلت الساحة من وجود الصـحابة الكبار المبشرين بالجنة من أمثـال سعد بن أبى وقاص، وسعيـد بن يزيد بن عمرو، وبعد وفـاة الحسن بن على رضى الله عنهم جمـيعًا، وبعد أن عُرف يزيد عند قـيادته لجيش المسلمين الذى حاصر القـسطنطينية، وبعدها أصبح معـاوية يهيئ الأمور لترشيح يزيد للخـلافة، وكان من الطبيعى أن يستـشير زياد بن أبيه بـعدما أصـبح أخًا له، وصار يقـال له: زياد بن أبى سفـيان، وولاه العراق، ولـنسمع إلى رواية الطبـرى لهذه الاسـتشارة، ومـاذا صنع زياد[١]، قال الطبرى: لما أراد معاويـة أن يبايع ليزيد، كتب إلى زياد يستشـيره، فبعث زياد إلى عبيد بن كـعب النميرى، فقال: إن لكل مـستشير ثقة، ولكل سـر مستودع، وإن الناس قد أبدعت[٢] بهم خصلتان: إذاعة السر، وإخراج النصيحة إلى غير أهلها، وليس موضع السر إلا أحد رجلين: رجل آخـرة يرجو ثوابًا، ورجل دنيا له شرف فى نفسه، وعقل يصـون حسبه، وقد عجمـتهما[٣] منك، فأحمدت الذى قبلك. وقد دعوتك لأمـر اتهمت عليه بطون الكتب؛[٤] إن أمير المؤمنين كتب إلىّ يزعم أنه قـد عزم عـلى بيعـة يزيد، وهو يتـخـوّف نفرة الـناس، ويرجو مطابـقتـهم، ويستشيرنى. وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رَسْلة[٥] وتهاون، مع ما قد أولع به من الصيـد، فالْقَ أمير المؤمنين مؤديًا عنى، فأخـبره عن فعلات يزيد. فقال له: رويدك بالأمـر؛ فأقمن أن يتم لك ما تريد، ولا تعـجل فإن دركًا فى تأخير خير من تعجـيل عاقبته الفَوْت. فقال عبيـد له: أفلا غير هذا؟ قال: ما هو؟ قال: لا تفسد على مـعاوية رأيه، ولا تمقّت إليه ابنه، وألقى أنا يزيد سرًا من معاوية فأخبره عنك أن أمير المؤمنين كتـب إليك يستشيرك فى بيعته، وأنك تخوَّفُ

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ١٨٩).
(٢) أى: أضرت.
(٣) أى: خبرتهما.
(٤) أى خائف من ذيوعه إذا هو كتبه.
(٥) الرسلة: الكسل.

خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وأنك ترى له ترك ما يُنقَمُ عليه، فيستحكم لأمير المؤمنين الحجة على الناس، ويسهل لك ما تريد، فتكون قد نصحت يزيد وأرضيت أمير المؤمنين، فسلمت مما تخاف من علاقة أمر الأمة. فقال زياد: لقد رميت الأمر بحجره، اشخص على بركة الله، فإن أصبت فما لا ينكر، وإن يكن خطأ فغير مستغَشّ، وأبعد بك إن شاء الله من الخطأ قال: أتقول بما ترى، ويقضى الله بغيب ما يعلم. فقدم على يزيد فذاكره ذلك. وكتب زياد إلى معاوية يأمره[1] بالتؤدة، وألا يعجل، فقبل ذلك معاوية وكفّ يزيد عن كثير مما كان يصنع[2].

إن تحليل هذا النص يكشف لنا عن الحقائق التالية:

أ - إن بداية الفكرة كانت من معاوية، وأنه كان يدرك أنه كان يقدم على أمر خطير، بل على حدث لم يسبق إليه، ولهذا اصطفى زياداً للاستشارة، وزياد هو الذى قال عنه الأصمعى: الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبديهة، والمغيرة بن شعبة للمعضلة، وزياد لكل صغيرة وكبيرة. وقد أشار عليه زياد بالتؤدة فقبل. ولهذا لم يُقدم معاوية على الأمر الخطير إلا بعد وفاة زياد[3]. قال الطبرى: لما مات زياد، دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد: إن حدث به حدث الموت، فيزيد ولى عهد، فاستوثق[4] له الناس على البيعة ليزيد غير خمسة نفرٍ[5].

ب - إن معاوية لم يكن يريد حين الاستشارة الاكتفاء بالعهد، وإنما أراد أن يبايع الناس يزيد وهو حى، وهو حدث جديد أيضا لم يعهد من قبل، لأن الناس لم يبايعوا عمر إلا بعد وفاة أبى بكر رضى الله عنه.

جـ - إن زياداً قد أحس خطورة الأمر، فلم يشأ -بادئ الأمر- أن يكتب لمعاوية بنصيحته، بل أراد أن يحمّلها لرسول خاص وهو (عبيد الله بن كعب النميرى) ليؤديها عنه إلى معاوية شفهيًا، وفى ذلك من الحيطة الشىء الكثير، لئلا يشيع خبر الكتاب، فيحدث ما لا يحمد. ولهذا قال لعبيد: ولهذا دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف.

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢١) . يأمره هنا: يشير إليه .

(٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٢١) .

(٣) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ١٩١) .

(٤) استوثق له الناس: اجتمعوا على رأيه .

(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢١) .

د ـ إن معاوية كان يتخوف نفرة الناس، فليس العهد لولد الخليفة والخليفة حى بالأمر اليسير.

هـ ـ إن زياداً كان يخشى على الأمة من يزيد، ولذلك يقول: وعلاقة أمر الإسلام وضمانه عظيم، ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد. ولهذا أيضا نرى فى جواب عبيد له أن سيلقى يزيد وينقل إليه أن زياداً يرى ترك ما ينقم عليه، وبذلك يسلم ما تخاف من علاقة أمر الأمة.

و ـ إن زياداً كتب أخيراً إلى معاوية، ولكن لينصحه بالتؤدة وألا يعجل فقبل ذلك معاوية[1].

ز ـ وممن شاورهم معاوية رضى الله عنه الأحنف بن قيس، فقد روى أن معاوية لما نصَّب ولده يزيد لولاية العهد، أقعده فى قبة حمراء، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف بن قيس جالس. فقال له معاوية: ما بالك لا تقول يا أبا بحر؟ قال: أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال له معاوية: جزاك الله عن الطاعة خيراً، وأمر له بألوف، فلما خرج لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال: يا أبا بحر، إنى لأعلم أن شر من خلق الله سبحانه وتعالى هذا وابنه، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فليس نطمع فى استخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: أمسك عليك، فإن ذا الوجهين خليق ألا يكون عند الله وجيهاً[2].

٢ ـ الحملات الإعلامية:

ومن التمهيدات الإعلامية الناجحة التى قدمها معاوية رضى الله عنه لابنه توليته أميراً على الجيش الذى وجهه إلى غزو القسطنطينية، وبعد أن رجع من الغزو ولاه إمارة الحج، ولكنه كان يتخوف نفرة الناس، ويتهيب من بعض المعارضين[3]، ولذلك

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ١٩٢).

(٢) الشهب اللامعة فى السياسة النافعة، ص (٤٥٨).

(٣) دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٠٤).

كان يواصل إعداد العدة للأمر، ويستشير ولاته ورجال دولته، ويستعين بهم فى تذليل العقبات وتهيئة الأجواء لأخذ البيعة ليزيد، ومما يذكر فى هذا الجانب، أن الشاعر ربيعة بن عامر الدارمى المعروف بـ(مسكين الدارمى)، وكان ممن يؤثره يزيد ويصله، أنشد فى مجلس معاوية، وكان المجلس حافلاً ويحضره وجوه بنى أمية فقال:

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد؟
بنى خلفاء الله مهلاً فإنما يبوِّئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربى خلاّه ربُّه فإن أمير المؤمنين يزيد

قال معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين، ونستخير الله. ولم يتكلم أحد من بنى أمية إلا بالإقرار والموافقة[1].

٣ـ قبول أهل الشام لبيعة يزيد:

أدرك معاوية رضى الله عنه حرص أهل الشام على بقاء الخلافة فيهم، فقد حسم أهل الشام أمرهم، وأصبح خيارهم فى ولاية العهد ليزيد، ووجدوا فيه ضالتهم لاستمرار صدارتهم فى الدولة الإسلامية، ولم يكن أهل الشام يستغربون فكرة توريث الخلافة، كما كان يستغربها أهل الحجاز، فقد عهدوها من قبل إبان حكم البيزنطيين لهم، بل إن بعض أهل العراق أيضا كانوا فيما يبدو مهيئين لتقبل فكرة توريث الخلافة ولكن من منظور خاص، حيث يرون أحقية أهل البيت بها واستمرارها فيهم وقد تأثروا فى ذلك بنظام الحكم الساسانى للفرس قبل الفتح الإسلامى لهذه البلاد[2]، إن أهل الشام استجابوا لرغبة معاوية فى تولية يزيد وليًا لعهده من بعده، وكان ذلك بعد رجوع يزيد من غزوة القسطنطينية، وقد أدى طرح هذه الفكرة إلى قبول وإجماع من أهل الشام بالموافقة على بيعة يزيد، ولم يكن هناك أى معارض[3]، وقد أسهم أهل الشام فيما بعد فى أخذ البيعة ليزيد من الأمصار الأخرى مثل الحجاز[4].

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٤٥٥)، دراسة فى تاريخ الخلفاء الأمويين، ص (١٠٤).

(٢) مسند أحمد (٢/ ٣٢٥) الموسوعة الحديثية، حسن لغيره .

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١١)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٨٩).

(٤) تاريخ فلسطين، هانى أبو الرب، ص (٣١٩، ٣٢٠)، البيان والتبيين (١/ ٣٩٢) .

٤ ـ بيعة الوفود:

عقد معاوية رضى الله عنه اجتماعًا موسعًا فى دمشق بعد ما جاءت الوفود من الأقاليم، وكانت هذه الوفود تضم مختلف رجالات القبائل العربية، فمثلاً من بلاد الشام: الضحاك بن قيس الفهرى، وثور بن معن السلمى(١)، وعبد الله بن عضاة الأشعرى، وعبد الله بن مسعدة الفزارى، وعبد الرحمن بن عثمان الثقفى، وحسان بن مالك بن بحدل الكلبى(٢) وغيرهم، كما حضر عن أهل المدينة عمرو ابن حزم الأنصارى ـ وذلك فى وقت متأخر ـ وحضر عن أهل البصرة الأحنف بن قيس التميمى، ثم تكلم كل زعيم من هؤلاء الزعماء ورحبوا بالفكرة وأثنوا عليها، وأكدوا أن هذه هى الطريقة الأصوب لحقن الدماء وحفاظ الألفة والجماعة(٣)، فحصلت المبايعة ليزيد بولاية العهد على أن الشىء المؤكد أن عمرو بن حزم الأنصارى لم يحضر هذا الاجتماع وذلك لأحد أمرين:

الأمر الأول: هو أن أهل المدينة لم يوافقوا -فى الأصل- على البيعة وعارضوها بشدة، فلم يرسلوا فى موعد الوفود أحدًا.

الأمر الثانى: هو أن معاوية قد رفض الالتقاء بعمرو بن حزم، وما ذلك إلا لأنه بلغه معارضة أهل المدينة، وعرف أن عمرو بن حزم مندوب عن أولئك المعارضين، فخشى إن حضر الاجتماع أن يشتت الآراء، ويحدث بلبلة من خلال معارضته، ولهذا استجاب له أخيرًا؛ فالتقى به على انفراد وحصل بالفعل ما كان يظن معاوية، ولكن معاوية تقبل الانتقاد وأجزل له العطاء.(٤) وكان ذلك بعدما عزل رأى ابن حزم عن الوفود.

٥ ـ طلب البيعة من أهل المدينة:

مثلما أرسل معاوية رضى الله عنه إلى الأقاليم يطلب منهم البيعة ليزيد، أرسل إلى المدينة يطلب من أميرها أخذ البيعة ليزيد،(٥) فقام مروان بن الحكم أمير المدينة خطيبًا فحض الناس على الطاعة وحذرهم الفتنة، ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال

---

(١) مختصر تاريخ دمشق (٣/٣٨٦) .
(٢) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٨٩).
(٣) المصدر نفسه، ص (٩٠).
(٤) مجمع الزوائد (٧/٢٤٨، ٢٤٩)، صحيح الإسناد.
(٥) العقد الفريد (٤/ ٣٧٠ - ٣٧٢)، مواقف المعارضة، ص (٩٨).

مروان: إن أمير المؤمنين رأى أن يستخلف ولده يزيد، سنة أبى بكر الراشدة المهدية، واستدل على ذلك بولاية العهد من أبى بكر لعمر، فرد عليه عبد الرحمن ابن أبى بكر رضى الله عنهما[1]، ونفى أن تكون هناك مشابهة بين هذه البيعة وبيعة أبى بكر وقال: فقد ترك أبو بكر، الأهل والعشيرة وعمد إلى رجل من بنى عدى بن كعب؛ إذ رأى أنه لذلك أهل فبايعه. ثم قال: هذه البيعة شبيهة ببيعة هرقل وكسرى. ثم حدث بينه وبين مروان نزاع[2]، وجاء فى رواية عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق رضى الله عنه: يا معشر بنى أمية اختاروا منها بين ثلاثة: بين سنة رسول الله، أو سنة أبى بكر، أو سنة عمر.. ألا وإنما أردتم أن تجعلوها قيصرية كلما مات قيصر كان قيصر[3]، فقال مروان: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه[4]، فقال: إن هذا الذى أنزل الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي﴾ [الأحقاف: ١٧] فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى[5].

وقد سبق طلبَ مروان بن الحكم من أهل المدينة البيعة ليزيد تمهيدٌ من معاوية رضى الله عنه، حيث أرسل رسالة لم يذكر فيها يزيد، وإنما جاء فيها: إنى قد كبرت سنى، وخشيت الاختلاف على الأمة بعدى، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بالأمر بعدى، وكرهت أن اقطع أمرًا دون مشورة من عندك فاعرض عليهم ذلك، وأعلمنى بالذى يردون عليك فقام مروان فى الناس فأخبرهم بما أراد معاوية، فقال الناس: أصاب معاوية، ووفق وقد أحببنا أن يتخير لنا فلا يألو[6]، ولكن عندما ذكر فى المرة التالية اسم يزيد امتنع أهل المدينة فى بداية الأمر، وعبَّر عبد الرحمن بن أبى بكر عمّا فى نفوسهم[7].

ومما سبق نلاحظ أن مروان بن الحكم لم يوفق فى المهمة التى كلفه بها معاوية رضى الله عنه، وعند ذلك قرر معاوية المجيء بنفسه إلى الحجاز ومعرفة موقف الصحابة من هذه القضية المهمة، فجاء رضى الله عنه معتمرًا فى شهر رجب من

---

(١) مواقف المعارضة، ص (٩٩)، مجمع الفوائد (٥/ ٢٤١) إسناده حسن.

(٢) مجمع الفوائد (٥/ ٢٤١) إسناده حسن.

(٣) البخارى رقم (٤٨٢٧).

(٤) المصدر نفسه رقم (٤٨٢٧)، وفى البخارى رواية أخرى.

(٥) المصدر نفسه رقم (٤٨٢٧).

(٦) المدينة فى العصر الأموى، ص (٨٨)، نقلاً عن الكامل فى التاريخ.

(٧) مواقف المعارضة، ص (٩٩).

سنة ٥٦هـ[١]، فلما علم عبد الرحمن بن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير بقدوم معاوية خرجوا من المدينة، واتجهوا إلى مكة[٢]، فلما قدم معاوية المدينة خطب الناس وحثهم على البيعة وبيّن أن يزيد هو أحق الناس بالخلافة[٣]، ثم قال: قد بايعنا يزيد فبايعوه[٤]، ويبدو أن معاوية قد ذكر أنه يخشى على ابن عمر وغيره من القتل إن مانعوا، ويقصد بخوفه عليهم من أهل الشام، الذين لا يمكن أن يتصوروا أن أحدًا يخالف أمير المؤمنين فى أمر اتفق عليه كثير من الناس، فقد ذكر أن معاوية قال: والله ليبايعنّ ابن عمر أو لأقتلنّه، فلما بلغ الخبر عبد الله بن صفوان[٥]، غضب وعزم على مقاتلة معاوية إن ثبت هذا. فلما سأل معاوية أنكر ذلك وقال: أنا اقتل ابن عمر؟! إنى والله لا أقتله[٦].

أ ـ عبد الله بن عمر رضى الله عنه فى مجلس معاوية رضى الله عنه: فلما قدم معاوية مكة، وقضى نسكه، بعث إلى ابن عمر، فقدم عليه فتشهد معاوية وقال: أما بعد يا ابن عمر، فإنك قد كنت تحدثنى أنك لا تحب أن تبيت ليلة سوداء وليس عليك أمير، وإنى أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى على فساد ذات بينهم، فرد ابن عمر على معاوية، وبيَّن له كيف كانت طريقة بيعة الخلفاء الراشدين، وذكر له كيف أن لهم أبناء خير من يزيد، فلم يروا فى أبنائهم ما يرى معاوية فى يزيد، ثم بين له أيضًا أنه لا يريد أن يشق عصا المسلمين وأنه موافق على ما تجتمع عليه أمة محمد ﷺ فأثلج هذا القول صدر معاوية رضى الله عنه وقال: يرحمك الله[٧]. فقد اشترط ابن عمر حدوث الإجماع على بيعة يزيد حتى يعطيه البيعة[٨]، وكان معاوية رضى الله عنه قد أرسل بمائة ألف درهم لابن عمر، فلما دعاه معاوية لبيعة يزيد قال: أترون هذا أراد، إن دينى إذًا عندى لرخيص[٩]،

---

(١) البداية والنهاية (١١/ ٣٠٥).
(٢) التاريخ الصغير للبخارى (١/ ١٠٣) إسناده حسن.
(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١٣، ٢١٤) إسناده حسن.
(٤) الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير (١/ ٢٦٢)، حسن مشهور.
(٥) التقريب، ص (٣٠٨)، قتل عام ٧٣هـ بالكعبة مع ابن الزبير.
(٦) الطبقات (٤/ ٨٣) بسند صحيح، تاريخ خليفة، ص (٢١٤ ـ ٢١٥) بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص (١٠١، ١٠٢).
(٧) تاريخ خليفة، ص (٢١٤، ٢١٥) بسند صحيح
(٨) الفقهاء والخلفاء، د. سلطان خالد، ص (٥٨).
(٩) الطبقات (٤/ ١٨٢) بسند صحيح.

وكان ابن عمر رضى الله عنه يرى أنه لا يجوز أن يؤخذ على البيعة الدراهم، لأنها من باب الرشوة، فإن كانت البيعة حقًا فلا يجوز له أن يأخذ على الحق أجرًا، وإن كانت باطلاً، فلا يجوز له أن يبذل البيعة لمن لا يستحقها من أجل المال[1]. موقف ابن عمر رضى الله عنه هو عدم الرضا بالأسلوب الوراثى للحكم أو أخذ البيعة عن طريق المال[2].

ب ـ عبد الرحمن بن أبى بكر فى مجلس معاوية رضى الله عنهم: وخرج ابن عمر ـ من مجلس معاوية ـ واستدعى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، فأخذ معاوية فى الكلام، فقاطعه عبد الرحمن ورد عليه بلهجة شديدة، وذكر أنه يمانع بيعة يزيد، وطلب أن يكون الأمر شورى، وتوعد معاوية بالحرب[3]. ثم قام فقال معاوية: اللهم اكفنيه بما شئت، وطلب منه أن يتمهل وألا يعلن رفضه أمام أهل الشام فيقتلوه، فإذا جاء العشى وبايع الناس ثم يكون بعد ذلك على ما عنده من رأى[4]. وكان الأولى لمعاوية رضى الله عنه أن يطلب من أهل الشام ألا يتعرضوا لمن خالفه.

جـ ـ عبد الله بن الزبير رضى الله عنه: ثم استدعى ابن الزبير، واتهمه معاوية بأنه السبب فى منع البيعة، وأنه وراء ما حدث من ابن عمر وابن أبى بكر، فردّ عليه ابن الزبير وطلب منه أن يتنحى عن الإمارة إن كان ملّها، ثم طلب من معاوية أن يضع يزيد خليفة بدلاً منه فيبايعه. ثم استدل على عدم موافقته على المبايعة بما استنبطه من حديث الرسول ﷺ بأنه لا يجوز مبايعة اثنين فى آن واحد[5]، ثم قال: وأنت يا معاوية أخبرتنى أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان فى الأرض خليفتان فاقتلوا أحدهما**»[6].

د ـ الحسين بن على رضى الله عنه: ومن الملاحظ أن الرواية السابقة لم تذكر الحسين بن على ضمن من استشارهم معاوية فى بيعة يزيد، ولعل السبب يعود إلى

(١) موسوعة فقه ابن عمر، ص (١٥٣)، قلعجى . (٢) الفقهاء والخلفاء، ص (٥٩).
(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١٣، ٢١٤) بسند صحيح، مواقف المعارضة، ص (١٠٣).
(٤) تاريخ خليفة، ص (٢١٤)، تاريخ أبى زرعة (١/ ٢٢٩)، بإسناد صحيح.
(٥) تاريخ خليفة، ص (٢١٤) بإسناد حسن، حلية الأولياء (١/ ٣٣٠، ٣٣١) .
(٦) المعجم الكبير للطبرانى (١٩/ ٣١٤)، مجمع الزوائد (٥/ ١٩٨)، قال الهيثمى: ورجاله ثقات .

أن معاوية أدرك العلاقة بين أهل العراق والحسين وأنهم كانوا يكتبون له ويمنونه بالخلافة من بعد معاوية، ثم إن الحسين قد قابل معاوية بمكة فكلمه طويلاً -كما يبدو- فى أمر الخلافة؛ الأمر الذى أغضب يزيد فقال لأبيه: لا يزال رجل قد عرض لك، فأناخ بك، قال: دعه لعله يطلبها من غيرى فلا يسوغه فيقتله[1].

ويتبين لنا من خلال الحوار الذى دار بين معاوية وكل من عبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير رضى الله عنهم أنهم يمانعون البيعة لسببين:

- اعتراضهم على تولية يزيد للعلاقة بين الأب والابن، وأن هذه لم تكن طريقة الخلفاء الراشدين.

- الاستدلال على بطلان هذه البيعة ورفضها لمخالفتها النص الصريح الذى ورد فى الحديث النبوى، والذى لا يجيز البيعة لشخصين فى آن واحد. والملاحظ هنا أن المعارضين لم يذكروا قدحًا فى يزيد وإلا كيف يمكن أن يتجاهلوا صفات يزيد التى اتهم بها فيما بعد، خاصة فى ذلك الموقف الذى يتطلب حشد أى دليل فى مقابل الخصم[2]. والحقيقة أنه كان هناك شعور قوى بين بعض الناس -خاصة بين أبناء المهاجرين- هو كيف أن معاوية الذى أسلم فى فتح مكة يتولى خلافة المسلمين، وهناك من هو أقدم إسلامًا وأحق منه؟![3]، وكان البعض معترضًا على تقديم يزيد خوفًا من القيصرية والهرقلية -على حد تعبير عبد الرحمن بن أبى بكر- ولما رأى معاوية أوجه الانتقادات التى انتقد فيها أبناء الصحابة بيعة يزيد، ورأى أنها لا تمس يزيد شخصيًا، بل إنها وجهات نظر ارتأوها ورأى معاوية خلافها، فهؤلاء مدفوعون بحرصهم على جعل منصب الخلافة لا تتطرق إليه العلاقات الأسرية والرغبات الشخصية، ومن ثم تكون قيمة الخليفة واختياره مبنية على علاقته بالخليفة الذى قبله[4]. قام معاوية بعد اجتماعه مع ابن عمر وابن الزبير وابن أبى بكر، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار زعموا

---

(١) الطبقات، الطبقة الخامسة، ص (٣٥٧) إسناد حسن نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (١٠٦).

(٢) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٠٤).   (٣) مصنف ابن أبى شيبة (١١١/ ٩٠) بسند صحيح.

(٤) مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام، د. الدورى، ص (٦٤).

أن ابن عمـر، وابن الزبير، وابن أبى بكر الصـديق لم يبايعـوا يزيد، قد سمـعوا وأطاعوا وبايعوا له. فقال أهل الشـام: لا والله لا نرضى حتى يبايعوا على رءوس الناس وإلا ضربنا أعناقـهم، فانتهرهم معـاوية، وقال: مه! سبحـان الله ما أسرع الناس إلى قريش بالسوء! لا أسمع هذه المقالة من أحـد بعد اليوم، ثم نزل، فقال الناس: بايع ابن عـمـر وابن الزبيـر وابن أبى بكر ويقـولون: لا والله مـا بايعنا، ويقول الناس: بلى لقد بايعتم، وارتحل معاوية ولحق بالشام[1].

وبهذه الرواية الصحيحة يتبين لنا كذب تلك الرواية التى تتهم معاوية رضى الله عنه بأنه أقام على رأس كل رجل من الصحـابة الأربعة -وهم عبد اللـه بن عمر، -عبد الله بن الزبيـر، وعبد الرحمن بن أبى بكر، والحـسين بن على رضوان الله عليهم رجلين، وأعطى الإشارة لكـل حارس بقتل من يمانع البيعـة، فبايع الناس وبايع ابن عمـر، وابن الزبير، وابن أبى بكـر تحت تهديد السلاح فـبالإضـافة إلى ضعف الرواية سندًا، فإن متنها لا يقل عن سندها من حيث الضعف ولا يقف أمام النقد الدقيق[2]، فمثلاً فى بداية الرواية: أن معاوية لما كان قريبًا من مكة قال لمرقال صاحب حـرسه: لا تدع أحدًا يسيـر معى إلا من حملتـه أنا، فخرج يسيـر وحده حتى إذا كان وسط الأراك لقـيه الحسين بن على، فوقف وقال: مـرحبًا وأهلاً بابن بنت رسول الله ﷺ، سيد شباب المسلمين دابة لأبى عبد الله يركبها، ثم طلع عبد الرحمن بن أبى بكر فـقال: مرحـبًا وأهلاً بصاحب رسـول الله ﷺوابن الصديق وسيد المسلمين، ودعا له بدابة فركبها، ثم طلع ابن الزبير فقال: مرحبًا وأهلاً بابن حوارى رسول الله ﷺوابن الصديق وابن عـمة رسول الله ﷺ ثم دعا له بدابة فركبها، ولـم يعرض لهم شىء حتى قضى نسكه[3]. وأما ما يتعلق بباقى الرواية التى تذكر أن معاوية أوقف على رأس كل رجل حارسين وأمرهما بقتل من يحاول الاعتراض على البيـعة، إذا بويع يزيد، فهذا مستبعـد لأمرين أحدهما: أليس من الغريـب جدًا على معـاوية أن يستـخدم العنف بـهذه الصفـة مع أبناء الصـحابة،

---

(١) تاريخ خليفة بسند حسن، ص (٢١٤).

(٢) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٠٦)، تاريخ خليفة، ص (٢١٥) بسند جويرية بن أسماء، قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يتحدثون، والرواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

(٣) تاريخ خليفة، ص (٢١٥) رواية ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

والصحابة أنفسهم ومن ثم يتسبب فى توسيع الخلاف ويباعد الشقة بينه وبين يزيد من جهة، وبين الصحابة وأبنائهم من جهة أخرى؟.

والأمر الآخر: عندما يقف الحراس على رءوس الأربعة، ابن عمر، وابن الزبير، وابن أبى بكر، والحسين، أليس هذا المنظر أمام الناس يجعل الشك عند الناس يتضاعف حول مكانة يزيد، ويعرف الناس أن أولئك الحراس الذين يقفون على رأس كل شخص إنما يتربصون به ويبغونه شرًا، ثم يصبح لدى الناس اقتناع كامل بأن هذه البيعة بيعة إكراه وخديعة فيمانعوا؟![1].

ثالثًا: تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد:

اختلفت المصادر حول تاريخ ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد على النحو التالى:

١ ـ ذكر خليفة بن خياط[2]، والذهبى[3]، أنه كان فى سنة ٥١هـ .

٢ ـ ذكر ابن عبد ربه[4]، أن ذلك كان فى سنة ٥٥هـ .

٣ ـ ذكر الطبرى[5]، وابن الجوزى[6]، وابن الأثير[7]، وابن كثير[8]، أن ذلك كان فى سنة ٥٦هـ.

هذا وبعد دراسة التواريخ السابقة اتضح عدم صحة ترشيح يزيد بن معاوية سنة ٥١هـ[9] للأسباب التالية:

أ ـ أن وفاة الحسن بن على رضى الله عنه كانت فى السنة نفسها. أى فى سنة ٥١هـ واتخاذ قرار الترشيح يحتاج لوقت من طرف معاوية لكى يدرسه ويستشير فيه، كما أنه ليس من الحكمة إعلان قرار الترشيح بعد وفاة الحسن رضى الله عنه مباشرة.

---

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١١٠).
(٢) تاريخ خليفة، ص (٢١٣).
(٣) تاريخ الإسلام (عهد معاوية)، ص (١٤٧).
(٤) العقد الفريد (٤/ ٣٣٨).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/ ٢١٩).
(٦) المنتظم (٥/ ٢٨٥).
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٣٠٥).
(٨) الكامل فى التاريخ (٢/ ٥٠٨).
(٩) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٥٠).

ب ـ قتل حجر بن عدى رضى الله عنه فى السنة نفسها -أى فى سنة ٥١هـ- لذا فإنه أيضًا ليس من الحكمة إعلان ترشيح يزيد بن معاوية فى هذه السنة، لأن الأنفس لم تكن مهيأة لمثل هذه القرارات الجريئة، التى يعد توقيت إعلانها على الناس من أهم عوامل نجاحها.

جـ ـ إن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد كان أثناء ولاية مروان بن الحكم على الحجاز[١]، وهى -بلا شك- الفترة الثانية من ولاية مروان بن الحكم والتى امتدت من سنة ٥٤هـ ـ ٥٧هـ وذلك أن الفترة الأولى من ولاية مروان بن الحكم كانت من سنة ٤٢ـ ٤٩هـ.

بعد ذلك يتبقى تاريخان لإعلان ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد، وهما ٥٥هـ وسنة ٥٦هـ، وهذان التاريخان يكمل أحدهما الآخر ـ كما سيتضح لاحقًا ـ ولكن يرد فى هذا المقام سؤال حول السبب الذى جعل معاوية رضى الله عنه يؤخر ترشيح ابنه يزيد وليًا للعهد إلى سنة ٥٥هـ أو سنة ٥٦هـ مع أن الحسن بن على رضى الله عنه توفى سنة ٥١هـ، وجواب هذا السؤال يكمن فى معرفة أهم حدث وقع فى سنة ٥٥هـ حيث توفى فى هذه السنة سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، آخر الستة الذين رضيهم ورشحهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه للخلافة من بعده[٢].

رابعًا: وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد:

حاول بعض الإخباريين أن يوجدوا علاقة بين وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وبيعة يزيد بن معاوية، فذكر البعض أن معاوية رضى الله عنه لما رأى مكانة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عند أهل الشام ـ بسبب مآثر عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ولغنائه عن المسلمين فى أرض الروم وبأسه ـ خافه معاوية، فأمر ابن أثال الطبيب النصرانى فدس إليه السم[٣]، فى حين يرجع ابن الكلبى سبب القتل إلى أمر آخر وهو: أن معاوية لما أراد أن يولى الأمور رجلاً من بعده قال

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى (٨/ ٤٣٩).

(٢) مرويات خلافة معاوية، ص (٤٥٢)، سير أعلام النبلاء (١/ ١٢٣).

(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٣)، رواية ضعيفة.

لأهل الشام: إن أمير المؤمنين يريد أن يستخلف عليكم، فماذا ترون؟ فقالوا: عليك بعبد الرحمن بن خالد، وكان فاضلاً فسكت معاوية وأضمرها فى نفسه، ثم إن عبد الرحمن اشتكى، فدعا معاوية طبيبه بن أثال وأمره بدس السم لعبد الرحمن[1]. فهذه الروايات بالإضافة إلى ضعف سندها يوجد اختلاف فى متنها مع الواقع الملموس، فمعاوية رضى الله عنه بيده عزل الأمراء أو توليتهم كما هو معروف، وليس بالصعوبة على معاوية أن يطلب من عبد الرحمن بن خالد أن يتنحى عن قيادة الصوائف على الثغر الرومى، ويهمل عبد الرحمن بن خالد، ثم لا يكون له أى مكانة يُخشى منها، وقد ورد أن معاوية عزله وولى بدلاً منه سفيان بن عوف الغامدى[2] على إحدى الصوائف[3]، وليس هذا يشكل صعوبة على معاوية، بل إن معاوية كان يعزل عن الإمارة من هو أعظم وأقوى من عبد الرحمن بن خالد، ثم كيف يقوم معاوية بقتله، وقد أورد الطبرى ذكر غزوة البحر سنة ٤٨هـ وكان قائد أهل مصر عقبة بن عامر الجهنى، وعلى أهل المدينة المنذر بن زهير، وعلى جميعهم خالد بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[4]، فكيف يرضى معاوية أن يكون ولده قائداً كبيراً من بعد أبيه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كيف يرضى أن يقوم ولده بقيادة الجيش لمعاوية إن كان معاوية قاتل أبيه، وهل يمكن أن يخفى على ولده هذا الأمر وهو أقرب الناس إليه؟[5] فهذه أكاذيب واضحة حاولت أن توجد علاقة بين موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد والبيعة ليزيد، ومثلها مثل الأكاذيب التى حاولت أن تربط بين موت الحسن بن على والبيعة ليزيد ـ كما مرّ ذكره-.

إن خبر وفاة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بالسم أورده القاسم بن سلام، وابن حبيب البغدادى[6]، وذكر أن الدافع هو الخوف من منافسة عبد الرحمن ليزيد فى ولاية العهد[7]، كذلك أورد الخبر البلاذرى[8]، وأبو الفرج الأصفهانى[9]،

(١) كتاب الأمثال، ص (١٩٢) للقاسم بن سلام، ضعيف الإسناد. (٢) تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٨٥).
(٣) أنساب الأشراف (٤/ ١٠٤)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٩٢).
(٤) تاريخ الطبرى (٦/ ١٤٧).
(٥) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (٩٣). (٦) المنمق فى أخبار قريش، ص(٣٦٠).
(٧) هذا تعليل فاسد، لأن ترشيح يزيد بن معاوية لولاية العهد ظهر فى عام ٥٦هـ بعد وفاة الحسن بن على، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد رضى الله عنهم.
(٨) أنساب الأشراف (٤/ ١٠٩). (٩) الأغانى (١٦/ ١٩٧).

وأبو هلال العسكرى[١]، وخبر اتهام معاوية رضى الله عنه بحادثة سم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد لم ترد بإسناد صحيح، بل هو من الأخبار المكذوبة على هذا الصحابى الكريم[٢]، وفى ذلك يقول ابن كثير: وقد ذكر ابن جرير وغيره، أن رجلاً يقال له: ابن أثال ـ وكان رئيس الذمة بأرض حمص ـ سقاه شربة فيها سم فمات، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له فى ذلك، ولا يصح[٣].

خامسًا: أسباب ترشيح معاوية لابنه يزيد:

١ ـ الحفاظ على وحدة الأمة:

نظر معاوية رضى الله عنه إلى ابنه يزيد على أنه المرشح الذى سيحظى بتأييد أهل الشام الذين يمثلون العامل الأقوى فى استقرار الدولة، وقد أبرز معاوية رضى الله عنه السبب الذى دعاه لاختيار ابنه يزيد، وذلك أثناء جمع التأييد له من كبار أبناء الصحابة أثناء رحلته الأخيرة للحج إذ كان الدافع لمعاوية ـ رضى الله عنه ـ عندما سارع فى أخذ البيعة ليزيد هو خوفه من الاختلاف[٤]، الذى قد يطرأ على الأمة بعد موته، وربما تنخرط فى قتال جديد لا يعلم سعته ومداه إلا الله عز وجل[٥]. كان معاوية يرهب أن يدع أمة محمد ﷺ كالضأن لا راعى لها[٦]، ولذلك عمل على اختيار من يخلفه، وكان الأولى بمعاوية رضى الله عنه أن يعين من أفاضل المجتمع الإسلامى رجالاً يجعلهم موضع شورى يختارون من كان أهلاً للخلافة ويبتعد عن ترشيح ابنه يزيد، لأن اختيار يزيد لم يكن أمانًا من الاختلاف والقتال وسفك الدماء ولقد وقع المحظور بعد وفاة معاوية، وسفكت الدماء ولم يزح اختيار معاوية ليزيد ما تعلل به من المخاوف، ويبدو أنه وقع ما وقع بسبب شخصية يزيد، وإتباع الوراثة بديلاً من الشورى فى اختيار الخليفة، ولأسباب أخرى، وعلى كل حال فمعاوية رضى الله عنه اجتهد ولم يكن مصيبًا فى تولية يزيد لولاية العهد، فقد كان بوسعه وقدراته السياسية الفائقة أن يطمئن فى حياته على اجتماع كلمة المسلمين فى أمر الخلافة من بعده باختيار واحد من قريش يشهد

---

(١) جمهرة الأمثال (٢/ ٣٨٥).
(٢) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص(٣٨٤).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ١٧٤).
(٤) دراسات فى النظم، ص(٤١)، د. توفيق اليوزكى.
(٥) مواقف المعارضة من خلافة يزيد، ص(١٣١).
(٦) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٢٢).

له الناس بحسن السيرة أكثر من يزيد ابنه، ويجتمع عليه أعيان المجتمع الإسلامى فى الشام والعراق وبلاد الحجاز وغيرها.

٢ ـ قوة العصبية القبلية:

خاض معاوية رضى الله عنه الحرب وتولى الخلافة بنصرة من أهل الشام، وكانوا من أشد الناس طاعة لمعاوية رضى الله عنه ومحبة لبنى أمية، ومن الدلائل على تلك الطاعة والمحبة أن معاوية رضى الله عنه لما عرض خلافة يزيد بن معاوية على أهل الشام وافقوا موافقة جماعية ولم يتخلف منهم أحد، وبايعوا ليزيد بولاية العهد من بعد أبيه[1]، ومن الدلائل على قوة العصبية فى بلاد الشام لبنى أمية أن مروان بن الحكم تمكن من الانتصار بأهل الشام على عمال عبد الله بن الزبير، ثم تبعه بعد ذلك ابنه عبد الملك بن مروان، حتى تمكن من الانتصار بأهل الشام على ابن الزبير وقتله سنة ٧٣هـ رضى الله عنه، ومع ذلك لم نجد أهل الشام انقادوا لابن الزبير، بل إن أهل العراق غدروا بأخيه مصعب بن الزبير ومالوا مع عبد الملك بن مروان، فلماذا لم تجتمع الأمة على ابن الزبير وهو فى ذلك الحين لا يشاركه أحد فى فضائله ومكانته؟ بل نجد العكس؛ أن عبد الملك بن مروان -الذى يُعد فى السن كأحد أبناء عبد الله بن الزبير- تمكن من تولى زعامة المسلمين[2]، فعصبية أهل الشام كانت سببًا مهمًا فى تولية يزيد وليست عصبية بنى أمية فإن أسرة بنى أمية لم تكن ذات تأثير كبير على الأحداث فى مجىء معاوية رضى الله عنه إلى منصب الخلافة، وقد بنى ابن خلدون دفاعه عن صنيع معاوية فى ولاية العهد أن المصلحة تقتضى ذلك حيث قال: والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذ من بنى أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٣١).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٣٢).

على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجلُّ من ذلك[1]، وقال أيضًا: عهد معاوية إلى يزيد خوفًا من افتراق الكلمة، بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم، فلو قد عهد إلى غيره لاختلفوا عليه[2]. أي أن قوة عصبية بني أمية وسطوتهم، ونفورهم من الانقياد لغيرهم، جعلت معاوية رضى الله عنه يختار مرشحًا من بنى أمية، فكان ابنه يزيد، خوفًا منه على الأمة من الفرقة والاختلاف[3]، ومما لا شك فيه أنه لو جاء معاوية برجل من ذوى الكفاءة من قريش غير ابنه يزيد واستفتى ذوى الرأى والنهى بشأنه، ثم وقف وراءه بثقله الكامل وتأييده الصريح، وطلب من أهل الحل والعقد فى الأمة مبايعته بولاية العهد، فهل كان يعترض أحد؟ طبعًا لا، ذلك لأن أمير المؤمنين هو الداعى، ولأن المرشح لولاية العهد رجل أريد بترشيحه ومبايعته مصلحة الأمة والدولة مجردة من كل شبهة أو عاطفة، ألا ترى معى أن ذلك كان ممكنًا وأنه كان محققًا للغرض القائل بأن القصد من ولاية العهد هو سد أبواب الخلاف بين المسلمين، وتجنيب الأمة أخطار التنازع والفتن من جديد؟ ولكن معاوية رضى الله عنه -على كل حال- اجتهد، فإن كان مصيبًا فله أجران، وإن كان مخطئًا فله أجر[4].

٣ ـ محبة معاوية لابنه وقناعته به:

قال ابن كثير: وقد كان معاوية لما صالح الحسن، عهد للحسن بالأمر من بعده، فلما مات الحسن قوى أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهل، وذاك من شدة محبة الوالد لولده، ولما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك، ومعرفتهم بالحروب، وترتيب الملك والقيام بأبهته، وكان ظن ألا يقوم أحد من أبناء الصحابة فى هذا المعنى[5]. وقال معاوية رضى الله عنه لعمرو بن حزم الأنصارى -الذى كان معارضًا للبيعة، فذكّر معاوية بالله، وطلب منه أن ينظر فى عاقبة الأمور، فشكره معاوية-: إنك امرؤ ناصح. ثم أخذ معاوية يُبيّن له بصراحة أنه لم

---

(١) مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٦٢، ٢٦٣). (٢) المصدر نفسه (١/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٣) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٤٦٢).

(٤) العالم الإسلامى فى العصر الأموى، ص (١٢٦).

(٥) البداية والنهاية نقلاً عن مرويات خلافة معاوية، ص (٤٥٩، ٤٦٠).

يبق إلا ابنه وأبناؤهم وابنه، أحق من أبنائهم[1]، وكانت ليزيد بعض الصفات التى شجعت معاوية على جعله وليًا للعهد، قال الذهبى فى ترجمة يزيد: كان قويًا شجاعًا، ذا رأى وحزم، وفطنة وفصاحة[2]، وقال ابن كثير: وكان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم، والحلم، والفصاحة، والشعر، والشجاعة، وحسن الرأى فى الملك[3]. ربما كانت هذه الصفات دافعة لمعاوية وكافية ليزيد ليكون صالحًا للخلافة[4]، ولا شك أن الصحابة وأبناءهم أفضل من يزيد وأصلح، ولكن مع ذلك فإن معاوية ربما رأى فى ولده مقدرة لم تكن لغيره فى قيادة الأمة، بسبب عيشته المتواصلة مع أبيه، ومناصرة أهل الشام وولائهم الشديد له، ثم اطلاعه عن قرب على معطيات ومجريات السياسة فى عصره، وقد أنس معاوية رضى الله عنه من ولده يزيد حرصًا على العدل وتأسيًا بالخلفاء الراشدين، فقد كان يسأله عن الكيفية التى سيسير بها فى الأمة فيرد عليه يزيد بقوله: كنت والله يا أبت عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب[5]. وغير ذلك من الأسباب. فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة، والآخر أعظم قوة، قدم أنفعهما لتلك الولاية، وأقلهما ضررًا فيها، فيقدم فى إمارة الحرب، الرجل القوى الشجاع، وإن كان فيه فجور، على الرجل الضعيف، وإن كان أمينًا[6]. فالواجب فى كل ولاية الأصلح بحسبها، وسئل الأمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين فى الغزو أحدهما قوى فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزو؟ فقال: أما الفاجر القوى، فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، يُغزى مع القوى الفاجر[7]. ومعظم المقصود من نصب الأئمة حياطة المسلمين، ودفع عدوهم، والأخذ على يد ظالمهم، وإنصاف مظلومهم، وتأمين سبلهم، وتفريق بيت مالهم فيهم، على ما أوجبه الشرع، فمن كان ناهضًا بهذه الأمور ونحوها فبه يحصل مقصود الإمامة، ويطيب عيشهم، ويأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم وحرمهم، وإن كان غيره أكثر علمًا منه، أو أوسع عبادة، أو

(١) مجمع الفوائد (٧/ ٢٤٨، ٢٤٩)، رجاله رجال الصحيح، الإصابة (٤/ ٦٢١)، رجاله ثقات.
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٧).
(٣) البداية والنهاية (١١/ ٦٤٦).
(٤) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص (٢٠٤).
(٥) الأشراف لابن أبى الدنيا، ص (١٢٧)، سنده ضعيف.
(٦) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص (٢٢).
(٧) المصدر نفسه، ص (٢٢).

أعظم ورعًا فإنه إذا كان غير ناهض بالقيام بهذه الأمور، فلا يعود على المسلمين من علمه أو ورعه وعبادته فائدة، ولا ينفعهم كونه مريدًا للصلاح وإجراء الأمور مجاريها الشرعية مع عجزه عن ذلك وعدم قدرته على إنفاذه[1]. فقد كان معاوية رضى الله عنه يرى بولاية المفضول مع وجود الفاضل.. هذه أهم أسباب ترشيح معاوية رضى الله عنه لابنه.

سادسًا: الانتقادات التى وجهت لمعاوية بشأن البيعة ليزيد:

لقد حمّل كثير من المؤرخين السابقين والمعاصرين معاوية رضى الله عنه مسئولية البيعة الكاملة، وبالتالى حملوه جميع الأخطاء التى يقع فيها الحكام من زمان معاوية حتى عصرنا الحاضر، فمنهم من اتهمه بالخروج على نظام الشورى فى الإسلام فكان أول محطم لنظام الإسلام[2]. ومنهم من اتهم معاوية بأنه أقر النظام الذى يعتمد على السياسة أولاً وإلى الدين ثانيًا[3]، والبعض شبه معاوية بالملوك الأقدمين من الفرس والروم[4]، والبعض يجعل معاوية بهذه البيعة هو رائد المدرسة (المكيافيلية) فى السياسة القائمة على تسويغ الوسيلة من أجل الغاية[5]، والبعض حكم على معاوية بارتكابه كبيرة أضافها إلى كبائره السابقة[6]، والبعض اعتبر معاوية خارجًا على إجماع المسلمين بهذه البيعة[7]. ولمعرفة صحة هذه الاتهامات من عدمها يجدر بنا أن نعرف ماهية الشورى وكيفية تطبيقها، فالشورى دعامة من دعائم الحكم فى الإسلام، وقاعدة صلبة من قواعده، كما أن اختيار الحاكم فى الإسلام وتولى أمر الأمة المسلمة لا يعطيه صفة مقدسة، أو سلطة مطلقة[8]، بل إنه مسئول عن كل عمل يقوم به وينفذ فيه ما ينفذ فى شعبه وأما طريقة الشورى فلم يحدد لها نظام خاص، فتطبيقها -إذن- متروك للظروف والمقتضيات الجارية[9]، فقد

---

(١) العبرة مما جاء فى الغزو والشهادة، ص (٣٥)، صديق حسن خان .

(٢) إسلام بلا مذهب، مصطفى الشكعة، ص (٥٨).

(٣) نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب، على إبراهيم حسن، ص (٥٨).

(٤) عائشة والسياسة، ص (٢٧٨)، مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٤١).

(٥) ملامح التيارات السياسية، إبراهيم بيضون، ص (١٤٧).

(٦) الأعمال العربية الكاملة (٦/ ٣٦) أمين الريحانى .

(٧) زعماء الإسلام، ص (٢١٩)، حسن إبراهيم حسن.

(٨) مواقف المعارضة، ص (١٤٢)، النظرية الإسلامية للصعيدى، ص (٤٦٨).

(٩) مواقف المعارضة، ص (١٤٣).

كان رسول الله ﷺ يستشير المسلمين فيما لم ينزل فيه وحى، ويأخذ برأيهم فيما هم أعرف به من شئون دنياهم، وكذلك سار الخلفاء الراشدون فى استشارة المسلمين. . وإليك استعراضًا موجزًا لكيفية انعقاد إمامة الخلفاء الراشدين:

١ ـ طريقة انعقاد بيعة أبى بكر رضى الله عنه:

قام أهل الحل والعقد فى سقيفة بنى ساعدة ببيعة الصديق بيعة خاصة ثم رشحوه للناس فى اليوم التالى وبايعته الأمة فى المسجد البيعة العامة[(١)]، وقد أفرز ما دار فى سقيفة بنى ساعدة مجموعة من المبادئ منها: أن قيادة الأمة لا تقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هى أصل من أصول الاختيار وشرعية القيادة، وأن الخلافة لا يتولاها إلا الأصلب دينًا والأكفأ إدارة، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إسلامية، وشخصية، وأخلاقية، وأن الخلافة لا تدخل ضمن مبدأ الوراثة النسبية أو القبلية، وأن إثارة (قريش) فى سقيفة بنى ساعدة باعتبارها واقعًا يجب أخذه فى الحسبان، ويجب اعتبار أى شىء مشابه ما لم يكن متعارضًا مع أصول الإسلام، وأن الحوار الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسى السائد بين المسلمين حيث لا هرج ولا مرج، ولا تكذيب ولا مؤامرات، ولا نقض للاتفاق، ولكن تسليم للنصوص التى تحكمهم، حيث المرجعية فى الحوار إلى النصوص الشرعية[(٢)].

أ ـ وأول ما قرره اجتماع يوم السقيفة هو أن (نظام الحكم ودستور الدولة) يقرر بالشورى الحرة، تطبيقًا لمبدأ الشورى الذى نص عليه القرآن الكريم، ولذلك كان هذا المبدأ محل إجماع، وسند هذا الإجماع هو النصوص القرآنية التى فرضت الشورى، أى أن هذا الإجماع كشف وأكد أول أصل شرعى لنظام الحكم فى السلام وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستورى تقرر بالإجماع بعد وفاة رسولنا ﷺ، ثم إن هذا الإجماع لم يكن إلا تأييدًا وتطبيقًا لنصوص الكتاب والسنّة التى أوجبت الشورى.

ب ـ تقرر يوم السقيفة أيضًا أن اختيار رئيس الدولة -أو الحكومة الإسلامية- وتحديد سلطاته يجب أن يتم بالشورى، أى البيعة الحرة التى تمنحه تفويضًا ليتولى

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص (٦٦، ٦٧).

(٢) دراسات فى عهد النبوة للشجاع، ص (٢٥٦).

الولاية بالشروط والقيود التى يتضمنها عقد البيعة الاختيارية الحرة - الدستور فى النظم المعاصرة - وكان هذا ثانى المبادئ الدستورية التى أقرها الاجتماع، وكان قرارًا إجماعيًا كالقرار السابق.

جـ - تطبيقًا للمبدأين السابقين قرر اجتماع السقيفة اختيار أبى بكر ليكون الخليفة الأول للدولة الإسلامية[1]، ثم إن الترشيح لم يصح نهائيًا إلا بعد أن تمت له البيعة العامة، أى موافقة جمهور المسلمين فى اليوم التالى بمسجد الرسول ﷺ، ثم قبوله لها بالشروط التى ذكرها فى خطابه[2] المشهور الذى جاء فيه: أما بعد، أيها الناس، فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[3]. وقال عمر لأبى بكر يومئذ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة[4]، وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، وقد قرر الصديق فيها قواعد العدل والرحمة فى التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركز على أن طاعة ولى الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد فى سبيل الله لأهميته فى إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهمية ذلك فى حماية المجتمع من الانهيار والفساد[5].

٢ - طريقة انعقاد بيعة عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

لما اشتد المرض بالصديق رضى الله عنه جمع الناس إليه، فقال: إنه قد نزل بى ما قد ترون، ولا أظننى إلا ميت لما بى، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى، وحل عنكم عقدتى، ورد عليكم أمركم، فأمّروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمّرتم فى

---

(١) فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوى، ص(١٤٠). (٢) المصدر نفسه، ص (١٤٢).

(٣) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٥، ٣٠٦). (٤) البخارى، الأحكام رقم (٧٢١٩).

(٥) التاريخ الإسلامى (٩/ ٢٨).

حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى[1]، وقد قام أبو بكر رضى الله عنه بعدة إجراءات لتتم عملية اختيار الخليفة القادم.

أ ـ استشارة أبى بكر كبار الصحابة: تشاور الصحابة رضى الله عنهم وكل يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه ويطلبه لأخيه إذ يرى فيه الصلاح والأهلية، لذا رجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك، قال: فأمهلونى حتى أنظر لله ولدينه ولعباده، فدعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرنى عن عمر بن الخطاب، فقال له: ما تسألنى عن أمر إلا وأنت أعلم به منى، فقال أبو بكر: وإن فقال عبد الرحمن: هو -والله- أفضل من رأيك فيه، ثم دعا عثمان بن عفان فقال: أخبرنى عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله، فقال عثمان: اللهم علمى به أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدتك. ثم دعا أسيد بن حضير فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللهم أعلمه الخيرة بعدك، يرضى الرضا، ويسخط للسخط، والذى يسر خير من الذى يعلن، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه. وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلهم تقريبًا كانوا برأى واحد فى عمر إلا طلحة بن عبيد الله خاف من شدته، فقد قال لأبى بكر: ما أنت قائل لربِّك إذا سألك استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسونى، أبالله تخوفونى؟ خاب من تزوَّد من أمركم بظلم، أقول: اللهم استخلفت عليهم خير أهلك[2]. ويبين لمن نبهه إلى غلظة عمر وشدته فقال: ذلك لأنه يرانى رقيقًا ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما عليه[3].

ب ـ نص العهد الذى كتبه أبو بكر لكى يقرأ على الناس: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى أستخلف عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى به

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/٢٣٨)، التاريخ الإسلامى (٩/٢٥٨).

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/٧٩)، التاريخ الإسلامى شاكر، ص (١٠١).

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/٧٩).

وعلمى فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، الخير أردت ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

جـ ـ إبلاغ الناس بنفسه: إنه أراد إبلاغ الناس بلسانه واعيًا مدركًا حتى لا يحصل أى لبس، فأشرف أبو بكر على الناس وقال لهم: أترضون بما أستخلف عليكم، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قربة، وإنى قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا[١].

د ـ التوجه بالدعاء لله: إنه توجه بالدعاء إلى الله يناجيه ويبثه كوامن نفسه، وهو يقول: اللهم وليته بغير أمر نبيك، ولم أرد بذلك إلا إصلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأيى، فولَّيت عليهم خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرنى من أمرك ما حضر، فاخلفنى فيهم فهم عبادك[٢].

هـ ـ تكليف عثمان بقراءة العهد على الناس: كلف أبو بكر رضى الله عنه عثمان ابن عفان أن يتولى قراءة العهد على الناس، وأخذ البيعة لعمر قبل موت أبى بكر بعد أن ختمه لمزيد من التوثيق والحرص على إمضاء الأمر، دون أى آثار سلبية، وقال عثمان للناس: أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم. فأقروا بذلك جميعًا ورضوا به[٣].

و ـ وصية الصديق لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما: اختلى الصديق بالفاروق وأوصاه بمجموعة من التوصيات لإخلاء ذمته من أى شىء، حتى يمضى إلى ربه خاليًا من أى تبعة بعد أن بذل قصارى جهده واجتهاده[٤]، وقد جاء فى الوصية: اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الحق فى دار الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غدًا أن يكون ثقيلاً، وإنما خفَّت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل غدًا أن يكون خفيفًا، وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم

---

(١) تاريخ الطبرى (٤/ ٢٤٨) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٩٩)، تاريخ المدينة (٢/ ٦٦٥ ـ ٦٦٩) . (٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٠) .

(٤) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، ص (٢٣٧).

بأحسن أعـمالهم وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكـرتهم قلت: إنى أخاف ألا ألحق بهم، وإن الله تعالى ذكر أهل النار، فـذكرهم بأسوأ أعمالهم، ورد عليـهم أحسنه، فإذا ذكرتهـم، قلت: إنى لأرجو ألا أكـون مع هؤلاء، ليكون العبـد راغبًـا راهبًا، لا يتمنى على الله ولا يقنط من رحمة الله، فإن أنت حـفظت وصيتى فلا يك غائب أبغض إليك من الموت، وليس تعجزه[1].

ونلاحظ أن عـمر رضى الله عنه ولى الخـلافة باتفـاق أصحـاب الحل والعـقد وإرادتهم، فهم الذين فـوضوا لأبى بكر انتخـاب الخليفة، وجـعلوه نائبًا عنهم فى ذلك، فشاور ثم عين الخليفة، ثم عرض هذا التـعيين على الناس فأقروه وأمضوه، ووافقوا عليه، وأصـحاب الحل والعقد فى الأمة هم النواب (الطبـيعيون) عن هذه الأمـة، وإذن فلم يكن اسـتخـلاف عـمـر رضى الله عنه إلا على أصح أسـاليب الشورى وأعدلها[2]. إن الخطوات التى سار عليها أبوبكر الصديق فى اختيارخليفته من بعده لاتتـجاوز الشورى بأى حال من الأحـوال، وإن كانت الإجراءات المتبـعة فيها غير الإجراءات المتبعة فى تولية أبى بكر نفسه[3]. وهكذا تم عقد الخلافة لعمر رضى الله عنه بالشورى والاتفاق، ولم يورِدْ التاريخ أى خـلاف وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحـدًا نهض طوال عهـده لينازعه الأمـر، بل كان هناك إجـماع على خلافته وعلى طاعته فى أثناء حكمه، فكان الجميع وحدة واحدة[4].

٣ ـ طريقة انعقاد بيعة عثمان رضى الله عنه:

استطاع الفاروق رضى الله عنه فى اللحظات الأخـيرة وهو على فراش الموت - رغم ما يعانيه من آلام جراحاته البالغـة- أن يبتكر طريقة جديدة لم يسبق إليها فى اختيار الخليفة الجديد، وكانت دليلاً ملموسًا، ومعلمًا واضحًا على فقهه فى سياسة الدولة الإسلامـية، لقد مـضى قبله الرسول ﷺ ولـم يستخلف بعـده أحدًا بنص صـريح، ولقد مـضى أبو بكر الصديـق واستـخلف الفاروق بعـد مشـاورة كبـار الصحـابة، ولما طلب من الفاروق أن يسـتخلف وهو على فـراش الموت، فكر فى

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٦٤، ٢٦٥) .
(٢) أبو بكر الصديق، على الطنطاوى، ص (٢٣٧).
(٣) دراسات فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٢٣٧).
(٤) النظرية السياسية الإسلامية، ضياء الريس، ص (١٨١).

الأمر مليًا وقرر أن يسلك مسلكًا آخر يتناسب مع المقام، فرسول الله ﷺ ترك الناس وكلهم مقر بأفضلية أبى بكر وأسبقيته عليهم، فاحتمال الخلاف كان نادرًا، وخصوصًا أن النبى ﷺ وجه الأمة قولاً وفعلاً إلى أن أبا بكر أولى بالأمر من بعده، والصديق لما رشح عمر كان يعلم أن عند الصحابة أجمعين قناعة بأن عمر أقوى وأقدر وأفضل من يحمل المسئولية بعده، فاستخلفه بعد مشاورة كبار الصحابة، ولم يخالف رأيه أحد منهم وحصل الإجماع على بيعة عمر(١)، وأما طريقة انتخاب الخليفة الجديد فتعتمد على جعل الشورى فى عدد محصور، فقد حصر ستة من صحابة رسول الله، كلهم بدريون، وكلهم توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، وكلهم يصلحون لتولى الأمر -ولو أنهم يتفاوتون- وحدد لهم طريقة الانتخاب ومدته وعدد الأصوات، وأمر مجموعة من جنود الله لمراقبة سير الانتخابات فى المجلس ومنع الفوضى، بحيث لا يسمحون لأحد يدخل أو يسمع ما يدور فى مجلس أهل الحل والعقد(٢). وبهذا يكون أمير المؤمنون أرسى نظامًا صالحًا للشورى لم يسبقه إليه أحد، ولا يشك أن أصل الشورى مقرر فى القرآن والسنة القولية والفعلية، وقد عمل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر، ولم يكن عمر مبتدعًا بالنسبة للأصل، ولكن الذى عمله عمر هو تعيين الطريقة التى يختار بها الخليفة وحصر عدد معين جعلها فيهم، وهذا لم يفعله الرسول ﷺ ولا الصديق ـ رضى الله عنه ـ بل أول من فعل ذلك عمر ونعم ما فعل، فقد كانت أفضل الطرق المناسبة لحال الصحابة فى ذلك الوقت(٣).

وبهذا جعل أمير المؤمنين هيئة سياسية عليا، وهم أهل الشورى، وأناط بهم وحدهم اختيار الخليفة من بينهم، ومن المهم أن نشير إلى أن أحدًا من أهل الشورى لم يعارض هذا القرار الذى اتخذه عمر، كما أن أحدًا من الصحابة الآخرين لم يثر أى اعتراض عليه، ذلك ما تدل عليه النصوص التى بين أيدينا، فحن لا نعلم أن اقتراحًا آخر صدر عن أحد من الناس فى ذلك، أو أن معارضة ثارت حول أمر عمر خلال السّاعات الأخيرة من حياته، أو بعد وفاته وإنما رضى الناس كافة هذا التدبير، ورأوا فيه مصلحة لجماعة المسلمين، وفى وسعنا أن نقول: إنَّ عمر قد

---

(١)، (٢) أوليات الفاروق، ص (١٢٢). (٣) المصدر نفسه، ص (١٢٧).

أحدث هيئة سياسية عليا مهمتَّها انتخاب رئيس الدولة أو الخليفة، وهذا التنظيم الدستورى الجديد، الذى أبدعته عبقرية عمر، لا يتعارض مع المبادىء الأساسية التى أقرها الإسلام، ولاسيما فيما يتعلق بالشورى، لأن العبرة من حيث النتيجة العامة التى تجرى فى المسجد الجامع. وعلى هذا لا يتوجّه السؤال الذى قد يرد على بعض الأذهان، وهو: من أعطى عمر هذا الحق؟ ما مستند عمر فى التدبير؟ ويكفى أن نعلم أن جماعة من المسلمين قد أقرت هذا التدبير، ورضيت به ولم يُسمع صوت اعتراض عليه حتى نتأكَّد أنَّ الإجماع ـ وهو مصدر من مصادر التشريع ـ قد انعقد على صحته ونفاذه[1]، ولا ننسى أن عمر خليفة راشد، كما ينبغى أن نؤكِّد أن أهل الشورى أعلى هيئة سياسية قد أقرّها نظام الحكم فى الإسلام فى العهد الراشدى، كما أنَّ الهيئة التى سمّاها عمر، تمتَّعت بمزايا لم يتمتع بها غيرها من جماعة المسلمين، وهذه المزايا منحت لها من الله وبلغها الرسول، فلا يمكن عند المؤمنين أن يبلغ أحد من المسلمين مبلغ هؤلاء العشرة من التقوى، والأمانة[2].

ومن الأمور المهمة حرص الفاروق على إبعاد الإمارة عن أقاربه، مع أن فيهم من هو أهل لها، فهو يبعد قريبه سعيد بن زيد عن قائمة المرشحين للخلافة[3]، وقد أوصى بأن يحضر عبد الله بن عمر مع أهل الشورى وألا يكون له من الأمر شىء، ولكن قال لهم: فإن رضى ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فحكِّموا عبد الله بن عمر، فأى الفريقين حكم له، فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر، فيكون مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فوصف عبد الرحمن بن عوف بأنه مسدد رشيد، له من الله حافظ فاسمعوا له[4]. وقد أشرف على العملية الانتخابية عبد الرحمن بن عوف وشاور الناس فى أمر على وعثمان رضى الله عنهما، وكان يشاور كل من يلقاه فى المدينة من كبار الصحابة، وأشرافهم، ومن أمراء الأجناد، ومن يأتى للمدينة، وشملت مشاوراته النساء فى خدورهنَّ، وقد أبدين رأيهنّ، كما شملت الصبيان، والعبيد فى المدينة، وكانت نتيجة مشاورات عبد الرحمن بن عوف أن معظم المسلمين كانوا يشيرون بعثمان بن

---

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/ ٢٢٧، ٢٢٨).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٢٩).
(٣) الخلفاء الرّاشدون للخالدى، ص (٩٨).
(٤) تاريخ الطبرى (٥/ ٣٢٥).

عفـان، ومنهم من كان يشيـر بعلى بن أبى طالب -رضى الله عنهمـا-. . ثم بعد ذلك أعلن عبد الرحمن بعد صلاة الصبح من اليوم الأخير من شهر ذى الحجة ٢٣ هـ النتيجـة التى وصل إليها، فبعد أن تـشهَّد عبد الرحمن قـال: أما بعد، يا على إنى قد نظرت فـى أمر الناس فلم أرهم يعدلـون بعثمـان، فلا تجعل عـلى نفسك سبيـلاً ثم بايع عثمان على سنة الله ورسولـه والخليفتين من بعده. فـبايعه الناس: المهاجـرون ، والأنصار، وأمراء الأجـناد والمسلمون[١]، وجاء فى روايـة صاحب التمهيد والبيان: أن على بن أبى طالب أوّل من بايع عبد الرحمن بن عوف[٢]، وقد اعتبر الذهبى ما قام به عبد الرحـمن بن عوف من أفضل أعماله، حيث قال: ومن أفضل أعمال عبد الرحمن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشـار به أهل الحلِّ والعـقد، فنهض فـى ذلك أتمَّ نهوض على جـمع الأمَّـة على عثمان، ولو كان محابيًا فيهـا، لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمّه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبى وقاص[٣]، وبهذا تحققت صورة أخرى من صور الشورى فى أحد الخلفاء الراشدين، وهى الاسـتخلاف عن طريق مجلس الشورى، ليـعينوا أحدهم بعد أخذ المشورة العامّة، ثم البيعة العامّة[٤].

٤ ـ طريقة انعقاد بيعة على بن أبى طالب رضى الله عنه:

تمت بيعة على رضى الله عنه بالخلافة بطريقة الاخـتيار، وذلك بعد أن استشهد الخليفة الراشد عثمان بن عـفان رضى الله عنه على أيدى الخارجين المارقين الشذاذ الذين جاءوا من الآفاق ومن أمصار مختلفة وقبائل متباينة، لا سابقة لهم، ولا أثر خير فـى الدين، فبعد أن قـتلوه رضى الله عنه ظلمًا وزورًا وعدوانًا، يوم الجـمعة لثمانى عـشرة ليلة مضت من ذى الحجـة سنة خمس وثلاثين[٥]، قام كل من بقى بالمدينة من أصحاب رسول الله بمبايعة على رضى الله عنه بالخلافة، وذلك لأنه لم يكن أحد أفـضل منه على الإطلاق فى ذلك الوقت، فلم يدع الإمامة لنفـسه أحد بعد عـثمـان، ولم يكن أبو السـبطين رضى الله عنه حريصًـا عليهـا، ولذلك لم

---

(١) البخارى، ك الأحكام رقم (٧٢٠٧).
(٢) التمهيد والبيان، ص (٢٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٨٦).
(٤) دراسة فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص (٢٧٨).
(٥) الطبقات لابن سعد (٣/ ٣١).

يقبلها، إلا بعد إلحاح شديد ممن بقى من الصحابة بالمدينة، وخوفًا من ازدياد الفتن وانتشارها، ومع ذلك لم يسلم من نقد بعض الجهال إثر تلك الفتن كموقعة الجمل وصفين التى أوقد نارها وأنشبها الحاقدون على الإسلام كابن سبأ وأتباعه الذين استخفهم فأطاعوه لفسقهم ولزيغ قلوبهم عن الحق والهدى، وقد روى الكيفية التى تم بها اختيار على رضى الله عنه للخلافة بعض أهل العلم[1]، فقد روى أبو بكر الخلال بإسناده إلى محمد بن الحنفية قال: كنت مع على رحمه الله وعثمان محصور قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة، قال: فقام على رحمه الله، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفًا عليه فقال: خل لا أم لك، قال: فأتى على الدار وقد قتل الرجل رحمه الله، فأتى داره فدخلها وأغلق بابه، فأتاه الناس فضربوا عليه الباب فدخلوا عليه، فقالوا: إن هذا قد قتل، ولا بد للناس من خليفة، ولا نعلم أحدًا أحق بها منك، فقال لهم على: لا تريدونى فإنى لكم وزير خير منى لكم أمير، فقالوا: لا والله لا نعلم أحدًا أحق بها منك، قال: فإن أبيتم علىَّ فإن بيعتى لا تكون سرًا، ولكن أخرج إلى المسجد، فبايعه الناس[2].

٥ ـ طريقة انعقاد بيعة الحسن بن على رضى الله عنه:

كانت بيعة الحسن بن على رضى الله عنه فى شهر رمضان من سنة ٤٠هـ، وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، وقد اختار الناس الحسن بعد والده، ولم يعين أمير المؤمنين أحدًا من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت عليًا يقول: لتخضبن هذه من هذا[3]، فما ينتظر بى الأشقى[4] قالوا: يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير عترته[5]، قال: إذن تالله تقتلون بى غير قاتلى. قالوا: فاستخلف علينا، قال: لا، ولكن أترككم إلى ماترككم إليه رسول الله ﷺ، قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته؟ قال: أقول: اللهم تركتنى فيهم ما بدا لك، ثم قبضتنى إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم وفى رواية: أقول اللهمّ استخلفتنى فيهم ما بدا لك، ثم قبضتنى وتركتك فيهم.

(١) عقيدة أهل السنة فى الصحابة الكرام (٢/٦٧٧) . (٢) كتاب السنة لأبى بكر الخلاّل، ص (٤١٥).

(٣) أى لتخضبن لحيته من دم رأسه .

(٤) مجمع الزوائد (٩/١٢٩)، مسند أحمد (٢/٣٢٥) حسن لغيره.

(٥) نبير عِترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب (٤/٥، ٥٣٨).

وبعـد مقـتل على صلى عليه الحـسن بن على وكـبر عليـه أربع تكبيـرات، ودفن بالكوفة، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله عـز وجل وسنة نبيه، وقتال المُحلين، فـقال له الحسن رضى الله عنه: على كـتاب الله وسنة نبـيه، فإن ذلك يأتى من وراء كل شـرط، فبـايعه وسكت وبايعه الناس[١]. وقد اشترط الحسن بن علىّ على أهل العراق عندما أرادوا بيـعتـه فقال لـهم: إنكم سامـعون مطيـعون، تسـالمون من سالمت، وتحـاربون من حاربت[٢]، وفى رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم، قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سـالمت وتحاربون من حاربت[٣]، وفى رواية ابن سعد: إن الحسن بن على بن أبى طالب بايع أهل العراق بعد علىّ على بـيعتين، بايعهم على الإمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه ويرضوا بما رضى به[٤].

٦ ـ طريقة انعقاد بيعة معاوية رضى الله عنه:

تمت بيعة معاوية بتنازل الحـسن بن على رضى الله عنه عن الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع أميرًا للمؤمنين عام واحد وأربعين للهجرة، وسمى هذا العام بعام الجماعة[٥]، وقد بايع معاوية رضى الله عنه كل الصحابة الأحياء، وأجمعت الأمة عليـه، وعدوا خلافـته شرعيـة ورضوا إمامـته، ورأوا أنه خيـر من يلى أمر المسلمين ويقوم به خير قيام.

٧ ـ المآخذ على فكرة ولاية العهد فى عهد معاوية:

صحـيح أن النظام الإسلامى للحكم لم ينص على طريقـة معينة لاختـيار ولى الأمر، ولكنه وضـع الأساس التى لا تجوز الحـيدة عنه، إلا فى حـالات الضرورة والاضطرار، وهو الشورى، وليـس للشورى أسلوب خاص، وطريقـة واحدة، لا تتحقق إلا بها، ولكن تتحقق بأساليب شتى كـما مرّ معنا فى اختيار الأمة للخلفاء الراشدين، ولئن قصد معـاوية رضى الله عنه بإحداث ولاية العهد فى نظام الحكم الإسلامى جمع كلمة المسلمين، وحقن دمـائهم، فهو -إن شاء الله تعالى- مأجور

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٧٣) .
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٧٧) .
(٣) الطبقات، تحقيق د. محمد السلمى (١/ ٢٨٦، ٢٨٧) .
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣١٦، ٣١٧) .
(٥) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٣٧)، تاريخ خليفة، ص (٢٠٣).

على أنه كان قادرًا على أن يجعل العهد بعده لغير ولده من كبار الصحابة الموجودين فى تلك الفترة، وكان فيهم كفاءات لو أسند إليهم الأمر، فقد كان الحسين بن على، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر، وعبد الله بن عمر وغيرهم موجودين فى هذا الوقت، ولكن معاوية رضى الله عنه عدل عن هؤلاء وقصد لولده ليكون خليفة بعده، وبذلك حصل التغير الحقيقى فى نظام الحكم الإسلامى، فليس التغيير فى إيجاد نظام ولاية العهد... ولكن التغيير فى أن يكون ولى العهد ولد الخليفة أو أحد أقاربه، حتى أصبحت الحكومة ملكية بعد أن كانت خلافة راشدة[1]، وإذا كنا مأمورين باتباع سنة الرسول وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده، فإن التزام نظام الوراثة ليس من سنة النبى ولا من سنة خلفائه الراشدين، كما أن ترشيح يزيد لم يكن موفقًا لأسباب، منها: أن المجتمع الإسلامى يومئذ كان فيه من أحق وأولى بالخلافة من يزيد فى سابقته وعلمه وعمله ومكانه وصحبته؛ كعبد الله بن عمر وابن عباس وغيرهما، فأين الثرى من الثريا؟[2] ومنها: مبدأ توريث الحكم من الأب لابنه.

وعلى كل تقدير فهذا لا يقدح فيما عليه أهل السنة، فإنهم لا ينزهون معاوية ولا من هو أفضل منه من الذنوب، فضلاً عن تنزيههم عن الخطأ فى الاجتهاد، بل يقولون إن للذنوب أسباب تدفع عقوبتها، من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، وغير ذلك، وهذا أمر يعم الصحابة وغيرهم[3]، ومعاوية رضى الله عنه من خيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم وما هو ببرىء من الهنات والله يعفو عنه[4]، والذى يجب أن نعتقده فى معاوية أن قلوبنا لا تنضوى على غل لأحد من أصحاب محمد ﷺ، بل نقول: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠] ونقول إن معاوية اجتهد للأمة خوفًا عليها من الانقسام والفتن، ولا يمكن أن يحمل تبعات كل أخطاء الملوك والأمراء الذين جاءوا من بعده، كما قرره عبد القادر عودة ـ رحمه الله ـ: حيث يقول: وأقام

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب، للوكيل (١/ ١٨٠). (٢) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوى، ص(٢٥٠).
(٣) منهاج السنة (٤/ ٣٨٥). (٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٥٦).

معاوية أمر الأمة الإسلامية على المحجات والظلم وإهدار الحقوق، وقضى على الشورى وعطل قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وحوّل الحكم العادل النظيف إلى حكم قذر قائم على الأهواء والشهوات، ووجه الناس إلى النفاق والذلة والصغار، ولا شك فى أن كل من جاءوا بعده إلى عصرنا هذا قد عمل بسنته وتثبتوا ببدعته -حاشا عمر بن عبد العزيز- فعلى معاوية -وقد استن هذه السنة السيئة- إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة[١]. وإذا كان معاوية أو الخلفاء الأمويون قد حوّل الخلافة من الشورى إلى الملك، فإن حفيده معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان، ثالث خلفاء الأمويين قد أعاد الخلافة من الملك العضوض إلى الشورى الكاملة. . وإنه لما يستوجبه الإنصاف أن تصاغ القضية على هذا النحو بدلاً من التركيز على الشق الأول الخاص بتوريث الخلافة فقط ولم تستطع الأمة التى أعطيت حقها فى اختيار خليفتها أن تعود إلى شكل من أشكال الاختيار السابق فى عصر الراشدين، وبرز بوضوح دور العصبية الإقليمية والقبلية، وحُسم فى النهاية الصراع الدائر حول منصب الخلافة لمصلحة البيت الأموى، واستطاعت الشام أن تحقق الحسم التاريخى بعمق الالتحام بين بنائها القبلى والوجود الأموى بها[٢]، وسيأتى -بإذن الله- التفصيل عند حديثنا عن معاوية الثانى. والحقيقة أن بيعة يزيد قد قبلها الكثير حتى الصحابة رضوان الله عليهم فقد بايعه ستون من أصحاب محمد ﷺ فيهم ابن عمر[٣] خوفًا من الفتنة وحرصًا على وحدة الصف، فقد توفى عبد الرحمن بن أبى بكر بعيد خروج معاوية من المدينة ولم يبق من المعارضين إلا ثلاثة هم ابن عمر وابن الزبير والحسين بن على، أما ابن عمر فلما رأى الناس مجتمعة على يزيد بايعه، وأرسل بيعته بعد وفاة معاوية رضى الله عنه وقال: إن كان خيرًا رضينا به وإن كان بلاءً صبرنا[٤]، وانحصرت المعارضة فى شخص ابن الزبير والحسين بن على رضى الله عنهما، وقد حاول بعض الناس أن يلفقوا على معاوية رضى الله عنه تحسره من بيعة يزيد فنقلوا عنه أنه قال: لولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى[٥]. والسند من طريق الواقدى وهو

(١) الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص (١٥٩). (٢) الدولة الأموية المفترى عليها، ص (٢٩٣- ٢٩٥).

(٣) القيد الشريد ورقة ١٧، نقلاً عن مواقف المعارضة، ص (١٥٣).

(٤) مصنف ابن أبى شيبة (١١/ ١٠٠) بسند صحيح. (٥) أنساب الأشراف (٤/ ٢٨).

متروك[1]، ونسبوا إليه أيضًا أنه قال ليزيد: ما ألقى الله بشىء أعظم فى نفسى من استخلافك[2]. والسند من طريق الهيثم بن عدى وهو كذاب[3]، ولقد اعتمد محمد رشيد رضا -رحمه الله- على هذه الرواية وتحامل على معاوية تحاملاً قاسيًا[4]، ولقد تورط الكثير من الباحثين فى الروايات الضعيفة والموضوعة فيما يتعلق بتاريخ صدر الإسلام، وبنوا عليها تصورات وأفكارًا وأحكامًا تحتاج إلى إعادة نظر من جديد.

ومع ما وقع من انحراف فى تغيير النموذج الأعلى لنظام الحكم الإسلامى، الذى تتمثل فيه روح الإسلام كاملة -وهو الخلافة- واستبدال الملك العضوض به[5]، إلا أن الطابع الإسلامى هو الصفة الغالبة على مظهر الدولة، وتصرفات الحكام، فالصلاة تؤدى فى أوقاتها، والزكاة تحصَّل من أربابها والصوم فريضة لا يُعارض فى أدائها، وإقامة الحدود دون هوادة لم يقف شىء دون تنفيذها، والجهاد فى سبيل الله فريضة ماضية بين رجالها، وبالجملة كانت تعاليم الإسلام مطبقة بحذافيرها[6].

سابعًا: الأيام الأخيرة فى حياة معاوية:

١ ـ وصية معاوية رضى الله عنه ليزيد:

لما حضر معاوية الموت وذلك سنة ٦٠هـ وكان يزيد غائبًا، دعا بالضحاك بن قيس الفهرى ـ وكان صاحب شرطته ـ ومسلم بن عقبة المرى، فأوصى إليهما فقال: بلغا يزيد وصيتى: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب، وانظر أهل العراق، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلى من أن يشهر عليك مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شىء من عدوك فانتصر بهم، فإن أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم، فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم

(١) مواقف المعارضة فى خلافة يزيد، ص (١٥٢). (٢) أنساب الأشراف (٤/ ٦٠).
(٣) مواقف المعارضة، ص (١٥٢).
(٤) مواقف الصحابة فى خلافة يزيد، ص (١٥٢)، الخلافة، محمد رشيد، ص (٥٢).
(٥) كيف نكتب التاريخ الإسلامى؟، ص (١١٢). (٦) الأمويون بين المشرق والمغرب (١/ ٩٤، ٩٥).

أخذوا بغير أخلاقهم، وإنى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين بن على، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين، فليس ملتمسًا قِبَلَك، وأما الحسين بن على فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحمًا ماسّة، وحقًا عظيمًا، وقرابة محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير فإنه خَبٌّ ضَبٌّ، فإذا شخص لك فالبد له، إلا أن يلتمس منك صلحًا، فإن فعل فاقبل، واحقن دماء قومك ما استطعت[1]. تظهر فى هذه الوصية كفاية معاوية ودهاؤه السياسى من خلال تشخيصه لأهمية الأمصار ومدى تأثيرها المستقبلى على أوضاع الدولة الأموية، فذكر فى وصيته ثلاثة أقاليم فقط هى الحجاز والعراق والشام، ذلك أن الأوضاع السياسية خارج دائرة هذه الأقاليم، لم تكن تثير أى هموم جدية لدى معاوية[2].

أ ـ الحجاز: فبالنسبة للحجاز يوصى معاوية ابنه قائلاً: انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك، فأكرم من قدم عليك منهم وتعهد من غاب[3]، ويأتى اهتمام معاوية بالحجاز فضلاً عن كونه محل أهله وعشيرته فهو من الناحية السياسية كان -ولوقت قريب- مركز الثقل السياسى للدولة الإسلامية (مقر الخلافة)، ومن الناحية الدينية لم يزل يحتل مركز الصدارة لاحتضانه جل ما تبقى من صحابة الرسول ﷺ، وبإمكانه تقويض حكم بنى أمية فيما لو اجتمعت كلمته وأتيحت الفرصة له، وهو بعد ذلك لايزال المكان الحقيقى للبيعة[4]، والأهم من ذلك كله فإنه يضم عددًا من الشخصيات المعارضة للحكم الأموى، أمثال الحسين بن على رضى الله عنه، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وابن عباس رضى الله عنهم جميعًا، كما سنرى ذلك فى الفقرات اللاحقة من الوصية، ولذلك نرى معاوية يحث يزيد على استخدام مختلف الوسائل لاستقطاب الحجاز بما فى ذلك إغداق الأموال[5]، ولهذه الأسباب أيضًا وضع معاوية السلطة فى هذا الإقليم تحت مراقبته المباشرة، حيث

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).
(٢) الوصية السياسية فى العصر العباسى، حقى إسماعيل، ص (٤٦).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).
(٤) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص (٤٦).
(٥) المصدر نفسه، ص (٤٦).

قام بتنفيذ سياسته فى البيت الأموى، وقام بتشجيع مختلف النشاطات غير السياسية المناهضة له فيه[1]، واهتم بأهله اهتمامًا خاصًا.

ب ـ العراق: أما الإقليم الثانى الذى يثير اهتمام معاوية فهو العراق، لذا يوصى ولى عهده أن يعامل أهل العراق معاملة خاصة، فيقول: انظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلىّ من أن يشهر عليك مائة ألف سيف[2]. ومن الجدير بالذكر أن شكاية أهل العراق من ولاتهم كانت منذ عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

جـ ـ الشام: أما الإقليم الثالث فهو الشام، فإن وصية معاوية به تأتى من باب رد الجميل لأهل الشام لدورهم الكبير فى مساندته بالوصول إلى الحكم وتأييدهم المستمر لسياسته، لذا يوصى ابنه أن يجعلهم محل ثقته وعنايته وأن يدخرهم للمهمات الجسام فى قوله: وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك، فإن نابك شىء من عدوك فانتصر بهم فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم؛ فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم[3].. وتظهر الفقرة الأخيرة من هذا النص بعد نظر معاوية السياسى، فهو يسدى مخاوفه من اختلاط أهل الشام[4]، ببقية سكان الأقاليم الأخرى فتتبدل أخلاقهم نتيجة مكوثهم مدة طويلة، ولربما استطاع المعارضون للحكم الأموى التأثير على جند الشام، على الرغم من التقاء مصالحهم مع مصالح البيت الأموى، فتسقط من يد الخلافة الأموية الورقة الرابحة التى طالما استخدمها معاوية وقطف ثمارها، ولهذا يوصى معاوية ابنه بأن يسرع فى إعادة جند الشام إلى بلادهم حال انتهاء مهمتهم[5]، ومن أهم ما فى وصية معاوية خطته التى رسمها لولى عهده فى مواجهة الأحداث المقبلة، وأوكل إليه تنفيذها بعد أن عجز هو عن إقناع نفر من قريش بالبيعة ليزيد، على الرغم من أن الروايات تذكر أن معاوية ذهب إلى الحجاز لهذا الغرض، والتقى بالشخصيات التى رفضت البيعة ليزيد، كلٍ على انفراد، فى محاولة للحصول منهم على وعود بالبيعة[6]، إلا أن

(١) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص (٤٦). (٢) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤١).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٤١). (٤) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص (٤).
(٥) المصدر نفسه، ص (٤٨). (٦) المصدر نفسه، ص (٤٨).

هذه الجهود لم تثمر فى تذليل المصاعب قبل ظهورها[1]، والوصية تظهر أن الحجاز، وتحديدًا المدينة، هى أكثر البلدان معارضة لحكم بنى أمية، ولهذا يوصى معاوية ابنه أن يكون حذرًا ودقيقًا فى تعامله معها، وأن يكون حازمًا شديدا حين يتطلب الأمر ذلك، ومرنًا لينًا مع من لا يشكلون خطرًا حقيقيًا عليه، لما للحجاز من أهمية بالغة فى تقرير وتثبيت الحكم[2].

وكان معاوية رضى الله عنه مصيبًا فى رأيه بعبد الله بن عمر من أنه رجل قد وقذه الدين، ولا خطر على يزيد منه، وذلك أن الوليد بن عتبة حين طلبه للبيعة قال: إذا بايعَتْ الناس بايعتُ، فتركوه لثقتهم بزهادته فى الأمر وشغله بالعبادة[3]، وكان مصيبًا فى حدسه من أهل العراق لن يتركوا الحسين بن على رضى الله عنه حتى يخرجوه، ويبدو أنه كان متأكدًا من وقوع الاصطدام بينهما، لذلك طلب من يزيد أن يعفو عنه إذا تمكن منه، أما الخطر الحقيقى والذى يتطلب الحزم والشدة فإنه يأتى من عبد الله بن الزبير الذى كان يتمتع -على ما يبدو- بتأييد واسع النطاق بين معظم المعارضين للحكم الأموى، ولأنه كان رجل سياسة وحرب من الطراز الأول، وعلى الجملة فإن وصية معاوية تعكس سياسته ودهاءه فى تصريف الأمور، فنراه من خلال الوصية يتعامل مع الأحداث التى تتطلب الشدة حزمًا، وفيما عدا ذلك فهو يستخدم خبرته وتجربته السياسية الطويلة فى مواجهة الأحداث، وقد وصف معاوية نفسه مشيرًا إلى هذه السياسة بقوله: إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت أبدًا. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها[4]، وكان على الدوام يوصى يزيد بهذه السياسة فيقول له: عليك بالحلم، والاحتمال، حتى تمكنك الفرصة فإذا أمكنتك فعليك بالصفح، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور[5]. وفى هذه الوصية يلخص معاوية رضى الله عنه منهجه وخبرته فى السياسة والإدارة لابنه يزيد فى كلمات قليلة جامعة، تنم عما يتمتع به هذا الصحابى الكريم من حنكة سياسية وبراعة إدارية[6].

---

(١) الوصية السياسية فى العصر العباسى، ص(٤٨). (٢) المصدر نفسه، ص (٤٩).

(٣) أنساب الأشراف (٤/ ١٤). (٤) نهاية الأرب (٦/ ٤٤)، العقد الفريد (١/ ٢٥).

(٥) نهاية الأرب (١/ ٢٥٦). (٦) مرويات خلافة معاوية فى تاريخ الطبرى، ص(٩٥).

٢ ـ آخر خطبة لمعاوية رضى الله عنه واشتداد مرضه ووفاته:

كانت آخر خطبة خطبها معاوية رضى الله عنه قوله: أيُّها الناس، إن من زرع قد استحصد، وإنى قد وليتكم ولن يليكم أحد بعدى إلا من هو شر منى، كما كان من وليكم قبلى خيرًا منى، ويا يزيد، إذا وفى أجلى فولِّ غسلى رجلاً لبيبًا، فإن اللبيب من الله بمكان، فلينعم الغسل وليجهر بالتكبير، ثم اعمد إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب رسول الله ﷺ، وقُراضة من شعره وأظفاره، فاستودع القراضة أنفى وفمى وأُذُنىَّ وعيْنىَّ، واجعل الثوب يلى جلدى دون أكفانى، ويا يزيد، احفظ وصية الله فى الوالدين، فإذا أدرجتمونى فى جريدتى، ووضعتمونى فى حفرتى، فخلوا معاوية وأرحم الراحمين[١].

ولما احتضر معاوية جعل يقول:

لعمرى لقد عُمِّرتُ فى الدهر بُرهة ... ودانت لى الدنيا بوقع البواتر

وأعطيت حُمْرَ المال والحكم والنّهى ... وسلْمَ قماقيم[٢] الملوك الجبابر

فأضحى الذى قد كان مما يَسُرُّنى ... كحلم مضى فى المزمنات الغوابر

فيا ليتنى لم أُعن فى الملك ساعة ... ولم أُعْنَ فى لذات عيشٍ نواضر

وكنت كذى طمرين عاش ببُلْغةٍ ... من العيش حتى زار ضيق المقابر[٣]

وقد أوصى معاوية بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال كأنه أراد أن يُطيِّب له، لأن عمر بن الخطاب قاسم عمّاله[٤]. وذكروا أنه فى آخر عمره اشتد به البَرْدُ، فكان إذا لبس أو تغطَّى بشىء ثقيل يَغُمُّه، فاتُّخذ له ثوب من حواصل الطير[٥]، ثم ثقل عليه بعد ذلك، فقال: تبّاً لك من دار ملكتك أربعين سنة؛ عشرين أميرًا، وعشرين خليفة، ثم هذا حالى فيك، ومصيرى منك، تبّاً للدنيا ومُحبِّيها[٦]، ولما اشتد المرض وتحدث الناس أنه الموت، قال لأهله: احشوا عيْنىّ إثمدًا، وأوسعوا

(١) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٤).

(٢) القماقم والقُماقِم من الرجال: السيد الكثير الخير، الواسع الفضل، ويجمع قياسًا على قماقيم.

(٣)، (٤) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٥).

(٥) الحواصل: جمع حوصلة، وحوصلة الطائر بمنزلة المعدة للإنسان. (٦) البداية والنهاية (١١/ ٤٥٥).

رأسى دُهنًا. ففعلوا وبرّقوا[1] وجهه بالدهن، ثم مُهِّد له فجلس. وقال: أسندونى. ثم قال: ائذنوا للناس فليُسلموا علىَّ قيامًا ولا يحبس أحد. فجعل الرجل يدخل فيُسلم قائمًا فيراه متكحِّلاً مُتدهِّنًا، فيقول متقوِّل الناس: هو لما به[2]، وهو أصح الناس، فلما خرَجوا من عنده[3] تمثل معاوية بقول أبى ذؤيب الهذلى الشاعر:

وتجلدى للشامتين أريهم | أنى لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها | ألفيت كلَّ تميمة لا تنفع

وكان به النقابة[4]، فمات من يومه ذلك[5]، وكان يقول لما نزل به الموت: يا ليتنى كنت رجلاً من قريش بذى طوى ولم أَلِ من هذا الأمر شيئًا[6]، ومن الشعر الذى تمثل به أيضًا قول الشاعر:

إن تناقش يكن نقاشك يا ربِّ | عذابًا لا طوق لى بالعذاب
أو تجاوز تجاوز العفو فاصفح | عن مسىءٍ ذنوبه كالتُّراب[7]

وقال رضى الله عنه وهو يُقَلب فى مرضه، وقد صار كأنه سعفة محترقة: أى شيخ تقلِّبون إن نجاه الله من النار غدًا؟[8]، وقال الحسن البصرى: دُخل على معاوية وهو بالموت، فبكى، فقيل: ما يبكيك؟

قال: ما أبكى على الموت أن حل بى، ولا على دنيا أخلفها، ولكن هما قبضتان: قبضة فى الجنة، وقبضة فى النار، فلا أدرى فى أى القبضتين أنا[9].

وأغمى على معاوية رضى الله عنه فى سكرات الموت ثم أفاق فقال لأهله: اتّقوا الله، فإن الله يَقى من اتَّقاه ولا يَقى من لا يَتَّقى[10]، وجعل معاوية رضى الله عنه لما احتضر يضع خده على الأرض ثم يُقلِّب وجهه ويضع الخد الآخر ويبكى ويقول: اللهم إنك قلت فى كتابك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] اللهم اجعلنى ممَّن تشاء أن تغفر له[11]، ومن دعائه فى ذلك اليوم:

---

(١) برَّقوا: لمَّعوا.
(٢) لما به: اقترب أجله.
(٣) البداية والنهاية (١١/٤٥٦).
(٤) النقابة: قرحة تخرج فى الجنب وتهجم الجوف.
(٥)، (٦)، (٧) البداية والنهاية (١١/٤٥٦).
(٨) المصدر نفسه (١١/٤٥٧).
(٩) كتاب المحتضرين، ص (١٩٩)، سكب العبرات (١/١٩٠).
(١٠) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٥).
(١١) البداية والنهاية (١١/٤٥٧).

اللهم أَقِلْ العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يَرْجُ غيرك، فإنك واسع المغفرة، ليس لذى خطيئة من خطيئته مهرب إلا إليك ثم مات[١]. وجاء فى رواية: اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحبب لقائى[٢]. رحم الله معاوية رضى الله عنه.

٣ ـ سنة وفاة معاوية، ومن صلى عليه:

قال الطبرى: فى هذه السنة هلك معاوية بن أبى سفيان بدمشق، فاختلف فى وقت وفاته بعد إجماع جميعهم على أن هلاكه كان فى سنة ستين من الهجرة وفى شهر رجب[٣]، وقال ابن حجر: مات معاوية فى رجب سنة ستين على الصحيح[٤]، وصلى على معاوية الضحاك ابن قيس الفهرى، وكان يزيد غائبًا حين مات معاوية[٥]، فقد خرج الضحاك حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه تلوح، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن معاوية كان عود العرب[٦]، وحدّ العرب[٧]، قطع الله عز وجل به الفتنة وملَّكهُ على العباد، وفتح به البلاد. ألا إنه قد مات، فهذه أكفانه فنحن مدرجوه فيها، ومدخلوه قبره، ومُخَلُّون بينه وبين عمله، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضر عند الأولى[٨]. وبعث البريد إلى يزيد بوجع معاوية، وقد اختلف المؤرخون هل حضر يزيد وفاة أبيه أم لا؟ والصحيح أن يزيد لم يدرك والده حيًا وإنما جاء بعد موته[٩]. ولما وصل يزيد الخبر قال:

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا: لك الويل ماذا فى كتابكم؟ ... قالوا: الخليفة أمسى مثبتًا وجعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لا تزال نفسه توفى على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة[١٠] رِيعَ القلب فانصدعا[١١]

---

(١) البداية والنهاية (١١/٤٥٧). (٢) تاريخ ابن خلدون (٣/٢١).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/٢٤١). (٤) الإصابة (٦/١٥٥).
(٥) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٥). (٦) العود: الرجل المسن، لسان العرب (٣/٣٢١).
(٧) حد كل شيء: منتهاه. (٨) أى عند صلاة الظهر كما ورد فى بقية المصادر.
(٩) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٦). (١٠) رملة بنت معاوية بن أبى سفيان، زوجة عمرو بن عثمان بن عفان.
(١١) تاريخ الطبرى (٦/٢٤٦).

٤ ـ عمر معاوية رضى الله عنه عند وفاته:

على القول الراجح: توفى معاوية وهو ابن ثمان وسبعين سنة[(١)]، بدليل قول ابن حجر: إن مولده كان قبل البعثة بخمس سنوات على الأشهر[(٢)]، وكما هو معروف فإن بعثة الرسول ﷺ قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة، وبذلك يكون مولد معاوية قبل الهجرة بثماني عشرة سنة، ولما كانت وفاته سنة ستين، فهذا يعنى أن عمره عند وفاته كان ثماني وسبعين سنة[(٣)].

٥ ـ مدة خلافته:

تنازل الحسن بن على لمعاوية بالنخيلة وتمت بيعته فى شهر ربيع الأول من عام ٤١هـ، ومات بدمشق سنة ٦٠هـ يوم الخميس لثمان بقين من رجب، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يومًا[(٤)].

٦ ـ ما قيل فيه من رثاء:

قال أبو الورد العنبرى يرثى معاوية رضى الله عنه:

ألا أنعى معاوية بن حرب ... نعاه الحل للشهر الحرام
نعاه الناعجات[(٥)] بكل فجٍّ ... خواضع فى الأزمَّةِ كالسِّهام
فهاتيك النجوم وهنَّ خُرْسٌ ... ينخن على معاوية الشآم

وقال أيمن بن خزيم يرثيه أيضًا:

رمى الحدثان نسوة آل حرب ... بمقدار سمدن له سُمودا
فرَدَّ شعورهنَّ السُّود بيضًا ... ورد وجوههن البيض سُودا
فإنك لو شهدت بكاء هند ... ورملة إذ يُصَفِّقْن الخُدودا
بكيت بكاء مُعْولةٍ قريح[(٦)] ... أصاب الدهر واحدها الفريدا[(٧)]

---

(١) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٣).
(٢) الإصابة (٦/ ١٥١).
(٣) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٣).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ٢٤٣).
(٥) الناعجات: جمع ناعجة وهى المرأة الحسنة اللون. (٦) المعولة: الرافعة صوتها بالبكاء، القريح: الجريح.
(٧) البداية والنهاية (١١/ ٤٦٢).

٧ ـ ما قاله ابن عباس فى موت معاوية رضى الله عنهم :

قال عامر بن مسعود الجهنى: مرّ بنا نعيُ معاوية ونحن فى المسجد، فأتينا ابن عباس، فوجدناه جالسًا وقد وضع خوانه[١]، وعنده نفر، ولم يوضع الطعام، فقلنا: يا ابن عباس، أما علمت بهذا الخبر؟ فقال: وما هو؟ قلنا: هلك معاوية. فقال: ارفع خوانك يا غلام، وسكت ساعة هاجما[٢]، ثم قال: جبل تزعزع ثم زال بجمعه فى البحر[٣]. قال القاضى أبو يعلى بعدما ذكر القصة: اللهم أنت أوسع لمعاوية كنفًا، وأحسن من تجاوز عنه وعنّا[٤].

٨ ـ نقش خاتمه:

كان نقش خاتمه: لكل عمل ثواب[٥]، وقيل: لا قوة إلا بالله[٦].

٩ ـ التبرك بآثار الرسول ﷺ:

عن عبد الأعلى بن ميمون، عن أبيه أن معاوية قال فى مرضه الذى مات فيه: إن رسول الله ﷺ كسانى قميصًا فرفعته، وقلّم أظفاره يومًا، فأخذت قلامته فجعلتها فى قارورة، فإذا مت فألبسونى ذلك القميص، وقطّعوا تلك القلامة واسحقوها وذُرُّوها فى عينى، وفى فىّ[٧]، فعسى الله أن يرحمنى ببركتها[٨].

ويعتبر تبرك الصحابة رضوان الله عليهم بآثار النبى ﷺ الحسية المنفصلة عنه، من أنواع التبرك المشروع حيث فعله الصحابة رضوان الله عليهم أثناء حياته ﷺ وبعد مماته[٩]، كما فعله السلف الصالح رحمهم الله تعالى ومن الأدلة على ذلك:

أ ـ عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: جاء رسول الله ﷺ يعودنى وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ، وصب علىَّ من وضوئه فعقلت[١٠].

ب ـ عن عثمان بن عبد الله بن وهب قال: أرسلنى أهلى إلى أم سلمة بقدح من ماء.. فيها شعر من شعر النبى ﷺ، وكان إذا أصاب الإنسان عين أو شىء بعث

(١) الخوان: ما يوضع عليه الطعام عند الأكل.
(٢) هاجماً: ساكنًا مطرقًا.
(٣) تنزيه خال المؤمنين معاوية بن أبى سفيان، ص(١١٣).
(٤) المصدر نفسه، ص (١١٣).
(٥) تاريخ القضاعى، ص (٣٢٦).
(٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٦).
(٧) فىّ: الفم .
(٨) تاريخ الطبرى (٦/ ٢٤٥).
(٩) مرويات معاوية فى تاريخ الطبرى، ص (٩٣).
(١٠) صحيح البخارى مع فتح البارى (١/ ٣٦٠).

إليها مخضبة[1]. قال ابن حجر: بعث إليها مخضبة ـ وهو من جملة الآنية ـ والمراد أنه كان من اشتكى أرسل إناء إلى أم سلمة فتجعل فيه تلك الشعرات وتغسلها فيه وتعيده فيشربه صاحب الإناء أو يغتسل بعده استشفاءً بها فتحصل له[2].

جـ ـ وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت فى جبة رسول الله ﷺ: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها، وكان النبى ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها[3].

وقد فرّع العلماء على مسألة التبرك بآثار الرسول ﷺ مسألة التبرك بفضلات الصالحين، وآثارهم ففى حديث عروة بن مسعود وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده... وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه[4]، وقد علق الشاطبى على هذا الحديث، وأحاديث أخرى تماثله، فقال: فالظاهر فى مثل هذا النَّوع أن يكون مشروعًا فى حق من ثبتت ولايته، واتِّباعه لسنة رسول الله ﷺ، وأن يتبرك بفضل وضوئه، ويُتدلَّك بنخامته، ويُستشفى بآثاره كلِّها، إلا أنَّه عارضنا فى ذلك أصل مقطوع به فى متنه مشكل فى تنزيله، وهو أن الصحابة رضى الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع أحد منهم فى شىء من ذلك بالنِّسبة إلى مَنْ خلَفه، إذ لم يترك النبى ﷺ بعد موته، أفضل من أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فهو خليفته، ولم يفعل به شىء من ذلك، ولا عمر رضى الله عنه وهو كان أفضل الأمة بعده، ثمّ كذلك عثمان بن عفان، ثمّ على، ثمّ سائر الصحابة الذين لا أحد أفضل منهم فى الأمَّة، ثمَّ لم يثبت لواحد منهم من طريق صحيح معروف أن متبرِّكًا تبرَّك به على أحد تلك الوجوه، أو نحوها، بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال، والأقوال، والسِّير التى اتَّبعوا فيها النبى ﷺ، فهو -إذًا- إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[5].

---

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى (١٠/ ٣٦٤).
(٢) فتح البارى (١٠/ ٣٦٥).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى(١٤/ ٤٣).
(٤) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠)، السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصلية، ص (٤٨٨).
(٥) غزوة الحديبية للحكمى، ص (٣٠٥).

الفهرس

الفصل الثانى

بيعة معاوية وأهم صفاته ونظام حكمه

الفصل الثالث

السياسة الداخلية لمعاوية رضى الله عنه

الفصل الرابع

الفتوحات فى عهد معاوية رضى الله عنه